تعليقات على

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
أجزل الله له المثوبة والمغفرة

التعليقات
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان بن جابر عثمان المحلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

تعليقات على

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

(١)

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الإمام الذهبي

شركة مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

❖ الرئيسي - حولي - شارع المثنى - مجمع البدري
ص. ب: ١٠٧٥. الرمز البريدي ٣٢٠١١
ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤
❖ فرع حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٢٦١٥٠٤٦
❖ فرع المباركية - مقابل مسجد ابن بحر - ت: ٢٢٤٩٠٦٠٤
❖ فرع الفحيحيل البرج الأخضر شارع الدبوس - ت: ٢٥٤٥٦٠٦٩
❖ فرع المصاحف - حولي - مجمع البدري: ت: ٢٢٦٢٩٠٧٨
❖ فرع الرياض - المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي ت: ٠٥٥٧٧٦٥١٣٨
الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩
E – mail: z.zahby74@yahoo.com

تعليقات على
كتاب الفرقان
بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
أجزل الله له المثوبة والمغفرة

التعليقات
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان بن جابر عثمان المجلاهم الشويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبعد فقد أذنت للشيخ الدكتور سلمان بن حامد المجلاد بطباعة كتابه التعليقات على كتاب الفرقان لشيخ الإسلام ابن تيمية رجاء الاستفادة والأجر وصلى الله وسلم على نبينا محمد

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

٢٦/٦/١٤٢٨هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه، وبعد؛ فهذه تعليقات على كتاب:

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لِشَيخِ الإسْلامِ تَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلامِ بْنِ تَيْمِيَّةَ

أَجْزَلَ اللهُ لَهُ المَثُوبَةَ وَالمَغْفِرَةَ

التعليقات لفَضِيلَةِ الشِّيخِ العلامة

صَالِحِ بْنِ فَوْزَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْفَوْزَانِ

غَفَرَ الله لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

وكان ذلك في دروس ألقاها فضيلته في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز بالرياض، ابتداءً من الحادي والعشرين من شهر صفر من عام ثمان وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة -على صاحبها أتم الصلاة وأزكى التسليم-، وخُتمت في يوم الحادي عشر من شهر ربيع الأول لعام ثلاثين وأربعمائة وألف.

نسأل الله ﷻ أن ينفع بها، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجزي الماتن والشارح خير الجزاء؛ إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

بسم الله المجيد، والحمد لله الحميد، والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا وأسوتنا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما عظيما، أما بعد:

فهذا كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، من أنفع ما كتب شيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية -رحمه الله رحمة واسعة- في مفهوم ولاية الله - تعالى - الحقيقية الصادقة المنجية، والتحذير من ولاية الشيطان الكاذبة الزائفة المهلكة، فقد تناول قضايا فاصلة بين سبيل الصالحين من عباد الله المتقين المتبعين لرسولهم ونبيهم محمد ﷺ -الذين كان شعارهم فهم حقائق الايمان الباطنة وشرائع الاسلام الظاهرة على ميزان الوحي الكتاب والسنة -، وبين المفسدين الخارجين عن سنة النبي محمد وطريقته ﷺ، وعدم متابعته ظاهرا وباطنا، ممن تكتنفهم الأحوال الشيطانية الخبيثة المبتدعة.

ومن أبرز ما تعرض إليه المؤلف ثلاث قضايا حاسمة، هي: الولاية، والخوارق، وأحوال الجن مع الإنس. وقد فصل هذه القضايا في أربعة عشر فصلًا، بدأها في بيان معاني الولاية والعداوة، ووجوب التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأن أفضل أولياء الله هم الأنبياء عليهم السلام،

وأن أولياء الله منهم سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون، وذكر أصناف المصطفين من أمة محمد ﷺ، وأن من أصول الإيمان الإيمان بالرسل، وأن أولياء الله متفاضلون، وأن الايمان والتقوى شرط في ولاية الله ﷻ، وأنه لا يوجد ما يميز أولياء الله في الظاهر في الأمور المباحة، وأن العصمة ليست شرطا في الولاية، مع بيان حقيقة دين رب العالمين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الأنبياء أفضل من الأولياء، الذين ليسوا بأنبياء، وذكر اشتباه الحقائق الدينية والكونية على كثير من الناس، وبيَّن عموم رسالة محمد خاتم الأنبياء وسيد الأولياء ﷺ لجميع الثقلين الإنس والجن، موضحًا الحق المريء، كاشفًا للباطل الوبيء، وقد ازدانت القلادة بماستها، وزادت الرسالة بركة على بركة بتعليق شيخنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ **صالح بن فوزان الفوزان** - نفع الله بعلمه العباد والبلاد -؛ فقد كشف عن مراد المؤلف، وأوضح وأبان مباحث الكتاب ومسائله، أثابه الله - تعالى -، وغفر لنا وله، وختم لنا بالصالحات والحسنات المتقبلات!

وقد تم إعداد هذا الكتاب على نفقة الفقيرة إلى عفو ربها ورضاه/ **سارة بنت علي بن محمد زيد الشايجي** غفر الله لها ولوالديها ولآل بيتها، نسأل الله أن يتقبل من الجميع، والله أعلم، وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

✐ **كتبه**

د. سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمَةُ الشَارِح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد.

هذه الرسالة أو هذا الكتاب القيم من تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مسألة مهمة، التبس فيها الحق بالباطل في وقته، ولا يزال هذا الالتباس موجودا، إلا أنه لابد من بيان الحق عند الالتباس، ولايسع العالم أن يسكت، بل لابد له أن يبين الحق للناس؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قام بهذه المهمة العظيمة إلى جانب مهمات عظيمة قام بها رَحِمَهُ اللَّهُ في وقته؛ من نصرة الحق، وبيانه، وتوضيحه، والرد على الباطل، وكشفه؛ حتى لا يبقى الأمر ملتبسا على الناس، فمن ذلك هذه المسألة - مسألة أولياء الرحمن وأولياء الشيطان -. لابد أن هناك صنفين من الناس، وهما المؤمنون والكفار، فالمؤمنون هم أولياء الله، أولياء الرحمن، والكفار

هم أولياء الشيطان، لكن الخرافيين في وقته -ولا يزالون- لا يفرقون بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فيعتبرون الكهان والسحرة والمشعوذين أولياء لله؛ لما معهم من الخوارق الشيطانية، فيعتبرونهم من أولياء الله بحكم ما معهم من الخوارق، ويظنون أنها كرامات، يظنون أن هذه الخوارق التي معهم كرامات؛ يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، ويدخلون النار رأي العين؛ فيظن الناس أنهم أولياء الله، وأن هذه كرامات، في حين أنها خوارق شيطانية، الشياطين هي التي تحملهم وتطير بهم، وتعمل لهم الخوارق التي لم يألفها الناس؛ فيظنون أنهم أولياء لله، وأن هذه الخوارق كرامات، ولا ينظرون إلى أعمالهم.

الخوارق وحدها لا تكفي، حتى ينظر إلى عمل الشخص الذي تجري على يده، فإن كان عمله صالحا، فهي كرامات؛ قال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] فإن كانوا مؤمنين متقين، فهذه الخوارق كرامات من الله ﷻ، وليس بلازم لكل ولي من أولياء الله أن تجري على يده كرامات، لكن قد تجري، وقد تقع، أما إذا كان عمله خبيثا -كان مضيعا للصلوات، مرتكبا للمحرمات-، فإن ما يجري على يده خوارق شيطانية، وليست كرامات من الله ﷻ، فهم لبسوا على الناس في هذا الأمر، وجعلوا أولياء الشيطان أولياء لله، بحجة أن معهم خوارق، دون نظر إلى عملهم، وما هم عليه، وهذا لا شك أنه خطير -تضليل-، وبهذه الطريقة انحرف كثير من الناس، فعبدوا الأولياء والصالحين أحياء وأمواتا، بحجة أنهم أولياء لله، وأن لهم

خوارق، دون نظر إلى أعمالهم التي كانوا عليها.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد في هذا الكتاب أن يجلي هذه المسألة، وأن يبين من هم أولياء الله؛ حتى نواليهم، ومن هم أعداء الله؛ حتى نعاديهم؛ لئلا يلتبس الحق بالباطل، وباب الولاء والبراء -الولاء لأولياء الله والبراء من أعداء الله- الناس فيه مختلفون، إلا من هدى الله، وبصره بالحق، فهناك من يغلو في الولاء والبراء؛ فيخرج بالتكفير على الناس -كالخوارج وغيرهم ومن سار على نهجهم-، يأخذ الآيات التي فيها البراءة من أعداء الله -وهذا حق-، لكن لا ينظر إلى الآيات التي فيها التعامل مع أعداء الله. هذا الصنف يريد أن يقطع التعامل معهم نهائيا، الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شرع التعامل معهم في أمور الدنيا، أمور لا تمس الدين، فتجرى معهم المعاهدات، ويجرى معهم الصلح، يعقد لهم الأمان، ويأخذون بموجب ذلك عدم الاعتداء عليهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين بموجب العقود التي تجري بينهم وبين المسلمين، كذلك لا مانع من التعامل معهم بالتجارة والبيع والشراء، لا مانع من الانتفاع بخبراتهم التي يحسنونها، هذا لا مانع، ولا يتنافى هذا مع الولاء والبراء، لكن هؤلاء الصنف ألغوا هذا كله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]، ففرق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بين أصناف الكفار.

وكذلك الوالدان إذا كانا على الكفر، فإن الله أوجب على الولد برهما،

مع عدم متابعتهما على دينهما: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥] فالاتباع يكون للمؤمنين، وأما البر بهما والإحسان إليهما، فهذا واجب على الولد المسلم لوالديه الكافرين، هذا من التعامل مع الكفار.

صنف ثان: على النقيض من ذلك تماما، يميعون الولاء والبراء، ويقولون: تجب المحبة لكل إنسان، وديننا دين التسامح، دين المحبة، ودين التآلف بين البشرية، فهؤلاء على النقيض من الصنف الأول، يميعون الولاء والبراء، ويقولون: لا ولاء ولا براء بين الإنسانية، إنسانية إنسان، حقوق الإنسان -كما يقولون-، إلى غير ذلك.

فهم على النقيض من الصنف الأول؛ أولئك غلوا، وهؤلاء تساهلوا، حتى إنهم يحاولون أن يلغوا الولاء والبراء من كتب التوحيد والمقررات الدراسية، ويحاولون إلغاء الجهاد من المقررات الدراسية؛ كما لا يخفى عليكم أنهم يتكلمون في هذه الأمور، ويهونون من شأنها، ويستدلون بسماحة الإسلام، الإسلام لا شك سمح، ولكن السماحة لها حدود، ليست سماحة مطلقة، سماحة لها حدود وفي مواضعها، تستعمل في مواضعها، لها حدود وضوابط شرعية، ليست مطلقة، هذا صنف.

صنف ثالث: وهم الخرافيون، وهم الذين عناهم شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الكتاب، الخرافيون الذين جعلوا كل من معه خارق للعادة وليًّا لله،

دون نظر إلى عمله وما هو عليه، وكل من معه خارق -ولو كان سحرا، ولو كان كهانة، ولو كان تنجيما ولو كان. . . - يعتبرونه وليًّا لله، ولا ينظرون إلى عمله وتقواه، ولا ينظرون في الآيات التي ذكرها الشيخ في هذا الكتاب - كما سيأتي إن شاء الله-.

وصنف رابع: يجعلون الولاء والبراء للجماعات والفرق، فلا يوالون إلا فرقتهم وجماعتهم، ويعادون من سواها، فيجعلون الولاء والبراء للفرق، فمن وافقهم على مذهبهم وفكرهم، فهو وليهم وأخوهم، ومن خالفهم، فهو عدوهم، وهذا موجود بلا شك، فهذه أربع فرق، كلها ضلت في هذا الباب.

أما الفرقة الخامسة: -وهم أهل السنة والجماعة-: الذين ذكرهم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب، فهم الذين أخذوا بالكتاب كله، فجمعوا بين الآيات، ونظروا إلى صفات الأولياء -أولياء الله-، وصفات أولياء الشيطان، وهذا ما يدور عليه هذا الكتاب، يدور على هذا الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فهو كتاب قيم، والحاجة إليه ماسة؛ لأجل إزالة هذا اللبس الذي التبس الولاء والبراء فيه عند الناس: بين غال وجاف، وبين منكر له نهائيا؛ فالنبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم، ليس عندهم من العلم شيء، وإنما يتبعون أهواءهم، ويتبعون آباءهم وأجدادهم، فأنزل الله عليه القرآن والسنة، وهدى الله به من شاء له الهداية ممن يستحق الهداية، وأضل الله من أعمى الله بصيرته وطمس على قلبه، فلم يقبل هذا الحق، فتميز أولياء الله من أعداء الله ببعثة هذا الرسول ﷺ، وما أنزل الله

عليه من الكتاب والسنة، بين من هم أولياء الله الذين نحبهم، ونقتدي بهم، ومن هم أعداء الله الذين نبغضهم، ونتجنب طريقتهم، وبين لنا التعامل معهم، كيف نتعامل معهم، هذا هو ما يدور عليه هذا الكتاب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَنَشْهَدُ(١) أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، فَهَدَى بِهِ مِنْ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنْ الْعَمَى، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنْ الْغَيِّ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَفَرَقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالرَّشَادِ وَالْغَيِّ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ،

---

(١) في بعض النسخ المطبوعة (وأشهد)، وهي الموافقة لألفاظ حديث خطبة الحاجة، ونقل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لما كانت كلمة الشهادة لا يتحملها أحد عن أحد، ولا تُقبل النيابة بحال أفرد الشهادة بها، ولما كانت الاستعانة والاستعاذة والاستغفار يقبل ذلك فيستغفر الرجل لغيره، ويستعين الله له، ويستعيذ بالله له، أتى فيها بلفظ الجمع؛ ولهذا يقول: اللهم أعنا وأعذنا واغفر لنا... إلى أن قال: وفيه معنى آخر وهو أن الاستعانة والاستعاذة والاستغفار طلب وإنشاء، فيُستحب للطالب أن يطلبه لنفسه ولإخوانه المؤمنين، وأما الشهادة فهي إخبار عن شهادته لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، وهي خبر يطابق عقد القلب وتصديقه، وهذا إنما يخبر به الإنسان عن نفسه لعلمه بحاله بخلاف إخباره عن غيره، فإنه إنما يُخبر عن قوله ونطقه لا عن عقد قلبه، والله أعلم». انظر: تهذيب السنن لابن القيم (٣/ ٥٤).

وَالسُّعَدَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالْأَشْقِيَاءِ أَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ، فَمَنْ شَهِدَ لَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ، وَمَنْ شَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ. وَقَدْ بَيَّنَ ﷻ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ مِنَ النَّاسِ وَلِلشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ، [١] فَفَرَّقَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. [٢].

الشرح:

[١] هذا موجود في القرآن، وسيذكر آيات فيها أولياء الله، وفيها أولياء الشيطان، فالله ﷻ فرق بين أوليائه وأولياء الشيطان، وذكر صفات هؤلاء وصفات هؤلاء.

[٢] هاتان الآيتان فيهما بيان أولياء الله وصفاتهم، وما يحوزون عليه من الكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾.

(ألا): أداة تنبيه.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: تأكيد.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: إثبات لولايتهم، ونفي للخوف والحزن عنهم، لا خوف عليهم في المستقبل، ولا هم يحزنون على ما فاتهم

في الدنيا، لا يحزنون على ما فاتهم، ولا يخافون مما أمامهم، ثم قال ﷻ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾، ذكر أن أولياء الله من هم؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، إذًا الكافر ليس وليًّا لله.

﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، إذًا الذي لا يتقي الله ليس وليًّا لله، يتقون محارمه، ويتقون عذابه، يتقون محارمه؛ فيجتنبونها، ويتقون عذابه؛ فيعملون الأعمال التي تقيهم من العذاب، هؤلاء هم أولياء الله.

إذًا الذي لا يتقي الله ليس من أولياء الله، الذي يترك الصلاة، ويزني، ويشرب الخمر، ويعمل الفواحش ليس من أولياء الله، إما أنه ليس من أولياء الله أصلا، أو أنه ليس من أولياء الله الذين لهم الولاية التامة، فإن الناس على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يكون وليًّا لله ولاية خالصة، وهؤلاء هم الرسل، وأتباعهم على الحق، الذين سلموا من الذنوب والمعاصي، هؤلاء ولايتهم تامة.

القسم الثاني: وهناك من هو عدو لله عداوة تامة، وهو الكافر والمشرك، هؤلاء أولياء الشيطان وأعداء الله، عداوة تامة ليس معها ولاية لله، وإنما هم أولياء الشيطان، ليس معهم ولاية لله أصلا، وهم الكفار والمشركون.

القسم الثالث: وهناك من يجتمع فيه ولاية الله من جانب، وولاية

الشيطان من جانب، وهو المؤمن العاصي، فهو ولي لله بما معه من الإيمان والتوحيد، وهو ولي للشيطان بما معه من كبائر الذنوب والمعاصي التي دون الشرك والكفر، تجتمع فيه الولاية والعداوة. لايخرج الناس عن هذه الأقسام الثلاثة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]. [١].

الشرح:

[١] هذه الآية فيها بيان أولياء الله وأولياء الشيطان، فقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالله ولي المؤمنين الذين آمنوا، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ يخرجهم من ظلمات الكفر والشرك والشبهات إلى نور الإيمان ونور العلم والهداية، فهذه ثمرة ولايتهم لله ﷻ، ثمرة ولايتهم لله أنه يخرجهم من الظلمات، وتأمل ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، جاءت بصيغة الجمع؛ لأنه ليس لها حد؛ ظلمات كثيرة، ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، النور واحد، لم يقل: إلى الأنوار، ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ نور واحد؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فصراط الله واحد، والسبل المخالفة لصراط الله كثيرة، الظلمات كثيرة، والنور واحد، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ هؤلاء أولياء الله.

من هم أولياء الشيطان؟ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ الكفار الذين كفروا بالله ﷻ أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، والطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، والطواغيت كثيرون، لكن كلهم يشملهم اسم الطاغوت، الطاغية الذي خرج عن طاعة الله، فالشيطان طاغوت، وكل الشياطين شياطين الجن

والإنس كلهم طواغيت، لا حصر للطواغيت، وكل طاغوت له أتباع، أما المؤمنون، فمتبوعهم واحد، وهو الله ﷻ، الله وليهم، انظر ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وحده ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ﴾ لهم أولياء كثيرون من الطواغيت، أولياؤهم الطاغوت، والطاغوت اسم جنس يدخل فيه كل شيطان من شياطين الإنس، وشياطين الجن، ودعاة الضلال، ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾؛ نور الرسالة والإيمان والهدى، إلى ظلمات الكفر والشرك، وهذا مستمر إلى أن تقوم الساعة، ثم بين ﷻ عاقبتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ (أصحابها) يعني: الملازمين لها، الذين لا يتخلصون منها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، ثم قال: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مصاحبون لها، وخالدون فيها، هذه نهايتهم -والعياذ بالله-.

عرفنا إذًا الفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان، أولياء الله هم المؤمنون، وأولياء الشيطان هم الكفار.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٦]. [١].

الشرح:

[١] هذه الآيات من سورة المائدة فيها الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، خاطبهم باسم الإيمان؛ لأن الإيمان يقتضي أنهم يمتثلون أوامر الله، ويصغون لندائه، ثم نهاهم: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، لا تتولوا اليهود والنصارى: تحبونهم، وتناصرونهم، وتدافعون عنهم، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾ اليهود هم الذين نزلت عليهم التوراة، وهم أمة موسى عليه السلام، والنصارى الذين نزل عليهم الإنجيل، وهم أمة عيسى بن مريم عليه السلام، لكنهم انحرفوا عن اتباع موسى وعيسى عليهما السلام، ولما بعث محمد ﷺ كفروا به، واليهود كفروا بعيسى عليه السلام

وبمحمد ﷺ، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ، ومن كفر بنبي واحد، فإنه كافر بالله وبجميع رسله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، لا مرية فيه، فمن كفر بنبي واحد، كفر بالجميع، وهو كافر بالله الذي أرسل الرسل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾، فأبطل إيمانهم برسلهم، لما كفروا بمحمد ﷺ، وأبطل إيمان اليهود بموسى عليه السلام، لما كفروا بعيسى عليه السلام وبمحمد ﷺ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، إذا كان هذا في اليهود والنصارى، وهم أهل كتاب، كيف بغيرهم من الوثنيين وعباد الأصنام، والملاحدة من باب أولى؟! ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾

لا تتولوهم بالمحبة والمناصرة، بل أبغضوهم لله ﷻ؛ لأن الله يبغضهم، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، ثم قال تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، الكفار بعضهم أولياء بعض، قطع الولاية بينهم وبين المسلمين، بعضهم أولياء بعض، فالكافر ولي الكافر، اليهودي ولي اليهودي، والنصراني ولي النصراني، ففرق بينهم وبين المؤمنين، ثم قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ يكون يهوديا أو نصرانيا إذا تولاهم[1]، يكون منهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٧٦)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢١٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٦٩).

﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ عقوبة لهم، وسمى ذلك ظلما، وأخبر أنه لا يهدي من اتصف به، فمن والى اليهود والنصارى، فإنه ظالم، والله لا يهدي القوم الظالمين؛ عقوبة لهم، وإنما يهدي أهل الإيمان الذين يقبلون الحق، أما من أعرض عن الحق، فإن الله يحرمه منه؛ عقوبة له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ثم أخبر عن المنافقين الذين يدعون الإسلام، وما أكثرهم! لا كثرهم الله! يدَّعون الإسلام، وهم يوالون اليهود والنصارى ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض النفاق ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ يتولون اليهود والنصارى، يضعون معهم يدهم؛ لو أن اليهود والنصارى انتصروا على المسلمين، فيكون لهم عندهم يد، فهم يسيئون الظن بالله ﷻ، ويظنون أن الله سيخذل المسلمين، وينصر أو يرفع اليهود والنصارى، هذا سوء ظن بالله ﷻ، ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ قال الله ﷻ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾؛ أن ينصر المسلمين، و(عسى) من الله واجبة، هذا وعد من الله أنه سينصر المسلمين، ويفتح لهم بالنصر، أو أمر من عنده ﷻ ينفذه في اليهود والنصارى، فيصبح هؤلاء المنافقون مفتضحين ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾، والعياذ بالله، وقد حصل هذا، الله فضح المنافقين، وخذل اليهود والنصارى، وأعز الإسلام والمسلمين، فافتضح المنافقون في مواقف كثيرة، ولا يزال هذا إلى أن تقوم الساعة، ما بقي الإسلام وبقي مسلمون، ثم إن أهل الإيمان يتعجبون من هؤلاء المنافقين: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾ [المنافقون: ١-٣]، إلى آخر السورة، ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾، أحبطها النفاق - والعياذ بالله -، أعمالهم الظاهرة طارت، صارت هباء منثورا، لا قيمة لها، ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾؛ كما ارتد هؤلاء المنافقون: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، هذا فيه أن الله يحب المؤمنين، وهذا هو الولاية، الولاية هي أن الله يحبهم ويحبونه، يحبون الله، والله يحبهم: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ يلينون للمؤمنين -لإخوانهم-، يلينون لهم، ويرحمونهم، ويحمونهم، هذا شأن المؤمنين؛ كالبنيان يشد بعضه بعضا؛ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أقوياء على الكافرين العزة هي القوة، فهم يلينون للمؤمنين، ويشتدون على الكافرين، ولا يلينون لهم.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجاهدون الكفار وأعداء الله، يجاهدونهم باللسان، ويجاهدونهم باليد، ويجاهدونهم بكل أنواع الجهاد، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾؛ لأن الجهاد هو قوام الدين، فلا يقوم الدين بدون الجهاد في سبيل الله، الذي يقمع أولياء الشيطان، ويقمع الكفار، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، هذا الإيمان

وهذه القوة في دين الله، وهذه الرحمة للمؤمنين، وتولي المؤمنين هذا فضل الله، يوفق الله له من يشاء من عباده ممن يقبل الحق، ويريد الحق، أما من أعرض عن الحق، فإن الله يحرمه، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الرحمة، واسع الرزق، واسع الملك، واسع بكل أنواع السعة ﷻ، وعليم بكل شيء، فيعلم المؤمن الحقيقي من المنافق، الذي يظهر الإيمان، ويبطن الكفر، الله يعلم، لا يخفى عليه شيء، ثم قال ﷻ لما ذكر هؤلاء الذين يتولون اليهود والنصارى، وهم يدعون الإسلام، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، الذين يجب أن تتولاهم هم: الله ﷻ في محبته وطاعته، وخوفه، ورجائه، وعبادته بجميع أنواع العبادة، ورسوله بطاعته، واتباعه، ومحبته، التمسك بسنته ﷺ، والذين آمنوا هم إخوانكم، وهم أولياؤكم، وأنتم أولياؤهم ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]، هذا شأن المؤمنين، بعضهم أولياء بعض، واليهود بعضهم أولياء بعض: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ يعني: لا تتولوا غير الله ورسوله والمؤمنين، لا تتولوا الكفار، سواء كانوا كتابيين أو غير كتابيين، لا تتولوهم بالمحبة والنصرة، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾، هذه صفة أولياء الله، صفة أولياء الله أنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾؛ ملازمون للصلاة، عبر عن الصلاة بالركوع؛ لأن الركوع هو أعظم أركان الصلاة، ويدخل فيه السجود، السجود يسمى ركوعًا؛ لأنه

خضوع لله ﷻ، ثم بيَّن ﷻ من الغلبة له؟ هل الغلبة تكون لأولياء الشيطان وأولياء اليهود والنصارى، أو تكون الغلبة لأولياء الله؟

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، سماهم حزبه، إذًا الفريق الثاني حزب من؟ حزب الشيطان. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾، هم الغالبون، نعم قد يحصل عليهم بعض النكسات، يحصل عليهم بعض المصائب، لكن هذا بسبب من قِبَلهم، فإذا أصلحوا خللهم، أعطاهم الله الغلبة، والعاقبة، العاقبة للمتقين.

فبيَّن في هذه الآيات أن أولياء الله هم أهل الإيمان، الذين يتولى بعضهم بعضا، وأن أولياء الشيطان هم الكفار والمنافقون، الذين يتربصون ويترددون بين هؤلاء وهؤلاء، ليسوا مع المؤمنين، ولا مع الكفار ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، هؤلاء هم أولياء الشيطان، هذا فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] [١]، وذكر أولياء الشيطان، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]. [٢].

الشرح:

[١] في اليوم الآخر لا يبقى إلا ولاية الله ﷻ، وقوله ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ (الوَلاية) بالفتح معناها: المحبة، أما (الوِلاية) بالكسر فمعناها: الإمارة وتولي الأمور، ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ ما يبقى غيرها، وما عداها، فإنه يزول ويضمحل: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أما من تولى الشياطين، فإنه سيجد العاقبة السيئة، ويجد العقاب بدل الثواب، هذه صفات أولياء الرحمن.

[٢] هذه الآيات من سورة النحل، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ يعني: أردت القراءة؛ مثل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]؛ يعني: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾؛ تبدأ بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لماذا؟ لأجل أن يعتزلك الشيطان؛ فلا يلبس عليك القراءة، ولا يحول بينك وبين التدبر، ولا يشغلك بالهواجس والأفكار عن كتاب الله ﷻ، فمن آداب تلاوة القرآن أن يستعيذ القارئ قبل أن يبدأ القراءة، سواء من أول السورة أو من وسط

السورة؛ من أجل أن يطرد الشيطان عنه؛ لأنه يحضر ليلبس على القارئ، وليشغله عن التدبر والانتفاع بالقرآن، فإذا استعاذ بالله، أعاذه الله منه، وطرده عنه، ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ هؤلاء أولياء الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، هؤلاء يخرجون من ولاية الشيطان إلى ولاية الرحمن ﷻ: ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾؛ أي: سلطة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ حصر سلطان الشيطان على من؟ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ الشيطان يستولي عليهم، ويستحوذ عليهم، ويصبحون حزبا له - حزبا للشيطان -؛ بسبب أنهم أطاعوه، تولوه، وأحبوه وأطاعوه، فصار هو وليهم، وصاروا حزبه، فهذه الآيات فيها الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأن أولياء الرحمن يتولون الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾، هذه صفات أولياء الرحمن، وهذه صفات أولياء الشيطان، الذين يتولون الشيطان يكون للشيطان سلطان عليهم، حجة عليهم، وقوة عليهم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦]. [١].

الشرح:

[١] قال ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥]، انظر: تبرؤوا من الكفار، وهم في ديارهم، وطلبوا من الله أن يجعل لهم وليًا من المؤمنين: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، ثم قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، هم يتقاتلون، الكفار يقاتلون، ويقدمون أنفسهم وأموالهم، ويقدمون على الخطر وعلى الموت نصرة لماذا؟ نصرة للشيطان - والعياذ بالله -، هذا العجيب! انظر! إنهم يستميتون في الدفاع عن كفرهم وعن شرهم، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إنهم يقاتلون في سبيل الله، لا يقاتلون رياء، ولا سمعة، ولا طمعا في المال، ولا طمعا في الملك، وإنما يقاتلون لإعلاء كلمة الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ يقاتلون، يقدمون أنفسهم وأموالهم دفاعا عن الشيطان -والعياذ بالله-، هذا التولي، هذا غاية التولي للشيطان، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾، هذا فيه وجوب الجهاد مع الاستطاعة، وأن المسلمين أولياء الرحمن يقاتلون أولياء الشيطان؛

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ كيده مهما كان، فإنه ضعيف إذا قام أهل الإيمان بالجهاد في سبيل الله، قد حصل هذا لما جاهد الرسول ﷺ وأصحابه، وجاهد أصحابه من بعده، اندحر الشيطان وحزبه، ظهر الإسلام، وسقطت دول الكفر تحت راية الإسلام؛ لأنه ضعيف، كيد الشيطان ضعيف، ما نفعتهم قوتهم وهيبتهم، الفرس والروم اندحروا أمام جند الله ﷻ: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، فهذه الآية فيها بيان أن من صفات أولياء الرحمن أنهم يقاتلون في سبيل الله، وأن من صفات أولياء الشيطان أنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠] [١].

الشرح:

[١] لما خلق الله آدم عليه السلام، خلقه بيده، خلقه من طين، وهذا تكرمة لآدم أن الله خلقه بيده، ثم علمه أسماء كل شيء؛ فظهر على الملائكة بالعلم، ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود إكرام، لا سجود عبادة، سجود إكرام وتحية لآدم، وهو عبادة لله سبحانه وتعالى، عبادة لله لامتثال أمره، وهو إكرام لآدم، الملائكة لم يترددوا، أولياء الله لم يترددوا، فسجدوا، أطاعوا الله سبحانه وتعالى، وهذا هو غاية العبادة لله عز وجل، ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾؛ هو رأس الشياطين، استثناؤه من الملائكة هل هو من جنسهم، فيكون الاستثناء متصلا -كان من جنس الملائكة، ثم لما أبى السجود، واستكبر، خذله الله عز وجل، ولعنه، وطرده-، أم هو من غير جنس الملائكة؛ فيكون الاستثناء منقطعا، بمعنى (لكن)؟ الراجح - والله أعلم - أنه من غير جنس الملائكة[(١)]، وإنما كان يتعبد معهم؛ ولهذا قال: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، ولو كان من الملائكة، لما قال: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، كان من عالم الجن، وعالم الجن فيهم شياطين ومردة، كل من تمرد عن طاعة الله من الجن، فإنه

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٢٥، ٢٢٦)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٩٤، ٢٩٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٧٨).

شيطان، ورئيسهم إبليس، هو رأس شياطين الجن، وهناك شياطين للإنس أيضا، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهم عالم لا نراهم؛ ولذلك سموا بالجن من الاجتنان(١)، وهو الاستتار، هم عالم الجن، العالم الذي لا نراه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ يعني: الشيطان؛ فلذلك سموا بالجن، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ يعني: عصى أمر ربه؛ لما قال الله للملائكة: اسجدوا، وكان إبليس معهم، سجدوا، وامتنع إبليس، فخرج عن أمر الله ﷻ، هذا هو الفسق، ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ ثم قال ﷻ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ هذا استفهام إنكار، يخاطب به بني آدم، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ تكونون من أولياء الشيطان، والواجب عليكم أن تكونوا من أولياء الرحمن، هذا استنكار من الله ﷻ: ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾؛ تحبون أعداءكم، وتوالون أعداءكم، هذا من العجائب وانتكاس الفطر، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة: ١، ٢]، هذه سريرة

---

(١) الجن نوع من العالم سموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار، ولأنهم استجنوا من الناس؛ فلا يرون، والجمع جنان، وهم الجِنة. انظر: لسان العرب (١٣/ ٩٥)، ومختار الصحاح (١/ ٤٨)، وتفسير الطبري (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

الكفار دائما وأبدا نحو المسلمين، إذا تمكنوا منهم، فكيف تطمئنون إليهم؟ كيف توالونهم، وهم يضمرون لكم العداوة؟ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩]، هذه طبيعتهم، لا يمكن للكفار أن يتحولوا عن هذا أبدا، مهما تصنعون، ومهما قالوا وقالوا، فهم أعداء، كفار، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ دل على أن إبليس له ذرية؛ كما أن آدم له ذرية، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، الذي يستبدل ولاية الله ﷻ بولاية الشيطان، هذا بئس البديل، نسأل الله العافية!

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]. [١].

الشرح:

[١] ذكر الشيخ هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ الآية التي قبلها التي ذكرها الشيخ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، وفي هذه أنه قد خسر خسرانا مبينا، وهو يظن أنه يربح، وأنه يكون دبلوماسيا، وأنه يصلح مع الناس، وأنه لا يكون فيه خشونة، يكون مندمجًا مع الناس - كما يقولون -، وهذه صفة المنافقين، نحن لا نقول: اعتدوا على الكفار، اظلموا الكفار. لا، ما يجوز الظلم، ولا الاعتداء، ولا نقول: لا تتعاهدوا مع الكفار أو تصالحوا معهم، أو أن تنتفعوا، أو تبيعوا وتشتروا معهم في أمور الدنيا، أو أن تحسنوا إلى من أحسن منهم إليكم؛ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] بل نقول: هذا كله ليس من الموالاة، وإنما هو من تبادل المصالح، ومن المكافأة على الإحسان، والمؤمنون أوفياء بالعهود، وبالتعامل الطيب، هذه صفة المؤمنين، وليس هذا من الموالاة كما يظن بعض الجهال، هذا ليس من الموالاة، هذا من تبادل المصالح والمنافع، ولا يدخل في أمور الدين[١].

---

(١) للشارح - حفظه الله- تفصيل في هذه المسألة المهمة. انظر: شرح نواقض الإسلام (ص١٥٥ : ١٦٦) الناقض الثامن.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥]. [١].

الشرح:

[١] هذه الآيات من سورة آل عمران، التي ذكر الله فيها قصة غزوة أحد مفصلة، وجاءت هذه الآيات في آخرها تبين أولياء الله وأولياء الشيطان، فأولياء الله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ثم ذكر أولياء الشيطان فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنه لما حصلت الوقعة عند أحد، وحصل على المسلمين ما حصل من القرح، واستشهد منهم العدد الكثير، وجرح منهم العدد الكثير، وذلك بسبب مخالفة وقعت من بعضهم لأمر الرسول ﷺ، فلما حصلت منهم المخالفة، عمت العقوبة، وذلك أن النبي ﷺ نظم المسلمين[١]، وجعل ظهورهم إلى الجبل، وجعل على الجبل رماة يدفعون عن ظهور المسلمين

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٣٠٣٩، ٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٠٦٧، ٤٥٦١)، والبداية والنهاية (٤/١٤).

- ولذلك يسمى بجبل الرماة -، فامتثلوا، وأمسكوا الجبل، ولم يحصل للمشركين فرصة أن يأتوا المسلمين من خلفهم؛ فتفرغ المسلمون للقتال، ففتكوا بالعدو، وكاد العدو أن ينهزم، فشرع المسلمون في جمع الغنائم، فلما رأى بعض الرماة الذين على الجبل أن المسلمين انتصروا، وأنهم شرعوا يجمعون الغنائم، ظنوا أن المعركة قد انتهت، فقالوا: ننزل مع إخواننا؛ نعينهم على جمع الغنائم، فقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ قال لنا: «لا تتركوا الجبل سواء انتصرنا أو هزمنا»، ذكرهم بذلك، ولكنهم أصروا على النزول، فنزل بعضهم، وثبت بعضهم، ومنهم قائدهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ثبت، حتى جاء المشركون من الخلف، ورأوا أن الجبل قد خف الرماة الذين هم عليه، فتقاتلوا معهم، حتى قتلوا بقية الرماة، ثم انقضوا على المسلمين من الخلف، والمسلمون لم يشعروا إلا وقد أحاط بهم المشركون من الإمام ومن الخلف، فحصلت النكبة بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ أي: أنتم السبب، وقبل هذا يقول: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ يعني: تقتلونهم ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، بشرهم الله بأنه عفا عما حصل منهم من المخالفة؛ ليطمئنهم، وبعد ذلك انتهت المعركة،

وانصرف المسلمون، دفنوا شهداءهم في محل المعركة في مقبرة الشهداء التي عند أحد، وحملوا جرحاهم، وعادوا إلى المدينة، وقفل المشركون إلى مكة، ثم إن المشركين تلاوموا، وقالوا: كيف نترك بقيتهم؟ لماذا لا نرجع ونستأصل بقيتهم؟ فأرسلوا مندوبا منهم إلى الرسول ﷺ أننا سنعود إليكم، ونستأصل بقيتكم، فالنبي ﷺ أمر كل من حضر المعركة من الأصحاء والجرحى أن لا يتخلف أحد، فنهضوا رضي الله عنهم بجروحهم مع الرسول ﷺ، وأمر ألا يخرج إلا من حضر الوقعة، فخرجوا بجروحهم رضي الله عنهم مع الرسول ﷺ، وساروا في أثر المشركين، ثم نزلوا منزلا يقال له: حمراء الأسد، نزلوا منزلا، فلما بلغ المشركين أن المسلمين خرجوا في أثرهم أصابهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا إلا وفيهم قوة، فهزمهم الله، ولم يرجعوا إلى المسلمين، بل أصابهم الرعب، ومضوا في طريقهم إلى مكة، وكفى الله المؤمنين شرهم، لكن بعد ماذا؟ بعد الامتحان، وبعد إظهار القوة والإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: مندوب من المشركين، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: المشركين، ﴿قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾؛ قد جمعوا لكم يريدون الرجوع، هم على أثر المعركة، وفيهم الدماء والجروح ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ما تضعضعوا، ولا جبنوا، زادهم ذلك قوة؛ لأنهم يؤمنون بالله ﷻ، وهؤلاء هم أولياء الله، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ أي: الله كافينا، ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ الموكول إليه أمرنا، فلم يتضعضعوا من التهديد، ولم يخافوا من المشركين؛ لقوة إيمانهم، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، هذا ما قالوه، وخرجوا بأمر الرسول ﷺ، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قال الله ﷻ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾؛ يعني: رجعوا سالمين ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾

نتيجة ماذا؟ نتيجة الإيمان والصبر، وقولهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، هذه النتيجة، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾، هؤلاء هم أولياء الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾؛ حيث منَّ عليهم بالأجر والسلامة، وأمدهم بالقوة في خروجهم، فلم يتضعضعوا، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾، قال ابن عباس ﵄: «(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﵇ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. قال الله ﷻ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩] «وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾»(١)، فكانت النتيجة أنهم انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، هذه النتيجة، وهؤلاء هم أولياء الله ﷻ، دائما وأبدا يكون الله معهم، ثم ذكر أولياء الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: هذه الشائعة التي سمعتم، وهذا الكلام، وهذا التهديد إنما هو من الشيطان.

﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ فيها وجهان(٢):

الأول: ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ المفعول الأول محذوف، تقديره: يخوفكم أولياءه، يخوفكم -أيها المسلمون- أولياءه من الكفار والمشركين.

والوجه الثاني: ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ يخوف ضعاف الإيمان من المنافقين، الذين هم أولياء الشيطان، ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾، هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس ﵄.

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٣٤٩- ٣٥٠)، والقرطبي (٤/ ٢٨٢).

نهي من الله ﷻ أن يخاف أولياؤه أولياءَ الشيطان، الله ﷻ قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ ﴿وَخَافُونِ﴾ مخففة، أصلها: خافوني. بالياء، حذفت الياء تخفيفا، ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، فالمؤمن الحقيقي لا يخاف إلا الله ﷻ، مهما هدد، ومهما فعل، فإنه لا يخاف إلا الله، قلبه معلق بالله ﷻ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فالمؤمن لا يخاف إلا الله، ولا يخاف غير الله ﷻ، فهذه الآيات فيها بيان صفات أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٧-٢٨] إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] [١].

الشرح:

[١] ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ سلط الله الشياطين على الذين لا يؤمنون؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، فالكفار أولياؤهم الشياطين ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، السبب أنهم لا يؤمنون، فلما كانوا لا يؤمنون بالله، سلط الله عليهم الشيطان، وجعله وليهم؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، هذا هو السبب أنهم لا يؤمنون، فدلت الآية على أن الذين يؤمنون، فإن الشيطان يبتعد عنهم، ويكون وليهم الله ﷻ، ثم قال ﷻ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٠]، لماذا حقت عليهم الضلالة؟ لأنهم ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، إذا فعلوا فاحشة، وهي أنهم يطوفون بالبيت عراة، ويكشفون عوراتهم، فكشف العورة فاحشة، سماه الله فاحشة، والفاحشة هي المتناهي في القبح(١)، فكشف العورات والسفور للنساء هذا فاحشة، والذي يأمر بها هو الشيطان وجنوده من الجن والإنس، ودعاة الفتنة الذين يدعون الآن إلى خلع الحجاب وإلى السفور هم مثل الذين كانوا يدعون إلى الطواف بالبيت عراة في الزمان الأول؛ سواء بسواء: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، يحتجون بما وجدوا عليه آباءهم، ولا يحتجون بما قال الله وقال رسوله، إنما يحتجون بآبائهم وأجدادهم، هذه حجة باطلة، تكررت منهم، وهي باطلة، ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾، هذه أشد، نسبوا إلى الله أنه أمرهم أن يطوفوا بالبيت عراة، وأن يكشفوا عوراتهم، فكذبوا على الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾، رد الله عليهم، وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾؛ هذا يتنافى مع شرع الله ﷻ، لا يأمر بالفحشاء أمر تشريع، أما الأمر الكوني والقدري، فهذا يقدره الله عقوبة على من قدره عليه، لكن الأمر الشرعي أبدا مستحيل أن يشرع الله لعباده كشف العورات؛ لأنه فحشاء، والله لا يأمر بالفحشاء من هذا وغيره، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾، هذا قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم أشد من الشرك، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، هذا الذي أمر الله به عند كل صلاة، عند كل مسجد؛ يعني: عند كل صلاة، أقيموا

(١) انظر مادة (فحش) في: مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٨)، ولسان العرب (٦/ ٣٢٥).

وجوهكم؛ يعني: أخلصوا نياتكم وقصدكم لله ﷻ، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾؛ يعني: بالعدل. وكشف العورات ليس من العدل، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أخلصوا لله في صلواتكم وطوافكم بالبيت؛ لأن البيت مسجد، وكشف العورة عند البيت هذا ليس من إقامة الوجوه، بل هو من الظلم، ومن صرف الوجوه عن الله ﷻ إلى الشيطان، ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: الدعاء، فسمى الدعاء دينا، وفي الحديث: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»(١) الدعاء هو أعظم أنواع العبادة، وهو أعظم أنواع الدين، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ كما خلقكم أول مرة، فإنه يعيدكم يوم القيامة، والإعادة أهون من البداءة في نظر العقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ حيث خلقكم من العدم، تعودون عند البعث كما كنتم في خلقتكم الأولى، ﴿عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ هدى الله ﷻ ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾؛ بسبب كفرهم وتوليهم للشيطان، السبب ما هو؟ حق عليهم الضلالة، ما السبب؟ هل الله ظلمهم؟ لا، ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، هذا هو السبب ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ فتركوا ولاية الله، وأخذوا ولاية الشيطان - والعياذ بالله - ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾، التي تدعوهم إلى الشرك، وإلى كشف العورات، وإلى الضلال

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث البراء رضي الله عنه.

وإلى السفور، اتخذوهم أولياء، تولوهم وأحبوهم، واتبعوهم من دون الله، والمصيبة أشد ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، ويقولون: هذا هو الصحيح. يزين لهم - والعياذ بالله -، ويقولون: هذا هو الصحيح، وهذا هو الرقي، وهذا هو الحضارة، والدين تخلف ورجعية. . .، إلى آخر ما يقولون، هم لو كانوا يعرفون أنهم على ضلال، لهان الأمر؛ لأنهم يرجى أن يرجعوا، لكن المشكلة أنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ فلا يرجعون، هذا من تمام الابتلاء - والعياذ بالله -، يحسبون أنهم هم الذين على الحق، فدل على أن من خالف الحق وهو يعلم أنه لا يعذر، ولو كان يرى أن ما هو عليه حق، ما دام أنه يخالف الوحي، فهو باطل، ولو رآه حقا، فهو باطل، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، اتخذوا الشياطين، ولم يكتفوا بذلك، بل يظنون أن هذا هو الحق، وهذا هو الرقي، وهذا هو الحضارة، وهذا هو التقدم. . .، إلى آخر ما تسمعون من الهذيان الفارغ والباطل؛ من مدح الشرك وأهله، ومدح الإلحاد والكفر، ومدح الضلال. بعض الناس يقول: إن الذي يظن أنه على حق هذا معذور؛ لأنه لم يصل إليه الوحي، يكون معذورا إلى أن يتبين له، أما الذي لم يصله الوحي، فيخالف، ويظن أنه على حق، هذا غير معذور، هذا غير معذور، قامت عليه الحجة، ولو كان يرى أنه على حق، هو ليس على حق، ما دام أنه يخالف الوحي، وقامت عليه الحجة، ليس على حق، وليس معذورا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. [١].

الشرح:

[١] ﴿أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ أولياء الشياطين من الكفار والمنافقين، والآية من سورة الأنعام في سياق استباحة الميتة؛ لأن المشركين يستبيحون الميتات، كانوا يستبيحون الميتة، ويقولون: إن الله هو الذي ذبحها، فكيف لا نأكل مما ذبحه الله، ونأكل مما ذبحتم؟ هذه مقالة المشركين، يقولون: إن الميتة الله هو الذي ذكاها، أما الذبائح أنتم الذين ذبحتموها، وهذه المقولة أوحاها إليهم شياطين فارس من المجوس[(١)]، يوحون إلى أوليائهم من مشركي العرب، أوحوا إليهم هذه الفرية، فقالوا: إن الذي ذبحه الله - وهو الميتة - أولى من المذكاة التي ذبحتموها ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ أي: شياطين الإنس، ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ بهذه الحجة الباطلة، ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾؛ ليجادلوكم أيها المؤمنون، ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ إن أطعتموهم في استباحة ما حرم الله، إنكم لمشركون بالله؛ لأن التحليل والتحريم حق لله ﷻ، لايجوز لأحد أن يحلل ويحرم، هذا حق الله ﷻ، هو الذي يحلل ويحرم، وليس لأحد أن يحلل ويحرم من دون الله، هذا شرك في الطاعة - والعياذ بالله -، ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾، وشرك الطاعة نوع من

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٧٢)، والقرطبي (٧/ ٧٤).

أنواع الشرك، والشاهد من الآية: ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾، فدل على أن من استحل ما حرم الله، وحرم ما أحل الله، فإنه من أولياء الشيطان، وأما من أحل ما أحله الله، وحرم ما حرمه الله، فإنه من أولياء الله.

وَقَالَ تَعَالَى عن الخليل عليه السلام: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٥]. [١].

الشرح:

[١] إبراهيم عليه السلام لما نور الله قلبه بالإيمان والتوحيد من بين قومه الذين يعبدون الكواكب، ويتخذونها آلهة من دون الله، ويصنعون لها التماثيل على صور الكواكب، ويعبدونها من دون الله، أرسل الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام يدعوهم إلى الله ﷻ، وينكر عليهم عبادة الكواكب والتماثيل، وبدأ بأبيه، وهذا دليل على أن الذي يدعو إلى الله أول ما يبدأ بأقاربه، ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، أما أن تذهب للناس، وأهل بيتك وأقرباؤك على الضلال، تسافر وتبعد تدعو الناس إلى الله، وتترك أهلك، وتترك عشيرتك، وتترك أهل بلدك، فهذا خلاف سنة الأنبياء عليهم السلام؛ ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، فإبراهيم عليه السلام بدأ بأبيه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١]، كان صديقا، الصديق هو المبالغ في الصدق، ولا أحد أصدق من إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ﴾، انظر: يخاطبه بقوله ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾؛ من باب الاستعطاف، ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، هذا من باب المخاطبة بالعقل، هذا التمثال الذي تصنعه أنت - لأن والد إبراهيم عليه السلام كان يصنع التماثيل-، والتمثال لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنك شيئا، لماذا تعبده؟ يخاطبه بالعقل: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ

وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾، فدل على أن الله ﷻ موصوف بالسمع والبصر؛ لأن الله لو لم يكن يسمع ويبصر، لقال والد إبراهيم: وأنت أيضا تعبد من لا يسمع ولا يبصر. فهذا فيه إثبات السمع والبصر لله ﷻ: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾؛ ما يدفع عنك إذا نزل بك مرض، أو نزل بك شدة أو ضيق، هذا حجر ما ينفعك في شيء، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [مريم: ٤٢-٤٣]، بين له أنه يدعوه عن علم، وليس عن عاطفة، ولكن عن علم، فيدل هذا على أن الداعية إلى الله يجب أن يكون على علم، لا يدعُ، وهو جاهل: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٣-٤٤]؛ لأن عبادته للتماثيل هي عبادة للشيطان، هو الذي أمره بذلك، التمثال ما أمره، التمثال حجر، وما أمره أن يعبده، من الذي أمره؟ الشيطان، ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾، هذا من أول الخلق وقت آدم عليه السلام خرج عن أمر ربه، عصى ربه ﷻ، فسق عن أمر ربه، لما أمره الله بالسجود لآدم، عصى وأبى؛ ﴿كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٤-٤٥]؛ عذاب من الله ﷻ؛ لأن الله هو الذي يمرض ويشفي، ويحيي ويميت، ويدبر الأمر، أما هذا حجر ما عنده أي شيء، لا أمر ولا نهي، ولا يملك ضرا ولا نفعا، ولا يسمع، ولا يبصر ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾، يتخلى الله عنك، ويكلك إلى الشيطان، الشيطان لا يستطيع أن يخلصك من عذاب الله ﷻ. كلام بليغ يدخل القلوب، حجج واضحة، حجج براهين،

﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ يتولاك الشيطان، ولا يستطيع أن يخلصك، أو لا يريد أن يخلصك أيضا، الشيطان عدو لا يريد لكم الخير أبدا، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾، ويتخلى الله عنك، ولا تكون وليًّا للرحمن ﷻ، فهذا من أوصاف أولياء الشيطان؛ أنهم يعبدون غير الله ﷻ؛ من الأشجار والأحجار، والأضرحة والقبور، والأولياء والصالحين، كل هذا من الشيطان، هو الذي يأمر بهذا، ومن فعله، ولم ينته عنه، فإنه يكون من أولياء الشيطان، نسأل الله العافية.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١] **الآيات إلى قوله**: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥][١].

الشرح:

[١] هذه الآيات في مطلع سورة الممتحنة، صدرها الله بقوله - مخاطبا المؤمنين -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾، إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في دعاء إبراهيم عليه السلام وقومه، وهذه السورة نزلت بسبب، وهو أن النبي ﷺ لما أراد أن يغزو المشركين في مكة؛ لأنهم خانوا العهد الذي بينهم وبينه، نقضوا صلح الحديبية، فالرسول ﷺ عزم على غزوهم، لكنه أخفى ذلك، وأسره، ولم يبين وجهته لأصحابه؛ لأن هذا من أسرار الحرب، التي لا تظهر للناس، فتوجه إلى مكة في رمضان، وكان من جملة الصحابة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه؛ من سادات الصحابة وممن شهدوا بدرا، لكنه اجتهد، فأخطأ، فكتب إلى المشركين كتابا سريا يخبرهم أن محمدا ﷺ أراد غزوهم، وأرسل الكتاب مع امرأة خُفية، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ بالأمر، فأرسل الزبير والمقداد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم في أثر المرأة، وقال: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوا مِنْهَا». قَالَ: فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، قُلْنَا

لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ. قَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا حَاطِبُ مَا هَذَا**». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - يَقُولُ: كُنْتُ حَلِيفًا، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا - وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ، يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، قَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(١)]، وسبب النزول هو قصة حاطب، وصفه بالإيمان، فدل على أنه لم يتأثر إيمانه رضي الله عنه، ولم ينافق، وإنما وصفه الله بالإيمان مع إخوانه من المهاجرين والأنصار، لكنه نهى عن هذا الفعل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، والموالاة هي المحبة والنصرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وحاطب لم يحبهم، ولكنه أراد نصرتهم، وهذا من الولاية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧، ٣٠٨١، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩)، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، أليسوا طردوا الرسول ﷺ، وأخرجوا المسلمين، حتى اضطروهم إلى الهجرة، ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، لأي سبب؟ ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، هذا هو السبب: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، فدل على أن الذي يوالي الكفار قد ضل سواء السبيل، إلى آخر الآيات، التي فيها اللوم والعتاب، وفيها التحذير في المستقبل أن يفعل مسلم هذا الفعل. وفيها أن سبب عداوتنا لهم أنهم أعداء لله وأعداء للمؤمنين ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، هذا هو سبب عداوتنا لهم، أنهم أعداء لله، ونحن نعادي من عادى الله ﷻ وعادى رسوله ﷺ، هذا هو السبب، لا نعادي من أجل الدنيا أو من أجل العاطفة، أو من أجل . . . لا. نعادي من أجل الله، فنحب في الله، ونوالي في الله، ونعادي في الله ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

فَصْلٌ

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ النَّاسَ فِيهِمْ «أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ» فَيَجِبُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كَمَا فَرَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَيْنَهُمَا، فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. [١].

الشرح:

[١] لما ذكر الشيخ ﷺ هذه الآيات في مطلع هذا الكتاب المبارك، التي فيها أوصاف أولياء الله، وأوصاف أعداء الله، عند ذلك عقد هذا الفصل؛ ليبين النتيجة مما سبق.

عُرف من ماذا؟ من الآيات السابقة التي أوردها هذه هي النتيجة.

ويجب أن يفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فلا يخلط الأمر، ولا يقال: كلهم بنو آدم، وكلهم إخوان في الإنسانية، وكلهم من بني آدم. لا، المسألة مسألة كفر وإيمان، وليست مسألة إنسانية، أو مسألة عاطفة، إنما هي كفر وإيمان. والذي لا يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، هذا دليل على عدم إيمانه؛ لأن الله فرق بينهم، فيجب أن تفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان، لا يلتبس عليك الأمر، فهذا فيه الرد على من يعتقد أن السحرة والكهان والمنجمين بما معهم من الخوارق الشيطانية أنهم أولياء الله، وأن هذه الخوارق كرامات من الله ﷻ، هذا لا يفرق بين الحق والباطل، ولا بين

أولياء الله وأعداء الله. فالله فرق بينهما في الآيات؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ثم فسرهم وبيّنهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، فكل مؤمن تقي فإنه ولي لله، وكل كافر ومشرك ومنافق فإنه عدو لله.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١] وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»[٢] -أَوْ: فَقَدْ آذَنْته بِالْحَرْبِ-. [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه، ورواه غيره، وله طرق كثيرة تقوي بعضها بعضا، فيرتفع إلى درجة الصحة، ولذلك خرجه البخاري في صحيحه، فلا التفات إلى من تكلم في هذا الحديث، وعتب على الصحيح، وهو حجة عند المسلمين، لا يشكك في صحيحه أو في أحاديث في صحيحه أبدا، فهذا الحديث حديث قدسي؛ لأنه من كلام الله ﷻ، يرويه عنه رسوله ﷺ أن الله ﷻ قال، وهذا فيه إثبات الكلام لله ﷻ والقول لله.

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»: هذا إعلام من الله ﷻ أن الذي يعادي المؤمنين أنه معادٍ لله ﷻ، وأن الله أعلن عليه الحرب؛ مثلما أعلن الحرب على أكلة الربا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وهل أحد يطيق أن يحارب الله ﷻ؟!

«فَقَدْ آذَنْتُهُ»؛ أي: أعلمته بأني محارب له -والعياذ بالله-؛ لأن الله ينتصر

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٥٠٢)، ولفظه عنده: «فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ».

(٢) هذا اللفظ أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (ص٩)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨)، والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦٧) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لأوليائه، فالذين يقعون في أعراض العلماء الآن، ويتنقصونهم، ويغتابونهم في المجالس، هؤلاء من هذا الصنف من الذين يعادون أولياء الله، لماذا؟ لأن العلماء ورثة الأنبياء، قد قال ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[1]، فهم ورثة الأنبياء، ولما قال ناس في عهد النبي ﷺ: «**مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ**»[2]، قال الله ﷻ فيهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، لا يجوز أن الإنسان يتكلم في العلماء ورثة الأنبياء، ولو أخطأ من أخطأ منهم عن غير قصد، فلا يتخذ الخطأ وسيلة للطعن فيه، وترخيصه على الناس، واغتيابه عند الناس، فهذا يجب يتنبه له، هؤلاء الذين يقعون في أعراض العلماء، ويعمرون بها مجالسهم، ويوالون ويعادون على هذا - لا حول ولا قوة إلا بالله -، حتى تفرقوا، واختلفوا، وتعادوا فيما بينهم، وهم يزعمون أنهم طلبة علم، أو أن بعضهم يزعم أنه شيخ ومن العلماء، فهذا من الشيطان في الحقيقة، هذا من كيد الشيطان.

«**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»: أعلن الله عليه الحرب، ومن حاربه الله، فهو مخذول، ولن ينتصر أبدا، فهذا فيه التحذير من معاداة أولياء الله ﷻ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦) وابن حبان (١/ ٢٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٦٢) ورواه البخاري معلقًا في كتاب العلم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩) وابن كثير (٢/ ٣٦٨) من حديث زيد بن أسلم رضي الله عنه.

«فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، أو فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»؛ أي: أعلنت عليه الحرب، فالروايتان بمعنى واحد: أن من عادى أولياء الله، فهو محارب لله ﷻ، والله يحاربه.

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، . . .» [١].

الشرح:

[١] هذه صفات أولياء الله؛ أنهم يتقربون إلى الله. لما ذكر التحذير من معاداة أولياء الله، من هم أولياء الله؟ هم هؤلاء الذين يتقربون إلى الله بأداء الفرائض، ثم بالنوافل: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»، هذا فيه الحث على أداء الفرائض التي فرضها الله، قد قال ﷺ: «إِنْ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا»(١)، ولأن الفرائض هي الأساس، فمن ضيع الفرائض، فإن النوافل لا تنفعه؛ لأنه يبني على غير أساس، لو أن الإنسان يقوم الليل كله، كل الليل يقوم، يتهجد، ويبكي، لكنه لا يحافظ على الفرائض، يضيع الفرائض (الصلوات الخمس)، فعمله يصبح هباء منثورا، تعب بلا فائدة، فإذا حافظ على الفرائض، فإنه يأتي بالنوافل؛ لأنه أتى بالأساس الذي يبني عليه، والفرائض أحب إلى الله من النوافل، إذا كنت تريد محبة الله لك، فتأتي بما يحبه الله، وهو الفرائض، التي أوجبها الله على عباده: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ»، هذا فيه الترغيب في النوافل، ولكن بعد أداء الفرائض.

«حَتَّى أُحِبَّهُ»: فدل على أن أداء الفرائض وفعل النوافل سبب لنيل محبة

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢١) من حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه.

الله للعبد، وهذه هي الولاية، الولي هو المحبوب، الله يحب من هذه صفته: يحافظ على الفرائض، ثم يتبعها بالنوافل؛ فالصلاة لها نوافل، والزكاة لها نوافل، والصيام له نوافل، والحج له نوافل، وكل شيء من الفرائض له نافلة من جنسه، والأساس هو الفرائض، «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**».

فهذا الحديث فيه بيان من هم أولياء الله، وفيه أن الله ﷻ يدافع عنهم، أما من هم أولياء الله؟ قد بينهم بقوله ﷻ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، فدل هذا على أن ولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بالطاعات -فرائضها ونوافلها-، وهذا مطابق للآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، فليست الولاية دعوى؛ لا يقال: فلان ولي -لأنه عنده كرامات أو خوارق-، حتى ينظر عمله: هل هو عمل صالح موافق للشرع؟ فهو ولي الله، وهذا الحديث فصل في هذه المسألة: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»؛ الواجبات.

«**حَتَّى أُحِبَّهُ**»: فيه أن الله يحب أولياءه، والمحبة من صفات الله الثابتة له ﷻ، فهو يحب، ويبغض، ويكره، ويسخط، ويرضى، ويغضب، كل هذه من صفاته ﷻ اللائقة بجلاله، وليست كصفات المخلوقين كسائر الصفات.

فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، وفي رواية[(١)]: **«فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، . . . [١].**

الشرح:

[١] هذا فيه أن الله يكون معهم، يوفقهم، ويسددهم في حركاتهم، وفي حواسهم وأعضائهم، فيستعملونها في طاعة الله ﷻ، وقوله: «**فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ**» يفسر قوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»؛ في أنه لا يسمع إلا ما يفيده وينفعه، يسمع القرآن، يسمع الذكر، يسمع العلم؛ لأن الله سدده في سمعه، يتجنب المحرمات؛ فلا يسمع اللغو، واللهو، والأغاني، والمزامير، والغيبة، والنميمة، لا يسمع شيئا مما يسخط الله، وكذلك لا يبصر إلا ما ينفعه من النظر في مخلوقات الله، وفي آيات الله، يتدبر ويتأمل، ويستدل بها على قدرة الله ووحدانيته واستحقاقه للعبادة، ولا ينظر إلى المحرمات؛ كأن ينظر إلى النساء، أو ينظر إلى المناظر الكريهة، أو إلى العورات، أو إلى ما يسخط الله ﷻ؛ عملا بقوله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾ [النور: ٣٠]، ولأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فهو يستعمل سمعه وبصره فيما ينفعه ويفيده،

(١) أخرجها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٦٥)، وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٤٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٠).

ويترك ما يضره ويفسد عليه دينه وأخلاقه، وكذلك لا يمشي إلا فيما فيه مصلحته، لا يأخذ بيده ويعطي بيده إلا ما فيه مصلحته، فلا يتناول الحرام، ولا يضرب أحدا بيده، ولا يظلم أحدا، لا يستعمل يده في الحرام والظلم، وإنما يأخذ ويعطي لله ﷻ، فيستعمل يده في طاعة الله، كذلك لا يمشي إلا لما فيه مرضاة الله ﷻ؛ كالمشي إلى المساجد، المشي إلى حلق الذكر، المشي إلى طاعة الله أينما كانت، يذهب إليها، فلا يمشي إلا فيما فيه طاعة لله ﷻ، ولا يمشي إلى ما حرم الله، لا يمشي إلى المسارح والملاهي، ودور البغاء، والسينمات، ومحلات اللهو واللعب. يتجنبها، وإنما يذهب إلى الأمكنة التي فيها الطاعة، والخير، والذكر، وتعلم العلم النافع.

وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَهُ، وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نفسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»(١). [١].

الشرح:

[١] قال تعالى: «وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»، هذا أيضا من ثمرات ولايته لله ﷻ؛ أن الله يجيب دعاءه، ويعيذه مما يخاف من أعدائه وشياطين الإنس والجن، يتولاه، ويحفظه، هذا نتيجة كونه وليًّا لله ﷻ، ثم قال ﷻ: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ»، هل الله يتردد؟ فسر هذا بقوله: «يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، التردد في حق الله معناه: كراهية هذا الشيء، أن الله يكره ما يكرهه وليه، ووليه يكره الموت، فالله يكره ما يكرهه وليه، هذا معنى (ترددت)؛ يعني: أكره ما يكرهه.

ثم قال ﷻ: «وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»، قال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، الله قضى وقدر أن كل نفس ذائقة الموت، الأولياء وكل من له حياة وروح، فإن الله قضى بالموت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ

---

(١) جملة: «وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ» ليست في البخاري، وإنما رواها الشهاب القضاعي في مسنده (٢/ ٣٢٧)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (ص٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٢، ٨/ ٣١٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٩٥) من حديث أنس ﵁.

ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦ -٢٧]، فلا بد له منه، ولكن الله يكره له ذلك، ومع هذا يجريه عليه قضاء وقدرا.

وَهَذَا أَصَحُّ حَدِيثٍ يُرْوَى فِي الْأَوْلِيَاءِ، [١] فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ مَنْ عَادَى وَلِيًّا لِلَّهِ، فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ. [٢].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَإِنِّي لَأَثْأَرُ لِأَوْلِيَائِي، كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ»(١) أَيْ: آخُذُ ثَأْرَهُمْ مِمَّنْ عَادَاهُمْ؛ كَمَا يَأْخُذُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ ثَأْرَهُ،... [٣].

الشرح:

[١] هذا أصح حديث يروى في الأولياء، وفيه رد على الذين يطعنون في هذا الحديث، وهو في صحيح البخاري.

[٢] يعني: عرض نفسه لغضب الله وعقوبته، هذه المحاربة.

[٣] الله ﷻ ينتصر، (يثأر) يعني: ينتصر لأوليائه ممن ظلمهم، ومن عاداهم.

«كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ -يعني: السبع- الْحَرِبُ» حينما يهجم على فريسته، فهذا ليس من تشبيه المخلوق بالخالق، وإنما تشبيه للثأر بالثأر. للفعل بالفعل.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الحكيم الترمذي في النوادر (٢/ ٢٣٢)، والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦٧)، وهكذا نقله عدد من المفسرين كابن كثير وغيره، لكن رواه والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٢)، وفي تفسيره (٧/ ١٩٤) سورة الشورى آية ٢٧ بلفظ: «وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد» ا. هـ. وكذا ذكره القرطبي في تفسيره من حديث أنس رضي الله عنه، وذكر ابن فارس في معجم المقاييس (ص٢٤١) ثلاثة أصول للحرد منها: الثاني: الغضب، يقال: حرد الرجل: غضب، ويقال: أسد حارد. وقال الفرزدق: لعلك يومًا أن تَرَيْني كأنما بَنِيَّ حوالَيَّ الليوث الحواردُ. ا. هـ.

الليث وهو السبع إذا أوذي واعتدي عليه، فإنه يهجم على من آذاه، وينتصر لنفسه.

هؤلاء هم أولياء الله الذين أحبوا ما يحبه، وأبغضوا ما يبغضه؛ من الأقوال والأعمال والأشخاص، فهم يحبون ما يحبه الله، ويبغضون ما يبغضه الله، لا يحبون بموجب الهوى، أو يعادون بموجب الهوى، وإنما يوالون ويعادون في ذات الله ﷻ.

وَهَذَا لِأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَوَالَوْهُ، فَأَحَبُّوا مَا يُحِبُّ، وَأَبْغَضُوا مَا يُبْغِضُ، وَرَضُوا بِمَا يَرْضَى، وَسَخِطُوا بِمَا يَسْخَطُ، [١] وَأَمَرُوا بِمَا يَأْمُرُ، وَنَهَوْا عَمَّا نَهَى، [٢]، وَأَعْطَوْا لِمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُعْطَى، وَمَنَعُوا مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُمْنَعَ، [٣].

الشرح:

[١] يرضون بما يرضي الله، ويسخطون عما يسخط الله ﷻ، هذا معنى الولاية الحقيقية.

[٢] أمروا بما يأمر الله ﷻ، ونهوا عما ينهى، ولا يثبتون شيئا من عند أنفسهم؛ فيأمرون بشيء لم يأمر الله به، أو ينهون عن شيء لم ينه الله عنه؛ كالمبتدعة الذين يأمرون بأشياء ما شرعها الله، أو ينهون عن أشياء قد شرعها الله لعباده، هؤلاء مبتدعة قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١).

[٣] أعطوا من يحب الله أنه يعطى؛ كالفقراء، والمساكين، والأيتام، وذوي القربى، ومن أمر الله بإعطائهم، وأمسكوا عمن نهى الله عن إعطائهم؛ من أعداء الله ورسوله، الذين يستعينون بما يعطون على عداوة الله ورسوله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة ﵂.

كَمَا فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»(١). [١].

الشرح:

[١] يعني: أقوى عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، عرفنا فيما سبق أن محبة العبد لله من أعظم أنواع العبادة، وكذلك محبة من يحبه الله من رسله، وأنبيائه، وعباده الصالحين، فهو يحبهم؛ لأن الله يحبهم، لا لطمع دنيوي، ولا لغرض نفسي، ولا لهوى، وإنما يحبهم؛ لأن الله يحبهم، كذلك البغض؛ لا يبغض بحسب هواه، أو رغبته، وإنما يبغض من يبغضه الله ﷻ، والله يبغض الكفار والمنافقين، ويبغض أهل المعاصي والسيئات، فهو يبغضهم، يعاديهم، فيوالي من يوالي الله، ويعادي من عادى الله ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، فهم يوالون هؤلاء، ويعادون الكفار والمنافقين والمخالفين؛ لأنهم أعداء لله، فهم يعادونهم؛ لأن الله عدو لهم. قال ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فلا يمكن أن تحب الكفار، والله يبغضهم، وقد عاداهم.

---

(١) ورد عن عدد من الصحابة ﷺ منهم: ابن مسعود عند الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣٣)، والطيالسي (١/ ٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٧١) ح (١٠٣٥٧)، و(١٠/ ٢٢٠) ح (١٠٥٣١)، والأوسط (٤/ ٣٧٦)، والبراء بن عازب عند أحمد (٤/ ٢٨٦)، ولفظه: «أَوْسَطُ عُرَى الْإِيمَانِ»، والطيالسي (١/ ١٠١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٠).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، قَالَ: «وَمَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»(١) [١].

الشرح:

[١] من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، ومن نقص شيئا من ذلك، نقص إيمانه، فإذا كان على هذا الميزان يحب من يحبه الله، ويبغض من يبغضه الله، ويعطي من يحب الله أن يعطى، ويبغض من يبغض الله، ويمنع من يحب الله أن يمنع، فهو يعطي ويبذل المال في طاعة الله، لا يبذله لأعداء الله ﷻ ومن يبغضهم الله، فهذا استكمل الإيمان، وإذا نقص شيء من ذلك، نقص إيمانه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والترمذي (٢٥٢١)، وقال: هذا حديث منكر، وفي بعض النسخ: هذا حديث صحيح، وأحمد في المسند (٣/ ٤٤٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٣٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٦٠)، والطبراني في الأوسط (٩/ ٤١)، والكبير (٤١٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٧).

وَالْوِلَايَةُ(١): ضِدُّ الْعَدَاوَةِ، [١] وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ: الْمَحَبَّةُ وَالْقُرْبُ، وَأَصْلُ الْعَدَاوَةِ: الْبُغْضُ وَالْبُعْدُ. [٢] وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْوَلِيَّ سُمِّيَ وَلِيًّا مِنْ مُوَالَاتِهِ لِلطَّاعَاتِ؛ أَيْ: مُتَابَعَتِهِ لَهَا. وَالْوَلِيُّ: الْقَرِيبُ، فَيُقَالُ: هَذَا يَلِي هَذَا، أَيْ: يَقْرُبُ مِنْهُ. [٣].

الشرح:

[١] هذا تفسير للوَلاية بفتح الواو، هي ضد العداوة، والولي من الوَلْيِ وهو القرب، فلان يلي فلانا؛ يعني: يقرب منه، والذي يليك في الصف يعني: يقرب منك: «لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلَامِ وَالنُّهَى»(٢)، فالولاية في اللغة القرب من الشيء، وليه يعني: قرب منه، وطاعة الله تسمى ولاية؛ لأنها تقرب إلى الله.

[٢] هذا أصلها في اللغة المحبة، والاه يعني: أحبه، وقرب منه، والمؤمن قريب من الله ﷻ، والكافر والمنافق بعيد عن الله ﷻ؛ فليس وليًّا لله.

[٣] وكذلك من معاني الولاية: موالاة الطاعة والمتابعة لها طول حياته،

(١) الوِلاية بالكسر السلطان، والولاية بالفتح والكسر النصرة، والْوَلِيُّ ضد العدو، يقال: تَوَلَّاهُ، وكل من وَلِيَ أمر واحد فهو وَلِيُّه، والمَوْلَى المُعْتِق والمُعْتَق.
وقال ابْنُ السِّكِّيتِ: «الوِلاية بِالْكَسْرِ: السُّلْطَانُ، والوَلاية والوِلاية: النُّصرة».
انظر مادة (ولي) في لسان العرب (١٥/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٢) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

لا يتركها في وقت، ويفعلها في وقت، وإنما يواليها حسب استطاعته، الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]؛ تواصل العمل، لكن من غير تشدد وغلو، وإنما باعتدال واقتصاد؛ كما أرشد النبي ﷺ إلى ذلك.

من يجتهد في الطاعة في وقت، ثم يتركها في وقت آخر، فهذا لم يوال العبادة، فهذا نقص في ولايته لله ﷻ. والأول - أنها من القرب والطاعة - أصح من (متابعة العمل والاستمرار عليه).

وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتْ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»(١)، أَيْ: لِأَقْرَبِ رَجُلٍ إِلَى الْمَيِّتِ. [١].

الشرح:

[١] يعني: أقرب أولى، يعني: أقرب رجل إلى الميت من عصبته، «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ» أي: الفروض المقدرة في كتاب الله؛ كالنصف، والربع، والثمن، والثلثين، والسدس، والثلث، هذه هي الفروض المقدرة في كتاب الله، وهي ستة، هذه يبدأ بها عند تقسيم التركة، فتعطى لأصحابها، فإن بقي شيء بعد الفروض، يعطى لأقرب عاصب للميت: «فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضُ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»، ما فائدة قوله: (ذكر) بعد قوله: (رجل)؟ قالوا: لئلا يفهم أنه لا يكون عصبة إلا إذا كان رجلا كبيرا، بل المهم الذكورية، ولو كان صغيرا، ولو كان حملا في البطن، المهم أنه ذكر، ولو كان صغيرا، وقيل غير ذلك؛ كما يذكر المؤلف.

(لِأَقْرَبِ رَجُلٍ إِلَى الْمَيِّتِ)؛ من العصبة، والعصبة على الترتيب بعضهم أقرب من بعض.

فَبِالْجِهَةِ التَّقْدِيمُ ثُمَّ بِقُرْبِهِ   وَبَعْدَهُمَا التَّقْدِيمُ بِالْقُوَّةِ اجْعَلَا(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: الرحبية.

لأن العصبة جهات: جهة الأبوة، جهة البنوة، جهة الأخوة، جهة الجدودة، جهة العمومة، . . . إلى آخره، ست جهات، يبدأ بالأقرب، فالأقرب.

وَأَكَّدَهُ ﷺ بِلَفْظِ: «الذَّكَرِ» لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ حُكْمٌ يَخْتَصُّ بِالذُّكُور [١]، وَلَا يَشْتَرِكُ فِيهَا الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ فِي الزَّكَاةِ: «فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٍ»(١). [٢].

الشرح:

[١] هذا قول؛ يعني: لا يدخل فيه الإناث إلا في مسألة العصبة بالغير، أو مع الغير، أو المعتقة، عصبة بالنفس المعتقة، فإنها ترث عتيقها، قال:

وَلَيْسَ فِي النِّسَاءِ طُرًّا عَصَبَةُ ... إِلَّا الَّتِي مَنَّتْ بِعِتْقِ الرَّقَبَةِ(٢)

يعني: ليس في النساء عصبة بالنفس، ليس فيهن عصبة بالنفس، وإنما النساء تكون عصبة بالغير أو مع الغير. أو تكون معتقة، فقط المعتقة.

[٢] هذا فيه نظر؛ الإناث تشترك مع الذكور إذا كن عصبة للغير، كالبنات مع البنين والأخوات مع الإخوة، وكذلك المعتقة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٦٧)، والنسائي (٥/ ١٩)، وابن ماجه (١٧٩٨)، وأحمد (١/ ١١)، ومالك في الموطأ برقم (٥٩٩)، وابن أبي شيبة (٩٨٨٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٦٧٩٣)، وابن خزيمة (٢٢٦١)، وابن حبان (٣٢٦٦).

(٢) انظر: الرحبية (باب التعصيب).

فَإِذَا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ هُوَ الْمُوَافِقُ الْمُتَابِعُ لَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُبْغِضُهُ وَيُسْخِطُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ كَانَ الْمُعَادِي لِوَلِيِّهِ مُعَادِيًا لَهُ؛ [١] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، [٢] فَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ عَادَاهُ وَمَنْ عَادَاهُ فَقَدْ حَارَبَهُ، فَلِهَذَا قَالَ: «وَمَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»(١) [٣].

الشرح:

[١] هذا وجه قوله ﷺ: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب أو فقد بارزني بالمحاربة»؛ فإن الله ينتصر لأوليائه من أعدائهم.

[٢] وهذه -كما سبق- نزلت في قضية الحديبية، وما حصل من بعض الصحابة من الخطأ الذي غفره الله لصاحبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾؛ يعني: الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ يعني: أحبابا تحبونهم، وتناصرونهم، فدل على أن المودة هي الموالاة، أو هي أصل الموالاة، ثم تتبعها المناصرة، هذا تفسيرها.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تفسير لقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾

[٣] لماذا يعادي أولياء الله؟ إلا لأن الله يحبهم، ولأنهم أطاعوا الله ﷻ، فهو يبغضهم من أجل ذلك، فهو معاد لله ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٤).

أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ هُمْ أَنْبِيَاؤُهُ، [١] وَأَفْضَلُ أَنْبِيَائِهِ هُمُ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ، [٢].

الشرح:

[١] الأولياء درجات، أفضلهم الأنبياء ﷺ، فلا أحد يساوي الأنبياء في منزلتهم عند الله ﷻ؛ لأنهم صفوته من خلقه، اصطفاهم الله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهو اصطفاهم ﷻ، واختارهم؛ فهم أقرب الخلق إلى الله، وأحب الخلق إلى الله الأنبياء، وفي هذا رد على من يفضل الولي على النبي، وهم الصوفية.

[٢] الأنبياء والمرسلون ما الفرق بينهم؟ الأنبياء جمع نبي، والرسل أو المرسلون جمع رسول، ما الفرق بين الرسول والنبي؟ قالوا: النبي هو من بعث بشرع من قبله من الأنبياء، وقد يوحى إليه في قضية خاصة، لكن هو لا ينزل عليه شرع مستقل كما ينزل على الرسول، وأما الرسول فهو من أوحي إليه بشرع، النبي لم يوح إليه بشرع، وإنما أمر باتباع شرع من قبله من الرسل، مثل: أنبياء بني إسرائيل كانوا يحكمون بشريعة موسى ﷺ وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى، فهم أنبياء، وليسوا رسلا. هذا الفرق بين النبي والرسول: النبي لا ينزل عليه شرع، والرسول ينزل عليه شرع، فالرسول أعم من النبي؛ ولذلك قالوا: كل رسول فهو نبي، وليس كل نبي رسولا، فبينهما عموم وخصوص، الله ﷻ قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، ذكر هؤلاء وهؤلاء، وعطف بالواو، فدل على المغايرة، فكل رسول فهو نبي، وليس كل نبي رسولا[١].

(١) انظر: (الرسل والرسالات) للشيخ عمر الأشقر (ص١٤).

وَأَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ أُولُو الْعَزْمِ: [١] نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ ﷺ، [١].

الشرح:

[١] الرسل يتفاضلون: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالرسل يتفاضلون ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فهم يتفاضلون ﷺ الرسل أفضل من الأنبياء، وأفضل الرسل أولو العزم الخمسة، الذين ذكرهم الله في سورة الشورى وفي سورة الأحزاب. ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣]، هؤلاء هم أولو العزم، قال ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، والعزم هو القوة والصبر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]. [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ وصى محمدا ﷺ بما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ﵈، فدين الأنبياء واحد، وهو التوحيد، عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم، فإن دينهم واحد؛ ولهذا قال ﷺ: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»(١).

﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ ما الذي وصى به هؤلاء؟ ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، وإقامة الدين: إخلاص العبادة لله على وفق ما شرع؛ يعني: لابد من شرطين: الإخلاص، وموافقة الشرع، والشرع يختلف في كل زمان بحسب وقت الأنبياء السابقين: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، فعبادة الله هي عبادته بما شرع في كل وقت بحسبه، ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ أمة واحدة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فلا يجوز التفرق في الدين؛ لأن الدين واحد، فلا يجوز التفرق فيه، كل له دين، وكل له نحلة، وكل له طريقة، الطريق واحد، الدين واحد هو دين الله ﷻ، ما نبتكر شيئا من عندنا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﵁.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ⑦ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⑧﴾ [الأحزاب: ٧، ٨]. [١] **وَأَفْضَلُ أُولِي الْعَزْمِ مُحَمَّدٌ ﷺ [٢].**

الشرح:

[١] هذه الآية الثانية التي ذكر الله فيها أولي العزم في سورة الأحزاب. هؤلاء هم الخمسة أولو العزم.

[٢] وَأَفْضَلُ أولي العزم محمد ﷺ؛ لأنه إمام المرسلين، وميزه الله بمزايا ليست عند غيره، منها أنه بعثه إلى الناس كافة، وكان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة، وهذا الرسول بعث إلى الناس كافة، وشريعة كل رسول تنتهي وتنسخ بشريعة بعدها، إلا هذه الشريعة؛ فإنها باقية إلى أن تقوم الساعة، فهذه من خصائصه ﷺ، ومما يدل على فضله ﷺ على غيره من المرسلين. ومن بعده إبراهيم، بعد محمد ﷺ إبراهيم، فأفضل أولي العزم الخليلان؛ محمد وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام -، قال ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»[١]، فهو أفضل الخليلين، والخليلان أفضل أولي العزم. وهذا كما قال ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ولكن يلاحظ أنه

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤١) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

لا يجوز التفضيل بين الأنبياء من باب المفاضلة، أو تنقص المفضول، هذا لايجوز، وإنما من باب التحدث بنعمة الله ﷻ، لا من باب تنقص المفضول ولهذا قال ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[(١)]، مع أنه ﷺ أفضل من يونس وغيره، لكن إذا كان هذا من باب المفاضلة أو تنقص المفضول، فلا يجوز، وقال ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»[(٢)]، نهى عن المفاضلة بين الرسل من باب تنقص المفضول والمفاخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٦)، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

خَاتَمُ النَّبِيِّينَ[(١)]، [١] وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، [٢].

الشرح:

[١] قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، معنى خاتم النبيين: أنه لا يأتي بعده نبي إلى أن تقوم الساعة، فلابد من اعتقاد هذا؛ أنه خاتم النبيين، وأنه لا يبعث بعده نبي، فمن أجاز أن يبعث بعده نبي، فهو كافر؛ لأنه مخالف للقرآن: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ومخالف للسنة الصحيحة؛ قال ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»[(٢)]، وأخبر أنه يأتي من بعده كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، قال ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، فمن أجاز أن يأتي بعده نبي، فهو كافر؛ ولذلك كفر المسلمون القاديانية، الذين زعموا أن أحمد القادياني نبي، كفرهم المسلمون، أجمع المسلمون على تكفيرهم، ومنعوهم من الحج، ومن المجيء إلى مكة؛ لأنهم كفار.

[٢] وهذا سيأتي، كيف يكون إمام المتقين؟ يأتي هذا بأنه أول من يبعث، وأول من يستفتح باب الجنة، وأن الناس يكونون يوم القيامة تحت لوائه ﷺ.

---

(١) دليله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ(١)، [١] وَإِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا اجْتَمَعُوا، [٢] وَخَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا(٢)، [٣].

الشرح:

[١] قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ»(٣)، هذا من باب التحدث بنعمة الله، لا من باب الفخر أو تنقص المفضول، وإنما هو من التحدث بنعمة الله.

[٢] وهذا عند الله ﷻ، ولذلك لما أسري به ﷺ إلى بيت المقدس، جمع الله له الأنبياء، فصلى بهم ﷺ، صار إمامهم.

[٣] إذا وفدوا على الله ﷻ، فإنه يؤذن له بالكلام ﷺ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

---

(١) أخرج مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ».

(٢) أخرج الترمذي (٣٦١٣)، وابن ماجه (٤٣١٤)، وأحمد (٥/ ١٣٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٦٦)، والحاكم (٤/ ٧٨) من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد ﷺ.

صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ(١)، الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، [١].

الشرح:

[١] المقام المحمود هذا أيضا من فضائله ﷺ، مما فضله الله به على غيره من الأنبياء، والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى؛ حينما يشتد القيام على الخلائق في المحشر، ويطلبون من يشفع لهم عند الله؛ ليفصل بينهم، ويريحهم من الموقف، فيتقدمون إلى آدم، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، وكلهم يعتذر، ثم ينتهون إلى محمد ﷺ، فيقول: «أَنَا لَهَا»، فيخر ساجدا بين يدي الله ﷻ، ولا يزال ساجدا يدعو ربه، حتى يقال له: «يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(٢)، فيشفع في الخلائق بأن يحاسبهم الله، ويصرفهم من الموقف الطويل، الذي شق عليهم خمسين ألف سنة، وهم وقوف على أقدامهم، وهذا هو المقام المحمود: ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، يحمده عليه الأولون والآخرون.

---

(١) أخرج البخاري (٦١٤) عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهم رَبَّ هذه الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ، وآت محمد الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الذي وَعَدْتَهُ إلاَّ حَلَّتْ له الشَّفَاعَةُ يوم الْقِيَامَةِ».

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس ﷺ.

وَصَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ(١) [١]، وَصَاحِبُ الْحَوْضِ الْمَوْرُودِ(٢)، [٢] وَشَفِيعُ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، [٣].

الشرح:

[١] اللواء هو الراية التي يجتمع تحتها الجند.

[٢] الذي جاء وصفه في الأحاديث أنه حوض طوله مسافة شهر، وعرضه مسافة شهر، وأن ماءه أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل(٣)، وأن من شرب منه شربة، فلا يظمأ بعدها أبدا، هذا لمحمد ﷺ.

[٣] شفيع الخلائق؛ كما سبق في المقام المحمود.

---

(١) أخرج الترمذي (٣١٤٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٨١)، وابن حبان (٦٤٧٨)، والحاكم (١/ ٨٣)، وأبو يعلى (٢٣٢٨)، والطيالسي (٢٧١١)، والطبراني في الكبير (١٧٥٠) والأوسط (٣٥٧٠).

(٢) انظر: أحاديث الحوض في صحيح البخاري كتاب الرقاق باب الحوض ح (٦٥٧٥) إلى (٦٥٩٣)، وصحيح مسلم ح (٢٢٨٩) إلى (٢٣٠٥).

(٣) رواه البخاري (٦٥٧٩، ٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٠، ٢٣٠١) ونصه كما في مسلم هو: «إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ». فَسُئِلَ عَنْ عَرْضِهِ، فَقَالَ: «مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ». وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ، فَقَالَ «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ وَالآخَرُ مِنْ وَرِقٍ».

وَصَاحِبُ الْوَسِيلَةِ وَالْفَضِيلَةِ(١)،[١] الَّذِي بَعَثَهُ بِأَفْضَلِ كُتُبِهِ، وَشَرَعَ لَهُ أَفْضَلَ شَرَائِعِ دِينِهِ [٢] وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [٣]،

الشرح:

[١] صاحب الوسيلة، وهي القصر الذي في الجنة، «سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(٢).

[٢] من فضائله على غيره من الأنبياء: أن شريعته هي أفضل الشرائع، كاملة شاملة، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وباقية لا تنسخ إلى أن تقوم الساعة. وأيضا الكتاب الذي أنزله عليه أفضل الكتب على الإطلاق، القرآن هو أفضل الكتب الإلهية على الإطلاق

[٣] كما قال ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهم خير للناس في أنهم يدعون إلى الله، ويعلمون، ويجاهدون في سبيل الله؛ لينشروا هذا الدين، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فخيرهم ليس قاصرا عليهم، وإنما يتعدى للناس كافة، وهذا واضح في جهاد المسلمين ونشر هذا الدين في المشارق والمغارب، حتى أنقذ الله به أمما من الكفر، ومن الضلال، ومن النار، ومن الجهل.

---

(١) حديث الشفاعة سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) رواه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

وَجَمَعَ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ مَا فَرَّقَهُ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ، [١] وَهُمْ آخِرُ الْأُمَمِ خَلْقًا، وَأَوَّلُ الْأُمَمِ بَعْثًا، [٢] كَمَا قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ» [٣].

الشرح:

[١] جمع ما فرقه؛ لأن الجمع ضد التفريق، فهم اجتمعت فيهم الفضائل المتفرقة في الأمم السابقة.

[٢] آخر الأمم خلقا، أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم، وبعدها تقوم الساعة، وهم أول الأمم بعثا، إذا بعث الناس من قبورهم، فهم أول من يبعث، وأول الأمة محمد ﷺ، هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ﷺ، فهم وإن كانوا متأخرين في الخلق، إلا أنهم السابقون في البعث.

[٣] نحن الآخرون؛ يعني: في الخلق، السابقون في البعث يوم القيامة، «بَيْدَ أَنَّهُمْ»؛ أي: من أجل أنهم، «بَيْدَ أَنَّهُمْ» بمعنى: من أجل، أو بمعنى: التعليل؛ لأننا أوتينا الكتاب من بعدهم، وأوتوا الكتاب من قبلنا، فهي تعليلية، «بيد» تعليلية، ما سبب أننا السابقون يوم القيامة؟ لأننا أوتينا الكتاب من بعدهم، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٣]، تأمل! الظالم لنفسه،

والمقتصد، والسابق بالخيرات كلهم يدخلون الجنة، ولله الحمد والمنة، فهو ﷻ أورث هذه الأمة الكتاب، الذي هو القرآن المهيمن على الكتب التي قبله، المصدق لها.

«بَيْدَ أَنَّهُمْ» قيل: إنها بمعنى غير؛ أي: غير أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وقيل: إنها تعليلية؛ أي: لأجل أننا أوتينا الكتاب، والشيخ يرجح هذا، يرجح أنها بمعنى: لأنا أوتينا الكتاب، تعليلية؛ كما ذكر هذا في اقتضاء الصراط المستقيم[(١)].

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٠٧).

فَهَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ - يَعْنِي يَوْمَ الْجُمْعَةِ -، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، النَّاسُ لَنَا تَبَعٌ فِيهِ، غَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»(١) [١].

الشرح:

[١] ومما يدل على فضل هذه الأمة أن الله اختار لها يوم الجمعة، بينما اليهود أخذوا يوم السبت، والنصارى أخذوا يوم الأحد، فالله ﷻ اختار لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم الذي تجتمع فيه الفضائل: فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وأخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه، فهو يوم الجمعة، اختاره الله لهذه الأمة، أما اليهود، فهم أخذوا يوم السبت، اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يجعلونه يوما للعبادة، فاليهود أخذوا يوم السبت، والنصارى أخذوا يوم الأحد، لماذا؟ قالوا: لأن يوم السبت هو اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض، وقالت النصارى: الأحد الذي بدأ الله فيه خلق السماوات والأرض؛ لأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فاليهود زعموا أن الله استراح يوم السبت؛ لأنه تعب من خلق السماوات والأرض - تعالى الله عما يقولون -، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ يعني: لم يتعب، (العي) هو التعب،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا رد على اليهود، زعموا أن الله استراح من التعب في يوم السبت، فهم يعطلون فيه، ويتعبدون فيه، وهذا زعم باطل.

النصارى أخذوا يوم الأحد؛ لأنه هو بداية الخلق، لكن الجمعة كمال الخلق، أيهما أفضل البداية أو الكمال؟ الكمال، فاختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة؛ ولهذا ما حسدونا على شيء مثلما حسدونا على يوم الجمعة، فهذا يدل على فضل هذه الأمة أن الله اختار لها أفضل الأيام يوم الجمعة، فيوم الجمعة هو اليوم الأول، وهم صاروا تبعًا بعده، صار يوم السبت ويوم الأحد بعد يوم الجمعة، فصار السبق لهذه الأمة، ولله الحمد.

وَقَالَ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ»(١) [١] وَقَالَ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِك أُمِرْت إِلَّا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَك»(٢) [٢].

الشرح:

[١] أي: عند البعث، إذا نفخ في الصور، ثم انشقت الأرض عمن فيها، أول من تنشق عنه الأرض نبينا محمد ﷺ، هذا يدل على فضله ﷺ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤]

[٢] وهذا من فضائل هذا الرسول وفضائل أمته أنه أول من يستفتح باب الجنة، وأن الله أمر خازن الجنة أن لا يفتح لأحد قبله، قال ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]، أول من يستفتح هو نبينا محمد ﷺ، وهو أول من يدخل الجنة من الرسل، وأول من يدخلها من الأمم أمة محمد ﷺ، وإن كانوا الآخرين في الخلق، إلا أنهم السابقون يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: (فأكون أول من بعث)، وأخرجه مسلم (٢٢٧٨) بلفظ: «وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ».

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

وَفَضَائِلُهُ ﷺ وَفَضَائِلُ أُمَّتِهِ كَثِيرَةٌ، [١] وَمِنْ حِينِ بَعَثَهُ اللَّهُ جَعَلَهُ اللَّهُ الْفَارِقَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، [٢] فَلَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، [٣].

الشرح:

[١] قال ﷺ: (وَفَضَائِلُهُ) أي: (النبي ﷺ)، التي فاز بها على غيره من الأنبياء والمرسلين، ومن سائر الخلق ﷺ (وَفَضَائِلُ أُمَّتِهِ) على سائر الأمم (كثيرة) مذكورة في القرآن والسنة.

[٢] منذ بعثه الله، أرسله إلى الناس، جعله فارقا بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فرق الله به بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، بين الرشد والغي، بما أنزل الله عليه من الكتاب والسنة، وبما أعطاه الله من القدرة على البيان والإيضاح، ومما أعطاه الله من النصح والأمانة، فهو ﷺ فرق الله به بين الحق والباطل.

[٣] لا يكون وليًّا لله إلا من آمن به -أي: بالرسول ﷺ- باطنا وظاهرا، فلا يكفي أنه يؤمن به في الظاهر كالمنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وكذلك من آمن به في الباطن، ولم يقر له بالرسالة، وذلك كالمشركين، واليهود، والنصارى الذين يعرفون أنه رسول الله، لكن منعهم الكبر والحسد والحمية الجاهلية من الإقرار برسالته ﷺ،

قال ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال في اليهود والنصارى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، فلا يكون مؤمنا بهذا الرسول ﷺ إلا من آمن به ظاهرا وباطنا.

وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَوِلَايَتَهُ وَهُوَ لَمْ يَتْبَعْهُ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ؛ بَلْ مَنْ خَالَفَهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. [١].

الشرح:

[١] من ادعى محبة الله وولاية الله، أنه ولي لله، وهو لا يتبع هذا الرسول ﷺ، فإنه كاذب، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، فالله ﷻ جعل علامة الصدق على محبة الله اتباع هذا الرسول ﷺ، فمن لم يتبعه، فإنه لا يحب الله، وإن ادعى ذلك، اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ادعوا هذه الدعوى، لكنهم لم يؤمنوا بهذا الرسول ﷺ، فهم أعداء الله، فمن لم يؤمن بهذا الرسول، فهو عدو لله لا يحب الله ﷻ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: ادَّعَى قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِحْنَةً لَهُمْ(١) [١].

الشرح:

[١] من اليهود والنصارى وغيرهم؛ من الصوفية والقبورية وغيرهم يدعون محبة الله، ومحبة رسوله، لكنهم لا يطيعون الله ورسوله، فدعواهم كاذبة، قال الشاعر:

تعصي الإلهَ وأنتَ تظهرُ حُبَّه ... هذا محالٌ في القياسِ بديعُ
لو كان حبُّكَ صادقًا لأطعتَهُ ... إن المحبَّ لمن يُحِبُّ مطيعُ(٢)

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، فمن اتبع هذا الرسول ﷺ، فإن الله يحبه، ومن لم يتبع هذا الرسول، فإن الله يبغضه، وهو عدو لله ﷻ، وإن كان يدعي أنه ولي لله، هذه علامة محبة الله اتباع الرسول ﷺ، وأما ثمراتها: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]، هذه ثمرتها أن الله يغفر

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٣٢)، وشرح اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٧٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٥٩).

(٢) ينسب هذان البيتان لمحمود الوراق، انظر: الكامل للمبرد (٢/ ٤)، كما ينسبان للنابغة الذبياني، انظر: ديوان النابغة (١/ ٦٣)، وينسبان للإمام الشافعي، انظر: ديوان الشافعي (١/ ٦٧)، وكذلك ينسبان لعبد الله بن المبارك، انظر: ديوان ابن المبارك (١/ ١٥).

لمن أطاع هذا الرسول ﷺ، فذكر علامتها، وهو ال اتباع، وذكر ثمرتها، وهي أن الله يحبه، ويغفر له ذنوبه، ذكر شيئين من ثمراتها: نيل محبة الله، والمغفرة.

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ فِيهَا أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ، وَمَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَّبِعْ الرَّسُولَ ﷺ فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، [١] وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَظُنُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ فِي غَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، [٢] فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. [٣].

الشرح:

[١] في هذه الآية واضح.

[٢] كثير يدعون أنهم أولياء الله؛ دعوى، ويزعمون ذلك لأنفسهم أو لغيرهم ممن يقولون: هؤلاء أولياء الله، لكن عند التطبيق لأعمالهم تجدون أنهم لا يتبعون الرسول ﷺ، ولا يطيعونه، وإنما يتبعون غيره، ويطيعون غيره من قادتهم، وأئمتهم، ودعاتهم، فهؤلاء كَذَبة في دعواهم محبة الله ﷻ، وكَذَبة في دعواهم أنهم أولياء الله، خذ هذه الآية دائما معك: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾، هذه هي المقياس: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾.

[٣] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] (أبناؤه) أي: أننا مفتقرون إليه، وفقراء إليه، ليس معناه البنوة النسبية، إنما عندهم أن الله هو الأب، وأنهم أبناؤه؛ يعني: أنهم الفقراء إليه، وأنهم عباده المخلصون ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، لو كنتم أحبابه ما عذبكم بذنوبكم ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾، أنتم كغيركم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ﴾ [المائدة: ١٨]. [١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢] [٢].

الشرح:

[١] هذا الرد عليهم.

[٢] زعموا أنه لا يهتدي إلا من كان يهوديا أو نصرانيا، فمعنى هذا أن هذه الأمة ليست مهتدية، وأنها كافرة؛ لأنها ليست يهودية، ولا نصرانية، ثم قالوا - أيضا -: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١]، احتجزوا الجنة، حتى احتجزوها لأنفسهم، فلا يدخلها إلا من كان منهم، رد الله عليهم: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، الدليل الذي يدل على هذه المقالة: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنه لا يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى؛ لأن من ادعى شيئا، فلابد أن يقيم الدليل عليه، مجرد الدعوى لا تقبل إلا بدليل، ولهذا قال: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، فيطلب الدليل من النافي؛ كما أنه يطلب من المثبت، هم الآن قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ﴾، هذا نفي، ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ فيطلب الدليل منهم؛ كما أن من أثبت شيئا، فلابد أن يقيم الدليل عليه، ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ١١١- ١١٢]؛

أي: بلى يدخل الجنة غير اليهود والنصارى ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: أخلص عبادته لله من الشرك، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول ﷺ، فهذه شروط قبول العمل: الإخلاص لله ﷻ، والاتباع للرسول ﷺ.

وَكَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ اللَّهِ؛ لِسُكْنَاهُمْ مَكَّةَ، وَمُجَاوَرَتِهِمْ الْبَيْتَ، [١].

الشرح:

[١] كان أهل مكة يفتخرون على غيرهم بأنهم سكان مكة، سكان الحرم، وأنهم سدنة البيت، وأنهم يخدمون البيت، ويبنونه، استكبروا به على الناس، وظنوا أن هذا يكفيهم عند الله ﷻ، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤]، فأولياء البيت هم المتقون ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٧-٢٠]، هذه الفوارق، فمجرد أنهم يخدمون البيت، أو يبنونه، أو يخدمون الحجاج، ويسقون الحجاج، هذا كله لا يكون لهم به ميزة على الناس.

وَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧]، [١] **وقال تعالى:** ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، **إلى قوله:** ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، [٢].

الشرح:

[١] يعني يقولون: لو ما اتبعنا الرسول، لو ما اتبعنا محمدا، يكفينا أننا عمار البيت والقائمون على شؤونه.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالبيت.

﴿سَٰمِرًا﴾؛ يسمرون بالليل في نواديهم، ويتمدحون بذلك على الناس.

﴿تَهْجُرُونَ﴾؛ أي: يقولون القول الهجر، والقول القبيح.

﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾؛ يعني: سمركم بالليل كله بالكلام الهجر، والكلام الفاحش البذيء. هذا رد عليهم.

[٢] اجتمعوا في دار الندوة، التي يجتمع فيها خبراؤهم وأصحاب الرأي منهم: ماذا يفعلون بمحمد الذي سب آلهتهم، وسفه أحلامهم؟ وأيضا لما هاجر أصحابه إلى المدينة، خافوا أن يلحق بهم، فتتكون له قوة، فيغزوهم، ويسيطر عليهم، أرادوا منعه من الهجرة واللحاق بأصحابه، فاجتمعوا في

دار الندوة يتشاورون: ماذا يفعلون به؟ قال بعضهم: يحبس ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، والإثبات معناه الحبس، يحبس حتى يموت؛ كما مات غيره من الشعراء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]؛ يعني: ننتظر لما يموت، يحبس ويترك في الحبس إلى الموت؛ حتى لا يهاجر ويذهب لأصحابه، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾، ينهون حياتك، ويستريحون منك، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يطردونك من مكة؛ حتى لا تفسد عليهم أمرهم، يطردونك من مكة ومن الحرم؛ حتى لا تفسد عليهم أمرهم، جاءهم الشيطان في صورة إنسان، وقال لهم: اجمعوا جماعة من الفتيان من كل قبيلة فتى قوي، وأعطوهم الرماح، فإذا خرج محمد، فإنهم يطعنونه طعنة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل؛ فلا تقدر قريش على أخذ القبائل كلها، فقالوا: هذا هو الرأي، فجاءوا بالفتيان، ومعهم السلاح، ويترصدون لخروج النبي ﷺ، فالله أخرجه من بينهم، وهم لا يشعرون، وترك عليا رضي الله عنه على فراشه ينظرون إليه، يظنون أنه الرسول، وخرج من بينهم لا يشعرون به، أخرجه الله من بينهم، وذر التراب على رؤوسهم، ثم خرج إلى أبي بكر رضي الله عنه، وخرج الاثنان إلى غار ثور، واختفيا فيه، حتى انقطع عنهم الطلب، ثم ذهبا إلى المدينة بسلام وأمان من الله تعالى، حتى وصلوها، ولحق بأصحابه، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠] مكر الله لرسوله، فأخرجه من بينهم -وهم لا يشعرون- بطريقة عجيبة، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ إلى قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥-٣٦] وقال: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤]، ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢]، يتحدون الله ﷻ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، إن كان هذا القرآن من عندك، يتحدون الله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، يتحدون الله ﷻ! قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ ما دام الرسول بين أظهرهم، فلن يعذبهم الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]، فذكر مانعين من العذاب:

المانع الأول: وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم، كل نبي من الأنبياء إنما يهلك قومه، إذا أخرجه الله من بينهم.

المانع الثاني: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ لأن الاستغفار يدفع العذاب، الاستغفار يدفع العذاب، ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ [الأنفال: ٣٤]، يمنعون الحجاج والمعتمرين، ويسيطرون على الناس، ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، صدوا النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾، هذا محل الشاهد، ما كانوا أولياء المسجد الحرام؛ ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَهُ وَلَا أَوْلِيَاءَ بَيْتِهِ، إِنَّمَا أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ [١] وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ جِهَارًا مِنْ غَيْرِ سِرٍّ: «إِنَّ آلَ فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ - يَعْنِي: طَائِفَةً مِنْ أَقَارِبِهِ - إِنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»(١)، [٢].

الشرح:

[١] هذا الفاصل في القضية؛ أن مجرد دعوى الولاية لا يكفي حتى يقوم الدليل عليها، وهو التقوى، فمن ادعى الولاية، ينظر في عمله، فإن كان عمله صالحا، وكان يتقي ربه ﷻ، فهو ولي، وأما إن كان بخلاف ذلك، فهو ولي للشيطان، وليس وليًا للرحمن، هذا فيه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، معناه: أن هذا حصر للولاية في المتقين، معناه: أن غير المتقين ليسوا أولياء الله، وإنما هم أولياء الشيطان.

[٢] أقارب الرسول ﷺ إذا كانوا على الكفر، فليسوا أولياءه ﷺ، إن أولياؤه إلا الله وصالح المؤمنين، أولياء الرسول ﷺ هم الله ﷻ - هو وليه - وصالح المؤمنين، انظر: صالح المؤمنين، هذا هو الولي: صالح المؤمنين فدل على أن مجرد القرابة من الرسول ﷺ لا تنفع، إنما الذي ينفع هو العمل الصالح، ولو لم يكن من أقارب الرسول ﷺ، فأبو لهب عم الرسول ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

وهو في النار، أبو لهب وأبو طالب وكل من لم يؤمن بالرسول ﷺ، فهو في النار، وهم أعمامه، وبلال وسلمان وصهيب وغيرهم هؤلاء أرقاء مماليك، وصاروا سادات في الأولياء بإيمانهم بالله ﷻ واتباعهم للرسول ﷺ.

وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤][١] وَ«صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» هُوَ مَنْ كَانَ صَالِحًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ. وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ،

الشرح:

[١] هذا في قصة ما جرى من زوجات النبي ﷺ مع الرسول ﷺ من أنه حصل- خصوصا عائشة وحفصة رضي الله عنهما - منهن شيء من التأثير على الرسول ﷺ والمضايقة[1]، يطالبن بأشياء الرسول ﷺ لا يقدر عليها ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]؛ يعني: عائشة وحفصة رضي الله عنهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: تتعاونا على الرسول ﷺ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، فهؤلاء هم أولياء الرسول ﷺ الله، وملائكته، وصالح المؤمنين هم أولياء الرسول وأحبابه وأنصاره، ومن كان هؤلاء أولياؤه، فلن يغلب.

---

(١) عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ زَعَمَ عَطَاءٌ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَزْعُمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ. فَقَالَ: «لَا بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ». فَنَزَلَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لِقَوْلِهِ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا». أخرجه البخاري (٦٦٩١)، ومسلم (٢٠) (١٤٧٤).

ومحل الشاهد: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأولياء الرسول ﷺ هم صالح المؤمنين، وليسوا الأقارب في النسب مع عدم الإيمان.

وقوله: (وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ) هؤلاء هم سادة أولياء الله؛ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ؛ الخلفاء الأربعة، وبقية العشرة ﷺ، والصحابة ﷺ كلهم أولياء الله، لكن بعضهم أفضل من بعض.

وَسَائِرُ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، [١] كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»(١). [٢].

الشرح:

[١] يوم الحديبية لما حصل من المشركين الصد لرسول الله ﷺ والصحابة عن الوصول إلى البيت، فأرادوا التفاوض، ثم أرسل الرسول ﷺ عثمان رضي الله عنه إلى أهل مكة، فأشيع أن عثمان رضي الله عنه قد قتل في مكة، النبي ﷺ طلب أصحابه للبيعة على القتال، فبايعوه تحت الشجرة على القتال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، فنالوا هذه الكرامة، وهي رضا الله عنهم، وكانوا ألفا وأربعمائة.

[٢] لقد رضي الله عنهم، وأخبر النبي ﷺ أنهم لا يدخلون النار، فهؤلاء هم أولياء الله على الحقيقة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر رضي الله عنها بلفظ مقارب.

وَمِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ الآخَرِ: «إِنَّ أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ، أَيًّا كَانُوا، وَحَيْثُ كَانُوا»[(١)] [١] كَمَا أَنَّ مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ وَلَيْسَ وَلِيًّا لِلَّهِ؛ بَلْ عَدُوٌّ لَهُ، [٢].

الشرح:

[١] يقول ﷺ: «إِنَّمَا أَوْلِيَائِيَ الْمُتَّقُونَ»[(٢)]، وليسوا غير المتقين، فكل تقي، فهو ولي لله ورسوله، أينما كانوا من الأرض، ولو لم يكونوا في مكة، أينما كانوا من الأرض، حيث كانوا، ومن كانوا، ولو كانوا من الموالي، أو من المماليك، أو من العرب، أو من العجم، من كانوا، المتقون هم من كانوا أولياء الرسول ﷺ.

[٢] من الكفار من يزعم أنه ولي لله؛ مثل: ما سبق من دعاوى المشركين من أهل مكة، وأنهم أهل البيت، وأنهم أهل الحرم، فيستكبرون بذلك على الناس، ويظنون أن هذا يكفي عن اتباع الرسول ﷺ، ويدعون أنهم أولياء الله؛ لأنهم أولياء بيته، فهم أولياء الله، الله ﷻ رد عليهم: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، فهذا موجود في المشركين، وكذلك وجد هذا في المنافقين، وفي اليهود والنصارى وغيرهم؛ ادعاء الولاية، وليس لها دليل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٤٢)، وأحمد (٥/ ٢٣٥)، وابن حبان (٦٤٧)، والطبراني في الأوسط (١/ ٣٤)، والكبير (٥/ ٤٥) بألفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فَكَذَلِكَ مَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ يُقِرُّونَ فِي الظَّاهِرِ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، [١] وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ؛ بَلْ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، [٢].

الشرح:

[١] وممن يدعي الولاية ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: المنافقون الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر.

والطائفة الثانية: الصوفية؛ غلاة الصوفية الذين يزعمون أنهم وصلوا إلى الله؛ فليسوا بحاجة إلى الرسول، والرسول لم يبعث إليهم، وإنما بعث للعوام، وليسوا بحاجة إليه.

والطائفة الثالثة: اليهود والنصارى، الذين آمنوا بالرسول، لكن قالوا: رسالته للعرب خاصة، ولا يدخل فيها اليهود والنصارى، وهذا يأتي - إن شاء الله -.

[٢] يعترفون بهذا ظاهرًا، لكنهم في الباطن لا يعترفون برسالته، ويكفرون به: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ [المنافقون: ١-٢]، (أيمانهم): الشهادة؛ لأن الشهادة يمين، فقولهم: نشهد إنك لرسول الله. هذا يمين، ﴿أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢]؛ أي: سترة يستترون بها عن القتل؛ أن يفعل بهم ما فعل بالكفار، فهم أظهروا الإسلام سترة لهم، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ

جُنَّةً﴾ ؛ أي : سترة ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٢ - ٣]، فهم يزعمون الإيمان، ومعلوم أن المؤمن ولي لله، فهم يدعون الولاية لله ﷻ، وهم كذبة؛ لأنهم في قلوبهم جاحدون ومنكرون.

وَيَعْتَقِدُونَ فِي الْبَاطِنِ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ؛ مِثْلُ: إِلَّا يُقِرُّوا فِي الْبَاطِنِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنَّمَا كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا سَاسَ النَّاسَ بِرَأْيِهِ، مِنْ جِنْسِ غَيْرِهِ مِنْ الْمُلُوكِ. [١] أَوْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْأُمِّيِّينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، [٢].

الشرح:

[١] خضعوا له؛ لأن له سلطة، خضعوا للرسول ﷺ، وتظاهروا بالشهادة له بالرسالة؛ لأنه له سلطة، ويخافون من سطوته، فهم فعلوا هذا لأجل أن يعيشوا بأمان، لا أنهم فعلوه إيمانا من قلوبهم.

[٢] من اليهود والنصارى من يشهد أنه رسول الله، لكن رسالته إلى الأميين؛ يعني: إلى العرب فقط، ولا تشمل أهل الكتاب، هذه شهادة باطلة؛ لأنه لا تكون الشهادة للرسول بالرسالة إلا إذا كان الاعتراف برسالته إلى الناس عامة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، فمن قصر رسالته على الأميين -يعني: العرب-، وأن أهل الكتاب لا يدخلون تحت دعوته، ولا يعترفون برسالته، فهو كافر بالله ﷻ.

ففي هذا رد على الذين يقولون الآن: الأديان الصحيحة ثلاثة، يجب أنها تتحاور، وأنها تتقارب، وكل يصل إلى الله، اليهود على دين، والنصارى على دين، والمسلمون على دين. هذا -والعياذ بالله- من أقبح الضلال،

وأبطل الباطل؛ لأنهم جعلوا الكفر إيمانا، وأنه يوصل إلى الله، وأنه يساوي الإسلام، أن اليهودية والنصرانية تساوي الإسلام، فهذا تكذيب لقوله ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وتكذيب لقوله ﷺ: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

* * *

أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ، وَأَنَّ لِلَّهِ أَوْلِيَاءَ خَاصَّةً لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ؛ [١] بَلْ لَهُمْ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ، كَمَا كَانَ الْخَضِرُ مَعَ مُوسَى،[٢].

الشرح:

[١] هذا قول غلاة الصوفية، يعترفون أنه رسول الله إلى الناس، لكن خواص الخلق ما يدخلون تحت رسالته، خواص الأولياء من الصوفية هؤلاء وصلوا إلى الله، وليسوا بحاجة إلى الرسل؛ لأنهم عرفوا - يسمونه: العارف- عرفوا ووصلوا، وليسوا بحاجة إلى رسول، الرسول للعوام فقط. (**وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ**)؛ لأنهم عرفوا الله، ووصلوا إلى الله؛ فليسوا بحاجة إلى الرسول يعرفهم بالله.

[٢] هناك فرق بين موسى عليه السلام ومحمد ﷺ: موسى عليه السلام بعث إلى بني إسرائيل، إلى قومه خاصة، أما هذا الرسول ﷺ، فقد بعث إلى الناس عامة، الخضر عبد من عباد الله، آتاه الله علما من لدنه، ولم يدخل تحت دعوة موسى عليه السلام، هذا جائز في الأمم السابقة، أما هذا الرسول ﷺ، فلا يجوز - إلا من وجد بعد بعثته - إلا أن يتبعه ﷺ، حتى موسى عليه السلام لو وجد، وجب عليه أن يتبعه، وعيسى عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يتبع هذا الرسول ﷺ، فهناك فرق بين رسالة موسى ورسالة نبينا محمد ﷺ، ومن الخصائص التي أوتيها رسولنا ﷺ أن الرسل قبله يرسلون إلى أممهم خاصة، وأما هو ﷺ، فبعث إلى الناس عامة، هذه لم تحصل إلا له ﷺ؛ فلا يسع أحدًا من الخلق

بعد بعثة محمد ﷺ إلا أن يتبعه، فالصوفية من أمة محمد أمة الدعوة، لا أمة الإجابة -يعني: الغلاة منهم-، وإلا فليس كل الصوفية خارجًا عن الإسلام بعضهم عنده شطحات، لكنه لا يخرج من الإسلام، وإنما غلاة الصوفية الذين بلغوا هذه الوقاحة، وقالوا: لسنا بحاجة إلى الرسل، نحن واصلون إلى الله، وعارفون بدونهم، إنما هم للعوام فقط.

أَوْ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عَنْ اللَّهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ [١] وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ [٢]، أَوْ أَنَّهُ مُرْسَلٌ بِالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ وَهُمْ مُوَافِقُونَ لَهُ فِيهَا، وَأَمَّا الْحَقَائِقُ الْبَاطِنَةُ فَلَمْ يُرْسَلْ بِهَا، [٣].

الشرح:

[١] يأخذون عن الله بلا واسطة، غلاة الصوفية يقولون: نحن نأخذ من الله بلا واسطة، أما المسلمون أو سائر الأمم، فيأخذون من الله بواسطة الرسل، فنحن لا نحتاج إلى واسطة؛ لأننا وصلنا إلى الله، منهم من يزعم أنه يجلس مع الله، ويتفاهم معه، ويأخذ منه، ويعطيه. انظر الضلال وأين يبلغ بالإنسان؟!

[٢] يقولون: أنتم تأخذون دينكم عن الأموات، وأما نحن نأخذ عن الحي الذي لا يموت، أنتم تأخذون دينكم عن الأموات، عن الرواة الذين رووا لكم القرآن والسنة، أما نحن، فنأخذ ديننا عن الله مباشرة، عن الحي الذي لا يموت.

[٣] عندهم فرق بين الشريعة والحقيقة: الحقيقة لا يعرفها إلا هم، أما الشريعة، فهذه جاءت لإصلاح الناس، وهي أمور ظاهرة لإصلاح الناس فقط، لكن الحقائق لا يعرفها إلا الصوفية، الرسل لايعرفون الحقائق. عندهم فرق بين الشريعة والحقيقة.

أَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهَا [١]، أَوْ هُمْ أَعْرَفُ بِهَا مِنْهُ [٢]، أَوْ يَعْرِفُونَهَا مِثْلَ مَا يَعْرِفُهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقَتِهِ. [٣].

الشرح:

[١] هذا أشد، هذه طريقة أهل التجهيل، الذين يقولون: إن الرسل ما عرفوا الحقائق، وإنما حدثوا الناس بأشياء غير حقيقية؛ لأجل صالح الناس، كذبوا لأجل المصلحة؛ كما ذكر شيخ الإسلام في رسالة التدمرية طريقة أهل التجهيل وأهل التضليل(١).

[٢] أو الصوفية أعرف بالحقائق من الرسل.

[٣] يعرفون الحقائق من غير طريقة الرسول، فهم سواء؛ يعرفون الحقائق هم والرسول، لكن هم عرفوها لا عن طريق الرسول، وإنما أخذوها من الله مباشرة، إنسان يبلغ بالضلال إلى هذا الحد ماذا تكون حاله - والعياذ بالله-؟!

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٦٧، ٥/ ٣١).

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُ هَؤُلَاءِ: [١] إِنَّ أَهْلَ الصُّفَّةِ كَانُوا مُسْتَغْنِينَ عَنْهُ ﷺ، [٢] وَلَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ. [٣] وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فِي الْبَاطِنِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، فَصَارَ أَهْلُ الصُّفَّةِ بِمَنْزِلَتِهِ. [٤] وَهَؤُلَاءِ مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ بِمَكَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، **وَأَنَّ الصُّفَّةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ. [٥].**

الشرح:

[١] بعض غلاة الصوفية يقولون: أهل الصُّفَّةِ منا، وسيبين الشيخ من هم أهل الصُّفَّةِ، حتى إن بعضهم يقول: إن الصوفية مأخوذة من الصُّفَّةِ.

[٢] لأنهم عرفوا الله، فليسوا بحاجة للرسول، وهم يروون أنه لما جاء إليهم الرسول مرة، قالوا: اذهب إلى من أرسلت إليهم.

[٣] لأنهم لا يحتاجون، عارفون وواصلون إلى الله.

[٤] بمنزلة الرسول ﷺ؛ لأن الله يوحي إليهم؛ كما يوحي إلى الرسول ﷺ.

[٥] الصُّفَّة بالمدينة بعد الهجرة، وهم يقولون: إن هذا كان في مكة ليلة الإسراء، وليلة الإسراء في مكة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، لم يقل: من المدينة قبل الهجرة، والصُّفَّةُ حقيقتها أنها دار في المسجد، جعلها النبي ﷺ لفقراء المهاجرين الذين ليس لهم مأوى في

المدينة، يجتمعون فيها، ويبيتون فيها، ويتعبدون، ويطلبون العلم، ويطعمون من الصدقات، يؤتى إليهم بالصدقات، والنبي ﷺ يعطيهم مما يصل إليه، هؤلاء هم أهل الصفة، فقراء المهاجرين الذين ليس لهم مأوى، أو الذين جاؤوا من القبائل لأجل طلب العلم.

وَكَانَتْ صُفَّةٌ فِي شَمَالِيِّ مَسْجِدِهِ ﷺ يَنْزِلُ بِهَا الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَهْلٌ وَأَصْحَابٌ يَنْزِلُونَ عِنْدَهُمْ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يُهَاجِرُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي مَكَانٍ نَزَلَ بِهِ، وَمَنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ نَزَلَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى أَنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ مَكَانٌ يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ. [١] وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ الصُّفَّةِ نَاسًا بِأَعْيَانِهِمْ يُلَازِمُونَ الصُّفَّةَ، بَلْ كَانُوا يَقِلُّونَ تَارَةً، وَيَكْثُرُونَ أُخْرَى، وَيُقِيمُ الرَّجُلُ بِهَا زَمَانًا ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهَا، [٢] وَالَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِهَا مِنْ جِنْسِ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لَهُمْ مَزِيَّةٌ فِي عِلْمٍ وَلَا دِينٍ؛ [٣] بَلْ فِيهِمْ مَنْ ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ وَقَتَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ، كَالْعُرَنِيِّينَ الَّذِينَ اجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ(١) -أَيْ: اسْتَوْخَمُوهَا- فَأَمَرَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ بِلِقَاحٍ.

الشرح:

[١] حجرة، (صفة) يعني: حجرة.

[٢] بل كان يذهب ناس، ويأتي ناس، وليست خاصة بناس معينين، مسكن للوافد والقادمين المدينة.

(٣) الذين ينزلون في الصفة هم فقراء المهاجرين، ليس لهم مزية على غيرهم من غير أهل الصفة من الصحابة، كلهم سواء في العلم والإيمان.

(١) قوله: اجتووا المدينة: أي أصابهم الجوى وهو المرض إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٨٤٤).

- أَيْ: إِبِلٍ لَهَا لَبَنٌ-، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، [١] فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ، وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ(١)، وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ(٢) يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ. وَحَدِيثُهُمْ فِي الصَّحِيحَيْنِ(٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، وَفِيهِ: أَنَّهُمْ نَزَلُوا الصُّفَّةَ. [٢].

الشرح:

[١] مثل: قصة العرنيين، هم من أهل الصفة.

[٢] لأن أبوال الإبل وألبان الإبل فيها علاج للحمى بإذن الله، لما فعلوا

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (قوله: وسُمِّرت أعينهم بتشديد الميم، وفي رواية أبي رجاء وسمر بتخفيف الميم، ولم تختلف روايات البخاري في أنه بالراء، ووقع لمسلم من رواية عبدالعزيز وسَمَل بالتخفيف واللام، قال الخطابي: السمل فقء العين بأي شيء كان، قال أبو ذؤيب الهذلي:

والعين بعدهم كأن حداقها سملت بشوك فهي عور تدمع

قال: والسمر لغة في السمل، ومخرجهما متقارب، قال: وقد يكون من المسمار يريد أنهم كحلوا بأميال قد أحميت، قلت: قد وقع التصريح بالمراد عند المصنف من رواية وهيب عن أيوب، ومن رواية الأوزاعي عن يحيى كلاهما عن أبي قلابة ولفظه: «ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها»، فهذا يوضح ما تقدم، ولا يخالف ذلك رواية السمل؛ لأنه فقء العين بأي شيء كان كما مضى). انظر: فتح الباري (١/ ٣٤٠).

(٢) (الحرة) هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة، وإنما ألقوا فيها لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا. انظر: فتح الباري (١/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٠٤)، ومسلم (١٦٧١).

بالراعي هذا الفعل، قتلوه، وسمروا أعينه، فالنبي ﷺ أجرى عليهم القصاص، فعل بهم مثل ما فعلوا بالراعي، هم قطعوا أطراف الراعي؛ أي: قطعوا يديه ورجليه، وسمروا عينيه، وقتلوه، النبي ﷺ أجرى عليهم القصاص، وفعل بهم مثل ما فعلوا بالراعي.

فَكَانَ يَنْزِلُهَا مِثْلُ هَؤُلَاءِ، وَنَزَلَهَا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَهُوَ أَفْضَلُ مَنْ نَزَلَ بِالصُّفَّةِ ثُمَّ انْتَقَلَ عَنْهَا، وَنَزَلَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ [١]، وَقَدْ جَمَعَ أَبُو عَبْدِالرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ تَارِيخَ مَنْ نَزَلَ الصُّفَّةَ(١) [٢] وَأَمَّا «الْأَنْصَارُ» فَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، [٣].

الشرح:

[١] ينزل بها من أفضل الصحابة كسعد بن أبي وقاص ﵁، وأبي هريرة وغيره من فضلاء الصحابة، إلى أن يستغني عنها، ثم ينتقل منها.

[٢] وعبد الرحمن السلمي من العباد ومن المتصوفة، فجمع تاريخ من نزل الصفة بتراجمهم وأسمائهم، وكونه في كتاب.

[٣] الأنصار هم أهل الدار من قبل ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الحشر: ٩]، هم أهل الدار، لهم بيوت، ولهم مزارع، فليسوا بحاجة إلى الصفة، الصفة إنما هي للحاجة فقط، لا من أجل ميزة في الولاية - كما يزعم هؤلاء -، فقد يكون الذي لم ينزل الصفة أفضل من الذي نزل بها، ليس لها فضيلة ولا ميزة أبدا.

---

(١) كتاب تاريخ أهل الصفوة لأبي عبد الرحمن السلمي ذكره صاحب كشف الظنون (١/ ٢٨٦).

وَكَذَلِكَ أَكَابِرُ الْمُهَاجِرِينَ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرِهِمْ، [١] لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ. [٢] وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ بِهَا غُلَامٌ لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «هَذَا وَاحِدٌ مِنْ السَّبْعَةِ»، وَهَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، [٣].

الشرح:

[١] كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير رضي الله عنهم، ما نزلوا الصفة.

[٢] فليس من نزل الصفة يكون له مزية، إنما نزلها بقدر الحاجة فقط، لا لأن له مزية على غيره من الصحابة، فقد يكون من الصحابة من لم ينزلها أفضل؛ مثل: سادات المهاجرين كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وكذلك الأنصار كلهم ما نزل أحد منهم في الصفة، وهم من أفضل الصحابة بعد المهاجرين.

[٣] بالصفة يعني: السبعة الأقطاب عند الصوفية، (هذا واحد من السبعة) يعني: الأقطاب؛ لأن الصوفية عندهم أقطاب، وأوتاد، وما أدري ماذا؟ ترهات، وهذا الحديث كذب، ما قال الرسول ﷺ: من السبعة. وليس هناك سبعة.

وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ(١)، وَكَذَا كُلُّ حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي عِدَّةِ «الْأَوْلِيَاءِ»، وَ«الْأَبْدَالِ»(٢)، وَ«النُّقَبَاءِ»(٣)، [١].

الشرح:

[١] أبو نعيم رحمه الله له كتاب اسمه حلية الأولياء، فيه تراجم الأولياء، وقد يكون فيه شيء من المآخذ، مثل ما ذكر هذه الرواية، وهي باطلة، وليست صحيحة.

---

(١) جاء في حلية الأولياء (٢/ ٢٤)، وذكر هلالًا مولى المغيرة، ثم ساق الحديث بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدخلن من هذا الباب رجل ينظر الله إليه»، قال: فدخل - يعني: هلالًا - فقال له: «صل علي يا هلال»، فقال: ما أحبك على الله وما أكرمك عليه.

(٢) الأبدال: جمع بدل وهم طائفة من الأولياء، قال أبو البقاء: كأنهم أرادوا أنهم أبدال الأنبياء وخلفاؤهم، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل بلد إقليم فيه ولايته. انظر: لسان العرب (١١/ ٤٩)، والتعريفات للجرجاني (ص٦٢)، والتعاريف للمناوي (ص٢٩).

(٣) النقباء جمع نقيب وهو كالعريف على القوم المقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٠٠)، وعند الصوفية، النقباء هم الذين تحققوا بالاسم الباطن فأشرفوا على بواطن الناس فاستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن وجوه السرائر، وهم ثلاثة أقسام: نفوس علوية وهي الحقائق الأمرية، ونفوس سفلية وهي الخلقية، ونفوس وسطية وهي الحقائق الإنسانية، وللحق تعالى في كل نفس منها أمانة منطوية على أسرار إلهية وكونية، وهم ثلاثمائة. انظر: التعريفات للجرجاني ص (٣١٤).

وَ«النُّجَبَاءِ»(١)، وَ«الْأَوْتَادِ»(٢)، وَ«الْأَقْطَابِ»(٣)، مِثْلُ أَرْبَعَةٍ، أَوْ سَبْعَةٍ، أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ، أَوْ أَرْبَعِينَ، أَوْ سَبْعِينَ، أَوْ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، أَوْ الْقُطْبَ الْوَاحِدَ، فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ صَحِيحٌ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَنْطِقْ السَّلَفُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ إِلَّا بِلَفْظِ «الْأَبْدَالِ» [١].

الشرح:

[١] هذه من اصطلاحات الصوفية، إلا (الأبدال) قد جاء فيهم حديث قوي، ولكن (الأبدال) معناه الذي كلما ذهب واحد يأتي بدله واحد، كلما مات واحد منهم، يأتي بدله واحد، الله أعلم بصحة هذا، لكنه أحسن ما روي في هذا الباب، لكن قال: إن الأبدال بالشام، وهذا سيناقشه الشيخ.

---

(١) النجباء جمع نجيب، وهو الكريم الخير المبارك صحيح الرأي. وعند الصوفية: النجباء هم الأربعون، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق، وهي من حيث الجملة كل حادث لا تفي القوة البشرية بحمله؛ وذلك لاختصاصهم بوفور الشفقة، والرحمة الفطرية، فلا يتصرفون إلا في حق الغير. انظر: التعريفات للجرجاني (ص٣٠٨).

(٢) الأوتاد جمع وتد، وهو عصا من خشب ترزُّ في الأرض أو الجدار يربط فيها الأشياء. انظر: لسان العرب (٣/ ٤٤٤)، وعند الصوفية، الأوتاد هم أربعة رجال منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم: شرق، وغرب، وشمال، وجنوب، يحفظ الله بهم تلك الجهات. انظر: التعريفات للجرجاني (ص٥٨).

(٣) القطب في اللغة: القائم الذي تدور عليه الرحى. انظر: لسان العرب (١/ ٦٨٢). وعند الصوفية القطب وقد يسمى غوثًا باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضوع نظر الله في كل زمان، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق... انظر: التعريفات (ص٢٢٧).

وَرُوِيَ فِيهِمْ حَدِيثُ أَنَّهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، وَأَنَّهُمْ بِالشَّامِ، وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه(١)، وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْقَطِعٌ(٢) لَيْسَ بِثَابِتٍ. [١] وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَلِيًّا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا أَفْضَلَ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ بِالشَّامِ، فَلَا يَكُونُ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي عَسْكَرِ مُعَاوِيَةَ دُونَ عَسْكَرِ عَلِيٍّ. [٢].

الشرح:

[١] كل حديث يروى عن النبي ﷺ في الأقطاب، والأبدال، والأوتاد، فإنه مكذوب، ما عدا الأبدال؛ ففيه نظر، فيه قوة.

منقطع الإسناد يعني: فيه سقط.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١١٢) من حديث علي رضي الله عنه قال: «إني سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: الأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ الله مَكَانَهُ رَجُلًا، يُسْقَى بِهِمُ الْغَيْثُ، وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ على الأَعْدَاءِ، وَيُصْرَفُ عن أَهْلِ الشَّامِ بِهِمُ الْعَذَابُ». وسبب انقطاعه أن في إسناده شريحًا بن عبيد الراوي عن علي رضي الله عنه ولم يدركه. وانظر المنار المنيف لابن القيم (ص١٣٦).

(٢) قال النووي في التقريب والتيسير (١/ ٣٥): «الصحيح الذي ذهب إليه الفقهاء والخطيب ابن عبد البر وغيرهما من المحدثين: أن المنقطع ما لم يتصل إسناده على أي وجه كان انقطاعه، وأكثر ما يستعمل في رواية من دون التابعي عن الصحابي، كمالك عن ابن عمر، وقيل: وما اختل فيه لرجل قبل التابعي محذوفًا كان أو مبهمًا، وقيل: هو ما روي عن تابعي أو من دونه قولاً له أو فعلاً، وهذا غريب ضعيف». وانظر في معنى المنقطع: مقدمة ابن الصلاح (١/ ٥٦، ١٣٢- ١٣٥).

[٢] لأنه قال: الأبدال بالشام، فمعنى هذا أن أهل الشام هم أفضل من عليٍّ وأصحابه، مع أن عليًّا أفضل، وهو رابع الخلفاء الراشدين، ومن السابقين الأولين من المهاجرين، ومن أقارب النبي ﷺ، فهو أفضل، ومن معه من الصحابة أفضل من الذين في الشام، فهذا يدل على أن هذا الحديث فيه نظر في كونهم بالشام.

وَقَدْ أَخْرَجَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «تَمْرُقُ مَارِقَةٌ مِنْ الدِّينِ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ»(١) وَهَؤُلَاءِ الْمَارِقُونَ هُمْ الْخَوَارِجُ الْحَرُورِيَّةُ الَّذِينَ مَرَقُوا لَمَّا حَصَلَتْ الْفُرْقَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ، فَقَتَلَهُمْ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ. فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَلَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَكَيْفَ يَكُونُ الْأَبْدَالُ فِي أَدْنَى الْعَسْكَرَيْنِ دُونَ أَعْلَاهُمَا؟ [١].

الشرح:

[١] أخبر النبي ﷺ عن ظهور الخوارج، وزمن خروجهم؛ أنهم لما رجعوا من صفين، كانوا يقاتلون مع علي رضي الله عنه، فلما انتهت المعركة، وقبل علي التحكيم، قالوا له: أنت حكمت الرجال، وكفروه، والله ﷻ يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وأنت حكمت الرجال، فكفروا عليا رضي الله عنه ومن معه، وخرجوا عليه، وكانوا اثني عشر ألفا، نزلوا بحروراء من أرض العراق؛ ولذلك يقال لهم: الحرورية، قاتلهم علي رضي الله عنه في النهروان، ونصره الله عليهم، وقد قال النبي ﷺ: «**يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ**»، فهذه شهادة لعلي رضي الله عنه أنه أقرب للحق من أهل الشام؛ لأنه هو الذي قتل الخوارج.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

وكيف يكون الأبدال بالشام؟ يعني: يكونون مع معاوية رضي الله عنه، ولا يكونون مع علي، مع أن جيش عليٍّ أفضل من جيش معاوية رضي الله عنه.

وَكَذَلِكَ مَا يَرْوِيه بَعْضُهُمْ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَنْشَدَ مُنْشِدَ:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الْهَوَى كَبِدِي فَلَا طَبِيبَ لَهَا وَلَا رَاقِي

إِلَّا الْحَبِيبُ الَّذِي شُغِفْتُ بِهِ فَعِنْدَهُ رُقْيَتِي وَتِرْيَاقِي

وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَوَاجَدَ حَتَّى سَقَطَتْ الْبُرْدَةُ عَنْ مَنْكِبِهِ. [١].

فَإِنَّهُ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ(١) [٢].

الشرح:

[١] هذه القصة العجيبة بعض الصوفية يروي هذا عن الرسول ﷺ: أنه تواجد لما سمع هذه الأبيات.

(تَوَاجَدَ): الوجد هذه من اصطلاحات الصوفية؛ بحيث إنه يطرب عند سماع المقطعات والأناشيد، ثم يزيد عليه الطرب والإعجاب، حتى يغيب عن الدنيا، ويسقط على الأرض، يزعمون أن الرسول ﷺ سمع هذه الأبيات، وهي أبيات عشق وغرام وغزل، كيف يستمع لها الرسول ﷺ؟! وأشد من هذا كيف أن الرسول يتواجد عندها تَوَاجُدَ الصوفية؟! انظر: إنهم يكذبون على الرسول ﷺ، ولا يحترمونه، لايحترمون الرسول ﷺ، ينسبون إليه السفاهة ﷺ.

---

(١) قال الذهبي في لسان الميزان (٤/ ٢٧٠): (وضعه عمار بن إسحاق)، ثم ذكر طرقه ورواته.

[٢] هذه القصة كذب، باتفاق أهل العلم بالحديث، ولا تليق بالرسول ﷺ أنه يتواجد، ويسمع أبيات العشق والغرام والغزل، نزهه الله عن ذلك.

وَأَكْذَبُ مِنْهُ مَا يَرْوِيه بَعْضُهُمْ: أَنَّهُ مَزَّقَ ثَوْبَهُ، وَأَنَّ جِبْرِيلَ أَخَذَ قِطْعَةً مِنْهُ فَعَلَّقَهَا عَلَى الْعَرْشِ، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا يَعْرِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَظْهَرْ الأَحَادِيثِ كَذِبًا عَلَيْهِ ﷺ. [١].

وَكَذَلِكَ مَا يَرْوُونَهُ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ يَتَحَدَّثَانِ، [٢] وَكُنْت بَيْنَهُمَا كَالزِّنْجِيِّ(١) [٣]،

الشرح:

[١] لما تواجد، مزق ثوبه، وقطع ثوبه، وجبريل أخذ منه قطعة، وعلقها بالعرش، انظر: الكذب والوقاحة كيف تبلغ بهم، ويزعمون أنهم أولياء الله.

[٢] وعند الصوفية من الوقاحات، والعجائب، والكذب، والمضحكات أشد من هذا، وهذه سنة الله أن من ترك الحق، ابتلي بالباطل.

[٣] يعني: لا يفهم كلامهم، يتحدثون بكلام لا يعرفه عمر رضي الله عنه، هذا ممكن هذا؟! يرطنون رطانة لا يعرفها عمر رضي الله عنه.

---

(١) ذكره ابن القيم في المنار المنيف (ص١١٥) فصل (الموضوعات في فضائل الصديق). وقال: إنه مما وضعه جهلة المنتسبين إلى السنة في فضائل الصديق رضي الله عنه.

وَهُوَ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ. [١].

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ فِيمَنْ يُقِرُّ بِرِسَالَتِهِ الْعَامَّةِ فِي الظَّاهِرِ مَنْ يَعْتَقِدُ فِي الْبَاطِنِ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، فَيَكُونُ مُنَافِقًا، [٢] وَهُوَ يَدَّعِي فِي نَفْسِهِ وَأَمْثَالِهِ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، مَعَ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، [٣] إِمَّا عِنَادًا، وَإِمَّا جَهْلًا، [٤].

الشرح:

[١] قصد الشيخ من إيراد مثل هذه المضحكات أن يبين مخازيهم، ويكشف عوارهم؛ لأنهم يزعمون أنهم أولياء الله، وعندهم مثل هذه الترهات والأباطيل.

[٢] هذا هو المقصود مثل ما بدأ أن هناك من يتظاهر بتصديق الرسول في الظاهر، لكنه يكذبه في الباطن، ومنهم الصوفية والمنافقون.

[٣] وهم منافقون في الدرك الأسفل من النار، ويدعون أنهم أولياء الله، لماذا هم منافقون؟ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويعترفون في الظاهر للرسول بالرسالة، وفي الباطن يكذبونه.

[٤] إما عنادًا مع المعرفة، وإما جهلا بما جاء به الرسول ﷺ، وهم يدعون العلم، ويدعون المعرفة، ويسمون العارف بالله، وما أشبه ذلك، وأنهم وصلوا إلى الله، كيف يصلون إلى الله، وهم على هذا المستوى الهابط من الجهل والحماقة؟!

ما زال الشيخ رحمه الله يبين الفوارق بين أولياء الله وأولياء الشيطان، الله ﷻ ذكر أن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، آمنوا ظاهرا وباطنا، فلا يكفي الإيمان في الظاهر دون الباطن؛ كإيمان المنافقين، الذين يشهدون أنه رسول الله، لكنهم كاذبون، ويكذبونه في قلوبهم، وهؤلاء في الدرك الأسفل من النار، كيف يقال: إنهم أولياء الله؟! وكذلك ضلال المتصوفة الذين يتظاهرون بالشهادة أنه رسول الله، لكنهم في الباطن يعتقدون خلاف ذلك، يعتقدون أن الأولياء لا يحتاجون إلى الرسول ﷺ، وإنما يأخذون عن الله مباشرة، إنما الذي يحتاج إلى الرسول ﷺ هم العوام الذين لم يصلوا إلى الله، وأما خواص الصوفية، فإنهم وصلوا إلى الله؛ فليسوا بحاجة إلى الرسل، فهؤلاء هل يقال: إنهم من أولياء الله، وهم يكفرون في الباطن، ويتظاهرون بالإيمان الظاهر؟! نعم هم يقولون: إنهم من أولياء الله، لكن أهل الإيمان وأهل العقيدة الصحيحة يعتقدون أنهم من أولياء الشيطان؛ لأنهم لم ينقادوا للرسول ﷺ ظاهرا وباطنا، فهم من أولياء الشيطان.

وكذلك فريق ثالث من النصارى: فمن النصارى من يشهد أن محمدا رسول الله، لكن يقول: رسالته خاصة بالعرب، وليست عامة للناس جميعا، فمثل هذا لا يؤمن بالرسول ﷺ؛ لأنه قصر رسالته على بعض جوانبها، اعترف بجانب، وجحد جانبا أعظم، وهو عموم الرسالة، فهؤلاء لا يقال: إنهم من أولياء الله، وإن كانوا يشهدون أنه رسول الله، ويعترفون، لكن يجحدون عموم الرسالة.

صنف رابع: يعترفون أنه رسول الله، وأن رسالته عامة إلى جميع الثقلين،

لكن يقولون: ليس خاتم الرسل، يأتي بعده أنبياء، فلا يؤمنون بختم الرسالة، الله ﷻ قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، والنبي ﷺ قال: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»[(١)]، فالذي يعتقد أنه يأتي بعد الرسول نبي، هذا كافر؛ لأنه لا يؤمن بختم الرسالة لمحمد ﷺ، وكل هؤلاء ليسوا من أولياء الله، وإن كانوا يتظاهرون بأنهم من أولياء الله، أو يدعى لهم أنهم أولياء الله؛ لأنهم لا يدخلون في قوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله على الحقيقة، لا بالادعاء.

فقوله: (مَعَ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ) من المنافقين، ومن غلاة الصوفية، وغيرهم.

وقوله: (إِمَّا عِنَادًا، وَإِمَّا جَهْلًا)؛ إما عنادا مع العلم إذا كانوا يعلمون، أو جهلا، وهذا الجهل لا يعذرون به، لا يعذرون بهذا الجهل؛ لأنه بالإمكان زواله بالعلم، فهم لا يرون العلم أصلا، ويحتقرون الذين يجلسون لطلب العلم، ويقولون: لسنا بحاجة إلى العلم. وهذه ظاهرة في الصوفية من قديم، ذكرها ابن الجوزي في تلبيس إبليس، وهي واقعة الآن، هناك صوفية يزهدون في طلب العلم، ويقولون: اشتغل بالعبادة، طلب العلم يعوقك عن العبادة، اشتغل بالعبادة، ولست بحاجة إلى طلب العلم، ويأتيك العلم تلقائيا، هو نفسه في الصوفية، العلم إذا اشتغلت بالعبادة، يأتيك تلقائيا من

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عند الله ، فلا حاجة إنك تجلس تطلب العلم في المدارس أو في حلق الذكر ، بل اشتغل بالعبادة، ويؤتيك الله العلم ، وهذه صفة هؤلاء المتعبدة الذين يزعمون أن الاشتغال بالعبادة أفضل من طلب العلم ، في حين أن طلب العلم أفضل من التفرغ للعبادة؛ مسألة تفقهها وتعرفها أحسن من قيام ليلة من النوافل ، طلب العلم لا يعادله شيء ، هو أفضل العبادات ، أما عبادة بدون علم ، فهي ضلال ، وهي طريقة النصارى ، فينبغي التنبه لمثل هؤلاء ، ما نقول : هؤلاء انقرضوا ، وراحوا . لا ، موجودون الآن .

كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ [١] وَلَكِنْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا أُرْسِلَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْنَا اتِّبَاعُهُ. [٢].

الشرح:

[١] الله ذكر ذلك عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ادعوا لأنفسهم هذا، وهم يقولون: الله ثالث ثلاثة، أو يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، ولهذا قال بعدها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، فهم يقولون: نحن أولياء الله، وهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، واليهود يقولون: إن الله فقير ونحن أغنياء، يد الله مغلولة. يعبدون العجل، ويقولون: نحن أولياء الله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

[٢] أرسل إلى العرب فقط، إلى الأميين، وهذا كفر صريح؛ لأن رسالة النبي ﷺ عامة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال في اليهود والنصارى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ يعني: محمدا ﷺ، ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، من هو الرسول؟ ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ من هو النبي الأمي؟ محمد ﷺ، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ

﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وبشر به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾، من الذي جاء بعد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ هو محمد ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، هذا اسم الرسول ﷺ، اسمه أحمد ومحمد، وله أسماء غير هذين الاسمين أيضا ﷺ، فهم لا يؤمنون بعموم الرسالة، وفي من ينتسب إلى الإسلام من يصدقهم على هذا ويوافقهم، ويقول: هم على دين، ونحن على دين، ونحن إخوان، والكل يصل إلى الله. هذا كفر - والعياذ بالله -، هذا جحود لرسالة محمد ﷺ، والنبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١)، الرسول ﷺ دعا الناس جميعا، دعا العرب، ودعا اليهود والنصارى، وكتب إلى الملوك والرؤساء، كتب إلى كسرى وقيصر يدعوهم إلى الله، كيف يكتب لهم، وهو ليس رسولًا إليهم؟! فينبغي التفطن لهذه الأفكار الخبيثة، التي يروجها اليهود والنصارى وقد يتقبلها بعض المنتسبين إلى الإسلام، إما عن عمد، وإما عن جهل.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لِأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رُسُلًا قَبْلَهُ. فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ [١].

الشرح:

[١] الرسل الذين قبله أحالوا عليه، فهذا موسى ﷺ في التوراة التي معه: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهذا عيسى بشر به: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فهو مرسل إليهم، وهو كتب إلى ملوكهم ورؤسائهم، وقال لمعاذ رضي الله عنه: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**»(١)، وهم أهل كتاب، كيف يدعوهم إلى الشهادتين، وهم أهل كتاب مؤمنون؛ كما يزعم هؤلاء؟! لو كانوا مؤمنين، ما دعاهم إلى الشهادتين، فهذا من أبطل الباطل، وأعظم الضلال والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي طَائِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، [١].

الشرح:

[١] هؤلاء أولياء الشيطان، لما لم يستجيبوا له، قال الله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾، والسياق في اليهود والنصارى؛ في أهل الكتاب، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٨-٤٩]، هذا خطاب لليهود والنصارى، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٩-٥٠]، ليسوا أتباعا لموسى ولا لعيسى عليهما السلام؛ لأنهم لو كانوا أتباعا لموسى وعيسى عليهما السلام، لآمنوا بمحمد ﷺ، فليسوا أتباعا لموسى عليه السلام، ولا لعيسى عليه السلام، وإنما هم كفار خارجون عن شريعة موسى عليه السلام، وشريعة عيسى عليه السلام: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، لم يقل: يتبعون الشرائع السابقة؛ لأنها نسخت، وإنما يتبعون أهواءهم، هي نسخت أيضا، وأحالت على اتباع الرسول ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم

مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٣]، هذا واضح جدا، وليست الغرابة في أن اليهود والنصارى يقولون هذا، يقولون أعظم من هذا، لكن الغرابة أن في من يدعي الإسلام من يصدق هذا، ويقول: هم على دين، وليسوا كفارا، يقول: اليهود والنصارى ليسوا كفارا، كيف ليسوا كفارا، وهم يكفرون بمحمد ﷺ؟! يقول: لا، ليسوا كفارًا. الذي يقول هذه المقالة يكون كافرا مثلهم؛ لأن من لا يكفر الكافر، فهو كافر مثله، هذا من نواقض الإسلام.

وَإِنَّمَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِوِلَايَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. **[١] وَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيُؤْمِنُ بِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، [٢].**

الشرح:

[١] ولي اللهِ اللهُ حدده: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]؛ آمنوا ظاهرا وباطنا، وكانوا يتقون الله ﷻ، هؤلاء هم الأولياء، المؤمنون الأتقياء هم أولياء الله، ومن ليس كذلك، فليس وليًا لله، وإنما هو ولي للشيطان.

[٢] وهؤلاء لم يؤمنوا بالرسل، ولم يؤمنوا بالكتب؛ لأنهم كفروا بالقرآن، وكفروا بمحمد ﷺ، ومن كفر بكتاب واحد، فهو كافر بجميع الكتب، ومن كفر بنبي واحد، فهو كافر بجميع الأنبياء، الأنبياء كلهم رسل الله، لابد من الإيمان بهم جميعا من أولهم إلى آخرهم، اليهود كفروا بنبيين؛ كفروا بعيسى وبمحمد، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ، فكيف يقال: إنهم مؤمنون، ومسلمون؟! الله ﷻ قال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ

وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤]، هؤلاء فرقوا، كفروا بأعظم الأنبياء وسيد الأنبياء، وهو محمد ﷺ، فكيف يقال: إنهم مسلمون مؤمنون؟! بعضهم يقول: إخواننا. والعياذ بالله من هذه الكلمة!

لابد من هذا؛ أن يؤمن بكل كتاب أنزله الله، فإن كفر بكتاب واحد، بل لو كفر ببعض الكتاب، صار كافرا بالجميع، وكذلك لابد أن يؤمن بجميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، كيف بمن يكفر بأفضل الرسل -وهو محمد ﷺ- يقال: إنه مسلم، إنه مؤمن؟!

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧]، [١].

الشرح:

[١] ﴿ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾، إذا لم يؤمنوا بمثل ما آمنتم به، فهم كفار؛ لأنهم قالوا للمسلمين: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥]، قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٦]، إلى قوله ﷻ: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة: ١٣٧]، هم مشاقون لله ﷻ ولرسله، ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لا أعلم كيف هؤلاء لا يقرؤون القرآن؟! الذين يقولون: إن اليهود والنصارى مسلمون مؤمنون، وإنهم إخواننا. هل يقرؤون القرآن؟!

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦]. وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥]. [١].

الشرح:

[١] في سورة البقرة تكرر هذا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي آخرها قال ﷺ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، بل في أول السورة قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾،

فلا يكفي أن تقول: آمنت بمحمد فقط، ولا أؤمن بالذي قبله. أو تقول: آمنت بالذي قبل محمد، ولا أؤمن بمحمد. لا، لابد أن تؤمن بذلك كله.

ذكر الله ﷻ في أول البقرة أن الناس انقسموا مع القرآن ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من آمن به ظاهرا وباطنا، وهم المؤمنون من هذه الأمة، ومن غيرها من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن، واتبعوه.

القسم الثاني: من كفر بالقرآن ظاهرا وباطنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦].

القسم الثالث: الذين آمنوا بالقرآن ظاهرا، وكفروا به باطنا، وهم المنافقون: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٨ - ٩]، ذكر الأصناف الثلاثة في أول السورة.

فَلَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، [١] وَأَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ؛ [٢].

الشرح:

[١] تؤمن بعموم رسالته، وتؤمن أيضا بأنه خاتم النبيين، لا نبي بعده، لابد من هذا.

[٢] من لم يؤمن بهذا الرسول ﷺ وبما جاء به، فليس بمؤمن؛ يعني: كافر، فكيف يكون وليًا لله، وهو كافر؟! هذا لا يكون أبدا، الكفار ليسوا أولياء الله، إنما هم أولياء الشيطان، فيجب أن يتنبه لهذا الأمر. القرآن واضح وصريح في هذه الأمور، التي التبست على كثير من الناس اليوم، خصوصا من يدعي أنه مثقف، وأنه صحفي، وأنه. . .، وأنه. . .، التبس عليهم هذا الأمر، فصاروا ينعقون بما لا يعرفون، يريدون التقارب مع اليهود والنصارى، يريدون إرضاء اليهود والنصارى، والله ﷻ قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، يريدون إرضاءهم ومجاملتهم، لكن هم لن يرضوا أبدا، حتى نتخلى عن ديننا، ونتبعهم.

وَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، فَهُوَ كَافِرٌ، لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ [١] كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]. [٢].

الشرح:

[١] كذلك لابد من الإيمان بجميع الكتب؛ فلا يؤمن ببعضها، ويكفر ببعضها، ولابد من الإيمان بجميع الكتاب؛ فلا يؤمن ببعض الكتاب، ويترك بعضه، يؤمن بما يوافق هواه، ويكفر بما خالف هواه ورغبته: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، فلابد من الإيمان بجميع الكتاب: ما وافق رغبتك وهواك، وما خالف رغبتك وهواك؛ لأنه وإن خالف رغبتك وهواك، فهو خير لك: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

[٢] قال الله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، وهم يقولون: نؤمن ببعض الكتاب، ونكفر ببعض، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، كيف يفرقون بين الله ورسله؟!

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، هذا التفريق بين الله ورسله. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾؛ طريقا يمشون عليه، ومذهبا يذهبون إليه، قال الله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، فالذين يكفرون بمحمد ﷺ هم الكافرون حقا، وهناك من يقول: إنهم مؤمنون!

ولم يفرقوا بين أحد منهم، بل آمنوا بهم جميعا؛ لأنهم رسل الله، طريقتهم واحدة، وكل واحد مصدق لما قبله، ومبشر لما بعده، فهم سلسلة واحدة، ما يجوز التمييز بينهم بالإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم.

وَمِنْ الْإِيمَانِ بِهِ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ؛ [١].

الشرح:

[١] الرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه في أي شيء؟ في قضاء الحاجات وتفريج الكربات؟ لا. في تبليغ الرسالة، واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ الرسالة، وأما إنه واسطة في قضاء الحوائج، فهذا كفر، ولهذا قال شيخ الإسلام - وله رسالة في هذا اسمها الواسطة بين الحق والخلق-: «هناك واسطة من أنكرها كفر، وواسطة من أثبتها كفر»(١)، ما هي؟ الواسطة التي من أنكرها كفر هي الواسطة في تبليغ الرسالة، الرسل هم الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ الرسالة؛ فلا أحد يصل إلى الله من غير طريقهم، فمن أنكرها، كفر. قد أنكرها غلاة الصوفية، وقالوا: لا حاجة إلى الرسل يبلغون لنا، نحن نأخذ عن الله مباشرة، بعضهم يقول: أنا أجلس مع الله، ويتحدث معي - نسأل الله العافية -، أما الواسطة التي تتخذ لأجل قضاء الحوائج وتفريج الكربات، فهذه من أثبتها، كفر، ليس بين الله وبين خلقه واسطة في قضاء حوائجهم، وإجابة دعواتهم، وإغاثة لهفاتهم. فلم يأتنا هذا الدين العظيم إلا من طريق هذا الرسول ﷺ، وقبله كان الناس في ضلال مبين، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢]،

(١) انظر: الواسطة بين الحق والخلق (ص١٦- ٢٠).

وقال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، في الجاهلية كانوا في ضلال مبين، فلما بعث هذا الرسول ﷺ، جاء الهدى وجاء النور، والعلم النافع، وانتفع به من آمن به، خرج من الظلمات إلى النور.

فَالْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، [١].

الشرح:

[١] الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، وليس لأحد أن يحل شيئا أو يحرم شيئا من عنده، قال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، قال عدي بن حاتم رضي الله عنه لما سمع هذه الآية -وكان نصرانيا قبل أن يسلم-، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ. قَالَ: «**أَجَلْ وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَسْتَحِلُّونَهُ وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَيُحَرِّمُونَهُ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ**»(١)، طاعتهم في التحليل والتحريم من دون الله ﷻ، والله ﷻ قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، هذا في أي شيء؟ في الميتة؛ لأن أهل الجاهلية يستحلون الميتة، ويقولون: هي أحسن من المذكاة؛ لأن الميتة الله الذي ذكاها، أما المذكاة أنتم الذين ذكيتموها؛ فهي أحسن، قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فمن أطاع أحدا في تحليل ما حرم الله، فهو مشرك؛ لأنه جعل لله شريكا في التحليل والتحريم، وهذا من حق الله، فالذين يقولون الآن: ما دام المسألة فيها خلاف بين العلماء، نحن نأخذ ما أردنا، وما يوافق رغبتنا من أقوال

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/١١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

العلماء، وهذا فيه سعة. هذا ضلال - والعياذ بالله -، هذا ضلال، ما نأخذ من أقوال العلماء إلا ما وافق الدليل، ما وافق الدليل، أخذنا به، وما خالف الدليل، تركناه، الإمام الشافعي رحمه الله يقول: «إذا خالف قولي قول رسول الله ﷺ، فاضربوا بقولي عرض الحائط»[١]، ومالك يقول: «كلنا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر»[٢]؛ يعني رسول الله ﷺ، والإمام أحمد يقول: «**عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إلى رَأْيِ سُفْيَانَ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ**: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] **أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ أَنْ يَقَعَ في قَلْبِهِ شيء مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ**»[٣]. الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عقد بابا في كتاب التوحيد: (باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله)[٤]، فالأمر في هذا خطير جدا، أقوال العلماء نعم نستفيد منها، لكن ما نأخذها إذا وافقت رغبتنا، وقلنا: العلم بحر واسع، وإذا خالفت رغبتنا، قلنا: هذا تشدد، وهذا تحجر، وهذا...، وهذا...، لا، نحن نأخذ ما وافق الدليل من

---

(١) انظر: قانون التأويل (١/ ٣٤)، والذخيرة للقرافي (١/ ١٥٤)، وكفاية النبيه (٢/ ٤٤٣).

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

(٤) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (ص٥٥٥).

كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] المنهاج واضح - ولله الحمد -، ليس خفيًا، لكن أين الذين يتفقهون في القرآن، ويرجعون للقرآن والسنة؟!

وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، [١] وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ [٢].

الشرح:

[١] (وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)، لا ما أحله العلماء، أو حرمه العلماء بدون دليل، وإن كانوا علماء، فهم مجتهدون يعذرون باجتهادهم، ولهم أجر، لكن نحن لا نُعْذر في أن نأخذ قولا مخالفا للدليل، فتوى مخالفة للدليل، لا نُعذر.

[٢] هذا رد على المبتدعة الذين يقولون: نحن نتقرب إلى الله، وقصدنا الطاعة، فلا مانع أن نتقرب إلى الله بأي شيء نراه من العبادات. نقول: لا، هذا لا يجوز، الدين مبني على الاقتداء والاتباع، توقيفي، لا يحدث فيه شيء، قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، الدين ما شرعه الله، لا ما رآه الناس واستحسنوه بدون دليل.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه البخاري معلقًا في كتاب البيوع - باب النجش (٤/ ٣٥٦ مع الفتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب: إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (١٣/ ٣١٧ مع الفتح).

فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ. [١].

الشرح:

[١] من اعتقد أن لأحد طريقا إلى الله غير طريق محمد ﷺ، فهو كافر، وعلى هذا غلاة الصوفية، الذين يقولون: نحن لسنا بحاجة إلى الرسل أو إلى محمد ﷺ؛ لأننا وصلنا إلى الله، ونعرف الحق من الله، ونأخذ عنه مباشرة، وهم في الحقيقة يأخذون عن الشياطين، لا عن الله ﷻ، وهؤلاء الذين يزعمون أنهم يجلسون معهم، ويتحدثون معهم هؤلاء شياطين - نسأل الله العافية -.

وَأَمَّا خَلْقُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْخَلْقِ، وَرِزْقُهُ إِيَّاهُمْ، وَإِجَابَتُهُ لِدُعَائِهِمْ، وَهِدَايَتُهُ لِقُلُوبِهِمْ، وَنَصْرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، [١] فَهَذَا لِلَّهِ وَحْدَهُ يَفْعَلُهُ بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَسْبَابِ، لَايَدْخُلُ فِي مِثْلِ هَذَا وَسَاطَةُ الرُّسُلِ. [٢].

الشرح:

[١] هذه الواسطة المرفوضة، لما ذكر الواسطة الصحيحة، وهي واسطة الرسل في تبليغ الشرائع، ذكر الواسطة المرفوضة الباطلة.

[٢] (**فَهَذَا لِلَّهِ وَحْدَهُ يَفْعَلُهُ بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَسْبَابِ**)، وليس للوسائط، هذه الواسطة الباطلة؛ اتخاذ الوسائط بين العبد وبين ربه في قضاء حوائجه، وتفريج كرباته، وإجابة دعواته، أو طلب الرزق، أو أن أحدا يرزقك من دون الله ﷻ، هذه باطلة، هذه وسيلة باطلة، هذا كله باطل.

قد يفعله الله بسبب من الخلق؛ يعني: يسخر بعض الخلق، يسخر الأغنياء؛ ليتصدقوا على الفقراء، ليوفروا العمل للمحتاجين، وبذلك يكونون سببا فقط، لا واسطة بينهم وبين الله، وإنما هم سبب، أجرى الله الرزق على يده، ففرق بين السبب وبين الواسطة. وهذه الواسطة الممنوعة، التي يكفر من أثبتها.

ثُمَّ لَوْ بَلَغَ الرَّجُلُ فِي الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ مَا بَلَغَ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا وَلِيٍّ لِلَّهِ تَعَالَى، [١] كَالْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعُبَّادِهِمْ، [٢].

الشرح:

[١] لو اجتهد في العبادة - في الصيام، والصلاة، والصدقات -، ولكنه لا يؤمن بكل ما جاء به محمد ﷺ، فهذا ليس بمؤمن، وعمله باطل، فليست العبرة بكثرة العمل، العبرة بالاتباع والاقتداء، ليست العبرة بكثرة العمل والتعب، ولهذا قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ولم يقل: أيكم أكثر عملا. ليست العبرة بالكثرة، العبرة بالحسن، متى يكون العمل حسنا؟ إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ، هذا هو العمل الحسن، وأما ما اختل فيه شرط من هذين الشرطين، فهو قبيح، وليس بحسن، وإن أتعب الإنسان فيه نفسه، وأفنى فيه وقته، فهو لا ينفعه عند الله شيئا.

[٢] اليهود والنصارى فيهم أحبار ورهبان، فيهم رهبان يجتهدون في العبادة، ويتخلون في الصوامع، وينعزلون عن الدنيا، ولا يتزوجون النساء: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، هذا ضلال - والعياذ بالله -، ولا ينفعهم كثرة تعبهم؛ لأن هذا على غير هدى، على غير صراط مستقيم.

وَكَذَلِكَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ؛ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَالْهِنْدِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ مِنْ حُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ، وَلَهُ عِلْمٌ [١] أَوْ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ فِي دِينِهِ، وَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ، فَهُوَ كَافِرٌ عَدُوٌّ لِلَّهِ، وَإِنْ ظَنَّ طَائِفَةٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، [٢].

الشرح:

[١] هناك زهاد من الكفار يزهدون في الدنيا، ويتركون الملاذ، ويتقشفون، وهذا موجود في الهند؛ الفلاسفة والحكماء، زهد الفلاسفة والملاحدة، يزهدون في الدنيا، يتقللون منها، ويتقشفون، لكن ليسوا على شيء -والعياذ بالله-.

[٢] لأنه ليس متبعا للرسل، فاجتهاده، وزهده، وتقشفه، ورهبانيته، لا ينفعه ذلك عند الله ﷻ، بل إن المؤمن العاصي الذي معصيته دون الشرك هذا أحسن منهم، ولو هو فاسق، ما دام أنه مؤمن، ولو هو فاسق، فهو أقرب إلى الله ﷻ، ويرجى له النجاة والمغفرة، لكن الذي خرج عن طاعة الرسول ﷺ، ولو تقشف، ولو زهد، ولو ترهبن، ولو تعب في العبادة، هو كافر بالله ﷻ، ومن أهل النار، ولا ينفعه ذلك. فليست العبرة بكثرة العبادة، أو الزهد والتقشف، والتقلل من الدنيا، والرهبانية، ولكن العبرة باتباع الرسول ﷺ.

كَمَا كَانَ حُكَمَاءُ الْفَرَسِ مِنَ الْمَجُوسِ كُفَّارًا مَجُوسًا. [١] وَكَذَلِكَ حُكَمَاءُ الْيُونَانِ - مِثْلُ: أَرِسْطُو[1] وَأَمْثَالِهِ - كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْكَوَاكِبَ، [٢].

الشرح:

[١] وهم يتعبدون، ويسهرون الليل، المجوس الذين يعبدون النار يتقربون إليها، الهندوس والسيخ يعبدون البقر، ويتزهدون، ويتقشفون، وهم من أهل النار، إذا لم يتوبوا، ويسلموا قبل موتهم، من أهل النار، ولا ينفعهم تعبهم وتقشفهم وزهدهم.

لن يصل أحد إلى الله من غير طريق هذا الرسول ﷺ.

[٢] الفلاسفة من اليونان أهل زهد وأهل عبادة وتقشف، وتعفف عن الناس، ولكنهم لا يؤمنون بالأنبياء، فهم من أهل النار، لا يؤمنون بالأنبياء، ولاسيما بخاتم الأنبياء محمد ﷺ، فهم من أهل النار؛ مثل: أفلاطون، وأرسطو، وغيرهم.

---

(١) أرسطو، ويقال: أرسطو طاليس، أول من وضع تعاليم المنطق، من الحكماء المعروفين بالمشائين، أخذ الحكمة عن أفلاطون، وكان أستاذًا للإسكندر المقدوني ومستشارًا له. انظر: دائرة المعارف (٣/ ٧٥).

وَكَانَ أَرِسْطُو قَبْلَ الْمَسِيحِ ﷺ بِثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ وَزِيرًا لِلْإِسْكَنْدَرِ ابْنِ فَيْلَبْسَ الْمَقْدُونِيِّ[(١)]، [١] وَهُوَ الَّذِي تُؤَرَّخُ بِهِ تَوَارِيخُ الرُّومِ وَالْيُونَانِ، وَتُؤَرِّخُ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ وَلَيْسَ هَذَا هُوَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ [٢] كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ أَرِسْطُو كَانَ وَزِيرًا لِذِي الْقَرْنَيْنِ، [٣].

الشرح:

[١] هذا الإسكندر الكافر؛ لأن الإسكندر شخصان: واحد كافر، وواحد مسلم؛ الإسكندر المسلم ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن، هذا الإسكندر المسلم، وأما الإسكندر المقدوني، الذي أسس الإسكندرية في مصر، هذا كافر، ووزيره أرسطو الفيلسوف، كان معلمه، وهو صغير، ولما ولي الملك، جاء به، وجعله وزيرا له، وأرسطو تلميذ لأفلاطون.

[٢] هذا مسلم، يسمى الإسكندر، لكنه مسلم.

[٣] هذا باطل، أرسطو ليس معاصرا له حتى؛ بينهما ألفا سنة، كيف يصير وزيرا له؟!

(١) الاسكندر بن فليبس المقدوني اليوناني المصري باني الإسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم ولد قبل المسيح ﷺ بنحو من ثلاثمائة سنة وهو الذي أذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم وكان الفيلسوف - أرسطو - وزيره. انظر: البداية والنهاية (٢/ ١٠٥)، والأنس الجليل (١/ ١٥٣).

لَمَّا رَأَوْا أَنَّ ذَاكَ اسْمُهُ الْإِسْكَنْدَرُ، وَهَذَا قَدْ يُسَمَّى بِالْإِسْكَنْدَرِ، ظَنُّوا أَنَّ هَذَا ذَاكَ؛ [١] كَمَا يَظُنُّهُ ابْنُ سِينَا(١) وَطَائِفَةٌ مَعَهُ، [٢].

الشرح:

[١] التبس عليهم الاسم، ولم يعرفوا أن هناك شخصين، كل منهما يسمى الإسكندر، واحد كافر، وواحد مسلم، وبينهما ألفا سنة. وليس اسمه العَلَم، لكن قد يسمى، أما الأول، فاسمه العَلَم: الإسكندر. أظن الاسم هذا موجودًا، إلى الآن يسمون إسكندر.

[٢] ابن سينا هذا طبيب، أبو علي الطبيب المشهور، لكنه خبيث الديانة؛ لأنه باطني من الإسماعيلية، إسماعيلي الديانة، باطني خبيث.

---

(١) هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، صاحب التصانيف في الفلسفة والطب، مولده سنة سبعين وثلاثمائة، كان يقول بقدم العالم، ونفى المعاد الجسماني، وأثبت المعاد النفساني، قال عنه الذهبي: «هو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة، وله كتاب الشفاء وغيره، وأشياء لا تحتمل، وقد كفره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال» ا. هـ. وقيل: إنه تاب ورجع عن أقواله قبل الممات، فالله أعلم بخاتمته، توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٥٧)، والوافي بالوفيات (١٢/ ٢٤٢ - ٢٥٠)، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص٤٣٧)، وسير الأعلام (١٧/ ٥٣٥)، والعبر (٣/ ١٦٧)، وشذرات الذهب (٣/ ٢٣٤).

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، [١] بَلْ هَذَا الْإِسْكَنْدَرُ الْمُشْرِكُ الَّذِي قَدْ كَانَ أَرِسْطُو وَزِيرَهُ مُتَأَخِّرٌ عَنْ ذَاكَ، وَلَمْ يَبْنِ هَذَا السَّدَّ، وَلَا وَصَلَ إِلَى بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهَذَا الْإِسْكَنْدَرُ الَّذِي كَانَ أَرِسْطُو مِنْ وُزَرَائِهِ يُؤَرَّخُ لَهُ تَارِيخُ الرُّومِ الْمَعْرُوفِ. [٢] وَفِي أَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمُشْرِكِي الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْيُونَانِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَهُ اجْتِهَادٌ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ؛ [٣] وَلَكِنْ لَيْسَ بِمُتَّبِعٍ لِلرُّسُلِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَلَا يُصَدِّقُهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَلَا يُطِيعُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا، فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَوْلِيَاءٍ لِلَّهِ، [٤].

الشرح:

[١] ذو القرنين المذكور في القرآن هو الذي بنى السد، الذي يسمى سد ذي القرنين، دون يأجوج ومأجوج، وهو الذي بلغ مطلع الشمس، ومغرب الشمس، ومكن الله له في الأرض، وهو ملك مسلم.

[٢] هذا الإسكندر كافر.

[٣] كما سبق أنهم فيهم زهاد، وفيهم نساك، وفيهم رهبان، لكن ليسوا على طريق صحيح؛ فلا ينفعهم ذلك، لا ينفعهم، بل هو تعب عليهم بلا فائدة، لا فائدة في العمل إلا إذا كان خالصا لله، وصوابا على سنة رسول الله ﷺ، بدون هذا لا يتعب الإنسان نفسه.

[٤] وإن كانوا يسمونهم أولياء الله، فهم ليسوا بمؤمنين، فضلا عن أن

يكونوا أولياء لله، وإنما هم من أولياء الشيطان، وإن كانوا زهادا ونساكا، وعبادا ومجتهدين، لكن على غير طريق صحيح.

وَهَؤُلَاءِ تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، فَيُكَاشِفُونَ النَّاسَ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَهُمْ تَصَرُّفَاتٌ خَارِقَةٌ مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ، وَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ. [١].

الشرح:

[١] أولياء الشيطان لما خالفوا الرسل، وأطاعوا الشيطان، فإنهم يكون لهم أحوال غريبة؛ لأن الشياطين تساعدهم، وتظهر على أيديهم بعض التصرفات الخارقة للعادة، وقد سبق أن الخارق للعادة على قسمين:

القسم الأول: خارق للعادة يكون كرامة، إذا كان صاحبه مستقيما على طاعة الله، ومن المؤمنين المتقين.

القسم الثاني: يكون خارقا شيطانيا، إذا كان صاحبه على الكفر والضلال ومخالفة الرسل؛ فإنه يكون خارقا شيطانيا، وليس كرامة، وهذا هو الصنف الذي يتحدث عنه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكلام، فهؤلاء لما والوا الشياطين، وعادوا المرسلين والمؤمنين، فإن الشياطين تتولاهم، ويجري على أيديهم بعض التصرفات الخارقة للعادة، وهي أحوال شيطانية؛ فلا يغتر بها، ويقال: هؤلاء أولياء؛ لأن لهم كرامات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣] [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ نفى عن القرآن وعن الرسول ﷺ تنزل الشياطين، فقال ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾؛ يعني: القرآن، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾؛ يعني: الوحي، ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]؛ فليس لهم قدرة على تلقي الوحي، إلا في صفة استراق السمع -كما سيأتي-، ثم لما نفى تعالى تنزل الشياطين على الرسول ﷺ بالقرآن، بيَّن تعالى الذين تتنزل عليهم الشياطين: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾، الأفاك: الكذاب كثير الإثم، ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: يسترقون السمع، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾؛ يصيبون في كلمة، ويكذبون معها مائة كذبة؛ كما قال النبي ﷺ[١]، فبين تعالى أولياء الشيطان، وأنهم ليسوا أولياء للرحمن، وإنما هم أولياء للشياطين، تنزل عليهم الشياطين.

---

(١) أخرج البخاري (٣٢١٠) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهْوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»، كما أخرج مسلم (٢٢٢٨) عن عَائِشَةَ سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ».

وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْمُكَاشَفَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُتَّبِعِينَ لِلرُّسُلِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْذِبُوا وَتُكَذِّبَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ. [١].

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا هُوَ إِثْمٌ وَفُجُورٌ، مِثْلُ نَوْعٍ مِنَ الشِّرْكِ أَوْ الظُّلْمِ أَوْ الْفَوَاحِشِ أَوْ الْغُلُوِّ أَوْ الْبِدَعِ فِي الْعِبَادَةِ؛ [٢].

الشرح:

[١] هذه القاعدة؛ فليست العبرة بوجود الخارق للعادة مع الشخص، حتى ينظر حاله، فإن كان مستقيما على طاعة الله، وهو من المؤمنين المتقين، فإن هذا الخارق يكون كرامة من الله ﷻ له، وأما إن كان مخالفا لأوامر الله، ومطيعا لأوامر الشيطان، فإن هذا الخارق، يكون خارقا شيطانيا، يجري على يده بواسطة الشياطين، فلا يعد من أولياء الله، وإنما يعد من أولياء الشيطان.

[٢] أفاك أثيم ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أفاك: كذاب، أثيم: كثير الإثم بما يمارس من الفواحش والمعاصي، فكيف يعد هذا وليًّا لله ﷻ؟! هذا من المغالطات.

وَلِهَذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ وَاقْتَرَنَتْ بِهِمْ، فَصَارُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ. [١].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، [٢].

الشرح:

[١] تنزلت عليهم الشياطين، بسبب إفكهم وإثمهم تنزلت عليهم الشياطين. فالإنسان إما أن يكون وليًا لله، وإما أن يكون وليًا للشيطان، فإن أطاع الله ورسوله، واتقى الله، فهو من أولياء الله، وإن كان أطاع الشيطان، وعصى الرسول ﷺ، فإنه يكون من أولياء الشيطان. هذا فرق واضح وقاعدة واضحة، لا تلتبس إلا على صاحب هوى، أو جاهل يحسب أن كل بيضاء شحمة؛ كما قالوا.

[٢] ما معنى ﴿يَعْشُ﴾؟ تفسرها الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [طه: ١٢٤]، ﴿يَعْشُ﴾ معناها: يعرض عن الوحي، وعن ذكر الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وهو القرآن والسنة، وذكر الله أيضا بالثناء على الله، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، فمن أعرض عن هذا، فإن الشيطان يأخذه، ويجعله من جنوده، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ هذه عقوبة له، فإن الله يسلط عليه الشيطان، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ يعني: ملازم له، الشيطان يلازمه، ولا ينفك عنه؛ عقوبةً له.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٧] أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزخرف: ٣٧]، يصدون هؤلاء عن سبيل الله ﷻ، وأعظم من ذلك ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، الإنسان إذا صار يحسب أنه على هدى، وهو على ضلال، هذه مصيبة، أما إذا كان الإنسان على ضلال، وهو يدري أنه على ضلال، هذا من الممكن أن يرجع، لكن إذا كان على ضلال، ويحسب أنه على هدى، هذه مصيبة، هذا لا يرجع، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٧-٣٨]، ويوم القيامة يتبين له الحق، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ يعني: المشرق والمغرب، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٨-٣٩].

وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ [١] مِثْلُ الْقُرْآنِ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقُرْآنِ، وَيُصَدِّقْ خَبَرَهُ، وَيَعْتَقِدْ وُجُوبَ أَمْرِهِ، فَقَدْ أَعْرَضَ عَنْهُ، [٢] فَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَيَقْتَرِنُ بِهِ، [٣] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠]، [٤].

الشرح:

[١] هو الوحي المنزل، هذا ذكر الرحمن ﷻ.

[٢] من لم يصدق بالقرآن، وقال: إنه سحر، أو أساطير الأولين، أو إنه كذب، أو إنه قول محمد، وليس كلام الله، أو إن القرآن مخلوق، وليس هو كلام الله، فهذا لم يؤمن بالقرآن، وأيضا لا يكفي أنه يصدق أن القرآن كلام الله، بل لابد أن يعمل به، ويتبعه، حتى يكون من أهل القرآن، ومن أولياء الله ﷻ.

[٣] يصير قرينا له، لا ينفك عنه.

[٤] مما يدل على أن الذكر هو القرآن المنزل قوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، فدل على أن الذكر هو ما أنزله الله ﷻ على رسوله من الكتاب والسنة، هذا هو الذكر.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، [١].

الشرح:

[١] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾؛ مثل قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾؛ يعني: من أعرض عن الوحي الذي أنزلته على نبيي، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقة. قيل: هذا في القبر، يضيق عليه قبره؛ لأنه يُسأل، ويقال له: «يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ» فيقول: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ». قَال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا». قَالَ: «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ»(١)، فهذا هو الضنك -والعياذ بالله-، وكذلك يكون في ضنك في الحياة الدنيا، فتجده يعيش في قلق، وفي هم، وفي وساوس، وفي حزن، أما المؤمن، فتجده يعيش مطمئنا، مستريح البال، متنعما بذكر الله ﷻ، هذا الذي أعرض عن ذكر الله يعيش في الدنيا في قلق وهم وضيق، حتى ولو كان يملك الملايين من الأموال، فإنه في ضنك، في عيشة ضنك، لا يتلذذ بما في يده، أو في القبر ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ ثم يوم القيامة يحشر أعمى، فاقدا للبصر؛ عقوبة له،

---

(١) أخرجه أبو داود كاملًا في سننه (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

فيستغرب فيقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، ما السبب؟!
السبب: قال ﷻ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ الجزاء من جنس العمل.

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ذِكْرَهُ هُوَ آيَاتُهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا؛ [١] وَلِهَذَا لَوْ ذَكَرَ الرَّجُلُ اللَّهَ ﷻ دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا مَعَ غَايَةِ الزُّهْدِ، وَعَبَدَهُ مُجْتَهِدًا فِي عِبَادَتِهِ، [٢] وَلَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِذِكْرِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ- كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، [٣].

الشرح:

[١] الله ﷻ سماه الذكر، الذكر الحكيم.

[٢] انتبهوا. يعني: ما المراد بالذكر، الذكر الذي يقوله الإنسان من التسبيح، والتهليل، والتكبير؟ المراد بالذكر: الوحي، أما الذكر الذي يصدر من الإنسان، فهذا، انتبهوا لما يقول الشيخ: (**دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا**)؛ يعني: لا يجف لسانه من ذكر الله. (**مَعَ غَايَةِ الزُّهْدِ**) مع غاية الزهد في الدنيا.

[٣] إذا أكثر من الأذكار والأوراد، الآن معهم أوراد يقرؤونها كثيرة في الصباح والمساء مكتوبة، بعضهم يحفظها، ويجتهد في الطاعة والعبادة، لكنه لا يتبع القرآن، وإنما يتبع الشيخ الفلاني والطريقة الفلانية، ولا يتبع القرآن، هذا من أولياء الشيطان، هذا يكون من أولياء الشيطان، فتنبهوا لهذا. فيكون إذًا ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ليس المراد بها الذكر اللساني بالتسبيح والتهليل والتكبير، المراد بالذكر هنا: الوحي المنزل، وهو القرآن.

وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ؛ [١] فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْمِلُهُ فِي الْهَوَاءِ. وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. [٢].

الشرح:

[١] ولو كان معهم خوارق؛ مثل: الطيران في الهواء، أو المشي على الماء، أو المشي على النار، ولا يتألم في ظاهره، فإن هذه خوارق شيطانية، الشياطين هي التي تأتي بها إليهم، وتخدمهم بها، تخدمهم بهذه الأمور، فليست العبرة بوجود الخارق مع الإنسان، إنما العبرة بسلوكه وسيره، فإن كان متبعا لرسول الله ﷺ، فهو من أولياء الله، وإن كان عاصيا لرسول الله ﷺ، ومطيعا للخرافيين والشياطين، ومخالفا لسنة الرسول، فهو من أولياء الشياطين، وإن كان يطير في الهواء، ويمشي على الماء، وما أشبه ذلك من الخوارق الشيطانية التي يخدمون بها أولياءهم.

[٢] الشيطان يحمل هؤلاء في الهواء، ويقطع بهم المسافات البعيدة، ويخبرهم عن أشياء لا يعلمها الإنس، يخبرهم بها، وبوجودها، وبأمكنتها، هذه أحوال شيطانية، ليست هي الكرامات التي لأولياء الله ﷻ، وهذا مما التبس على الناس الآن، فهذا الكتاب في الحقيقة كتاب نفيس يكتب بماء الذهب؛ لأنه بيَّن أولياء الرحمن وأولياء الشيطان غاية البيان.

فَصْلٌ

في صفات المنافقين وأمور الجاهلية

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ إِيمَانٌ وَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ [١].

الشرح:

[١] انتهى رحمه الله من بيان أولياء الله وأولياء الشيطان، وبيان علاماتهم التي يعرفون بها، وأن الأمر ليس بالدعاوى، وإنما الأمر بالحقيقة، بيَّن أولياء الله الخلص، وأعداء الله، وأولياء الشيطان الخلص، ثم ذكر الصنف الثالث: وهو من يكون وليًّا لله من جهة، ووليا للشيطان من جهة، وهو المؤمن العاصي، الذي لم تصل معصيته إلى الكفر والشرك، بل هي كبيرة من كبائر الذنوب، دون الكفر والشرك، فهذا ليس وليًّا لله خالصا، ولا وليًّا للشيطان خالصا، وإنما هو بين بين، بين ذلك، فيكون وليًّا لله بقدر ما فيه من الإيمان وطاعة الله ورسوله، ويكون وليًّا للشيطان بقدر ما فيه من معصية الله ورسوله.

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ إِيمَانٌ وَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ)، المقصود بالشعبة من النفاق العملي الذي قد يكون في بعض المؤمنين، والذي خافه النبي ﷺ على أصحابه، فقال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ». قُلْنَا بَلَى. فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ

صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[1]، هذا نفاق عملي، نفاق أصغر، أما النفاق الأكبر، فهو من الصنف الأول، الذي فيه نفاق أكبر هذا من أولياء الشيطان، من الصنف الثاني، وهم أولياء الشيطان.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»(١). فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَفِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا. [١].

الشرح:

[١] يعني: النفاق العملي، منافقا خالصا، يعني: في النفاق العملي، لا يكون كافرا: «وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا»، فدل على أنه يكون في المؤمن إيمان، ويكون فيه نفاق، يكون فيه إيمان، ويكون فيه نفاق.

«إذَا حَدَّثَ كَذَبَ»: الواجب على المسلم أن يصدق في أحاديثه، ولا يعوِّد نفسه الكذب والتساهل فيه.

«وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»: إذا صدر منه وعد لأحد، فإنه لا يفي بالوعد، هذا نفاق، والواجب على المسلم أنه إذا وعد، يفي بوعده، ولا يتخلف ويغر الموعود، هذا من خصال النفاق.

«وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ»: إذا اؤتمن على سر، اؤتمن على عمل وظيفة، اؤتمن على وديعة، اؤتمن على معاملة، إذا اؤتمن، خان -والعياذ بالله-، الخيانة

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

ليست من صفات المؤمن، المؤمن من صفاته الأمانة في القول والعمل، يكون أمينا.

«وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»: إذا عاهد ولي أمر المسلمين، غدر ونكث الطاعة، أو عاهد أحدا من أفراد الناس، حتى ولو الكافر، إذا عاهد - ولو الكافر -، يجب الوفاء: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾، فإذا عاهد أحدا من الخلق - مؤمنا أو كافرًا -، فإنه يجب عليه الوفاء بعهده؛ فالغدر في العهود هذا من النفاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١]، فيكون المؤمن عند عهده ووعده، وصدقه وأمانته، حتى يكون سالما من النفاق العملي، الشاهد من الحديث أن المؤمن قد يكون فيه خصلة من خصال النفاق، فيجتمع إيمان ونفاق فيه.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»(١) [١].

الشرح:

[١] فهذا دليل على أن الإيمان يتفاضل، وأن بعضه أكمل من بعض، وليس هو شيئًا واحدًا - كما يقوله المرجئة -، بل الإيمان يتفاضل، فقوله: «أَعْلَاهَا»، هذا دليل على أنه له أعلى، وله أدنى، «أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وأدنى خصال الإيمان إماطة الأذى عن طريق المسلمين، «وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»؛ لأن الحياء يكف الإنسان عما لا يليق، الحياء المراد به الحياء الذي يكف الإنسان عما لا يليق، قال ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»(٢)، فالحياء من الإيمان، يصير شعبة من شعب الإيمان، الشاهد من الحديث أن الإيمان يتفاوت: منه ما هو أعلى، ومنه ما هو أدنى، ومنه ما هو متوسط، وليس شيئا واحدا، فدل على أن من الناس من يكون مؤمنا كامل الإيمان، وهذا من الأولياء الخلص، ومنهم من يكون ناقص الإيمان، وهذا فيه إيمان، وفيه نقص، فيه نقص في إيمانه، فيكون من جهة وليًّا لله، ومن جهة عدوا لله ووليا للشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود ﷺ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ - وَهُوَ مِنْ خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ -: «إِنَّك امْرُؤٌ فِيك جَاهِلِيَّةٌ» فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَلَى كِبَرِ سِنِّي؟! قَالَ: «نَعَمْ»(١) [١].

الشرح:

[١] هذا أبو ذر رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن أفضل الصحابة رضي الله عنهم، ومع هذا قال له النبي ﷺ: **«إِنَّك امْرُؤٌ فِيك جَاهِلِيَّةٌ»**؛ يعني: خصلة من خصال الجاهلية، فدل على أن المؤمن قد يكون فيه خصلة من خصال الجاهلية، والسبب في هذا أن أبا ذر رضي الله عنه صار بينه وبين رجل أمه أعجمية شيء من سوء التفاهم، فعيره بأمه الأعجمية، قال ﷺ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**(٢)؛ لأن التعيير، والطعن في النسب من خصال الجاهلية -كما يأتي-، فهذا مع كمال إيمانه، وسابقته في الإسلام، صارت فيه هذه الخصلة، فكيف بغيره ممن هو ليس مثله، ولا قريبا منه؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠) من حديث المعرور رضي الله عنه.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»(١) [١].

الشرح:

[١] الجاهلية الأولى الكاملة زالت - ولله الحمد - ببعثة النبي ﷺ، لكن قد يبقى منها شيء في المسلمين، في بعض الأفراد؛ كما قال النبي ﷺ لأبي ذر. في بعض القبائل، في بعض الدول يبقى شيء من خصال الجاهلية: **«أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ»**، الحسب: هو منصب الإنسان، المنصب: هو الحسب، إذا كان الإنسان له منصب، وله مكانة عند الناس، وله جاه، فلا يفتخر بهذا، لا يجوز أن يفتخر بهذا، هذا من أمور الجاهلية، إذا افتخر بمنصبه وبمكانه، وترفع به على الناس، فهذا من أمور الجاهلية، **«الْفَخْرُ بالأَحْسَابِ»**.

والثاني: «وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ»، والأنساب جمع نسب، وهو ما ينتمي إليه الشخص من قبيلة أو أسرة، فلا يجوز أن تطعن في أنساب الناس، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] (الشعوب): قالوا: للعجم، والقبائل: للعرب، ليتعارفوا، فدراسة النسب إنما هي للتعارف فقط، وليست للطعن في بعضها، ﴿إِنَّ

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، الطعن في الأنساب بأن تقول: فلان نسبه وضيع، فلان ليس قَبَلِيًّا. ما يجوز هذا، أما أن تعرف النسب من أجل أن تعرف أقاربك وقبيلتك، فهذا لا بأس به، وقد جاء في الحديث: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»[(١)]، فدراسة النسب، ومعرفة الأنساب إذا كان القصد منها معرفة الأقارب والقبائل، لا بأس بذلك، أما إذا كان القصد منها الطعن في أنساب الناس، وتنقص أنساب الناس، فهذا لا يجوز، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، والنبي ﷺ قال: «لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»[(٢)]، فهذا مثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، لم يضر سلمان وبلالا ﵄ أن هذا حبشي، وهذا فارسي، وهذا صهيب الرومي، لم يضرهم ذلك، صاروا من سادات الصحابة وأكابر الصحابة ﵃، ولم ينفع أبا لهب كونه هاشميا، وعما للرسول ﷺ، لم ينفعه هذا، فالاعتماد ليس على النسب، إنما الاعتماد على التقوى، والإيمان بالله ورسوله، إنما يعرف النسب لأجل التواصل فقط والتعارف.

الثالثة: «وَالنِّيَاحَةُ»؛ النياحة على الميت، رفع الصوت والجزع عند المصيبة، وتعداد محاسن الميت، بأن تقول: وا رأساه، وا سيداه، وا عضداه؛ كما تقول النائحات في الجاهلية، حتى إنهم يستأجرون نائحات يعددن محاسن الميت، ويجزعن، ويضربن الخدود، ويلطمن الوجوه،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٨٩) من حديث جابر ﵁.

ويشققن الثياب، ويحلقن الرؤوس من باب الجزع على الميت، والذي ما لا يفعل له هذا يصير رخيصًا، ما له قيمة عندهم. هذا من أمور الجاهلية، والواجب الصبر عند المصائب، والاحتساب، وعدم الجزع، أما كون الإنسان يحزن ويبكي، هذا لا شيء فيه، الرسول ﷺ حزن على ابنه إبراهيم، وبكى ﷺ، فالحزن والجزع لا يضر، إنما يضر التسخط لقضاء الله وقدره، هذا هو الذي يضر، وهذا هو النياحة، وهذا لم ينعدم، ولم ينقطع، والآن يوجد في المسلمين من يفعله.

والأخيرة الرابعة: «وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»؛ نسبة المطر إلى النجوم؛ كما هي عادة الجاهلية، فيقولون: إذا طلع النجم الفلاني، يحصل مطر، وإذا غاب النجم الفلاني، يحصل مطر، ولا ينسبون المطر إلى الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]، تنسبون المطر إلى النجوم، وأنها بسبب النجوم، ولهذا لما أمطرت السماء على الصحابة مع رسول الله ﷺ في الحديبية، صلى بهم الفجر، قال ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ». قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ **«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»**[1]، فلا يجوز نسبة الأمطار والنجوم إلى الكواكب

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

والطوالع والغوارب؛ كما هي عادة الجاهلية، وإنما المطر بأمر الله، هو الذي ينزله إذا شاء ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩]، فالله هو الذي ينزل الغيث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، فنسبة المطر إلى الأفلاك أو إلى النجوم، أو إلى المناخات هذا من أمور الجاهلية. والشاهد من هذا أن الإنسان قد تكون فيه خصلة من خصال الجاهلية إذا كان عنده واحدة من هذه الأمور، وإن كان مسلما.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(١). [١]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»(٢). وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: «أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ»(٣). [٢].

الشرح:

[١] هذا الحديث سبق، لكن الرواية رواية مسلم: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»، فدل على أنه يحدث من المسلم الذي يصلي ويصوم، يحدث أن يكون فيه خصلة من النفاق.

[٢] ابن أبي مليكة تابعي جليل من علماء مكة، يقول: أدركت هذا العدد من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه؛ يعني لا يزكون أنفسهم؛ لأن النبي ﷺ خافه على أصحابه رضي الله عنهم، قال: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ»(٤) فخافه على أصحابه، فدل على أنه قد يوجد شيء من النفاق في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) هذه الزيادة عند مسلم كتاب الإيمان (١٠٩ - ١١٠).

(٣) أخرجه البخاري معلقًا (١/ ١٣٥- مع الفتح)- كتاب الإيمان باب خوف المؤمن أن يحبط عمله- وقال الحافظ: وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه لكنه أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولًا في كتاب الإيمان له. ا. هـ.

(٤) سبق تخريجه (ص١٧٥).

المسلم، فينبغي له أن يحذر من هذا، ولا يقل: أنا مسلم. ويأمن من خصال النفاق، بل يخاف منها، ويحذر منها، ويستعيذ منها، كان النبي ﷺ يسر إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، يسمي له المنافقين، يسر إليه، ولهذا يسمى حذيفة رضي الله عنه: أمين سر النبي ﷺ، فكان عمر رضي الله عنه يسأله، يقول: «**بِاللَّهِ، مِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: لَا**»[1]، يخاف على نفسه النفاق، وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الإنسان لا يأمن على نفسه من النفاق، وإذا لم يأمن على نفسه، فإنه يحذر، ويتجنب خصال النفاق. والشاهد من هذا أن المسلم قد يكون فيه خصلة من خصال النفاق، فيكون من جهتها فيه موالاة للشيطان بقدر ما فيه. وقول ابن أبي مليكة دليل على كمال إيمانهم، وأنهم لا يكملون أنفسهم، ولا يزكون أنفسهم على ما لهم من القدر والمكانة في الإيمان، لا يزكون أنفسهم، يخافون على أنفسهم من النفاق.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٨١)، والخلال في السنة (٤/ ١١١، ٥/ ٦٧)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (١/ ١٤٤)، والبزار في مسنده (٧/ ٢٩٢).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]. [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ لما أجرى ما جرى في وقعة أحد على المسلمين من النكبة والمصيبة بسبب المخالفة التي حصلت من بعضهم، وهم الرماة الذين كانوا على الجبل، أمرهم النبي ﷺ ألا يتركوه، سواء انتصر المسلمون، أو هزموا بعض الرماة لما رأوا المسلمين انتصروا في أول المعركة، وصاروا يجمعون الغنائم، حاولوا النزول من الجبل، وظنوا أن المعركة انتهت، فذكرهم قائدهم عبد الله بن جبير ﵁ بأن الرسول ﷺ قال: «لاَ تَبْرَحُوا»[(١)]، لكنهم مع هذا نزلوا، وتركوا الجبل، فلما رأى المشركون الجبل قد خف، انقضوا على المسلمين من خلفهم، وداهموهم من جهة الجبل، فصار المسلمون بين الكفار، من أمامهم ومن خلف ظهورهم، ثم دارت المعركة مرة ثانية، وجرى على المسلمين ما جرى من النكبة، استشهد منهم سبعون ﵃، وحتى الرسول ﷺ جرح، وهشم المغفر على رأسه، وكسرت رباعيته ﷺ، كل هذا من جراء المعصية التي حصلت، شؤم المعصية، ولا يقتصر ضررها

---

(١) أخرجه البخاري مطولًا (٣٠٣٩، ٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٠٦٧، ٤٥٦١).

على من فعلها، بل نالت الأخيار، الحاصل أن الله ذكرهم بهذا، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، هذا يوم أحد، الجمعان: جمع المسلمين، وجمع الكافرين، ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بقدره وقضائه ﷻ بإذنه القدري، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾، فدل على أنه يكون في بعض المؤمنين نفاق، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الله أجرى هذا للاختبار؛ ليتميز الصادق في إيمانه الخالص ممن فيه نفاق. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾، هذا محل الشاهد، فدل على أنه يضعف الإيمان، حتى يكون صاحبه أقرب إلى الكفر، يكون معه إيمان ضعيف، وفي الحديث: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[1]، «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[2]، فدل على أن الإيمان يكون فيه ضعيف وأضعف، حتى يكون صاحبه أقرب إلى الكفر.

﴿لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾، هذا محل الشاهد من الآية الكريمة: أن الإيمان ينقص، ويضعف، حتى يكون قريبا من الكفر، وليس الإيمان شيئا واحدا لا يزيد، ولا ينقص - كما تقوله المرجئة الضُلال -، بل هو يزيد وينقص.

الشاهد فيه: أن المؤمن يضعف إيمانه، حتى يكون أقرب إلى الكفر.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

فَقَدْ جَعَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْكُفْرِ أَقْرَبَ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ، [١] فَعُلِمَ أَنَّهُمْ مُخَلِّطُونَ، [٢] وَكُفْرُهُمْ أَقْوَى، وَغَيْرُهُمْ يَكُونُ مُخَلِّطًا وَإِيمَانُهُ أَقْوَى [٣].

وَإِذَا كَانَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، [٤] فَبِحَسَبِ إِيمَانِ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ تَكُونُ وِلَايَتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا وَتَقْوَى، كَانَ أَكْمَلَ وِلَايَةً لِلَّهِ. [٥].

الشرح:

[١] هذا محل الشاهد.

[٢] (فَعُلِمَ أَنَّهُمْ مُخَلِّطُونَ)؛ يعني: يخلطون الإيمان مع الكفر والنفاق، وكفرهم أقوى من إيمانهم.

[٣] من المؤمنين من يكون إيمانه خالصا، ومنهم من يكون مخلطا؛ يعني: فيه إيمان، وفيه نفاق، ثم هم يتفاوتون: هذا مخلط، لكن إيمانه أقوى من النفاق، وبعضهم العكس، يكون مؤمنا، ولكن نفاقه أقوى من إيمانه، فالناس يتفاوتون في إيمانهم تفاوتا عظيما، وليسوا على درجة واحدة.

[٤] (المؤمنين) خبر كان، و(هم) هذا ضمير فصل، يسمونه ضمير فصل، وفي بعض النسخ (هم المؤمنون)، فيكون ضمير الفصل مبتدأً، و(المؤمنون) خبره.

[٥] بحسب إيمانه وتقواه تكون ولايته لله، تكون خالصة أو مخلطة؛ إيمانه أقوى أو نفاقه أقوى.

فَالنَّاسُ مُتَفَاضِلُونَ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ ﷻ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، [١] وَكَذَلِكَ يَتَفَاضَلُونَ فِي عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ. [٢].

الشرح:

[١] الناس متفاضلون في ولاية الله؛ يعني: في محبة الله، هم يحبون الله، والله يحبهم بقدر ما عندهم من الإيمان، فمنهم من تكون ولايته تامة، ومنهم من تكون ولايته ناقصة، وكلهم أولياء لله ﷻ، هذا فيه رد على المرجئة، عرفنا هذا، لكن فيه ردًّا على الخوارج الذين يكفرون أصحاب الكبائر، ويخرجونهم من الإيمان، هذا مذهب باطل، فأهل الكبائر معهم إيمان، لكن يكون إيمانهم ناقصا، وهم تحت المشيئة: إن شاء الله غفر لهم، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم، هذا اعتقاد أهل السنة والجماعة في أهل الكبائر، وهو وسط بين الخوارج الذين يكفرونهم، وبين المرجئة الذين يقولون: إيمانهم كامل، ولا تضرهم المعاصي، ولا يضر مع الإيمان معصية، يقولون كذا.

[٢] وكذلك الكفار ليسوا على درجة واحدة، أعداء الله ليسوا على درجة واحدة؛ بعضهم أخف من بعض في الكفر، وعداوته لله أخف: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: ٨٢]، فالكفار ليسوا على درجة واحدة في الكفر.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]. [٢].

الشرح:

[١] فهذا فيه دليل على أن الكفر يتفاضل، وأن الإيمان يتفاضل، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، دل على أن الإيمان يزيد، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ يعني: شك ونفاق.

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ يعني: نجاسة إلى نجاستهم الكفرية.

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، فدل على أن الكفر يزيد أيضا رجسًا، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، دل على أن الكفر يزيد وينقص.

[٢] (النسيء) هو تأخير الحج عن وقته، كانوا في الجاهلية يؤخرونه عن وقته حسب أهوائهم، هذا النسيء، وهو التأخير، ويؤخرون الأشهر الحرم أيضا عن وقتها، هذا كان في أيام الجاهلية ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، فدل على أن الكفر يزيد، هؤلاء لما غيروا أحكام الله، صار هذا زيادة في كفرهم، كفر على كفر -والعياذ بالله-.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. [١] وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. [٢] فَبَيَّنَ ﷻ أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ قَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ؛ وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ قِسْطٌ مِنْ عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ كُفْرِهِ وَنِفَاقِهِ. [٣]،

الشرح:

[١] هذا دليل على زيادة الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾، فدل على أن الهداية تزيد، والإيمان يزيد.

[٢] وهذا دليل على أن الكفر والنفاق يزيد: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: المنافقون ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، فدل على أن الكفر يزيد، والنفاق يزيد، ومرض القلب يزيد، حتى يموت القلب.

[٣] هذه النتيجة من سياق الآيات السابقة، دلت هذه الآيات على أن الرجل قد يكون فيه قسط من الإيمان، وقسط من النفاق والكفر، فلا يقال: إن الإيمان شيء واحد، لا يزيد ولا ينقص، وإنما الإيمان يزيد وينقص.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]. [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾؛ لأن الله أخبر أن على النار تسعة عشر من الملائكة، فقال بعض الكفار: أنا أكفيكم منهم كذا وكذا، يظن أنهم مثل الآدميين، يقول: النار فقط ما عليها إلا تسعة عشر، أنا أكفيكم منهم كذا وكذا من العدد، أنتم اكفوني الباقي، ونخرج من النار. من السخرية والاستهزاء. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾، ليسوا مثل غيرهم؛ ملائكة، الملك لا يعلم قوته وغلظه وكبره إلا الله ﷻ، ليس مثل الآدميين؛ لا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليهم؛ الملك الواحد لا يستطيعه البشر كلهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾؛ اختبار ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنه وافق ما عندهم من التوراة، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾، هذا محل الشاهد: أن الإيمان يزيد.

[٢] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، (السكينة): الطمأنينة يوم أحد، ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، فدل على أن المؤمن يزيد إيمانه.

فَصْلٌ فِي طَبَقَاتِ الأَوْلِيَاءِ

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى طَبَقَتَيْنِ: سَابِقُونَ مُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ مُقْتَصِدُونَ. ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ؛ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَآخِرِهَا، وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَالْمُطَفِّفِينَ، [١].

الشرح:

[١] أولياء الله يتفاوتون؛ منهم المقربون، ومنهم أصحاب اليمين، ومنهم الظالمون لأنفسهم، فأهل الإيمان يتفاوتون.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وهؤلاء هم أصحاب المعاصي مع ما فيهم من الإيمان.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، وهو الذي اقتصر على أداء الواجبات، وتجنب المحرمات، أدى الفرائض والواجبات، وتجنب المحرمات، هذا مقتصد، قد يفعل بعض المكروهات، وقد يترك بعض السنن، هذا مقتصد.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، هذه الطبقة العليا، وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات من باب الاحتياط، هؤلاء هم السابقون، وجاء في مثل هذه الآية آيات يذكرها الشيخ -فانتبهوا لها- أن المؤمنين ليسوا على طبقة واحدة، وأنهم يتفاوت جزاؤهم يوم القيامة بحسب ذلك، وأصحاب اليمين هم الأبرار.

وَفِي سُورَةِ فَاطِرٍ، فَإِنَّهُ ﷺ ذَكَرَ فِي الْوَاقِعَةِ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى فِي أَوَّلِهَا، وَذَكَرَ الْقِيَامَةَ الصُّغْرَى فِي آخِرِهَا، فَقَالَ فِي أَوَّلِهَا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة ١ - ١٤]. **فَهَذَا تَقْسِيمُ النَّاسِ إِذَا قَامَتْ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى الَّتِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهَا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، كَمَا وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ:** ﴿فَلَوْلَا﴾ **أَيْ: فَهَلَّا،** ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ [الواقعة ٨٣ - ٩٦]. [١].

الشرح:

[١] ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾، هذه أحداث يوم القيامة، ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾؛ يعني: أصنافًا، كنتم أيها المؤمنون أصنافا

ثلاثة، الخلق ليس المؤمنون خاصة، كنتم أيها الناس أصنافا ثلاثة: الكفار، والمؤمنون المقتصدون الأبرار، والسابقون. ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾، هؤلاء هم الأبرار أصحاب اليمين، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾، هؤلاء الكفار - والعياذ بالله -، أصحاب الشؤم والكفر، وتكرار (أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) هذا من باب التفخيم، ثم قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، فكانوا ثلاثة أصناف؛ أزواجا ثلاثة: كفار، وأصحاب يمين، والمقربون؛ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، هذا في أول السورة، ذكر القيامة الكبرى، ثم في آخرها ذكر القيامة الصغرى، وهي الموت: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣]؛ يعني: الروح، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة: ٨٤-٨٧]؛ أي: الروح ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٧]، ثم قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩]، هؤلاء هم السابقون المقربون، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٩٠ - ٩١]؛ يعني: سالم، يسلم من النار ومن الآفات، لكنه ليس مثل الطبقة العليا، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: ٩٢]، هؤلاء الكفار ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٩٣ - ٩٤]، هكذا الناس عند الموت: إما أن يكون من المقربين، وإما أن يكون من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من الكفار -والعياذ بالله-.

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١ - ١٢]. [١].

الشرح:

[١] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، هدينا الإنسان؛ يعني: هديناه الهداية العامة، التي هي بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ هذا صنف، إما شاكرا وإما كفورا، فبين جزاء الكفور، وسيبين جزاء الشاكرين بعد ذلك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، هؤلاء أصحاب اليمين، الأبرار وأصحاب اليمين يشربون من كأس من شراب الجنة، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ أي: خلطها الكافور طيب الرائحة عذب المذاق.

قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، هؤلاء المقربون، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

فالمقربون يشربون خالصا ليس ممزوجا، وأما الأبرار، فيشربون ممزوجا بالكافور.

قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، هذه صفاتهم.

قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، فذكر الأصناف الثلاثة، ذكر الكفار، وذكر أصحاب اليمين، وذكر عباد الله المقربين يشربون خالصا، يشربون من الرحيق المختوم خالصا.

قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، هذا جزاؤهم عند الله تبارك وتعالى.

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ، فَقَالَ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٧ - ٢٨] [١].

الشرح:

[١] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، هذا صنف، (السِّجِّين): السجن الضيق، (السِّجِّين) فعيل: صيغة مبالغة من الضيق، السجن الضيق، وقيل: (السِّجِّين) هي تحت الأرض السابعة - والعياذ بالله -(١).

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾، الأبرار هؤلاء هم المقتصدون.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾، هؤلاء المقربون.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، هؤلاء هم الأبرار، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٤١٥)، والقرطبي (١٩/ ٢٥٧).

الأولون يمزج لهم، ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾، وهناك قال: مسك، وهنا قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (بها) يشربون خالصا، ليس ممزوجا.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ وَغَيْرِهِ مِنْ السَّلَفِ قَالُوا: يُمْزَجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَزْجًا وَيَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا[1][١]، وَهُوَ كَمَا قَالُوا. فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، وَلَمْ يَقُلْ: يَشْرَبُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ ذَلِكَ قَوْلَهُ: يَشْرَبُ، يَعْنِي: يُرْوَى بِهَا، فَإِنَّ الشَّارِبَ قَدْ يَشْرَبُ وَلَا يُرْوَى، فَإِذَا قِيلَ: يَشْرَبُونَ مِنْهَا، لَمْ يَدُلَّ عَلَى الرِّيِّ، فَإِذَا قِيلَ: يَشْرَبُونَ بِهَا، كَانَ الْمَعْنَى يَرْوُونَ بِهَا،[٢].

الشرح:

[١] (صرفا) يعني: خالصا، رحيقًا خالصًا.

[٢] فهم أوفر حظا من أصحاب اليمين، ومن الأبرار؛ لأن الأبرار وأصحاب اليمين يشربون الرحيق مخلوطا بالمسك، وفي الآية الأخرى بالكافور، وأما المقربون، فيشربونها صرفا خالصة، ليس معها مزاج.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٤)، والضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٣٠٠)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٨٨): وقال: «قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم. ومعنى صِرْفًا: أي خالصةً غير ممزوجة، والصِّرْفُ: الخالص من كل شيء». قاله ابن الأثير في النهاية (٣/ ٢٤).

فَالْمُقَرَّبُونَ يَرْوُونَ بِهَا ، فَلَا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا إِلَى مَا دُونَهَا ؛ فَلِهَذَا يَشْرَبُونَ مِنْهَا صِرْفًا بِخِلَافِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، فَإِنَّهَا مُزِجَتْ لَهُمْ مَزْجًا ، [١] وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ : ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ . [٢] .

الشرح :

[١] وهذا أيضا الفارق؛ الأبرار يشربون منها؛ يعني: وقد لا يروون منها، وأما المقربون، فيشربون بها؛ يعني: يروون منها، فرق بين (يشربون منها) و(يشربون بها). انظر دقة الفهم، ودقة الفقه في القرآن.

[٢] القرآن يوافق بعضه بعضا، ولا يختلف؛ فمن مزج العمل في الدنيا بشيء من المعاصي، يمزج له الشراب يوم القيامة، ومن أخلص العمل، ولم يكن فيه معصية أبدا، شرب خالصا، ليس معه خلط؛ الجزاء من جنس العمل. تقدم أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر أن أولياء الله ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، وهم: السابقون المقربون، والأبرار أصحاب اليمين، والظالمون لأنفسهم من عصاة الموحدين. وذكر أعمال كل من الطوائف الثلاث؛ فالمقربون السابقون أدوا الفرائض والنوافل، تجنبوا المحرمات والمكروهات، وصارت أعمالهم كلها عبادة لله ﷻ، وأما الأبرار أصحاب اليمين، فهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات، وتركوا المحرمات، وقد يتركون النوافل، أو يفعلون شيئا من المكروهات، فهؤلاء مقتصدون وأبرار أصحاب يمين، الظالم لنفسه هو المؤمن الذي قد يقع منه بعض الكبائر

التي دون الشرك، يفعلون شيئا من المحرمات، التي هي دون الشرك، فهؤلاء ظالمون لأنفسهم، فجزاؤهم يكون على وفق أعمالهم، فالسابقون الأولون يشربون الرحيق المختوم صرفا، ليس مع خلطٍ؛ لأنهم خلصوا أعمالهم، صارت كل حياتهم لله ﷻ، وأصحاب اليمين المقتصدون يشربون، لكن من الممزوج بالكافور أو بالمسك، يمزج لهم؛ كما مزجوا في الدنيا العمل بشيء من حظوظ النفس وراحتها في المباحات، والظالم لنفسه هذا تحت المشيئة؛ إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه بذنوبه، ثم يدخله الجنة، قد يخرج من النار بشفاعة النبي ﷺ، يخرج من النار بعدما يدخلها، يخرج منها بشفاعة النبي ﷺ أو بشفاعة غيره، هؤلاء هم طبقات أولياء الله المؤمنين.

فَعِبَادُ اللَّهِ هُمْ الْمُقَرَّبُونَ الْمَذْكُورُونَ فِي تِلْكَ السُّورَةِ [١] وَهَذَا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، [٢] وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، [٣].

الشرح:

[١] سورة الواقعة في أولها وآخرها، وسورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]، وفي سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ذكر أنهم ثلاث طبقات.

[٢] هذا شاهد على أن الجزاء من جنس العمل، «مَنْ نَفَّسَ»؛ يعني: وسع، «عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً»؛ يعني: ضائقة، وجد أخاه في ضائقة من دين أو غيره، أو جوع أو غير ذلك، نفس عنه هذه الكربة، أو كان معرضا لعقوبة أو جزاء، فشفع له، وخلصه، والحاصل أنه نفس عن مؤمن كربة، هذا جزاؤه من جنس عمله، أنه يوم القيامة ينفس الله عنه من كرب يوم القيامة، «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[٣] والدائن الذي له دين على معسر، إذا يسر عليه التسديد، ولم يضيق عليه، فإن الله ييسر له في الدنيا والآخرة؛ جزاء على عمله، فالجزاء من جنس العمل.

وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، [١].

الشرح:

[١] من رأى على مسلم خطأ أو زلة؛ لأن الإنسان ليس بمعصوم، يحصل منه أخطاء، ويحصل منه بعض المعاصي، فمن اطلع على ذلك، فإنه يستر عليه، ولا ينشر خطأه للناس، مع مناصحته، هذا يستر الله عليه في الدنيا والآخرة؛ الجزاء من جنس العمل، فالإنسان له أخطاء، فإذا ستر على أخيه أخطاءه، ستر الله عليه أخطاءه، وأما من فضح أخاه، وشهر به، ونشر أخطاءه، فإن الله يفضحه، وينشر أخطاءه في الناس، وفي الحديث: «يَا مَعْشَرَ مَنْ قَدْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»[١]، فالستر مطلوب في هذا على أصحاب الأخطاء مع مناصحتهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، [١] وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. . . [٢].

الشرح:

[١] كذلك الله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه، فالمؤمن يعين أخاه المؤمن في دينه ودنياه، يعينه على مصالحه، فمن أعان أخاه، أعانه الله، الله ﷻ قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، فمن أعان أخاه، أعانه الله؛ الجزاء من جنس العمل.

[٢] هذا في الحث على طلب العلم، «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»؛ الجزاء من جنس العمل، فكما أنه سلك طريق التعلم رغبة في العلم النافع؛ لينتفع وينفع، فإن الله يسهل له بذلك طريقا إلى الجنة، فهذا فيه الحث على السعي في طلب العلم، وعدم التكاسل، عدم الميل إلى الراحة، طلب العلم لا شك أن فيه تعب، وفيه مشقة، لكنه من الجهاد في سبيل الله، فيصبر الإنسان، ولا ينال العلم بالراحة، إنما ينال بالتعب: طلب، سهر الليالي، والبحث، والتنقيب، وسؤال أهل العلم، وحضور مجالس العلم، وإن بعدت عنه، فهذا من سلوك الطريق لطلب العلم.

وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ... [١].

الشرح:

[١] هذا فيه فضل طلب العلم في المساجد، في بيوت الله ﷻ، هذا أفضل مكان لطلب العلم؛ لأنه تحصل فيه هذه الفوائد: نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وأعظم من ذلك أن الله يذكرهم فيمن عنده، في الملأ الأعلى، فهذا فيه فضل طلب العلم في المساجد، التي هي بيوت الله، وإحياء المساجد بذلك؛ لينتفع من يرتاد المساجد، ولما في ذلك من عمارة المساجد بيوت الله ﷻ، فأفضل مكان يطلب فيه العلم المساجد، ولا مانع من طلب العلم في المدارس، في المعاهد، في الكليات، أما طلب العلم في الأسرار والكهوف، والاستراحات، وغير ذلك من الأمكنة الخفية والمجهولة، فهذا لايجوز؛ لأنه قد يشوبه شيء من الأفكار - خصوصا في هذا الزمان -، يشوبه شيء من الأفكار المنحرفة، ويقصده دعاة الضلال، فيجب الحذر من هذه الأمور، أو من هذه الأمكنة المشبوهة، فالذي يريد طلب العلم لا يذهب إليها، وإنما يذهب إلى دور العلم: المساجد، المدارس، المعاهد، الكليات، هذه دور العلم، هذه هي محل طلب العلم، وأمور الدين ليس فيها خفاء وتخفي، لا يتخفى في هذه الأمكنة إلا إنسان عنده أفكار سيئة، لا يريد أن يطلع عليها، أما العلم الشرعي،

فليس فيه شيء يخفى عن الناس، ولهذا روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: **(إذا رأيت قوما يتناجون في دينهم دون العامة، فاعلم أنهم في تأسيس الضلالة)**[1]؛ لأن أمور الدين واضحة - ولله الحمد -، وليس فيها تخفى أو أسرار، بل هي تعلن للناس؛ ليستفيد منها الناس، وتزول الشبهة عن الإنسان، ولا يتهم، فهذا أمر يجب التنبه له، خصوصا في هذا الزمان.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٣٨).

وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١). رواه مسلم في صحيحه. [١].

الشرح:

[١] فالمدار على العمل الصالح، وأما النسب، فإنه لا يقدم الإنسان عند الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والنبي ﷺ قال: «لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَميٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»(٢).

النسب لا يقدمك عند الله ﷻ، ولو كنت من أشرف الناس نسبا، شرف النسب لم ينفع أبا لهب عم النبي ﷺ؛ أنزل الله فيه سورة تتلى إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١]، ما نفعه نسبه، وهو من أشراف بني هاشم، وعم الرسول ﷺ، ولا ضر بلالا، ولا سلمان، ولا صهيبا، ولا خبابًا، وغيرهم من الموالي، ولا عمار بن ياسر، ما ضرهم أنهم موالٍ، صاروا من سادات الأولياء، من سادات الصحابة ﷺ، فهذا معنى قول الرسول ﷺ: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ»؛ يعني: تأخر به عمله، «لَمْ يُسْرِعْ»، لم يقدمه نسبه، وإن كان نسبه مشهورًا، هذا لا ينفعه عند الله ﷻ، الله ﷻ قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) سبق تخريجه (ص ١٨١).

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣] سواء كان لهم نسب، أو ما لهم نسب، فلا ينفع عند الله إلا العمل، يوم القيامة لا ينفع إلا العمل.

وَقَالَ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(١). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ. [١].

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الصَّحِيحِ الَّذِي فِي السُّنَنِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْته، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ»(٢) [٢].

الشرح:

[١] وهذا الحديث فيه أن الجزاء من جنس العمل، الراحمون الذين يرحمون الناس، ويلطفون بهم، ويرفقون بهم، ويطعمون الجائع، ويكسون العاري، ويتصدقون على المحتاجين، فإن الله يرحمهم جزاء؛ كما رحموا عباده، فإن الله يرحمهم، «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» وهو الله ﷻ، هذا فيه إثبات العلو لله ﷻ، وأنه في السماء.

[٢] هذا أيضا فيه أن الجزاء من جنس العمل، فمن وصل رحمه، وصله الله، ومن قطع رحمه، قطعه الله؛ الجزاء من جنس العمل، الرحمن من أسماء الله ﷻ، وهو يتضمن الرحمة، الرحمن اسمه، والرحمة صفته ﷻ، والرحم مشتقة من الرحمن من الاسم، اشتقاق الاسم، فهذا فيه آكدية حق الرحم، ورحم الإنسان هم أقاربه من جهة أبيه، أو من جهة أمه، هؤلاء هم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٩٤)، والترمذي (١٩٠٧)، وأحمد (١/ ١٩١ - ١٩٢)، وقال الترمذي صحيح.

أرحامه، قد جعل الله لهم حقا بعد حق الوالدين، قال ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، فجعل حقهم في المرتبة الثالثة بعد حقه ﷻ، وبعد حق الوالدين؛ مما يدل على آكدية حق الرحم على قريبهم، قد توعد الله من قطع رحمه باللعنة، قال ﷻ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، ففي هذا الحديث أن من وصل رحمه، وصله الله بالخير، والنعمة، والبركة، في الدنيا والآخرة، وأن من قطع رحمه، بته الله، قطعه الله، وحرمه من الخير؛ جزاء على عمله، الجزاء من جنس العمل ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

وَقَالَ: «وَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»(١)، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ. [١].

الشرح:

[١] «مَنْ وَصَلَهَا»؛ يعني: الرحم، «وَصَلَهُ اللهُ»؛ جزاءً على عمله، «وَصَلَهُ اللهُ»، أوصله إلى كل خير، «وَمَنْ قَطَعَهَا»؛ أي: قطع رحمه، قطعه الله من الخير؛ جزاء من جنس العمل، هذا كله من الشيخ رحمه الله استفاضة في أن جزاء أهل الجنة يوم القيامة بحسب أعمالهم، فمنهم السابقون المقربون، ومنهم المقتصدون، ومنهم الظالمون لأنفسهم، ومنهم الكفار والمنافقون؛ كما تقدم في سورة الواقعة وسورة الإنسان.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥) بلفظ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: من وَصَلَنِي وَصَلَهُ الله، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ الله».

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَوْعَيْنِ: مُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَلَ الْقِسْمَيْنِ فِي حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ، فَقَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْته عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»(١)، [١].

الشرح:

[١] هذا سبق، الحديث رواه البخاري، وهو حديث قدسي: أن الله ﷻ قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فقد بارزني بالمحاربة»، فالله يثأر لأوليائه، فمن آذاهم أو عاداهم، فإن الله يحاربه بالعقوبة العاجلة والآجلة، الظاهرة والخفية، ثم قال: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، هذا عمل السابقين المقربين؛ أنهم يتقربون إلى الله بالفرائض، وبالنوافل، وجزاؤهم أن الله يكون معهم؛ يسددهم، ويثبتهم، ويوفقهم.

«حَتَّى أُحِبَّهُ»: يحبهم.

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي

(١) سبق تخريجه (ص ٥٤).

لأُعِيذَنَّهُ»، معناه: أن الله معهم يسددهم، ويوفقهم؛ فلا يمشون إلا إلى الخير، ولا يمشون إلى مجالس الشر، ولا يأخذون ويعطون بأيديهم إلا ما فيه الخير، ويستعملون أيديهم بالخير، ولا يسمعون إلا ما يرضي الله ﷻ: من القرآن والذكر، والتسبيح والتهليل، لا يسمعون اللغو، واللهو، وقول الزور، والغيبة والنميمة، لا يسمعون بآذانهم إلا ما يرضي الله؛ لأن الله وفقهم، وحفظ أسماعهم، كذلك لا يبصرون إلا ما فيه رضا الله ﷻ: من التفكر في ملكوت الله ﷻ، النظر إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم، نظر الاعتبار والتذكر، فالله يصونهم في جوارحهم، فيستعملونها في الخير بدلًا من أن يستعملوها في الشر؛ الجزاء من جنس العمل، لما تقربوا إلى الله بالفرائض والنوافل، أحبهم الله، وكان معهم ﷻ.

فَالْأَبْرَارُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ هُمْ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيْهِ بِالْفَرَائِضِ، يَفْعَلُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَيَتْرُكُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَنْدُوبَاتِ، [١] وَلَا الْكَفِّ عَنْ فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ. [٢].

وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ، فَفَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ والمستحبات، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، [٣].

الشرح:

[١] هؤلاء المقتصدون، وهم الأبرار وأصحاب اليمين، اقتصروا على فعل الفرائض وترك المحرمات، وقد يتركون النوافل، أو يفعلون شيئا من الأمور المكروهة، أو يعطون أنفسهم شيئا مما تشتهي من المباحات، فهؤلاء لما أعطوا أنفسهم شيئا مما يريحها، فإن الله ﷻ يعطيهم يوم القيامة مثل أعمالهم، فلما مزجوا أعمالهم، مزج الله لهم الشراب يوم القيامة؛ الجزاء من جنس العمل.

[٢] (فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ): الزائد، يعطون أنفسهم ما تشتهي من المباحات، فهم جعلوا شيئا لأنفسهم من حياتهم، هذا مباح لا بأس به، لكنه ينقص ثوابهم عند الله؛ فلا يكونون مع السابقين المقربين.

[٣] هذه ميزتهم. فجعلوا عملهم كله لله ﷻ، ولم يجعلوا شيئا لأنفسهم؛ مثل ما فعله الأبرار والمقتصدون، كانت حياتهم كلها لله؛ آثروا ثواب الله ورضاه عنهم، آثروه على شهوات أنفسهم - وإن كانت مباحة -، تركوها

لأجل الله - وإن كانت مباحة -؛ فنالوا المرتبة العليا، مرتبة السابقين المقربين.

فَلَمَّا تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبَاتِهِمْ أَحَبَّهُمُ الرَّبُّ حُبًّا تَامًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»(١)، يَعْنِي: الْحُبَّ الْمُطْلَقَ،[١] كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، أَيْ: أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ الْإِنْعَامَ الْمُطْلَقَ التَّامَّ الْمَذْكُورَ فِي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. [٢].

الشرح:

[١] (الْحُبَّ الْمُطْلَقَ): الحب التام، يحبهم الحب التام، الله يحب الأبرار، ويحب الظالمين لأنفسهم بقدر ما معهم من الإيمان، أما الحب التام، فهو للسابقين المقربين، والأبرار دونهم في ذلك، والظالمون لأنفسهم دون الأبرار؛ طبقات.

[٢] فالسابقون المقربون أنعم الله عليهم الإنعام التام، الذي ليس فيه نقص، وأما من دونهم، فالله أنعم عليهم أيضا مطلق الإنعام، لكن الإنعام المطلق، لا.

هناك فرق بين الإنعام المطلق، ومطلق الإنعام: مطلق الإنعام يكون فيه نقص، أما الإنعام المطلق، فلا نقص فيه؛ الجزاء من جنس العمل،

---

(١) هذا جزء من حديث: الولي، سبق تخريجه (ص ٥٧).

وإلا فالأبرار المقتصدون الله أنعم عليهم بنعمة عظيمة، كذلك الظالمون لأنفسهم، الله أنعم عليهم بقدر ما معهم من الإيمان والهداية، لكنه إنعام دون إنعام الأبرار، وإنعام الأبرار دون إنعام المقربين.

فَهَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبُونَ صَارَتْ الْمُبَاحَاتُ فِي حَقِّهِمْ طَاعَاتٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ، [١] فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عِبَادَاتٍ لِلَّهِ، فَشَرِبُوا صِرْفًا كَمَا عَمِلُوا لَهُ صِرْفًا، [٢] وَالْمُقْتَصِدُونَ كَانَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا فَعَلُوهُ لِنُفُوسِهِمْ، [٣].

الشرح:

[١] يعني: أنهم تقربوا إلى الله بترك المباحات، فضلا عن ترك المكروهات والمحرمات، فصار عملهم كله لله ﷻ.

[٢] شربوا يوم القيامة من شراب الجنة صرفا، ليس فيه خلط: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٦]؛ أي: المقربون، في حين أنه ذكر الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥]؛ ممزوجة بالكافور، وهو طيب الرائحة، لكنه ليس مثل الرحيق الخالص.

[٣] فيها ما فعلوه لنفوسهم: تمتعوا بالمباحات، وأعطوا لنفوسهم شيئًا من الراحة في المباحات، هذا لا يثابون عليه، ولا يعاقبون عليه.

المباح: ما تساوى طرفاه، ليس فيه ثواب، وليس فيه عقاب، فلما أعطوا لأنفسهم شيئا من الراحة، فإن ذلك ينقص في جزائهم يوم القيامة عن درجة المقربين، ولهذا يقولون: حسنات الأبرار سيئات المقربين، المقربون لا يعطون لأنفسهم ما يعطيه الأبرار لأنفسهم.

فَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَشْرَبُوا صِرْفًا؛ [١] بَلْ مُزِجَ لَهُمْ مِنْ شَرَابِ الْمُقَرَّبِينَ بِحَسَبِ مَا مَزَجُوهُ فِي الدُّنْيَا. [٢].

وَنَظِيرُ هَذَا انْقِسَامُ الْأَنْبِيَاءِ ﷩ إِلَى: عَبْدٍ رَسُولٍ، وَنَبِيٍّ مَلِكٍ، وَقَدْ خَيَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا. [٣].

الشرح:

[١] لكن يكون جزاؤهم أنقص من جزاء المقربين.

[٢] مزج لهم بالكافور، مزج لهم بالمسك.

[٣] الأنبياء منهم من هو عبد رسول، ومنهم من هو عبد ملك، والعبد الرسول أفضل من العبد الملك، والرسل الملوك مثل: يوسف ﵇، مثل: داود وسليمان، هؤلاء أنبياء، وهم ملوك في نفس الأمر، وقد خير النبي ﷺ: هل يريد أن يكون رسولا ملكا، أو يريد أن يكون عبدا رسولا؟ فاختار أن يكون عبدا رسولا. تواضع لله ﷻ، فاختار أن يكون عبدا رسولا، ولا يعطى من الملك مثل ما أعطي إخوانه: يوسف، وداود، وسليمان ﵈.

فَالنَّبِيُّ الْمَلِكُ مِثْلُ: دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَنَحْوِهِمَا ﷺ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ الَّذِي قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٥-٣٩]، **أَيْ: أَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَاحْرِمْ مَنْ شِئْتَ لَا حِسَابَ عَلَيْكَ. [١].**

فَالنَّبِيُّ الْمَلِكُ يَفْعَلُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَتَصَرَّفُ فِي الْوِلَايَةِ وَالْمَالِ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَخْتَارُ مِنْ غَيْرِ إِثْمٍ عَلَيْهِ. [٢].

الشرح:

[١] الله أعطى سليمان ﷺ لما سأل ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾، أجاب الله دعوته، وأعطاه الملك الذي لم يعطه لغيره: سخر له الريح تحمله هو وجنوده إلى حيث شاء، وسخر له الشياطين والعفاريت تعمل له ليل نهار، وأعطاه من القوة والملك ما لم يعطه لغيره مع النبوة ﷺ، وأباح له أن يعطي ويمسك من غير حساب، من غير أن يحاسبه الله على ذلك، لا شك أن هذا فيه فضل عظيم، لكنه دون فضل النبي الرسول.

[٢] فكما أن المؤمنين طبقات، بعضها أفضل من بعض، فأيضا الرسل والأنبياء بعضهم أفضل من بعض: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالله فضل بعض النبيين على بعض.

وَأَمَّا الْعَبْدُ الرَّسُولُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِ، وَلَا يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَحْرِمُ؛ كما في صَحِيحِ البُخَارِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «إِنِّي وَاللَّهِ لَا أُعْطِي أَحَدًا وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا، إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ»(١)؛ [١] وَلِهَذَا يُضِيفُ اللَّهُ الْأَمْوَالَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، [٢].

الشرح:

[١] النبي الملك أباح له الله أن يعطي من يشاء، ويحرم من يشاء: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ (امنن) يعني: أعط، ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، لا حرج عليك في ذلك. أما العبد الرسول، فليس كذلك؛ لا يعطي من يشاء، ولا يمنع من يشاء، وإنما يعطي من أمره الله بإعطائه، ويمنع من أمره الله بمنعه؛ لأنه عبد، ليس ملكا.

[٢] ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية -كالفيء، والغنيمة، وغير ذلك، والأنفال- إلى الله والرسول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [الحشر: ٧]، فيجعل المال لله والرسول، ولم يجعله للرسول فقط؛ كما جعله لسليمان عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٧) بلفظ: «ما أُعْطِيكُمْ ولا أَمْنَعُكُمْ، إنما أنا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ».

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧] [١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]. [٢].

الشرح:

[١] فالرسول ﷺ لا يعطي، ولا ينفل أحدا إلا بأمر الله ﷻ.

فالرسول ﷺ لم ينفرد بالفيء، وإنما هو لله وله؛ فلا يتصرف فيه إلا بأمر الله، فالرسول ﷺ منفذ؛ ولهذا جاء في الحديث: «مَا أُعْطِيكُمْ وَلاَ أَمْنَعُكُمْ، أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ»(١) الله هو الذي يأمر، والرسول ﷺ إنما هو منفذ.

[٢] المغانم، كيف تصرف المغانم؟ هل بهوى الناس، أو بهوى الرسول؟ لا، لابد من الرجوع إلى ما شرعه الله فيها: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ يعني: من أموال الكفار في المعركة، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، في الآية الأخرى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]؛ لأنه يعطي بأمر الله، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلِهَذَا كَانَ أَظْهَرُ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ تُصْرَفُ فِيمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ(١)، وَيُذْكَرُ هَذَا رِوَايَةً عَنْ أَحْمَدَ(٢)،[١] وَقَدْ قِيلَ فِي الْخُمُسِ: إِنَّهُ يُقَسَّمُ عَلَى خَمْسَةٍ، كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ(٣)، وَأَحْمَدَ فِي الْمَعْرُوفِ عَنْهُ(٤)، [٢].

الشرح:

[١] أي: أموال المغانم.

[٢] عملا بالآية، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ سهم الله والرسول، سهم واحد، ولذي القربى اثنان، واليتامى ثلاثة، والمساكين أربعة، وابن السبيل خمسة، فالخمس يصرف على هذه المصارف الخمسة؛ كما في الآية.

---

(١) انظر: المدونة الكبرى (٣/ ٢٦).
(٢) انظر: المغني (٦/ ٣١٢).
(٣) انظر: المهذب (٢/ ٢٤٦).
(٤) انظر: المغني (٦/ ٣١٣)، ومسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله (ص ٢٤٧)، و(ص ٤٠٥).

وَقِيلَ: عَلَى ثَلَاثَةٍ، كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[1] [١].

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ الْمَلِكِ، كَمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا عليهم السلام أَفْضَلُ مِنْ يُوسُفَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهم السلام، [٢] كَمَا أَنَّ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ لَيْسُوا مُقَرَّبِينَ سَابِقِينَ، فَمَنْ أَدَّى مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَفَعَلَ مِنَ الْمُبَاحَاتِ مَا يُحِبُّهُ، فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَقْصِدُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَا أُبِيحَ لَهُ عَلَى مَا أَمَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ مِنْ أُولَئِكَ. [٣].

الشرح:

[١] وقيل يصرف الخمس على ثلاثة أقسام: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، ذكره رحمه الله لمصارف الفيء والأموال هذا من باب الاستطراد كعادته رحمه الله، وأما المقصود وصلب الموضوع، فهو البحث في النبي الملك، والعبد الرسول.

[٢] كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم السلام هؤلاء عبيد رسل، فهم أفضل من الأنبياء الملوك؛ مثل: يوسف عليه السلام، فإنه تولى على ملك مصر، ومثل: سليمان عليه السلام، وأبيه داود عليه السلام.

---

(١) انظر: المبسوط للسرخسي (١٠/ ٨ - ٩).

[٣] يعني: من السابقين الذي يستعمل حياته كلها لله، يكون كل عمله عبادة، وهم السابقون الأبرار والمقتصدون، عملهم عبادة، وقد يكون فيه شيء غير عبادة؛ مباح، يكون هناك شيء مباح، لا يثابون عليه، ولا يعاقبون عليه، فهم أنقص من السابقين.

فَصْلٌ

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ الْمُقْتَصِدِينَ وَالسَّابِقِينَ فِي سُورَةِ فَاطِر [١] في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٥]، [٢].

الشرح:

[١] ذكر الله في سورة فاطر أن هذه الأمة المحمدية ثلاثة أقسام أو ثلاث طبقات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. وأخبر أنهم كلهم في الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ كلهم؛ الظالم لنفسه يدخل الجنة، قد يدخلها أول وهلة، وقد يعذب، ثم يدخلها في النهاية، فمآله إلى الجنة، والمقتصدون والسابقون هؤلاء في الجنة، لا تعذيب عليهم، لا يدخلون النار.

[٢] ظالم لنفسه، وهو المؤمن الموحد الذي قد يفعل شيئا من الكبائر التي دون الشرك، هذا ظالم لنفسه، معرض نفسه للعذاب إن لم يعف الله عنه، هذا الظالم لنفسه معرض للوعيد، لكنه من أهل الجنة؛ إما في البداية وإما في النهاية.

ثم المقتصد، وهو الذي اقتصر على فعل الواجبات والفرائض وترك المحرمات، هذا مقتصد، وهم الأبرار وأصحاب اليمين، ومنهم سابق بالخيرات، وهم المقربون.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾، وفي هذه الآية رد على الخوارج والمعتزلة، الذين يكفرون أصحاب الكبائر؛ لأن الله أخبر أنهم يدخلون الجنة، والخوارج والمعتزلة يقولون: لا يدخلون الجنة، وهم مخلدون في النار. نسأل الله العافية من الضلال!

لَكِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]. [١].

الشرح:

[١] ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ يعني: القرآن، ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾؛ أي: اخترناهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾، هم هذه الأمة، أورثها الله الكتاب، وهو القرآن العظيم، واصطفاهم: اختارهم على غيرهم من الأمم، كرمهم بذلك، وشرفهم.

وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، هُمُ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ بَعْدَ الأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِحُفَّاظِ الْقُرْآنِ،[١] بَلْ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ، [٢] وَقَسَّمَهُمْ إِلَى: ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ، وَمُقْتَصِدٍ، وَسَابِقٍ، بِخِلَافِ الْآيَاتِ الَّتِي فِي الْوَاقِعَةِ(١)، وَالْمُطَفِّفِينَ(٢)، وَالِانْفِطَارِ(٣)؛ [٣].

الشرح:

[١] ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فوراث هذا الكتاب هم المؤمنون، ولو كانوا لا يقرؤون القرآن، وليس ذلك خاصًا بحفاظ القرآن، بل كل مؤمن من هذه الأمة، فإنه ورث هذا الكتاب، ويحصل على هذا الجزاء عند الله ﷻ، فإن المؤمن من أهل القرآن، وإن لم يحفظه.

[٢] فهو من الذين اصطفاهم الله، وهو من هذه الأمة التي ورثت الكتاب.

[٣] فإنه ﷻ لم يذكر في الواقعة إلا صنفين من المؤمنين: المقربين وأصحاب اليمين، وذكر معهم أصحاب الشمال، وهم الكفار، وكذلك في سورة الإنسان ذكر صنفين فقط: المقربين والأبرار، وذكر الكفار معهم، وفي سورة الانفطار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، ذكر الصنفين فقط، أما في سورة فاطر، فذكر الأصناف

---

(١) يعني الآيات من (١-١٤)، وكذا الآيات من (٨٣ - ٩٦)، وسبق ذكرها (ص ١٩٥).
(٢) يعني الآيات من (٧ - ٢٨)، وسبق ذكرها (ص ١٩٩).
(٣) يعني الآيات من (٣ - ١٢).

الثلاثة من هذه الأمة، وذكر بعدهم أهل النار - والعياذ بالله -: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، فذكر أربعة أصناف؛ ثلاثة من هذه الأمة، وصنف الكفار صنف واحد - والعياذ بالله -. والمطففين أيضا ذكر فيها المقربين والأبرار فقط.

فَإِنَّهُ دَخَلَ فِيهَا جَمِيعُ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ كَافِرُهُمْ وَمُؤْمِنُهُمْ، وَهَذَا التَّقْسِيمُ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. [١].

فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: أَصْحَابُ الذُّنُوبِ الْمُصِرُّونَ عَلَيْهَا.

وَالْمُقْتَصِدُ: الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ الْمُجْتَنِبُ لِلْمَحَارِمِ.

وَالسَّابِقُ لِلْخَيْرَاتِ: هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ، كَمَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ، وَمَنْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ تَوْبَةً صَحِيحَةً لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ السَّابِقِينَ وَالْمُقْتَصِدِينَ، [٢].

الشرح:

[١] سورة الواقعة وسورة الإنسان وسورة المطففين وسورة الانفطار دخل فيها المؤمن والكافر من جميع الأمم، لكن هذه الآية من سورة فاطر خاصة بهذه الأمة، بالمؤمنين من هذه الأمة.

[٢] أما من تاب من الذنوب، فهو كمن لا ذنب له، حتى ولو فعل الشرك والكفر، وتاب فتاب الله عليه؛ كمن لا ذنب له، إنما هذا في أصحاب الذنوب الذين لم يتوبوا، وهي دون الشرك، هؤلاء تحت المشيئة.

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٦] [١].

الشرح:

[١] قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾، تابوا منها، صاروا في الجنة؛ كأنهم لم يذنبوا. ففيه فضل التوبة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، فالتائب من الذنب لا تنقص درجته عن السابقين والأبرار وأصحاب اليمين، إذا حسن عمله، لاينقص، ولا تنقصه المعصية التي تاب منها؛ كأنها لم تكن.

وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣]، مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ. [١].

وَأَمَّا دُخُولُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ فَهَذَا مِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ السُّنَنُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ النَّارِ، وَشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ، وَإِخْرَاجِ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ. فَمَنْ قَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، وَتَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ السَّابِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَهَا، وَأَنَّ الْمُقْتَصِدَ أَوْ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ لَا يَدْخُلُهَا، كَمَا تَأَوَّلَهُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَهُوَ مُقَابَلٌ بِتَأْوِيلِ الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ لَا يَقْطَعُونَ بِدُخُولِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ النَّارَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ قَدْ يَدْخُلُ جَمِيعُهُمُ الْجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ عَذَابٍ، وَكِلَاهُمَا مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا. [٢].

الشرح:

[١] ردا على الخوارج والمعتزلة، الذين يقولون: إنه يخلد في النار من دخلها، لا يخرج منها، والأدلة من القرآن والسنة على أن الموحد إن دخل النار، فإنه لا يخلد فيها، بل يخرج منها.

[٢] هذا رد على المرجئة، هذا الكلام فيه رد على الطائفتين، على الذين يقولون: إن أصحاب الكبائر مخلدون في النار، لا يخرجون منها. وهم الخوارج والمعتزلة. المرجئة على النقيض؛ يقولون: أصحاب الكبائر

لا يدخلون النار أبدا، هم في الجنة، ولا تضرهم الكبائر التي دون الشرك. وهذا غرور وجهل؛ فإنه تواترت الأدلة على أن أصحاب الكبائر قد يدخلون النار، ويعذبون فيها، وقد يبقون فيها مدة طويلة، ويخرجون من النار فحما متفحمين، ثم تنبت أجسامهم، وتحيا، ثم يدخلون الجنة[(١)]، فهذا رد على المرجئة، الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، والإيمان لا ينقص بالمعاصي، ولا تضرهم. هذا جهل، وقول على الله بغير علم، ومخالفة للأدلة؛ فالخوارج والمرجئة على طرفي نقيض، أهل السنة متوسطون - ولله الحمد - في هذا، فلا يقولون: إن المعصية لا تضر، وإن العاصي صاحب الكبيرة كامل الإيمان؛ كما تقوله المرجئة، ولا يقولون: إنه ليس معه إيمان أصلا، وهو كافر؛ كما تقوله الخوارج، بل يقولون: إنه مؤمن ناقص الإيمان.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُدْخِلُ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارِ، ثُمَّ يَقُولُ: انْظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَمًا قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ، أَوِ الْحَيَا، فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ...».

وَقَدْ دَلَّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ الطَّائِفَتَيْنِ : قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ، وَهُوَ قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، [١] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِذَلِكَ التَّائِبُ؛ [٢] كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ يَغْفِرُهُ اللَّهُ لِمَنْ تَابَ، [٣] وَمَا دُونَ الشِّرْكِ يَغْفِرُهُ اللَّهُ أَيْضًا لِلتَّائِبِ، فَلَا تَعَلُّقَ بِالْمَشِيئَةِ.

الشرح :

[١] هذا رد على الخوارج والمعتزلة؛ كما تقدم.

[٢] التائب هذا كمن لا ذنب له، إنما الكلام في غير التائب صاحب الكبيرة التي لم يتب منها، هذا محل الدليل.

[٣] حتى الشرك والكفر فالتوبة تجُبُّ ما قبلها، وليس خاصا بصاحب الكبيرة.

وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْفِرَةَ لِلتَّائِبِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، [١] فَهُنَا عَمَّمَ الْمَغْفِرَةَ وَأَطْلَقَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِلْعَبْدِ أَيَّ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ، فَمَنْ تَابَ مِنْ الشِّرْكِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَابَ مِنْ الْكَبَائِرِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَأَيُّ ذَنْبٍ تَابَ الْعَبْدُ مِنْهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ.

فَفِي آيَةِ التَّوْبَةِ عَمَّمَ وَأَطْلَقَ، وَفِي تِلْكَ الْآيَةِ خَصَّصَ وَعَلَّقَ، فَخَصَّ الشِّرْكَ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَعَلَّقَ مَا سِوَاهُ عَلَى الْمَشِيئَةِ، [٢] وَمِنْ الشِّرْكِ التَّعْطِيلُ لِلْخَالِقِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ يَجْزِمُ بِالْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مُذْنِبٍ. [٣].

الشرح:

[١] ثم قال بعدها: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، أمر بالتوبة؛ فهو يغفر الذنوب جميعا لمن تاب.

[٢] يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، أما في آية التوبة، فلم يستثنِ، لم يقل: من تاب، تاب الله عليه إن شاء.

[٣] هذا الرد على المرجئة، أشد من الشرك الجحود والتعطيل، الذين ينكرون الرب ﷻ.

وَنَبَّهَ بِالشِّرْكِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، كَتَعْطِيلِ الْخَالِقِ، [١] أَوْ يَجُوزُ إِلَّا يُعَذَّبَ بِذَنْبٍ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ، [٢] وَلَوْ كَانَ كُلُّ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ مَغْفُورًا لَهُ بِلَا تَوْبَةٍ وَلَا حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ لَمْ يُعَلِّقْ ذَلِكَ بِالْمَشِيئَةِ، وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَغْفِرُ الْبَعْضَ دُونَ الْبَعْضِ، فَبَطَلَ النَّفْيُ وَالْوَقْفُ الْعَامُّ. [٣].

الشرح:

[١] يعني جحد الرب ﷻ، والقول بأن الأمر معلق بالدهر أو بالطبيعة، وليس هناك خالق -تعالى الله عما يقولون- وهم الدهرية والملاحدة.

[٢] أو يجوز ألا يعذب بذنب؛ كما هو قول المرجئة، يقولون: لا يعذب بذنب ما دام أنه مؤمن، وإن صدرت منه ذنوب، فهو لا يعذب أبدا.

[٣] ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فالتوبة لم يعلقها الله بالمشيئة، من تاب، تاب الله عليه، وإنما علق العفو بالمشيئة لمن لم يتب من المؤمنين.

فَصْلٌ

وَإِذَا كَانَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ﷻ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ. وَالنَّاسُ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، [١].

الشرح:

[١] أولًا: الضابط في ولي الله من هو؟ بيَّنه الله في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢-٦٣]، فمن جمع بين هذين الوصفين - الإيمان، والتقوى -، فإنه ولي لله، ومن فقد الوصفين أو أحدهما، فإنه عدو لله، وهو من أولياء الشيطان، هذا مقتضى ما دل عليه القرآن من تعريف الولي، لا كما تصالح عليه المخرفون من أن الولي هو الذي يظهر على يده خارق من الخوارق المخالفة للواقع، ويعتبرون هذا وليًا، فإذا كان يمشي على الماء، أو يطير في الهواء، أو يدخل النار، ولا تحرقه بزعمهم، فهذا ولي لله، دون نظر إلى عمله: هل عنده الوصفان أو لا؟ هل هو مؤمن تقي أو لا؟ فإن كان مؤمنًا تقيًّا، فهذا الذي يجري على يديه كرامة من كرامات الأولياء، أما إذا كان فاقدًا للوصفين أو أحدهما، فهذا ليس وليًّا لله، وهذا الخارق يعد خارقًا شيطانيًا، فإن الشياطين تحمله في الهواء، تطير به في الهواء، تمشي به على الماء، تخيل إلى الناس أنه يدخل في النار، ولا تحرقه. . . ، إلى آخره؛ يعني: خوارق شيطانية تجري على يد عدو الله، فلا يغتر بهذا الأمر، قال

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم إن أولياء الله يتفاوتون؛ بعضهم أقرب إلى الله من بعض، السابقون المقربون أقرب إلى الله من الأبرار وأصحاب اليمين، وأصحاب اليمين والأبرار أقرب من الظالمين لأنفسهم من المؤمنين الذين عندهم إيمان، لكن عندهم مخالفات لا تخرجهم من الدين، فهم يتفاوتون في الولاية لله عَزَّ وَجَلَّ بتفاوت إيمانهم وتقواهم: قوة، وضعفا، وتوسطا.

فَهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ كَانُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي عَدَاوَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ. [١] وَأَصْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى: الْإِيمَانُ بِرُسُلِ اللَّهِ، [٢].

الشرح:

[١] كما أن أعداء الله وأولياء الشيطان يتفاوتون؛ بعضهم أشد عداوة وكفرًا من بعض، بحسب ما يحصل منهم من الكفر والضلال، فبعضهم أشد عداوة لله من بعض.

[٢] أساس الإيمان والتقوى الإيمان بالرسل؛ لأن من آمن بالرسل، فقد آمن بالمرسِل - وهو الله ﷻ -، وآمن بما معهم من الشرائع، وما معهم من الكتب.

الإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بالله، والإيمان بكتبه، والإيمان بكل ما أخبروا به، وما جاؤوا به، بخلاف من لم يؤمن بالرسل، فإنه -وإن ادعى أنه ولي لله- من أولياء الشيطان؛ لأن كفره بالرسل يتضمن كفره بما جاء به. وهذا فيه رد على من يدعون الولاية، وهم ليسوا من أتباع الرسل، يقولون: لسنا بحاجة إلى الرسل، نحن عرفنا ووصلنا إلى الله، لسنا بحاجة إلى الرسل، الرسل إنما هم للعوام، أما نحن، فخاصة، ومنهم خاصة -الخاصة كما يقولون-، فهؤلاء أعداء الرسل، فكيف يكونون أولياء لله ﷻ؟ وهم يقولون: لسنا بحاجة إلى الرسل، نحن نعرف الله، ونصل إليه بدون الرسل.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ: الْإِيمَانُ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، [١] فَالْإِيمَانُ بِهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، [٢].

الشرح:

[١] من آمن بمحمد ﷺ، فهو مؤمن بجميع الرسل؛ لأنه هو خاتم المرسلين، وهو المصدق للرسل ﷺ، ومن كفر بهذا الرسول، فهو كافر بالرسل؛ كاليهود والنصارى الذين لا يؤمنون بهذا الرسول، هؤلاء كافرون بجميع الرسل، حتى الرسل الذين يزعمون أنهم من أتباعهم، وأنهم يؤمنون بهم، هم كافرون بهم.

[٢] لأنه خاتم الرسل، وكتابه مهيمن على الكتب السابقة، وناسخ لها، فهو الكتاب الخاتم، والكتاب الناسخ لما قبله، فمن لم يؤمن بهذا الرسول وبهذا القرآن، فهو كافر بجميع الرسل، وإن كان يزعم أنه مؤمن بهم؛ لأن من جحد نبيا واحدا، فهو جاحد لجميع الرسل، فكيف إذا كان هذا النبي الذي جحده هو أفضل الرسل، وخاتم الرسل، والمصدق للرسل. وهذا يفرق بين الله ورسله، ومن فرق بين الله ورسله، فآمن ببعض وكفر ببعض، فهم الكافرون حقا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥٢].

وَأَصْلُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ هُوَ الْكُفْرُ بِالرُّسُلِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْكُفْرُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ؛ [١] فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ بُلُوغِ الرِّسَالَةِ. [٢].

الشرح:

[١] لأن الكفار على قسمين:

كفار في الظاهر والباطن، وهم الذين لا يؤمنون بالرسل، أو لا يؤمنون ببعضهم.

وكفار في الباطن دون الظاهر، وهم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، وهؤلاء شر من الكفار الذين أظهروا كفرهم؛ لأن الذين أظهروا كفرهم عُرفوا أنهم أعداء لله ورسوله، فيعاملون معاملة الكفار، أما هؤلاء، فأبطنوا كفرهم، وخادعوا؛ فيغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم، وضرر المنافقين على الإسلام أشد من ضرر الكفار بكثير.

[٢] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولهذا يعاتب الكفار يوم القيامة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، يقولون للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩]، يضللون الرسل، نسأل الله العافية! ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، فهم يعترفون يوم القيامة بأنهم بلغتهم الرسل، وأنه

ليس لهم عذر؛ لأن الله لا يظلم أحدا، ولو كانت ما بلغتهم دعوة الرسل، فإنه لا تكون قامت عليهم الحجة، والله لا يعذب إلا من بلغته الحجة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولذلك أهل الفترة وأطفال المشركين، والذين لم تبلغهم الدعوة؛ كانوا منقطعين عن العالم، ولم يسمعوا بشيء، فهؤلاء يسمون أهل الفترة، أمرهم إلى الله ﷻ يوم القيامة.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]، [١].

الشرح:

[١] يجب الإيمان بجميع الرسل؛ من أولهم إلى آخرهم، من سمى الله منهم ومن لم يسم، قد سمى الله منهم طائفة؛ مثلما في هذه الآية، وفي آية: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٤]، هؤلاء سماهم الله، فنؤمن بهم، ونؤمن بمن لم يسم لنا، ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٤]، وأول الرسل هو نوح عليه السلام، هو أول رسول إلى أهل الأرض؛ ولهذا قال: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾؛ فهو أول رسول إلى أهل الأرض بعد حدوث الشرك فيها في قوم نوح، لما عبدوا الأولياء والصالحين، ونصبوا صورهم، وعبدوها، حدث الشرك من ذاك الوقت، فأرسل الله نوحا عليه السلام، فهو أول رسول بعد حدوث الشرك في الأرض، وكانوا من قبل على دين

آدم عليه السلام، كان فيهم أنبياء يعلمونهم، ويرشدونهم، وكانوا على التوحيد، وإنما حدث الشرك في قوم نوح، فأرسل الله إليهم أول رسول، وهو نوح عليه السلام، والشاهد من الآية بيان الحكمة من إرسال الرسل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، هذه هي الحكمة من إرسال الرسل؛ لئلا يحتج أحد يوم القيامة، ويقول: أنا ما بلغني رسالة، ولا بلغني دين، الله قطع معذرتهم بإرسال الرسل.

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ النَّارِ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [الملك: ٨- ٩]. **[١] فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِي النَّارِ فَوْجٌ أَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ جَاءَهُمُ النَّذِيرُ فَكَذَّبُوهُ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُلْقَى فِيهَا فَوْجٌ إِلَّا مَنْ كَذَّبَ النَّذِيرَ. [٢].**

الشرح:

[١] فهذا فيه أنه قامت عليهم الحجة، وأنهم جاءهم النذير، بلغهم، لكنهم كذبوا: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾، وجحدوا الوحي من الله ﷻ؛ ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ﴾ أيها الرسل ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ (إن) بمعنى: (ما) نافية؛ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، فحصروا الضلال على الرسل - والعياذ بالله -، حصروا الضلالة على الرسل، ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، ليس عندكم هدى.

[٢] ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ [الملك: ٩ - ١٠]، اعترفوا أنهم لا يسمعون، ولا يعقلون من الرسل، أنهم صموا آذانهم، وأغلقوا عقولهم، ولم يلتفتوا إلى ما جاء به الرسل، فتكبروا عن ذلك: ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، قال الله ﷻ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]؛ لأن الله لا يظلم أحدا، لا يعذبه بدون ذنب، ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا﴾؛ أي: بعدا ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى فِي خِطَابِهِ لِإِبْلِيسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٥]. [١] فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَؤُهَا بِإِبْلِيسَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ؛ فَإِذَا مُلِئَتْ بِهِمْ لَمْ يَدْخُلْهَا غَيْرُهُمْ. [٢] فَعُلِمَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ تبع الشَّيْطَانَ، [٣] وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّبِعْ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَكُنْ مُذْنِبًا، [٤] وَمَا تَقَدَّمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِالرُّسُلِ. [٥].

الشرح:

[١] هؤلاء أولياء إبليس، الذين يتبعون إبليس، ويكونون معه يوم القيامة في جهنم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فالنار دار إبليس ومن تبعه، والجنة دار المتقين، ودار الرسل وأتباعهم.

[٢] دخول خلود، قد يدخلها من أتباع الرسل أصحاب المعاصي والكبائر، لكنهم لا يخلدون فيها.

[٣] إلا من تبع الشيطان اتباعًا كليًا، فيدخلها دخولًا مؤبدًا، أو تبعه بعض الاتباع، فيدخلها بقدر ما حصل منه.

[٤] هناك طرف ثالث ليسوا من أتباع الشيطان، وليسوا مؤمنين؛ مثل: الصغار الأطفال الذين لم يبلغوا التمييز، مثل: أصحاب الفترة، مثل: المجانين الذين ليس لهم عقول، فهؤلاء صنف ثالث، لم يحصل منهم كفر، ولم يحصل منهم إيمان.

[٥] أما من لم تقم عليه الحجة -كأصحاب الفترة، والأطفال الذين لم يبلغوا سن التمييز، والمجانين والبله الذين ليس لهم عقول-، فهؤلاء لايدخلون النار؛ لأنهم ليس لهم ذنب.

فَصْلٌ

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ إِيمَانًا مُجْمَلًا، [١] وَأَمَّا الْإِيمَانُ الْمُفَصَّلُ فَيَكُونُ قَدْ بَلَغَهُ كَثِيرٌ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَلَمْ يَبْلُغْهُ بَعْضُ ذَلِكَ، [٢] فَيُؤْمِنُ بِمَا بَلَغَهُ عَنْ الرُّسُلِ، وَمَا لَمْ يَبْلُغْهُ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَلَوْ بَلَغَهُ لَآمَنَ بِهِ، وَلَكِنْ آمَنَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ إِيمَانًا مُجْمَلًا. [٣].

الشرح:

[١] الإيمان بالرسل يتفاوت؛ فإيمان العوام يختلف عن إيمان العلماء، والعلماء يعلمون تفاصيل، ويعلمون ما لا يعلمه الجهال، فيجب على العالم أكثر مما يجب على الجاهل؛ لأن العالم يعلم التفصيل، وأما الجاهل، فإنه عنده علم مجمل، العامي عنده علم مجمل، فيؤمن بقدر علمه.

[٢] يعني تعلم، وعرف كثيرا مما جاءت به الرسل؛ فهو أوسع دائرة وإيمان من العامي، الله ﷻ قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، خشيتهم أكثر من خشية الجهال، وإن كان جهال المؤمنين مؤمنين بالله ﷻ، وعندهم خشية لله، لكنها أقل من خشية العلماء.

[٣] هو يؤمن بما بلغه، ويؤمن بما جاءت به الرسل، مما لم يبلغه؛ لأن لا أحد يحيط بالعلم، لكنه يؤمن بما بلغه إيمانا مفصلا، ويؤمن بما لم يبلغه إيمانا مجملا، هكذا المؤمن.

فَهَذَا إِذَا عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِهِ مَعَ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ فَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، [١] لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، وَمَا لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْهُ مَعْرِفَتَهُ وَالْإِيمَانُ الْمُفَصَّلُ بِهِ، [٢] فَلَا يُعَذِّبُهُ عَلَى تَرْكِهِ، لَكِنْ يَفُوتُهُ مِنْ كَمَالِ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ مَا فَاتَهُ مِنْ ذَلِكَ، [٣].

الشرح:

[١] إذا عمل بعلمه مع الإخلاص لله، فهو من أولياء الله.

[٢] كما سبق أن المؤمنين يتفاوتون في الولاية؛ بعضهم أرفع من بعض: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

[٣] الذي لم تبلغه الحجة، ولم تبلغه الرسالة، فهذا لا يكلف أن يؤمن بشيء لم يبلغه، لم يعرفه، هذا يعذر بجهله، لكنه فيمن لا يمكن زوال جهله، لم يسمع شيئا ولا عنده أحد يبلغه، وعاش منقطعا عن العالم، وكذلك لعوام الذين بلغهم الإسلام، لكن لا يعرفون التفاصيل التي يعرفها العلماء، فالعلماء الذين يعملون بعلمهم، ويخلصون لله أرفع درجة من العوام الذين لا يعلمون التفاصيل.

فَمَنْ عَلِمَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَآمَنَ بِهِ إِيمَانًا مُفَصَّلًا وَعَمِلَ بِهِ، فَهُوَ أَكْمَلُ إِيمَانًا وَوِلَايَةً لِلَّهِ مِمَّنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ مُفَصَّلًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، وَكِلَاهُمَا وَلِيٌّ لِلَّهِ تَعَالَى. [١] وَالْجَنَّةُ دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَةٌ تَفَاضُلًا عَظِيمًا، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ فِي تِلْكَ الدَّرَجَاتِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ. [٢].

الشرح:

[١] كلاهما ولي لله؛ لأنهم مؤمنون متقون، لكن تفاوتوا في الإيمان والتقوى؛ فتفاوتوا في الدرجة عند الله ﷻ.

[٢] قال ﷻ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] والجنة درجات، كل درجة يسكنها أهلها الذين استحقوها؛ فليسوا بمنزلة واحدة، كما أن النار - والعياذ بالله - دركات بعضها تحت بعض، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، الجنة درجات، لماذا صارت درجات؟ لأن أعمال أهلها متفاوتة، والله ﷻ لا يظلم أحدا، فينزل كل واحد بما يستحق من عمله، فهم يتفاوتون فيها بحسب أعمالهم.

قَالَ تبارَكَ وتَعالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١]. [١].

الشرح:

[١] ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الله فاوت بين العباد في الدنيا؛ في الأرزاق، والإمكانيات، والفقر، والغنى... ، إلى آخره: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، لا أحد يمنع عطاء الله ﷻ، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فهو يعطي الناس في الدنيا، ويفاوت بينهم، وإن كانوا كفارا، فإذا كان لا يريد إلا الدنيا، فإن الله يعطيه من الدنيا ما يريد ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١٥]، نعطيهم، ولذلك تجد عند الكفار من العلوم الدنيوية، ومن الإمكانيات، ومن المقدرات ما ليس عند المؤمنين؛ لأن المؤمنين على العكس يريدون الآخرة، ولا يريدون الدنيا إلا بقدر ما يبلغهم للآخرة، أما هؤلاء، فيريدون الدنيا بذاتها، ولا يريدون الآخرة؛ فلذلك -وإن وفرت لهم الدنيا- فإنهم يحرمون يوم القيامة من الجنة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٦]، فالله أعطاهم

من الدنيا، ووفر لهم، ووفى لهم مطلوبهم، لكن لما لم يريدوا الآخرة، لم يكن لهم فيها نصيب -والعياذ بالله-، وماذا تنفعه الدنيا؟! ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، أما من أراد الآخرة، وسعى لها سعيها، أرادها، وسعى، ولا تكفي الإرادة بدون سعي، بل لا بد من السعي بالعمل الصالح، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ شرطان: سعى لها سعيها، وهو مؤمن مصدق بما عند الله ﷻ، مصدق بالآخرة، والجزاء، والجنة، والنار، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، يشكر الله لهم ذلك ﷻ؛ لأن الله غفور شكور، يشكر لهم، ولا يضيع أعمالهم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ المؤمنين والكفار، ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ثم قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾، في الدنيا، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

فَبَيَّنَ اللَّهُ ﷻ، أَنَّهُ يَمُدُّ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ مِنْ عَطَائِهِ، وَأَنَّ عَطَاءَهُ مَا كَانَ مَحْظُورًا مِنْ بَرٍّ وَلَا فَاجِرٍ، [١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١] **فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ دَرَجَاتِهَا أَكْبَرُ مِنْ دَرَجَاتِ الدُّنْيَا، [٢].**

الشرح:

[١] يعني ليس ممنوعا، لا من البر، ولا من الفاجر؛ فهو يعطي المؤمن والكافر في هذه الدنيا، من الذي يرزق الكفار، يطعمهم، ويسقيهم، ويمكنهم من الرفاهية، ومن هذه المخترعات؟ هو الله ﷻ، ومن الذي يمد المؤمنين بالإيمان واليقين والعمل الصالح، ويرزقهم أيضا من الدنيا من الطيبات، ومن المال الطيب، هو الله ﷻ، هو الذي يرزق هؤلاء وهؤلاء في الدنيا، ويتفاوتون في الدنيا، والآخرة أكبر تفاوتا وأكبر تفضيلا.

[٢] ما بين كل درجتين؛ كما بين السماء والأرض؛ كما قال ﷺ.

وَقَدْ بَيَّنَ تَفَاضُلَ أَنْبِيَائِهِ عليهم السلام كَتَفَاضُلِ سَائِرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ [١] فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، **وقال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] **[٢].**

الشرح:

[١] تفاضل الأنبياء، تفاضل الصحابة، تفاضل سائر المؤمنين، ليسوا على حد سواء في الإيمان، ولا يكونون على حد سواء في الجزاء يوم القيامة في الدرجات؛ لأن الله لا يظلم أحدا، بل يتفضل أكثر من عمل الإنسان، ويضاعف له.

[٢] الرسل عليهم السلام يتفاضلون فيما بينهم، منهم من كلم الله مثل: موسى عليه السلام ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، فعند موسى عليه السلام ما ليس عند غيره من إخوانه النبيين، وعند عيسى عليه السلام ما ليس عند غيره من إخوانه من النبيين، وعند محمد ﷺ ما ليس عند الجميع، وإبراهيم عليه السلام عنده ما ليس عند غيره، الرسل يتفاضلون عليهم السلام: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولكن لا يتنقص المفضول، ولا يجوز لأحد أن يتنقص أحدًا من الأنبياء، وإن كان مفضولا، وغيره من إخوانه أفضل منه من النبيين، فلا يتنقص الأنبياء؛ ولهذا قال ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُوا

بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»[١]، فلا يجوز التفضيل من باب الافتخار، واحتقار الآخر وانتقاصه.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ مثل: موسى عليه السلام كلمه الله، الله مكلِّم، ومن مُكلَّم؟ اسم مفعول؛ ولهذا حاول الجهمي عمرو بن عبيد مع القارئ أبي عمرو بن العلاء: أريدك أن تقرأ هذه الآية: (مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهَ)، فيكون النبي هو الذي كلم الله، لا أن الله هو الذي كلمه؛ حتى يجحد كلام الله، أن الله يتكلم، فقال له: هبني قرأتها كذا، ماذا تقول في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فعند ذلك انبهت الخبيث، وانسد عليه الطريق[٢].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]؛ يعني: بجبريل عليه السلام، هو روح القدس.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، وهو الكتاب، كتاب الزبور الذي يترنم به. إذا ترنم داود بالزبور، خشعت الجبال، والطيور، وصرن يرددن معه، يرجعن معه لحسن صوته ﷺ، هذه فضيلة خاصة بداود عليه السلام.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٧٩).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ١٠٤)، وميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٣)، والبداية والنهاية (١٠/ ٨٠).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَن، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١). [١].

الشرح:

[١] مما يدل على التفاضل هذا الحديث: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»، فدل على أن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم، فالقوي في إيمانه خير من الضعيف في إيمانه، «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»؛ المؤمن وإن كان إيمانه ضعيفا، ففيه خير، خير من الكافر والمنافق؛ فلايحتقر الضعيف من المؤمنين، لا يحتقر؛ لأنه أحب إلى الله من كثير، أحب إلى الله من جميع الكفار.

وهذا فيه فعل الأسباب، وأن الإنسان لا يقول: أنا متوكل على الله، ومؤمن بالله، ويعطل الأسباب، بل يعمل الأسباب: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ**»؛ تترك العمل، وتترك الكسب، وتقول: أنا متوكل على الله. هذا لا يجوز.

وطلب الرزق وفعل الأسباب، هو من قدر الله، لا يعارض القدر، تقول:

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

إن كان الله مقدرًا لي شيئًا، فسوف يأتيني، ما يأتيك إلا بسبب، إلا إذا فعلت السبب، فإذا فعلت السبب، قد يأتيك المطلوب، وقد لا يأتيك، ولله الحكمة في ذلك، قد يكون عدم حصوله لك أحسن لك، فلا تجزع ولا تسخط، «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»، فيصبح الإنسان في قلق: لماذا لم أفعل كذا؟! أنا الذي خربت. لا تلم نفسك، ولا تلم القدر، شيء فعلت فيه السبب، ولم يحصل، تؤمن بالله ﷻ، وتعلم أنه لو قدر، لحصل، لكنه لم يقدر، «قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ».

الشاهد من الحديث هو أوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»؛ لا بالنسب، ولا بالشرف، ولا بالحسب، إنما هو بالعمل، قال ﷺ: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»(١)، [١] وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، [٢].

الشرح:

[١] فدل على أن الحكام يتفاضلون، وهم العلماء، يتفاضلون في طلب الحكم الشرعي من الأدلة، يتفاضلون في ذلك، فمنهم من يصيب الحكم الشرعي باجتهاده، فيكون له أجران - أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة -، ومنهم من يجتهد، ولا يصيب، فيكون له أجر واحد -أجر الاجتهاد-، فدل على أن العلماء يتفاضلون، والفقهاء يتفاضلون، وفيه الحث على الاجتهاد وطلب الحكم الشرعي من الأدلة.

[٢] الصحابة ﷺ يتفاضلون، الذين آمنوا وأنفقوا قبل فتح مكة أفضل من الذين آمنوا وأنفقوا بعد فتح مكة، ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ من الذين آمنوا بعد الفتح، والذين آمنوا، وأنفقوا قبل الفتح، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ مثل: قوله ﷺ: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»، فإذا كان الصحابة يتفاضلون، كذلك بقية المؤمنين، التفاضل إنما هو بالعمل.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦]، [١].

الشرح:

[١] فالله فضل المجاهدين في سبيله على القاعدين تفضيلين: تفضيل بدرجة، وتفضيل بدرجات. فالله فضل المجاهدين على القاعدين غير أولي الضرر، الذين لهم عذر، لهم أجر، ولهم نيتهم في الجهاد، ولكن الذين باشروا الجهاد أفضل من الذين نووه بقلوبهم، وعجزوا بأبدانهم، لكنه ليس فضلًا كثيرًا، أفضل بدرجة فقط؛ لأن هؤلاء إنما حبسهم العذر، فلهم أجر من خرج وجاهد، لكن من جاهد بنيته أقل درجة ممن جاهد بنيته وبمباشرته بنفسه في الجهاد: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ القاعدون عن ماذا؟ عن الجهاد، ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾؛ الذين لهم عذر، ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾، الله لا يقنط أحدا، ولا ييئس أحدا، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ الذين ليس لهم عذر، هذا في الجهاد الذي هو فرض كفاية؛ لأن الجهاد على قسمين: فرض عين، إذا حاصر العدو البلد، وفرض كفاية، وهو جهاد الطلب، الجهاد على نوعين: جهاد الدفاع، وجهاد الطلب، فجهاد الدفاع هذا فرض

عين على كل من يقدر عليه، وأما جهاد الطلب، فهذا فرض كفاية، إذا قام به من يكفي، سقط الإثم عن الباقين، لكن الذي قام به يرفعه الله درجات على الذي لم يقم به ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦]، فهذا دليل على أن المجاهدين في سبيل الله يتفاوتون، فمن قعد لعذر، فالمجاهد بنفسه والمباشر أفضل منه بدرجة، ومن قعد بغير عذر، جاز له ذلك، ولكن يفضل عليه الذي جاهد بدرجات كثيرة، لا يعلمها إلا الله ﷻ؛ لأنه لم يحددها.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩-٢٢]، [١].

الشرح:

[١] الأعمال تتفاضل: أيضا سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، هذه أعمال صالحة، لكن الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا؛ لأن هناك من يفتخر بعمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، وخدمة الحجاج، وظن أن هذا يكفي، الله ﷻ بيّن أن هناك ما هو أعلى منه، وهو الجهاد في سبيل الله ﷻ.

(وسقاية الحاج): توفير الماء لهم من زمزم، السقاية كانت لبعض بطون بني هاشم، وبعضهم يتولى الرفادة، وهي إطعام الحجاج، وبعضهم يتولى السدانة (سدانة الكعبة)، فكانت أعمال الحج موزعة على قريش: منهم من يتولى سدانة الكعبة؛ فتحها وإغلاقها والمحافظة عليها، ومنهم من يتولى سقاية الحجاج؛ توفير الماء للحجاج في المشاعر، ومنهم من يتولى الرفادة، وهي إطعام المحتاجين من الحجاج. هذه أعمال جليلة، لكن الجهاد في سبيل الله أفضل منها، فدل على أن الأعمال الصالحة تتفاضل؛ فالذي

يجاهد في سبيل الله أفضل من المعتكف في المسجد الحرام. سبحان الله! مع أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، لكن الجهاد في سبيل الله أفضل.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾، هذا دليل على أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحجاج، وإن كانت هذه أعمال صالحة وجليلة مع الإخلاص لله ﷻ، لكن الجهاد في سبيل الله أفضل منها بكثير.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، هذا للمجاهدين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]. [٢].

الشرح:

[١] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، القنوت هنا معناه: طول قيام الليل، ﴿قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، هل يستوي هو والمؤمن النائم؟ لا يستوي، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾؛ يعني: ساعات الليل، ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هذا دليل على أن العلماء أفضل من العوام من المؤمنين.

[٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١]؛ يعني: مجالس الذكر، حلق الذكر؛ لأنه قد يأتي من يريد الاستماع، ولا يجد مكانا، الله أمرهم أن يفسحوا له مكانًا، ويمكنوه من حضور العلم: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾؛ أي: مجالس طلب العلم، ﴿فَٱفْسَحُواْ﴾ لمن جاء متأخرا: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وسّعوا له في المجلس، يوسع الله لكم في الجنة، وفي الدنيا أيضا، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾؛ يعني: قوموا إلى

الصلاة، فقوموا، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾، ثم قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، هذا محل الشاهد، فالمؤمنون يتفاوتون، والعلماء يتفاوتون في الأجر، فهذا دليل على أن الأعمال تتفاضل، وأن المؤمنين يتفاضلون، ويتفاوتون في الأعمال.

فَصْلٌ

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا، لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]. [١].

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ -وَقَدْ تَقَدَّمَ- يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»(١) وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا تَقِيًّا حَتَّى يَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ، فَيَكُونُ مِنَ الْأَبْرَارِ أَهْلِ الْيَمِينِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يَكُونَ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ، [٢].

الشرح:

[١] سبق لنا أن المؤمنين درجات منهم السابقون المقربون، وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض والنوافل، وينالون محبة الله ونصرته وتأييده، هؤلاء هم المقربون، ومنهم المقتصدون الأبرار الذين فعلوا الواجبات وتركوا المحرمات، فهؤلاء مقتصدون، وهم الأبرار وأصحاب اليمين، يتفاوتون.

[٢] فالسابقون المقربون عندهم زيادة النوافل بعد الفرائض، أما المقتصدون، فعندهم الفرائض فقط، وهي خير كثير، الفرائض خير كثير.

---

(١) انظر: تخريجه (٥٧).

فَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ. [١] وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِحُّ إِيمَانُهُ وَعِبَادَاتُهُ، وَإِنْ قَدَرَ أَنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ [٢] - وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ حَتَّى يُرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ - فَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كَانُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، [٣].

الشرح:

[١] لأن قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يخرج الكفار.

[٢] هذا الصنف الثالث الذي لا له، ولا عليه، وهو الطفل الصغير الذي لم يميز، والمجنون الذي ليس عنده عقل، وكذلك الذي لم تبلغه الدعوة. لا يصح إيمانه؛ لأنه غير مكلف، ليس لأنه عنده ناقض من النواقض التي تبطلها، بل لأنه غير مكلف، ليس عنده شرط الصحة. «**أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ**» أصحاب الفترة.

[٣] يعني: اختلفوا في أصحاب الفترة، وأطفال المشركين، ومن لم تبلغه الدعوة، فمنهم من توقف، ووكل أمرهم إلى الله، ومنهم من قال: يرسل إليهم رسولًا يوم القيامة، يدعوهم إلى الله، فمن آمن، دخل الجنة، ومن أبى، دخل النار؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقيل: إنهم هم المعنيون بقوله ﷻ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾؛ يعني: بين الجنة والنار، ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، هؤلاء هم أصحاب الفترة. ولكن لا يعذبون، هم ليسوا من أولياء الله، لكنهم ليسوا كفارا؛ فلا يعذبون؛ لأنهم معذورون.

فَمَنْ لَمْ يَتَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ لَا بِفِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَلَا بِتَرْكِ السَّيِّئَاتِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. [١] وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ وَالْأَطْفَالُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ»(١). [٢] وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ رضي الله عنهما، وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ عَلَى تَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ. [٣].

الشرح:

[١] لا يكون من أوليائه إلا من تقرب إليه: «وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ»، وقال: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»(٢)؛ فلايكون وليًا لله من لم يتقرب إليه بالفرائض، أو بالفرائض والنوافل.

[٢] القلم يعني التكليف: «رُفِعَ الْقَلَمُ»؛ يعني: التكليف.

[٣] لقوله ﷺ: «مُرُوا أَبْنَاءَكُم بِالصَّلاَةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ»(٣)، فدل على أنه تصح منهم العبادات، ويؤجرون عليها، وإن كانت غير واجبة عليهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٦/ ١٥٦)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وأحمد (٦/ ١٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أبو داود (٤٣٩٩)، والترمذي (١٤٢٣)، وابن ماجه (٢٠٤٢)، وأحمد (١/ ١١٨) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧).

لَكِنَّ الصَّبِيَّ الْمُمَيِّزَ تَصِحُّ عِبَادَاتُهُ وَيُثَابُ عَلَيْهَا عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ. وَأَمَّا الْمَجْنُونُ الَّذِي رُفِعَ عَنْهُ الْقَلَمُ فَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، [١] وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ إِيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ؛ [٢] بَلْ لَا يَصْلُحُ هُوَ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُقَلَاءِ لِأُمُورِ الدُّنْيَا كَالتِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ. [٣] فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بَزَّازًا وَلَا عَطَّارًا [٤].

الشرح:

[١] لعدم النية، النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(١)، والمجنون ليس عنده نية ولا قصد.

[٢] لأنه غير مكلف، مرفوع عنه القلم، فليس له قصد في الأعمال؛ لا الخير، ولا الشر، ليس عنده قصد.

[٣] فإذا كان لا يصلح لأمور الدنيا، ولا يولى على أمور الدنيا لعدم أهليته، فكذلك أمور الآخرة.

[٤] البزاز الذي يبيع البز، والعطار الذي يبيع العطر.

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَلَا حَدَّادًا وَلَا نَجَّارًا، [١] وَلَا تَصِحُّ عُقُودُهُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ. فَلَا يَصِحُّ بَيْعُهُ وَلَاشِرَاؤُهُ وَلَا نِكَاحُهُ وَلَا طَلَاقُهُ وَلَا إِقْرَارُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ [٢].

وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِهِ، بَلْ أَقْوَالُهُ كُلُّهَا لَغْوٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حُكْمٌ شَرْعِيٌّ [٣] وَلَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ. [٤].

بِخِلَافِ الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ فَإِنَّ لَهُ أَقْوَالًا مُعْتَبَرَةً فِي مَوَاضِعَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَفِي مَوَاضِعَ فِيهَا نِزَاعٌ. [٥].

الشرح:

[١] يعني: أصحاب حرف.

[٢] ولا يصح بيعه وشراؤه، وزواجه، وتزويجه، وغير ذلك؛ لفقده العقل.

[٣] حتى الأقوال القبيحة إذا صدرت منه - كالسب، والشتم، وألفاظ الكفر -، لا يؤاخذ عليها؛ لأنه ليس له قصد.

[٤] هذا من رحمة الله ﷻ، وعدله ﷻ، فلا يعذب إلا من بلغته الرسالة، وكان متأهلا بالعقل.

[٥] ولذلك سمي مميزا؛ لأنه يميز الصحيح من الفاسد، ويميز بين الضار والنافع، ليس مثل من دون التمييز، أو مثل: المجنون لا يميز.

فيثاب على الذكر، وعلى التسبيح والتهليل، وعلى الصلاة، وعلى العبادات، وتكون له نافلة.

وَإِذَا كَانَ الْمَجْنُونُ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَلَا التَّقْوَى وَلَا التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ، وَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ؛ [١].

الشرح:

[١] المجنون لا يوصف بأنه ولي لله، ولا أنه عدو لله؛ لأنه غير مكلف، لكن الشيخ ينبه على شيء مهم، وهو أن الصوفية يعتبرون المجانين من خواص الأولياء، وأن ما يفعلونه فعل ولي، وهذا رد على الخرافيين الصوفية، الذين يعتقدون أن المجانين وفاقدي العقل أولياء لله؛ فيتوسلون بهم.

فإن بني آدم أو جميع الخلق - من الملائكة، والشياطين، وبني آدم، والجن- ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، خصوصا بني آدم، وإلا فالملائكة قسم واحد؛ أولياء لله ﷻ، الرسل كلهم أولياء لله ﷻ، أما بنو آدم والجن؛ أي: الثقلان: الجن والإنس، فهم على ثلاثة أقسام:

قسم يكون وليًا لله، وهم المؤمنون المتقون.

وقسم يكون عدوا لله، وهم الكفار، والمشركون، والمنافقون.

وقسم لا يوصف بأنه ولي لله، ولا عدو لله، وهم من ليس عندهم عقول: كالمجانين، والأطفال الذين ليس لهم عقول، فهؤلاء لا يوصفون بأنهم أولياء، ولا أعداء لله ﷻ؛ لأن هناك من الناس من يعتقد أن المجانين

أولياء لله، وأنهم يتوسل بهم، وهم غالب الصوفية والقبوريين والمخرفين، الذين يعتقدون أن هؤلاء أولياء لله، مع أنهم ليسوا أولياء، ولا أعداء لله ﷻ غير مكلفين، وهذا القسم الثالث هو الذي يعنيه الشيخ الآن.

لَا سِيَّمَا أَنْ تَكُونَ حُجَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ إِمَّا مُكَاشَفَةٌ سَمْعِهَا مِنْهُ، أَوْ نَوْعٌ مِنْ تَصَرُّفٍ، مِثْلِ: أَنْ يَرَاهُ قَدْ أَشَارَ إِلَى وَاحِدٍ، فَمَاتَ أَوْ صُرِعَ؛ [١].

الشرح:

[١] يعني: يعتقد أنه ولي لله، وإذا قيل له: ما دليلك على أنه ولي لله؟ قال: قد يحصل منه أمور غريبة تجري على يده: كالمكاشفة - وهي الإخبار عن أشياء غائبة أو مستقبلة -، أو يشير إلى أحد، ثم يصاب. هذا خارق للعادة، فيدل على أن هذا المجنون ولي لله، فنقول: هذه الأمور لو جرت على يد العقلاء، فإنها خوارق شيطانية، لا تدل على ولاية الله، فكيف إذا جرت على يد من ليس عنده عقل، هذا أولى إلَّا يوصف بأنه ولي لله. تصرف تصرفا غريبا، فيظن أن هذه كرامة، ومن كان عنده كرامة، فهو ولي، نقول: لا، هذه لا تعدو أن تكون من خوارق الشياطين، يجرونها على أيدي هؤلاء، ولو جرت على يد عاقل، ما يعد من أولياء الله، ما دام أنه ليس من المؤمنين المتقين، فكيف إذا جرت على يد غير مكلف؟!

وكل هذا بسبب الشياطين؛ لأجل أن تلبس به على الناس.

فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ -مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ- لَهُمْ مُكَاشَفَاتٌ وَتَصَرُّفَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ، [١] كَالْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَعُبَّادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، [٢] فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ عَلَى كَوْنِ الشَّخْصِ وَلِيًّا لِلَّهِ، وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ، فَكَيْفَ إِذَا عُلِمَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ؟! [٣].

الشرح:

[١] شيطانية ليست صادرة عنهم، وإنما هي من الشياطين التي تلابسهم، أو تخالطهم.

[٢] فهم تجري على أيديهم، وهم كفار ومشركون، تجري على أيديهم أشياء غريبة، وهي من الشياطين، وليست منهم، إنما هي من الشياطين الذين لابسوهم، وخالطوهم؛ ليضلوا بهم الناس، فليسوا أولياء لله ﷻ. مجرد وجود الخارق لا يدل على أن هذا الشخص ولي لله، حتى ينظر في عمله، فإن كان من المؤمنين المتقين، فهو ولي لله، وهذه كرامة أجراها الله على يده، وإن كان فاجرا كافرا مشركا، فهذه خوارق شيطانية، ولذلك المشركون عندهم الكهان، وعندهم المنجمون، وعندهم من هذه الأنواع، مع أنهم مشركون.

[٣] لا تتخذ هذه الخوارق دليلا على الولاية لله، ما دام أنه غير تقي وغير مؤمن، إنما هو مشرك، أو كافر، أو منافق، فهذه خوارق شيطانية.

مِثْلُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ وُجُوبَ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَّبِعُ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ دُونَ الْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ. [١].

الشرح:

[١] هؤلاء الذين يدعون أنهم من أولياء الله يظهر عليهم من الكفر والفجور الشيء الكثير، وتضييع الفرائض، وفعل الفواحش، لكن يقول لهم الشيطان، ويقولون: هؤلاء ليس عليهم تكليف، هؤلاء وصلوا إلى الله، ورفعت عنهم التكاليف، فهم أولياء لله. الشيطان يلبس عليهم، يزين لهم الحجج. فنقول: هؤلاء أولياء للشيطان، وليسوا أولياء للرحمن. وهذه خوارق شيطانية تلبس بها الشياطين على الناس؛ فلا يغتر بها، ولا تدل على ولاية الله، وهم يعملون الشرك، ويعملون الفواحش، ويستبيحون، ويقولون: هؤلاء ليسوا مكلفين، ليس عليهم حلال ولا حرام، كل شيء مباح لهم؛ لأنهم وصلوا إلى الله، والتكاليف إنما هي على العوام، أما هؤلاء، فخاصة الخاصة، ترفع عنهم التكاليف، ولا يحرم عليهم شيء!! كذا يقولون. ويفرقون بين الشريعة والحقيقة، الشريعة للعوام، وأما الحقيقة، فهي للخواص، فعندهم شريعة وحقيقة، هذه تقسيمات أهل الباطل، لا فرق بين الشريعة والحقيقة عند أهل الحق، وهم يفرقون بينهما، فيقولون: الشريعة للعوام، وأما الحقيقة فهي للخواص.

أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ غَيْرَ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام. [١] أَوْ يَقُولُ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا الطَّرِيقَ، [٢] أَوْ هُمْ عَلَى قُدْوَةِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُهُ بَعْضُ مَنْ يَدَّعِي الْوِلَايَةَ، [٣].

الشرح:

[١] كما مر أنهم يقولون: لسنا بحاجة إلى الأنبياء، الأنبياء إنما هم للعوام، وأما نحن، فلسنا بحاجة؛ لأننا نأخذ عن الله مباشرة. عن طريق رؤسائهم الذين يزعمون أنهم يتصلون بالله، ويأخذون عنهم مباشرة، وأنهم يجلسون مع الله، ويخلون معه، فيأخذون عنه مباشرة، فهم أفضل من الأنبياء الذين يأخذون من طريق الوحي، من طريق جبريل عليه السلام، كذا بلغ الكفر إلى هذا الحد بهؤلاء، ويقال: هؤلاء أولياء!!

[٢] ضيقوا الطريق، يقولون: لا طريق إلا طريق الأنبياء، مع أن الطريق إلى الله واسع، طريق الأنبياء ومَنْ غيرهم، بل مَنْ غيرهم أفضل.

[٣] أو الأنبياء إنما هم للعامة، ما يعرفون الحقيقة، ما لهم إلا الظواهر، فالأنبياء جاءت لهم فقط، وأما هؤلاء، فليسوا بحاجة إلى الأنبياء. نسأل الله العافية!

فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنْ الْكُفْرِ مَا يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ. فَضْلًا عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ ﷻ، [١].

الشرح:

[١] الكفر لا يجتمع مع الإيمان؛ الكفر الأكبر لا يجتمع مع الإيمان، الشرك الأكبر لا يجتمع مع التوحيد أبدا؛ ضدان لا يجتمعان.

الله ﷻ شرط في الولي أن يكون مؤمنا تقيًّا؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله، فمن لم يكن مؤمنا تقيًّا، فهو ليس من أولياء الله، بل هو من أولياء الشيطان، وإن ظهر علي يديه خوارق، فهي خوارق شيطانية، وليست كرامات. الله ﷻ قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وأولياء الشيطان هم الكفار، والمشركون، والمنافقون ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦]، القرآن واضح في بيان أولياء الله من أولياء الشيطان.

فَمَنْ احْتَجَّ بِمَا يَصْدُرُ عَنْ أَحَدِهِمْ مِنْ خَرْقِ عَادَةٍ عَلَى وِلَايَتِهِمْ كَانَ أَضَلَّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. [١].

الشرح:

[١] فإن مجرد خرق العادة لا يدل على الولاية، حتى يكون معه إيمان بالله وتقوى، فإن كان معه كفر ونفاق وشرك، فهو من أولياء الشيطان، وهذا الخارق خارق شيطاني، هو ليس من الكرامات، فإن هؤلاء قد يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، يدخلون النار، ولا تحرقهم، وليس هذا من صنيعهم، وإنما هو من صنيع الشياطين، يخبرون بأشياء بعيدة وغائبة، هم لم يطلعوا عليها، وإنما هي من اطلاع الشياطين ووحي الشياطين: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، الله وضح هذا تمام التوضيح، لكن هؤلاء لا يعبؤون بالقرآن، وإنما يأخذون بأقوال شياطينهم وشيوخهم، فهذا هو الحق عندهم، أما القرآن، فهذه ظواهر تصلح للعوام!!

وَكَذَلِكَ الْمَجْنُونُ؛ فَإِنَّ كَوْنَهُ مَجْنُونًا يُنَاقِضُ أَنْ يَصِحَّ مِنْهُ الْإِيمَانُ [١] وَالْعِبَادَاتُ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ، [٢].

الشرح:

[١] فترك الإيمان والتقوى قد يكون بسبب من العبد، وهو العاقل الذي يدرك الأمور، فيترك طاعة الله وطاعة رسوله، ويكون من أولياء الشيطان باختياره، وقد يكون ليس من اختياره ترك الواجبات، أو وقع في شيء من المحرمات، ليس باختياره؛ لأنه مجنون ليس عنده عقل، ولا يميز بين طيب وخبيث، وبين إيمان وكفر، ليس عنده عقل، فهذا لا يعد كافرا، هذا الصنف المجنون والصغير لا يعد كافرا، وإن فعل ما فعل، وترك ما ترك، لا يعد كافرا؛ لأنه ليس عنده عقل، والتكليف مناطه العقل.

[٢] فهو لا تصح منه العبادات التي هي شرط في ولاية الله: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ»(١)؛ يعني: بعد الفرائض، «حَتَّى أُحِبَّهُ»، فالذي يتقرب إلى الله بالفرائض فقط هذا من الأبرار، والذي يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، هذا من السابقين ومن المقربين.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٧).

وَمَنْ كَانَ يَجُنُّ أَحْيَانًا وَيُفِيقُ أَحْيَانًا ، إِذَا كَانَ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَيَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ؛ [١] فَهَذَا إِذَا جُنَّ لَمْ يَكُنْ جُنُونُهُ مَانِعًا مِنْ أَنْ يُثِيبَهُ اللَّهُ عَلَى إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ الَّذِي أَتَى بِهِ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ، وَيَكُونُ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ. [٢].

الشرح:

[١] الجنون على قسمين:

القسم الأول: جنون مطبق دائم، هذا صاحبه لا يؤاخذ، ولا يقال: إنه مؤمن ولا كافر.

القسم الثاني: جنون يأتي أحيانا، ويذهب أحيانا، فهذا في حال إفاقته وعبادته لله يكون وليًّا لله، وفي حال جنونه وذهاب عقله، لا يوصف بأنه ولي لله، ولا عدو لله.

[٢] لأن الله ﷻ لا يضيع عمل عامل، فعمل الذي يجن أحيانا لا يبطل بالجنون، بل يحتسبه الله له، ويجزيه عليه.

يكون وليًّا لله في حال إفاقته، وتقواه، وعمله الصالح، وإذا جاءه الجنون، ارتفع عنه التكليف، فلا يؤاخذ، ولا يكون وليًّا لله في حال جنونه، ولا يكون عدوا لله أيضًا.

وَكَذَلِكَ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ بَعْدَ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُهُ وَيَأْجُرُهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ. وَلَا يُحْبِطُهُ بِالْجُنُونِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فَعَلَهُ، [١] وَالْقَلَمُ مَرْفُوعٌ عَنْهُ فِي حَالِ جُنُونِهِ. [٢].

فَعَلَى هَذَا، فَمَنْ أَظْهَرَ الْوِلَايَةَ، وَهُوَ لَا يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ، وَلَا يَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ، بَلْ قَدْ يَأْتِي بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: هَذَا وَلِيٌّ لِلَّهِ، [٣].

الشرح:

[١] إذا كان في أول حياته مؤمنًا بالله، مؤديًا للفرائض، متجنبًا لمحارم الله، ثم جن في آخر عمره إلى أن مات، فإن الله لا يضيع أعماله السابقة، بل يحتسبها له، ويجزيه عليها؛ لأنه ﷻ لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا تبطل الأعمال إلا بالشرك: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، لا تبطل إلا بالشرك، والكفر، والردة، أما الجنون، فإنه لا يبطل الأعمال.

[٢] فلا يثاب ولا يعاقب.

[٣] لم يكن لأحد من أهل العلم والبصيرة، بل حتى ولا العوام الذين عندهم إيمان وعقيدة، لا يقولون: إن هذا ولي لله. وهو يفعل المحارم، ويترك الفرائض، إنما يقول هذا أهل التخريف وأهل الباطل.

فَإِنَّ هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَجْنُونًا ؛ بَلْ كَانَ مُتَوَلِّهًا مِنْ غَيْرِ جُنُونٍ، [١] أَوْ كَانَ يَغِيبُ عَقْلُهُ بِالْجُنُونِ تَارَةً وَيُفِيقُ أُخْرَى، وَهُوَ لَا يَقُومُ بِالْفَرَائِضِ، بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ، فَهُوَ كَافِرٌ. [٢].

الشرح:

[١] الوله: الحب؛ لأن الحب درجات، منها الوله.

[٢] الذي يعتقد أنه لا يلزمه اتباع الرسول، وإنما هو يصل إلى الله من غير طريق الرسول، هذا كافر، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فمجرد أنه يحب الله، ويعبد الله بهواه وبما وضعه لنفسه من غير اتباع للرسول، فهذا كافر، ولو كان بزعمه أنه يعبد الله، ويتقرب إلى الله؛ لأن عمله غير صحيح، قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(١)، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فلا طريق إلى الله إلا باتباع الرسول ﷺ، وفي هذا رد على هؤلاء الذين يقولون: لسنا بحاجة إلى اتباع الرسول، نحن نعرف، ونصل إلى الله بدون الرسول. هذا لا شك أنه من أكفر الناس، وأشد الناس ضلالًا.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة ﵂.

وَإِنْ كَانَ مَجْنُونًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا قَدْ ارْتَفَعَ عَنْهُ الْقَلَمُ؛ [١] فَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَاقَبًا عُقُوبَةَ الْكَافِرِينَ فَلَيْسَ هُوَ مُسْتَحِقًّا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ ﷻ، فَلَا يَجُوزُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِيهِ أَحَدٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، [٢] وَلَكِنْ إنْ كَانَ لَهُ حَالَةٌ فِي إفَاقَتِهِ كَانَ فِيهَا مُؤْمِنًا بِاَللَّهِ مُتَّقِيًا كَانَ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي حَالِ إفَاقَتِهِ فِيهِ كُفْرٌ أَوْ نِفَاقٌ، أَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ، [٣] فَهَذَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ مَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، [٤].

الشرح:

[١] هذا قد ارتفع عنه القلم، ولا يقال: إنه كافر ولا مؤمن، ولا ولي ولا عدو، هذا غير مكلف.

[٢] هذا لا يلحق بأهل الإيمان، وأهل التقوى، وإن كان غير مكلف، مرفوع عنه القلم، فإنه لا يلحق بعباد الله المؤمنين المتقين، ولا يكون في منزلة أهل الإيمان وأهل العمل، وأهل الجهاد في سبيل الله ﷻ.

[٣] هذا رد على الذين يتخذون المجانين والمجاذيب أولياء لله ﷻ.

[٤] هناك فرق بين مجنون المؤمنين، ومجنون الكفار: مجنون المؤمنين لا يبطل عمله الذي عمله قبل الجنون - كما سبق -، مجنون الكفار إذا كان قبل جنونه كافرا بالله، يفعل الفواحش والمحرمات والشرك، ثم جن، فإنه في حال جنونه لا يؤاخذ، لكن في حال إفاقته يؤاخذ على كفره وشركه بالله ﷻ.

وَجُنُونُهُ لَا يُحْبِطُ عَنْهُ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ حَالَ إِفَاقَتِهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ. [١].

الشرح:

[١] لا يُكَفِّرُ الله به ما يحصل في حال إفاقته من كفر ونفاق؛ لأنه إنما ترك الكفر؛ لأنه عجز عنه، وأصابه ما أصابه، فهو لا يزال كافرا، ولا يعتبر ما أصابه من الجنون مكفرا عنه الكفر الذي حصل منه والمعاصي السابقة. هذا فصل مهم جدا، وهو أن تعرف الرد على هؤلاء الذين يتخذون المجانين أولياء لله ﷻ، فهؤلاء المجانين إما أن يكونوا مجانين مسلمين، أو مجانين كفار، مجانين المسلمين على قسمين:

القسم الأول: من جنونه مطبق في كل حياته وكل عمره، هذا لا له ولا عليه.

القسم الثاني: أو جنونه ثابت، وليس مطبقا، لكنه يعبد الله في حال إفاقته وعقله، ثم يصاب بالجنون، فهذا يثاب على أعماله الصالحة التي عملها قبل الجنون، فله من ولاية الله بقدر ما عمل في حال إفاقته.

أما مجنون الكفار فهو على قسمين:

القسم الأول: مجنون الكفار إذا كان جنونه مطبقًا، هذا مثل الأول، ولو كان من الكفار، فلا يحاسب؛ لأنه ما حصل منه كفر ولا شرك.

القسم الثاني: إذا كان في حال إفاقته يكفر بالله، ويشرك بالله، ويفعل الفواحش، فهذا كافر، ويعاقب على كفره وشركه في حال إفاقته، ولا يكون جنونه مكفرا لما حصل منه.

فَصْلٌ

وَلَيْسَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ شَيْءٌ يَتَمَيَّزُونَ بِهِ عَنْ النَّاسِ فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْأُمُورِ الْمُبَاحَاتِ، [١].

الشرح:

[١] هذا مهم جدا؛ لأن هؤلاء المخرفين يتخذون علامات، ويجعلون للأولياء علامات تميزهم في اللباس وفي المنزلة، ويصنعون حولهم هالة من التقديس والتعظيم، وأما أهل السنة وأهل الجماعة والمؤمنون، فليس لأولياء الله عندهم علامة، يختفون، أولياء الله قد لا يعرفون؛ لأن ولي الله على الحقيقة لا يحب أن يعرف، ولا يلبس لباسا خاصا، ولا يقول للناس: أنا ولي. أو يتميز بشيء يقول: أنا ولي. إذا فعل هذا، فهذا رياء ينقص ولايته، ويبطلها، فليس لهم لباس خاص، وليس لهم زي خاص - كما يفعله المخرفون -، بل قد لا يعرف، قال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»(١)، بل أخبر ﷺ أنه لو شفع لم يُشَفَّعْ(٢)، وإن خطب لم يُزَوَّجْ، وهو من أولياء الله المتقين، فهو لم يتميز، ولم يظهر عمله، هذا دليل على إخلاصه لله ﷻ، أما الذي يظهر نفسه، أو يظهرونه الناس، ويعمل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٨٨٧): «... طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

له هيلمان، هذا ليس دليل على ولايته لله ﷻ، فليست الولاية بالعلامات، إنما الولاية بالإيمان بالله، والإيمان في القلب، والأعمال التي يعملها لا يقصد بها الرفعة والرياء والسمعة، وإنما يقصد بها وجه الله، صفته التواضع، لا التكبر والعجب بنفسه، هؤلاء هم أولياء الله، وهذه فائدة عظيمة تبين أنه ليس لأولياء الله علامات يعرفون بها، بل ربما أنهم يخفون أنفسهم، ويتواضعون، ويعتبرون أنفسهم مقصرين في حق الله ﷻ، لا يعجبون بأعمالهم، ولا بمظاهرهم. ولهذا قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»[1] هؤلاء هم الأولياء.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣) من حديث أنس ﷺ.

فَلَا يَتَمَيَّزُونَ بِلِبَاسٍ دُونَ لِبَاسٍ إِذَا كَانَ كِلَاهُمَا مُبَاحًا، [١] وَلَا بِحَلْقِ شَعْرٍ أَوْ تَقْصِيرِهِ أَوْ ضَفْرِهِ إِذَا كَانَ مُبَاحًا؛ [٢] كَمَا قِيلَ: كَمْ مِنْ صِدِّيقٍ فِي قَبَاءٍ، وَكَمْ مِنْ زِنْدِيقٍ فِي عَبَاءٍ(١)، [٣].

الشرح:

[١] بل هم يلبسون مثلما يلبس الناس، أو أقل مما يلبس الناس، ما يضعون عمائم، وأكمام واسعة، ويقال: هؤلاء أولياء. لا، مثل الناس مندمجون بالناس، لا يُعرفون، لكن قلوبهم عند الله ﷻ.

[٢] ولا بعلامة شعر إذا كان مباحا، يصير له شعر خاص، أيضا في جسمه، هو كسائر الناس يعفي لحيته، ويحفي شاربه، ويعمل خصال الفطرة مثل الناس، ما يتميز بشيء. أو (ضفر الشعر) جعله ضفائر، بل هو مندمج مع الناس تماما، ما يتميز بعلامة.

[٣] (كَمْ مِنْ صِدِّيقٍ)، الصدّيق: هو كثير الصدق، عظيم الصدق، (فِي قَبَاءٍ) يعني: لباس متواضع، ما يميزه عن غيره، (وَكَمْ مِنْ زِنْدِيقٍ فِي عَبَاءٍ)؛ يعني: في لباس فخم، ومظهر جميل، لكنه زنديق، فليست الولاية بالمظاهر إنما الولاية تكون فيما بين العبد وبين ربه ﷻ لا يعلمها إلا الله ﷻ.

---

(١) قال في التوضيحات الحسان (ص٧٧): القباء: الجبة وهي من لباس الأغنياء. والعباء: الثياب الخشنة التي يعتاد لبسها الفقراء. وانظر القاموس المحيط مادة (قبا)، وإيضاح مختار الصحاح (ص٤٤).

بَلْ يُوجَدُونَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِذَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الظَّاهِرَةِ وَالْفُجُورِ، فَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْقُرْآنِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ، [١].

الشرح:

[١] وأيضا الأولياء، أولياء الله لا يكونون في فريق خاص من الناس، يكونون في العلماء، ويكونون في العوام، ويكونون في التجار، ويكونون في المزارعين، ما يتميزون، فلا يقال: إن أولياء الله يقتصرون على عمل معين. لا، يندمجون مع الناس، يطلبون الرزق مثل الناس، يكونون مزارعين، يكونون مجاهدين في سبيل الله، يكونون علماء، يكونون عواما من عوام أهل التوحيد، يكونون تجارا، ليس معنى الولي أن يترك التجارة، ويعطيه الناس، ويتقربون إليه بالأموال. لا، هو يشتغل، داود عليه السلام نبي الله، وملك أيضا، عنده من الأموال الشيء الكثير، إنما يأكل من عمل يده ﷺ، يصنع الدروع، ويبيع، ويأكل من عمل يده، ما يأخذ من بيت المال المتوفر عنده، ما يأخذ منه شيئًا، هذا ولي الله. ولهذا قال ﷺ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»(١) مع أنه ملك ونبي.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدام رضي الله عنه.

وَيُوجَدُونَ فِي أَهْلِ الْجِهَادِ وَالسَّيْفِ، [١] وَيُوجَدُونَ فِي التُّجَّارِ وَالصُّنَّاعِ وَالزُّرَّاعِ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَصْنَافَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠]. [٢].

الشرح:

[١] يكونون مع المجاهدين.

[٢] الله ذكر في هذه الآية أن من أولياء الله من هم يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، يسافرون للتجارة، ولا يتركون قيام الليل، بل يقومون الليل، ويقرؤون ما تيسر من القرآن، ومنهم من يجاهد في سبيل الله، يجاهد الكفار لإعلاء كلمة الله، ولا يترك العبادة وقيام الليل، فهذا فيه أن أولياء الله لا يختصون بطائفة معينة، يكونون مع المجاهدين، يكونون مع التجار الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، يكونون من العلماء، من القراء.

وَكَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ: «الْقُرَّاءَ»، [١] فَيَدْخُلُ فِيهِمْ الْعُلَمَاءُ وَالنُّسَّاكُ، [٢].

الشرح:

[١] القراء في عرف السلف هم العلماء، ليس مجرد الذين يقرؤون القرآن فقط، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **«كُنَّا إِذَا تَعَلَّمْنَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ نَتَعَلَّمْ مِنَ الْعَشْرِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَهَا حَتَّى نَعْلَمَ مَا فِيهِ. قِيلَ لِشَرِيكٍ مِنَ الْعَمَلِ. قَالَ: نَعَمْ»**(١) هؤلاء القراء بالمعنى الصحيح، أما الذي يقرأ القرآن فقط، ويجيد القراءات، ويعرف القراءات السبع أو العشر، لكنه لا يعمل بالقرآن، هذا ليس من أولياء الله، فأولياء الله وأهل القرآن هم الذين يتلونه حق تلاوته، يعملون به، ويتفكرون في معانيه، ويتدبرونه.

[٢] القراء يدخل فيهم العلماء الذين جمعوا بين القراءة والعلم، ويدخل فيهم النساك؛ يعني: العباد، وإن لم يقرؤوا القرآن، فمن آمن بالله، وآمن بالرسل، وآمن بالقرآن، فهو من أهل القرآن، ولو لم يكن حافظا له، ومن كان يحفظ القرآن، ولكنه لا يعمل به، فهو ليس من أهل القرآن.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٤٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (٣/ ١٢٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٣٨٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، واللفظ للحاكم من رواية شريك.

ثُمَّ حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ «الصُّوفِيَّةِ وَالْفُقَرَاءِ». [١].

الشرح:

[١] درج السلف الصالح في القرون المفضلة، ولم يحدث التصوف، إنما حدث التصوف متأخرا، والتصوف في الأصل: الاجتهاد في العبادة والزهد في الدنيا؛ ولذا يسمون النساك، الذين تفرغوا في العبادة وقراءة القرآن، ولم يدخل فيهم بدع ولا شرك، وإنما شقوا على أنفسهم في العبادة، فهؤلاء سلكوا مسلكا شاقا، لم يؤمروا به، فهو من جنس رهبانية النصارى، الله لم يأمرنا بالرهبانية والتشدد في العبادة، لكن هؤلاء اجتهدوا، فأخذوا هذا المنحى، وكانوا في أولهم عبادا متقشفين، ومتزهدين، وإن لم يكن هذا مرغبا فيه، لكنه لا ينقص أهله، ثم تطور التصوف - وهكذا البدع تتطور -، تطور التصوف إلى أن خرجوا من الدين، وصاروا ملاحدة: أهل وحدة الوجود، وعباد القبور... إلى آخره، فتطور التصوف في الأخير، ثم الشيخ بين سبب تسميتهم بالصوفية، ذكر الأقوال في ذلك، ورجح أن الصوفية نسبة إلى الصوف؛ لأنهم كانوا يلبسون الصوف من باب التخشن والتزهد، فسموا بالصوفية؛ لأن مظهرهم لبس الصوف، ما يلبسون القطن والكتان والأشياء الرقيقة، وإنما يلبسون الخشن من باب التزهد والتقشف، هذا هو الصحيح في تسميتهم.

وَاسْمُ «الصُّوفِيَّةِ» هُوَ نِسْبَةٌ إِلَى لِبَاسِ الصُّوفِ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، [١] وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ نِسْبَةٌ إِلَى صَفْوَةِ الْفُقَهَاءِ، [٢] وَقِيلَ: إِلَى صُوفَةَ بْنِ أُدِّ بْنِ طانجة [٣]، قَبِيلَةٌ مِنْ الْعَرَبِ كَانُوا يُعْرَفُونَ بِالنُّسُكِ، [٤] وَقِيلَ: إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ، [٥].

الشرح:

[١] هذا هو الصحيح.

[٢] الصفوة؛ نسبة إلى الصفوة، وهذا غير صحيح؛ لأنه لو كان إلى الصفوة، لقيل: صفوي، ولم يقل: صوفي، من جهة اللغة.

[٣] وقيل: إنهم نسبة إلى رجل، هو أول من أظهر التصوف، اسمه صوفة، فنسبوا إليه، صوفية نسبة إلى رجل اسمه صوفة.

[٤] يعني: بالتزهد والتقشف.

[٥] وهذا باطل، قيل: إن الصوفية نسبة إلى أهل الصفة الذين على عهد النبي ﷺ، والذين مر بكم ذكرهم، وأن المراد بأهل الصفة فقراء الصحابة الذين ليس لهم بيوت ولا مأوى، النبي ﷺ جعل لهم صفة في المسجد يجتمعون فيها، ويتصدق الناس عليهم، ومنهم من يشتغل بالنهار، ويكتسب، ويأوي إلى الصفة؛ لأنه ليس له منزل، فسموا بأهل الصفة، هؤلاء قالوا: الصوفية نسبة إلى أهل الصفة، هذا غلط. بينهم وبين أهل الصفة فروق كبيرة.

وَقِيلَ: إِلَى الصَّفَا، [١] وَقِيلَ: إِلَى الصَّفْوَةِ، [٢] وَقِيلَ: إِلَى الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى، [٣] وَهَذِهِ أَقْوَالٌ ضَعِيفَةٌ، [٤] فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ: صَفِّيٌّ أَوْ صَفَائِيٌّ أَوْ صَفَوِيٌّ أَوْ صِفِّيٌّ، وَلَمْ يَقُلْ: صُوفِيٌّ. [٥].

الشرح:

[١] صفاء القلب، كان المفروض أن يقال: صفائي، أو صفوي، ولا يقال: صوفي، صوفي نسبة إلى الصوف. واضح هذا؟

[٢] وقيل: إلى الصف الأول؛ نسبة إلى الصف الأول في الصلاة، وكل هذا ليس له أصل.

[٣] أو الصف المقدم يوم القيامة بين يدي الله، وهذا تزكية لنفوسهم.

[٤] كلها أقوال ضعيفة، والصحيح الأول: أنهم نسبة إلى الصوف؛ لأنهم كانوا يلبسون الصوف من باب التخشن في اللباس، والزهد، وعدم الترفه.

[٥] يعني: إذا نسب إلى الصفة، يقال: صفي. أو صفائي إذا قيل: إنه نسبة إلى الصفاء. إذا كان نسبة إلى الصفوة، هذه الاشتقاقات اللغوية. وصوفي ظاهر أنه نسبة إلى الصوف.

وَصَارَ أَيْضًا اسْمُ «الْفُقَرَاءِ» يُعْنَى بِهِ أَهْلَ السُّلُوكِ، وَهَذَا عُرْفٌ حَادِثٌ، [١] وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ أَيُّمَا أَفْضَلُ: مُسَمَّى «الصُّوفِيِّ»، أَوْ مُسَمَّى «الْفَقِيرِ»؟ [٢] وَيَتَنَازَعُونَ أَيْضًا أَيُّمَا أَفْضَلُ: الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ، أَوْ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ؟(١). [٣].

الشرح:

[١] أيضا يسمون أنفسهم بالفقراء، والفقر على قسمين:

القسم الأول: فقر بمعنى الحاجة وقلة ذات اليد.

والقسم الثاني: فقر إلى الله ﷻ، فكل الناس فقراء إلى الله، ولو عندهم المليارات والملايين، هم فقراء إلى الله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ⑮﴾ [فاطر: ١٥]، فلو كان عنده أموال طائلة، فهو فقير إلى الله ﷻ.

[٢] بعضهم يقول: فقراء، ولا يقول: صوفية، الأمر سهل في هذا، لكن الفقير قد يكون معناه صحيحًا؛ لأن الناس فقراء إلى الله ﷻ، لكن صوفي. هذا ليس له معنى صحيح.

[٣] هذه مسألة معروفة؛ أيهما أفضل: الغني الشاكر، أو الفقير الصابر؟ والإمام ابن القيم له كتاب في هذا اسمه: (عدة الصابرين)، بين ﵀ أن أفضلهما أتقاهما لله، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص٣٦١).

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا نِزَاعٌ قَدِيمٌ بَيْنَ الْجُنَيْدِ[١] وَبَيْنَ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَطَاءٍ[٢]، [١].

الشرح:

[١] الجنيد من قدماء الصوفية، وكذلك الفضيل بن عياض، وكذلك بشر الحافي، هؤلاء من النساك، لكنهم لم يحصل لهم من الابتداع والشر ما حصل للمتأخرين، اقتصروا على العبادة والاجتهاد في العبادة، والزهد والتقشف، وكانوا متبعين للسنة. الجنيد والفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وهؤلاء من أفاضل العباد، وهم أهل سنة، وإن كانوا شقوا على أنفسهم، لكنهم أهل سنة.

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد البغدادي، أصله من نهاوند، مولده بالعراق، تفقه على مذهب أبي ثور، توفي سنة ٢٩٧هـ انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٦)، وطبقات الحنابلة (١/ ١٢٧).

(٢) هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي، متصوف صحح مذهب الحلاج، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز، توفي سنة ٣٠٩ هـ. انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٥٥)، وصفة الصفوة (٢/ ٤٤٥).

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ فِيهَا رِوَايَتَانِ. [١].

وَالصَّوَابُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَا قَالَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. [٢].

الشرح:

[١] يعني: أن الغني الشاكر أفضل، أو أن الفقير الصابر أفضل روايتان.

[٢] هذا الذي أشار إليه ابن القيم، والشيخ هنا أشار إليه، قال: الصحيح أن أفضلهما هو من كان أتقى لله ﷻ.

﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، فكل بني آدم يرجعون إلى ذكر وأنثى: آدم وحواء، فهم في النسب سواء إلى آدم، كلهم بنو آدم، جعلهم الله شعوبا وقبائل، قالوا: والشعوب للعجم، والقبائل للعرب(١)، من أجل أي شيء؟ ما الحكمة؟ ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾؛ فدراسة النسب ومعرفة النسب من أجل التعارف وصلة الأرحام لا بأس بها، أما دراسة النسب ومعرفة النسب لأجل الافتخار، فهذا لا يجوز، «لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»(٢)، ولهذا

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ١٥٣).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٨١).

جاء في الحديث أن الفخر بالأنساب من أمور الجاهلية[١]، الله لم يجعل الأنساب لأجل التفاخر، وإنما جعلها من أجل معرفة النسب وصلة الأرحام والتعارف.

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ».

فِي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ: «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ أَتْقَاهُمْ. [١] قِيلَ لَهُ: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك، فَقَالَ: يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ. فَقِيلَ لَهُ: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُك. [٢] فَقَالَ: عَنْ مَعَادِنَ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»(١). [٣].

الشرح:

[١] كما في الآية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، لكن الذين يسألون الرسول ﷺ لا يريدون هذا، يريدون شيئا آخر.

[٢] فهو نبي، ابن نبي، ابن نبي، ابن نبي.

[٣] يعني: تسألوني: أي العرب أفضل، أي قبائل العرب أفضل؟ قالوا: نعم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

فَدَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أنَّ أَكْرَمَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ. [١].

وَفِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ إلَّا بِالتَّقْوَى، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»(١) [٢].

وَعَنْهُ أَيْضًا ﷺ أنه قال: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، النَّاسُ رَجُلَانِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ»(٢).

فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَتْقَى لِلَّهِ فَهُوَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِذَا اسْتَوَيَا فِي التَّقْوَى اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ. [٣].

الشرح:

[١] إذا أسلموا، وفقهوا، فهم خيار الناس.

[٢] الأصل أننا متساوون، كلنا بنو آدم، إنما التفاضل بالتقوى عند الله ﷻ، أما الأنساب، فإنها لا تقتضي ميزة على الناس.

[٣] الفخر بالآباء إنما هو من أمور الجاهلية، المسلم لا يفتخر بنسبه، ولا يحتقر الناس. فالعربي والعجمي من جهة الأصل سواء، لكن قد يكون

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٤٧٤)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠)؛ من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وقال: حديث حسن، وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١).

العجمي أفضل من العربي بالتقوى، وقد يكون العربي أفضل من العجمي بالتقوى. انظر إلى سلمان الفارسي وبلال الحبشي، وإلى صهيب الرومي، وإلى الموالي في عهد النبي ﷺ، الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعلم، صاروا سادة المؤمنين، من السابقين الأولين ومن المهاجرين، بلال من المهاجرين، وسلمان كان بالمدينة لما هاجر النبي ﷺ مملوكا ليهودي، ثم اشتراه النبي ﷺ، وأعتقه، فلم يضرهما كون هذا فارسيًّا، وهذا حبشيًّا، ولم ينفع أبا جهل وأبا لهب أنهما قرشيان هاشميان، لم ينفعهم نسبهم، النبي ﷺ قال: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَلَفْظُ الْفَقْرِ فِي الشَّرْعِ يُرَادُ بِهِ الْفَقْرُ مِنَ الْمَالِ، وَيُرَادُ بِهِ فَقْرُ الْمَخْلُوقِ إِلَى خَالِقِهِ، [١] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، **[٢].**

الشرح:

[١] للصوفية اصطلاح آخر غير التصوف، وهو أنهم يتسمون بالفقراء، قال الشيخ: والفقر على قسمين: فقر من المال، يستحق صاحبه الصدقات، وفقر إلى الله ﷻ، وهذا يعم جميع العباد، الفقر من المال هذا يكون لبعض الناس، لكن الفقر إلى الله هذا يكون في جميع العباد: الأغنياء، والفقراء، والسلاطين، والسوقة، والعلماء، والعوام، والعرب والعجم، كلهم فقراء إلى الله، قال الله ﷻ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾، فليس هذا خاصا بالصوفية؛ حتى يضعوه شعارا لهم، وإنما هو عام لجميع الخلق، كلهم فقراء إلى الله ﷻ.

[٢] هذا الفقر من المال، الذي يستحق صاحبه الصدقات.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [فاطر: ١٥]، [١] وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ صِنْفَيْنِ مِنْ الْفُقَرَاءِ: أَهْلَ الصَّدَقَاتِ وَأَهْلَ الْفَيْءِ، فَقَالَ فِي الصِّنْفِ الْأَوَّلِ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٧٣] [٢].

الشرح:

[١] هذا النوع الثاني، وهو الفقر إلى الله ﷻ. وهذا عام في جميع الناس، كل العباد فقراء إلى الله ﷻ، ليس هذا خاصا بطائفة دون طائفة.

[٢] مدح الله صنفين من الفقراء في القرآن: أحدهما أهل الصدقات؛ كما في آية البقرة، قال ﷻ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾؛ يعني: الصدقات ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: حبسوا، لا يستطيعون السفر لطلب الرزق: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ومع هذا يتعففون، ولا يظهرون للناس فقرهم: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، مدحهم الله ﷻ بهذه الصفات، نعم هؤلاء أهل الصدقات -ووضع الصدقات في هذا الصنف أفضل من وضعها في المتسولين-؛ الذين لا يسألون، وهم فقراء أحق من الذين يسألون، قال ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ

تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ فِي الصِّنْفِ الثَّانِي -وَهُمْ أَفْضَلُ الصِّنْفَيْنِ-: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨]. [١].

الشرح:

[١] الصنف الثاني: هم فقراء المهاجرين، الذين تركوا أموالهم وأوطانهم، وفروا بدينهم إلى بلاد الإسلام، الصحابة فروا بدينهم، ويريدون الجهاد مع رسول الله ﷺ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، هذا قصدهم.

المقصد الأول: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

والمقصد الثاني: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، ثم إن الله أثنى عليهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، فيقدمون في الفيء، وهو ما أفاء الله على رسوله من الغنائم في الجهاد في سبيل الله، يبدأ بالمهاجرين، ثم من بعدهم الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

الطائفة الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] من بعد المهاجرين والأنصار، فهؤلاء لهم نصيبهم في الفيء ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، قال العلماء: فمن كان يبغض الصحابة، فليس له حق من الفيء بنص هذه الآية، من كان يبغض الصحابة، ويجد في نفسه غلًّا عليهم، فإنه لا يستحق من الفيء شيئًا.

وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا السَّيِّئَاتِ. [١].

الشرح:

[١] الهجرة في اللغة هي الترك(١)، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، وهجرة القلوب من الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد. وهي من الترك، ترك الشيء، يقال: هجره، إذا تركه، وأما الهجرة في الشرع، فهي على قسمين: عامة، وخاصة.

فالعامة: هجر كل ما نهى الله عنه من المعاصي والسيئات وجميع المخالفات، هذه هجرة، بمعنى أنه ترك المعاصي وهجرها، ولهذا قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»(٢).

الهجرة العامة: هجرة ما نهى الله عنه من الشرك، ما نهى الله عنه من المعاصي، ما نهى الله عنه من الأذى، وكلام السوء وغير ذلك، هذه الهجرة العامة.

---

(١) هَجَرَهُ هَجْرًا بالفتح وهِجْرانًا بالكسر: صَرَمَهُ، وهَجَرَ الشيءَ: تَرَكَهُ، وفي الصومِ: اعْتَزَلَ فيه عن النكاحِ. ويَهْتَجِرانِ ويَتَهاجَرانِ: يَتَقاطَعانِ، والاسمُ: الهِجْرَةُ بالكسر. وهَجَرَ الشِّرْكَ هَجْرًا وهِجْرانًا وهِجْرَةً حَسَنَةً. والهِجْرَةُ بالكسر والضم: الخُروجُ من أرضٍ إلى أُخرى وقد هاجَرَ. والهِجْرَتانِ: هِجْرَةٌ إلى الحَبَشَةِ وهِجْرَةٌ إلى المدينَةِ. وذو الهُجْرَتَيْنِ: مَنْ هاجَرَ إليهما. انظر: القاموس المحيط (١/ ٦٣٧)، ولسان العرب (٥/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٠، ٦٤٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﭭ.

الهجرة الخاصة: هي الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فرارا بالدين، هذه الهجرة الخاصة، وهي من أفضل الأعمال - كما يأتي -، وذكر ابن القيم رحمه الله أن الهجرة على نوعين: هجرة الأبدان، وهجرة القلوب[1]:

هجرة الأبدان: من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام.

هجرة القلوب: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله؛ من البدعة إلى السنة، هذه هجرة القلوب، هذه هجرة دائمة، كل حياة العبد ينبغي أن يكون مهاجرا بقلبه، أما هجرة الأوطان، فهذه تفعل عند الحاجة إليها، أما هجرة القلوب، فهذه دائمة في حياة المسلم.

---

(١) انظر: الرسالة التبوكية (١/ ١٦).

وَجَاهَدُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، [١] كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» [٢].

الشرح:

[١] فجمعوا بين الهجرتين؛ الهجرة العامة، وهي هجرة ما نهى الله عنه، والهجرة الخاصة، وهي الهجرة بالدين من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

[٢] هذا من الإيمان، ليس هذا هو تعريف الإيمان كله، بل هذا من الإيمان: «**مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**»، أما من لم يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فهذا إيمانه ناقص، ليس بمؤمن الإيمان الكامل، بل إيمانه ناقص.

«**الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**»؛ يعني: المؤمن الإيمان الكامل من أمنه الناس على دمائهم، فلم يسفك دما حراما، لا من المسلمين، ولا من المعاهدين، والمستأمنين: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، نفس المؤمن ونفس المعاهد، حرم الله قتلها، فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وعلى أموالهم، فلايغش، ولا يخون، ولا يسرق، ليست الخيانة بالسرقة فقط، وإنما الغش خيانة أيضا، الغش خيانة في البيع والشراء، ولا يأمنه الناس على أموالهم، ولايأمنونه بالتعامل معه، هذا نقص في إيمانه.

وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، [١] وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، [٢] وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ»[(١)]. [٣].

الشرح:

[١] كذلك هذا الإسلام الكامل: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، فإن لم يسلم المسلمون من لسانه بالكلام عليهم وتنقصهم، أو يده بقتلهم وضربهم وغير ذلك، فهذا ليس بمسلم الإسلام الكامل، ليس معناه أنه كافر، معناه: أنه ليس بمسلم الإسلام الكامل؛ لأنه ترك خصلة من خصال الإسلام، ففيه نقص.

[٢] هذه الهجرة العامة.

[٣] هذا من الجهاد أن يجاهد نفسه، أول ما تجاهد من الأعداء نفسك؛ لأن الجهاد أقسام: جهاد النفس، وهذا أول أنواع الجهاد، ثم جهاد شياطين الإنس والجن، ثم جهاد المنافقين والفساق، ثم جهاد الكفار بالسلاح، فالجهاد أنواع، وأولها جهاد النفس؛ لأن من لم يجاهد نفسه، لم يجاهد بقية أنواع الجهاد.

---

(١) أخرجه أحمد بطوله من حديث فضالة بن عبيد (٦/ ٢٦)، وأخرج بعضه: البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، وأبو داود (٢٤٨١)، والترمذي (٢٥٠٤)، والنسائي (٨/ ١٠٥) وابن ماجه (٢٩٣٤).

أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي يَرْوِيه بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: «رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»، فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ(١).

وَجِهَادُ الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ؛ بَلْ هُوَ أَفْضَلُ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ، [١].

الشرح:

[١] الجهاد الأكبر: جهاد الكفار، ليس جهاد النفس، الجهاد الأكبر: جهاد الكفار بالسلاح، وبذل النفس، والمال في سبيل الله ﷻ، فأفضل أنواع الجهاد جهاد الكفار في سبيل الله ﷻ، أما أنه قال ﷺ لما رجعوا من غزوة تبوك: «رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ»، وهو جهاد الكفار، «إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»، وهو جهاد النفس، هذا لا أصل له، وبعضهم يقول: إن هذا من كلام بعض العلماء، وليس من كلام الرسول ﷺ، وليس له سند يعتمد عليه، ولا هو في الكتب المعروفة، إلا اللهم إذا كان ذكر في بعضها للتنبيه على سنده، وأنه ليس بسند يعتمد عليه، فالحاصل أن سنده لا يحتج به، ومتنه

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٤٩٨) عن جابر ﷺ وذكره المزي في تهذيب الكمال (٢/ ١٤٤) موقوفًا على إبراهيم بن أبي عبلة. وقال العراقي في تخريج الإحياء: رواه البيهقي في الزهد من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف. ا.هـ. انظر: المغني عن حمل الأسفار (٢٥٨٤)، وانظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٥١١). وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٤٦٠)، وقال منكر.

أيضا غير صحيح، ليس جهاد النفس أعظم من جهاد الكفار، جهاد الكفار أعظم؛ لأن الله أثنى على المجاهدين في القرآن، وفضلهم على غيرهم، فكيف يكون جهادًا أصغر، والله عظم من شأنه، وأثنى على أهله، وحث عليه؟!

جهاد الكفار أعظم أنواع الجهاد، وليس جهاد النفس، إذًا يقعد كل واحد بزاوية من بيته، ويقول: أنا أجاهد نفسي، ولا أذهب لأغزو، ولا أعمل شيئًا، كيف أذهب للجهاد الأصغر وأترك الأكبر؟! ويكون الصحابة قد أخطؤوا؛ لأنهم ما قعدوا في بيوتهم يجاهدون أنفسهم، وتركوا الجهاد في سبيل الله!!!

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ١٩-٢٢]. [١].

الشرح:

[١] ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾؛ الذين يقعدون عن الجهاد لا يخلون من إحدى حالتين، الحالة الأولى: أن يكونوا معذورين عندهم ضرر يمنعهم من الخروج للجهاد، معذورون عن الخروج، الفئة الثانية: من قعد عن الجهاد المستحب، وهولا عذر له، ذكر الله الصنفين في هذه الآية: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ يعني من ذوي الأعذار ﴿دَرَجَةًۚ﴾ واحدة، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ الذين لا ضرر عليهم ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦] الجهاد -كما هو معلوم- منه ما هو فرض، ومنه ما هو فرض كفاية، والمراد هنا: ما هو فرض كفاية، الذي إذا قام به من يكفي، بقي في حق سائر المؤمنين سنة، وهذه السنة من أفضل الأعمال.

وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْت عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي إلَّا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ، وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إلَّا أَنْ أُعَمِّرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا ذَكَرْتُمَا، فَقَالَ عُمَرُ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ إذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ سَأَلْته، فَسَأَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(1). [١].

الشرح:

[١] هذا سبب نزول الآية في الحديث، ذكره الشيخ؛ أن هؤلاء النفر من الصحابة رضي الله عنهم بعضهم فضل سقاية الحاج؛ يعني: إعداد الماء للحجاج، وبعضهم فضل عمارة المسجد الحرام على الجهاد في سبيل الله، علي بن أبي طالب رضي الله عنه لفقهه وعلمه فضل الجهاد في سبيل الله على عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، ولما ذكر ذلك للنبي ﷺ، أنزل الله هذه الآية: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩]، فسمى من فضل عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج على الجهاد ظالما، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فوضع الفضيلة في غير موضعها، ثم

(١) أخرجه مسلم (١٨٧٩).

قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٢٠]، هذا رد على من قالوا: إن عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج أعظم درجة عند الله من الجهاد.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ: الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَزَدْته لَزَادَنِي(١). [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث عن عبد الله بن مسعود ﵁ أنه سأل النبي ﷺ: «أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، ثم سأله بعد ذلك، فقال: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، بر الوالدين بعد الصلاة لوقتها في الفضيلة، قال: «ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، فدل هذا على عظمة الصلاة، وعلى أنها تؤدى في وقتها الذي جعلها الله فيه، ودل على فضل بر الوالدين، ومكانته عند الله ﷻ؛ لأن حقهما يأتي بعد حق الله ﷻ، ثم الجهاد في سبيل الله، فبر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله، وهل بعد هذا آكد؟ والنبي ﷺ جاءه رجل يريد أن يجاهد في سبيل الله، قال له: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»(٢). فالذين يذهبون الآن ليجاهدوا بزعمهم، ويتركون والديهم، ولا يستأذنونهم، ويزعمون أن هذا أفضل من بر الوالدين هذا من الجهل - والعياذ بالله -؛ فبر الوالدين مقدم على الجهاد في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤، ٥٩٧٢)، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

سبيل الله. لو كان هذا جهادا في سبيل الله، مع أنه لا تنطبق عليه ضوابط الجهاد في سبيل الله، لكن لو فرضنا أنه جهاد في سبيل الله، وتنطبق عليه ضوابط الجهاد، فبر الوالدين مقدم عليه.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ «حَجٌّ مَبْرُورٌ»(١) [١].

الشرح:

[١] الأحاديث في فضائل الأعمال كثيرة، وتتفاوت، أحيانا يذكر النبي ﷺ هذا، وأحيانا يذكر هذا؛ مما يدل على أن فضائل الأعمال كثيرة -والحمد لله-، وأن الله وسَّع الخير، فأفضل الأعمال إيمان بالله، ثم جهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ثم الحج المبرور، الحج المبرور من الجهاد في سبيل الله، ليس كل الحج، لكن الحج المبرور، الذي تقبله الله من صاحبه، وأداه صاحبه على الوجه المشروع خالصا لوجه الله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فيكون خالصا لوجه الله، ويكون صوابا على سنة رسول الله، ولا يخالطه معصية ولا إثم، هذا هو الحج المبرور.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُهُ» أَوْ «لَا تُطِيقُهُ»، قَالَ فَأَخْبِرْنِي بِهِ قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ وَتَقُومَ وَلَا تَفْتُر»(١) [١].

الشرح:

[١] هذا يدل على فضل الجهاد في سبيل الله، وأن الذي يجاهد في سبيل الله أفضل من الصائم الذي لا يفطر، وأفضل من القائم الذي لا يفتر من القيام، فدل على أن الجهاد هو أفضل الأعمال؛ فلا يستهان بالجهاد في سبيل الله ﷻ، وغرض الشيخ من ذكر هذه الأعمال بيان صفات أولياء الرحمن، أن أولياء الرحمن هم أهل هذه الأعمال الجليلة، وليست الولاية للرحمن مجرد دعوى، أو شكليات، أو هالات حول الشخص، وإنما ولاية الله تقتضي هذه الأعمال الصالحة، هؤلاء هم أولياء الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٣]، كل هذا داخل في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

وَفِي السُّنَنِ عَنْ مُعَاذٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ وَصَّاهُ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ! اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(١) [١].

الشرح:

[١] لما بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل ﷺ لفضله وعلمه ﷺ، أرسله داعيا إلى الله، ومعلما، وقاضيا إلى جهة اليمن، قال له هذه الوصية العظيمة، أوصاه بثلاث كلمات: **«اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت»**؛ لازم تقوى الله، بامتثال أوامره وترك نواهيه، أينما كنت، سواء كنت في اليمن، أو في الشام، أو في مصر، أو في البر، أو في البحر، أو في الجو، **«اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت»**، أو كنت مع الناس، أو خاليا ليس عندك أحد من الناس، لازم تقوى الله ﷻ حيثما كنت، هذه هي التقوى الصحيحة، أما الذي يتقي الله في مكان دون مكان، أو مع الناس، ولكن إذا خلا، اختلف وضعه، فهذا لم يتق الله ﷻ: **«اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْت»**، هذه واحدة، وهي في حق الله ﷻ، وفي حق نفسه، **«وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»**، الإنسان ليس معصوما، يقع منه أخطاء، يقع منه مخالفات، فعليه أن يتوب إلى الله، وأن يتبع السيئة الحسنة؛ تمحها؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، مع التوبة تتبع الطاعة، وتحل محل المعصية طاعة؛ من أجل أن الطاعة تمحو المعصية، تكفرها، **«وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»**،

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧).

هذا فيما بين العبد وبين نفسه، أنه يراعيها، ولا يتركها تعمل ما تشاء، والثالثة: بينه وبين الناس: «وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»؛ رحابة صدر، واستقبال لهم، وانبساط معهم، ولين الجانب معهم، هذا الخلق الحسن، وهو صفة الرسول ﷺ، قال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، فَقَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ)(١)، يعني: يمتثل القرآن الكريم، ويعمل به، هذا خلق الرسول ﷺ، والذي يدعو إلى الله يحتاج إلى الخلق: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه: ٤٤]، فهذه صفات يجب أن يتحلى بها الداعية إلى الله: أن يتقي الله حيثما كان، وأن يتبع السيئة الحسنة تمحها، وأن يخالق الناس بخلق حسن، هذه من أعظم صفات الداعية إلى الله ﷻ. فهؤلاء هم أولياء الرحمن الذين يتصفون بهذه الصفات الثلاث:

الصفة الأولى: يتقون الله حينما كانوا.

الصفة الثانية: ويتبعون السيئة الحسنة تمحها، ولا يتركون الذنوب تحيط بهم وتهلكهم.

الصفة الثالثة: ويخالقون الناس بخلق حسن. الله ﷻ قال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١٣١)، وقال الألباني: صحيح لغيره، كما أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٩١، ١٦٣، ٢١٦).

وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ! إِنِّي لَأُحِبُّك، فَلَا تَدَعُ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعَنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك»(١)، [١].

الشرح:

[١] قال لمعاذ رضي الله عنه أيضا: «إِنِّي لَأُحِبُّك»، هذا فيه فضل معاذ رضي الله عنه، وهو أن الرسول ﷺ يحبه، هذه فضيلة عظيمة لمعاذ، وفيه أن من أحب شخصا لأجل دينه أنه يخبره بذلك، فإن النبي ﷺ أخبر معاذا رضي الله عنه أنه يحبه، «فَلَا تَدَعُ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعَنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك»، وهذا فيه دليل على أن من أحببته أنك توصيه، توصيه بما ينفعه، فالنبي ﷺ لما أحب معاذًا رضي الله عنه، أهدى إليه هذه الوصية العظيمة.

«دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ»: دبر الشيء يفسر بتفسيرين: إما أنه آخره، وإما أنه ما بعده، «دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ» يحتمل أن المراد في آخر كل صلاة، ويحتمل أن المراد بعد السلام من كل صلاة، ولكن الاحتمال الأول أقوى؛ لأن الدعاء في داخل العبادة أفضل من الدعاء خارج العبادة، فالأفضل أن يأتي به داخل الصلاة قبل السلام، وإن قاله بعد السلام، فلا بأس أيضا، لكنه أقل من الأول.

«اللَّهُمَّ أَعَنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك»: هذه صفات أولياء الله تبارك وتعالى، التي من اتصف بها كان من أولياء الله.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٥).

وَقَالَ لَهُ وَهُوَ رَدِيفُهُ: «يَا مُعَاذُ: أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قُلْت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قُلْت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِلَّا يُعَذِّبَهُمْ»(١) [١].

الشرح:

[١] هذه ثلاثة أحاديث، كلها في معاذ رضي الله عنه، فكفى بهذا فضلا لمعاذ رضي الله عنه هذا الحديث الثالث مما قاله النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه.

«**كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ**»؛ يعني: كان راكبا معه على حمار، ففيه جواز الإرداف على الدابة، إذا كانت تطيق ذلك، وفيه تواضع النبي ﷺ؛ حيث إنه كان يركب على الحمار، ويردف معه بعض أصحابه، وفيه فضيلة لمعاذ رضي الله عنه؛ حيث إنه كان رديف النبي ﷺ، وفيه الوصية والتعليم؛ «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»، وفيه أن من سئل وليس عنده علم، أنه لا يستعجل في الجواب، ويسترشد من السائل، ولا يتخرص.

(**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟**)، و(**أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟**): دل على أن الله له حق على عباده، وهو أول الحقوق، وأوجب الحقوق، وآكد الحقوق، وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، وهذا هو الذي خلقهم الله من أجله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، هذا حق الله على عباده، ولا تكفي العبادة، بل لابد أن يجتنب الشرك.

بعض الناس يعبد الله، لكنه يشرك بالله ﷻ، فهذا لا تنفعه العبادة.

«أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ما قال: أن يعبدوه فقط، بل **«وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»**؛ لأن الشرك يبطل العبادة.

و**«حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ»**، فحق الله على العباد هذا واجب، وحق العباد على الله هذا ليس واجبا على الله، وإنما هو حق تفضل الله به على عباده؛ لأن أحدا لا يوجب على الله شيئا، أما الله، فإنه يوجب على العباد، فأوجب عليهم عبادته وتوحيده، وتفضل ﷻ لمن عبده، ولم يشرك به شيئا ألا يعذبه، هذه بشرى عظيمة، وفيها منقبة لمعاذ ﷺ، وهذه صفة أولياء الله ﷻ؛ أنهم يعبدونه، ولا يشركون به شيئا. وفيه فضل التوحيد، وأنه يكفر الله به الذنوب.

وَقَالَ أَيْضًا لِمُعَاذٍ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، [١].

الشرح:

[١] هذا حديث رابع لمعاذ رضي الله عنه.

«رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ»؛ يعني: أول شيء على المسلم أو على العبد، أول شيء على العبد أن يسلم لله ﷻ، ويدخل في دين الله، هذا أول شيء، أن يدخل في دين الله ﷻ، يدخل في الإسلام.

«وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ»: عمود الإسلام الصلاة، فهذا تشبيه للإسلام بالخيمة أو البيت من الشَّعْرِ؛ لأنه لا يقوم إلا على عمود، لا تقوم الخيمة، أو البيت من الشعر، أو من الأدم إلا على عمود، وهذا شيء يعرفه الناس بالفطرة والتجربة، فلو أنك جئت بخيمة، أو ببيت من الشعر، أو من الأدم، أو غير ذلك، وليس معك عمود، لم تنتفع به، ولم تستظل به، حتى يكون معك عمود تقيمه عليه، فالإسلام لا يقوم إلا على الصلاة، فالذي ليس له صلاة لا يقوم له دين، ولا إسلام، وهذا يدل على أن من ترك الصلاة متعمدا، فإنه يكفر؛ لأنه ليس معه عمود الإسلام، عموده الصلاة.

«وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»؛ يعني: أرفع الإسلام وأعلاه الجهاد في سبيل الله، فهذا فيه فضل الجهاد في سبيل الله ﷻ، وأنه أفضل أنواع الطاعات.

وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَبْوَابِ الْبِرِّ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، [١].

الشرح:

(وقال: يَا مُعَاذُ أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَبْوَابِ الْبِرِّ؟): أبواب الخير واسعة كثيرة، أبواب الخير يعني: أنواع الخير، وأنواع العبادات، زيادة على الإسلام على هذه الصفات، أو هذه الأركان للإسلام.

(الصَّوْمُ جُنَّةٌ): والجنة[١] ما يجتن به الإنسان ويتوقى به السلاح، وهو الترس الذي يكون بينه وبين سهام العدو، أو الحصن الذي يتحصن به، فالجنة ما يقيك من السهام؛ سهام العدو، (الصَّوْمُ جُنَّةٌ) بمعنى أنه يقيك من المعاصي، وقاية، فإذا صام الإنسان - هذا شيء معروف -، إذا صام الإنسان، ابتعد عن المعاصي، وأقبل على الطاعة، فهذا من فضل الصيام؛ لأنه يحول بين العبد وبين شهواته، ويشغله بطاعة الله ﷻ، فهذا فيه فضل الصيام.

(وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ) الصدقة على المحتاجين والفقراء والمساكين تطفئ الخطيئة، يكفر الله بها السيئات، كما يطفئ الماء

---

(١) الجُنَّةُ، بالضم: كلُّ ما وَقَى والجُنَّةُ بالضم: ما استترت به من سلاح، والجُنة: السترة والجمع جُنَنٌ، واسْتَجَنَّ بجنة: استتر بسترة، والمِجَنُّ بالكسر الترس، وجمعه: مَجَانٌّ بالفتح. انظر: القاموس المحيط (١/ ١٥٣٢)، ومختار الصحاح (١/ ١١٩)، ولسان العرب (١٣/ ٩٢).

النار، فالخطيئة نار، نوع من النار، والصدقة تطفئها، تطفئ هذه النار. ففيه فضل الصدقة على المحتاجين.

(وَقِيَامُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ)، كذلك التهجد بالليل في جوف الليل، وهو الثلث الأخير من الليل، أو وسط الليل، وهو قيام داود ﷺ، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه(١)؛ يعني: بعد القيام، هذا جوف الليل، فأفضل ما يكون القيام في جوف الليل الأوسط؛ لأنه تنقطع الشواغل، وينام الناس، ولأنه أدل على الإخلاص لله، وأبعد عن الرياء ولأنه يحضر فيه القلب: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، وناشئة الليل هي القيام بعد النوم، وبعد الهجعة.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١٣١، ٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ، صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ، صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا».

ثُمَّ قَرَأَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦-١٧]، [١].

الشرح:

[١] ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٦] يقومون من المضاجع، وهم يحبون النوم، ويحبون الدفء إذا كان وقت برد، ويحب الإنسان أن ينام مع زوجته، لكن يتركون ذلك لله ﷻ، يتركون المضاجع مع محبتهم لها؛ طمعا فيما عند الله ﷻ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، يقومون يدعون الله ﷻ خوفا من عقابه، وطمعا في ثوابه، فهذا فيه دليل على الجمع بين الخوف والرجاء، وأن الإنسان لا يعتمد على الخوف فقط، ويترك الرجاء، ولا يعتمد على الرجاء فقط ويترك الخوف، وإنما يكون بين الخوف والرجاء؛ خوفا وطمعا، هذه طريقة الأنبياء عليهم السلام: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، يتصدقون على المحتاجين، فهم يجمعون بين هذه الخصال، ومنها الصدقة من أموالهم على المحتاجين، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ثم ذكر جزاءهم، فقال ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾؛ كما أنهم أخفوا عملهم عن الناس، وقاموا في جوف الليل، والناس نيام،

فإن الله أخفى جزاءهم، بحيث لا يتصور أحد ما يعطيهم الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]؛ يعني: الجزاء من جنس العمل، فلما آثروا طاعة الله على نومهم وعلى راحتهم، وتصدقوا من أموالهم على حبهم للمال، فإن الله ﷻ ادخر لهم جزاء لا أحد يقدر على وصفه، ولا يدركه أحد، فدل على أن الجزاء من جنس العمل، هذه صفات أولياء الرحمن.

إذا عملت هذه الأعمال، فاحذر مما يحبطها، احذر مما يفسدها، وأعظم ما يفسد الأعمال اللسان، أقرب شيء إلى الإنسان: يسب هذا، ويشتم هذا، ويغتاب هذا، ويسلط لسانه على الناس، فتذهب هذه الأعمال، فعلى الإنسان أن يحبس لسانه عن الكلام السيئ، ويستعمله في ذكر الله ﷻ، وإلا فإنه سيجني عليه لسانه.

ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ أَلَا أُخْبِرُك بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْت: بَلَى! فَقَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْك لِسَانَك هَذَا»، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْك أُمُّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١). [١].

الشرح:

[١] «أَمْسِكْ عَلَيْك لِسَانَك هَذَا»، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ)، أخذ ﷺ بلسان نفسه ليوضح لمعاذ خطر اللسان.

استغرب معاذ رضي الله عنه «قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟»، مع أن الإنسان يتساهل في الكلام، وعنده شيء عادي، دائما يمزح، ويتكلم في الناس، ويسب هذا، ويمدح هذا، ولا له شغل إلا الكلام في الناس، يتساهل الناس في هذا، وعندهم أن الكلام سهل، فقال النبي ﷺ: «ثَكِلَتْك أُمُّك يَا مُعَاذُ»، هذه كلمة في الأصل دعاء، (ثَكِلَتْك أُمُّك) يعني: فقدتك، فقدتك أمك، هذا الأصل، لكن الرسول لا يريد هذا لمعاذ، لا يدعو على معاذ، وإنما هي كلمة تدور على الألسنة، «ثَكِلَتْك أُمُّك يَا مُعَاذُ»، هذا من باب الاستنكار على معاذ؛ لأنه ما تفطن للسان، «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟» التي صدرت من ألسنتهم بالسباب والغيبة والشتم والنميمة، وغير ذلك وشهادة الزور، وأعظم ذلك الكفر

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).

والشرك بالكلام، الأمر خطير جدا، هذا اللسان خطره عظيم، وأنتم تعلمون الذي قال لأخيه العاصي: والله لا يغفر الله لفلان، قال الله ﷻ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[١] قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[٢]؛ كلمة واحدة، الإنسان لا يتساهل بالكلام السيئ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

وَتَفْسِيرُ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»(١). [١] فَالتَّكَلُّمُ بِالْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ السُّكُوتِ عَنْهُ، وَالصَّمْتُ عَنْ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنْ التَّكَلُّمِ بِهِ، [٢].

الشرح:

[١] تفسير قول الرسول ﷺ لمعاذ: «أَمْسِكْ عَلَيْك لِسَانَك هَذَا» يفسره قوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا»؛ من ذكر الله، ومن الدعوة إلى الله، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، يتكلم كلام خير، «أَوْ لِيَصْمُتْ»، وإذا صمت وحبس لسانه، سلم من الإثم، فهو إما أن يتكلم بخير، وإما أن يصمت عن الشر.

[٢] التكلم بالخير خير من السكوت عن الخير، ما نقول: اسكت ولا تقل شيئا أبدا؛ لا خير ولا شر. لا، اسكت عن الشر، وتكلم في الخير، فالسكوت عن الشر خير من الكلام بالشر، والكلام بالخير خير عن السكوت عن الخير، فالسكوت قد يكون خيرا، وقد يكون نقصا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

فَأَمَّا الصَّمْتُ الدَّائِمُ فَبِدْعَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا، [١].

الشرح:

[١] الإنسان ما يؤمر أن يسكت دائما، قول الرسول: «**أَمْسِكْ عَلَيْك لِسَانَك هَذَا**»[1] ليس معناه أنك تصمت دائما، ولا تتكلم بخير، أو ما تكلم بالأمور المباحة، لا، ليس هذا المقصود، المقصود أنك تمسكه عن الشر فقط، فلا يؤخذ من حديث معاذ هذا أن الإنسان يصمت، ولا يتكلم لا بخير ولا بشر، ولا بمباح، هذا ليس عبادة، السكوت ليس عبادة، إلا عن الشر، السكوت عن الشر هو العبادة. فمن زعم أن الصمت الدائم، وأن الإنسان ما يتكلم، ويقول: لأن الرسول ﷺ قال: «**أَمْسِكْ عَلَيْك لِسَانَك هَذَا**»، هذا فهم خاطئ، وهذا بدعة، الله أمرنا بذكر الله، وأمرنا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأمرنا بالدعوة إلى الله، أمرنا أن نتكلم، لكن بالخير.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٣٢).

وَكَذَلِكَ الِامْتِنَاعُ عَنْ أَكْلِ الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَشُرْبِ الْمَاءِ، فَذَلِكَ مِنَ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ أَيْضًا، [١] كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرُوهُ فَلْيَجْلِسْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»(١) [٢].

الشرح:

[١] الصمت الدائم هذا من البدع، الذي يعتقد أنه عبادة، ويقول: أنا أسلم من غوائل اللسان. ولا يحرك لسانه بذكر ولا بشيء، هذا بدعة، كذلك هذا مثل الذي يترك المباح الطيب، ويقول: هذا عبادة، يترك أكل اللحم، يترك أكل الفواكه، يترك اللباس الطيب الحسن، ويقول: هذا عبادة، لا، المباحات الله أباحها: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فالذي يترك المباحات، ويقول: هذه عبادة. هذا بدعة، ترك المباحات تعبدا لله بدعة.

[٢] هذا الرجل نذر أربعة أشياء:

الأولى: أنه يقف ولا يجلس، هذه واحدة.

الثانية: أنه لا يستظل؛ يكون في الشمس.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٠٤).

الثالثة: أنه لايتكلم.

الرابعة: أنه يصوم.

النبي ﷺ أقره على واحدة، وهي الصوم، ونهاه عن البقية، وهي الوقوف الدائم، وعدم الاستظلال بالظل، والصمت عن الكلام الدائم، نهاه عن هذه الأمور، فدل على أنها بدع؛ لأن هذه الأمور بدعة، ولا يتقرب إلى الله بهذه الأشياء.

(فَلْيَجْلِسْ)، هذا مقابل القيام.

(وَلْيَسْتَظِلَّ)، هذا عن عدم الدخول إلى الظلال والبقاء في الشمس.

(وَلْيَتَكَلَّمْ)، هذا عن الصمت الدائم.

(وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ)، أما الصيام، فقد قال ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ»، الصيام طاعة؛ يتمه، ودل هذا الحديث أن من نذر محرما، فإن نذره لا ينعقد، وليس عليه الوفاء به، ولا كفارة عليه، قال ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رِجَالًا سَأَلُوا عَنْ عِبَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيُّنَا مِثْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَلَا أَنَامُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا أَنَا فَلَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا؟! وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١) [١].

الشرح:

[١] وهذا فيه أن من ترك المباحات تعبدا لله، فهو مبتدع، وأن هذا من الغلو في العبادة، والمطلوب الوسط والاعتدال، قال ﷺ: «لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»، دل على أن من ترك هذه الأشياء تقربا إلى الله، فهو مبتدع، وليس عابدا لله ﷻ، وأن الرسول ﷺ بريء منه، «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»؛ هذه البراءة، الرسول بريء من هذا، فهذا الحديث فيه أنه لا يتعبد لله بترك المباحات، وفيه أن الدين دين الوسط، دين الإسلام دين الوسط، بين الغلو وبين الجفاء، لا غلو ولا جفاء، هذا دين الإسلام وسط.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

فقوله: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» أَيْ: سَلَكَ غَيْرَهَا ظَانًّا أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، [١].

الشرح:

[١] لا خير من سنة الرسول ﷺ، فالذي يرى أنه يأتي بعبادة أفضل من عبادة الرسول، هذا ضال -والعياذ بالله-، قد تبرأ الرسول ﷺ منه، وهذا فيه رد على أهل البدع عموما، الذين يتركون سنة الرسول ﷺ، ويأتون بعبادات من عندهم ما أنزل الله بها من سلطان؛ أن الرسول بريء منهم، وفي الحديث الآخر: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، والحديث الآخر: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ»(٢)، والحديث الآخر: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٣).

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] بَلْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ: «أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ بِذَلِكَ كُلَّ يَوْمِ جُمْعَةٍ»(١). [١].

الشرح:

[١] سنة الرسول ﷺ هي ملة إبراهيم ﷺ، والله ﷻ قال: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، هل أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفهاء الذين لا عقول لهم؟ ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾؛ يعني: لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، يعني: يتصف بالسفه، وهو خفة العقل والإدراك؛ لأن ملة إبراهيم هي الملة الحنيفية الكاملة، التي بعث بها رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٣]، والرسول ﷺ قال: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي»(٢)، فهو راغب عن سنة الرسول وراغب عن سنة إبراهيم عليه السلام. ويقول ﷺ: «إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»؛ كل جمعة يقول هذا الكلام من باب التحذير للناس، والحث لهم على التمسك بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٣٨).

فَصْلٌ

وَلَيْسَ مَنْ شَرْطِ وَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا لَا يَغْلَطُ وَلَا يُخْطِئُ؛ [١].

الشرح:

[١] ولي الله كما بينه الله في قوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، فكل مؤمن تقي، فهو ولي لله، وتقدم لنا أنه ليس لأولياء الله علامات يعرفون بها: لا في الأزياء، ولا في المعاملة مع الناس، وإنما هم كسائر الناس، لا يعرفون، فلا يجعلون لأنفسهم دعاية، أو يلبسون لباسا لا يلبسه غيرهم، أو أن يكون لهم أتباع، وهالات حولهم، بل كلما خفي الولي، كان هذا أكمل في ولايته؛ لأن الولاية إخلاص لله ﷻ، فالذي يحب أن يظهر، وأن يمدح، هذا عمله رياء، فلا يكون وليًّا لله ﷻ، فأولياء الله لا يحبون أن يظهروا، ولا أن يمدحوا، ولا أن تكون لهم منزلة خاصة بين الناس، وهذا كما جاء في الحديث: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»(١) أشعث أغبر بمعنى: ليس له جاه، ولا يعرف، ومع هذا «لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»؛ لأنه ولي لله ﷻ، وهذا يدل على إخلاصه؛ كما مر في قصة أويس القرني، الذي أخبر عنه الرسول ﷺ، وهو من وفد اليمن، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه ﭫ: «فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فَافْعَلْ»، فلما جاء

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٨٨).

مع وفد اليمن، كان مختفيا حتى بحث عنه عمر رضي الله عنه، فعثر عليه، طلب منه أن يدعو له، ثم إن عمر قال له: ألا أكتب لك إلى أهل العراق؟ قال: لا، دعني مع عامة الناس، فخرج على وجهه، ولم يعثر له على مكان بعد ذلك، مختفيا(١). هذه واحدة.

الثانية: الآن ليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يخطئ، بل يقع منه خطأ في الاجتهاد، إلا الأنبياء، أئمة الأولياء هم الأولياء، هؤلاء معصومون، الأنبياء عليهم السلام معصومون، أما من عداهم من الأولياء، فإنه

---

(١) عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ، فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فَافْعَلْ». فَاسْتَغْفِرْ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ. قَالَ: أَلاَ أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَوَافَقَ عُمَرَ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ، قَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ، قَلِيلَ الْمَتَاعِ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ، فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ». فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ. قَالَ أُسَيْرٌ: وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً، فَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ: مِنْ أَيْنَ لأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ؟! أخرجه مسلم (٢٥٤٢).

عرضة للخطأ والصواب، فلا يقال: إن الولي لا يخطئ، وكل ما قاله فإنه حق. ويؤخذ كأنه نبي، لا، هذا قول الصوفية مع رؤسائهم، ومع مشايخهم، يعتقدون لهم العصمة، وأنهم لا يخطئون، وأن المريد مع شيخه كالميت مع غاسله، ما يمانع في شيء، ولا يعترض في شيء، يستسلم استسلاما كاملا، هذه عقيدة الصوفية الضالة، فالولي يخطئ ويصيب، ويعترف بالخطأ والصواب، وسيأتيكم من كلام الشيخ رَحِمَهُ الله ما يبين هذا، هذا رد على الذين يقولون: إن الولي معصوم، ولذلك كل ما يصدر عنه، فإنه لا يعترض عليه، ولا يعارض. كما تقوله الصوفية في مشايخها، أو القبورية في مشايخها، وهذه مسألة مهمة جدا.

بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ بَعْضُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، [١] وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ الدِّينِ، حَتَّى يَحْسب بَعْضُ الْأُمُورِ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، [٢].

الشرح:

[١] يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة؛ فيخطئ، يفتي بفتوى، أو يقول قولا، وفي الشريعة ما يخالف هذا القول وهذه الفتوى؛ لأنه لم يطلع عليها، هو ما تعمد المخالفة، لكن لم يطلع عليها، الله ﷻ يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، قال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فالولي لا يعتقد في حقه العصمة، غير الأنبياء ﵈؛ لأن الله عصمهم، فهم يخطئون ويصيبون، ولكنهم يرجعون إلى الحق، ويقبلون النصح، ويشاورون العلماء؛ كما كان عمر بن الخطاب ﵁ -كما يأتي- إذا عرض الأمر، يستشير الصحابة المهاجرين والأنصار، وهو من خواص الأولياء.

[٢] يجوز أن يشتبه عليه بعض الأمور الدينية، فيظن أن هذا سنة، وليس بسنة، هذا صحيح وليس بصحيح؛ لأنه بشر يخطئ ويصيب، ليس معناه أنه إذا صار وليًا أنه خرج عن البشرية، بل هو بشر يخطئ ويصيب.

وَيَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ فِي بَعْضِ الْخَوَارِقِ أَنَّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، [١] وَتَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ لَبَّسَهَا عَلَيْهِ؛ لِنَقْصِ دَرَجَتِهِ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، [٢].

الشرح:

[١] والولي الصادق لا يعتقد أن كل أمر خارق فهو كرامة، بل إنه يخاف أن تكون من الشيطان، فلا يغتر بما يظهر على يديه أنه كرامة، لا يجزم بهذا، قد يكون هذا تغريرًا من الشيطان؛ ليلبس عليه، فهذا من صفات الأولياء أنهم لا يغترون بالكرامات ولا يترفعون بها، وإنما يخفونها، ولا يعتمدون عليها.

[٢] كما سبق لكم أن الخارق للعادة إذا جرى على يد مؤمن تقي، فإنه كرامة، وإذا جرى على يد فاجر شقي، أنه خارق شيطاني، وليس كرامة.

(لِنَقْصِ دَرَجَتِهِ) لينقص درجته، وليغره بها، فالولي لا يغتر بالكرامة، لا تغره الكرامة.

وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ [١] فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ الْخَطَأِ، وَالنِّسْيَانِ، وَمَا أُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(١)، [٢].

الشرح:

[١] وإن لم يخرج بخطئه، إذا أخطأ، لا يخرج من ولاية الله، وهو ولي لله وإن أخطأ؛ لأنه لم يتعمد الخطأ، قد قال ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»(٢)، فهو مأجور غير مأثوم على الخطأ، ويؤجر على الصواب مرتين.

[٢] كما في الحديث قال ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ الْخَطَأِ، وَالنِّسْيَانِ» ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] «وَمَا أُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فالولي إذا أخطأ أو نسي معفو عن خطئه ونسيانه؛ لأنه ليس معصوما.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣)، وابن حبان (١٦/ ٢٠٢)، والطبراني في الكبير (١١٢٧٤)، والأوسط (٨/ ٢٦٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٦)، والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٠)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٦) من حديث ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦]. [١].

الشرح:

[١] ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾: هذه الآيات من آخر سورة البقرة، فيها صفات أولياء الله:

أولًا: أنهم يؤمنون بالله وما أنزل الله ﷻ، يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله.

ثانيًا: أنهم أيضا يؤمنون بما أنزل الله، ولا يعتقدون أنهم يخرجون عن الشريعة؛ لأنهم وصلوا إلى الله، وليسوا بحاجة إلى الشريعة، فهم يؤمنون بما أنزل الله ﷻ، ويتبعونه، ولا يعتقدون أنهم استغنوا عن الشريعة؛ استغنوا عما أنزل الله.

الصفة الثالثة: أنهم يعترفون بالخطأ والنسيان، ويطلبون من الله ﷻ أن يغفر لهم.

الصفة الرابعة: أنهم يقولون: سمعنا وأطعنا، فيسمعون لكلام الله وكلام رسوله، ويتلقونهما بالقبول، ويطيعون الله ورسوله. هذه صفات أولياء الله.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ وَقَالَ: «قَدْ فَعَلْت»، [١].

الشرح:

[١] كل جملة يقول الله: «قَدْ فَعَلْت»؛ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾، قال الله ﷻ: «قَدْ فَعَلْت»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾، قال الله: «قَدْ فَعَلْت»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾، قال الله: «قَدْ فَعَلْت»، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: «قَدْ فَعَلْت»، فاستجاب الله هذه الدعوات، هذه صفة أولياء الله، تؤخذ من مثل هذه الآيات الكريمات. ولاحظوا أنهم اعترفوا أنهم مخطئون، وأنهم ينسون، اعترفوا بهذا، ولم يدعوا العصمة، وأنهم لايخطئون، ولا ينسون.

فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: ٢٨٤]، **قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْهَا قَبْلَ ذَلِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْهُ، [١].**

الشرح:

[١] لما نزل قوله ﷻ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، شق ذلك عليهم مشقة عظيمة؛ أن الله سيحاسبهم عما في ضمائرهم وعما في نفوسهم، هذا صعب، صعب جدا، وجثوا على الركب، وقالوا: كلفنا من العمل ما نطيق، فأطعنا، لكن هذا لا نطيقه، ما جاء في هذه الآية لانطيقه: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾، هذا لانطيقه، فقال النبي ﷺ: **«أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»(٢)**، فعند ذلك أنزل الله قوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ثم نسخ الله هذه الآية بقوله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فتكون هذه الآية ناسخة لما قبلها، بعدما أبدوا الاستعداد للقبول والإيمان بها، وإن كان فيها مشقة عليهم، الله ﷻ عفا عنهم ونسخها، فقال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا»، قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ اللَّهُ: «قَدْ فَعَلْتُ»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ». [١].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. [٢].

الشرح:

[١] الإصر: المشقة، فإن الله عاقب بني إسرائيل، فحملهم المشقة؛ عقوبة لهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، فلما تعنتوا، الله حملهم ما لا يطيقون؛ عقوبة لهم، فهذه الأمة لما قالوا: سمعنا وأطعنا. خفف الله عنهم.

[٢] ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: الذي تتعمده القلوب فيه جناح، لكن ما جاء خطأ أو نسيانا

فإن الله ﷻ لا يؤاخذ هذه الأمة عليه؛ رحمة بها، وتخفيفا عنها؛ لأنهم استسلموا، وآمنوا، ولم يعارضوا مثلما عارض بنو إسرائيل؛ قالوا: سمعنا وعصينا.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما مَرْفُوعًا أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»(١)، [١].

الشرح:

[١] فدل على أن الحاكم يخطئ، وأن المجتهد يخطئ، ولكنه لم يتعمد الخطأ؛ فلذلك عفا الله عنه، وأعطاه أجرا على اجتهاده، هذا من رحمة الله وفضله، والمجتهد المراد به: العالم الذي بلغ رتبة الاجتهاد، مع بلوغه رتبة الاجتهاد قد يخطئ، ولكن الله عفا عنه، وكتب له الأجر على اجتهاده، أما من يقول: من حق كل أحد أن يجتهد: العامي، والجاهل، وكل أحد يجتهد. هذا ضلال - والعياذ بالله -، نجد الآن من يقول: من حق كل مسلم أن يجتهد، ولو كان جاهلا وعاميا، من حقه أن يجتهد. وهذا ضلال مبين -والعياذ بالله-؛ الاجتهاد إنما هو من حقوق العلماء المتأهلين في الاجتهاد؛ كالأئمة الأربعة، ومن شاكلهم ممن توفر فيهم شروط الاجتهاد في استنباط الأحكام، هذا هو أعلى درجات الاجتهاد، هناك اجتهاد أقل منه في الترجيح، الترجيح بين أقوال العلماء يعرضها على الدليل، فيأخذ ما ترجح بالدليل، هذا يسمونه الاجتهاد المذهبي، وهو الاجتهاد في الترجيح.

والنوع الأول يسمى: الاجتهاد المطلق، هذا لا يقوى عليه إلا فحول

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

الأئمة، الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد، أما الاجتهاد الجزئي والاجتهاد الترجيحي، فهذا يقوى عليه من تمرس في طلب العلم، وعرف الأقوال وأدلتها، ولا يجتهد اجتهادًا من عنده مبتكرًا وجديدًا، لا، بل يتبع أقوال العلماء، فيختار منها ما ترجح بالدليل، هذا يسمى الاجتهاد المذهبي.

«وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» هذا الشاهد من الحديث: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ»، فدل على أن العالم المتبحر قد يخطئ.

فَلَمْ يُؤَثِّمِ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ؛ بَلْ جَعَلَ لَهُ أَجْرًا عَلَى اجْتِهَادِهِ، وَجَعَلَ خَطَأَهُ مَغْفُورًا لَهُ، وَلَكِنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُصِيبَ لَهُ أَجْرَانِ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ يَجُوزُ أَنْ يَغْلَطَ لَمْ يَجِبْ عَلَى النَّاسِ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يَقُولُهُ مَنْ هُوَ وَلِيٌّ لِلَّهِ [١].

الشرح:

[١] والأول له أجران؛ أجر عن الاجتهاد، وأجر عن الإصابة.

هذه النتيجة من البحث السابق، من أول الفصل إلى الآن، هذه النتيجة، إذا كان الولي يخطئ أحيانا، وليس معصوما، فلا يلزمنا أن نقبل كل ما يقوله، ونعتقد له العصمة، بل يجب أن نعرض أقواله على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة، فهو مقبول، وما خالفها، فهو مردود، ولا ينقص هذا من قدره؛ لأنه مأجور؛ كما في الحديث: «وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»، هو مأجور، ما نتنقصه؛ لأنه بذل وسعه، ولم يتعمد الخطأ، فلا يتنقص المخطئ من أهل العلم، ونتلمس لهم العثرات، ونتنقصهم، ونتكلم عنهم في المجالس، لا، إذا كانوا علماء، لكن -كما ذكرنا- إذا كانوا ليسوا بأهل اجتهاد، فلا يجوز أن يدخل في الاجتهاد أصلا، وهو مخطئ على كل حال، الذي ليس عنده المؤهلات للاجتهاد المطلق، أو الاجتهاد المذهبي، هذا مخطئ على كل حال، ولو أصاب، فهو مخطئ؛ لأنه ليس عنده مؤهلات

الاجتهاد. كما قال ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ»[١]؛ لأنه ما أصاب نتيجة لأهليته، وإنما أصاب مصادفة فقط، وهو مخطئ؛ لأنه يجتهد، أو يقول في القرآن بغير علم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٩٥٢)، والنسائي في الكبرى (٨٠٨٦) من حديث جندب رضي الله عنه.

لِئَلَّا يَكُونَ نَبِيًّا ؛ [١] بَلْ وَلَا يَجُوزُ لِوَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَا يُلْقَى إِلَيْهِ فِي قَلْبِهِ [٢].

الشرح :

[١] لأن النبي معصوم؛ لأن الأنبياء معصومون.

[٢] الناس لا يقبلون كل ما يقوله قضية مسلمة، حتى يعرض على الدليل، هو بنفسه أيضا لا يعتمد على ما يلقى في نفسه -من الأقوال، أو الهواجس، أو الأشياء-، حتى يعرضها على كتاب الله، ولا يقول: هذه كرامات، وهذه مكاشفات، وهذه. . . ؛ كما يقوله أهل الضلال، بل يعرض ما يلهم وما يقع في روعه، يعرضه على الكتاب والسنة، ولا يقبله دون مراجعة؛ لأن هذا قد يكون من الشيطان، عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الملهم المحدث - كما سيأتي - ما كان يقبل ما يأتيه حتى يعرضه على الكتاب والسنة.

إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، [١] وَعَلَى مَا يَقَعُ لَهُ مِمَّا يَرَاهُ إِلْهَامًا وَمُحَادَثَةً وَخِطَابًا مِنْ الْحَقِّ؛ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ جَمِيعَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَإِنْ وَافَقَهُ قَبْلَهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ لَمْ يَقْبَلْهُ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَمُوَافِقٌ هُوَ أَمْ مُخَالِفٌ؟ تَوَقَّفَ فِيهِ. [٢] وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: طَرَفَانِ، وَوَسَطٌ: [٣].

الشرح:

[١] وذلك بعرضه على الكتاب والسنة، فإذا عرض لك خاطرة في حكم شرعي، رأيت أنه واجب، أو أنه مستحب، أو أنه حرام، أو مكروه، إذا عرض لك شيء، اعرضه على الكتاب والسنة.

[٢] يعرض ما عرض له وعنَّ في نفسه من الأفكار يعرضها على الكتاب والسنة، فإن وافق، فهو حق، وإن خالف، فإنه يتركه، وإن لم يتبين له أنه حق أو غير حق، يتوقف.

[٣] تنبهوا! الناس في هذا الباب مع الأولياء ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: صنف يعتقد لهم العصمة، وأن كل ما يقولونه فهو صواب، وهذا غلو ومبالغة، ومخالف للكتاب والسنة.

الصنف الثاني: صنف لا يلقي لهم بالا، ولا يعتبرهم شيئا، وهذا مخالف للكتاب والسنة أيضا.

الصنف الثالث: صنف توسط، يقول: ما وافق الكتاب والسنة من أقوال الأولياء، فإنه حق، وما خالف، فإنه خطأ. ما يقول: باطل، يقول: خطأ؛ فرق بين الباطل وبين الخطأ، الباطل يتعمده ويقصده، لكن الخطأ لم يتعمده، فيقال: إنه خطأ.

فَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا اعْتَقَدَ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَافَقَهُ فِي كُلِّ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ حَدَّثَ بِهِ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ، وَسَلَّمَ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ. [١] وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا رَآهُ قَدْ قَالَ أَوْ فَعَلَ مَا لَيْسَ بِمُوَافِقٍ لِلشَّرْعِ، أَخْرَجَهُ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ، [٢].

الشرح:

[١] هذا قول الصوفية في مشائخهم الذين يقولون: إنهم أولياء وأقطاب... إلى آخره. لأنهم يقولون: إن الأولياء يتلقون عن الله، ويأخذون عن الله، ولا هم بحاجة إلى الكتاب والسنة. هذا غلو - والعياذ بالله -، وهذا يكون أرفع من الأنبياء، ولذلك يعتقدون أن الأولياء أرفع من الأنبياء.

[٢] هذا الطرف الثاني، الذي يجعل من خطأ العالم أنه خرج عن الشرع بالكلية، وأنه ليس وليًّا لله، هذا غلو في التخطئة، بل هو ولي لله، وإن أخطأ، فخطؤه مغفور؛ كما في الحديث، وكما في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: «قَدْ فَعَلْت»، فهو لا تزول عنه الولاية بسبب أنه أخطأ خطأ عن اجتهاد، لا تزول عنه الولاية؛ يخطئ وهو ولي.

وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا. [١] وَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا، وَهُوَ أَنْ لَا يُجْعَلَ مَعْصُومًا وَلَا مَأْثُومًا إِذَا كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا، فَلَا يُتَّبَعُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ، وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكُفْرِ وَالْفِسْقِ مَعَ اجْتِهَادِهِ. [٢].

الشرح:

[١] إذا كان ما خالف فيه الشرع لم يتعمده، وإنما هو اجتهد، وظن أنه على صواب، فهذا مخطئ ومأجور على اجتهاده، ولا تزول عنه الولاية لله ﷻ، فإن أولياء الله يخطئون عن اجتهاد، أما إذا خالف شرع الله متعمدا، واستباح المحرمات متعمدا، فهذا يخرج عن ولاية الله ﷻ، إذا تعمد الفجور، وتعمد الفسق، ويزعم أنه ولي لله، وأنه ما يضره هذه الأفعال، فهذا يخرج عن ولاية الله إلى ولاية الشيطان.

[٢] مع اجتهاده، أما إذا كان متعمدا، فيحكم عليه بالكفر والفسق؛ لأن هذا ما هو اجتهاد، هذا تمرد، فلاحظوا هذا.

وَالْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، [١] وَأَمَّا إِذَا خَالَفَ قَوْلَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ وَوَافَقَ قَوْلَ آخَرِينَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يُلْزِمَهُ بِقَوْلِ الْمُخَالِفِ، وَيَقُولَ: هَذَا خَالَفَ الشَّرْعَ. [٢].

الشرح:

[١] الواجب على الناس جميعا - الأولياء وغير الأولياء - أن يتبعوا ما أنزل الله ﷻ، لا أحد يخرج عما أنزل الله، كلهم عباد لله، ويجب عليهم اتباع ما أنزل الله، ولا أحد يدعي أنه خرج عن اتباع ما أنزل الله، وصار وليًا لله، ولا حرج عليه، وأنه يفعل ما يشاء، ويقول ما يشاء؛ لأنه ولي، هذا ولي للشيطان، وليس وليًا للرحمن. قال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]؛ يعني: فيما اختلفوا فيه، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، فأقسم على نفي الإيمان عمن لم يحكم رسول الله ﷺ في كل اختلاف، فإنه انتفى عنه الإيمان.

[٢] إذا صار الخلاف بين العلماء متوازنا، لم يظهر الدليل مع أحدهم، بل كل منهم يحتمل أنه على دليل، ومصيب، كل منهم يحتمل، فهنا لا إنكار في مسائل الاجتهاد، أما إذا كان الدليل ظهر مع أحد العلماء، فيجب أخذ قول من ظهر معه الدليل، وترك قول من خالف الدليل، أما الذين يقولون: إن الخلاف رحمة، والناس يتخيرون من الأقوال ما يوافق أهواءهم ورغباتهم.

مثل ما ينادى به الآن في الصحف وفي المنتديات، وأن أقوال العلماء كلها سواء، وبأي شيء أخذنا، فهذا من التوسعة. هذا كلام باطل، لابد من الأمرين: أولا: ألا يظهر الدليل مع أحد المختلفين، كل يحتمل أنه هو المصيب، فهذا لامشاحة في الاجتهاد، ولا يفرض قول أحد على أحد؛ لأن كلًا منهما متساوٍ مع الآخر، أما إذا ظهر الدليل مع أحد الأقوال، فيجب علينا أن نأخذ به، سواء وافق أهواءنا، أو خالف أهواءنا.

فإذا لم يظهر الدليل. لأنه ما خالف الشرع، وإنما خالف قول عالم إلى عالم آخر متساو معه في عدم ظهور الدليل على قوله، كل واحد منهم يحتمل أنه هو المصيب؛ لعدم ظهور الدليل، هذا الذي يقال: لامشاحة في الاجتهاد، أو لا إنكار في مسائل الاجتهاد. المسائل التي لم يظهر الدليل فيها مع أحدهم.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ مِنْهُمْ»(١) [١].

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَمْ أُبْعَثْ فِيكُمْ لَبُعِثَ فِيكُمْ عُمَرُ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هو محدث وملهم بشهادة الرسول ﷺ، وقد وافق القرآن في أشياء؛ قال قولا، فنزل القرآن بموافقته، بلغ إلى هذه المرتبة من العلم والمزية، ومع هذا عمر يخطئ أحيانا، وسيأتي لكم أمثلة مما وقع له رضي الله عنه، واعترف هو بذلك، فلم يكن معصوما، مع أنه من سادات أولياء الله عز وجل، وشهد له الرسول ﷺ بأنه محدَّث وملهم، ومع هذا ليس معصوما، فكيف بغيره؟!

[٢] هذا ورد عن الرسول ﷺ، لكن فيه كلامًا، الحديث هذا فيه كلام، ولكن الشيخ ساقه معتمدا عليه؛ بناء على من قواه، ويشهد له أحاديث أخرى بأن عمر محدث في هذه الأمة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٩٤)، ولم أجده بهذا اللفظ عند الترمذي، والذي في الترمذي سيذكره الشيخ، وسيأتي تخريجه بعد حديث. وقال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٢٠): لا يصح عن رسول الله ﷺ ففي سنده وضاع ومتروك. ا. هـ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»(١) وَفِيهِ: «لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرُ»(٢). [١].

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ يَقُولُ: «مَا كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»(٣)، ثَبَتَ هَذَا عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ الشَّعْبِيِّ.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ: «مَا كَانَ عُمَرُ يَقُولُ فِي شَيْءٍ: إِنِّي لَأَرَاهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا يَقُولُ»(٤) [٢].

الشرح:

[١] شهادة من الرسول ﷺ لعمر، ومع هذا وقعت له أخطاء، فكيف بغيره؟! ومن يدعي العصمة لغيره؟!

[٢] لو كان. وسيأتيكم أمثلة من آراء عمر التي نزل القرآن بموافقتها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٦١-٢٩٦٢)، والترمذي (٣٦٨٣)، وصححه، وابن ماجه (١٠٨)، وأحمد (٥/ ١٤٥)، وابن أبي عاصم (١٢٤٨)، والطبراني في الكبير (١٠٧٧) بألفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨٦)، وقال: حسن غريب. وأحمد (٤/ ١٥٤)، والطبراني في الكبير (٨٢٢)، والحاكم (٣/ ٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٠٦)، وعبدالرزاق في المصنف (١١/ ٢٢٢)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٨).

(٤) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٦٨٢).

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ طَارِقٍ قَالَ: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عُمَرَ يَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ مَلَكٌ»(١).

وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه يَقُولُ: «اقْتَرِبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ، وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ، فَإِنَّهُ تَتَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ»(٢). [١].

وَهَذِهِ الْأُمُورُ الصَّادِقَةُ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عنه أَنَّهَا تَتَجَلَّى لِلْمُطِيعِينَ هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي يَكْشِفُهَا اللَّهُ عز وجل لَهُمْ. فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُخَاطَبَاتٍ وَمُكَاشَفَاتٍ. [٢].

الشرح:

[١] المطيعون لله عز وجل الله تبارك وتعالى قد يلهمهم الصواب، فيقبل منهم ما لا يقبل من غيرهم، لكن لا يدعى لهم العصمة، وإنما هم أحرى من غيرهم بالصواب.

[٢] المخاطبات والمكاشفات والتحديث إنما يلقيه الملك على لسان عمر أو غيره؛ بسبب إيمانه وقوة يقينه، وقوة علمه.

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (٧/ ٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥١) قال: قال عمر رضي الله عنه «جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً».

فَأَفْضَلُ هَؤُلَاءِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنهما، فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ(١) [١].

الشرح:

[١] أبو بكر صديق، وعمر محدَّث رضي الله عنهما، والصديق أفضل من المحدث، الصديق هو كثير الصدق، فلا يصدر عنه كذب، ولا يكذب شيئا مما جاء عن الله ورسوله، ولا يقع في نفسه مما فعله الرسول ﷺ، هذا ما وصل إليه إلا أبو بكر؛ كما سيأتي: في قصة الحديبية، وفي وفاة الرسول ﷺ، وفي قتال أهل الردة ومانعي الزكاة، هذه مواقف لأبي بكر لم يقفها غيره، حتى الصحابة عندها حصل عندهم شيء من التردد، إلا أبا بكر رضي الله عنه، فإنه ثبت ثبات الجبال، وكانت العاقبة حميدة، فعرفوا أن أبا بكر على الصواب رضي الله عنه؛ فهو أفضل من عمر رضي الله عنه.

---

(١) كما أخرج البخاري (٣٦٥٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنهم».
وأخرج البخاري (٣٦٧١)، وأبو داود (٤٦٢٩) «عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ قُلْتُ لأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ. قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ عُمَرُ. وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ ثُمَّ أَنْتَ قَالَ مَا أَنَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ تَعْيِينُ عُمَرَ بِأَنَّهُ مُحَدَّثٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ(١)، [١] فَأَيُّ مُحَدَّثٍ وَمُخَاطَبٍ فُرِضَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه يَفْعَلُ مَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ، فَيَعْرِضُ مَا يَقَعُ لَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، [٢] فَتَارَةً يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ. [٣].

الشرح:

[١] ليس هذا قاصرا على عمر، فقد يوجد في بعض المؤمنين شيء من هذا، لكن عمر أفضل من جميع من وقع له شيء من هذه الأمور، ومع هذا وقعت له أخطاء. هذا غرض الشيخ رحمه الله؛ أن الولي مهما بلغ، فإنه ليس معصوما.

[٢] هذا عمر مع ما أعطاه الله من المنزلة في العلم، وانكشاف الأمور له، ما كان يعتمد على ما يعرض له من التحديث أو من المكاشفة، ما كان يعتمد على هذا، بل كان يعرض هذا على سنة الرسول ﷺ.

[٣] نزل القرآن بموافقة عمر في أمور ثلاثة(٢):

الأمر الأول: في أسرى بدر، لما أسر المسلمون سبعين أسيرا من صناديد المشركين، استشار الرسول ﷺ أصحابه: ماذا يفعل بهم؟ فبعضهم رأى أنه

(١) سبق الحديث وتخريجه (ص ٣٦٥).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩) واللفظ له: عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ: «وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَفِي الْحِجَابِ، وَفِي أُسَارَى بَدْرٍ».

يأخذ الفداء ويطلقهم، ومن هؤلاء أبو بكر رضي الله عنه، أما عمر، فقال: لا، لابد من ضرب أعناقهم، هذه أول غزوة للمسلمين، فلابد من ضرب أعناقهم؛ حتى يرتدع غيرهم. فأنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨]، فجاء القرآن بموافقة عمر في أن الصواب أن يقتلوا، ولا تؤخذ منهم الفدية. هذه واحدة.

الثاني: أنه قال للرسول ﷺ: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

الثالث: مسألة الحجاب: أشار عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن تحتجب أزواجه، فقال: الناس يدخلون عليك، ويأتيك ناس، فلابد أن نساءك يحتجبن عن الرجال، فأنزل الله آية الحجاب ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فوافق عمر ربه في هذه الأمور الثلاثة.

كَمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ[(١)]، [١] وَتَارَةً يُخَالِفُهُ فَيَرْجِعُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ؛ كَمَا رَجَعَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، لَمَّا كَانَ قَدْ رَأَى مُحَارَبَةَ الْمُشْرِكِينَ، [٢].

الشرح:

[١] في أسرى بدر، وفي مقام إبراهيم، وفي الحجاب؛ لأنه كان في أول الإسلام، كان في أول الإسلام النساء تكشف وجوهها، هذا في أول الإسلام، ثم نسخ ذلك، وأُمرت النساء بالحجاب.

[٢] يوم الحديبية هذا مما أخطأ فيه عمر ﷺ مع ما له من المنزلة، أخطأ في هذا؛ لأن الرسول ﷺ لما جاء معتمرا هو وأصحابه، ومعهم الهدي سنة ست من الهجرة، صدهم المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، صدوهم عن المسجد الحرام، وبقوا في الحديبية أياما، والمشركون يرسلون إليه الرسل للمفاوضة معه، فتفاوضوا، واصطلحوا على أن الرسول يرجع هذه السنة هو وأصحابه، يرجعون إلى المدينة، وأن يعتمروا من العام القادم عمرة القضية، شق ذلك على عمر ﷺ، وقال: كيف نرجع؟ ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! قال الرسول ﷺ: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟! قال الرسول ﷺ: بلى. قال: ألست أخبرتنا أننا سندخل ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]؟! قال: بلى، لكن هل قلت لك: إنه هذه

---

(١) انظر: (ص ٣٦٩).

السنة، لابد أن تدخلوا ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾، ثم ذهب عمر إلى أبي بكر، لما رأى الرسول ﷺ مصمما على ما هو عليه، ذهب إلى أبي بكر، وقال له: الأمر ليس سهلًا علينا، فقال أبو بكر: إنه رسول الله، فاستمسك بغرزه، فهذا موقف أبي بكر رضي الله عنه، الذي امتاز به على عمر، قال: إنه رسول الله، وليس لنا مراجعة مع رسول الله ﷺ، فعند ذلك سلم عمر رضي الله عنه، كانت النتيجة للمسلمين، وسماها الله فتحا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، هذا صلح الحديبية، أما فتح مكة، فهو مذكور في سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١]، هذا فتح مكة، لكن ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١] هذا صلح الحديبية، صار فتحا للمسلمين، أظهر الله الإسلام، وأذل الكفر، وصار الناس في حرية، الذين يريدون أن يسلموا يسلموا، ولا أحد يعارضهم، والذين يريدون الهجرة يهاجرون ولا أحد يعارضهم، ووضعت الحرب أوزارها، فصارت المصلحة والنتيجة للمسلمين، فأدرك عمر رضي الله عنه أنه أخطأ، ولهذا قال: أيها الناس، اتهموا الرأي في الدين[1]، فلو رأيتني يوم أبي جندل - أبو جندل سهيل بن عمرو رضي الله عنه كان مسلما صحابيا - وهو في قبضة المشركين، وقد فاوضوا الرسول ﷺ على أن من جاءه من المسلمين

---

(١) عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا، فَوَاللَّهِ مَا آلُو عَنِ الْحَقِّ، وَذَلِكَ يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ... أخرجه البزار (١/ ٢٥٤)، والطبراني (١/ ٧٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٢٦)، والضياء (١/ ٣٢٥). قال الهيثمي (١/ ١٧٩): رجاله موثقون، وإن كان فيهم مبارك بن فضالة.

يرده على المشركين، فرد أبا جندل، وقال: سيجعل الله له فرجا ومخرجا، شق ذلك على عمر رضي الله عنه؛ لأنه لم يدرك العاقبة التي أرادها الله عز وجل: **(اتهموا الرأي في الدين، فلو رأيتني يوم أبي جندل على أن أرد أمر رسول الله ﷺ وأجتهد ولا آلو)**، فأدرك خطأه رضي الله عنه، لما ظهرت النتائج العظيمة للمسلمين هذه واحدة.

(كَمَا رَجَعَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ) رجع عن رأيه يوم الحديبية، واستسلم، وعرف النتيجة.

وَالْحَدِيثُ مَعْرُوفٌ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ[(١)]؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ اعْتَمَرَ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ الْهِجْرَةِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَكَانَ قَدْ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ مُرَاجَعَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وَيَعْتَمِرَ مِنْ الْعَامِ الْقَابِلِ، وَشَرَطَ لَهُمْ شُرُوطًا فِيهَا نَوْعُ غَضَاضَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الظَّاهِرِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم وَأَحْكَمَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ، وَكَانَ عُمَرُ فِيمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ، حَتَّى قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَفَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَهُوَ نَاصِرِي، وَلَسْت أَعْصِيه». ثُمَّ قَالَ: أَفَلَمْ تَكُنْ تُحَدِّثُنَا أَنَّا نَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: «أَقُلْت لَك أَنَّك تَأْتِيه الْعَامَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «إنَّك آتِيه وَمُطَوِّفٌ بِهِ». [١].

الشرح:

[١] هو يرى محاربة المشركين، ولا يرى الرجوع، والرسول ﷺ يرى الرجوع والصلح.

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥).

فَذَهَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﵁ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ مِثْلَ جَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ يَسْمَعُ جَوَابَ النَّبِيِّ ﷺ، [١] فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ أَكْمَلَ مُوَافَقَةً لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ عُمَرَ، [٢] وَعُمَرُ ﵁ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا[1] [٣].

الشرح:

[١] وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ [الفتح: ٢٧]؛ يعني: قبل ذلك ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهو صلح الحديبية.

[٢] أبو بكر ﵁ ما سمع كلام الرسول ﷺ لعمر، ومع هذا قال: عين الصواب، قال: هو رسول الله ﷺ، فوافق جواب الرسول وهو ما سمعه.

[٣] يعني اعترف بخطئه، وعمل أعمالا تمسح أو تكفر هذا الشيء.

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٢٧٣١- ٢٧٣٢) في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

وَكَذَلِكَ لَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْكَرَ عُمَرُ مَوْتَهُ أَوَّلًا ، فَلَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّهُ مَاتَ، رَجَعَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ(١) [١].

الشرح :

[١] هذا الموقف الثاني : لما مات النبي ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه بالسمح (ناحية من المدينة فيها نخل له)، فلما مات النبي ﷺ، هاج الناس، واضطربوا، وفيهم عمر يتوعدهم، ويقول: الرسول ما مات، وإنما ذهب إلى ربه؛ كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام، وسيأتي، ويقتل أناسا، ويقطع أيديهم وأرجلهم، ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه، فدخل على النبي ﷺ وهو مسجى، فكشف الغطاء عن وجهه، وعلم أنه قد مات، قبله وبكى، ثم خرج إلى الناس، وعمر رضي الله عنه يهددهم، ويخطب، قال: على رسلك يا عمر، فنزل عمر من المنبر، وصعد أبو بكر رضي الله عنهما، فقال: أيها الناس، من كان يعبد محمدا، فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) عن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النبي ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ - قَالَ: إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي بِالعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، . . .» الحديث.

ثم تلا قوله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فعند ذلك علم عمر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قد مات، فأسقط بين يديه، وجثا على الأرض، لا يستطيع القيام، لما تحقق أن الرسول ﷺ قد مات، هذا موقف أبي بكر رضي الله عنه، وهو موقف الإيمان الذي لا يتزعزع، فعمر رضي الله عنه في هذا حصل منه تردد، وأبو بكر رضي الله عنه ما حصل منه أي تردد، بل ثبت ثبات الجبال على مصيبة ما نزل بالعالم مثلها، هذه قوة الإيمان، وشجاعة أبي بكر رضي الله عنه، هذا مما يدل على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الأمة.

(**فَلَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ مَاتَ، رَجَعَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ**)، فعمر رضي الله عنه ولي من سادات الأولياء، ومع هذا أخطأ في هذا، فدل على أن الولي يخطئ، وليس معصوما.

وَكَذَلِكَ فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: «كَيْفَ نُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «أَلَمْ يَقُلْ: إِلَّا بِحَقِّهَا؟ فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا، وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا». قَالَ عُمَرُ: «فَوَاَللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْت اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ»(١). [١].

الشرح:

[١] الموقف الثالث: الردة، لما توفي الرسول ﷺ وارتد كثير من العرب ومنعوا الزكاة، صمم رضي الله عنه على قتالهم، فقال له عمر والصحابة: كيف تقاتلهم، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله؟! والنبي ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّها، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ» - وما انتبهوا لقول الرسول ﷺ: «إِلَّا بِحَقِّها»-، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها، والرسول ﷺ قال: «إِلَّا بِحَقِّها»، وإن الزكاة من حق لا إله إلا الله، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. فلما رأوا تصميم أبي بكر، عرفوا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠)، وفيه: لو منعوني عقالًا، بدل: عناقًا.

أنه على الحق، فوافقوه، وقاتلوا المرتدين، وكانت النتيجة أن الله خذل المرتدين، وثبت الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، هذه مواقف أبي بكر رضي الله عنه التي لم يقفها غيره، وهي مواقف في الشدة أشد ما يكون من الكرب، ومع هذا وقف، وثبت ثبات الجبال رضي الله عنه حينما تضعضع غيره.

ولهذا قالوا: إن ما أحد يخطئ، ويستدل بدليل من القرآن والسنة إلا وفي ذلك الدليل ما يرد عليه، فأبو بكر رد عليهم بكلمة من هذا الدليل الذي معهم، وهو قوله ﷺ: «إِلَّا بِحَقِّها».

وَلِهَذَا نَظَائِرُ تُبَيِّنُ تَقَدُّمَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى عُمَرَ مَعَ أَنَّ عُمَرَ ﷺ مُحَدَّثٌ، فَإِنَّ مَرْتَبَةَ الصِّدِّيقِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُحَدَّثِ؛ [١] لِأَنَّ الصِّدِّيقَ يَتَلَقَّى عَنْ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ، [٢] وَالْمُحَدَّثُ يَأْخُذُ عَنْ قَلْبِهِ أَشْيَاءَ، وَقَلْبُهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ. [٣].

الشرح:

[١] فأبو بكر صديق، وعمر محدث، والصديق أفضل من المحدث، يتضح هذا من مواقف أبي بكر ﷺ في هذه الشدائد العظيمة، التي تتهاوى لها الجبال الرواسي.

[٢] هذا الفرق بين الصديق والمحدث؛ لأن الصديق لا يأتي بشيء من عنده أبدا، وإنما يتلقى عن الرسول ﷺ كل ما يقوله، أما المحدث، فقد يأخذ شيئا مما يحدث به في نفسه، وهذا قد لا يكون صوابا، قد يكون خطأ.

[٣] ليس بمعصوم، قد يخطئ الإنسان، إذا اعتمد على غير الكتاب والسنة، قد يخطئ.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم وَيُنَاظِرُهُمْ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ(١)،[١].

الشرح:

[١] مع ما أعطاه الله من الإلهام والإدراك، ما كان يعتمد على رأيه، وإنما يشاور الصحابة فيما يعرض من الأمور، ويجمعهم، يجمع المهاجرين والأنصار، ويعرض عليهم المشكلة، ويأخذ آراءهم في هذا، ما قال: أنا الخليفة، وأنا محدث وملهم، وشهد لي النبي ﷺ، وأنا وافقت القرآن في أشياء. لم يغتر بهذه الأمور، بل كان يراجع.

---

(١) من ذلك ما رواه البخاري (٣٤٧)، ومسلم (٣٦٨) عن شَقِيقٍ قال: «كنت جَالِسًا مع عبد اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فقال له أبو مُوسَى لو أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فلم يَجِدْ الْمَاءَ شَهْرًا أَمَا كان يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ في سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فقال عبد اللَّهِ لو رُخِّصَ لهم في هذا لَأَوْشَكُوا إذا بَرَدَ عليهم الْمَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ قلت وَإِنَّمَا كَرِهْتُمْ هذا لِذَا قال نعم فقال أبو مُوسَى أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ بَعَثَنِي رسول اللَّهِ ﷺ في حَاجَةٍ فَأَجْنَبْتُ فلم أَجِد الْمَاءَ فَتَمَرَّغْتُ في الصَّعِيدِ كما تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ فَذَكَرْتُ ذلك لِلنَّبِيِّ ﷺ فقال إنما كان يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً على الأرض ثُمَّ نَفَضَهَا ثُمَّ مَسَحَ بها ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ أو ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ ثُمَّ مَسَحَ بها وَجْهَهُ فقال عبد اللَّهِ أَفَلَمْ تَرَ عُمَرَ لم يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ وزاد يَعْلَى عن الْأَعْمَشِ عن شَقِيقٍ كنت مع عبد اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى فقال أبو مُوسَى أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَنِي أنا وَأَنْتَ فَأَجْنَبْتُ فَتَمَعَّكْتُ بِالصَّعِيدِ فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ فقال إنما كان يَكْفِيكَ هَكَذَا وَمَسَحَ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ وَاحِدَةً. وفي أحد روايات مسلم أن عمر قال لعمار: اتَّقِ اللَّهَ يا عَمَّارُ قال إن شِئْتَ لم أُحَدِّثْ بِهِ فقال عُمَرُ نُوَلِّيكَ ما تَوَلَّيْتَ».

وَيُنَازِعُونَهُ فِي أَشْيَاءَ، فَيَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، [١] وَيُقَرِّرُهُمْ عَلَى مُنَازَعَتِهِ وَلَا يَقُولُ لَهُمْ: أَنَا مُحَدَّثٌ مُلْهَمٌ مُخَاطَبٌ فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَقْبَلُوا مِنِّي وَلَا تُعَارِضُونِي. [٢].

فَأَيُّ أَحَدٍ ادَّعَى، أَوْ ادَّعَى لَهُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ مُخَاطَبٌ يَجِبُ عَلَى أَتْبَاعِهِ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، وَلَا يُعَارِضُوهُ، وَيُسَلِّمُوا لَهُ حَالَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ وَهُمْ مُخْطِئُونَ، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ، [٣].

الشرح:

[١] ما يقول هذا، يشاورهم، ويستعرض آراءهم، وتعرض على الكتاب والسنة، فيأخذ ما وافق الكتاب والسنة، سواء كان رأيه أو رأي غيره.

[٢] أي ولي لله يرى أنه لا يراجع، ولا أحد يعترض عليه، هذا مخطئ، الولي لله هو الذي يتهم نفسه، ويتهم رأيه، ويرجع إلى الكتاب والسنة، ويسلم لله ولرسوله، ولا يأخذ برأيه، هذا هو ولي الله ﷻ، وهذا هو عمر رضي الله عنه.

[٣] الذي يعتقد أن الولي معصوم، وأنه يؤخذ عنه، ولا يراجع الكتاب والسنة، هذا من أضل الناس - والعياذ بالله -؛ لأن الأنبياء معصومون لا يتطرق الشك إليهم أو الخطأ، وإنما غيرهم عرضة للخطأ، ولو كان أفضل الناس بعد الأنبياء كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ أَفْضَلُ مِنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُنَازِعُونَهُ فِيمَا يَقُولُهُ، وَهُوَ وَهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(١)، وَهَذَا مِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ

---

(١) من ذلك ما رواه أحمد (١/ ٣٣٧) بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ ﷺ» فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ؟ قَالَ: يَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ، أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر».

وأخرج ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ٢٠٨) قال: «قَالَ عُرْوَةُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ؟ تُرَخِّصُ فِي الْمُتْعَةِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَلْ أُمَّكَ يَا عُرْوَةُ، فَقَالَ عُرْوَةُ: أَمَّا أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ فَلَمْ يَفْعَلَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكُمْ مُنْتَهِينَ حَتَّى يُعَذِّبَكُمُ اللَّهُ، أُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُحَدِّثُونَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، فَقَالَ عُرْوَةُ هُمَا أَعْلَمُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَتْبَعُ لَهَا مِنْكَ». وقول ابن عباس ﷺ لعروة بن الزبير: «سَلْ أُمَّكَ»؛ لأنها شهدت حجة الوداع مع رسول الله ﷺ وتمتعت.

وأخرج الترمذي (٨٢٤) عن ابن عمر ﷺ أنه سأله سائل عن متعة الحج فقال ابن عمر: «هِيَ حَلَالٌ، فَقَالَ الشَّامِيُّ: إِنَّ أَبَاكَ قَدْ نَهَى عَنْهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَبِي نَهَى عَنْهَا وَصَنَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَأَمْرَ أَبِي نَتَّبِعُ؟ أَمْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟، فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: لَقَدْ صَنَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

وأخرج البخاري (٩٠٠) عن ابن عمر ﷺ قال: «كَانتِ امرأةٌ لِعُمَرَ تَشهَدُ صلاةَ الصُّبحِ والْعِشاءِ في الجماعةِ في المسجدِ، فقيلَ لها: لِمَ تخرُجينَ وقدْ تَعلَمينَ أنَّ عُمَرَ يَكرَهُ ذلكَ ويَغارُ؟ قالتْ: وما يَمنَعُهُ أنْ يَنهاني؟ قالَ: يَمْنَعُهُ قَوْلُ رسول اللَّهِ ﷺ لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ».

وأخرج مسلم (٤٤٢) عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا، قَالَ: فَقَالَ بِلَالُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: وَاللهِ لَنَمْنَعُهُنَّ، =

. . . .

= قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ: فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَقَالَ: «أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَقُولُ: وَاللهِ لَنَمْنَعُهُنَّ».

وعمر ﷺ لما أراد منع أبي بكر ﷺ من قتال مانعي الزكاة، ولم يقبل قوله، فاستدل أبو بكر بقوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إله إلا اللَّه. . . » الحديث، فانشرح صدر عمر لما أمر به أبو بكر من قتال مانعي الزكاة.

وقد ورد في تعظيم الأئمة للسنن مثل ذلك، قال الترمذي في تعليقه على الحديث رقم (٩٠٦) في إشعار الهدي بعد كلام: (قال أبو السائب كنا عند وكيع، فقال رجل قدري: وعن إبراهيم النخعي أن الإشعار مُثْلة، قال: فرأيت وكيعًا غضب غضبًا شديدًا وقال: أقول لك قال رسول الله ﷺ وتقول: قال إبراهيم، ما أحقك بأن تحبس ثم لا تخرج حتى تنزع عن قولك هذا).

وأما الأئمة الأربعة فإن كلًّا منهم صرح بأنه لا يقدم قوله على قول رسول الله ﷺ، فقد قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢/ ٢٠٠)، وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة، فقال الشافعي: «مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري ذكره البيهقي».

وقال إسماعيل بن يحيى المزني في أول مختصره: (اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله: لأقربه على من أراده مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه).

وقال أبو داود: (قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبع من مالك، قال: لا تقلد دينك أحدًا من هؤلاء ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعي بعد الرجل فيه مخير. وقد فرق أحمد بين التقليد والاتباع فقال أبو داود سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه ثم هو من بعد في التابعين مخير. وقال أيضًا: لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الثوري ولا الأوزاعي وخذ من حيث أخذوا. وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال).

وقال أبو يوسف: (لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا). =

صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ يَجِبُ لَهُمْ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ اللَّهِ ﷻ، وَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ؛ بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لَا تَجِب طَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ وَلَا الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ؛ بَلْ يُعْرَضُ أَمْرُهُمْ وَخَبَرُهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَا وَافَقَ الْكِتَاب وَالسُّنَّةَ وَجَبَ قَبُولُهُ، وَمَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مَرْدُودًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكَانَ مُجْتَهِدًا مَعْذُورًا فِيمَا قَالَهُ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِ. لَكِنَّهُ إذَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مُخْطِئًا وَكَانَ مِنْ الْخَطَإِ الْمَغْفُورِ إذَا كَانَ صَاحِبُهُ قَدْ اتَّقَى اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وَهَذَا تَفْسِيرُ قوله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. [١].

الشرح:

[١] لا ينقص ذلك من ولايته لله، وإن كان أخطأ، فإنه لم يخطئ عن قصد، وإنما أخطأ عن اجتهاد، يبحث عن الحق، لكنه لم يصل إليه، فهو

= وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله. ا.هـ.

وقال ابن القيم أيضًا في إعلام الموقعين (٤/ ١٢٣) «قال نعيم بن حماد: حدثنا عبد الله ابن المبارك قال: سمعت أبا حنيفة يقول: إذا جاء عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ نختار من قولهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم» ا.هـ.

معذور، ومأجور، ولا ينقص ذلك من قدره، أو يخرج بذلك عن ولاية الله ﷻ.

وحق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. هذا صعب أن يبلغ الإنسان هذه المرتبة، لكن فسرتها الآية الأخرى، وهي قوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فمن اتَّقى الله حسب استطاعته، فقد اتقى الله حق تقاته، فهذه الآية مفسرة.

ومن يبلغ هذه المرتبة؟!

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ: حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ(١). أَيْ: بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف: ٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، [١].

الشرح:

[١] وهذا كثير في القرآن؛ أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يؤاخذها على ما لا تطيقه؛ لأنه لم يكلفها بذلك. هذا المبحث مبحث جليل ينبغي العناية به.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٦٥).

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ الْإِيمَانَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]، [١].

الشرح:

[١] السياق في قضية أخذ أقوال العلماء قضية مسلمة، ولاسيما من يسمونهم الأولياء؛ لأن الصوفية يقدسون الأولياء، ويأخذون أقوالهم قضية مسلمة، لا تقبل الشك والنقاش، وهذا ضلال وكفر - والعياذ بالله -؛ لأن الذين يجب أخذ أقوالهم من غير تردد هم الأنبياء عليهم السلام، ومن عداهم، فإنه لا يؤخذ من قوله إلا ما وافق قول الأنبياء؛ لأن غير الأنبياء عرضة للخطأ، وأما الأنبياء عليهم السلام، فإنهم معصومون، لا يتطرق الشك إلى أقوالهم.

الصوفية وكذلك من قلدهم ممن يعظمون أئمتهم وقادتهم، ويأخذون أقوالهم قضية مسلمة، لا تقبل النقاش، بل يبايعون على ذلك، يبايعون على أخذ الطريقة، والتسليم لشيخ الطريقة، وأنه لاينازع، ولا يناقش، ولا يشك في قوله، يبايعون على هذا، وهذا من الضلال المبين؛ لأن من عدا الأنبياء، فإنه عرضة للخطأ والصواب.

وقد سبق أن الشيخ رحمه الله ذكر من سادات الأولياء - كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وغيره من الصحابة رضي الله عنهم - من حصل منه خطأ في بعض الاجتهادات،

أو في بعض الأقوال، حصل منهم خطأ؛ فهم ليسوا معصومين، فهذا هو السياق الذي ما زال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه.

وذكر من الأدلة على قبول قول الأنبياء بدون تردد هذه الآية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، فهذا فيه أن قول الأنبياء يؤخذ ولا يناقش، ولا يتردد فيه، فمن لم يأخذ به أو تشكك، فإنه ليس مؤمنا بالأنبياء.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾؛ لأن الأنبياء لا يأتون بشيء من عندهم، وإنما يأتون بما أنزل عليهم من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ذكر هؤلاء بأسمائهم، ثم أجمل، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ على سبيل العموم.

هذه عقيدة أهل السنة والجماعة: أنهم لا يفرقون بين الأنبياء؛ فهم لا يؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض - كحالة اليهود والنصارى -، وإنما يؤمنون بجميع الأنبياء، ويؤمنون بجميع الكتب المنزلة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]، هذه آية البقرة، وآية آل عمران: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ

وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤] وهكذا في آخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهذا أصل عظيم من أصول العقيدة: الإيمان بجميع الكتب، والإيمان بجميع الرسل من غير تفريق بين كتاب وكتاب، أو بين رسول ورسول.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١-٥]، [١].

الشرح:

[١] في مطلع سورة البقرة قال ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾، من هم؟ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وهو ما لم يشاهدوه، وإنما يعتمدون على الأخبار الصادقة: ما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب من المغيبات، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ اعتمادا على البراهين والآيات الدالة، وإن لم يشاهدوه، يدخل في هذا: الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالأخبار السابقة (أخبار الأمم)، والأخبار المستقبلة، كل هذا يدخل في الإيمان بالغيب، الذي لا يشاهدونه، ولكن يعتمدون على الوحي المنزل وأخبار الرسل عليهم السلام ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلوات الخمس المفروضة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذا إيتاء الزكاة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، هذا محل الشاهد، المتقون يؤمنون بما أنزل إليك يا محمد، وما أنزل من قبلك على الرسل لا يترددون في ذلك، ولا يقدمون عليه شيئا من أقوال الناس، ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيمان بالبعث هذه أركان الإسلام، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ

بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، هذا يتردد في القرآن كثيرا، وهذه أصول الإيمان الستة: الإيمان بالله، الإيمان بملائكته، بكتبه، برسله، باليوم الآخر، بالقدر خيره وشره. ثم قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين اتصفوا بهذه الصفات، ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾؛ ثابتون على الهدى، متمكنون منه، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الذين حازوا على الفلاح في الدنيا والآخرة، ومن عداهم فليسوا على هدى، وإنما هم على ضلال، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: ٦]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، ذكر الكفار الأصليين، وذكر المنافقين بعد أن ذكر المؤمنين؛ لأن الناس على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: مؤمنون ظاهرا وباطنا، وهم المذكورون في أول السورة ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٢ - ٣].

والصنف الثاني: كافرون ظاهرا وباطنا، وهم الكفار الذين لا يؤمنون برسل، ولا بكتب، ولا بملائكة، ولا بشيء، كفار ظاهرا وباطنا.

الصنف الثالث: الذين آمنوا ظاهرا، وهم في الباطن كفار، وهم المنافقون، وهؤلاء شر من الكفار الأصليين؛ لأنهم يخادعون الله والذين آمنوا.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]. [١].

الشرح:

[١] هذا بمناسبة صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وإصرار اليهود على قبلتهم إلى بيت المقدس، وعدم قبولهم لقبلة الكعبة، الله ﷻ يقول: هذا ليس هو البر؛ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، البر من آمن بالله، ومن الإيمان بالله الاستقبال للكعبة؛ لأن الله أمر بذلك، فالذي يؤمن بالله يمتثل أمره، ويستقبل الكعبة، هذا هو البر، البر أن تتوجه حيث وجهك الله، لا أن تتوجه حيث هواك وما تحب، البر هو أن تتوجه كما وجهك الله، الله وجه إلى بيت المقدس في أول الأمر، ثم وجه إلى الكعبة، والأمر له ﷻ، فاستقبال بيت المقدس في وقته طاعة لله، استقبال الكعبة في وقته طاعة لله، كله طاعة لله، الأمر لله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، هذه الزكاة: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، هذا الركن الثاني من أركان الإسلام، فتضمنت الآية أن البر هو في طاعة الله،

وقبول أمره: حيث وجهك، تتوجه، وجهك إلى بيت المقدس، تتوجه، وجهك إلى الكعبة، تتوجه، ولا يكن في نفسك شيء، أو حرج؛ لأنك مطيع لله ﷻ.

هَذَا الَّذِي ذَكَرْته مِنْ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ الِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ يَسُوغُ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ اتِّبَاعُ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ﷻ،[١].

الشرح:

[١] أولياء الله هم المتقون: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله، وهم الذين يمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ولا يتبعون أذواقهم ومواجيدهم، وما اصطلحوا عليه من مصطلحات الصوفية وغيرهم، ليس هؤلاء هم أولياء الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ هذا هو الضابط، فالولي هو المطيع لله ﷻ ولرسوله ﷺ، ولو خالف ذلك هواه، فإنما يتبع ما أمره الله به ورسوله ﷺ، ولو خالف ذلك هواه ورغبته، هذا هو الضابط في ولي الله، ليس الضابط في ولي الله ما تقوله المبتدعة والصوفية: إنه هو الذي يفعل كذا وكذا، الذي على يده كرامة خوارق، الذي يجري عليه كذا وكذا، كل هذا ليس من ولاية الله ﷻ.

مَنْ خَالَفَ فِي هَذَا فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِمْ؛ [١] بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْرِطًا فِي الْجَهْلِ. [٢] وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْمَشَايِخِ، [٣].

الشرح:

[١] من خالف هذا الأصل -وهو طاعة الله ورسوله-، فإنه ليس من أولياء الله، بل هو من أولياء الشيطان، والكتاب هو الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

[٢] إما أن يكون كافرا، إذا كان متعمدا للمخالفة، متبعا لهواه مع العلم، فهذا كافر، وإما أن يكون جاهلا، ما تعمد المخالفة بسبب جهله، وهذا لا يقلد ولا يتبع، هذا ضال، هذا من أهل الضلال، ولا يقلد ولا يتبع.

[٣] هذا الأصل كثير في كلام المشايخ، الذين يتخذهم هؤلاء قادة، من أمثلة: أبي سليمان الداراني، والجنيد، وغيرهم، هؤلاء المشايخ يأمرون بهذا الأصل، وهو اتباع الكتاب والسنة، والذين يخالفونهم ليسوا متبعين لهم، وإن كانوا يدعون الاتباع.

كَقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ[(١)]: إِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ الْقَوْمِ، فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ[(٢)] [١] وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: عِلْمُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبْ الْحَدِيثَ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا، أَوْ قَالَ: لَا يُقْتَدَى بِهِ. [٢].

الشرح:

[١] يقع في قلبه النكتة من نكت القوم؛ يعني: من نكت الصوفية، تقع خاطرة في قلبه، لكنه لا يقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة؛ مثلما أن القاضي لا يقبل دعوى المدعي إلا بشاهدين، وكذلك الخاطرة لا يقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة، فإن كان لها دليل من الكتاب والسنة، فهي حق، وإن خالفت الكتاب والسنة، فهي باطل، هذا هو الميزان.

[٢] والجنيد أيضا من أئمتهم الذين يقلدونهم وينتسبون إليهم، مع أنه رحمه الله على هذا المضمار، يتبع الكتاب والسنة، فلماذا لا يتبعونه في ذلك، وهم

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد الداراني، نسبة إلى داريا، قرية من دمشق، كان من الزهاد المشهورين، توفي سنة ٢١٥ هـ. انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٢)، والحلية (٩/ ٢٥٤).

(٢) ذكر هذا القول: ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٢٢٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٣).

(٣) سبقت ترجمته (ص ٢٩٨)، وهذا القول ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٧).

يدعون أنهم من أتباعه، وأنه شيخهم؟! فهذا الجنيد من أئمة العباد والزهاد الذين يتخذهم الصوفية قادة لهم، ويقول: علمنا مربوط بالكتاب والسنة، فمن لم يأخذ القرآن ويكتب الحديث، فليس على طريقتنا.

وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ(١) [١]: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ [فِي كَلَامِهِ الْقَدِيمِ](٢): ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]. [٢].

الشرح:

[١] وهذا أيضا من أئمة الزهاد والعباد الذين ينتسب إليهم الصوفية، يخالفهم هو.

[٢] هذا النيسابوري يقول: «من أمّر الكتاب والسنة»؛ أي: اتخذهما أميرا يأتمر بهما، ويطيعهما؛ لأن الأمير يطاع، ويسمع له، فمن أمر الكتاب والسنة على نفسه، نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى، نطق بالبدعة. هذه حكمة عظيمة.

---

(١) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري أصله من الري، شيخ الصوفية بنيسابور، توفي سنة ٢٩٨ هـ. انظر: ترجمته وأقواله في طبقات الصوفية (ص١٧٠)، وصفة الصفوة (٤/ ٨٥)، وتاريخ بغداد (٩/ ٩٩)، والرسالة القشيرية (١/ ١٠٩).

(٢) هذه العبارة لم أجدها في المراجع التي ذكرت قول أبي عثمان هذا، وقد أورد شيخ الإسلام هذا القول بدونها أيضًا في منهاج السنة (٥/ ٣٣١)، ومجموع الفتاوى (١١/ ٥٨٦)، والاستقامة (١/ ٢٥٠).

وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنِ نُجَيْدٍ(١) : كُلُّ وَجْدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ . [١] وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَغْلَطُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَيَظُنُّ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ ، وَيَظُنُّ أَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ يَقْبَلُ مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ ، [٢] .

الشرح :

[١] (كُلُّ وَجْدٍ) ؛ الوجد والذوق هذا من اصطلاحات الصوفية ، (لا يشهد له الكتاب والسنة ، فهو باطل) ؛ مثل كلام الشيوخ الذين ذكرهم الشيخ قبله ، اتفقت كلمتهم على هذا .

[٢] هذا من أغلاطهم ؛ أنهم يعتقدون أن ولي الله لا يناقش ، وأنه يقبل منه كل قول ، حتى إنهم يقولون : إن المريد - يعني الطالب - عند شيخه مثل الميت عند المغسل ، يحركه كيف يشاء ، ليس له اختيار ، وإلا لا يكون على حق ، إلا إذا قبل من الشيخ كل شيء ، حتى إذا قال له : ادخل في النار ، يدخل في النار ، لو أوقد نارا ، وقال له : ادخلها ، لايخالف الشيخ ، يدخل في النار ، هذا من أصول الصوفية ، وهذا باطل ، هذا باطل ، وهذا ليس وليًّا لله ، هذا ولي للشيطان ، الذي يأمر بغير أمر الله ، وغير أمر رسوله ، هذا ولي للشيطان ، وليس وليًّا لله ، فهم يستسلمون لمشايخهم ، أصابوا أو أخطؤوا ،

---

(١) هو إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف السلمي ، جد أبو عبد الرحمن السلمي لأمه ، لقي الجنيد وكان أكبر مشايخ عصره ، توفي سنة ٣٦٦هـ . انظر : ترجمته في طبقات الصوفية (ص٤٥٤) ، والأنساب (٣/ ٢٧٩) ، والبداية والنهاية (١١/ ٢٨٨) ، وسير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٦) ، وطبقات الشافعية (٣/ ٢٢٢) ، وشذرات الذهب (٣/ ٥٠) .

ولا يناقشونهم، وهذا غلط؛ كل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ، مهما كبر الإنسان في العلم والعبادة، ما يؤخذ كلامه على إطلاقه، حتى يعرض على الكتاب والسنة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

هذا معنى الولاية عندهم؛ أن الولي لا يناقش، وأنه يقبل قوله على الإطلاق؛ لأنه معصوم عندهم، لا يخطئ، وهذا ليس إلا للرسول ﷺ، وأما غير الرسول - مهما بلغ من العبادة والعلم -، فإنه ليس معصوما؛ عرضة للخطأ. وما الذي يميز الخطأ من الصواب؟ الكتاب والسنة. يعرض الأمر على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة، فهو حق، وما خالف الكتاب والسنة، فهو باطل، الله ﷻ يقول: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، وليس هناك حق إلا ما دل عليه الكتاب والسنة، هذا هو الحق، وما عداه فهو ضلال.

وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ وَإِنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، [١] فَيُوَافِقُ ذَلِكَ الشَّخْصُ لَهُ، وَيُخَالِفُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ تَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتَهُ فِيمَا أَمَرَ، [٢].

الشرح:

[١] حتى لو قال له: ادخل في النار. يدخل فلا ينازع، وإلا لا يكون مطيعًا للولي. ليس من شروط الولي أن يكون معصوما، وليس من شروط الولي أن يقبل كل ما يقوله، ليس هذا من شروط الولي، هذا كذب؛ فالولي عبد من عباد الله، والولي الصادق أتبع الناس لكتاب الله وسنة رسوله، ولا يرضى الولي الصادق أن يقدم قوله على قول الله ورسوله، لا يرضى بهذا، فإن رضي، فليس وليًا لله.

[٢] الله فرض على الخلق طاعة الرسول ﷺ فيما أمر، تصديقه فيما أخبر، قال ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، فضمن الهداية لمن أطاع الرسول ﷺ، قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]، قال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، هذا للرسول وحده فقط، وما عداه من العلماء والمشايخ والأولياء، فإنهم لا يطاعون إلا فيما أطاعوا به الرسول ﷺ.

وَجَعَلَهُ الْفَارِقَ بَيْن أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ، [١] فَمَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَجُنْدِهِ الْمُفْلِحِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، [٢] وَمَنْ لَمْ يَتْبَعْهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْخَاسِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، [٣].

الشرح:

[١] جعل الله الرسول هو الفارق بين أوليائه وبين أعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، الرسول ﷺ هو الفارق بطاعته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، هو الفارق، وما عداه، فإنه عرضة للخطأ والصواب، وليس معصوما.

[٢] من اتبع هذا الرسول، فهو من جند الله المتقين، وحزبه المفلحين.

[٣] من لم يتبعه، فهو من أعداء الله، وإن كان يقال: إنه ولي لله، فليس وليًّا لله.

فَتَجُرُّهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ وَمُوَافَقَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ أَوَّلًا إِلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالِ، وَآخِرًا إِلَى الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، [١] وَيَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، **[٢].**

الشرح:

[١] مخالفة الرسول تجر أولا إلى الضلال والابتداع، وثانيًا: تجر إلى العواقب الوخيمة في الدار الآخرة، إلى الكفر وإلى الضلال، يتدرج من المعصية، إلى البدعة، إلى الضلال والكفر، هذا من خالف الرسول، يتدرج من المعصية إلى البدعة، ومن البدعة إلى الضلال والكفر.

[٢] من اتخذ مطاعا غير الرسول ﷺ، فإن هذه عاقبته، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾؛ هذا من الندم، ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، إذا دخل في النار يوم القيامة، يقول هذه المقالة، يعض على يديه، ويقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٨]، هذا الفلان ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩]، هذه العاقبة - والعياذ بالله - فيمن عصى الرسول، وأطاع غيره، ولو كان يزعم أنه ولي لله، فإن هذه عاقبته.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ [الأحزاب ٦٦-٦٨]، [١].

الشرح:

[١] وهذه أيضا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ﴾؛ يتمنون: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، عرفوا أن الذي أوقعهم في النار، عرفوا خطأهم، وأن الذي أوقعهم في ذلك هو عدم طاعة الله رسوله، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾، أطاعوا العلماء والأمراء، علماء الضلال والأمراء، السادة: هم الأمراء، والكبراء: هم العلماء، ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ مثل قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾، ثم يدعون عليهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، ما عاد يفيد هذا، ليس له معنى إلا التلاوم -والعياذ بالله-.

وقوله تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]. [١].

الشرح:

[١] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ الأنداد: هم الشركاء لله ﷻ، والشبهاء، يشبهونهم بالله ﷻ، ويجعلونهم أندادا وعدلاء لله ﷻ، هذه طريقة عباد الأصنام، عباد القبور والأضرحة، عباد الأشجار والأحجار، كل من عبد غير الله، فإنه إنما عبده لأنه يحبه، فالكفار يحبون الأصنام، ويحبون الأشجار والأحجار التي يعبدونها، ويحبون الأضرحة، لولا أنهم يحبونها، ما عبدوها، لو كانوا يبغضونها، ما عبدوها، المؤمنون يحبون الله ﷻ محبة خالصة، ولذلك عبدوه وحده لا شريك له، لا يحبون غيره محبة العبادة، محبة العبادة لا تجوز إلا لله، وهي المحبة التي يكون معها ذل وانقياد وطاعة، هذه لا تكون إلا لله ﷻ، أما المحبة التي ليس معها ذل ولا انقياد، فهذه محبة طبيعية؛ مثل: محبة الإنسان لزوجته وأولاده، ومحبته للمال، هذه ليس معها ذل وانقياد، وإنما هي محبة طبيعية، فالكفار يحبون الأصنام؛ ولذلك عبدوها، المؤمنون يحبون الله وحده؛ فلذلك عبدوه

وحده. النتيجة يوم القيامة أن الذين يعبدون الأصنام، ويعبدون من دون الله أي شيء، يتبرأ منهم من عبدوهم يوم القيامة، الذين عبدوا الملائكة، والذين عبدوا الأولياء والأنبياء، وعبدوا. . .، يتبرؤون منهم يوم القيامة في المقام الذي يحتاجونهم فيه أحوج ما يكون، بيَّن الله ﷻ هذا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩]، المعبودون كذبوا عابديهم يوم القيامة، يقولون: أبدا ما أمرناهم، ولا رضينا أنهم يعبدوننا من دون الله، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]؛ أي: رجوعا إلى الدنيا، يتمنون، ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، والعياذ بالله، هذا المآل، وهذه العاقبة لمن أطاعوا غير الرسول ﷺ، هذا مآلهم يوم القيامة؛ ولذلك يقول قائلهم: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

وَهَؤُلَاءِ مُشَابِهُونَ لِلنَّصَارَى الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. [١].

الشرح:

[١] هؤلاء الذين يتخذون الأولياء والصالحين، يتخذونهم أولياء معبودين، لا يناقشونهم في شيء، ويطيعونهم طاعة عمياء، هؤلاء لهم شبه بالنصارى، الذين ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، الأحبار: العلماء، والرهبان: هم العباد، اتخذوهم أربابا من دون الله، ما معنى هذا؟ أنهم سجدوا لهم، وأنهم ذبحوا لهم، وأنهم... ؟ لا. بل كما بينه الرسول ﷺ: أنهم أحلوا لهم الحرام، فاستحلوه، وحرموا عليهم الحلال، فحرموه، هذه عبادتهم، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فدل على أنه لا يجوز طاعة العلماء، والأمراء، والأنبياء، حتى الأنبياء لا يجوز أنهم يتخذونهم أربابا من دون الله، حتى الأنبياء لا يتخذون أربابا من دون الله، فالنصارى اتخذوا المسيح ربا، فقالوا: إنه ابن الله - تعالى الله عما يقولون -، الربوبية خاصة لله ﷻ.

وَفِي الْمَسْنَدِ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ، لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْهَا، فَقَالَ: مَا عَبَدُوهُمْ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَأَطَاعُوهُمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهُمْ»(١). [١] وَلِهَذَا قِيلَ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ: إِنَّمَا حَرَّمُوا الْوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأُصُولِ، فَإِنَّ أَصْلَ الْأُصُولِ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، [٢].

الشرح:

[١] أطاعوهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال؛ فالتحليل والتحريم حق لله ﷻ، لا يجوز لأحد أن يحلل ويحرم بدون دليل من الكتاب والسنة، من حرم شيئا، أو أحل شيئا بدون دليل من الكتاب والسنة، فقد شارك الله في ربوبيته؛ لأن هذا من حق الربوبية.

[٢] قيل في هؤلاء الذين أطاعوا الأحبار والرهبان والعباد والأولياء: حرموا الوصول؛ لأنهم ضيعوا الأصول(٢)؛ لأن الأصول هي: طاعة الله، ورسوله، واتباع الكتاب والسنة، هذه هي الأصول، لما ضيعوها، حرموا الوصول إلى الله ﷻ، ولهذا من الحكمة يقولون: من ضيع الأصول حرم الوصول.

---

(١) سؤال النبي ﷺ عدي بن حاتم رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وقال: «هذا حديث غريب»، وقد روى الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٥٧، ٣٧٨، ٣٧٩) قصة إسلام عدي، دون السؤال المذكور.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٧، ١٣/ ١٥٧)، وإعلام الموقعين (٤/ ١٣١).

فَلَابُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ إِنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ وَعَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ عُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ مُلُوكِهِمْ وَسُوقَتِهِمْ، [١].

الشرح:

[١] لابد من الإيمان بأن الرسول ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس، والعرب والعجم، مبعوث إلى الثقلين، مبعوث إلى كل الناس، إلى الملوك والأمراء، والصعاليك، والعلماء، والجهال، فهو مرسل إلى الجميع، تجب على الجميع طاعته ﷺ، ويجب على الجميع امتثال أمره، ليس لأحد أن يخرج عن طاعة الرسول ﷺ، ويقول: إنه وصل إلى الله، وليس في حاجة إلى الرسول - كما تقوله الصوفية -، أو يدعي للولي أنه أعلم وأعرف؛ لأنه صار من العارفين، ويأخذ عن الله، وليس بحاجة إلى الرسول - كما يقوله غلاة الصوفية -، فلا يسع أحدا بعد بعثة محمد ﷺ إلا أن يطيعه، ويتبعه، حتى لو وجد من الأنبياء أحد بعد بعثة الرسول ﷺ، وجب عليه أن يتبعه؛ كما قال ﷻ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ٨١]؛ يعني: محمدا ﷺ، ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، أخذ الله الميثاق على الأنبياء - فكيف بغيرهم؟ - أنه لو بعث الرسول ﷺ، وأحد منهم حي - موسى عليه السلام، أو عيسى عليه السلام، أو أي رسول-، فإنه يتبع هذا الرسول؛ لأن الرسالة صارت له ﷺ، هو خاتم المرسلين، فلا يسع أحدًا إلا طاعته ﷺ: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ﴾؛ أي: عهدي، ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، هكذا أخذ الله الميثاق على الأنبياء أن يتبعوا محمدا ﷺ - لو بعث وأحد منهم حي -؛ لأن رسالته عامة للثقلين: للجن والإنس، والأنبياء وغيرهم، لا يسع أحدا الخروج عن طاعته ﷺ، فكيف يسع مشايخ الصوفية أن يخرجوا عن طاعة الرسول ﷺ؟ كيف يسع الأولياء أن يخرجوا عن طاعة الرسول ﷺ؟! إذا خرجوا، فإنهم لا يكونون أولياء، لا يكونون أولياء لله، وإنما يكونون أولياء للشيطان.

وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ ﷻ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، [١] حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَوَجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢] [٢].

الشرح:

[١] باطنا وظاهرا، لا تكفي المتابعة ظاهرا، هذه طريقة المنافقين، لابد أن يتابعه باطنا وظاهرا ﷺ.

[٢] ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ بعد أخذ هذا العهد، من تولى، فأولئك هم الفاسقون؛ أي: الخارجون عن طاعة الله ﷻ، كل الأنبياء على هذا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ»(١). [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ أوجب طاعة هذا الرسول على جميع الناس - عربهم وعجمهم -، رسالته عامة للثقلين - الجن والإنس -، وهذا مما خصه الله به، دون غيره من الأنبياء، فمن خصائصه ﷺ أن الله جعل رسالته عامة، بينما رسالات الأنبياء من قبله خاصة بأقوامهم، والغرض من هذا الرد على الذين يزعمون أن هناك من تجب طاعته غير الرسول ﷺ، كالذين يتخذون مشائخهم وطرائقهم موصلة إلى الله من دون الرسول ﷺ؛ كغلاة الصوفية، فلا طريق إلى الله إلا باتباع هذا الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، وكذلك من زعم أن اليهود والنصارى لا يلزمهم اتباع محمد ﷺ، وإنما يبقون على اتباع موسى وعيسى، وهناك من يقول هذا القول ممن ينتسبون إلى الإسلام، ويقولون: لا يتعين على الناس أن يتبعوا محمدا ﷺ، بل من اتبع موسى ؏، فهو على دين صحيح، ومن اتبع عيسى ؏ في وقتنا الحاضر، فهو على دين صحيح،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٥٦)، والدر المنثور للسيوطي (٢/ ٤٧، ٤٨).

كلهم يصلون إلى الله. والجواب عن هذا في القرآن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١]، يخاطب الرسل ﷺ، ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ يعني: محمدا ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨١-٨٣]، فإذا كان الأنبياء لو بعث محمد ﷺ، وأحد منهم حي، وجب عليه اتباعه، فكيف بغيرهم؟! من رؤساء الصوفية وغيرهم، والذين يقولون: إننا على دين موسى عليه السلام الآن، أو على دين عيسى عليه السلام كَذَبَةٌ؛ لأن دين موسى عليه السلام انتهى ببعثة محمد ﷺ، ودين عيسى عليه السلام انتهى ببعثة محمد ﷺ، لم يبق غير دين محمد ﷺ، وهو الطريق الوحيد إلى الله ﷻ، فمن لم يتبع هذا الرسول، فهو كافر، وإن كان يزعم أنه متبع لموسى عليه السلام، أو لعيسى عليه السلام، أو لشيخه، أو لغير ذلك، فهو كافر بالله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فهذا أمر يجب اعتقاده، وأنه لا دين إلا دين محمد ﷺ بعد بعثته، إلى أن تقوم الساعة، لا دين إلا دينه، ولا ينجو أحد إلا باتباعه ﷺ، فهذا معنى قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٥]. [١].

الشرح:

[١] كذلك يجب أن يحكم في النزاع والاختلاف بين الناس شرع محمد ﷺ، الذي هو القرآن الكريم والسنة النبوية، فإذا حصل خلاف بين الناس -إما في العقيدة، وهذا أولى وأحرى، وإما في الأموال والخصومات التي تقع بين الناس-، لابد من التحاكم إلى كتاب الله القرآن، وإلى سنة رسول الله ﷺ، فمن حكم غير شريعة الرسول ﷺ، فهو كافر إذا كان يرى جواز ذلك، أو يرى أنه مخير، أو يرى أن هناك حكما أحسن من حكم الله، أحسن من حكم القرآن والسنة، وأن القوانين الوضعية أحسن للناس في

هذا الزمان، فهذا كافر كفرا صريحا مخرجا من الملة - والعياذ بالله -، فإذا حكم غير الشرع المحمدي، يرى أنه أحسن من الشرع المحمدي، أو أنه مساو له، أو أنه مخير إن شاء حكم الشرع المحمدي، أو حكم غيره، فهذا كافر بالله الكفر الأكبر المخرج من الملة، وفي هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، إلى آخر الآيات، إلى قوله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، سبب نزول هذه الآيات[١] - كما ذكر المفسرون -: أنه حصلت خصومة بين رجل من المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، وبين يهودي، حصلت منازعة بين منافق يزعم الإيمان بمحمد ﷺ وبين يهودي، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لعلمه أن رسول الله ﷺ لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي، أو إلى اليهود؛ لعلمه أنه يأخذون الرشوة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ [النساء: ٦٠]، انظر: يزعمون، والزعم معناه: الكذب، فهم كاذبون في دعواهم الإيمان بمحمد ﷺ، وإنما هو زعم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: يدعون أنهم آمنوا ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وهو القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وهي الكتب السابقة ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، هذا تناقض: يزعمون أنهم آمنوا بمحمد، ثم يتحاكمون إلى غيره! هذا تناقض؛ فالذي يتحاكم إلى غير

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٥٢)، والدر المنثور للسيوطي (٢/ ٥٨٠).

الرسول ليس مؤمنا به، وإن كان يدعي ذلك، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، والطاغوت: هو كل من حكم بغير ما أنزل الله، فهو طاغوت، كل من حكم بغير الإسلام، سواء كان من اليهود أو من النصارى، أو من غيرهم، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، أمر الله بالكفر بالطاغوت، قال ﷻ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله؛ لأن من شرط الإيمان بالله الكفر بالطاغوت، والشرط لابد أن يتقدم على المشروط، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ﴾، أمرهم الله أن يكفروا بالطاغوت، ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، ومع هذا يريدون أن يتحاكموا إليه ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [النساء: ٦٠] إبليس لعنه الله، وكذلك أتباع الشيطان من شياطين الإنس والجن، ﴿أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء: ٦٠]؛ أي: يبعدهم عن الحق، وعن الإسلام، ضلالا بعيدا لا نهاية لبعده، ضلال وبعيد أيضا، فالذي يُؤْثِرُ الحكم بالطاغوت على الحكم بالإسلام، قد ضل ضلالا بعيدا، بعيدا عن الهدى، بعيدا عن الإسلام، بعيدا عن الإيمان بالله، كل أنواع البعد، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾، فأطاعوا الشيطان، ولم يطيعوا أمر الله الذي أمرهم أن يكفروا بالطاغوت، انظر: أطاعوا الشيطان، ولم يمتثلوا أمر الله الذي أمرهم أن يكفروا بالطاغوت، ومع هذا يدعون الإيمان، وانظر إلى قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾ لم يتحاكموا إلى الآن، لكن من يريد التحاكم إلى الطاغوت، يكفر بهذا، ولو لم يفعله، بمجرد

الإرادة يكفر، ولو لم يفعل - والعياذ بالله -، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: ٦٠-٦٢] إذا نزلت بهم مصيبة على فعلهم هذا، وما أقرب العقوبة لمن فعل هذا! كيف حالهم إذا نزلت بهم عقوبة على فعلهم هذا؟! ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، ما أردنا بتحكيم غيرك إلا الإحسان إلى الناس والتوفيق بينهم، يقولون: قصدنا حسن، ما قصدنا الكفر بك، وإنما قصدنا أن نصلح بين الناس، وأن نحسن إليهم بإنهاء النزاعات.

والعذر أقبح من الفعل؛ هل الإحسان والتوفيق يكون بغير الشرع؟! فعذرهم هذا أقبح - والعياذ بالله - مما لو فعلوا، فالإحسان إلى الناس والتوفيق بين الناس إنما هو بشرع الله ﷻ، لا بحكم الطاغوت، ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾؛ يحلفون بالله، يحلفون يؤكدون هذا بالحلف: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٢-٦٣]، وإن تظاهروا، واعتذروا، فإن الله يعلم السبب الذي حملهم على تحكيم الطاغوت، وإن تظاهروا، واعتذروا، وقالوا: ما أردنا إلا إحسانا وتوفيقا. والإرادة لا تبرر، والنية الحسنة - لو كانت موجودة - ما تبرر الباطل، الباطل باطل، ولو أن الإنسان أحسن النية، فكيف إذا كان كاذبا في هذا القول؟! لو كان صادقا في أنه ما أراد إلا الإحسان والتوفيق، فليس هذا بمبرر أن يعدل عن الشرع إلى غيره، فكيف وهو كاذب؟! ﴿إِنْ

أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، وإن حلفوا بالله: إنهم ما أرادوا إلا خيرا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]، لا تقبل منهم عذرا: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]، وليس الأمر أن تعرض عنهم وتتركهم، بل لابد من الإنكار عليهم والموعظة، لابد من بيان أنهم على ضلال، وأنهم قد انحرفوا عن الحق، أعرض عنهم، لا تقبل عذرهم، وعظهم فيما فعلوا؛ لعلهم يرجعون أو يتوبون، فدل على أن من ارتكب خطأ ظاهرا لا يترك، بل تجب موعظته ونصيحته؛ لعله أن يرجع أو تقوم الحجة عليه، تبرأ الذمة بعدم مناصحته، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣] بينك وبينهم، ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ زاجرا وليس بقول سهل، أو أسلوب فيه لين، لا بل قولًا بليغًا زاجرًا يؤثر على السامع؛ لأنهم ارتكبوا أمرا فظيعا، فلابد من التغليظ عليهم في القول، ولكن هذا يكون سرا بينك وبينهم، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾، ثم قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] ففعلهم هذا معصية للرسول ﷺ، مع أن الواجب أن يطاع الرسول ﷺ: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بشرعه، بإذن الله الشرعي، وإذن الله القدري، ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الرسول لا يأتي إلا بشرع الله ﷻ فهذا فيه أن الرسول إنما يأمر بما أمر الله به، ولا يحكم إلا بما حكم الله به، ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، انظر: عرض الله عليهم التوبة والاستغفار، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ في مقالتهم السابقة يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وأيضا اعتذارهم

الكاذب، لو أنهم مع هذه الجرائم الشنيعة رجعوا إلى الله ﷻ، فاستغفروه، وطلبوا منك أن تستغفر لهم، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾؛ فالله يتوب على من تاب، ولو كان جرمه شنيعا وكبيرا، فإن الله يغفر الذنوب، ويقبل التوبة ممن تاب إلى الله؛ فلا يقنط المجرم من رحمة الله، ويترك التوبة والاستغفار ﴿جَآءُوكَ﴾ أيها الرسول، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾، هم استغفروا الله، طلبوا منه المغفرة، وطلبوا منك أن تستغفر لهم؛ لأن الرسول ﷺ مجاب الدعوة، واستغفاره عند الله مقبول، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]؛ كثير التوبة، ﴿رَّحِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهذا فيه أن من وقع في ذنب - ولو كان عظيما - يتوب إلى الله ﷻ، والله يقبل التوبة عن عباده، وأنه في عهد الرسول ﷺ يطلب منه أن يستغفر له، أما بعد موته، فلا يطلب الاستغفار من الرسول، بعض الجهال أو أهل الضلال يحتجون بهذه الآية على أنهم يأتون عند قبر الرسول ﷺ، ويطلبون منه الاستغفار محتجين بهذه الآية، مع أن الآية إنما تعني في حياة الرسول ﷺ، لا بعد موته؛ لأن الرسول بعد موته لا يطلب منه شيء، لا الاستغفار ولا غيره، الصحابة ﷺ لما أجدبوا، ما طلبوا منه أن يدعو لهم، ويستغفر لهم، بل طلبوا من عمه العباس رضي الله عنه أن يدعو لهم في الاستسقاء(١)، وهم أعلم الأمة بتفسير القرآن، فلو كانوا فهموا من الآية

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١٠١٠، ٣٧١٠) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا، فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا، فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيُسْقَوْنَ».

المجيء إلى قبر الرسول، وطلب الدعاء والاستغفار منه، لذهبوا إلى قبره ﷺ، ولما عدلوا إلى العباس، لماذا عدلوا عن الرسول إلى العباس؟ لأن الرسول ميت، والعباس حي، فالميت لا يطلب منه شيء، أما الحي فيطلب منه ما يقدر عليه، وهو الدعاء والاستغفار لغيره، فالصحابة ما ذهبوا لقبر الرسول بعد موته، إنما يذهبون عند قبر الرسول يسلمون عليه فقط، إذا جاؤوا من سفر يأتون قبر الرسول، ويسلمون عليه وعلى صاحبيه؛ كما يسلمون على الأموات في المقابر، زيارة القبور للسلام عليها مشروعة، أما طلب الحوائج منهم، فهذا لا يجوز، وهو شرك بالله ﷻ، أيضا لفظ الآية يدل على أن الذهاب إلى قبره للاستغفار لا يجوز، لماذا؟ لأنه قال: ﴿إِذ ظَّـلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ و(إذ) ظرف لما مضى من الزمان، ولم يقل: إذا ظلموا أنفسهم؛ لأن (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان، ففرق بين إذ وإذا، ولفظ الآية: ﴿إِذ ظَّـلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ يعني فيما مضى، لا في المستقبل بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم قال ﷻ في ختام الآيات مقسما بنفسه ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] هم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبل، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، هذا رد عليهم: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَـرَ بَيۡنَهُـمۡ﴾ (فيما) هذا عام في جميع الشجارات والاختلافات، كلها ترد إلى الله وإلى الرسول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ما نتحاكم إلى الشريعة في الأحوال الشخصية فقط؛ كما في كثير أو في كل البلاد الإسلامية، إلا ما شاء الله، ما يحكمون الشريعة إلا في الأحوال الشخصية: في المواريث، والأنكحة، وأما المعاملات، وأما

العقائد، فلا يحكمون الشريعة، ولا يرجعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ في أي شيء شجر بينهم: في العقائد، في الخصومات، في الأموال، في جميع المنازعات، كلها ترد إلى الكتاب والسنة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، والشجار هو الاختلاف والتنازع، ولا يكفي هذا أيضا، ما يكفي أنهم يحكمونك فيما شجر بينهم، بل لا بد ألا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت، وأن يرضوا بحكم الله وحكم رسوله، ويقتنعوا بذلك اقتناعا تاما، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥]، أما الذي يجد في نفسه كراهية لحكم الله وحكم رسوله، فهذا ليس بمؤمن، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩] ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، بل يعتقدون أنه هو الحق، وأنهم مخطئون، لابد من هذا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾، فكيف إذا تكلموا، وقالوا: ما نرضى بهذا، ونريد حكما غيره؟! هذا أشد - والعياذ بالله -، إذا كانوا في نفوسهم لا يؤمنون، إذا وجدوا شيئا من الشك أو من الحرج في حكم الله ورسوله، فكيف إذا تكلموا، أو كتبوا؟! الأمر أشد، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أيضا لابد من التسليم والانقياد التام لحكم الله ورسوله، وعدم الممانعة والمماطلة، وتطويل الخصومة؛ لأجل إبطال حق الخصم أو التباطؤ به، لابد من التسليم والانقياد، وإعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم التي حكم الله ورسوله بها لهم، من غير مماطلة وتباطؤ، وإتعاب للخصم.

الشاهد من الآيات: أنه لابد من تحكيم الرسول ﷺ في كل خلاف وفي

كل نزاع ، والصدور عما حكم به ﷺ، وقبول ذلك ، والتسليم له ، دون غيره من الناس، لا أصحاب الطرق الصوفية، ولا اليهود ولا النصارى، ولا القوانين الوضعية، ولا غير ذلك.

وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مُقَلِّدًا فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ، فَإِنَّهُ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ؛ وَأَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَا يُخَالِفُ فِي شَيْءٍ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَكْبَرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، كَأَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ؛ [١].

الشرح:

[١] هذا سبق، وأعاده الشيخ رحمه الله بعد الآيات؛ أنه لا أحد يطاع فيما يخالف كتاب الله وسنة رسوله، ولو كان من أولياء الله. الصحابة هم أعظم أولياء الله بعد الرسل، ومع هذا من خالف قوله قول الله ورسوله عن اجتهاد منه، خالف اجتهاده الصواب، فإنه لايؤخذ به، ولو كان عمر بن الخطاب، أو أبا بكر الصديق، أو غيرهم من الصحابة، لا يؤخذ بقوله إذا خالف الكتاب والسنة، ولو كان مجتهدا، وإلا فإن الصحابة ما يتعمدون المخالفة، هم يجتهدون، وهم ليسوا معصومين، المجتهد يخطئ ويصيب - من الصحابة وغيرهم -، فلا يقبل من خالف الحق من الصحابة، فكيف بغيرهم ممن يدعون أنهم أولياء، وأن الولي لا يخالف أمره؟! أفضل الأولياء هم الصحابة، ومع هذا إذا خالف قولهم قول رسول الله ﷺ عن اجتهاد منهم والتماس للحق، لكن لم يصيبوه، فإنه لا يجوز قبول قولهم، ولهذا لما حصل خلاف في فسخ الحج إلى العمرة، ومنع من ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؛ أنه لا يجوز فسخ الحج إلى العمرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ**

وَعُمَرُ»[١]؛ يعني تأخذون برأي أبي بكر وعمر ﭭ في عدم فسخ الحج إلى العمرة، وتتركون قول رسول الله الذي أمر أصحابه لما طافوا وسعوا أن يتحللوا، وأن يجعلوها عمرة، ثم يحرموا بالحج بعد ذلك، فيكونوا متمتعين. فلا قول لأحد مع قول رسول الله ﷺ كائنا من كان.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٥، ٢٥١، ٢٦/ ٥٠، ٢٨١)، وزاد المعاد (٢/ ١٩٥)، والطرق الحكمية (١/ ٢٥)، والصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٣)، وإعلام الموقعين (٢/ ٢٣٨).

فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؟![١] وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ عُمْدَتُهُمْ فِي اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ عَنْهُ مُكَاشَفَةٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ [٢].

الشرح:

[١] فكيف إذا لم يكن وليًّا لله؟ كان وليًّا للشيطان، لا يطيع الله، ولا يطيع الرسول؛ كبعض الذين يدعون لهم أنهم أولياء لله، وهم سحرة، أو كهنة، أو شياطين؛ كما يأتي أنهم يدعون الولاية لأناس أعداء لله ولرسوله، وعداوتهم ظاهرة لله ولرسوله، لا يصلون، ولا يغتسلون من الجنابة، ولا يؤدون الزكاة؛ لأنهم يزعمون أنهم خرجوا عن التكاليف، ووصلوا إلى الله، فليس عليهم تكاليف، يقولون: هؤلاء أولياء. وهم يشاهدونهم يتركون الفرائض، ويفعلون المحرمات، ويقولون: هؤلاء ما عليهم تكاليف؛ لأنهم وصلوا إلى الله، والواقع أنهم ليس عليهم تكاليف؛ لأنهم صاروا مجانين.

[٢] إذا قيل له: ما دليلك على أنه ولي لله؟ قال: لأنه يصدر عنه أشياء غريبة، عنده كرامات. وسبق لنا أن هناك فرقًا بين الكرامة وبين الخوارق الشيطانية، التي تجري على أيدي السحرة والكهان، والشيطان يجري عليهم خوارق، لكن لا يقال: إنها كرامات، يقال: إنها خوارق شيطانية: كالطيران في الهواء، وأكل الجمر، والمشي في النار، والمشي على الماء، هذه خوارق شيطانية؛ لأن الشياطين تحملهم وتطير بهم، وأيضا هم كذبة، لا يأكلون الجمر، ولا يمشون في النار، وإنما يسحرون أعين الناس، فيظهر

للناس أنهم يأكلون النار، وأنهم يطعنون أنفسهم بالسكاكين، وهو كذب، إنما يسحرون أعين الناس؛ كالذين في عهد فرعون قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وهذا السحر التخيلي، ويقول الجهال: هذه كرامات. هذه ليست كرامات، هذه خوارق شيطانية.

(مُكَاشَفَةٌ) المكاشفة: هي أن يرى شيئا لا يراه الناس؛ لأنه يتعامل مع الشياطين، والشياطين تخبره بأشياء لا يعلمها الناس، أو يرى شيئا لا يراها الناس بسبب عمل الشيطان معه؛ لأنه سبق لنا أن ولي الله هو الذي ذكره الله بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، هذا ولي الله المؤمن التقي، أما الفاجر والفاسق والكافر، فهذا ليس وليًّا لله، فننظر في عمله، إذا قالوا: هذا ولي، ننظر في عمله، ما ننظر إلى الخوارق التي معه، ننظر إلى عمله: هل هو مستقيم على شرع الله، وعلى طاعة الله، ويتقي الله؟ هذا ولي، وما يجري على يده كرامة من الله ﷻ. أما إن كان كافرا، وفاجرا، وفاسقا، وتاركا لفرائض الله، ومرتكبا للزنا واللواط والفجور، فنقول: هذا ليس وليًّا لله، وإن كان معه خوارق، نقول: هذه خوارق شيطانية، ليست كرامات من الله ﷻ، الشياطين تتعامل معهم، تطير بهم في الهواء، وتقطع بهم المسافات البعيدة، تحملهم على الماء، ولا يغوصون في الماء، تحملهم على النار، ولا يقعون في النار إذا مشوا، لكن يتظاهر للناس بهذه الأمور، هذه أمور لا يغتر بها، تؤخذ على علاتها وعلى ظاهرها، حتى يكون مستقيما على

طاعة الله، وإذا كان مستقيما على طاعة الله، فما جرى عليه من الخوارق كرامات من الله ﷻ؛ مثل ما حصل لأصحاب الكهف، مثل ما حصل لمريم، مثل ما حصل للخضر - على القول بأنه ولي وليس نبيا -، الخوارق التي حصلت للخضر صاحب موسى عليه السلام، هذه كرامات من الله سبحانه وتعالى.

أَوْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، مِثْلِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى شَخْصٍ فَيَمُوتَ، [١] أَوْ يَطِيرَ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا، [٢] أَوْ يَمْشِيَ عَلَى الْمَاءِ أَحْيَانًا؛ [٣].

الشرح:

[١] يستعين بالشيطان، والشيطان يخنق هذا الذي أشار إليه، فيموت، وأنتم لا ترون الشيطان وأعماله، يقولون: هذا ولي؛ قتل هذا الشخص.

[٢] والذين يطيرون، الشياطين يطيرون بهم؛ لأن الشياطين تطير في الجو، تحملهم أعلى، إذا عبدها، وأطاعها، وعصى الله، وكفر بالله، فإنهم يخدمونه، الله ذكر هذا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، فيسلط الله الشياطين على هؤلاء لإضلالهم، وإضلال غيرهم بهم أيضا.

[٣] وهو ما يمشي على الماء حقيقة، وإنما هذا الشياطين تمشي به، أو يخيل للناس أنه يمشي، وهو ليس كذلك، هو جالس في مكان على الأرض أو واقف، ويري الناس أنه يمشي على الماء، يخيل على أعينهم.

أَوْ يَمْلأُ إِبْرِيقًا مِنْ الْهَوَاءِ، [١] أَوْ يَنطقُ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ مِنْ الْغَيْبِ [٢] أَوْ أَنْ يَخْتَفِيَ أَحْيَانًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، [٣] أَوْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَهُوَ غَائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فَرَآهُ قَدْ جَاءَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ، [٤] أَوْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِمَا سُرِقَ لَهُمْ، [٥].

الشرح:

[١] يأتي بإبريق فارغ، ويضعه في الهواء، ويمتلئ ماء، الشياطين تملؤه ماء، الشياطين تحضر الماء، وتصبه فيه، وأنتم ما ترونه.

[٢] ينطق في بعض الأوقات من الغيب؛ يعني: يخبر عن أشياء من الغيب في بعض الأوقات. يأتي فلان، ويذهب فلان، وفلان مات، ويخبرهم عن أشياء غائبة عنهم؛ لأن الشياطين تخبره بذلك.

[٣] هو يكون معهم، ثم يختفي، ولا يعلمون أين ذهب، الشياطين حملته، أو غطته عن أعين الناس، فيقولون: هذا ولي.

[٤] هذا - كما سبق - أن من يستغيثون بالأموات أو بالغائبين يتخيل الشيطان لهم في صورة الميت، أو في صورة الغائب، فإذا نادوا الميت أو الغائب، تشكل الشيطان في صورته، وأحضر لهم الذي يريدون، ويقولون: هذا هو الميت أو الغائب. وهو الشيطان، الشيطان يتصور لهم.

[٥] وهذه مصيبة، يذهبون للكهنة، إذا ضاع لهم شيء، يسألونهم، ويخبرونهم من الذي عنده أموالهم، ومن الذي سرقهم، ويقولون: هذا

ولي من أولياء الله. وهو ولي من أولياء الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي يخبره عن الأشياء الغائبة والمسروقات، أو يحضر الشيء البعيد، يأتي به بسرعة.

أَوْ بِحَالِ غَائِبٍ لَهُمْ أَوْ مَرِيضٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ. [١].

وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهَا وَلِيٌّ لِلَّهِ، [٢] بَلْ قَدْ اتَّفَقَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُغْتَرَّ بِهِ حَتَّى يَنْظُرَ مُتَابَعَتَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمُوَافَقَتَهُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. [٣].

الشرح:

[١] ما حاجة إلى أن تتكلم بالجوال، أو بالتليفون يخبرهم أين غائبهم، الشيطان يقول لهم: فلان كذا، وهو الآن مريض، وهو الآن صحيح، وهو الآن يمشي، يخبرهم.

[٢] ليس في هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي، حتى يكون مستقيما على طاعة الله.

[٣] هذه فائدة عظيمة، وهي الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، الفارق هو: اتباع الكتاب والسنة، فإذا كان مؤمنا متبعا للكتاب والسنة، فما معه من الخوارق كرامات أجراها الله على يده، وإن كان مخالفا للكتاب والسنة، فما معه من الخوارق خوارق شيطانية. (وَمُوَافَقَتَهُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ)، هذه هي العلامة. ليست العلامة أن يكون معهم خوارق، العلامة المتابعة لرسول الله ﷺ.

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، [١] وَهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ يَكُونُ عَدُوًّا لِلَّهِ، [٢] فَإِنَّ هَذِهِ الْخَوَارِقَ تَكُونُ لِكَثِيرٍ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ، [٣] وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ، وَتَكُونُ مِنْ الشَّيَاطِينِ. [٤].

الشرح:

[١] الله يجري على أيدي أوليائه بعض الكرامات العظيمة، التي لا تخطر ببال، لكنهم لا يغترون بها، ويتكبرون بها، ويدعون الناس إلى تعظيمهم، بل يتواضعون، ولي الله ما تزيده الكرامات إلا تواضعا لله، وأيضا يحرص على إخفائها، وألا يراها الناس؛ لأنه يخاف الله ﷻ.

[٢] الكرامات وحدها لا تدل؛ لأن صاحبها إما أن يكون وليًّا لله إن كان مستقيما على طاعته، أو يكون عدوا لله إن كان عاصيا لله مخالفا لأمره.

[٣] الآن الكفرة والملاحدة عندهم أشياء غريبة، لكنها من الشيطان، وليست من الرحمن.

[٤] كلها من الشياطين وليست هي كرامات من الله ﷻ، الله سلط عليهم الشياطين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، فتظهر هذه الأشياء على أيديهم للغرور - والعياذ بالله -، والتضليل، وكل شيء فهو بقضاء الله وقدره، لكنه لا يجري إلا لحكمة عظيمة من الله ﷻ.

فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، بَلْ يُعْتَبَرُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، [١] وَيُعْرَفُونَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ، وَبِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ. [٢].

الشرح:

[١] بل يعتبر ولي الله بأعماله وأفعاله، ومتابعته للكتاب والسنة، يعتبر بهذه الأمور، لا بالخوارق فقط، وإنما يعتبر بالإيمان والتقوى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ما قال: الذين تجري على أيديهم خوارق، قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[٢] أولياء الله يعرفون بسيماهم، النور على وجوههم، والاستقامة على أفعالهم وأقوالهم، والطمأنينة، والأنس بذكر الله ﷻ، هؤلاء هم أولياء الله، أما أولياء الشيطان إذا ذكرت الله انقبضوا؛ لأن الشياطين الذين معهم يحرقها ذكر الله ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ وَأَمْثَالَهَا قَدْ تُوجَدُ فِي أَشْخَاصٍ وَيَكُونُ أَحَدُهُمْ لَا يَتَوَضَّأُ، وَلَا يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ، [١] بَلْ يَكُونُ مُلَابِسًا لِلنَّجَاسَاتِ، مُعَاشِرًا لِلْكِلَابِ، [٢].

الشرح:

[١] هذه الأمور المذكورة: الخوارق، المشي على الماء، المشي على النار، وما أشبه ذلك، هذه توجد مع أولياء الشيطان بكثرة، وهم ليسوا أولياء لله ﷻ.

[٢] يقولون: هذا ولي؛ لأنه ما عليه تكاليف، التكاليف على العوام، وإلا هذا من الخواص، هذا ولي، من خاصة الخاصة، وسقطت عنه التكاليف.

وهؤلاء علاماتهم ظاهرة، وهي: أنهم لا يتورعون عن الحرام والفواحش وترك الفرائض، ولا يتطهرون من النجاسات، ولا يتجنبون الكلاب التي هي من أخس الحيوانات، بل يعاشرونها، ويعيشون معها، ويأنسون بها، مع أن الرسول ﷺ نهى عن اقتناء الكلاب إلا للأمور المخصصة: كالحراسة - حراسة الماشية، أو حراسة الزرع -، أو للصيد، ثلاثة أغراض فقط، وما عدا ذلك لا تجوز مصاحبة الكلاب؛ لأنها نجسة.

يَأْوِي إِلَى الْحَمَّامَاتِ وَالْقَمَّامِينَ وَالْمَقَابِرِ وَالْمَزَابِلِ، رَائِحَتُهُ خَبِيثَةٌ، لَا يَتَطَهَّرُ الطَّهَارَةَ الشَّرْعِيَّةَ وَلَا يَتَنَظَّفُ. [١].

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ جُنُبٌ وَلَا كَلْبٌ»(١)[٢].

الشرح:

[١] أولياء الله يأوون إلى المساجد، أولياء الشيطان يأوون إلى الحمامات؛ لأن الحمامات مآوي الشياطين، فأولياء الشياطين يأنسون بالحمامات، ويجلسون في المراحيض ومحل قضاء الحاجة؛ لأن الشياطين هذه أمكنتهم، أما أولياء الله، فأمكنتهم المساجد وبيوت الله ﷻ. هؤلاء ما يتجهون إلى المساجد، ولا يريدونها.

القمامون: الكناسون الذين يباشرون النجاسات.

[٢] «**لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ جُنُبٌ**»، هذا فيه تجنب الحدث الأكبر؛ لأنه نجاسة معنوية، «**وَلَا كَلْبٌ**»؛ لأن الكلب نجس العين، وهؤلاء لا يتطهرون من الجنابة، ولا يتوضؤون من الحدث، ولا يغسلون النجاسة إذا أصابت أبدانهم وثيابهم، بل يعدون هذا من التواضع، ومن التقرب

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٧)، والنسائي (١/ ١٤١)، وأحمد (١/ ١٠)، وهو ضعيف بهذا اللفظ، والحديث في الصحيحين بدون زيادة: (أو جنب) انظر: البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦).

إلى الله ﷻ، يعتبرونه عبادة؛ لأن الشياطين تحب القاذورات، تحب النجاسات، تحب الحشوش، فهو من أولياء الشياطين، يألف هذه الأشياء.

وَقَالَ عَنْ هَذِهِ الْأَخْلِيَةِ: «إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضِرَةٌ»(١)، أَيْ يَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ. [١].

وَقَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ فَلَا يَقْرَبَن مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] الحشوش: محل قضاء الحاجة، جمع حش، الشيطان هذه مأواه، كذلك ولي الشيطان يميل إليها، ويجلس فيها.

[٢] الرسول ﷺ حث على الرائحة الطيبة وعلى الطيب، حتى إنه نهى مَن أكل الثوم والبصل وما به رائحة كريهة عن أن يقرب المسجد، هم يتقربون إلى الله بالروائح الخبيثة. الخبيثتين يعني: الرديئتين؛ لأن الخبيث يطلق، ويراد به الشيء الرديء، ويطلق، ويراد به النجس والحرام.

---

(١) أخرجه أبو داود (٦)، وابن ماجه (٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٧) من قول عمر رضي الله عنه، وورد عنده (٥٦٤) من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ: «من أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ، فلا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فإن الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى منه بَنُو آدَمَ»، ورواه البخاري (٨٥٥) بلفظ: «من أَكَلَ ثُومًا أو بَصَلًا، فَلْيَعْتَزِلْنَا، أو لِيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا».

وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»(١) [١].

وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ»(٢). [٢].

وَقَالَ: «خَمْسٌ مِنْ الْفَوَاسِقِ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ وَالْفَأْرَةُ وَالْغُرَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»(٣) [٣].

الشرح:

[١] إن الله طيب لا يقبل من الأعمال والأقوال والروائح إلا الشيء الطيب، خلاف الشياطين؛ فإنها خبيثة، ولا تقبل إلا الخبائث، ولهذا كان ﷺ إذا أراد أن يدخل الخلاء يقدم رجله اليسرى، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ»(٤).

[٢] جميل يحب الجمال، الله ﷻ نظيف، وجميل، وطيب، بخلاف الشياطين؛ فإنها خبيثة، ونجسة، ووسخة.

[٣] هذه الفواسق تقتل لأذاها؛ لأنها تؤذي، هم يأكلونها، يعدونها من الطيبات، يأكلون الخنافس والعقارب، ويعتبرونها من الطيبات، ويأكلون

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ». وقال: «غريب».

(٣) أخرجه البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢، ٦٣٢٢)، ومسلم (٣٧٥).

الزنابير والذباب. ومعنى فواسق يعني: خارجات عن المألوف؛ لأن الفسق هو الخروج[1]، وإلا هن ما عندهن معاصي، ولكن فواسق بمعنى: أنهن خارجات عن المألوف في المخلوقات؛ لأنها تؤذي.

(١) قال ابن فارس في مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢): «(فَسَقَ) الْفَاءُ وَالسِّينُ وَالْقَافُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الْفِسْقُ، وَهُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ. تَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا: إِذَا خَرَجَتْ، حَكَاهُ الْفَرَّاءُ». وانظر مادة (فسق) في: لسان العرب (١٠/ ٣٠٨).

وَفِي رِوَايَةٍ: «الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ»(١).

وأَمَرَ - صلوات الله وسلامه عليه - بِقَتْلِ الْكِلَابِ(٢)، وَقَالَ: «مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لَا يُغْنِي عَنْهُ زَرْعًا وَلَا ضَرْعًا نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ»(٣).

وَقَالَ: «لَا تَصْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ»(٤).

وَقَالَ: «إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ إِحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ»(٥) [١].

الشرح:

[١] والكفار الآن يأنسون مع الكلاب ويربونها، بل إن الأثرياء منهم يوصون للكلاب بعد موتهم؛ لأنهم من جند الشيطان، الشيطان يحب الكلاب، ويقلدهم بعض المنتسبين للإسلام، يجعل الكلب في بيته، ويمشي معه، ويركبه معه في السيارة، يتشبه بالكفار، حتى رؤساء الكفار

(١) أخرجه أبو داود (١٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٣)، ومسلم (١٥٧٠) ثم نسخ القتل بما جاء عند مسلم (١٥٧٢) من حديث جابر رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب حتى إن المرأة تقدم من البادية بكلبها فنقتله ثم نهى النبي ﷺ عن قتلها، وقال: «عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ الْبَهِيمِ ذِي النُّقْطَتَيْنِ، فإنه شَيْطَانٌ».

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٢٣)، ومسلم (١٥٧٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢١١٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٧٢)، ومسلم (٢٧٩).

وملوكهم معهم كلاب؛ لأن كل شيء يميل إلى جنسه، فلما كانت طبيعتهم طبيعة كلاب، مالوا إلى الكلاب.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]. [١].

الشرح:

[١] ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الله يكتب رحمته للذين يتبعون الرسول، فالذين لا يتبعون الرسول، لا يكتب الله لهم رحمته.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، وهذا أيضا محل الشاهد ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، فصارت الطيبات حلالًا للمؤمنين، والخبائث حرامًا عليهم، لكن الشياطين وأتباع الشياطين يتغذون بالخبائث ويألفونها. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن الله حملهم إصرا وأغلالا بسبب كفرهم، فلو آمنوا بالرسول ﷺ، لوضع الله عنهم هذه الآصار والأغلال، الآصار هي: التثقيل عليهم في الأوامر والنواهي، والتشديد عليهم، والأغلال هي الأشياء التي حرمها الله عليهم، وكانت طيبة بالأول مباحة، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، الله حرم عليهم أشياء حلالا؛ عقوبة لهم، تحريم عقوبة. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ آمنوا به، وصدقوه، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني: وقروه، واحترموه، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، لا يكفي أن يعلم أنه رسول، وأنه يثني عليه، لابد أن يتبعه، وإلا فأبو طالب أثنى على الرسول ﷺ ومدحه، ومدح دينه، لكن لما لم يتبعه، مات على الكفر، صار من أهل النار - والعياذ بالله -، لابد من الاتباع، وهذا محل الشاهد: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

فَإِذَا كَانَ الشَّخْصُ مُبَاشِرًا لِلنَّجَاسَاتِ وَالْخَبَائِثِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْحَمَّامَاتِ وَالْحُشُوشِ الَّتِي تَحْضُرُهَا الشَّيَاطِينُ، أَوْ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَالزَّنَابِيرَ، وَآذَانَ الْكِلَابِ الَّتِي هِيَ خَبَائِثُ وَفَوَاسِقُ، أَوْ يَشْرَبُ الْبَوْلَ وَنَحْوَهُ مِنَ النَّجَاسَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ؛ فَيَسْتَغِيثُ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا، أَوْ يَسْجُدُ إِلَى نَاحِيَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يُخْلِصُ الدِّينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْ يُلَابِسُ الْكِلَابَ أَوِ النِّيرَانَ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَزَابِلِ وَالْمَوَاضِعِ النَّجِسَةِ، أَوْ يَأْوِي إِلَى الْمَقَابِرِ، وَلَا سِيَّمَا إِلَى مَقَابِرِ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوِ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ يَكْرَهُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ سَمَاعَ الْأَغَانِي وَالْأَشْعَارِ، وَيُؤْثِرُ سَمَاعَ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ عَلَى سَمَاعِ كَلَامِ الرَّحْمَنِ، فَهَذِهِ عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لَا عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ. [١].

الشرح:

[١] الأمر واضح جدا.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ أَحَدُكُمْ عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْقُرْآنُ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَه»(١) [١].

الشرح:

[١] من الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان أن أولياء الله يحبون القرآن، ويأنسون به، ويتلونه، ويتدبرونه، ويتلذذون به، يتقربون إلى الله ﷻ بتلاوته، وتدبره، والعمل به، ولا يصدون عنه، بل هم دائما مع القرآن، وأما أولياء الشيطان، فإنهم ينفرون من القرآن، ويستبدلونه بالأغاني والأناشيد، والدفوف والطبول وآلات اللهو؛ كما هو معلوم عن الصوفية والمبتدعة؛ أنهم مغرمون بالغناء، وآلات اللهو، فهذا من الفوارق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فإذا رأيت الرجل يحب القرآن، ويقبل عليه، ويصغي لتلاوته، فاعلم أنه من أولياء الله، وإذا رأيت الرجل يعرض عن كتاب الله، ولا يحبه، ولا يألفه، ويصد عنه، فاعلم أنه من أولياء الشيطان، ولهذا يقول ابن مسعود ﷺ: **«لَا يُسْأَلُ أَحَدُكُمْ عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْقُرْآنُ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَه»**، من كان يبغض القرآن، فإنه يبغض الله ورسوله، هذه علامة واضحة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٥٣).

وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه: لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُنَا لَمَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عز وجل[(١)]. [١] وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: الذِّكْرُ يُنْبِتُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ، وَالْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ[(٢)] [٢].

الشرح:

[١] عثمان بن عفان رضي الله عنه خليفة راشد، يقول: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُنَا»، وفي رواية: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُكُمْ مَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عز وجل»، ولا تمل من كلام الله، بل هي دائما مرتبطة به؛ لأنها تحبه؛ لأن من أحب شيئا، أكثر من ذكره، فإذا رأيت في الإنسان مللا من القرآن أو إعراضا عن القرآن، فاعلم أن قلبه فيه شيء من الخلل وعدم الطهارة.

[٢] فرق بين القرآن والغناء، القرآن كلام الله عز وجل، والغناء كلام الشياطين (شياطين الإنس والجن)، والقرآن ينبت الذكر في القلب، ومحبة الرب تبارك وتعالى؛ كما ينبت الماء البقل - وهو الخضار والزروع -، فإن الماء إذا نزل على الأرض، أنبته: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، هذا

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٥٩)، وابن المبارك في الزهد (١١٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢)، وأورده ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٥٥).

(٢) أخرجه البيهقي (١٠/ ٢٢٣) موقوفًا، وهو أصح من المرفوع الذي أخرج البيهقي (١٠/ ٢٢٣) الشطر الثاني منه مرفوعًا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ لأن فيه شيخ لم يسم، وأخرج أبو داود (٤٩٢٧) الشطر الثاني منه بدون التشبيه، وفيه ذاك الشيخ الذي لم يسم.

مثل القرآن مع القلوب، وأما الغناء، فإنه ينبت النفاق، النفاق هو: إظهار الخير، وإبطان الشر، هذا هو النفاق، فالغناء ينبت النفاق، كراهية القرآن، وكراهية الذكر، وكراهية الدين، فإذا رأيت من هو مغرم بالأغاني والمطربين فإن هذا ينبت في قلبه: النفاق، بغض القرآن، وبغض المؤمنين، والنفرة من أهل الخير. هذا نبات الأغاني والمزامير، وأصوات المطربين التي يميل إليها الفساق، والصوفية، وهم لا يتلذذون إلا بالأغاني، والطرب هو أنيسهم دائما وأبدا، في السيارات وفي البيوت، وفي أي مكان تجد الأغاني مصاحبة لهم، إما من البث الإذاعي، وإما من التسجيلات التي يصطحبونها معهم، فهذا علامة النفاق: بغض ذكر الله، وبغض الإيمان وأهل الإيمان، والنفرة منهم. فهذا فيه التحذير من الأغاني التي استحوذت على كثير من الناس اليوم، فهم مرتبطون بمواعيدها، حتى إن منهم من لا يحضر الصلاة إذا كان ذلك في وقت بث الأغاني، ويجلس عندها، ويترك صلاة الجماعة، أو يترك الصلاة في الوقت لئلا تفوته هذه الأغاني. يشجعون المغنيين والمطربين، ويسمونهم أهل الفن، وأهل الذوق، وأهل. . .، ويمنحونهم الألقاب، ويصورونهم الصور التي تتخذ للذكريات.

وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ خَبِيرًا بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ فَارِقًا بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فَيَكُونُ قَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، [١].

الشرح:

[١] القلب يكون فيه نور الإيمان، الذي يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، بين الخير والشر، وبين الكفر والإيمان، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والفرقان هو: أن يرزق الإنسان التمييز بين الأمور، أمور الخير وأمور الشر، وبين أهل الخير وأهل الشر، ومن لم يكن عنده تمييز، فإن هذا دليل على أن قلبه مظلم، ليس فيه نور، ولهذا قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، فهذه الآية خطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل السابقين، أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ؛ ليحصلوا على الأجرين: أجر الإيمان بالرسل السابقين وأجر الإيمان بمحمد ﷺ، هذه فائدة.

والفائدة الثانية: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، ونور القلوب هو الأصل، ما النور؟ المراد به النور الحسي، نور الشمس، ونور الكهرباء؟

هذا نعم مفيد وطيب، لكن ليس هو المقصود، المقصود: نور القلب، قد يكون الإنسان أعمى في بصره، لكن الله نور قلبه بالإيمان والعلم، والله ﷻ قال في آية سورة الحج: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فكم من أعمى البصر، لكنه مستنير القلب بالعلم والإيمان، وكم من مبصر أعمى القلب - والعياذ بالله -، فالعمدة على نور القلب، وعلى بصيرة القلب، فإذا اجتمعت بصيرة البصر وبصيرة القلب، فهذه نعمة إلى نعمة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، [١].

الشرح:

[١] قال الله لنبيه محمد ﷺ ممتنا عليه مذكرا له بنعمة الله عليه في آخر سورة الشورى قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾؛ روح القلوب، تحيا به القلوب، كما أن البدن يحيا بروح الحياة الحسية، فالروح يطلق، ويراد به روح البدن، وهو الحياة الحسية التي بها يتحرك، ويمشي، ويتحسس، والإطلاق الثاني روح العلم والبصيرة، وهذا هو المراد بهذه الآية: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾، وهو القرآن والسنة، هذا روح، سماه الله روحا لأنه تحيا به القلوب، وهذا هو الروح الحقيقي، ويطلق الروح، ويراد به القوة: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ أي: بقوة، ويطلق الروح، ويراد به جبريل ﷺ الروح الأمين. المراد هنا الروح الذي هو الوحي المنزل على الرسول ﷺ، سماه الله روحا؛ لأن به حياة القلوب: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾؛ أي: من شرع الله ﷻ، ثم قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، قبل البعثة ما كان الرسول ﷺ يعرف هذه الأمور، ما كان يقرأ الكتاب: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ما كان الرسول ﷺ يدري ما الكتاب، ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ تفاصيل الإيمان، وإلا فالإيمان موجود في قلبه ﷺ قبل البعثة؛ ولهذا كان مفارقا

للمشركين، وكان يعبد ربه على الحنيفية ملة إبراهيم، لكن تفاصيل الإيمان إنما عرفها بعد البعثة، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ الرسول ﷺ ما كان يقرأ، عكس ما يقوله المشركون من أن القرآن أساطير الأولين اكتتبها، وأنه أخذها عن بني إسرائيل، فهو ما كان يقرأ ﷺ، ولا كان يكتب، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢]، هذا محل الشاهد، جعلنا هذا الكتاب نورا، فالقرآن نور: ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فالهداية بيد الله، وهو أعلم بمن يستحقها ومن لا يستحقها، فلا يعطيها إلا لمن يعلم أنه يستحقها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧]؛ من يقبل الهداية ومن لا يقبلها، ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾؛ هذه هداية التوفيق والإيمان، وأما هداية الدلالة والإرشاد، فإنها عامة للمؤمن والكافر وجميع الناس، القرآن هدى للناس، بمعنى: أنه مبين لطريق الحق من طريق الضلال، مرشد، أما الهداية الخاصة، فهذه تكون لأهل الإيمان: ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ما الجمع بين هذه الآية ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبين قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؟ الجمع أن المراد بالهداية في هذه الآية: هداية الدلالة والإرشاد، والبيان، وأما ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ المراد: هداية التوفيق والإيمان، هذه بيد الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، أضافه إلى نفسه ﷻ تشريفا له.

فَهَذَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»(١) [١].

الشرح:

[١] من هداه الله إلى هذا القرآن وعمل به، صار في قلبه نور؛ نور الإيمان ونور العلم، فهو ينظر بنور الله ﷻ، ويميز بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، وبين النافع والضار، أما من حرم هذا النور، فإنه لا يميز بين الخير والشر، ولا يميز بين أولياء الله وأعداء الله، وكل الأشياء عنده سواء.

فالفراسة معناها: التفرس في الشخص، والتوقع منه، يكون عند المؤمن فراسة؛ لأنه ينظر بنور الله: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»، فهو يميز بين أهل الخير وأهل الشر، وأيضا يعرف من يتوقع منه الخير ومن يتوقع منه الشر، بمجرد أن ينظر إلى الشخص، يعرف هل هو من أهل الخير أو من أهل الشر، ويعرف، ويتوقع ما سيحصل منه في المستقبل؛ لأنه ينظر بنور الله، يميز بين الناس، ولا ينخدع بالمظاهر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٨٦) رواه الطبراني عن أبي أسامة واسناده حسن.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، قَالَ فِيهِ: «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»(١) [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث يفسر بعضه بعضا، ويوضح بعضه بعضا، بيّن ﷺ ما أوحاه الله إليه، وعلمه به، وهو هذا الحديث القدسي؛ أن الله ﷻ قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، هذا محل الشاهد؛ أن التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة يسبب محبة الله له، كما أن معصية الله تسبب بغض الله للعبد، الله يحب التوابين، ويحب المتقين، ويحب المتطهرين، ويحب المحسنين، يحب أهل الأعمال الصالحة الذين يتقربون إليه بالطاعات: الفرائض، والنوافل، هذا سبب محبة الله للعبد، وولاية الله للعبد: «وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ

(١) سبق تخريجه (ص ٦١).

بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، ما معنى هذا؟ فسره بقوله: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»، بمعنى أنه لا يستعمل هذه الحواس وهذه الأعضاء إلا في طاعة الله ﷻ، فلا يبصر ما يغضب الله، لا يبصر ما يغضب الله وما حرم الله النظر إليه: من النساء، والعورات المحرمة، لا يبصر إلا في طاعة الله، لا ينظر في الأفلام الخليعة والإنترنت الفاسد، ما ينظر في هذه الأشياء، ينفر منها، إنما ينظر إلى ما ينفعه؛ لأنه يبصر بالله ﷻ وبتوفيقه، «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ»، كذلك لا يستمع إلى الأغاني والمزامير والملاهي وإنما يستمع لذكر الله وللقرآن، وللتسبيح والتهليل، فلا يسمع إلا ما يفيده، ولا يستمع إلى الغيبة، والنميمة، وقول الزور، واللغو، وإنما يستمع لما فيه خير؛ لأنه يسمع بالله ﷻ، وكذلك لا يأخذ ويعطي بيده إلا ما كان من طاعة الله ﷻ، يأخذ ويعطي من الخير، يستعمل يده في الخير، ولا يستعملها في الشر، وأذية الناس، وظلم الناس، قتل الناس، وضرب الناس بغير حق، ولا يمشي إلا إلى طاعة الله، يمشي إلى طلب العلم، إلى حلق الذكر، إلى المحاضرات، إلى الندوات المفيدة، إلى الدروس؛ ليتفقه في دين الله، يمشي إلى المساجد لأداء الصلوات فيها، والجلوس فيها، ولا يمشي إلى المسارح، وإلى محلات اللهو، والتجمعات الفاسدة، بل يكرهها وينفر منها؛ لأن الله سدده في مشيه، سدده في بطش يده، سدده في سمعه، سدده في بصره، وليس معنى الحديث ما يقوله الحلولية: إن الله يحل في الإنسان - تعالى الله عن ذلك -؛ لأن الحديث يفسر بعضه بعضا، وقد فسر الحديث الرسول ﷺ، أو فسره الله، والرسول ﷺ يروي عن ربه ﷻ: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»، ثم قال: «وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ

اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»؛ لأن الله معه، وتولاه ﷻ، ثم قال ﷺ: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي في قبض نَفْسِ عبدي الْمُؤْمِنِ»، هل الله يتردد؟ فسره بقوله: «يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، معنى تردد الله: كراهته لما يكرهه عبده، كراهة طبيعية، يكره الموت كراهة طبيعية، الله يكره ما يكرهه عبده، ولكن لابد له من الموت، فمعنى (تَرَدَّدْتُ) يعني: أكره ما يكرهه عبدي المؤمن.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ فُرِّقَ بَيْنَ حَالِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ [١] كَمَا يُفَرِّقُ الصَّيْرَفِيُّ بَيْنَ الدِّرْهَمِ الْجَيِّدِ وَالدِّرْهَمِ الزَّيْفِ، [٢].

الشرح:

[١] لأنه لابد أن الدنيا فيها أولياء للرحمن وأولياء للشيطان، ليس كل من في الدنيا أولياء للرحمن، ولا هم كلهم أولياء للشيطان، بل فيها من هو ولي للرحمن، ومن هو ولي للشيطان، ولا يميز العبد بين الفريقين إلا بالإيمان، ونور العلم، ونور العبادة التي يجعلها الله في قلبه.

[٢] أما الذي يظن أن من كان عنده خوارق للعادة ولي لله مطلقا، هذا لا يميز بين الحق والباطل، الخوارق للعادة لا تدل على الولاية، حتى يرى ما عليه صاحبها، فإن كان صاحبها على طاعة الله وعبادة الله، فإنها كرامات أجراها الله على يده إكراما له، ولحاجته إليها، أو حاجة غيره، أما إن كان صاحب هذه الخوارق عاصيا لله، مضيعا لفرائضه، مرتكبا لمحارم الله، فهذا ولي من أولياء الشيطان، وهذه الخوارق خوارق شيطانية، وليست كرامات، فلابد أن المسلم يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بأعمالهم التي تصدر منهم، ولاينظر إلى مظاهرهم فقط؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

الصيارفة - صيارفة الذهب والفضة -، إذا جيء لهم بالذهب والفضة، عرفوا المعدن الصحيح الخالص من الذهب والفضة من المعدن المغشوش، حينما يسمع صوت النقد يعرف أنه مغشوش، أو أنه صحيح، بمجرد سماع صوته، أو وضعه في المختبر، هؤلاء الصيارفة يعرفون زيف النقود من غشها، كذلك ولي الله يعرف أولياء الله من أعداء الله. ويميز بينهم كما يميز الصيرفي.

وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْلَ بَيْنَ الْفَرَسِ الْجَيِّدِ وَالْفَرَسِ الرَّدِيءِ، [١] وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْفُرُوسِيَّةَ بَيْنَ الشُّجَاعِ وَالْجَبَانِ، [٢].

الشرح:

[١] الخيل في ظاهرها سواء، لكن في مخبرها، وفي صفاتها، ومنافعها تختلف، فلا يعرفها إلا الفرسان الذين مارسوها، وميزوها، أما الذي لا يعرف، فكل الخيل عنده سواء.

[٢] وكذلك كل الناس يركبون الخيل، لكن منهم الجبان الرعديد الذي لا تحمله أعضاؤه عند الفزع وعند الخوف، ولو كان يركب الخيل يسقط، ومنهم الفارس الشجاع الذي لا يبالي بلقاء العدو، فما كل من يركب الخيل يكون فارسا، ولا يميز هذا إلا الفرسان، يعرفون الشجعان من الجبناء، كل شيء له مَهَرَةٌ يعرفونه، ويميزون هذا من هذا في كل فن.

وَكَمَا أَنَّهُ يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ وَبَيْنَ الْمُتَنَبِّئِ الْكَذَّابِ، [١] فَيُفَرِّقُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمُوسَى وَالْمَسِيحِ وَغَيْرِهِمْ وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ(١)، [٢].

الشرح:

[١] كذلك النبوة: كثير ممن يدعون النبوة، وقد يكون بخوارق، ويقولون: هذه معجزات، وهي -كما سبق- خوارق شيطانية، ليست معجزات، ولا يميز النبي الصادق من المتنبئ الكاذب إلا أهل الإيمان وأهل العلم وأهل البصيرة، الذين يعرفون علامات النبوة، ودلائل النبوة من غيرها، فالنبي له علامات، وله معجزات، وله دلائل تميزه عن الكذاب المتنبئ.

[٢] يفرق بين أنبياء الله بعلامات النبوة، التي تدل على صدقهم، وبين المتنبئين الكذبة الذين يروجون على الناس، ويدجلون على الناس، وهؤلاء يفتضح أمرهم عما قريب، أما الأنبياء فيبقى أثرهم، ودلالاتهم، ومعجزاتهم تبقى على مر الدهور، فيفرق ولي الله الذي استنار قلبه بالعلم

---

(١) مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي، لقب برحمن اليمامة فدمغه الله بالكذب فلا يقال: مسيلمة، إلا ومعها الكذاب، ادعى النبوة وارتد عن الإسلام، ثم قتله وحشي قاتل حمزة بحربته، رماه بها فخرجت من الجانب الآخر وذلك في حرب المرتدين في عهد أبي بكر رضي الله عنه. انظر: فتوح البلدان (ص٩٧)، والكامل في التاريخ (٢/ ١٦٧)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٦٤).

والإيمان، يفرق بين محمد وبين مسيلمة والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، الذين ادعوا النبوة بعد رسول الله ﷺ، ومسيلمة والأسود العنسي ادعيا النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، ولكن المؤمنين قتلوهم، وبطل شرهم عن المسلمين، فالمتنبئون ينقطع شرهم عما قليل، ويظهر كذبهم، ويقطع الله دابرهم، أما الأنبياء، فتبقى آثارهم الصحيحة، وإيمانهم ودينهم. فرق بين هؤلاء وبين أنبياء الله إبراهيم وموسى، ونوح ومحمد، وأنبياء الله ﷺ فرق بينهم وبين الكذبة. مسيلمة هذا الذي ظهر في اليمامة، وجهز له أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد بجيش المسلمين، وحصل قتال شديد، انتهى بقتل مسيلمة وإراحة المسلمين من شره، وانقطع خبره وذكره، والحمد لله.

وَالْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ(١)، وَطُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ(٢)، وَالْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ(٣)[١].

الشرح:

[١] وكذلك الأسود العنسي في اليمن، كان دخل في الإسلام، ثم ارتد، وادعى النبوة، واجتمع حوله من اجتمع، وصار له شوكة، فالنبي ﷺ أمر

---

(١) الأسود العنسي الكذاب خرج بصنعاء وادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ واسمه عبهلة ابن كعب وكان يقال له: ذو الخمار بالخاء المعجمة؛ لأنه كان يخمر وجهه، وقيل: هو اسم شيطانه. انظر: تاريخ دمشق (٤٩/ ٤٨٣)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٠٧)، وفتح الباري (٨/ ٩٣).

(٢) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدي، كان ممن شهد مع الأحزاب الخندق ثم قدم على رسول الله ﷺ سنة تسع، فأسلم ثم ارتد وادعى النبوة في عهد أبي بكر الصديق، وكانت له مع المسلمين وقائع ثم خذله الله فهرب حتى لحق بأعمال دمشق، ونزل على آل جفنة، ثم أسلم وقدم مكة معتمرًا، ثم خرج إلى الشام مجاهدًا وشهد اليرموك وشهد بعض حروب الفرس. انظر: تاريخ دمشق (٢٥/ ١٤٩)، والإصابة (٣/ ٥٤٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١١٨).

(٣) الحارث بن سعيد الدمشقي الكذاب المتنبي صلبه عبد الملك بن مروان، وكان الحارث من أهل دمشق، وكان متعبدًا، ويتكلم في التحميد بكلام لم يسمع مثله، فتعرض له إبليس فأغواه، فتوهم أنه نبي، فكان يجيء إلى أهل المسجد فيذاكرهم مرة، ويريهم الأعاجيب حتى كان يأتي إلى رخامة المسجد فينقرها بيده فتسبح، وكان يطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء، فبلغ أمره القاسم بن مخيمرة فكلمه، فقال له شيء، فقال: كذبت يا عدو الله، وقام فدخل على عبد الملك فبعث في طلبه، فلم يقدر عليه، واختفى الحارث ببيت المقدس فلم يزل عبد الملك يطلبه إلى أن قبض عليه ثم أمر بصلبه ثم أمر به فطعن حتى قتل. انظر: لسان الميزان (٢/ ١٥١)، وتاريخ دمشق (١١/ ٤٢٧).

المؤمنين الذين حوله أن يقتلوه، فقتلوه، وأراحوا المسلمين من شره، فانقطع خبره، وانتهى أمره، والحمد لله.

وأما طليحة الأسدي: هذا أسلم، ثم ارتد مع المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ وقاتله الصحابة حتى انهزم، ثم إنه بعد ذلك منّ الله عليه بالتوبة، وتاب إلى الله، ويقال: إنه قتل شهيدا في حروب فارس.

والحارث الدمشقي: هذا على وقت عبد الملك بن مروان، الحارث الأعور الدمشقي ادعى النبوة، وطلبه عبد الملك حتى أمسكه، وقتله، وصلبه.

وَبَابَاهُ الرُّومِيِّ(١)، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكَذَّابِينَ(٢).

وَكَذَلِكَ يُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الضَّالِّينَ. [١].

الشرح:

[١] يفرق بين الأنبياء وبين المتنبئين، المؤمن يفرق بين الأنبياء والمتنبئين؛ لأن الأنبياء لهم دلائل النبوة وعلامات النبوة عليهم، بخلاف الكذابين؛ فليس معهم دلائل، وإنما هم ملبسون على الناس، وكذلك المؤمن يفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فأولياء الله لهم علامات واضحة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٣]، هذه علاماتهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وأما أولياء الشيطان، فهم الفجرة

---

(١) جاء في تاريخ الإسلام (١/ ٤٦٧٠)، والوافي في الوفيات (١/ ١٣٥١) في أحداث سنة ٦٣٨، قالا: وفيها ظهر بالروم البابا التركماني وادعى النبوة وكان يقول: لا إله إلا الله البابا ولي الله، واجتمع عليه خلق عظيم فجهز صاحب الروم جيشًا لقتاله، فالتقوا، وقتل في الوقعة أربعة آلاف، وقتل البابا.

(٢) مثل المختار بن أبي عبيد الكذاب الذي ادعى النبوة وكان قد خرج في أيام ابن الزبير، فجهز ابن الزبير لقتاله إلى أن ظفر به في سنة سبع وستين وقتله. انظر: تاريخ الخلفاء (ص١٨٧).

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية (١٤/ ٩٦) في أحداث سنة ٧٢٠ أنه ضربت عنق شخص يقال له: عبد الله الرومي، وكان غلامًا لبعض التجار، وكان قد لزم الجامع ثم ادعى النبوة، واستتيب فلم يرجع، فضربت عنقه، وكان أشقر أزرق العينين جاهلًا، وكان قد خالطه شيطان حسن له ذلك واضطرب عقله في نفس الأمر، وهو في نفسه شيطان إنس.

والكذبة والعصاة، الذين يتبعون شهواتهم، ويضيعون الفرائض، ويرتكبون الجرائم، ومع هذا يزعمون أنهم أولياء الله، وهم أعداء لله، لكن يصدقهم من ليس في قلبه نور ولا إيمان، ويقول: هؤلاء أولياء لله. وهم كثير، الذين صدقوا هؤلاء كثير من الخلق، فصاروا يعتقدون فيهم الولاية، ويعبدونهم من دون الله، ويذبحون لهم، وينذرون لهم - والعياذ بالله -، وحتى لو ثبت أنه ولي لله، فإنه لا يعبد، لا تجوز عبادته، ولو كان هو يدعو إلى عبادته -عبادة نفسه -، لم يكن وليًا لله، فإنه ولي للشيطان، لكن هناك من عباد الله ومن المؤمنين من ينكرون هذا، ولكن عُبدوا بعد موتهم، وبني على قبورهم بعد موتهم، فهؤلاء أولياء الله، لكن لا تجوز عبادتهم، العبادة حق لله ﷻ.

فَصْلٌ

وَالْحَقِيقَةُ حَقِيقَةُ الدِّينِ - دِينُ رَبِّ الْعَالَمِينَ - هِيَ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ؛ [١].

الشرح:

[١] الحقيقة هي حقيقة الدين، الذي عليه الأنبياء والمرسلون؛ من أولهم إلى آخرهم، وهي حقيقة الإسلام؛ لأن الأنبياء وأتباعهم كلهم مسلمون؛ لأن الإسلام معناه: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهذا دين الأنبياء جميعا، كلهم مسلمون، وأتباعهم مسلمون، وكل من اتبع نبيًّا من أنبياء الله، فإنه مسلم، إلى أن ختموا بمحمد ﷺ، فصار المسلم هو من اتبع محمدا ﷺ؛ لأن رسالته عامة، ولأن دينه باق لا ينسخ إلى أن تقوم الساعة، فلا يسع أحدا من اليهود والنصارى وجميع الملل، بعد بعثة محمد ﷺ إلا أن يتبعه، ويؤمن به، لا يسع أحدا إلا الإيمان بمحمد ﷺ، لا يسع أحدا أن يتبع نبيًّا من الأنبياء بعد بعثة محمد ﷺ، لا يسع أحدا أن يتعلق بولي من الأولياء، ويعبده من دون الله، أو يتبعه، لو ما عبده، لا يجوز له أن يتبعه، إذا خالف رسول الله ﷺ، ولو كان وليًّا، ولو كان عالما، ولو كان. . .، لا تجوز الطاعة إلا لله ولرسوله، هذه هي الحقيقة، فالأنبياء وأتباعهم كلهم مسلمون؛ لأنهم يعبدون الله بما شرعه لهم، كل وقت بحسبه، تنسخ الشريعة، وتأتي شريعة أخرى، ثم تنسخ، وتأتي شريعة

أخرى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، إلى أن بُعث محمد ﷺ، فصارت الشريعة شريعته الباقية التي لاتنسخ، ولا تبدل، ولا تغير.

وكل الأنبياء والمرسلون اتفقوا على توحيد الله والنهي عن الشرك: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] كل الأنبياء يأمرون بعبادة الله وترك عبادة ما سواه، يأمرون بالتوحيد، وينهون عن الشرك، هذا عليه جميع الأنبياء عليهم السلام، ويعبدون الله بشرائعهم التي شرعها لهم في أوقاتهم.

وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَاجٌ. [١].

فَالشِّرْعَةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ، [٢] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]، [٣].

الشرح:

[١] ما دام أنه شرع لله، فإن التمسك به عبادة لله، إلى أن ينسخ، فإذا نسخ، يترك العمل بالمنسوخ، ويؤخذ بالناسخ، فعبادة الله هي العمل بالشريعة في وقتها قبل أن تنسخ، فإذا نسخت، ينتقل إلى الناسخ، ويترك المنسوخ؛ لأن الأمر أمر الله ﷻ.

[٢] شرعة يعني: شريعة، فالأنبياء لهم شرائع يختلف بعضها عن بعض، ولكن ما دامت الشريعة لم تنسخ، فإنه يجب العمل بها، والعمل بها عبادة لله ﷻ. والشريعة للماء، يقال لمورد الماء: شريعة، شريعة الماء يعني: مورد الماء، الشرعة[1].

[٣] فأخبر أن الله جعل للأنبياء السابقين شرائع، وجعل لمحمد ﷺ

---

(١) قال ابن فارس في مقاييس اللغة (٣/ ٢٦٢): «(شَرَعَ) الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ شَيْءٌ يُفْتَحُ فِي امْتِدَادٍ يَكُونُ فِيهِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّرِيعَةُ، وَهِيَ مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ الْمَاءَ. وَاشْتُقَّ مِنْ ذَلِكَ الشِّرْعَةُ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ». وانظر مادة (شرع) في لسان العرب (٨/ ١٧٥).

شريعة، وأمره باتباعها هو ومن آمن به. فمن لم يتبع شريعة محمد ﷺ، فهو متبع لهواه، ما يقول: أنا متبع لموسى أو لعيسى، بل هو متبع لهواه؛ لأن شريعة موسى وعيسى عليهما السلام قد انتهت، ونسخت، فهذا متبع لهواه، قال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]، فالذي لا يتبع الرسول محمدًا ﷺ متبع لهواه، وإن قال: إنه متبع لموسى أو لعيسى عليهما السلام، فهو كذاب؛ لأن موسى وعيسى وجميع الأنبياء حثوا على اتباع محمد ﷺ إذا بعث، حتى إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء أنفسهم - كما سبق - أنه إذا بعث محمد ﷺ، ومنهم أحد حي، لابد أن يتبعه، أن يتبع محمدا ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ﴾ [آل عمران: ٨١]، أخذ الله الميثاق على الأنبياء أن يتبعوا محمدا ﷺ إذا بعث، فكيف بغير الأنبياء؟!

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩] الظالمون بعضهم أولياء بعض؛ كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩] يسلط الله الظلمة بعضهم على بعض، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أما المؤمنون، فإن الله هو وليهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وَ«الْمِنْهَاجُ» هُوَ الطَّرِيقُ؛ [١] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦ - ١٧]. [٢].

الشرح:

[١] الشريعة: هي الملة، والمنهاج: هو الطريق الذي يسير عليه الإنسان في دينه.

[٢] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾؛ أي: على الطريق الصحيح الموصل إلى الله، لسقاهم الله المطر، وأنزله عليهم في حينه وفي أوقاته؛ ماء غدقا، ولكن انحباس المطر إنما هو بذنوب بني آدم، يحبس الله المطر بسبب ذنوب بني آدم، الشاهد من قول: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦]؛ أي: على المنهج الرباني.

فَالشِّرْعَةُ بِمَنْزِلَةِ الشَّرِيعَةِ لِلنَّهْرِ، وَالْمِنْهَاجُ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكَ فِيهِ، وَالْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ هِيَ حَقِيقَةُ الدِّينِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ، [١].

الشرح:

[١] عبادة الله وحده لا شريك له هي حقيقة دين الإسلام، الذي هو دين جميع الأنبياء، ولهذا قال ﷺ: «**الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)؛ مثل الإخوة من الأب: أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد، فدين الأنبياء واحد، وهو الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم التي شرع الله لهم؛ لأن الله يشرع لكل أمة ما يناسبها في وقتها، كل أمة يشرع الله لها ما يناسبها في وقتها، ثم ينسخ الله ذلك بما يناسب الوقت المستقبل وهكذا، إلى أن بُعث محمد ﷺ، فشرع الله له دين الإسلام، الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الصالح لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة.

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، لا يستسلم لغير الله، فمن استسلم لله وحده، فهو المسلم حقا، ومن استسلم لله ولغيره، فهو مشرك، ومن لم يستسلم لله، فهو ملحد ومستكبر.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٧٧).

وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا يَسْتَسْلِمُ لِغَيْرِهِ، فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لِلَّهِ بَلْ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَتِهِ كَانَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وَدِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، [١] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

فَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَالْحَوَارِيُّونَ كُلُّهُمْ دِينُهُمْ الْإِسْلَامُ، الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، [٢].

الشرح:

[١] الذي معناه التوحيد وإخلاص العبادة لله هذا دين جميع الأنبياء وأتباعهم، كلهم على إخلاص العبادة لله، وتجنب الشرك بالله ﷻ، وسيذكر الشيخ آيات من القرآن تدل على هذا.

[٢] الذي هو التوحيد، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾، الذي هو التوحيد وتجنب الشرك، هذا هو الإسلام.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٢] [٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وَقَالَ السَّحَرَةُ: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦]. [٣].

الشرح:

[١] فهذا نوح أول الرسل عليه السلام قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فهو مسلم.

[٢] فهذا إبراهيم عليه السلام مسلم: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١ - ١٣٢]، فذرية إبراهيم ويعقوب مسلمون.

[٣] هؤلاء قوم موسى عليه السلام، الذين آمنوا به مسلمون.

والسحرة الذين جاء بهم فرعون؛ ليقابلوا معجزات موسى عليه السلام، لما تبين

لهم أن ما مع موسى وهارون ليس سحرا، وإنما هو معجزة؛ لأنها لا صنع للبشر فيها، ليست سحرا، فلما تبين لهم هذا، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، لما هددهم فرعون بالقتل والصلب، ما بالَوا بهذا، قالوا: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢-٧٣]، فقتلهم، ونفذ فيهم، لكنهم ماتوا مسلمين تائبين.

وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. [١].

وَقَالَتْ بِلْقِيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. [٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]. [٣].

الشرح:

[١] يوسف عليه السلام بعدما جرى عليه من المحن، وما أكرمه الله به في النهاية من الملك، واجتماع الشمل، شكر الله على ذلك: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، سأل الله حسن الخاتمة، وأن يتوفاه الله مسلما، فدل على أن يوسف عليه السلام أيضا مسلم.

[٢] بلقيس ملكة اليمن، في ديار سبأ، وكان لها مع سليمان عليه السلام قصة ذكرها الله في سورة النمل، انتهى أمرها بأنها لما رأت ما أعطى الله سليمان عليه السلام من النبوة والرسالة، أعلنت إسلامها، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]

[٣] التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤]، والتوراة هي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، وهي كتاب عظيم، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، النبيون الذين جاءوا من بعد موسى يحكمون بالتوراة؛ أنبياء بني إسرائيل ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ

ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾، فدل على أن أنبياء بني إسرائيل يسمون مسلمين.

﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، النبيون يحكمون بين اليهود بالتوراة.

وَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] [١].

فَدِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ»(١). [٢].

الشرح:

[١] لما عيسى عليه السلام قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، لما تطاول عليه الكفار، وضايقوه، قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾، وهم تلاميذه وأتباعه: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣]، فأتباع عيسى عليه السلام مسلمون.

[٢] انظر: (وَإِنْ تَنَوَّعَتْ)؛ لأنها شرائع الله، وأوامر الله تعالى، فمن أطاع الله وفق شريعة من الشرائع في وقتها قبل أن تنسخ، فإنه مسلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

«الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، [١].

الشرح:

[١] ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾، وهو التوحيد، ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أول الرسل ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، هؤلاء الخمسة هم أولو العزم، فدينهم واحد، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، فدينهم واحد عليهم السلام، وهو التوحيد، وترك الشرك والابتعاد عنه.

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، هذا ما أوصاهم الله به: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو التوحيد، وعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ العقيدة لا يجوز الاختلاف فيها، ولا التفرق فيها، لا يجوز هذا؛ العقيدة واحدة، وهي إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، المشرك ينفر من التوحيد، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، وهذه الحقيقة مشكلة؛ لأن بعض الناس الآن يكره ذكر التوحيد، والدعوة إلى التوحيد، ويقول:

---

(١) سبق تخريجه (ص ٧٧).

لا تنفروا الناس بالتوحيد بالعقيدة، هذا خطر عظيم، الذي يكره التوحيد عليه خطر عظيم، يكون من الكفار: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]، فلا يكره التوحيد من في قلبه إيمان.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣]. [١].

الشرح:

[١] الشاهد في قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾، فدين الأنبياء واحد، وهم أمة واحدة، كلهم على التوحيد والإيمان بالله، فهم أمة واحدة من أولهم إلى آخره.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أمرهم الله أن يكونوا أمة واحدة على التوحيد والإيمان، ولكنهم اختلفوا وتفرقوا، ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ كتبًا، كل واحد عنده كتب ومؤلفات تخالف ما عليه الآخر، ويرد على الآخر، ويكفر الآخر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهذا ما حذر الله منه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾، هذه المشكلة أيضًا، يمكن أن يقع الاختلاف، لكن إذا حصل الاختلاف، فالإنسان ما يجزم أنه على صواب، وأن مخالفه على خطأ، ما يجزم بهذا، بل يحتمل العكس، يحتمل أن مخالفه هو المحق، وأنه هو على خطأ، أما إذا جزم أنه على حق، وأن مخالفه مخطئ، فهذه مصيبة؛ لأنه لا يرجع، أما الأول يمكن يرجع، لكن الذي يجزم أنه على صواب، وأن مخالفه على خطأ، هذا لا يرجع؛ ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

فَصْلٌ

وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَسَائِرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، [١].

الشرح:

[١] اتفق المسلمون والسلف الصالح وأئمة الهدى وسائر أهل السنة أن أفضل أولياء الله هم الأنبياء، وأنهم أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، فلا أحد يساوي النبيين في منزلتهم عند الله ﷻ؛ لأن النبوة لا يعدلها شيء من الفضائل، ثم يأتي من بعد الأنبياء الصديقون: جمع صِدِّيق، وهو الكثير الصدق، الذي لا يصدر عنه كذب؛ كما قال ﷺ: «**وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا**»[١]، فالصديق هو كثير الصدق، الذي يقول الصدق ويتحراه، يتحرى الصدق فيما يبلغه، وفيما يسمعه، يتحرى الصدق، فلا يخبر إلا بما رآه صدقا، فهو يحب الصدق دائما مع الله، والصدق مع الخلق، هذا هو الصديق، ثم من بعده الشهداء، ثم من بعد الشهداء بقية المؤمنين؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، هذه مراتب أهل الفضل في هذه الأمة: الأنبياء، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، وأما عند الصوفية فعندهم ينقسم الأولياء إلى خاتم الأولياء

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وغيره، فعندهم أفضل الأولياء: خاتمهم، فهو أفضل من بقية الأولياء، ومنهم من يغلو، فيقول: الأولياء أفضل من الأنبياء، خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء - كما يأتي -، هذه طريقة الصوفية؛ أنهم يغلون في الأولياء، حتى إن منهم من يفضلهم على الأنبياء - والعياذ بالله-، ولهذا يقول شاعرهم[(١)]:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ   فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ

فصار الولي عندهم فوق الرسول، وهذا أعظم الضلال - والعياذ بالله -؛ لأنهم يقولون: إن الولي يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه النبي، فيفضلون الولي، النبي يأخذ بواسطة: بالملك، وأما الولي، فهو يأخذ مباشرة عن الله ﷻ، بدون واسطة، فيزعمون لأوليائهم أنهم يجالسون الله ﷻ، وأن الله يعطيهم من العلم مباشرة، هذا كله نتيجة - العياذ بالله - الضلال، واتباع الشيطان، والإعراض عن الكتاب والسنة.

والصحيح أن الأنبياء أولياء، لكنهم أفضل الأولياء.

---

(١) قائل هذا البيت هو ابن عربي كما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة (٨/ ٢٢)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية (٥٥٦).

وَقَدْ رَتَّبَ اللَّهُ عِبَادَهُ السُّعَدَاءَ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]. [١].

وَفِي الحديث: «مَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»(١). [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، من هم المنعم عليهم؟ ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ أربع مراتب: الأنبياء، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، هذه مراتب المؤمنين عند الله ﷻ.

[٢] هذا الحديث يدل على فضيلة أبي بكر، وأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن هذا الحديث فيه مقال، ولكن أبا بكر الصديق ﵁ ثبتت فضائله في نصوص كثيرة:

* من القرآن قوله ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، فصاحبه هو أبو بكر ﵁ ثاني اثنين: الرسول

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (ص١٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٢٥)، وابن حبان في الثقات (٧/ ٩٤)، وزاد: (وعمر)، والخطيب في تاريخه (١٢/ ٤٣٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢٠٨)، وزاد: (وعمر)، والواسطي في تاريخه (ص ٢٤٨).

وأبو بكر، رفيقه في الهجرة، ورفيقه بعد البعثة في مكة، فكان ملازما للرسول ﷺ، من بعثته إلى أن توفاه الله، وقال ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»(١) فهذا يدل على فضله، وأنه أفضل الصحابة.

* ولما مرض ﷺ، عهد إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فراجعته عائشة رضي الله عنها في أن يأمر عمر رضي الله عنه؛ لأنه أرفع صوتا من أبي بكر رضي الله عنه، فغضب ﷺ عليها، قال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»(٢)، فهذا دليل على فضل أبي بكر رضي الله عنه، ومناقبه كثيرة، فهي تعضد هذا الحديث؛ لأن أبا بكر هو أفضل الخلق بعد النبيين، وهذا مثل قوله ﷻ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وأبو بكر رضي الله عنه من الصديقين.

* والله ﷻ وصف أبا بكر بأنه من أولي الفضل في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النور: ٢٢]، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان قريبا له، بسبب أنه تكلم مع الذين تكلموا في الإفك، فحلف ألا ينفق عليه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾(٣)، يأتل يعني: يحلف، ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٧٩، ٦٨٣، ٦٨٧، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٦، ٢٥٨٨، ٣٠٩٩، ٣٣٨٤، ٤٤٤٢، ٤٤٤٥، ٥٧١٤)، ومسلم (٤١٨، ٤٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري مطولا (٢٥٩٣، ٢٦٣٧، ٢٦٦١، ٢٦٨٨، ٢٨٧٩، ٤٠٢٥، ٤١٤١، ٤٦٩٠، ٤٧٤٩، ٤٧٥٠، ٤٧٥٧، ٥٢١٢، ٦٦٦٢، ٦٦٧٩، ٧٣٦٩، ٧٣٧٠، ٧٥٠٠، ٧٥٤٥)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢٢]، فأثنى على مسطح؛ لأنه من المهاجرين في سبيل الله، وإن كان حصل منه من الخطأ ما حصل، لكن هذا لا يلغي فضيلته، وأمر أبا بكر أن يعيد عليه النفقة، الشاهد قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾، فوصف أبا بكر بأنه من أولي الفضل، وهذا وصف من الله ﷻ في كتابه لهذا الرجل العظيم.

* يكفيك أنه لما مات النبي ﷺ، وارتد كثير من العرب، من الذي وقف في وجوه أهل الردة، وثبت الله به الإسلام؟ هو أبو بكر رضي الله عنه.

* ولما مات الرسول ﷺ، وارتجف الصحابة، وأصابتهم مصيبة، حتى فقدوا توازنهم عند المصيبة إلا أبا بكر رضي الله عنه؛ لقوة إيمانه، فإنه ثبت، وأخبرهم أن النبي ﷺ قد مات، وقال: «**مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ**»(١)، فثبت في هذه الحادثة العظيمة ثبات الجبال، فله مواقف رضي الله عنه لم يقفها غيره من الصحابة، فدل على فضله؛ ولذلك كان الصحابة يعترفون له بالفضل، ويقدمونه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٨).

وَأَفْضَلُ الْأُمَمِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، [١] قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، **وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾** [فاطر: ٣٢]. **[٢].**

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي الْمُسْنَدِ: «أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»(١). [٣].

الشرح:

[١] فأفضل الأمم أمة محمد ﷺ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فوصفهم الله بأنهم خير أمة أخرجت للناس في الأولين والآخرين، وأفضل هذه الأمة صحابة رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة أبو بكر رضي الله عنه، ثم بقية الخلفاء الراشدين، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة.

[٢] يعني: القرآن. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾، فهذا فيه فضل هذه الأمة؛ أن الله اصطفاه، ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ فهي مصطفاة، مختارة من الله تبارك وتعالى، هذا يدل على فضل هذه الأمة.

[٣] وهذا الحديث يدل على فضل هذه الأمة، وأن ذلك يظهر يوم القيامة إذا اجتمعت الأمم، سبعون أمة هذه الأمة هم خيرها، وأكرمها على الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨).

وَأَفْضَلُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقَرْنُ الْأَوَّلُ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْت فِيهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ﷺ»(١)، وَهَذَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ. [١].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْهُ ﷺ أنه قال: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] أفضل أمة محمد ﷺ القرن الأول، وهم الصحابة الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، وصحبوه، وتعلموا منه، وجاهدوا معه، ثم من بعدهم القرن الثاني، وهو جيل التابعين، الذين تتلمذوا على صحابة رسول الله ﷺ، ثم من بعدهم الجيل الثالث، وهم أتباع التابعين، الذين تعلموا على التابعين، هذه خير القرون، «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»؛ شهادة الرسول ﷺ للقرون المفضلة من هذه الأمة.

[٢] وهذا الحديث فيه فضل الصحابة، والنهي عن تنقصهم، وسبهم، «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»، وهذا فيه تشريف لهم؛ أن الرسول ﷺ سماهم أصحابه ونهى عن سبهم، وبين ﷺ ما لهم من الفضل، فقال: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

أُحُدٍ ذَهَبًا»؛ أنفقه في سبيل الله، «مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»، وهو ربع الصاع الذي يتصدق به الصحابي، ما بلغ أحدكم مد أحدهم، ولا نصيفه، ولا نصف المد أيضا، كفى بذلك فضلا لهم رضي الله عنهم.

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، [١].

الشرح:

[١] السابقون الأولون أفضل من بقية الصحابة، والسابقون الأولون هم الذين أسلموا قبل الفتح، هؤلاء هم السابقون الأولون، فهم أفضل ممن أسلموا بعد الفتح (فتح مكة)، والمراد به هنا صلح الحديبية؛ لأن صلح الحديبية مقدمة لفتح مكة، وسماه الله فتحا، وأنزل الله فيه سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١]، وهو صلح الحديبية، وأما قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝﴾ [النصر: ١]، فالمراد به فتح مكة.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ وكلا وعد الله الحسنى: الذين أسلموا قبل الفتح والذين أسلموا بعد الفتح، ولكن الذين أسلموا قبل الفتح أفضل. والإسلام دين العدل، وينزل الناس منازلهم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، [١].

الشرح:

[١] وهم الذين أسلموا قبل الفتح، ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾؛ اتبعوا السابقين الأولين، ﴿بِإِحْسَـٰنٍ﴾ يعني: بإتقان، أما من ينتسب إليهم، وهو لم يتبعهم بإحسان، فهذا لا يحصل على هذا الفضل؛ لأن هناك من ينتسب إلى السلف وهو لا يعرف من هذا السلف، بل يلصق بالسلف ما لم يكن من منهجهم: من الغلو، والخروج على ولاة الأمور، وغير ذلك، فيلصق بالسلف ما ليس من منهجهم، فهذا لم يتبعهم بإحسان، بل الذي يتبعهم بإحسان هو الذي عرف منهجهم، واتبعه من غير غلو، ومن غير تساهل، هذا هو المحسن، ليس فيه غلو، وليس فيه تساهل وإضاعة، ما كل من قال: أنا من السلف، أو أنا على منهج السلف، يكون صحيحا، حتى يفهمه أولا، ثم يمشي عليه ثانيا، ولا يتجاوزه بإفراط أو تفريط، هذا هو الذي اتبعهم بإحسان.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ: صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ فَتْحِ مَكَّةَ، [١] وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢]، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوَفَتْحٌ هُوَ؟! قَالَ: «نَعَمْ»[(١)] [٢].

الشرح:

[١] هو كان مقدمة لفتح مكة، صلح الحديبية كان مقدمة لفتح مكة، وهو في السنة السابعة من الهجرة، وبعده غزا رسول الله ﷺ خيبر، فتحها الله عليه، ثم في السنة الثامنة فتح الله مكة لنبيه محمد ﷺ، دخل الناس في دين الله أفواجا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ١-٢]، جاءت الوفود من القبائل إلى رسول الله ﷺ تبايعه، وتعلن إسلامها بعد فتح مكة.

[٢] مع أن صلح الحديبية لم يظهر لبعض الصحابة رضي الله عنهم أو لكثير من الصحابة رضي الله عنهم أنه من مصلحة المسلمين، بل كانوا متضايقين منه؛ كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره، كانوا متضايقين من صلح الحديبية، ويرون أن فيه

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم(١٧٨٥) بلفظ: «فَنَزَلَ الْقُرْآنُ على رسول اللَّهِ ﷺ بِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ إلى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ أو فَتْحٌ هو؟ قال: نعم. فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ».

هضما للمسلمين وعزًّا للكفار، بينما الواقع خلاف ذلك، فصار فتحا مبينا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، وإن كان فيما يظهر لبعض الصحابة أنه هضم للمسلمين، وانتصار للكفار، لكن الحقيقة بالعكس؛ أنه هضم للكفار، ونصر للمسلمين؛ لأن الحرب وضعت أوزارها، وارتفعت سلطة الكفار عن القبائل، فصار من يريد الإسلام يسلم، ولا يخاف، وارتفعت يدهم عمن يريد الهجرة، فكانوا ينطلقون من مكة مهاجرين آمنين، بينما كانوا في الأول يخرجون مختفين، وعلى خطر، وعلى خوف؛ فهو عظيم، وأيضا صار ممهدا لفتح مكة.

وَأَفْضَلُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، [١] وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَأَئِمَّةِ الْأُمَّةِ وَجَمَاهِيرِهَا، [٢] وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ دَلَائِلُ بَسَطْنَاهَا فِي: «مِنْهَاجِ أَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي نَقْضِ كَلَامِ أَهْلِ الشِّيعَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ»(١). [٣].

الشرح:

[١] أفضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم أصحاب بدر، أصحاب بيعة الرضوان، كلهم أهل فضائل، فضائل إلى فضائل، ما بالك بالذي جمع هذه الفضائل كلها، جمع الأسبقية في الدخول في الإسلام، وهاجر في سبيل الله، وشهد بدرا، وشهد فتح مكة، وشهد المغازي مع رسول الله ﷺ كلها، ماذا يكون فضله؟

[٢] هذا لا خلاف فيه بين أهل السنة: أن أفضل الصحابة، بل أفضل الأمة أبو بكر، ثم عمر، لا أحد ينازع في هذا من أهل السنة، واختلفوا في الثالث: هل هو عثمان أو علي؟ اختلفوا في هذا، والراجح أنه عثمان رضي الله عنه؛ لأن الصحابة اختاروا عثمان، حتى علي رضي الله عنه هو ممن اختار عثمان رضي الله عنه في أصحاب الشورى، اختاروا عثمان رضي الله عنه، ما اختاروه إلا لأنه أفضل بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٤/ ٢١٤- ٢٩٨).

[٣] لا يخالف فيه إلا أهل الضلال، لا يخالف في هذا إلا أهل الضلال من الشيعة وغيرهم. وكتاب المنهاج في الرد على الحلي الشيعي (منهاج الكرامة)، سمى كتابه: منهاج الكرامة في الإمامة، فرد عليه شيخ الإسلام بكتاب (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية)، وهناك اسم آخر: (منهاج الاعتدال في الرد على أهل الرفض والاعتزال)؛ لأنه رد على الشيعة وعلى المعتزلة.

وَبِالْجُمْلَةِ اتَّفَقَتْ طَوَائِفُ السُّنَّةِ وَالشِّيعَةِ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا وَاحِدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ[1]، [١] وَلَا يَكُونُ مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّحَابَةِ، [٢].

الشرح:

[١] لكن الشيعة يقولون: عليٌّ هو أفضل بعد الرسول، وأهل السنة يقولون: أبو بكر، وأبو بكر وعلي كلاهما من الخلفاء الأربعة.

[٢] هذه قاعدة، لا يكون من بعد الصحابة ﷺ أفضل من الصحابة ﷺ أبدا، مهما بلغ من العلم والفضل، فإنه لا يصل إلى مرتبة الصحابة ﷺ؛ لأن الصحابة ﷺ يمتازون بصحبة الرسول ﷺ، وهذه مرتبة لا ينالها غيرهم، أما من جاء بعدهم، فإن كان لهم فضل وعلم وعمل، لكن يفقد صفة الصحبة للرسول ﷺ؛ فهم أفضل القرون.

---

(١) انظر: فضائل الصحابة (١/ ٣٠٣)، والسنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٢)، والجواب الصحيح (٢/ ٤٠١).

وَأَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُهُمْ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَاتِّبَاعًا لَهُ، [١] كَالصَّحَابَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ الْأُمَّةِ فِي مَعْرِفَةِ دِينِهِ وَاتِّبَاعِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ أَكْمَلُ مَعْرِفَةً بِمَا جَاءَ بِهِ وَعَمَلًا بِهِ، فَهُوَ أَفْضَلُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. [٢].

الشرح:

[١] أفضل الأولياء أعظمهم معرفة لما جاء به الرسول ﷺ، وأعظمهم اتباعا له، هذا هو أفضل الأولياء، لا كما تقول الصوفية: أفضل الأولياء خاتم الأولياء. وبعضهم يقول: خاتم الأولياء أفضل من الرسل.

[١] أبو بكر رضي الله عنه لازم النبي ﷺ من بعثته إلى وفاته، وأنفق ماله في سبيل الله، حتى إنه لا يدخر لنفسه شيئا، بل ينفق ماله، وما وصل إليه من المال في سبيل الله، ودخل معه الغار، وهاجر معه رضي الله عنه، ولما توفي الرسول ﷺ، وحصل للمسلمين هذا الارتجاج بسبب عظم المصيبة، ثبت أبو بكر رضي الله عنه، وثبتهم على هذه المصيبة واحتساب الأجر وعدم الجزع، ثبتهم رضي الله عنه، وخطب فيهم، حتى أن عمر رضي الله عنه أقر له في هذا الموقف، في هذا الموقف المخيف، ثم لما ارتدت العرب، هو الذي وقف رضي الله عنه، حتى ثبت الله به الإسلام، وكان الصحابة يلومونه، يقولون: كيف تقاتلهم، وهم يشهدون ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله؟! فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الرسول ﷺ قال: «**مَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّها**»، وإن الزكاة من حقها، «**وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا، كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى**

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا»[(١)]، فبذلك وطد الله الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، وهزم المرتدين والمنافقين، وثبت الله الإسلام بأبي بكر رضي الله عنه، فهذه مواقف عظيمة، مواقف الجبال الرواسي عند الشدائد، لم يقفها إلا أبو بكر؛ لقوة إيمانه، وصدق يقينه رضي الله عنه، وصبره على المحن والمصائب. حتى في الحديبية لما استشكل الصحابة الصلح، حتى أن عمر ذهب إلى أبي بكر، قال له: «**يَا أَبَا بَكْرٍ أَوَلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الذِّلَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا عُمَرُ الْزَمْ غَرْزَهُ حَيْثُ كَانَ؛ فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَشْهَدُ**»[(٢)] فهذا موقف أبي بكر أيضا من صلح الحديبية، لم يحصل عنده أي تردد أو أي إشكال؛ لقوة إيمانه أنه رسول الله ﷺ، وأنه لا يمكن أن يقدم على شيء إلا بأمر الله تبارك وتعالى، فلا اعتراض أبدا، ولا استشكال.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٧٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٢٣) من حديث الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ رضي الله عنهما.

إِذَا كَانَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلَ الْأُمَمِ، وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَفْضَلُهُمْ أَبُو بَكْرٍ ﵁. [١].

وَقَدْ ظَنَّ طَائِفَةٌ غَالِطَةٌ أَنَّ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ، قِيَاسًا عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، [٢].

الشرح:

[١] فضائل بعضها فوق بعض، الله ﷻ يعطي فضله من يشاء ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الرسل بعضها أفضل من بعض، كيف بغيرهم؟!

[٢] لما بين منهج أهل السنة والجماعة في الأولياء، انتقل إلى بيان منهج الصوفية -أهل الضلال- في الأولياء، فمنهم من يقول: خاتم الأولياء -وهو آخرهم- أفضل من بقية الأولياء، وإن كانوا أسبق منه، وهذا ضلال، وأشد من هذا من قالوا: إن خاتم الأولياء أفضل من الرسل، هذا أشد في الكفر والعياذ بالله.

يقولون: كما أن خاتم الأنبياء محمد ﷺ أفضل ممن سبقه من الأنبياء فكذلك خاتم الأولياء أفضل ممن سبقه من الأولياء.

وَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنْ الْمَشَايِخِ الْمُتَقَدِّمِينَ بِخَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ [١] إِلَّا مُحَمَّدُ ابْنُ عَلِيٍّ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ(١)، [٢].

الشرح:

[١] خاتم الأولياء هذا مُحْدَثٌ، العباد والصوفية الأولون وأهل الزهادة والنسك ما تكلموا بهذا، إنما تكلم بهذا المتأخرون من مشايخ الصوفية، فابتكروا قضية خاتم الأولياء.

[٢] الحكيم الترمذي هذا عالم من العلماء، لكنه عنده تصوف، وعنده فلسفة أيضا، وله شطحات، وهو مؤلف (نوادر الأصول في الحديث)، فهو صوفي وعالم، ولكنه داخله شيء من الفلسفة ومن التصوف، حتى صار حوله كلام في فضله وفي مكانته. وهو الذي ابتكر هذه المسألة، فجعل للأولياء خاتما، هو أفضلهم؛ كما جعل الله للأنبياء خاتما، هو أفضلهم، وهو محمد ﷺ.

---

(١) هو محمد بن علي بن الحسن، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، له حكم ومواعظ وجلالة لولا هفوة بدت منه. قاله الذهبي. انظر: طبقات الصوفية (ص٢١٧)، وصفة الصفوة (٤/ ١٦٧)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٣٩).

فَإِنَّهُ صَنَّفَ مُصَنَّفًا(١) غَلِطَ فِيهِ فِي مَوَاضِعَ، ثُمَّ صَارَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ يَزْعُمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ، [٢].

الشرح:

[١] لما وجدت هذه الوظيفة، كل واحد يدعيها، وهي أصلها باطلة، أصلها خرافة، لكن صار كل واحد يدعي أنه خاتم الأولياء، من أجل أن يحوز على هذا الفضل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ليست للمتقدم ولا للمتأخر، وإنما هذا فضل يؤتيه الله من يشاء.

[٢] هذه المشكلة، هذا أعظم ضلالا، بل هذا كفر بالله -نسأل الله العافية-، ولكن الذي فتح هذا الباب هو الحكيم الترمذي.

لأنهم يقولون: إنه يأخذ عن الله مباشرة، بخلاف الأنبياء؛ فإنهم يأخذون عن الله بواسطة الملك، وأما الأولياء، فهم يجالسون الله ﷻ، والله يعلمهم، فهم يتعلمون على الله!!! انظر الضلال أين يصل بالإنسان!!!

---

(١) قال أبو عبدالرحمن السلمي: أخرجوا الحكيم من ترمذ وشهدوا عليه بالكفر؛ وذلك بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية»، وكتاب «علل الشريعة»، وقالوا: إنه يقول إن للأولياء خاتمًا كالأنبياء لهم خاتم، وإنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بحديث: «يغبطهم النبيون والشهداء»، فقدم بلخ، فقبلوه لموافقته لهم في المذهب.
انظر: طبقات الصوفية (ص٢١٧)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٤١).

وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَسْتَفِيدُونَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ مِنْ جِهَتِهِ، [١] كَمَا يَزْعُمُ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبِيٍّ(١) صَاحِبُ كِتَابِ: «الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ»(٢)، وَكِتَابِ: «الْفُصُوصِ»(٣)، [٢].

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائي الأندلسي، ولد بمرسية سنة ستين وخمسمائة ونشأ بها، وانتقل إلى أشبيلية سنة ثمان وسبعين، وارتحل إلى بلاد الشام، ثم أقام بمكة مدة، صنف فيها كتابه «الفتوحات المكية» وله كتاب مسمى بـ «فصوص الحكم»، فيهما أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٥٦).

(٢) كتاب الفتوحات المكية في معرفة أسرار المالكية والملكية لابن عربي، وهو من أكبر كتبه وآخرها تأليفًا، قضى في وضعه ثلاثين سنة أو أكثر، قال فيه: كنت نويت الحج والعمرة، فلما وصلت أم القرى، أقام الله ﷻ في خاطري أن أعرف الولي بفنون من المعارف حصلتها في غيبتي، وكان الأغلب هذه منها ما فتح الله ﷻ علي عند طوافي ببيته المكرم. وقال في الباب الثامن والأربعين: واعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختياري ولا عن نظر فكري، وإنما الحق تعالى يملي لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره، وقد نذكر كلامًا بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده، وذلك شبيه بقوله ﷻ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفاة. وقال: واعلم أن جميع ما أتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، فإني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه. انتهى. انظر: كشف الظنون (٢/ ١٢٣٨)، والكتاب مطبوع في أربع مجلدات بمطبعة دار الكتب العربية.

(٣) كتاب فصوص الحكم لابن عربي. قال عنه الذهبي في الميزان (٦/ ٢٧٠): وكذلك من أمعن النظر في فصوص الحكم، أو أنعم التأمل، لاح له العجب؛ فإن الذكي إذا تأمل من ذلك الأقوال والنظائر والأشباه، فهو أحد رجلين: إما من الاتحادية في الباطن، وإما من المؤمنين بالله الذين يعدون أن هذه النحلة من أكفر الكفر، نسأل الله العفو، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، =

الشرح:

[١] حتى إنه يقول: إن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهة خاتم الأولياء، الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهة خاتم الأولياء، لماذا؟ لأن خاتم الأولياء يأخذ عن الله مباشرة، فالأنبياء يستفيدون منه.

[٢] ابن عربي الطائي الحاتمي الذي وصل به الضلال والكفر إلى وحدة الوجود، يقول بوحدة الوجود - والعياذ بالله -، وأنه ليس هناك خالق ومخلوق، بل الوجود كله هو الله، والذي يقول: هناك خالق ومخلوق. هذا مشرك عند ابن عربي، انتهى به الضلال إلى هذا الحد، الوجود كله هو الله، وليس هناك انقسام بين خالق ومخلوق.

= فوالله لأن يعيش المسلم جاهلًا خلف البقر لا يعرف من العلم شيئًا سوى سور من القرآن يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله وباليوم الآخر، خير له بكثير من هذا العرفان، وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب، أو عمل مائة خلوة. اهـ. والكتاب مطبوع في مجلد واحد سنة ١٣٦٥هـ بدار إحياء الكتب العربية، مع تعليقات لأبي العلا عفيفي.
وانظر كشف الظنون (٢/ ١٢٦١).

فَخَالَفَ الشَّرْعَ وَالْعَقْلَ مَعَ مُخَالَفَةِ جَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ [١] كَمَا يُقَالُ لِمَنْ قَالَ: فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ تَحْتِهِمْ: لَا عَقْلَ وَلَا قُرْآنَ. [٢] ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ فِي الزَّمَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، [٣].

الشرح:

[١] قال مقالة لم يقلها أحد ممن سبقه وممن يأتي بعده، وهو القول بأن الأولياء مشايخ للرسل، وأن الرسل يأخذون منهم.

[٢] يقال: إن قارئا يقرأ: فخر عليهم السقف من تحتهم، فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فقالت له امرأة أعرابية: انظر في القرآن: السقف من فوق، وليس من تحت، السقف لا يكون من تحت أبدا، فلا عقل ولا قرآن، القرآن ليس هكذا، وهو ليس عنده عقل يميز أن السقف يكون فوق، وليس أسفل من تحت، فهذا مثل ابن عربي الذي يقول: إن الرسول يأخذ من الولي، يأخذ الأعلى ممن تحته. ضروري أن تعرفوا هذه الأمور؛ لأن هؤلاء استفحل أمرهم في هذا الزمان، وصاروا يمثلون المسلمين والإسلام عند كثير من الناس، وعند كثير من الدول، فلابد من معرفة حقيقتهم.

[٣] الأنبياء أسبق في الزمان من الأولياء، والأولياء جاؤوا من بعدهم. فكيف يكون السابق يأخذ عن اللاحق؟! هذا لا يقوله عقل، هذا مثل من يقول: خر عليهم السقف من تحتهم.

وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَام أَفْضَلُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ، [١] فَكَيْفَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ؟ وَالْأَوْلِيَاءُ إِنَّمَا يَسْتَفِيدُونَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ وَيَدَّعِي أَنَّهُ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ؟! [٢] وَلَيْسَ آخِرُ الْأَوْلِيَاءِ أَفْضَلَهُمْ كَمَا أَنَّ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُهُمْ؛ [٣].

الشرح:

[١] الأنبياء أفضل من الأولياء، فكيف بالرسل عليهم السلام؟! الرسل أفضل من الأنبياء.

[٢] كيف أن الأولياء يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم، هل يعقل أن المتقدم يستفيد من المتأخر بأزمان وقرون؟! هذا لا يقوله عاقل.

[٣] هذه المسألة منازع فيها أيضا، ليس خاتم الأولياء - على القول بوجوده، مع أنه فرضي، وليس بحقيقي، لكن على القول بوجوده - ليس هو أفضل ممن سبقه من الأولياء، بل الذين سبقوه أفضل منه.

فالقياس هذا باطل، يقولون: إن آخر الأولياء هو أفضلهم؛ كما أن آخر الأنبياء - وهو محمد ﷺ - هو أفضلهم، هذا قياس باطل، فرق بين الولي والرسول، فرق كثير بين الولي والرسول، فهو قياس مع الفارق.

فَإِنَّ فَضْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ثَبَتَ بِالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»(١)، [١] وَقَوْلِهِ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِك أُمِرْت أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»(٢). [١].

الشرح:

[١] قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ» جميعا، وفيهم الرسل عليهم السلام «وَلَا فَخْرَ»؛ يعني: أنه لم يخبر بهذا من باب الافتخار، وإنما هو من باب التحدث بنعمة الله سبحانه وتعالى.

[٢] فهذا يدل على أنه أفضل الخلق ﷺ؛ لأنه أول من يستفتح باب الجنة، ولم يؤذن للملك الخازن للجنة أن يفتح لأحد قبل محمد ﷺ، فهذا دليل على فضله ﷺ، وهذا ثبت بالأدلة، لا بالادعاء - كما تقوله الصوفية لخاتم الأولياء -، فثبت بالأدلة من الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) بلفظ: «أنا سَيِّدُ الناس يوم الْقِيَامَةِ»، ومسلم (٢٢٧٨) بلفظ: «أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم الْقِيَامَةِ»، وأخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) بلفظه.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧).

وَلَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ رَفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ فَوْقَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ،[١] فَكَانَ أَحَقَّهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، [٢].

الشرح:

[١] حتى تجاوز السبع الطباق في المعراج إلى السماء ليلة المعراج، وهذه مرتبة لم يصلها النبيون؛ لأن الأنبياء في السماوات، كلما يأتي إلى سماء يمر على من فيها من الأنبياء، حتى جاوز السماوات السبع، فصار فوق الأنبياء.

[٢] الله يفضل بعض الخلق على بعض: الرسل وغيرهم، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، وهو موسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾؛ كما رفع محمدا ﷺ، ولكن - كما سبق - هذا إنما يذكر من باب البيان والشكر لله، ولا يذكر من باب المفاخرة وتنقص المفضول؛ ولهذا قال ﷺ: «**لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ**»[(١)]؛ يعني: مفاضلة فخر، وقال: «**لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»[(٢)]؛ مفاضلة الفخر.

(١) سبق تخريجه (ص ٧٩).

(٢) سبق تخريجه (ص ٧٩).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ، كُلٌّ مِنْهُمْ يَأْتِيه الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ لَا سِيَّمَا مُحَمَّدٌ ﷺ، [١] لَمْ يَكُنْ فِي نُبُوَّتِهِ مُحْتَاجًا إِلَى غَيْرِهِ، [٢] فَلَمْ تَحْتَجْ شَرِيعَتُهُ إِلَى سَابِقٍ وَلَا إِلَى لَاحِقٍ، [٣] بِخِلَافِ الْمَسِيحِ أَحَالَهُمْ فِي أَكْثَرِ الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّوْرَاةِ وَجَاءَ الْمَسِيحُ فَكَمَّلَهَا؛ [٤].

الشرح:

[١] وميزة الأنبياء على غيرهم أنهم يأتيهم الوحي من الله ﷻ، وأما غيرهم، فلا يوحى إليه، لا يوحى إلا إلى الأنبياء، فهم أفضل الخلق؛ لاختصاصهم بتلقي الوحي من الله ﷻ.

[٢] فالأنبياء لا يحتاجون في نبواتهم إلى غيرهم؛ كما تقوله الصوفية من أنهم محتاجون إلى خاتم الأولياء، وأنهم يستفيدون منه، الرسل لا يحتاجون إلى غيرهم من الخلق؛ لأن الله أغناهم بالوحي المنزل عليهم، وأكملهم بذلك نبينا محمد ﷺ؛ فإن الله جعل شريعته ناسخة للشرائع قبلها، وأمر باتباعه وحده على جميع أهل الأرض من الجن والإنس.

[٣] شريعته ناسخة لما قبلها، لم تحتج إلى سابق من شرائع الأنبياء، ولا لاحق من خاتم الأولياء؛ كما يقولون.

[٤] المسيح عليه السلام رسول من الرسل، ولكنه لم ينزل عليه كتاب شريعة مستقل، وإنما كان يحكم بالتوراة التي أنزلها الله على موسى، إلا أنه نسخ شيئا من التوراة: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]،

وأما في الجملة، فإنه متبع للتوارة التي أنزلها الله على موسى، وكل أنبياء بني إسرائيل يحكمون بالتوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، النبيون من بني إسرائيل يحكمون بها، إنما جاء عليه السلام بمكملات فقط، وأما الأصل، فهو التوراة.

وَلِهَذَا كَانَ النَّصَارَى مُحْتَاجِينَ إِلَى النُّبُوَّاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْمَسِيحِ؛ [١] كَالتَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَتَمَامِ الْأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ نُبُوَّةً، وَكَانَ الْأُمَمُ قَبْلَنَا مُحْتَاجِينَ إِلَى مُحَدَّثِينَ، [٢] بِخِلَافِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ بِهِ، فَلَمْ يَحْتَاجُوا مَعَهُ إِلَى نَبِيٍّ وَلَا إِلَى مُحَدَّثٍ؛ [٣].

الشرح:

[١] كان بنو إسرائيل محتاجين إلى التوارة التي نزلت على موسى عليه السلام، محتاجين إلى الأنبياء السابقين، بخلاف محمد ﷺ؛ فإن الله أعطاه شريعة كاملة، لا تحتاج إلى ما سبق، ولا إلى شيء يأتي.

[٢] يعني: ملهمين، محتاجين إلى ملهمين، المحدث هو الملهم.

[٣] أمة محمد أغناهم الله برسول الله ﷺ، وما أنزله الله عليه، فليسوا بحاجة إلى الأنبياء السابقين، وليسوا بحاجة إلى المحدثين الملهمين؛ فإن الشريعة كاملة من كل وجه، لم يحتاجوا بعده ﷺ إلى نبي إلى أن تقوم الساعة؛ لأن الشريعة كافية شاملة، فليسوا بحاجة إلى نبي بعد الرسول؛ ولهذا قال ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»(١)، فمن جاء يدعي النبوة، فهو كاذب وكافر، ومن صدقه، فهو كافر، من صدق المتنبئين بعد الرسول ﷺ، فهو كافر؛ لأن محمدا ﷺ هو خاتم النبيين، وهذا بنص القرآن والسنة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»، أما الأولياء، فإنهم لم يختموا، الأولياء إلى أن تقوم الساعة لم يختموا، كل من أطاع الله ورسوله واتقى الله، فإنه ولي لله تعالى.

بَلْ جُمِعَ لَهُ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا فَرَّقَهُ فِي غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، [١] فَكَانَ مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ اللَّهِ بِمَا أَنْزَلَهُ إلَيْهِ وَأَرْسَلَهُ إلَيْهِ لَا بِتَوَسُّطِ بَشَرٍ. [٢].

وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلَّا بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، [٣].

الشرح:

[١] نبينا محمد ﷺ جمع الله له من الفضائل والعلوم والمعارف ما فرقه في الأنبياء السابقين، فهذه الشريعة مشتملة على كل ما تحتاجه البشرية في كل زمان ومكان؛ لأن الله شهد لها بالكمال، فقال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، والكامل لا يحتاج إلى غيره، لا من السابق ولا ومن اللاحق.

[٢] فالفضل الذي آتاه الله رسوله ﷺ هو من الله، ليس بواسطة بشر، فهذا رد على الذين يقولون: إن الأنبياء يستفيدون من خاتم الأولياء، ويحتاجون إليهم؛ لأن خاتم الأولياء يأخذ عن الله مباشرة، تعالى الله عما يقولون!

[٣] لا يكون وليًّا لله بعد بعثة محمد ﷺ إلا من اتبعه، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وَكُلُّ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ هُوَ بِتَوَسُّطِ مُحَمَّدٍ ﷺ، [١] وَكَذَلِكَ مَنْ بَلَغَهُ رِسَالَةُ رَسُولٍ إلَيْهِ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلَّا إذَا اتَّبَعَ ذَلِكَ الرَّسُولَ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْهِ. [٢].

الشرح:

[١] ما حصل للولي، فإنما هو بواسطة محمد ﷺ؛ لأن ذلك باتباعه والاقتداء به، لا العكس، لا أن محمدا يأخذ عن خاتم الأولياء.

[٢] كذلك الأولياء قبل بعثة محمد ﷺ، إنما كانوا أولياء باتباعهم للرسل الذين هم في زمانهم، ومن خالف الرسل، فليس وليًّا لله، هو ولي للشيطان ولا طريق إلى الله ﷻ إلا عن طريق الرسل، واتباع الرسل، ليس هناك طريق آخر غير طريقة الرسل ﷺ، فمن زعم أنه يصل إلى الله من غير طريقة الرسل، فإنه كافر وضال.

وَمَنْ ادَّعَى أَنَّ مِنْ الأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى اللَّهِ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى مُحَمَّدٍ فَهَذَا كَافِرٌ مُلْحِدٌ، [١] وَإِذَا قَالَ: أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَى مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ، أَوْ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ دُونَ عِلْمِ الْحَقِيقَةِ؛ [٢].

الشرح:

[١] بلا شك، كافر ملحد، فهؤلاء الصوفية الذين يقولون: إن الناس بحاجة إلى خاتم الأولياء، حتى الرسل بحاجة إلى خاتم الأولياء. هذا أعظم الكفر والإلحاد -والعياذ بالله-؛ لأن الولي ما صار وليًّا إلا باتباعه للرسول ﷺ، فمن لم يتبع الرسول، فليس وليًّا لله، وإنما هو ولي للشيطان.

[٢] منهم من يقول: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر فقط، أما علم الباطن (علم القلوب)، فهذا لا أحتاج إلى محمد فيه، أنا آخذه عن الله مباشرة، فهذا أعظم الكفر - أيضا -؛ فإننا بحاجة إلى محمد ﷺ في علم الظاهر وعلم الباطن، فلا تهتدي القلوب، ولا تؤمن القلوب إلا باتباع الرسول ﷺ، ولا يسلم الإنسان في الظاهر إلا باتباع الرسول ﷺ.

فَهُوَ شَرٌّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ إِلَى الْأُمِّيِّينَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ. [١].

فَإِنَّ أُولَئِكَ آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ فَكَانُوا كُفَّارًا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي يَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا بُعِثَ بِعِلْمِ الظَّاهِرِ دُونَ عِلْمِ الْبَاطِنِ آمَنَ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، [٢].

الشرح:

[١] فالذين يقولون: نحن لا نحتاج إلى الرسول في علم الباطن، وإنما نحتاجه في علم الظاهر. فهذا يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض؛ فهو أشد من اليهود الذين يقولون: إن محمدا رسول، يعني: بعض اليهود؛ هناك من اليهود والنصارى من يعترفون أن محمدا رسول، ولكنهم يقولون: إنه رسول إلى العرب فقط، وليس رسولا إلى اليهود والنصارى، فهذا من أعظم الكفر؛ لأن رسالة محمد ﷺ عامة للثقلين: الإنس والجن، أشد منه كفرا من يقول: أنا أؤمن بما جاء به في الظاهر، وأما الباطن، فأنا أصل إلى الله بدون الرسول.

[٢] الرسول جاء بعلم الظاهر وعلم الباطن، أما من يقول: إنه جاء بعلم الظاهر فقط. فهذا يؤمن ببعض الكتاب، وهو الظاهر، ويكفر ببعض، وهو الباطن، فهو كافر: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فَهُوَ كَافِرٌ، وَهُوَ أَكْفَرُ مِنْ أُولَئِكَ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْبَاطِنِ الَّذِي هُوَ عِلْمُ إِيمَانِ الْقُلُوبِ وَمَعَارِفِهَا وَأَحْوَالِهَا هُوَ عِلْمٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ، وَهَذَا أَشْرَفُ مِنَ الْعِلْمِ بِمُجَرَّدِ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ. [١] فَإِذَا ادَّعَى الْمُدَّعِي أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنَّمَا عَلِمَ هَذِهِ الْأُمُورَ الظَّاهِرَةَ دُونَ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَقَدِ ادَّعَى أَنَّ بَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ، [٢].

الشرح:

[١] إيمان القلوب أشرف من الإيمان الظاهر والإسلام الظاهر، فإذا لم يكن في القلب إيمان، حتى لو أن الإنسان صلى، وصام، ما تنفعه أعماله، حتى يكون مؤمنا ظاهرا وباطنا.

[٢] هذا في الرد على غلاة الصوفية، التصوف - كما هو معلوم - نشأ في بداية أمره يراد به الاجتهاد في العبادة، والتقشف، وإظهار الزهد، وهذا في حد ذاته ليس بمحمود؛ لأنه من التشدد في دين الله، ومن المشقة على النفوس، ولما أراد نفر من أصحاب رسول الله ﷺ أن يشددوا على أنفسهم في الصلاة والصيام والتبتل، رد عليهم ﷺ وغضب غضبا شديدا، قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[١]، الدين دين الوسط والاعتدال؛

(١) سبق تخريجه (ص ٣٣٨).

لأن الوسطية والاعتدال يستمر معها الإنسان، ويرتاح معها، أما التشدد، فإنه يشق على الإنسان، ثم يصعب، يترك المضي في العبادة؛ لأنه بشر لا يستطيع أن يصمد أمام المشقة الطويلة، المطلوب من المسلم الاستمرار على العبادة، وفي الحديث: «وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»[(١)]، والرسول ﷺ وصف المتشدد الغالي في العبادة بالمنبت الذي قطع في أثناء السفر، حَمَّل على راحلته، وشدد عليها في السير، حتى انقطعت، فبقي في منتصف الطريق، أو في أول الطريق، فهو لا ظهرا أبقى، ولا مسافة قطع، قال ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلاَ تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ، وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى»[(٢)]، فهذه صفة المتشدد في الدين، هذا من ناحية، هذا محظور عظيم.

والمحظور الثاني أشد، وهو أنه إذا فتح لنفسه هذا الباب، وعمل عملا ليس عليه هدي الرسول ﷺ، فإن هذا يجره إلى الإلحاد في دين الله؛ كما حصل لمتأخري الصوفية، فإن تصوفهم آل بهم إلى الإلحاد؛ كما ستسمعون الآن من طريقتهم، آل بهم إلى الإلحاد، حتى قالوا: إن الولي خير من النبي، وهل هناك أفضل من الرسل والأنبياء عليهم السلام؟ هم يقولون: لا، إن الأولياء أفضل. من يعنون بالأولياء؟ يعنون: الصوفية، ويقولون: إنهم أفضل من

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٦٨)، والنسائي (٧٦٢)، كما أخرجه مسلم (٧٨٢) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ».

(٢) أخرجه البيهقي (٣/ ١٨)، والحاكم في معرفة علوم الحديث (١/ ٩٥)، قال: غريب الإسناد والمتن، والقضاعي (٢/ ١٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

الأنبياء. لماذا؟ لأنهم يأخذون عن الله مباشرة، وهل أحد يأخذ عن الله مباشرة من البشر؟ ما أحد يأخذ إلا بالوحي المنزل، أو الكلام المسموع من وراء حجاب كموسى عليه السلام، أما أن يأخذ عن الله مباشرة، أو يزعمون أنه يجالس الله - تعالى الله عن ذلك -، ويقولون: إن الأنبياء يأخذون من الأولياء. لأن الأولياء يأخذون عن الله مباشرة، والأنبياء يأخذون عن الأولياء، انظر كيف بلغ بهم الخروج عن دين الله ﷻ، كله أصله من البدعة، البدعة تجر إلى شر، لكن قد يكون هذا الشر كثيرا، وقد يكون قليلا، فالبدعة لا خير فيها؛ ولذلك حذر منها النبي ﷺ، حذر من البدعة غاية التحذير، فهم يقولون: إن الأولياء أفضل من الأنبياء، وإن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، لأن الأولياء يأخذون عن الله. ويقصدون بالأولياء: الصوفية، يسمونهم أولياء، بلغ بهم الوقاحة والجرأة إلى هذا الحد، والسبب في هذا هو فتح باب البدعة، والخروج عما شرعه الرسول ﷺ، ويقولون: إن النبي يأخذ من علم الظاهر، وأما الأولياء، فهم يأخذون من علم الباطن، فهم يعلمون شيئا لايعلمه النبي؛ لأن الأنبياء إنما يأخذون بالأمور الظاهرة، ويأمرون الناس بالأمور الظاهرة، وأما الأولياء، فهم يعرفون الحقائق والأمور الباطنة، وهم يتبعون الأنبياء في بعض الأمور، فيكونون ممن آمن ببعض الكتاب، وكفر ببعض، كيف تطيع النبي في بعض الأمور، وتخالفه في الأمر الآخر؟! تفترق عنه، وتزعم أنك خير منه، هذا من الإيمان بالبعض، بل هذا أشد من كفر اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، تهديدات - والعياذ بالله - على من يؤمن ببعض ما جاء به الرسول ويكفر بالبعض الآخر، فهم يقولون: نطيع الرسول في الأمر الظاهر، ولا نطيعه في أمر الباطن، الرسول جاء بالظاهر والباطن، وهم يقولون: لا، نحن ما نطيع الرسول في أمر الباطن، إنما نطيعه في أمر الظاهر فقط. فهذا إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعض.

وَهَذَا شَرٌّ مِمَّنْ يَقُولُ: أُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَأَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَلَا يَدَّعِي أَنَّ هَذَا الْبَعْضَ الَّذِي آمَنَ بِهِ أَدْنَى الْقِسْمَيْنِ. [١].

وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ يَدَّعُونَ أَنَّ الْوِلَايَةَ أَفْضَلُ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَيُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَقُولُونَ: وِلَايَتُهُ أَفْضَلُ مِنْ نُبُوَّتِهِ، [٢] وَيُنْشِدُونَ(١):

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ

وَيَقُولُونَ: نَحْنُ شَارَكْنَاهُ فِي وِلَايَتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِنْ رِسَالَتِهِ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ضَلَالِهِمْ؛ [٣].

الشرح:

[١] اليهود رغم أنهم يؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض، ما ادعوا أن الذي يؤمنون به أدنى القسمين، أما الصوفية، فيدعون أنه أدنى القسمين، وأن هذا من الظاهر فقط، وهو أدنى من الباطن.

[٢] الولي أفضل من النبي، والولاية أفضل من النبوة؛ لأن الولي يأخذ عن الله مباشرة.

[٣] مقام النبوة في برزخ، والبرزخ: الحاجز بين الشيئين، فويق الرسول ودون الولي، فالنبي أفضل من الرسول عندهم، ولكنه مع فضله هو دون

---

(١) قائل هذا البيت هو ابن عربي كما ذكره شيخ الإسلام في منهاج السنة (٨/ ٢٢)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية (٥٥٦).

الولي، فالولي أفضل من النبي ومن الرسول، وهل بعد هذا الضلال ضلال؟ فهذا البيت لابن عربي.

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ

يقولون: الرسول له ولاية، وله رسالة، والولاية أفضل من الرسالة، فنحن شاركناه في الولاية، وإن اختص عنا بالرسالة، فالولاية أفضل من الرسالة.

فَإِنَّ وِلَايَةَ مُحَمَّدٍ لَمْ يُمَاثِلْهُ فِيهَا أَحَدٌ لَا إِبْرَاهِيمُ وَلَا مُوسَى، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ. [١] وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلِيٌّ، فَالرَّسُولُ نَبِيٌّ وَلِيٌّ، [٢].

الشرح:

[١] نبينا محمد ﷺ هو خاتم النبيين، وبعثه الله إلى الناس كافة، وخصه بخصائص ليست لغيره؛ فهو أفضل النبيين ﷺ، من شك في هذا، فهو كافر، من فضل أحدا على محمد ﷺ، فهو كافر، لو فضل نبيا من الأنبياء على محمد، صار كافرا، فكيف بالذي يفضل الصوفي على محمد ﷺ؟! هذا أعظم الكفر، وأعظم الضلال.

[٢] الرسالة أعلى شيء، بعدها النبوة، ثم بعدها الولاية؛ لأن الرسول هو: من أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه، وأما النبي، فهو: من بعث بشريعة من قبله؛ كأنبياء بني إسرائيل، بعثوا بالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، الذين جاؤوا من بعده، فالرسول أفضل من النبي، والنبي أفضل من الولي، هذا بالإجماع، فلا أحد يساوي النبي في فضله، ولا أفضل منه إلا الرسول، هم يقولون بالعكس، يقولون: نحن أفضل من الأنبياء، والأنبياء أفضل من الرسل. فهم جعلوا أنفسهم في الدرجة العليا، وجعلوا الرسول أسفل شيء: الولي، ثم النبي، ثم الرسول. لكن القاعدة هي: الرسالة أعم من النبوة، فكل رسول، فهو نبي، وليس كل نبي رسولا.

وَرِسَالَتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِنُبُوَّتِهِ، وَنُبُوَّتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِوِلَايَتِهِ، [١] وَإِذَا قَدَّرُوا مُجَرَّدَ إِنْبَاءِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِدُونِ وِلَايَتِهِ لِلَّهِ فَهَذَا تَقْدِيرٌ مُمْتَنِعٌ؛ [٢] فَإِنَّهُ حَالَ إِنْبَائِهِ إِيَّاهُ مُمْتَنِعٌ أَنْ يَكُونَ إِلَّا وَلِيًّا لِلَّهِ، [٣] وَلَا تَكُونُ مُجَرَّدَةً عَنْ وِلَايَتِهِ، [٤].

الشرح:

[١] فاجتمع له ﷺ الرسالة، والنبوة، والولاية، اجتمعت له ﷺ، فهل يكون صوفي خبيث أفضل من الرسول ﷺ؟!

[٢] ممتنع أن الله يرسل من ليس وليًا له، هل يقول هذا عاقل؟! أن الله يرسل من ليس وليًا له، الصوفية يلزم على كلامهم هذا أن الله أرسل من ليس وليًا؛ لأن أولياء الله هم الصوفية عندهم.

[٣] الله ﷻ لا يرسل إلا من هو من أوليائه، ولا يرسل من هو من أعدائه.

[٤] ليس هناك نبوة مجردة عن الولاية، الرسالة متضمنة للنبوة، النبوة متضمنة للولاية، هكذا، الرسالة متضمنة للنبوة، كل رسول نبي، والنبوة متضمنة للولاية، كل نبي فهو ولي، ولا عكس، ليس كل ولي يكون رسولا أو نبيا، حسب الولي أن يكون متبعا للرسول، حسب الولي فضلا وشرفا أن يكون متبعا للرسول ﷺ، ولا يكون وليًا بدون ذلك، لو كان لا يتبع الرسول، كان عدوا وليس وليًا.

وَلَوْ قُدِّرَتْ مُجَرَّدَةً لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مُمَاثِلًا لِلرَّسُولِ فِي وِلَايَتِهِ. [١].

وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ -كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ» ابْنُ عَرَبِيٍّ-: [٢] إِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُوحَى بِهِ إِلَى الرَّسُولِ؛ [٣].

الشرح:

[١] فهو أكمل الأولياء ولاية ﷺ، أكمل الأولياء ولاية لله ﷻ؛ فهو خيرته من خلقه، وخاتم أنبيائه، وأفضل رسله، ويظهر فضله يوم القيامة بالشفاعة العظمى والمقام المحمود، حينما يتأخر أولو العزم عن الشفاعة، ويقدم عليها هو ﷺ.

[٢] ابن عربي له كتب في الإلحاد، منها كتاب فصوص الحكم، ومع الأسف هو مطبوع ومحقق، وقد يباع في بعض مكتباتنا ومعارضنا، مع أنه إلحاد، وله كتاب الفتوحات المكية، سماه فتوحات، يعني أن الله فتح عليه بها وهو في مكة؛ لأنه ألف هذا الكتاب في مكة، فسماه الفتوحات المكية، هذا من كتب ابن عربي.

[٣] الرسول يأخذ عن الملك، الرسول والنبي يأخذان عن الملك، وهم لا يحتاجون إلى الملك، يأخذون من المعدن الأصلي، فهم بهذا صاروا أفضل من الرسول، وأفضل من النبي، انظر كيف يصل الشيطان بهم لهذا الحد، ولهم كلام يأتي في العقل، وأن هؤلاء الصوفية في النهاية اعتنقوا

فلسفة فلاسفة اليونان الملاحدة، دخلت عليهم فلسفة اليونان الملحدة، ومنهم من دخلت عليه البرهمية الهندية من الصوفية.

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا عَقِيدَةَ الْمُتَفَلْسِفَةِ، ثُمَّ أَخْرَجُوهَا فِي قَالَبِ الْمُكَاشَفَةِ، [١] وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَفَلْسِفَةَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْأَفْلَاكَ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَهَا عِلَّةٌ تَتَشَبَّهُ بِهَا [٢] كَمَا يَقُولُهُ أَرِسْطُو وَأَتْبَاعُهُ [٣] - أَوْ لَهَا مُوجَبٌ بِذَاتِهِ -كَمَا يَقُولُهُ مُتَأَخِّرُوهُمْ: كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِه- [٤].

الشرح:

[١] أخذوا الفلسفة، ولم يسموها فلسفة، سموها مكاشفة، وأن أسرارًا ظهرت لهم، وهم سارقون لها من الفلاسفة السابقين، ونسبوها لأنفسهم، وقالوا: إنها مكاشفات تحصل لنا بسبب الولاية، واطلاع لم يطلع عليه غيرنا، وهم سارقون لها من الفلاسفة.

[٢] الفلاسفة القدامى من اليونان لا يؤمنون بالله، ولا أنه هو الخالق، وإنما يقولون: الأفلاك هي التي تحدث الأشياء، والأفلاك قديمة ليست محدثة، كذا يقولون. يقولون بقدم العالم، هذا معنى القول بقدم العالم.

[٣] أرسطو من قادة الفلاسفة اليونانيين، وهو ملحد.

[٤] ابن سينا الذي يسمونه الرئيس أبو علي ابن سينا، وهو أصله من الإسماعيلية، ودخل في الفلسفة، وصار ملحدا، زاد إلحادا إلى إلحاد، وأبوه كان يهوديا.

وَلَا يَقُولُونَ: إِنَّهَا لِرَبٍّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَلَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَا يَعْلَمُ الْجُزْئِيَّاتِ، [١] بَلْ إِمَّا أَنْ يُنْكِرُوا عِلْمَهُ مُطْلَقًا كَقَوْلِ أَرِسْطُو،

الشرح:

[١] الله ﷻ أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، بما فيها الأفلاك، وهي مجاري الكواكب، الأفلاك مجاري الكواكب -الشمس، والقمر، والنجوم-، فهي محدثة ومخلوقة، هذا نوع من التنجيم، التنجيم أصله مأخوذ عن الفلاسفة، فالله أخبر أنه خلق السماوات والأرض بما فيها الأفلاك، فدل على أن السماوات والأرض محدثة، وليست قديمة، وأن الأفلاك محدثة، وليست قديمة؛ كما تقوله الفلاسفة. وإنما توجد الأشياء ضرورة من الطبيعة، من طبيعة الأفلاك، وليس لها رب يحدثها، ويوجدها، ويفنيها، لا يؤمنون بالرب ﷻ، ولا يؤمنون بالرسل، وإنما يعتمدون على فلسفاتهم وأفكارهم.

وينفون عن الله علم الغيب؛ أنه لا يعلم الجزئيات التي تحدث في هذا الكون من الحوادث والمخلوقات المتجددة، لا يؤمنون بهذا كله، هذا مذهب الفلاسفة، وغرض الشيخ أن يبين من أين أخذ الصوفية هذا الإلحاد، وأنهم أخذوها من هؤلاء الفلاسفة.

أَوْ يَقُولُوا إِنَّمَا يَعْلَمُ فِي الْأُمُورِ الْمُتَغَيِّرَةِ كُلِّيَّاتِهَا كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ سِينَا [١] وَحَقِيقَةُ هَذَا الْقَوْلِ إِنْكَارُ عِلْمِهِ بِهَا، فَإِنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ فِي الْخَارِجِ فَهُوَ مُعَيَّنٌ جُزْئِيٌّ: الْأَفْلَاكُ كُلُّ مُعَيَّنٍ مِنْهَا جُزْئِيٌّ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْيَانِ وَصِفَاتُهَا وَأَفْعَالُهَا، [٢] فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ إِلَّا الْكُلِّيَّاتِ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئًا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَالْكُلِّيَّاتُ إِنَّمَا تُوجَدُ كُلِّيَّاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ. [٣].

الشرح:

[١] يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات. كله ضلال، الله يعلم كل شيء ﷻ؛ ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. الله يعلم كل شيء.

[٢] الكليات إنما هي في الأذهان، الكليات لا وجود لها في الخارج، إنما هي في الأذهان تخيلات، أما الجزئيات، فهي التي توجد في الخارج: المواليد، والنبات، والحوادث، هذه توجد في الخارج، ويشاهدها الناس الكليات إنما هي خيالات في الأذهان، لا في الأعيان.

[٣] لأن الموجودات كلها جزئيات، وأما الكليات، فإنما هي تخيل في الذهن. والكليات لا وجود لها في الخارج، إنما هي خيال في الأذهان، بخلاف الجزئيات؛ فإنها تشاهد، وتوجد.

وَالْكَلَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي «رَدِّ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ»(١) وَغَيْرِهِ. [١] فَإِنَّ كُفْرَ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى [١].

الشرح:

[١] الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بسط الكلام في هذا في كتبه الأخرى، التي نازل فيها الفلاسفة والملاحدة؛ مثل: كتاب درء تعارض العقل والنقل، وهو كتاب جليل، يعتبرونه أقوى كتبه، وأعظمها، كتاب العقل والنقل، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي   مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِ(٢)

يعني: ليس له نظير في مؤلفات أهل العلم؛ لأنه فصل فيه، وغاص على أسرار، وبيّنها، وكشفها في هذا الكتاب. ما أحد تناول هذه الأمور وبينها مثل ما تناولها في كتاب العقل والنقل.

[١] اليهود والنصارى يؤمنون بأن الله خلق السماوات والأرض، يؤمنون بالرسل عموما إيمانا مجملا، ويؤمنون باليوم الآخر، أما هؤلاء، فلا يؤمنون بشيء إلا ما يتخيلونه هم. وكذلك من اتبعهم من الصوفية كُفْرُه أعظم من كفر اليهود والنصارى.

---

(١) انظر: كلام شيخ الإسلام على الفلاسفة في كتاب درء تعارض العقل والنقل (١/١٠ - ٢٠٠).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢٩٠).

بَلْ وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ، [١] فَإِنَّ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّهُ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، [٢] وَأَرِسْطُو وَنَحْوُهُ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْيُونَانِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ، وَلَيْسَ فِي كُتُبِ أَرِسْطُو ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا غَالِبُ عُلُومِ الْقَوْمِ الْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَأَمَّا الْأُمُورُ الْإِلَهِيَّةُ فَكُلٌّ مِنْهُمْ فِيهَا قَلِيلُ الصَّوَابِ كَثِيرُ الْخَطَأِ، [٣].

الشرح:

[١] لأن مشركي العرب يؤمنون بتوحيد الربوبية، وهذا موجود في القرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] الفلاسفة لا يقولون هذا، يقولون: السماوات والأرض إنما هي قديمة غير مخلوقة.

[٢] مشركو العرب يرون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، يؤمنون بتوحيد الربوبية، وإنما خالفوا في توحيد الألوهية، فعبدوا مع الله غيره.

[٣] إنما يعرفون أمور الطبيعة، ولا يعرفون أمور الإلهيات، ولا يؤمنون برب.

وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ أَعْلَمُ بِالْإِلَهِيَّاتِ مِنْهُمْ بِكَثِيرٍ، [١] وَلَكِنْ مُتَأَخِّرُوهُمْ كَابْنِ سِينَا أَرَادُوا أَنْ يُلَفِّقُوا بَيْنَ كَلَامِ أُولَئِكَ وَبَيْنَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ [٢].

الشرح:

[١] اليهود والنصارى عندهم علم؛ ولذلك سماهم الله أهل الكتاب، وعندهم علم، وعندهم إيمان في الجملة، لكن هؤلاء لا علم ولا إيمان. أما قبل النسخ والتبديل، فهم كانوا على الدين وعلى الإيمان، اليهود والنصارى قبل النسخ والتبديل كانوا على الإيمان، وأتباع موسى وعيسى عليهما السلام إنما كفروا بعد النسخ والتبديل.

[٢] ابن سينا من الفلاسفة، وهو ينتسب إلى الإسلام، لما رأى القرآن والسنة، ورأى أنهم ما يتوافقون مع قول الفلاسفة، أراد أن يلفق بين قول الفلاسفة وبين ما يدل عليه القرآن الكريم، فألبس الفلسفة ثوبا من التدين، وزعم أنها لا تخالف القرآن. وهذا تزييف على الناس، يجمع بين النقيضين الضدين، فهذا من التلبيس على الناس.

فَأَخَذُوا أَشْيَاءَ مِنْ أُصُولِ الْجَهْمِيَّةِ(١)، وَالْمُعْتَزِلَةِ(٢)، وَرَكَّبُوا مَذْهَبًا قَدْ يَعْتَزِي إِلَيْهِ مُتَفَلْسِفَةُ أَهْلِ الْمِلَلِ، وَفِيهِ مِنْ الْفَسَادِ وَالتَّنَاقُضِ مَا قَدْ نَبَّهْنَا عَلَى بَعْضِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَهَؤُلَاءِ لَمَّا رَأَوْا أَمْرَ الرُّسُلِ كَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ ﷺ، قَدْ بَهَرَ الْعَالَمَ، وَاعْتَرَفُوا بِأَنَّ النَّامُوسَ، [١].

الشرح:

[١] الناموس هو الشرع والوحي.

---

(١) الجهمية أتباع الجهم بن صفوان الملحد العنيد الزائغ، تلميذ الجعد بن درهم، رأس المعطلة، لم يثبتوا أن في السماء ربًا، وينتهي قولهم إلى جحود الخالق ﷻ، وقالوا بخلق القرآن، وقد قتل سنة ١٢٨هـ على يد سلم بن أحوز رحمه الله. انظر: السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ١٦٧)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، والملل والنحل (١/ ٨٦)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٥٠).

(٢) المعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في أوائل المائة الثانية، وقيل: إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول مذهب المعتزلة، وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري، فلما كان زمن هارون الرشيد، صنف لهم أبو الهذيل العلاف كتابين، وبين مذهبهم، وبناه على الأصول الخمسة، التي سموها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولبسوا فيها الحق بالباطل، وهم مشبهة الأفعال؛ لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه سبحانه، وما يقبح من العباد يقبح منه، وقالوا: يجب عليه أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا. بمقتضى ذلك القياس الفاسد. انظر: الملل والنحل (١/ ٤٦)، ومنهاج السنة (٨/ ٥)، وشرح الطحاوية (ص٥٨٨).

الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ نَامُوسٍ[(١)] طَرَقَ الْعَالَمَ، وَوَجَدُوا الْأَنْبِيَاءَ قَدْ ذَكَرُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ، أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ أَقْوَالِ سَلَفِهِمُ الْيُونَانِ، [١] الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ الْخَلْقِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

الشرح:

[١] اليونان ينكرون الملائكة، وينكرون الجن، وينكرون علم الغيب، ولكن ابن سينا وأقرانه لما رأوا الرسل جاؤوا بذكر الملائكة وذكر الجن، أرادوا أن يلبسوا هذه الأشياء على المسلمين، فكسوها شيئا من التزوير، وقالوا: إنها لا تخالف ما جاءت به الرسل، وسموا الملائكة بكذا وكذا، وأحدثوا أشياء يبررون بها الفلسفة القديمة، ليبرروها عند الناس، ويدخلوها على الناس؛ لأنه يعز عليهم أن ينكشف عورها وبطلانها.

---

(١) كلمة الناموس لها معان متعددة منها: الشرع الذي شرعه الله، ذكره الجرجاني في التعاريف (ص٦٨٩)، ومنها: أنه صاحب سِرِّ الرَّجُلِ الذي يُطْلِعُهُ على سِرِّه وباطن أَمْرِه ويَخُصُّهُ بما يَسْتُرُهُ عن غيره يقال: نَمَسَ يَنْمِسُ نَمْسًا ونامَسْتُهُ منامسةً إذا سَارَرْتُهُ، فَسُمِّي جبريلُ ناموسًا لأن اللَّه تعالى خَصَّهُ بالوَحْي، قال أبو عمرو الشيباني: الناموس سِرُّ الخَيْرِ والجاسوسُ صاحِبُ سِرِّ الشَّرِّ. ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث (٢/ ٤٣٧)، ومنها: أن الناموس مَكْمَن الصَّيَّاد فشُبِّه به موضِعُ الأسَد، وأن الناموس: المكرُ والخداع. ذكره ابن الأثير في النهاية (٥/ ٢٥١).

وَأُولَئِكَ قَدْ أَثْبَتُوا عُقُولًا عَشَرَةً يُسَمُّونَهَا: الْمُجَرَّدَاتِ وَالْمُفَارَقَاتِ.

وَأَصْلُ ذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ مُفَارَقَةِ النَّفْسِ لِلْبَدَنِ، وَسَمَّوْا تِلْكَ الْمُفَارَقَاتِ لِمُفَارَقَتِهَا الْمَادَّةَ وَتَجَرُّدِهَا عَنْهَا. وَأَثْبَتُوا الْأَفْلَاكَ لِكُلِّ فَلَكٍ نَفْسًا، وَأَكْثَرُهُمْ جَعَلُوهَا أَعْرَاضًا، وَبَعْضُهُمْ جَعَلَهَا جَوَاهِرَ. [١].

الشرح:

[١] بعضهم جعلها أعراضا، يقول: الأفلاك لا وجود لها في الخارج، وإنما هي أعراض، والعرض هو ما يقوم بغيره، العرض هو ما يعرض، ويزول؛ مثل: الألوان؛ مثل: السواد والبياض، الألوان التي لاتقوم بنفسها، وإنما تقوم بغيرها هذه الأعراض، وأما الجواهر، فهي الأجرام المركبة، أو التي يتركب منها الأجرام، يسمونها الجواهر الفارقة التي يتركب منها الجسم، ويتركب منها الموجود، عند الكثير هي الجزئيات، التي تتركب منها الأجسام.

وَهَذِهِ الْمُجَرَّدَاتُ الَّتِي أَثْبَتُوهَا تَرْجِعُ عِنْدَ التَّحْقِيقِ إِلَى أُمُورٍ مَوْجُودَةٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ؛ كَمَا أَثْبَتَ أَصْحَابُ فِيثَاغُورْسَ(١) أَعْدَادًا مُجَرَّدَةً، وكَمَا أَثْبَتَ أَصْحَابُ أَفْلَاطُونَ(٢) [١].

الشرح:

[١] كلها تخيلات، الجوهر والعرض هذه كلها تخيلات من عندهم، لا وجود لها.

(١) ابن منسارخس من أهل ساميا، وقيل: كان في زمان سليمان النبي ابن داود ﷺ، له علم في الهندسة، والكيمياء، والسحر، وغيرها، وأصحاب فيثاغورس هم القائلون بالأعداد المجردة في الخارج. انظر: الملل والنحل (٢/ ٧٤)، ومنهاج السنة النبوية (٥/ ٤٥٦).

(٢) أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية [اليونان]، تتلمذ على سقراط، ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه، وهو آخر المتقدمين الأوائل معروف بالفلسفة والحكمة، كان قبل المسيح ﷺ بحوالي أربعة قرون. انظر: الملل والنحل (٢/ ٨٨).

الْأَمْثَالَ الأفلاطونية الْمُجَرَّدَةَ؛ أَثْبَتُوا هَيُولَى(١) مُجَرَّدَةً عَنْ الصُّورَةِ، وَمُدَّةً وَخَلَاءً مُجَرَّدَيْنِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ حُذَّاقُهُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ. [١] فَلَمَّا أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ -كَابْنِ سِينَا- أَنْ يُثْبِتَ أَمْرَ النُّبُوَّاتِ عَلَى أُصُولِهِمْ الْفَاسِدَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّ النُّبُوَّةَ لَهَا خَصَائِصُ ثَلَاثَةٌ مَنْ اتَّصَفَ بِهَا فَهُوَ نَبِيٌّ. [٢].

الشرح:

[١] الهيولي هي المادة، والصورة هي المتركب من هذه المادة. نحن ما لنا شأن بهذه الأمور، لكن الشيخ يريد أن يبين من أين أخذ الصوفية هذا الكلام الخبيث، هم أخذوه عن الفلاسفة، والفلاسفة هذا مذهبهم.

[٢] عندهم أن النبوة تكتسب، ليست اصطفاء من الله ﷻ، وإنما هي تكتسب بصفات توجد في الإنسان: ثلاث صفات، تأتي.

---

(١) الهيولي: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وفي الاصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية.
والهيولي في لغتهم بمعنى المحل، ويقال للفضة هيولي، والخاتم، والدرهم، والخشب هيولي الكرسي، أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة وهذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض، ويدعون أن الجسم هيولي محل الصورة الجسمية غير نفس الجسم القائم بنفسه. انظر: التعريفات (ص٣٢١)، وشرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (٢/ ٤٥).

الْأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ عِلْمِيَّةٌ -يُسَمُّونَهَا: الْقُوَّةَ الْقُدْسِيَّةَ- يَنَالُ بِهَا مِنْ الْعِلْمِ بِلَا تَعَلُّمٍ. [١].

الثاني: أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ تَخَيُّلِيَّةٌ تُخَيِّلُ لَهُ مَا يَعْقِلُ فِي نَفْسِهِ، بِحَيْثُ يَرَى فِي نَفْسِهِ صُوَرًا، أَوْ يَسْمَعُ فِي نَفْسِهِ أَصْوَاتًا كَمَا يَرَاهُ النَّائِمُ وَيَسْمَعُهُ، [٢] وَلَا يَكُونُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَزَعَمُوا أَنَّ تِلْكَ الصُّوَرَ هِيَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْأَصْوَاتُ هِيَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى. [٣].

الشرح:

[١] ينال بها العلم بلا تعلم بقوته القدسية، التي هي بلا تعلم، وهل يمكن أن يوجد علم بلا تعلم في المخلوقين؟!

[٢] تخيل للناس، يقوى على التخييل للناس، أشياء لا حقيقة لها، يقول لهم: هناك بعث، ونشور، وجنة، ونار، هذه أشياء تخيلها، لا حقيقة لها، لكن لأجل مصلحة الناس؛ لكي يبتعدوا عن بعض الأمور غير المناسبة، فإذا ذكر لهم الجنة والنار، تركوا هذه الأشياء غير المناسبة، إذا ذكرت لهم الجنة، يمدون في الأمور النافعة، وإلا ما لها حقيقة، إنما هي خيالات، هذا قول الفلاسفة.

[٣] ليس هناك ملك في الخارج، وليس هناك وحي، وإنما هذا شيء لصفاء ذهنه وقوته على التخيل، صار يتصور، أو يعرض له صور في نفسه وأصواتا، فالصور هي الملائكة بزعمهم، والأصوات هي الوحي، كله ما جاء من الله ﷻ، وإنما هذه شيء في نفسه وتخيله.

الثالث: أَنْ يَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ فَعَّالَةٌ يُؤَثِّرُ بِهَا فِي هَيُولَى الْعَالَمِ، وَجَعَلُوا مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَخَوَارِقِ السَّحَرَةِ هِيَ قُوَى النَّفْسِ، فَأَقَرُّوا مِنْ ذَلِكَ بِمَا يُوَافِقُ أُصولَهُمْ؛ مِنْ قَلْبِ الْعَصَا حَيَّةً دُونَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ وُجُودَ هَذَا.

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي مَوَاضِعَ، وَبَيَّنَّا أَنَّ كَلَامَهُمْ هَذَا أَفْسَدُ الْكَلَامِ، وَأَنَّ هَذَا الَّذِي جَعَلُوهُ مِنَ الْخَصَائِصِ يَحْصُلُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ لِآحَادِ الْعَامَّةِ وَلِأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهَا الرُّسُلُ أَحْيَاءٌ نَاطِقُونَ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، وَهُمْ كَثِيرُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، وَلَيْسُوا عَشْرَةً وَلَيْسُوا أَعْرَاضًا، لَا سِيَّمَا وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الصَّادِرَ الْأَوَّلَ هُوَ الْعَقْلُ الْأَوَّلُ، وَعَنْهُ صَدَرَ كُلُّ مَا دُونَهُ، وَالْعَقْلُ الْفَعَّالُ الْعَاشِرُ رَبُّ كُلِّ مَا تَحْتَ فَلَكِ الْقَمَرِ. [١].

الشرح:

[١] وليسوا العقول العشرة الذين يقولون، وإنما هم لا يعلم عددهم إلا الله، وليسوا قوى نفسانية أو هواجس نفسانية؛ كما يقول الفلاسفة: الهواجس النفسانية إن كانت ملائكة، فهي طيبة، وإن كانت خبيثة، فهي شياطين، وليس هناك في الخارج لا ملائكة ولا شياطين إنما هي أشياء نفسية فقط.

وَهَذَا كُلُّهُ يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُبْدِعٌ لِكُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ. [١].

وَهَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْعَقْلُ الْمَذْكُورُ فِي حَدِيثٍ يُرْوَى: «أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، فَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي مَا خَلَقْت خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْك، فَبِك آخِذُ، وَبِك أُعْطِي، وَلَك الثَّوَابُ، وَعَلَيْك الْعِقَابُ». [٢].

الشرح:

[١] الملائكة لا تخلق شيئا؛ لأنهم مخلوقون، عباد لله ﷻ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، إنما ينفذون أوامر الله، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧] هؤلاء هم الملائكة، وهم رسل: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١]، فهم رسل، وخلق من خلق الله، ولهم وجود، يشاهدون، يرون.

[٢] الفلاسفة المنتسبون للإسلام الذين يريدون أن يروجوا الفلسفة القديمة أخذوا هذا الحديث الموضوع المكذوب على الرسول ﷺ: أن أول ما خلق الله العقل. هذا كذب؛ أول ما خلق الله القلم، والقلم مسبوق بالعرش على الصحيح، فليس هو أول ما خلق الله.

وَيُسَمُّونَهُ أَيْضًا: الْقَلَمَ؛ [١] لِمَا رُوِيَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»، الْحَدِيثَ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١) [٢] وَالْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرُوهُ فِي الْعَقْلِ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَاتِمٍ الْبُسْتِيُّ(٢)، [٣].

الشرح:

[١] هذا من التحريف؛ القلم غير العقل، القلم كائن خلقه الله: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ الْقَلَمُ، فَقَالَ: اكْتُبْ قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فهو مخلوق لله ﷻ، وليس هو العقل، هناك فرق بين العقل والقلم، لكن هؤلاء يخلطون ويلبسون على الناس، ويتلمسون ما يبرر باطلهم ولو من الأحاديث المكذوبة الموضوعة كهذا الحديث.

[٢] ويقولون: المراد بالقلم العقل. نعم، أول ما خلق الله القلم؛ كما في الحديث، لكنه ليس العقل. أما الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ»، فهو صحيح، لكنه ليس العقل.

[٣] أبو حاتم البستي هو ابن حبان صاحب الصحيح.

---

(١) الترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

(٢) انظر: المجروحين لابن حبان (١/ ٣٤٣).

وَالدَّارَقُطْنِيّ، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ(١)، وَغَيْرُهُمْ. [١] وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ دَوَاوِينِ الْحَدِيثِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، [٢] وَمَعَ هَذَا فَلَفْظُهُ لَوْ كَانَ ثَابِتًا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ لَفْظَهُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَقْلَ قَالَ لَهُ...»، وَيُرْوَى: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ...»، فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ خَاطَبَهُ فِي أَوَّلِ أَوْقَاتِ خَلْقِهِ؛ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ، [٣].

الشرح:

[١] هؤلاء الأئمة ذكروا أن هذا الحديث مكذوب موضوع على رسول الله ﷺ، والحمد لله أن قيض للسنة فرسانا يحرسونها من هؤلاء الوضاعين والكذابين، فرد الله كيدهم في نحورهم -والحمد لله-، لا أحد يجرؤ أن يكذب على رسول الله إلا ويقيض الله له من يفضحه.

[٢] هذا الحديث ليس في كتب الحديث، فلو كان حديثا عن الرسول، لما أهمله أئمة الحديث والرواة.

[٣] لو صح (أول ما خلق الله العقل، قال له: أقبل، ثم قال له: أدبر) فالأولية ليست أنه أول المخلوقات، الأولية أنه من أول ما خلقه الله، كلمه مثلما قال في القلم: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب» فالأولية إنما هي في تكليم الله له، لا أنه هو أول المخلوقات، فـ (أول) منصوب على الظرفية، قال له أول ما خلقه: أقبل، قال للقلم أول ما خلقه: اكتب، فهي أولية نسبية، وليست أولية مطلقة؛ كما يقولون.

---

(١) انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٧٤).

وَ(أَوَّلُ) مَنْصُوبٍ عَلَى الظَّرْفِ؛ كَمَا فِي اللَّفْظِ الْآخَرِ (لَمَّا)، [١] وَتَمَامُ الحديث: «. . . مَا خَلَقْت خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْك. . .»، [٢]، فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ خَلَقَ قَبْلَهُ غَيْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «. . . فَبِك آخُذُ، وَبِك أُعْطِي، وَلَك الثَّوَابُ، وَعَلَيْك الْعِقَابُ»، فَذَكَرَ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ مِنْ الْأَعْرَاضِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ جَمِيعَ جَوَاهِرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ صَدَرَ عَنْ ذَلِكَ الْعَقْلِ. فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟! وَسَبَبُ غَلَطِهِمْ أَنَّ لَفْظَ الْعَقْلِ فِي لُغَةِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ هُوَ لَفْظُ الْعَقْلِ فِي لُغَةِ هَؤُلَاءِ الْيُونَانِ، [٣].

الشرح:

[١] أما لو كان أولُ بالرفع، صار مبتدأ، وقد يوهم ما يقولون، لكن جاء في الحديث لفظ (أولَ) ظرفية، أنه قال له أولَ ما خلقه.

[٢] (مَا خَلَقْت خَلْقًا)، انظر: كذبهم صار عليهم، «مَا خَلَقْت خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْك»؛ يعني هناك خلق قبله، ولكن هو أفضل مما سبقه، هذا على التنزل أنه حديث، وإلا فهو باطل، لكنه يريد أن يرد عليهم من كذبهم.

[٣] نعم، العقل موجود، والعقل مخلوق، لا شك أن هناك عقلًا، وأنه مخلوق، لكن ليس هو العقل الذي يريده الفلاسفة، إنما هو العقل الذي خلقه الله، وأودعه في الإنسان؛ يميز به بين الضار والنافع، والحق والباطل، ويتصرف به العقل نعمة من الله ﷻ، ولذلك إذا فقد الإنسان العقل، صار أحط من البهائم، العقل نعمة، وهو مخلوق لا شك، وموجود،

لكنه ليس العقل الذي قال عنه الفلاسفة: إنه هو المرجع للكون، وإنه هو الذي خلق الكون، وإنه، وإنه. . . .

فَإِنَّ الْعَقْلَ فِي لُغَةِ الْمُسْلِمِينَ مَصْدَرُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، [١] كَمَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، [٢].

الشرح:

[١] فالعقل يطلق على العقل الذي به يتصور الإنسان الأشياء، وهو صفة أودعها الله فيه، ويطلق العقل على التعقل وفهم الأشياء: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]؛ يعني: لا يفهمون، وإلا هم عقلاء ليسوا مجانين، لكن (لا يعقلون)؛ يعني: لا يفهمون الأشياء على حقيقتها، (يعقل عن الله)؛ يعني: يفهم عن الله، ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥]؛ يعني: من بعد ما فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

[٢] (يعقلون)؛ يعني: يفهمون عن الله ﷻ، ويدركون المراد من الآيات والأحاديث.

وفي قوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، [١] وَيُرَادُ بِالْعَقْلِ الْغَرِيزَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْإِنْسَانِ يَعْقِلُ بِهَا. [٢] وَأَمَّا أُولَئِكَ فَالْعَقْلُ عِنْدَهُمْ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ كَالْعَاقِلِ، [٣].

الشرح:

[١] ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾؛ يعني: يفهمون بها، وليس معناه أنهم لو ساروا في الأرض، خلقت لهم قلوب، القلوب مخلوقة فيهم، وموجودة، لكنهم لا يعلقون بها؛ كما قال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾.

[٢] انظر: يراد بالعقل شيئان: الغريزة التي في الإنسان التي تميز بينه وبين الحيوانات، وبينه وبين المجانين، ويطلق العقل على التعقل، والفهم، والإدراك.

[٣] (جوهر) يعني: جسم. عندهم العقل ليس شيئًا يُرى، شيء يودعه الله في الإنسان من أسراره ﷻ؛ مثل الروح لا يرى ولا يشاهد، ولا تفرق بين عاقل ومجنون إذا رأيته، ما تفرق بين العاقل والمجنون إلا من خلال التصرفات، أما لو مررت على عاقل ومجنون وهما ساكتان، ما تميز بينهما؛ لأن العقل لا يرى، سر أودعه الله ﷻ في هذا الإنسان، أما الفلاسفة، فيقولون: لا، العقل مخلوق، شيء موجود في الخارج له جسم، ويدبر،

ويأمر، وينهى. هذا كذب؛ العقل ليس له وجود في الخارج يراه الناس، وإنما هو شيء سري لا يعلمه إلا الله؛ مثل الروح التي في الإنسان وفي الحيوان؛ شيء سري، هم يقولون: لا، ليس بشيء معنوي، إنما يقولون: هو شيء محسوس، يخلق، ويرزق، ويدبر؛ قال الله له: أقبل. وقال له: أدبر. هذا كذب، كل هذا كذب.

وَلَيْسَ هَذَا مُطَابِقًا لِلُغَةِ الرُّسُلِ وَالْقُرْآنِ. [١].

الشرح:

[١] ليس هذا مطابقا للغة الرسل والقرآن؛ أن العقل شيء قائم بنفسه، وأنه جواهر تظهر، وليس عرضا، وإنما هو جوهر كما يقولون. هذا كذب، من الذي رأى العقل؟! هل أحد منكم رأى العقل يمشي أو...؟! لا أحد رأى العقل، هو سر مودع في الإنسان؛ مثل الروح، لاتراها، وهي تدخل، وتخرج، وتصعد وتنزل، ولكن أنت لا تراها، الله ﷻ له مخلوقات لا يعلمها إلا هو.

وَعَالَمُ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ -كَمَا يَذْكُرُهُ أَبُو حَامِدٍ-(١): [١] عَالَمُ الْأَجْسَامِ الْعَقْلُ وَالنُّفُوسُ، فَيُسَمِّيهَا: عَالَمَ الْأَمْرِ،[٢].

الشرح:

[١] أبو حامد الغزالي رحمه الله تأثر أيضا بالفلاسفة، صار عنده بعض الشطحات، خصوصا في كتابه «إحياء علوم الدين»، فيه شطحات جاءته من الفلاسفة، ولو سلم من الفلاسفة، فهو عالم جليل، لكنه ابتلي بالدخول في الفلسفة، حتى قال تلميذه الإمام ابن العربي: إن شيخنا ابتلع الفلسفة، ولم يستطع أن يتقيأها.

[٢] أبو حامد يسمي النفوس والعقول عالم الأمر؛ لأنها عالم يشاهد ويرى عند الفلاسفة، هو يحكي قول الفلاسفة.

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، تفقه ببلده أولًا ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة، فلازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة ومهر في الكلام والجدل حتى صار عين المناظرين، له تصانيف كثيرة منها: إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، وغيرهما، رجع قبل موته للسنة، ومات وصحيح البخاري على صدره، توفي سنة ٥٠٥هـ. انظر: ترجمته في تبيين كذب المفتري (ص٢٩١)، والمنتظم (٩/ ١٦٨)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢)، والعبر (٤/ ١٠)، والوافي بالوفيات (١/ ٢٧٤)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/ ١٩١) وشذرات الذهب (٤/ ١٠).

وَقَدْ يُسَمَّى الْعَقْلُ: عَالَمَ الْجَبَرُوتِ، وَالنُّفُوسُ: عَالَمَ الْمَلَكُوتِ، وَالْأَجْسَامُ: عَالَمَ الْمُلْكِ، [١] وَيَظُنُّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُغَةَ الرُّسُلِ وَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ ذِكْرِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ مُوَافِقٌ لِهَذَا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. [٢].

وَهَؤُلَاءِ يُلَبِّسُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ تَلْبِيسًا كَثِيرًا، كَإِطْلَاقِهِمْ أَنَّ الْفَلَكَ مُحْدَثٌ، أَي: مَعْلُول، مَعَ أَنَّهُ قَدِيمٌ عِنْدَهُمْ، وَالْمُحْدَثُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَسْبُوقًا بِالْعَدَمِ، [٣] لَيْسَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَلَا فِي لُغَةِ أَحَدٍ أَنَّهُ يُسَمَّى الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ مُحْدَثًا، وَاللَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مُحْدَثٌ، وَكُلُّ مُحْدَثٍ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ؛ [٤].

الشرح:

[١] وهذا كله خطأ.

[٢] لقول الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد الغزالي.

[٣] يقولون: الفلك محدث. وهم يقولون: قديم. فيتناقضون.

[٤] هم يريدون التلبيس، يقولون: محدث. ثم يقولون: قديم.

يتناقضون في هذا، إنما يقولون: محدث. من باب التلبيس على الناس، يقولون: العالم محدث، وأن المخلوقات كلها محدثة، وليس فيها شيء قديم. فليس هناك شيء قديم، فكل شيء من الخلق، فهو محدث وكائن بعد أن لم يكن: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وكل شيء فهو مخلوق، والمخلوق موجود بعد أن لم يكن.

لَكِنْ نَاظَرَهُمْ أَهْلُ الْكَلَامِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ مُنَاظَرَةً قَاصِرَةً لَمْ يُعْرِّفُوا بِهَا مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ، [١] وَلَا أَحْكَمُوا فِيهَا قَضَايَا الْعُقُولِ، [٢] فَلَا لِلْإِسْلَامِ نَصَرُوا، وَلَا لِلْأَعْدَاءِ كَسَرُوا، [٣].

الشرح:

[١] (أهل الكلام) يعني: ما عندهم علم إلا الكلام، وهو علم المنطق. أراد الجهمية والمعتزلة أن يناظروا الفلاسفة، لكنهم ليس عندهم علم يناظرون به؛ لأنهم يعتمدون على علم المنطق والجدل، فلم يحسنوا الرد عليهم، لم يحسنوا الرد على الفلاسفة، فانتصر الفلاسفة عليهم؛ لأنهم لم يتسلحوا بالكتاب والسنة، وإنما تسلحوا بعلم المنطق والجدل، فالفلاسفة أقوى منهم في هذه الأمور، فردوا عليهم، وهكذا من يتعرض للرد على أهل الباطل، وهو ليس عنده علم، فإن أهل الباطل ينتصرون عليه؛ فلا يجوز الرد إلا بعلم.

[٢] معناها: أنهم اعتمدوا على العقل والمنطق والجدليات.

[٣] هؤلاء الجهمية والمعتزلة لا للإسلام نصروا، ولا للباطل كسروا؛ لأنهم ليس عندهم علم، ولم يردوا بعلم منزل من الله ﷻ.

وَشَارَكُوا أُولَئِكَ فِي بَعْضِ قَضَايَاهُمْ الْفَاسِدَةِ، [١] وَنَازَعُوهُمْ فِي بَعْضِ الْمَعْقُولَاتِ الصَّحِيحَةِ، [٢] فَصَارَ قُصُورُ هَؤُلَاءِ فِي الْعُلُومِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ ضَلَالِ أُولَئِكَ، [٣] كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. [٤].

الشرح:

[١] شارك الجهمية والمعتزلة الفلاسفة في بعض قضاياهم الفاسدة.

[٢] هناك معقولات صحيحة، هم نازعوا فيها، والمعقولات الباطلة أقروها؛ لجهلهم وعدم علمهم، وهكذا كل من لم يتسلح بالكتاب والسنة عن فهم وإدراك، فإنه يصير إلى هذا المصير الذي صار إليه الجهمية والمعتزلة مع الفلاسفة.

[٣] ليس عندهم دليل من الكتاب والسنة وعلم الرسول، وليس عندهم معقولات سليمة؛ فلذلك انهزموا أمام العدو؛ لأنهم ليس معهم سلاح يقاومون به.

(العلوم السمعية): هي الكتاب والسنة.

[٤] الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يحيلكم على أشياء كتبها في غير هذا الموضع من مؤلفاته؛ مثل: (العقل والنقل)، ومثل: (الرد على المنطق)، له كتاب اسمه: نقد المنطق.

وَهَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ قَدْ يَجْعَلُونَ جِبْرِيلَ هُوَ الْخَيَالُ الَّذِي يَتَشَكَّلُ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْخَيَالُ تَابِعٌ لِلْعَقْلِ، [١] فَجَاءَ الْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ شَارَكُوا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةَ الْمُتَفَلْسِفَةَ، [٢] وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عَنْ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ؛ [٣].

الشرح:

[١] كما سبق أن الملك عندهم إنه خيال يتخيله النبي ويسمعه ويكلمه، فيظن أن هذا شيء موجود في الخارج، وهو إنما هو في ذهنه فقط، نعم عندهم أن الملائكة هي الهواجس التي تأتي في خاطر الإنسان.

[٢] رجع إلى أول الكلام. والملاحدة من الصوفية الذين شاركوا الملاحدة من الفلاسفة.

[٣] كما سبق.

كَابْنِ عَرَبِيٍّ صَاحِبِ «الْفُتُوحَاتِ» و«الْفُصُوصِ»، فَقَالَ: إِنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الْمَعْدِنِ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُوحِي بِهِ إِلَى الرَّسُولِ، وَالْمَعْدِنُ عِنْدَهُ هُوَ الْعَقْلُ، وَالْمَلَكُ هُوَ الْخَيَالُ، وَالْخَيَالُ تَابِعٌ لِلْعَقْلِ، وَهُوَ بِزَعْمِهِ يَأْخُذُ عَنْ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْخَيَالِ، وَالرَّسُولُ يَأْخُذُ عَنْ الْخَيَالِ؛ فَلِهَذَا صَارَ عِنْدَ نَفْسِهِ فَوْقَ النَّبِيِّ، وَلَوْ كَانَ خَاصَّةُ النَّبِيِّ مَا ذَكَرُوهُ لَمْ يَكُنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُ، فَكَيْفَ وَمَا ذَكَرُوهُ يَحْصُلُ لِآحَادِ الْمُؤْمِنِينَ؟! وَالنُّبُوَّةُ أَمْرٌ وَرَاءَ ذَلِكَ، فَإِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالَهُ وَإِنْ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مَنَّ الصُّوفِيَّةِ فَهُمْ مِنْ صُوفِيَّةِ الْمَلَاحِدَةِ الْفَلَاسِفَةِ، لَيْسُوا مِنْ صُوفِيَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، [١] فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ مَشَايِخِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ [٢].

الشرح:

[١] لا من الصوفية المعتدلة، وهذا يلبس به بعض الكتاب المعاصرين، فيقول: الصوفية على حق، وهم عباد، وهم. . .، نقول: نعم، هذا في أوائلهم، لكن أواخرهم، لا. فرق بين ابن العربي بالألف واللام، وابن عربي بدون. ابن عربي هذا هو الملحد الطائي الصوفي الخبيث، وأما ابن العربي، فهذا إمام من المالكية، له تفسير، وله شرح الترمذي تحفة الأحوذي، وله مؤلفات قيمة ومفيدة، وهو مالكي المذهب.

[٢] لأن الصوفية - كما سبق - على قسمين: صوفية بمعنى الزهاد والعباد، لكنهم لم يخرجوا عن الكتاب والسنة؛ مثل: الفضيل بن عياض، والجنيد، وبشر الحافي، وإبراهيم بن أدهم، هؤلاء صوفية معتدلة، وهم

يصدرون عن الوحي، غاية ما عندهم الزهد والعبادة الكثيرة، أما الصوفية المتأخرة، فهم ملاحدة، ففرق بين هذا وهذا، بعض الناس يلبس، يقول: الصوفية حق. ويأتي بسيرة الأوائل، ويقول: الصوفية حق. يلبس على الناس بذكر المتصوفة الأوائل، ويريد أن المتأخرين مثل الأوائل، هذا غلط.

* * *

كَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ(١)، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ(٢)، وَأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ(٣)، وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ(٤)، وَالْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ(٥)، وَسَهْلِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ(٦)، وَأَمْثَالِهِمْ، رضوان الله عليهم أجمعين. [١].

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي، ولد بسمرقند وسكن مكة وصار شيخ الحرم المكي، كان ثقة عابدًا إمامًا كثير الحديث، قال ابن المبارك: ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل، وقال شريك: «الفضيل حجة لأهل زمانه» توفي بمكة سنة ١٨٧هـ. أنظر: تاريخ دمشق (٤٨/ ٣٧٥)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٤٥)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٩٨)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٢٦٥).

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، وقيل التميمي، أبو إسحاق البلخي الزاهد سكن الشام، من أتباع التابعين، أصله من بلخ ثم انتقل إلى الشام توفي سنة ١٦٢هـ انظر: تاريخ دمشق (٦/ ٢٧٧)، والثقات لابن حبان (٦/ ٢٤)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٣٥).

(٣) سبقت ترجمته (ص ٣٩٧).

(٤) معروف بن الفيرزان المشهور بالكرخي، أبو محفوظ من عباد أهل العراق وقرائهم ممن له الحكايات الكثيرة في كرامته واستجابة دعائه، أحد المشتهرين بالزهد والعزوف عن الدنيا، كان من رفقاء بشر بن الحارث، توفي سنة ٢٠٠هـ. انظر: الثقات لابن حبان (٩/ ٢٠٦)، وتاريخ بغداد (١٣/ ١٩٩)، والمنتظم لابن الجوزي (١٠/ ٨٨).

(٥) سبقت ترجمته (ص ٢٩٨).

(٦) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، له كلمات نافعة ومواعظ حسنة وقدم راسخ في الطريق، سئل إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: حتى يموت ويصب باقي حبره في قبره، توفي سنة ٢٨٣هـ. انظر: ترجمته في حلية الأولياء (١٠/ ١٨٩)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٤٢٦)، وصفة الصفوة (٤/ ٦٤)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠)، وشذرات الذهب (٢/ ١٨٢).

الشرح:

[١] هؤلاء علماء، هم صوفية، لكنهم علماء في الكتاب والسنة، ويتبعون الكتاب والسنة.

الحاصل أنه لا يُلَبَّسُ بالصوفية الطيبين على الصوفية الملاحدة، ويقال: التصوف فيه خير، انظروا إلى الجنيد، وانظروا إلى الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم. نقول: هذا غير موجود الآن، غير موجود عند متصوفة العصر، الذي يقول: أنا أجلس مع الله، وآخذ عنه، يأمرني، وينهاني، وأحضر لكم العلم من عند الله، هذا مثل الجنيد، ومثل الفضيل بن عياض؟!!

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تم بحمد الله الجزء الأول

تعليقات على

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

التعليقات

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان بن جابر عثمان الجحلهم الشويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

تعليقات على

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الإمام الذهبي

شركة مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

❖ الرئيسي - حولي - شارع المثنى - مجمع البدري

ص. ب: ١٠٧٥. الرمز البريدي ٣٢٠١١

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

❖ فرع حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٢٦١٥٠٤٦

❖ فرع المباركية - مقابل مسجد ابن بحر - ت: ٢٢٤٩٠٦٠٤

❖ فرع الفحيحيل البرج الأخضر شارع الدبوس - ت: ٢٥٤٥٦٠٦٩

❖ فرع المصاحف - حولي - مجمع البدري: ت: ٢٢٦٢٩٠٧٨

❖ فرع الرياض - المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي ت: ٠٥٥٧٧٦٥١٣٨

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩

E – mail: z.zahby74@yahoo.com

تعليقات على

كتاب الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

أجزل الله له المثوبة والمغفرة

التعليقات

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان بن جابر عثمان الجلاهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

التراث الذهبي

الرياض

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبعد فقد أذنت للشيخ الدكتور سلامة بن جابر المحلم بطباعة كتابه التعليقات على كتاب الفرقان لابن تيمية رجاء الاستفادة والأجر وصلى الله على نبينا محمد

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

صالح

٢٦/٦/١٤٢٨هـ

وَاللَّهُ ﷻ قَدْ وَصَفَ الْمَلَائِكَةَ فِي كِتَابِهِ بِصِفَاتٍ تُبَايِنُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ[١].

الشرح:

[١] تقدم أن الشيخ رحمه الله ذكر عن الفلاسفة أنهم يقولون: إن الملائكة لا حقيقة لها في الوجود، وإنما هي خيالات يتخيلها الناس، فهي القوى الذهنية، يتخيلها النبي، وإنها جاءت إليه، وإنها حدثته، والشياطين كذلك إنما هي القوى الشريرة التي تحضر في ذهن الإنسان، هكذا قول الفلاسفة في الملائكة والشياطين؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ويفسرون الأشياء بأفهامهم، فالشيخ يرد عليهم، ويقول: الملائكة خلق من خلق الله، لهم وجود في الكون، ولهم صفات في القرآن، وصفهم الله ﷻ، فهم ليسوا قوى ذهنية أو أفكارا، وإنما هي مخلوقات، كما أن الله خلق بني آدم، خلق أيضا الجن، والشياطين، قد خلق الملائكة، عوالم خلقها الله ﷻ: عالم الملائكة، عالم الشياطين، وعالم الإنس، وعالم الجن، عوالم كثيرة لا يعلمها إلا الله ﷻ، الله وصف الملائكة بأنهم عباد، وأنهم عنده ﷻ في السماوات، وأنهم يتنزلون بأمره في الأرض؛ منهم من ينزل بالوحي، ومنهم من ينزل بإحصاء أعمال بني آدم وكتابتها، ومنهم، ومنهم... أصناف، ولهم أوصاف، وهم عالم من عالم الغيب، لا يعلمه إلا الله ﷻ.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩]. [١].

الشرح:

[١] النصارى يقولون: إن عيسى ابن الله، المسيح ابن الله، ومشركو العرب يقولون: الملائكة بنات الله، فنسبوا له البنين والبنات ﷻ، والفلاسفة يقولون ما ذُكر آنفا؛ من أنهم قوى ذهنية أو نفسية، هذه أقوالهم في الملائكة، الله ﷻ رد على المشركين وعلى النصارى، قال ﷻ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وهذه الآية ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ﴾، قالوا - أي: المشركون والنصارى -: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾؛ منهم من يقول: المسيح. ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، والولد يشمل الذكر والأنثى، يسمى ولدا، الله ﷻ نزه نفسه عن ذلك؛ لأن الولد جزء من الوالد، يشبه الوالد، الله لا شبيه له، والوالد يكون محتاجا إلى الولد، الله غني عن خلقه ﷻ، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد، ووصف الملائكة بأنهم ليسوا بنات الله، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وإنما هم عباد مكرمون، عباد من عباد الله، مكرمون كرمهم الله في طاعته،

وجعلهم في السماء، وأعطاهم صفات ليست لغيرهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٧ - ٢٨]؛ الملائكة، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ خائفون ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فنزه الملائكة عن كل أقوال المشركين والفلاسفة، وأعطاهم أوصافا عظيمة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم: ٢٦]. [١].

الشرح:

[١] يعني: كثير، (كم) بمعنى: كثير؛ لأن (كم) تأتي خبرية، فهي هنا خبرية، وتأتي استفهامية: كم عندك من الكتب؟ مثلا، هذه يقال لها: استفهامية، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: كثير، الملائكة في السماوات تنزل إلى الأرض بأمر الله ﷻ: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [النجم: ٢٦]، إلا بإذن الله ورضاه عن المشفوع - كغيرهم؛ كالأنبياء والأولياء والصالحين -، لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ورضاه عن المشفوع فيه؛ بشرطين: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، هذا فيه شرط الإذن من الله في الشفاعة: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾ [النجم: ٢٦]، هذا أيضا شرط: الرضا والإذن، ويرضى عن المشفوع فيه، أما الكافر، فلا تنفعه الشفاعة، وإنما الشفاعة تنفع المؤمنين المستحقين للعذاب، يشفع فيهم، فيسلمون من العذاب، ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم: ٢٦]؛ يعني: بالشفاعة ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾، ويرضى عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل الإيمان، أما الكفار، فالله ﷻ قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، هذه شروط الشفاعة. والشاهد فيه: وصف الملائكة بأنهم في السماء، وأنهم كثيرون، وأنهم متأدبون مع الله، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾، ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. [١].

الشرح:

[١] وفيهم الملائكة؛ لأن الملائكة عُبِدُوا، واتُّخِذُوا شركاء لله ﷻ، فهناك من يعبد الملائكة، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾؛ يعني: وزن ذرة، أصغر شيء، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾؛ لا يملكون استقلالا، ولا يملكون بالاشتراك، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾، ما لله ﷻ منهم من معين، لا يحتاج إلى أن يعينه أحد ﷻ، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، قالوا: هذه الآية قطعت عروق شجرة الشرك من أصلها(١)؛ لأن المدعو من دون الله إما أن يكون مالكا لما يطلب منه، أو يكون شريكا للمالك، أو يكون قريبا من المالك بوزارة أو باستشارة - كما عند الملوك المستشارين والوجهاء -، أو شفيعًا، آخر شيء يكون شفيعا، يشفع لصاحب الطلب عند الله، فنفى هذه الأمور كلها، لا أحد يملك شيئا من السماوات، ولا من الأرض، ولا أحد يشارك الله ﷻ في السماوات والأرض، ولا أحد يكون وليًّا لله وظهيرا له، يشير عليه، ويؤثر عليه؛ لأنه ليس بحاجة إلى الأعوان:

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه تيسير العزيز الحميد (١/ ٢٢٦).

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، ليس له ولي من الذل، الناس يتخذون أولياء؛ لأنهم محتاجون إليهم، الله لاحاجة له، لكن له أولياء بمعنى محبوبين يحبهم، ويحبونه؛ من الولاية، هذا موجود، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ما بقي إلا الشفاعة، هذه أيضا ما تحصل إلا بإذنه، بخلاف الملوك في الدنيا والسلاطين، فإن الشفعاء يشفعون عندهم، ولو لم يأذنوا، أما الله ﷻ، فلا أحد يجرؤ أن يشفع عنده إلا بإذنه، إذًا لم يبقَ للمشركين تعلق، ولا برهان، ولاحجة في من يدعونهم: ليسوا مالكين، وليسوا شركاء، وليسوا وزراء لله ﷻ، والشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، بخلاف المخلوقين؛ فإنهم تحصل عندهم الشفاعة، ولو لم يأذنوا، ولو لم يرضوا حتى، لكنهم يضطرون لقبول الشفاعة؛ لأنهم محتاجون إلى الشفيع هذا، فهذه أبطلت الشرك من أصله. والشاهد منها: أن الملائكة من جملة من يدعوهم المشركون، وهم لا يملكون شيئا، ولا يشاركون الله، وليسوا وزراء وأعوانا لله ﷻ، ولا يشفعون عنده إلا بإذنه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. [١].

الشرح:

[١] وهذه الآية أيضا: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، كله ملك الله ﷻ، كل ما في السماوات، وما في الأرض، فهو ملك لله، لا أحد يملك مع الله شيئا، إلا من ملَّكه الله مُلْكًا مؤقتا، ثم يُنزع منه الملك، ويُعطى لغيره، ما أحد يستمر في هذه الدنيا يملك، يُؤخذ منه الملك، ويُعطى لغيره من السلاطين والأمراء، ما يستمرون: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ من المخلوقات، فإذا كانوا مملوكين لله، فكيف يُدعَون مع الله ﷻ؟! ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾؛ يعني: الملائكة؛ لأنهم عند الله في السماء عندية إكرام وتقريب من الله ﷻ، عنده يعني: في السماء، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾، وهم الملائكة: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، مع أن لهم مكانة مرتفعة عند الله ﷻ، ومع هذا ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، هم عباد، فكيف يدعون مع الله، وهم عباد؟! ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، لا يكفرون، ولا يملون من تواصل العبادة؛ فهم دائما يعبدون الله ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٩]، لو قدر أن أحدا من الملائكة - وحاشاهم - قال: إني إله، لعذبه الله أشد العذاب؛ لأنه منازع لله ﷻ، ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

هذا ظلم؛ لأن الشرك هو أعظم الظلم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾، ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، هذه أوصاف الملائكة، وهذه الأوصاف تدل على أن الملائكة ذوات موجودة، ليست أفكارا ذهنية، أو قوى؛ كما يقوله الزنادقة.

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ جَاءَتْ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ، [١].

الشرح:

[١] الملائكة - أيضا - مما يدل على أنهم موجودون، وأنهم ليسوا أفكارا وقوى ذهنية، إنما هم ذوات مخلوقة، في الحديث خلق الله الملائكة من النور(١)، جاؤوا إلى إبراهيم يتشكلون؛ لأن البشر لايطيقون رؤية الملك على صورته وخلقته، فيأتون إلى البشر في صور مألوفة عند الناس، في صور أشخاص، الله أعطاهم القدرة على التشكل، فجاؤوا إلى إبراهيم لما أنزلهم الله لإهلاك قوم لوط، مروا على إبراهيم في صورة أضياف، فظن إبراهيم أنهم أضياف، فأعد لهم القِرى، جاء بعجل حنيذ مشوي؛ ليأكلوا؛ يحسبهم أضيافا؛ لأنه كريم ﷺ، كان يضيف الأضياف، ويُقري الأضياف، فبادر ﷺ لهم بالقِرى، لكن لما رآهم لا يأكلون؛ لأن الإنسان إذا لم يأكل من طعامك، تخاف أنه يريدك بسوء، أما إذا أكل، فإنك تأمن منه، فلما رآهم لا يأكلون، أوجس منهم خيفة، فطمأنوه، وأخبروه بمهمتهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٣]، إلى آخر الآيات، طمأنوه، وأخبروه بمهمتهم، الشاهد منها أن الملائكة يأتون في صور بشر، ولو كانوا أفكارا أو قوى نفسية، ما أتوا في صور بشر.

---

(١) عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول اللّهِ ﷺ: «خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ من نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ من مَارِجٍ من نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

وَأَنَّ الْمَلَكَ تَمَثَّلَ لِمَرْيَمَ بَشَرًا سَوِيًّا، [١].

الشرح:

[١] وكذلك الملك - وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ - جاء إلى مريم، وهي قد انعزلت عن قومها، واتخذت من دونهم حجابا، وتفرغت للعبادة، لعبادة ربها، واحتجبت عن الناس، جاءها الملك في صورة إنسان: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: ١٧]، ما جاءها بصورة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنها ما تطيق رؤيته، بل جاءها في صورة بشر سوي، متكامل الأعضاء، متكامل الخلقة؛ بشرا سويا؛ من أجل تأنس معه، ولا تنفر، ثم إنه قال لها ما قال، وانتهى الأمر بأن نفخ فيها من الروح التي يحملها من الله عَزَّ وَجَلَّ، فحملت بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهل الأفكار والقوى النفسية تأتي هكذا؟! هذا دليل على أن الملائكة ذوات، ولهم وجود في الخارج، وليس في الأذهان فقط.

وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ(١)، [١].

الشرح:

[١] كذلك كان يأتي إلى نبينا محمد ﷺ في صورة رجل في الغالب، وعنده أصحابه يرونه، يرون الرجل، ولا يدرون من هو، يأتي، ويكلم الرسول ﷺ، وهم يسمعون، ويخرج على أنه رجل؛ لأنهم لا يطيقون رؤيته، ولم يره ﷺ على صورته الملكية إلا في مرتين؛ مرة في الأرض رآه في الأفق المبين - يعني: في الجو على صورته -، ورآه ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، رآه مرتين، وما عدا هاتين المرتين يأتيه في صورة رجل، وكان جبريل عليه السلام يتصور في صورة دحية الكلبي، كان رجلا حسن الصورة، جميل المنظر، وهو صحابي جليل رضي الله عنه.

---

(١) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي من كبار الصحابة لم يشهد بدر وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وشهد اليرموك، وبقي إلى خلافة معاوية رضي الله عنه، وحدث بأحاديث عن رسول الله ﷺ. انظر: الاستيعاب (١/ ١٣٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٥٠).

وَفِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ، وَيَرَاهُمْ النَّاسُ كَذَلِكَ(١) [١].

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى جِبْرِيلَ عليه السلام بأنه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] [٢].

الشرح:

[١] وأحيانا يأتي في صورة أعرابي لا يعرفونه، إذا جاء في صورة دحية، ظنوا أنه دحية، لكن أحيانا يأتي في صورة أعرابي، ولا يعرفونه؛ كما في حديث جبريل عليه السلام: «كنا جلوسا عند النبي ﷺ فدخل علينا رجل كذا، وكذا..»(٢).

[٢] وصفه في آخر سورة التكوير: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ [التكوير: ٢٣ - ٢٤]، فوصف جبريل بأن الرسول ﷺ رآه بالأفق المبين، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [التكوير: ١٩]؛ يعني: القرآن، نزل به

(١) من ذلك ما رواه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١): «أَنَّ جِبْرِيلَ أتى النبي ﷺ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ فقال النبي ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ من هذا؟ أو كما قال قالت: هذا دِحْيَةُ؛ فلما قام قالت: والله ما حَسِبْتُهُ إلا أياه حتى سمعت خُطْبَةَ النبي ﷺ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ». وعند مسلم (١٦٧) بلفظ: «وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام فإذا أَقْرَبُ من رأيت بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ».

(٢) من ذلك ما رواه مسلم (٨) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ....».

جبريل على الرسول ﷺ، فهو قوله؛ يعني أنه بلغه إلى الرسول ﷺ، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾؛ يعني: جبريل رسول بين الله وبين محمد ﷺ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ٢٠]، قوة جبريل عليه السلام هائلة، حتى أنه حمل قرى قوم لوط على طرف جناحه، فقوته هائلة، ولما صاح في ثمود، هلكوا عن آخرهم، صيحته صاعقة، فأهلكهم عن آخرهم، فقوته لا توصف لشدتها: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾؛ جبريل عليه السلام عند ذي العرش؛ يعني: له مكانة عند الله في السماء، قريب من الله ﷻ، (مكين) يعني: له مكانة عند الله، كلها أوصاف مدح لجبريل عليه السلام، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، تطيعه الملائكة، ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: هناك في السماء، ﴿أَمِينٍ﴾؛ أمين على الوحي، لا يزيد فيه، ولا ينقص، بل يبلغه كما تحمله عن الله سبحانه وتعالى، فهو أمين الوحي عليه السلام.

وهو ﷺ في بطحاء مكة رفع رأسه، فرآه في الأفق المبين(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١) عن أبي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ، قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] إِلَى [ص: ٨] قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]».

وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ٥-١٨]. [١].

الشرح:

[١] هذا في سورة النجم، وصفه بـ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾؛ يعني: جبريل، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ يعني: هيئة، المِرة: الهيئة الحسنة، ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا﴾؛ دنا جبريل عليه السلام من محمد ﷺ، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ أي: عبد الله، وهو محمد ﷺ، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾؛ ليلة المعراج، هذه المرة الثانية، والشاهد من هذا أن جبريل عليه السلام يرى في الخارج، وليس هو في الذهن، وإنما هو يرى في الخارج، ويأتي، ويدخل، ويخرج، والملائكة جاؤوا إبراهيم، دخلوا وخرجوا، ليسوا صورًا ذهنية، أو تخيلات؛ كما تقوله الفلاسفة.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾؛ استوى يعني: ارتفع.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ قرب جبريل عليه السلام من محمد ﷺ في الأفق، لما عرج بالرسول ﷺ.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ؛ أوحى جبريل عليه السلام، أو أوحى الله إلى محمد بواسطة جبريل عليه السلام ما أوحى من كلامه سبحانه وتعالى.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ؛ الرسول ﷺ إنما أخبر عما رأى، ولم يكذب في قوله ﷺ.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ ؛ تمارونه: تجادلونه، وتوهمونه.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ؛ يعني: انحرف، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ ؛ يعني: تعدى المكان المخصص له ﷺ، فهو لم ينحرف، ولم يتعد.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ عَائِشَةَ ﵂ عن النبي ﷺ إِنَّهُ لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ مَرَّتَيْنِ، يَعْنِي: الْمَرَّةَ الْأُولَى بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى، وَالنَّزْلَةَ الْأُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَوَصَفَ جِبْرِيل ﵇ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ(٢)، وَأَنَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ(٣)، [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، فسماه الروح الأمين على ما يؤتمن عليه، وهو الوحي، لا يزيد في الوحي، ولا ينقص، ولا تقربه الشياطين.

[٢] وصفه بأنه الروح الأمين؛ كما في سورة الشعراء، ووصفه بأنه روح القدس، يعني: الطهر؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وهذا يدل على أن الملائكة لهم ذوات، ولهم وجود يرى، ويشاهد، رآه محمد ﷺ على صورته، ورآه الناس في صورته التي ظهر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (٢٨٧) (١٧٧) من حديث عائشة ﵂، ولفظه: «﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣] فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

(٢) كما قال ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣].

(٣) كما قال ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

عليهم بها، فلو كان قوى نفسانية، لما ظهر، ويتكلم أيضا، ويخاطب: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، ...»، إلى آخر الحديث[(١)]، هل هذا قوى نفسانية؟ الصحابة يسمعون هذا، ويرون الشخص.

(١) سبق تخريجه (ص ١٦).

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْأَحْيَاءِ الْعُقَلَاءِ، [١] وَأَنَّهُ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ [٢].

الشرح:

[١] جبريل ﷺ هو أعظم مخلوقات الله الأحياء العقلاء.

[٢] الجوهر المراد به: ما يقابل العرض؛ لأن الأشياء: إما جوهر، وإما عرض، فالجوهر هو الشيء الذي يرى، ويشاهد؛ الجسم، وأما العرض، فهو الذي يقوم بغيره، وليس له جسم، إنما يقوم بغيره؛ كالألوان: البياض، السواد، الحمرة، هذه تسمى بالعروض، جمع عرض؛ أي: الذي يعرض، ويزول، فالعرض هو الذي لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بغيره، وأما الجوهر، فهو الذي يقوم بنفسه. فهو قائم بنفسه، وليس عرضا يقوم بغيره؛ مثل: الأفكار التي تكون في الذهن، تعرض وتزول، الأفكار والهواجس هذه عوارض، ليس لها جسم، وليس لها ذوات.

لَيْسَ خَيَالًا فِي نَفْسِ النَّبِيِّ، كَمَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ الْمُتَفَلْسِفَةُ [١] وَالْمُدَّعُونَ وِلَايَةَ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ. [٢].

الشرح:

[١] ليس خيالا؛ كما تقوله الفلاسفة. مع كذبهم وفجورهم يدعون أنهم أولياء الله، وأنهم أفضل من الأنبياء، الفلاسفة يدعون أنهم أفضل من الأنبياء، وأنهم أدركوا أسرار الكون، وأنهم، وأنهم، أعجبوا بأنفسهم، ولم يشعروا بأنهم خلق قاصر عاجز، لا يعلمون إلا ما علمهم الله ﷻ؛ فهم يدعون لأنفسهم الكمال، يدعون لأنفسهم العلم، ويدعون لأنفسهم الاطلاع وإدراك الحقائق، وأنهم، وأنهم. . . .

[٢] لأن الأنبياء يأخذون بالواسطة عن الله، وهم يأخذون عن الله مباشرة، فهم أفضل من الأنبياء بزعمهم، الأنبياء إنما يأخذون عن غيرهم، وهم يأخذون بدون واسطة، يدركون الأشياء، أعجبوا بأنفسهم إلى هذا الحد، فصاروا يفضلون أنفسهم على الأنبياء، ويقولون: إن الولي - يعنون أنفسهم- أفضل من النبي.

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيّ

هذا من شعرهم، قبحهم الله!!

وَغَايَةُ حَقِيقَةِ هَؤُلَاءِ إِنْكَارُ أُصُولِ الْإِيمَانِ؛ [١] بِأَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَحَقِيقَةُ أَمْرِهِمْ جَحْدُ الْخَالِقِ، [٢] فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ وُجُودُ الْخَالِقِ، [٣].

الشرح:

[١] ينكرون أركان الإيمان: الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالرسل؛ لأنهم يدعون أنهم أفضل من الرسل، ومن الأنبياء، وأيضا اليوم الآخر لا يؤمنون به، يأتي كلامهم فيه، يؤولونه على ما يريدون.

[٢] انتهى بهم الأمر إلى القول بوحدة الوجود(١)، وأن الكون ليس فيه انقسام بين خالق ومخلوق، بل هو الله كله، ويقولون: التوحيد هو أن لا تقسم الكون إلى خالق ومخلوق، بل تجعل الكون كله هو الله، فما عبدت من أي شيء، فأنت عبدت الله، فالذين يعبدون الأصنام، والأوثان، والجن والإنس، يعبدون الله؛ لأن الله هو الوجود المطلق، سبحانه عما يقولون!

[٣] ولذلك يسمون بأهل وحدة الوجود؛ لأن الوجود لا ينقسم إلى رب ومخلوق، كله هو الرب، وهذا هو التوحيد عندهم، والذي يقسم الوجود إلى خالق ومخلوق يقولون: هذا مشرك. يسمونه مشركا.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي (٢/ ١٣٤ - ٤٥١) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين، وانظر كلام شيخ الاسلام ﷺ في: أمراض القلب وشفاؤها (ص ٦٤)، والاستقامة (١/ ١٢٣)، والتحفة العراقية (ص ٦٤)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٩٣، والفرقان (١٠٦، ١١٤)، ومجموع الفتاوى (٢/ ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٦، ٤٦٦، ٥/ ١٢٦).

وَقَالُوا: الْوُجُودُ وَاحِدٌ، وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ، [١] كَمَا تَشْتَرِكُ الْأَنَاسِيُّ فِي مُسَمَّى الْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوَانَاتُ فِي مُسَمَّى الْحَيَوَانِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لَا يَكُونُ مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا إِلَّا فِي الذِّهْنِ، [٢] وَإِلَّا فالحيوانية الْقَائِمَةُ بِهَذَا الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ هِيَ الْحَيَوَانِيَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْفَرَسِ، وَوُجُودُ السَّمَوَاتِ لَيْسَ هُوَ بِعَيْنِهِ وُجُودُ الْإِنْسَانِ، فَوُجُودُ الْخَالِقِ ﷻ لَيْسَ هُوَ كَوُجُودِ مَخْلُوقَاتِهِ. [٣].

الشرح:

[١] الموجودات كلها تشترك في مسمى الوجود، وأنها موجودة، وهذا في الذهن، أما في الخارج فإنها تنقسم إلى أقسام: خالق، ومخلوق، والمخلوقات تنقسم إلى عوالم وأصناف، هم لا يرون تعددًا ولا انقسامًا.

[٢] كل الأشياء موجودة، لكن الله ﷻ له وجود خاص به، والمخلوقات لها وجود خاص بها، وإن كانت كلها تشترك في اسم الوجود في الذهن، هذا في الذهن.

[٣] الآدميون والبهائم كلها تشترك في اسم الوجود، كل منها موجود تشترك في اسم الوجود، لكنها تنقسم: هذا فرس، وهذا حمار، وهذا بعير، وهذه شاة، وهذا كلب، وهذا أسد، وهذا إنسان، وهذا ملك، وهذا جني؛ متفاوتة في وجودها، فالكون منقسم إلى أقسام - ما عدا الله ﷻ -، فإنه

أجسام، مخلوقات في العالم العلوي والسفلي، هم يقولون: لا، لا يوجد انقسام، كله هو الله.

وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ قَوْلُ فِرْعَوْنَ الَّذِي عَطَّلَ الصَّانِعَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُنْكِرًا هَذَا الْوُجُودَ الْمَشْهُودَ؛ لَكِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ لَا صَانِعَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ وَافَقُوهُ فِي ذَلِكَ، لَكِنْ زَعَمُوا بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَكَانُوا أَضَلَّ مِنْهُ، [١].

الشرح:

[١] وحقيقة قولهم أنه ليس هناك رب؛ مثل قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، هذا مذهب الفلاسفة تماما: جحود الخالق ﷻ، لكن يقولون: فرعون صار مشركًا؛ لأنه أقسم، قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، مع أن كل الموجود هو الرب، فهو أنكر عليه موسى عليه السلام هذا التقسيم بزعمهم، انظر: كيف يجعلون موسى عليه السلام من أهل وحدة الوجود، أنكر عليه هذا التقسيم، ولو أنه قال: الوجود كله واحد، لصار موحدا، ولما أنكر عليه، وهذا قول ابن عربي(١)، وقول أتباعه من فلاسفة الصوفيين: ابن الفارض(٢)، . . . .

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي طاف البلاد وأقام بمكة مدة وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلدًا فيها ما يعقل وما لا يعقل وما ينكر وما لا ينكر وما يعرف وما لا يعرف، وله كتابه المسمى بفصوص الحكم فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، توفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ١٥٦)، وميزان الاعتدال (٦/ ٢٦٩).

(٢) أبو حفص عمر بن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال وقد تكلم فيه غير واحد بسبب قصيدته التائية في السلوك على طريقة المتصوفة والتي ينعق فيها =

والعفيف التلمساني[١]، وغيرهم، هذا قولهم: وحدة الوجود. و(عطل) يعني: جحد الله ﷻ، (الصانع) يعني: عطل الخالق. زعموا أن الكون كله هو الله، فصاروا أضل من فرعون؛ لأن فرعون ما ادعى أن الكون كله هو الله، بل قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فميز نفسه عنهم، وهم لا يميزون بين خالق ومخلوق، وبين رب وعبد، ما يميزون بين هذا وهذا.

= بالاتحاد الصريح، مات ابن الفارض سنة ٦٣٢هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/٣٦٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٤٣)، ولسان الميزان (٤/ ٣١٧).

(١) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني الشاعر المطبق، وقد نسب إلى عظائم في الأقوال، والاعتقاد في الحلول والاتحاد، والزندقة، والكفر المحض على طريقة ابن عربي، توفي سنة ٦٩٠هـ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٦)، والنجوم الزاهرة (٨/ ٢٩)، وشذرات الذهب (٥/ ٤١٢).

وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ هَذَا هُوَ أَظْهَرُ فَسَادًا مِنْهُمْ ؛ وَلِهَذَا جَعَلُوا عُبَّادَ الأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ [١] وَقَالُوا : لَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ التَّحَكُّمِ صَاحِبَ السَّيْفِ، وَإِنْ جَارَ فِي الْعُرْفِ النَّامُوسِي كَذَلِكَ قَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى، أَيْ : وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةٍ مَا فَأَنَا الأَعْلَى مِنْكُمْ بِمَا أُعْطِيته فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْحُكْمِ فِيكُمْ. [٢].

قَالُوا : وَلَمَّا عَلِمَتْ السَّحَرَةُ صِدْقَ فِرْعَوْنَ فِيمَا قَالَهُ أَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ وَقَالُوا : ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]. [٣].

الشرح :

[١] هذا نتيجة القول بوحدة الوجود؛ أن كل من عبد شيئا، فإنما عبد الله، لأن الكون كله هو الله، فالإنسان والحيوان والصنم، والحجر، والشجر هو الله بزعمهم، تعالى الله عما يقولون.

[٢] هو أخطأ عندهم من هذه الناحية؛ أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، مع أن الكون كله هو الرب، ما يختص بفرعون، لكن لما غلب، وصار عنده قوة، وأعجب بنفسه، ادعى لنفسه أنه هو الرب.

[٣] انظر تحريف القرآن! السحرة تابوا إلى الله، وخروا سجدا لما ظهرت لهم معجزة موسى عليه السلام، وبرهان موسى عليه السلام وصدقه، تابوا إلى الله، وألقي السحرة ساجدين، قالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، لما هددهم فرعون بالقتل والصلب، قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ

أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢ - ٧٣]، أنت تقتلنا في هذه الدنيا، تصلبنا، لكن مآلنا إلى الله ﷻ: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٤]، فهذا الكلام منهم أنهم مؤمنون بالله ﷻ وبما قاله موسى وهارون ﷺ، لكن الفلاسفة يقولون: لا، هم لما عرفوا أن فرعون صادق، قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، عرفوا أنه صادق، ففوضوا إليه الأمر، وقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، هذا تحريف لكلام الله ﷻ فكأنهم رضوا عن فرعون، وعرفوا أنه صادق، فقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾؛ لأنك أنت الرب.

قَالُوا: فَصَحَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وَكَانَ فِرْعَوْنُ عَيْنَ الْحَقِّ[(١)]، [١] ثُمَّ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، [٢] فَجَعَلُوا أَهْلَ النَّارِ يَتَنَعَّمُونَ كَمَا يَتَنَعَّمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، [٣].

الشرح:

[١] لما قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، معناه أنهم صدقوا أنه هو ربهم الأعلى، تعالى الله عما يقولون.

[٢] انتهى كلامهم في الرب ﷻ.

الشيخ يريد أن يبين كفرهم بأركان الإيمان، الإيمان بالله انتهى منه، وأنهم يرون أن الله هو الكون كله، وكذلك أنكروا حقيقة اليوم الآخر، فقالوا: إن اليوم الآخر عبارة عن أحوال تتغير فقط. ما عندهم أن اليوم الآخر فيه بعث للناس من القبور، وجزاء وحساب، وجنة ونار، ما عندهم هذا.

[٣] جعلوا أهل النار يتنعمون بالنار، ولا تؤلمهم، يتنعمون بها؛ كما يتنعم أهل الجنة بالنعيم عندهم.

---

(١) هذا الكلام لابن عربي قاله في فصوص الحكم (١/ ٢١٠) بلفظ قريب منه.

فَصَارُوا كَافِرِينَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، [١] مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ خُلَاصَةُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ مِنْ أَهْلِ وِلَايَةِ اللَّهِ، [٢] وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إنَّمَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ مِنْ مِشْكَاتِهِمْ. [٣].

الشرح:

[١] هذه حقيقة الفلاسفة؛ أنهم كافرون بالله، وكافرون بالملائكة؛ لأنهم يقولون: لا يوجد ملائكة، ولا يوجد رب، الكون كله هو الله، وليس هناك رب مستقل، وهم كافرون باليوم الآخر؛ لأنهم يقولون: ليس هناك جنة ولا نار، كلهم سواء في النعيم، أهل النار يتنعمون، وليس هناك عذاب.

[٢] يدعون لأنفسهم أنهم أكمل الناس إيمانا وعقولا، وأنهم انتهى بهم الأمر إلى التوحيد، وهو الوحدة. فالذي لا يقول بوحدة الوجود مشرك، والذي يقول بوحدة الوجود هذا هو الموحد عندهم.

[٣] من مشكاتهم؛ هم الذين يدلون الأنبياء؛ لأنهم أعرف من الأنبياء.

وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِ إِلْحَادِ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ ادِّعَاءً لِوِلَايَةِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وِلَايَةً لِلشَّيْطَانِ، نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ. [١].

وَلِهَذَا عَامَّةُ كَلَامِهِمْ إِنَّمَا هُوَ فِي الْحَالَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [٢].

الشرح:

[١] رحمه الله! لما كان الكتاب في بيان الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأن هؤلاء يدعون أنهم أولياء الله، وأخص أولياء الله، بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنهم أولياء الشيطان، وليسوا أولياء لله، فأكذبهم، ودحض أقوالهم وشبههم.

[٢] لا بد من بيان ضلالهم؛ لأنه موجود، ضلالهم موجود، وكتبهم موجودة، هذا موجود في كتب ابن عربي، التي يسميها (الفتوحات المكية)، وفي الفصوص (فصوص الحكم)، وهي تطبع الآن، وتحقق، وتنشر في الناس، وتباع في المعارض على أن ابن عربي هو في أرقى درجات العلم والإدراك، فيخشى أن هذا يلتبس على الجهال؛ ولهذا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وضح هذا الأمر، وبيَّنه.

وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ «الْفُتُوحَاتِ»: بَابُ أَرْضِ الْحَقِيقَةِ، وَيَقُولُونَ: هِيَ أَرْضُ الْخَيَالِ. [١] فَتُعْرَفُ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا هِيَ خَيَالٌ وَمَحَلٌّ تَصَرُّفِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُخَيِّلُ لِلْإِنْسَانِ الْأُمُورَ بِخِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، [٢] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩] **[٣].**

الشرح:

[١] صاحب الفتوحات المكية هو ابن عربي، ليس ابن العربي بالألف واللام؛ هذا من علماء التوحيد؛ المالكي ابن العربي، وله مؤلفات مفيدة جيدة، أما ابن عربي بدون (أل)، فهذا هو الملحد ابن عربي الطائي، وهذا يقال له ابن العربي المالكي.

[٢] كل الخيالات عندهم ليس لها حقائق ولا ثبوت، وإنما هي ضلالات وكفريات، يدعي أنها أكمل درجات العلم والإدراك.

[٣] ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾، هؤلاء هم أولياء الشياطين، هم أولياء الشيطان؛ لأنهم أعرضوا عن ذكر الرحمن؛ فتولاهم الشيطان، ودخل بهم في هذه المهامه المهلكة والضلالات والظلمات -والعياذ بالله-.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ يعني: يعمى بصره عن ذكر الرحمن، ولم ينظر فيه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ عقوبة له، فمن أعرض عن الله وعن محمد رسول الله، تولاه الشيطان: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾؛ عقوبة، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، لا يفارقه قرينه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، الشياطين يصدون هؤلاء، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، وهذا من تمام العقوبة، الإنسان إذا أخطأ، وصار يشك أنه أخطأ، يمكن أن يراجع نفسه، ويتوب، هذا أخف من الذي يرى أنه على حق؛ لأن الذي يرى أنه على حق، لا يرجع، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: الشياطين، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ من أجل أن يستحكم الضلال عليهم، نسأل الله العافية!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾، هذا في الدنيا، فإذا جاء يوم القيامة، يقول هذا الإنسان للشيطان الذي أضله في الدنيا: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ يعني يوم القيامة، ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، بل العادة في الناس أنه إذا وقع الضرر على الجميع، يخف، لكن في الآخرة لا، كل يرى أن العذاب كله عليه، دون غيره ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾، ما يخفف عنكم هذا يوم القيامة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، [١].

الشرح:

[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، الشرك ما يغفر إلا بالتوبة والدخول في الإسلام، بخلاف الذنوب التي دون الشرك؛ فإنها راجعة إلى المغفرة، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ من الذنوب التي دون الشرك، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، فالله ﷻ أخبر عن هؤلاء: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾؛ لأنهم يقولون: الملائكة بنات الله، فهم يعبدون الإناث بزعمهم، وأيضا أسماء الأصنام كلها إناث: اللات، العزى، مناة، أسماء إناث كلها: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٢]، فهذا مآلهم - والعياذ بالله - لما

تركوا القرآن، وتركوا اتباع الرسول ﷺ، وذهبوا مع أفكارهم وعقولهم، تولاهم الشيطان، يسول لهم، ويملي لهم، ويزن لهم الأمور، فصار مآلهم هذا المآل القبيح، هؤلاء أولياء الشيطان، انظروا أين ينتهون، هذا الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في الدنيا والآخرة، فكيف يقال: إن أولياء الرحمن وأولياء الشيطان سواء؟! ليسوا سواء.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]، [١].

الشرح:

[١] لما ذكر الشيخ رحمه الله فيما سبق أن غلاة الصوفية والفلاسفة وقعوا فيما وقعوا فيه من الإلحاد والكفر، وأن ذلك بسبب مخالفتهم للرسل، ولما خالفوا الرسل، وخالفوا الكتب الإلهية، سلط الله عليهم الشيطان؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، هذا نتيجة إعراضهم عن الرسل والكتب وأخذهم لأهوائهم وعقولهم، سلط الله عليهم الشيطان، فأضلهم، وقادهم وأغواهم، ثم ذكر هنا أن الشيطان الذي أغواهم في الدنيا، وقادهم إلى الإلحاد والكفر يتبرأ منهم يوم القيامة، إذا دخل هو وإياهم النار، فإنه يتبرأ منهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، وحاسب الله الخلائق، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال الشيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، بيّن لهم أنه هو الذي أخلفهم عن وعد الله ﷻ بسبب ذنوبهم وإعراضهم، والشيطان إنما يتسلط على هؤلاء وأمثالهم، أما العباد المخلصون، فإنه لا سلطان له عليهم؛ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]،

والشيطان قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، الذين أخلصوا لله ﷻ، فهو يصرح بهذا في النار؛ من أجل أن يحسرهم، ويزيدهم من الحسرة والندامة - والعياذ بالله -، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ثم إنه بين لهم أنه ما أجبرهم، ولا له عليهم سلطة إجبارية، وإنما هم الذين اتبعوه باختيارهم، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ يعني: من حجة، ومن إجبار، أو قهر، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾، لا تلوموني على ما فعلت بكم؛ لأني لم أجبركم، بل لوموا أنفسكم؛ لأنكم انقدتم لي بدون إجبار، وبدون سلطة، ثم قال: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بمغيثكم مما أنتم فيه، ومنجيكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾، أيضا ما أنتم بمنقذي ومناصري مما أنا فيه، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾، كفر بما فعلوه في الدنيا بسببه، فكفر بهذا، قطع العلاقة بينه وبينهم، هذا مصيرهم يوم القيامة، وهذا مصير كل من أعرض عن الكتاب والسنة، واتبع الشيطان، ومنهم الصوفية الذين تركوا الكتاب والسنة، وذهبوا مع الشيطان، سيكون مصيرهم هذا، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢-٢٣]، هذه عاقبة من اتبع الرسل: جنات تجري من تحتها الأنهار، وأيضا خالدين فيها، لا يخافون أن تؤخذ منهم، أو يؤخذون منها، هي لهم دائما، هذه نتيجة الإيمان بالله، وبكتبه، وبرسله، وباليوم الآخر، ولكن هذا يحتاج إلى صبر، ولا يأتي عفوا في الدنيا، يحتاج إلى صبر وثبات، يحتاج إلى علم ومعرفة،

لا يأتي عفوا هكذا بدون تعب، وبدون معرفة، وبدون ثبات وصبر؛ ولهذا تقول الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، ما نالوا هذا الشيء بالعفو والسهولة، وإنما قاسوا، وصبروا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

فالحاصل أن هذا مصير هؤلاء وأمثالهم ممن خالفوا الرسل، وخالفوا الكتب، وأخذوا بعقولهم وأهوائهم، وقادتهم شياطين الإنس والجن إلى هذا المصير المؤلم الذي لا نجاة منه يوم القيامة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]. [١].

الشرح:

[١] ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وهذا موقف من مواقف الشيطان مع بني آدم، وهو موقفه مع الكفار والمشركين يوم بدر، ظهر لهم في صورة سيد من سادات العرب، وقال: إني جار لكم، ومن عادات العرب الجوار، فهم يستجيرون بالأقوياء وبالرؤساء، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، لا تخافوا، فأوردهم وعزمهم على القتال، وغرر بهم على القتال، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، هذا غرور - والعياذ بالله -، ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، ما أحد يصل إليكم، فلما التحم القتال، والتقى الصفان، وتراءى الجمعان - جمع المسلمين وجمع الكفار-، هرب الشيطان، وتركهم، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ﴾؛ أي: رجع ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، وهو يقول: إني جار لكم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾، لما ورطهم، رجع عنهم، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾، السبب: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، ماذا يرى؟ رأى الملائكة مع الرسول ﷺ وأصحابه، والشياطين لا تجتمع مع الملائكة أبدا، فلما رأى

الملائكة، هرب، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ الخوف توا يأتيه، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، هذا موقف له في الدنيا، وذكر الله موقفه منهم في الآخرة، هذا موقف الشيطان من أوليائه في الدنيا في وقعة بدر، وموقفه منهم في الآخرة كما في الآية.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ»(١)، [١] وَالشَّيَاطِينُ إِذَا رَأَتْ مَلَائِكَةَ اللَّهِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا عِبَادَهُ هَرَبَتْ مِنْهُمْ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، تفسير هذه الآية: أنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة؛ يعني: يسوقهم، يسوق الملائكة إلى مشاركة الصحابة في القتال.

[٢] الشياطين إذا رأت ملائكة الله - عندكم في بعض النسخ: التي تؤيد بها، بالتاء، هذا غلط - التي يؤيد بها عباده، هرب؛ لأنه ما يجتمع مع الملائكة.

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٤٢٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤى الشَّيْطَانُ يَوْمًا هو فيه أَصْغَرُ وَلاَ ادحر وَلاَ أَحْقَرُ وَلاَ أَغْيَظُ منه في يَوْمِ عَرَفَةَ وما ذَاكَ الا لِمَا رَأَى من تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ الله عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ الا ما أرى يوم بَدْرٍ قِيلَ وما رَأَى يوم بَدْرٍ يا رَسُولَ الله قال اما انه قد رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ» أي يصفهم للقتال. وهو حديث مرسل. وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤/ ٣٧٨)، والطبري في التفسير (١٠/ ١٩)، وأخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ٤٦١).

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَلَائِكَتِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، [١].

الشرح:

[١] هذا في وقعة بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾؛ معية نصرة وتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فالملائكة تنزل لتثبيت المؤمنين وتأييدهم، لا أنها تقاتل، لكنها تؤيد، وتساعد المسلمين على أعدائهم، وروي أنهم قاتلوا في بدر مع الصحابة ﷺ[١]، ولكن الغالب أنهم ينزلون لتقوية المسلمين، وتطمين المسلمين، وإنزال السكينة عليهم، وطرد الشياطين عنهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾؛ الملائكة الذين نزلوا إلى بدر، ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، الله ﷻ ألقى في قلوب المؤمنين الثبات، وإن كانوا قليلين، وألقى في قلوب الكفار الرعب، وإن كانوا مثلي المؤمنين في العدد والعدة، لكن ما نفعتهم قوتهم، أنزل الله في قلوبهم الرعب، وأنزل في قلوب المؤمنين القوة والشجاعة والثبات؛ لأن معهم الملائكة، حتى نصرهم الله في بدر.

---

(١) قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ». أخرجه مسلم (١٧٦٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، [١].

الشرح:

[١] هذا في غزوة الأحزاب التي تسمى غزوة الخندق، تسمى غزوة الخندق؛ لأن النبي ﷺ حفر حول المدينة خندقا يمنع الكفار من دخولها، وتسمى غزوة الأحزاب؛ لأن المشركين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وجاؤوا يريدون القضاء عليه وعلى أصحابه، ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: النصر، ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾؛ جنود الكفار، ليسوا قريش فقط، معهم قبائل العرب الكثيرة؛ ولذلك سموا بالأحزاب، ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، لما طال الحصار على المسلمين، أنزل الله عليهم في ليلة من الليالي ريحا شديدة، قلعت خيامهم، وحصبتهم بالحصباء، ووقع الرعب في قلوبهم، فانهزموا، ونزلت الملائكة أيضا مع الريح، فألقت الرعب في قلوب الكفار، فانهزموا مسرعين، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٦]، من هم الذين ظاهروهم وأعانوهم؟ يعني: يهود بنو قريظة، خانوا الرسول ﷺ، ونقضوا العهد؛ لأنهم عاهدوا الرسول على أنه إذا غزيت المدينة أن يقاتلوا معه، فلما جاءت الأحزاب، نقضوا العهد، وانضموا إلى الأحزاب، ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠] غزاهم رسول الله ﷺ بعد انصراف المشركين وهزيمتهم، وحاصرهم،

حتى نزلوا من حصونهم، وحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ لأنهم طلبوا تحكيمه، فحكم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى نساؤهم وأولادهم وأموالهم؛ نتيجة لنقضهم العهد، ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ يعني: اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ قصورهم وحصونهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦ - ٢٧]، وهي خيبر التي كانت عند اليهود، أورثهم الله إياها بعد ذلك. فالحاصل أن هذا نتيجة الصبر والثبات للمؤمنين؛ أن المؤمنين تكون معهم الملائكة، والكفار تكون معهم الشياطين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، [١].

الشرح:

[١] وكذلك في موقف ثالث، وهو حالة الرسول ﷺ لما أراد الهجرة واللحاق بأصحابه، أرادوا منعه، وتشاوروا فيه، واجتمعوا، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ يعني: بالحبس ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فأخرجه من بينهم، وهم لا يشعرون، وذهب هو وصاحبه إلى غار ثور جنوب مكة، واختفيا فيه، أخذ المشركون يطلبونه بكل وسيلة، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بهم، وبحثوا عنهم، حتى وقفوا عليهم في الغار، ولم يروهم، صرف الله أبصارهم عنهم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ يعني: الملائكة، الملائكة نزلت لتأييد الرسول ﷺ وصاحبه، فخرجوا من الغار، وركبوا الرواحل، وذهبوا إلى المدينة بسلامة الله، لم يتعرض لهم أحد حتى وصلوا إلى المدينة، هذه نتيجة الصبر والثبات، والجهاد في سبيل الله.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾؛ يعني: أبا بكر الصديق، هذه شهادة لأبي بكر بالصحبة، شهد الله له بالصحبة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾، فإذا قيل لك: من هو الصحابي الذي شهد الله له بالصحبة؟ هو أبو بكر رضي الله عنه: ﴿يَقُولُ

﴿لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وذلك أن الرسول ﷺ لما قال أبو بكر خائفا على رسول الله منهم: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا، فقال ﷺ مطمئنا له: «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**»[1]، فأنزل الله ما أنزل، ورد الكفار خائبين، وحمى رسوله ﷺ وصاحبه منهم، كانا اثنين، وأهل مكة كلهم خرجوا في طلبهم، كانا اثنين، وما قدروا على أن يسيطروا عليهم: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾، ما معهم أحد.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥]. [١].

الشرح:

[١] هذا قيل: إنه في غزوة بدر، وقيل: إنه في غزوة أحد؛ أن الله ﷻ أمد المسلمين بالقوة والنصر: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، قال الله ﷻ: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ يعني: من جهتهم، ﴿هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾؛ يعني: معلمين بعلامات ليست من علامات البشر، أو خيولهم معلمة، قيل: إن عليهم عمائم بيض، وقيل: إن خيولهم لها شعور غير شعور الخيول المعروفة، (مسومة) يعني: معلمة[١]. فهذا إمداد الله ﷻ لأوليائه - أولياء الرحمن -؛ لأن الكتاب في أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فهذه إمدادات الله لأولياء الرحمن، فهو يمدهم بالملائكة، وبالنصر، وينقذهم من المواقف الصعبة الضيقة، فيجعل لهم الفرج والمخرج، وهذه مواقف الشياطين مع أوليائهم، هذا موقف الشيطان مع أوليائه: الخزي، والعار، والهزيمة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٧٦: ٨٤)، والقرطبي (٤/ ١٩٦)، وابن كثير (١/ ٤٠٣، ٤١٢).

وَهَؤُلَاءِ تَأْتِيهِمْ أَرْوَاحٌ تُخَاطِبُهُمْ [١] وَتَتَمَثَّلُ لَهُمْ [٢] وَهِيَ جِنٌّ وَشَيَاطِينُ، [٣] فَيَظُنُّونَهَا مَلَائِكَةً، [٤].

الشرح:

[١] وهؤلاء - يعني: أولياء الشيطان - تأتيهم أرواح تخاطبهم، وهي شياطين تكلمهم، يظنون أنها ملائكة، وهي شياطين تلقنهم الشر. أرواح خفية؛ لأن الجن والشياطين يتشكلون بأشكال لا يعرفون بها.

[٢] تتمثل لهم بأشخاص؛ لأن الجني يقدر على أن يتشكل: يصير دابة، يصير حشرة، يصير إنسان، يتشكل.

[٣] وهي في حقيقتها جن، ليست على ظاهرها، إنما هي جن وشياطين؛ لتغرير بني آدم.

[٤] ويفرحون بهذا، ويظنون أن هؤلاء الملائكة مثل الذين ينزلون على الرسل، وأنهم تنزل عليهم الملائكة؛ كما تنزل على الرسل، وأنهم ليسوا بحاجة إلى الرسل؛ لأنهم يأتيهم مثل ما يأتي الرسل، أو أنهم أحسن حالا؛ كما سيأتي.

كَالْأَرْوَاحِ الَّتِي تُخَاطِبُ مَنْ يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، [١] وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَا ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الْإِسْلَامِ: الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ(١) [٢] فِي الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»(٢)، وَكَانَ الْكَذَّابُ: الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ،

الشرح:

[١] سبق لنا أن عباد الأصنام وعباد القبور يسمعون أصواتا، أو يرون صورا: صور الأموات الذين يدعونهم، ويخاطبونهم، ويقضون حاجاتهم، فيظنون أنهم ملائكة، وهم شياطين تخاطبهم من القبر، تخاطبهم من الصنم؛ لتغرر بهم. يعني: الذين تخاطبهم الشياطين.

[٢] المختار بن أبي عبيد الثقفي من قبيلة ثقيف من الطائف، ظهر في أول أمره بالصلاح والاستقامة، وكان مع ابن الزبير، ثم إنه انحرف، وذهب مع الشيعة، ثم في النهاية ادعى أنه نبي، وأنه يوحى إليه، هذا المختار بن

---

(١) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق، كان أبوه من أجلة الصحابة، ولد المختار عام الهجرة، وليست له صحبة ولا رواية، وأخباره أخبار غير مرضية، حكاها عنه ثقات، وذلك منذ طلب الإمارة، إلى أن قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٧٧هـ، وكان قبل ذلك معدودًا في أهل الفضل والخير، يرائي بذلك كله، ويكتم الفسق، فظهر منه ما كان يضمر، والله أعلم. انظر: الاستيعاب (١/ ٤٦٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٣٤٩)، ولسان الميزان (٦/ ٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٥).

أبي عبيد، فعلت به الشياطين ما فعلت بأمثاله من الخديعة، حتى ادعى النبوة، تخاطبه الشياطين، وهو يظن أنها ملائكة، ادعى النبوة، مع أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، قد أخبر النبي ﷺ عن ظهوره، فقال: «سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»، الكذاب هو المختار، والمبير يعني الذي يقتل الناس هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ، ظهر الكذاب وهو المختار، وظهر الحجاج الذي هو المبير، والكذاب؛ لأنه ادعى النبوة.

وَالْمُبِيرُ: الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ[(١)]**، [١] فَقِيلَ لِابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْزِلُ إِلَيْهِ، فَقَالَا: صَدَقَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]**[(٢)]**،**

الشرح:

[١] الحجاج بن يوسف الذي كان أميرا في وقت بني أمية، وكان فاتكا شجاعا قويًّا، وكان عقوبة على قتلة عثمان رضي الله عنه، تتبعهم، حتى قضى عليهم؛ ففيه منافع، وفيه مضار، وهو مؤمن ظالم، هو ظالم مؤمن، وليس مثل المختار بن أبي عبيد الذي زعم أنه ينزل عليه ملائكة، وأخبر ابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر رضي الله عنهما قالوا: صدق، تنزل عليه الشياطين؛ لأن الله أخبر بذلك: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾، وهم الكهنة الذين تنزل عليهم الشياطين، وتسترق السمع، وتكذب معه، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل أبو محمد الثقفي ولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير، ثم عزله عنها وولاه العراق، أهلكه الله في رمضان سنة ٩٥هـ كهلًا وكان ظلومًا جبارًا سافكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة، قاله الذهبي. انظر: تاريخ دمشق (١٢/ ١١٣)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)، والبداية والنهاية (٩/ ١٣٢).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٨٩) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، ورواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٢-٢٢٣]، فهو ينزل عليه، صحيح أنه ينزل عليه، لكن ينزل عليه شياطين ليسوا ملائكة.

وَقَالَ الْآخَرُ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١][١].

الشرح:

[١] هناك وحيان: وحي من الله، ووحي من الشيطان، الرسل ﷺ ينزل عليهم الوحي من الله، والكهنة والكذابون يأتيهم الوحي من الشياطين، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾؛ يعني: يخبرونهم، الوحي: هو الإخبار بخفية(١)، يخبرونهم بأشياء كاذبة تغرر بهم، وينخدعون بها؛ لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]؛ غرور - والعياذ بالله -، فهذا الذي حصل للمختار بن أبي عبيد، ويحصل للكهان.

---

(١) قال ابن فارس في مقاييس اللغة (٦/ ٩٣): «(وَحَى) الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ». وانظر مادة (وحى) في لسان العرب (١٥/ ٣٧٩).

وَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ الشَّيْطَانِيَّةُ هِيَ الرُّوحُ الَّذِي يَزْعُمُ صَاحِبُ «الْفُتُوحَاتِ» أَنَّهُ أُلْقِيَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ ؛ [١] وَلِهَذَا يَذْكُرُ أَنْوَاعًا مِنَ الْخَلَوَاتِ بِطَعَامٍ مُعَيَّنٍ وَشَيْءٍ مُعَيَّنٍ ، [٢].

الشرح :

[١] صاحب الفتوحات الذي هو ابن عربي ، له مؤلف اسمه : الفتوحات المكية ، ومؤلف آخر اسمه : فصوص الحكم ، مشحونان بالضلال والإلحاد ويزعم أنه ألقي إليه هذا الكتاب ، وصحيح أنه ألقي إليه ، لكن من الذي ألقاه إليه؟ الشيطان ألقاه إليه .

زعم أنه جاءه آت ، وأعطاه الكتاب ، وقال : إن الذي جاء هو الرسول ، وأعطاه الكتاب هذا ، وهو شيطان .

[٢] من شطحات الصوفية ، وضلالهم أنهم ينعزلون عن الناس في خلوات أياما ، ولا يأكلون ولا يشربون ؛ حتى تصفو أرواحهم ، ومنهم من يهيئ نفسه للرسالة ، ويخلو ، يريد أن تنزل عليه الملائكة ، تصفو روحه ، خداع من الشيطان -والعياذ بالله- ، ينعزل ، ويترك الطعام والشراب ، وتصفو روحه للشيطان ، فينزل عليه الشيطان عند ذلك ، أما المؤمن ، فهو ما يخلو ، ولا ينعزل ، يذهب يصلي مع المسلمين ، ويجالس المسلمين ، ويحضر حلق الذكر والدروس ، أما هؤلاء فينعزلون ؛ حتى يحصل لهم الضلال -ولا حول ولا قوة إلا بالله- ، ومنهم في وقتنا من ينعزل ، وتأتيه الأفكار

الكفرية والأفكار المنحرفة؛ كما ترون في بعض الشباب، فالانعزال عن المسلمين، والانعزال عن المساجد، والانعزال عن ذكر الله يسبب هذا الضلال، فإما أن شياطين الجن تأتيه وتضله، وإما شياطين الإنس يأتونه بالأفكار المنحرفة، ويلقون في ذهنه أن المسلمين كفار، وأنهم يحتاجون إلى جهاد، فيحصل ما يحصل، كل هذا بسبب الانعزال والعزلة عن المسلمين، وعن بيوت الله، وعن ذكر الله ﷻ.

وَهَذِهِ مِمَّا تَفْتَحُ لِصَاحِبِهَا اتِّصَالًا بِالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، [١] فَيَظُنُّونَ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [٢] وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَدًا، [٣] وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَحْمِلُ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَيَعُودُ، [٤].

الشرح:

[١] إذا خلا، وترك الأكل والشرب مدة، يأتيه الشيطان، ويغره، ويظن أنه ملك من الملائكة.

[٢] يظنون أن الذي يحصل لهم من هذه الغرائب من الكرامات، وأنهم أولياء لله، والواقع أن هذه ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، وإنها إهانة لهم على يد الشيطان ليضلهم.

[٣] الشيخ يعرف من هؤلاء الذين ابتلوا بهذه الخلوات وهذه النزغات، يعرف منهم عددا في وقته رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٤] ومنهم من تخدمهم الشياطين، إذا تقرب إليهم وأطاعهم، خدموه، فصاروا يطيرون به في الهواء، ويظن الناس أنه هو الذي يطير بنفسه، ويقولون: هذه كرامة. يطير في الهواء، يمشي على الماء، يمشي على البحر، ولا يغرق، يدخل النار والجمر وما أشبه ذلك، ولا تأكله، وإنما هذه أعمال شيطانية، الشياطين تحمله، وتعمل له هذه الأشياء بسبب أنه أطاعهم، فخدموه؛ كما قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ

ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فاستمتع بعضنا ببعض، الإنسي أطاع الجني، فهذا استمتاع الجني بالإنسي؛ أنه أطاعه، والجني خدم الإنسي، حمله في الهواء، وما أشبه ذلك من الخوارق، فهذا استمتاع من الإنسي بالجني: ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْتَى بِمَالِ مَسْرُوقٍ تَسْرِقُهُ الشَّيَاطِينُ وَتَأْتِيه بِهِ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ تَدُلُّهُ عَلَى السَّرِقَاتِ [٢].

الشرح:

[١] ومنهم من يحضر الأشياء المفقودة، إذا ضاع لأحد شيء، ذهب له المسكين، وقال: ضاع لي كذا، فيحضر له ماله، ويظن المسكين الإنسي أن هذا من كراماته، وأنه أحضرها. وهو من عمل الشيطان، الشيطان هو الذي أحضر له هذا الشيء؛ لأن الشياطين تقدر على ما لا يقدر عليه الإنس، وتطلع على ما لا يطلع عليه الإنس، فتأتيه بالشيء المفقود، أو تخبره أن مالك في المحل الفلاني؛ لأنها تطلع، أو أنها تسرق من أموال الناس، وتأتي له بالمال، ويقول: هذا كرامة، هذا حضر كرامة من الله. وهو من الشيطان، وليس من الله؛ لأنه سبق لكم أن الخارق للعادة إذا كان مع الاستقامة والطاعة، فهو كرامة، وإن كان مع الكفر والضلال، فهو خارق شيطاني، وليس كرامة من الله ﷻ، فلا يشتبه هذا بهذا.

[٢] إذا سرق لهم شيء، جاؤوا إلى الكاهن أو من هؤلاء المتصوفة الضلال، وهم كهنة، يتحولون إلى كهنة، فيخبرونهم أين مال المسروق، ومكانه، ومن الذي سرقه، فيظن الناس أن هذا من عنده هو، وهو ليس من عنده، بل من عملائه الشياطين.

بِجُعْلٍ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ النَّاسِ، أَوْ بِعَطَاءٍ يُعْطُوْنَهُ إِذَا دَلَّهُمْ عَلَى سَرِقَاتِهِمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. [١] وَلَمَّا كَانَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ شَيْطَانِيَّةً كَانُوا مُنَاقِضِينَ لِلرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، [٢] كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ صَاحِبِ «الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ»، وَ«الْفُصُوصِ»، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ، [٣].

الشرح:

[١] يعطونه أجرة ويحضر لهم مسروقاتهم، أو يخبرهم أين هي موجودة، يقول له: بعيرك أو ضالتك أو شاتك في المحل الفلاني، ترعى في كذا. إذا ذهب، وجدها في المكان. من الذي أعلمه؟ الشيطان.

[٢] لما كانت أحوالهم شيطانية، كانوا مناقضين للرسل ﷺ؛ هناك فرق بين من تنزله عليه الملائكة، وبين من تنزل عليه الشياطين، فرق بين هذا وهذا.

[٣] أكثر هذه الضلالات كلها موجودة في هذين الكتابين لابن عربي الحاتمي الطائي.

يَمْدَحُ الْكُفَّارُ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ، [١] وَيَتَنَقَّصُ الْأَنْبِيَاءُ: كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، [٢] وَيَذُمُّ شُيُوخَ الْمُسْلِمِينَ الْمَحْمُودِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ: [٣].

الشرح:

[١] لأن في كتبهم مدح الكفار، وأنهم أبطال، وأنهم لهم مكانة، فيمدحون قوم هود، وقوم صالح، وقوم نوح؛ لأنهم إخوانهم، لأنهم كفار مثلهم، فيمدحونهم، مع الأسف الآن وجد من كتابنا من يمدح ابن عربي، ويقول: هؤلاء أصحاب أفكار نيرة، ولكن أنتم تحسدونهم، وأنتم، وأنتم. ويلقي باللائمة على الخلفاء الذين قتلوا هؤلاء، ويقول: هؤلاء قضوا على الفكر المستنير. هذا موجود في بعض صحفنا مع الأسف.

[٢] هذا شيء ضروري: أن من مدح الكفار، وأثنى عليهم، سيتنقص الرسل وأتباعهم، ويصفهم بالغباء، ويصفهم بأوصاف قبيحة.

[٣] وهذا واضح أن من مدح الكفار، وأعجب بهم، سيتنقص المسلمين، ولاسيما العلماء؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، وهم يذمون الأنبياء، ويذمون ورثتهم؛ لأن الأنبياء وورثتهم يقفون في طريقهم، ويبينون ضلالهم، فيقعون في العلماء، ويتنقصونهم، ويستغفلونهم، ويقولون فيهم ما يقولون، وهذا شيء موجود الآن؛ كما أشرت في بعض الصحف.

كَالْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ(١)، [١] وَيَمْدَحُ الْمَذْمُومِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ: كَالْحَلَّاجِ(٢) وَنَحْوِهِ، كَمَا ذَكَرَهُ فِي تَجَلِّيَاتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ [٢].

الشرح:

[١] قدماء الصوفية العباد الزهاد الذين لم يدخلوا هذه المداخل، وإنما هم عباد وزهاد، وأتقياء لله ﷻ، معروفون، وعلماء أيضا، فيذمونهم.

[٢] ويمدحون علماء الضلال والملاحدة، يقولون: أصحاب أفكار، وأصحاب اطلاع، وأنتم تعادونهم؛ لتقضوا على الفكر النير، وعلى الأفكار الصحيحة. فيقعون في علماء المسلمين، ويمدحون الملاحدة وعلماء الضلال؛ كالحلاج الملحد الكافر الذي يرى أنه هو الله.

---

(١) سبقت ترجمة الجنيد (١/ ٢٩٨)، وترجمة سهل (١/ ٥٥٥).

(٢) الحلاج هو الحسين بن منصور بن مَحْمِي أبو عبد الله ويقال: أبو مغيث، نشأ بواسط، وقيل بتستر، وقدم بغداد، كانت له بداية جيدة، وتأله وتصوف، ثم انسلخ من الدين، وتعلم السحر، وأراهم المخاريق، أباح العلماء دمه وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء لسوء سيرته ومروقه، ومنهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة، وقد تستر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال، وانتحلوه وروجوا به على الجهال. نسأل الله العصمة في الدين، قاله الذهبي، قتل سنة ٣٥٩هـ. انظر: تاريخ بغداد (٨/ ١١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٣١٣)، ولسان الميزان (٢/ ٣١٤).

فَإِنَّ الْجُنَيْد - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى، فَسُئِلَ عَنْ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: التَّوْحِيدُ إِفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ. [١].

فَبَيَّنَ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْمُحْدَثِ، وَبَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ. وَصَاحِبُ «الْفُصُوصِ» أَنْكَرَ هَذَا، وَقَالَ فِي مُخَاطَبَتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَهُ: يَا جُنَيْدُ! هَلْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُحْدَثِ وَالْقَدِيمِ إِلَّا مَنْ يَكُونُ غَيْرَهُمَا؟ [٢].

الشرح:

[١] الفرق بين المخلوق والخالق إفراد الحدوث - الذين هم الخلق - عن القِدَم - الذي هو من صفة الله ﷻ -؛ ففرق بين الخالق والمخلوق، هذا الجنيد، وهذا قوله في التوحيد، هم يقولون: لا، لا فرق بين الخالق والمخلوق، والتوحيد الإقرار بوحدة الوجود، وأن الوجود كله هو الله، لا انقسام له، فمن قسم الوجود إلى خالق ومخلوق، فهو مشرك، عندهم الشرك هو تقسيم الوجود إلى خالق ومخلوق؛ كما سبق لكم هذا.

[٢] لأن صاحب الفصوص - الذي هو ابن عربي - يرى وحدة الوجود، فينكر على الجنيد أنه يفرق بين الخالق والمخلوق، يقول: لايوجد فرق، وأنت إذا ميزت بينهما، صرت شيئا ثالثا، وهذا انقسام. لايوجد انقسام، الكون كله ما يسميه الخلق. يقول: الكون كله هو الله، ومن قسمه، فهو مشرك، هذا الشرك عند الاتحاديين، الشرك عند الاتحاديين أن تقر بأن هناك

مخلوقًا وخالقًا، والتوحيد عندهم أن تقول: الكون كله هو الله، ليس هناك مخلوق وخالق؛ كما أن الشرك عند المعتزلة ومن صار معهم أن من أثبت الصفات يقولون: هذا مشرك، ومن نفى الصفات قالوا: هذا موحد.

فَخَطَّأَ الْجُنَيْدَ فِي قَوْلِهِ: (إِفْرَادُ الْحُدُوثِ عَنْ الْقِدَمِ)؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ هُوَ: إِنَّ وُجُودَ الْمُحْدَثِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْقَدِيمِ، [١] كَمَا قَالَ فِي «فُصُوصِهِ» [٢] وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى: الْعَلِيُّ، عَلَى مَنْ؟ وَمَا ثَمَّ إِلَّا هُوَ وَعَنْ مَاذَا؟ وَمَا هُوَ إِلَّا هُوَ، فَعُلُوهُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْمَوْجُودَاتِ، فَالْمُسَمَّى مُحْدَثَاتٌ هِيَ الْعَلِيَّةُ لِذَاتِهِ وَلَيْسَتْ إِلَّا هُوَ [٣].

الشرح:

[١] لا فرق.

[٢] كل الكلام الآن في ابن عربي، الذي يمجده بعض الناس، ويثنون عليه، ويطبعون كتبه، ويجلبونها في معارض الكتب.

[٣] يقول صاحب الفصوص - قبحه الله -: من أسماء الله الحسنى العلي، علي على ماذا؟ علي على نفسه، لا يوجد إلا هو، لا يوجد علي، ومن دونه أبدا، هو شيء واحد، حتى ينتقد الله ﷻ في وصف نفسه بأنه العلي.

يقول: علي على من؟ ولا يوجد إلا هو، الكون كله هو، يعلو على نفسه؟! هكذا يقول.

إِلَى أَنْ قَالَ: هُوَ عَيْنُ مَا بَطَنَ، وَهُوَ عَيْنُ مَا ظَهَرَ، وَمَا ثَمَّ مِنْ يَرَاهُ غَيْرُهُ، وَمَا ثَمَّ مَنْ يَنْطِقُ عَنْهُ سِوَاهُ، [١] وَهُوَ الْمُسَمَّى أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ(١). وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْمُحْدَثَاتِ. [٢].

فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُلْحِدِ: لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمُمَيِّزِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِالْعِلْمِ وَالْقَوْلِ أَنْ يَكُونَ ثَالِثًا غَيْرُهُمَا، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَلَيْسَ هُوَ ثَالِثٌ، [٣].

الشرح:

[١] كل هذا من كلامه.

[٢] يقول: الله هو أبو سعيد الخراز؛ لأنه لا فرق بين المخلوق والخالق، بعضهم يقول: ما في الجبة إلا الله، ما في الجبة، جبته يعني التي يلبسها، ما فيها إلا الله.

[٣] فالله ﷻ ميز نفسه في الأسماء والصفات، ولا يقال: إن الذي ميز أسماء الله وصفاته غير الله، هو الله ﷻ، وصف نفسه، وسمى نفسه.

---

(١) هو أحمد بن عيسى، أبو سعيد الخراز ينسب إلى خرز الجلود، صحب ذا النون المصري، وبشر الحافي، والسري السقطي، كان من كبار أئمة الصوفية، له تصانيف في علومهم، ويقال عنه: أول من تكلم في الفناء والبقاء، توفى سنة ٢٨٦هـ، وقيل: ٢٧٧هـ. انظر: الحلية (١٠/ ٢٤٦)، وتاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦)، وتاريخ دمشق (٥/ ١٢٩) والبداية والنهاية (١١/ ٥٨).

فَالْعَبْدُ يَعْرِفُ أَنَّهُ عَبْدٌ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ خَالِقِهِ، [١] وَالْخَالِقُ ﷻ يُمَيِّزُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنَّهُمْ عِبَادُهُ، كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَالِاسْتِشْهَادُ بِالْقُرْآنِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، [٢] وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ فَيَزْعُمُونَ مَا كَانَ يَزْعُمُهُ التِّلْمِسَانِيُّ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَحْذَقُهُمْ فِي اتِّحَادِهِمْ - [٣].

الشرح:

[١] ولهذا يقول شاعرهم:

الْعَبْدُ رَبٌّ وَالرَّبُّ عَبْدٌ ... يَا لَيْتَ شِعْرِيْ مَنِ الْمُكَلَّفُ(١)

كيف يكلف وليس هناك فرق؟! العبد هو الرب، والرب هو العبد.

[٢] ولكن لما قيل لهم: هذا يخالف ما في القرآن، قالوا: القرآن شرك؛ لأنه ميز بين الخالق والمخلوق، هذا شرك عندهم، ليس هناك تمييز، الكون كله هو الله، ولا ينقسم.

[٣] هذا التلمساني من أقطاب وحدة الوجود؛ العفيف التلمساني.

---

(١) انظر: الفتوحات المكية (١/ ٢).

لَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ «الْفُصُوصُ»، فَقِيلَ لَهُ: الْقُرْآنُ يُخَالِفُ «فُصُوصَكُمْ»، فَقَالَ: الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ(١)، [١] وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا. [٢] فَقِيلَ لَهُ: فَإِذَا كَانَ الْوُجُودُ وَاحِدًا فَلِمَ كَانَتْ الزَّوْجَةُ حَلَالًا وَالْأُخْتُ حَرَامًا؟ فَقَالَ: الْكُلُّ عِنْدَنَا حَلَالٌ، [٣].

الشرح:

[١] لماذا شرك عندهم؟ لأنه يقسم الكون إلى خالق ومخلوق، وهذا شرك عندهم، والتوحيد عندهم أنه لا يقسم الكون، الكون كله هو الله.

[٢] قيل في كلامهم: إن الكون كله الله، ليس هناك خالق ومخلوق. هذا هو التوحيد عندهم.

[٣] لماذا تميز هذا وهذا؟ الزوجة حلال، والأخت حرام، دل على أن هذا غير هذا، الأخت غير الزوجة، وإلا صار كلها زوجة، وكلها أخت.

التزمَ بهذا، ولهذا يستبيحون نكاح محارمهم؛ لأنه لا فرق بين الأخت والزوجة، الأخت هي الزوجة، والزوجة هي الأخت، وهو الأخت، والأخت هي هو.

---

(١) قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ فَيَزْعُمُونَ مَا كَانَ يَزْعُمُهُ التِّلِمْسَانِيُّ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَحْذَقُهُمْ فِي اتِّحَادِهِمْ - لَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ «الْفُصُوصُ»، فَقِيلَ لَهُ: الْقُرْآنُ يُخَالِفُ «فُصُوصَكُمْ»، فَقَالَ: الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ، وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا. والقائل له هو الشيخ كمال الدين المراغي؛ كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٢٤١).

وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ قَالُوا: حَرَامٌ، [١] فَقُلْنَا: حَرَامٌ عَلَيْكُمْ. [٢] وَهَذَا مَعَ كُفْرِهِ الْعَظِيمِ مُتَنَاقِضٌ ظَاهِرٌ، فَإِنَّ الْوُجُودَ إِذَا كَانَ وَاحِدًا فَمَنْ الْمَحْجُوبُ وَمَنْ الْحَاجِبُ؟ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ شُيُوخِهِمْ لِمُرِيدِهِ: مَنْ قَالَ لَك: إنَّ فِي الْكَوْنِ سِوَى اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ. فَقَالَ لَهُ مُرِيدُهُ: فَمَنْ هُوَ الَّذِي يَكْذِبُ؟ [٣].

الشرح:

[١] كلهم عندنا سواء وحلال؛ الأخت، والبنت، والعمة، والخالة، والأجنبية، كلها سواء، لكن الناس قالوا: هذا حلال، وهذا حرام. فنحن جاريناهم في الظاهر، قلنا مثل ما يقولون؛ لأجل ألا يستنكروا علينا.

(الْمَحْجُوبُونَ) أتباع الأنبياء؛ يعني: محجوبون عن المعرفة.

[٢] حرام عليكم أنتم؛ لأنكم محجوبون عن المعرفة، أما هم، فليس حراما عليهم.

[٣] مريده رد عليه، مريده يعني: تلميذه، قال الشيخ: من قال لك إن في الكون سوى الله، فقد كذب. الكون عنده هو الله، فمن قال: إن في الكون شيء سوى الله، فهو كاذب، يقول كذا. فقال له تلميذه: إذًا من الكاذب؟ صار الكاذب غير الصادق، صار هناك صادق وكاذب، فصار هناك انقسام، فخصمه تلميذه.

وَقَالُوا لِآخَرَ: هَذِهِ مَظَاهِرُ. فَقَالَ لَهُمْ: الْمَظَاهِرُ غَيْرُ الظَّاهِرِ أَمْ هِيَ؟ فَإِنْ كَانَتْ غَيْرَهَا فَقَدْ قُلْتُمْ بِالنِّسْبَةِ، وَإِنْ كَانَتْ إِيَّاهَا فَلَا فَرْقَ. [١].

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى كَشْفِ أَسْرَارِ هَؤُلَاءِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ(١)، وَبَيَّنَّا حَقِيقَةَ قَوْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، [٢] وَأَنَّ صَاحِبَ «الْفُصُوصِ» يَقُولُ الْمَعْدُومُ شَيْءٌ، وَوُجُودُ الْحَقِّ قَاضٍ عَلَيْهِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ.

وَالْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ قَالُوا: الْمَعْدُومُ شَيْءٌ ثَابِتٌ فِي الْخَارِجِ - مَعَ ضَلَالِهِمْ - خَيْرٌ مِنْهُ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قَالُوا: إِنَّ الرَّبَّ خَلَقَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّابِتَةِ فِي الْعَدَمِ وُجُودًا لَيْسَ هُوَ وُجُودُ الرَّبِّ. وَهَذَا زَعَمَ أَنَّ عَيْنَ وُجُودِ الرَّبِّ فَاضَ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ وُجُودُ مَخْلُوقٍ مُبَايِنٌ لِوُجُودِ، [٣].

الشرح:

[١] هذه الأشياء مظاهر الله؛ يعني: الجبل، والكلب، والحمار، هذه مظاهر الله عندهم؛ لأنه ليس هناك انقسام.

[٢] هذا موجود في مجموع الفتاوى الكبير، فيه الرد عليهم.

[٣] صاحب الفصوص يقول: المعدوم شيء. مع أن المعدوم ليس شيئا،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوي (٢/ ١٣٤ - ٤٥١) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين. وانظر كلام شيخ الاسلام رحمه الله في: أمراض القلب وشفاؤها (ص ٦٤)، والاستقامة (١/ ١٢٣)، والتحفة العراقية (ص ٦٤)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٩٣)، والفرقان (١٠٦، ١١٤)، ومجموع الفتاوى (٢/ ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٦، ٤٦٦، ٥/ ١٢٦).

الشيء هو الموجود فقط، هو يقول: لا، حتى المعدوم يسمى شيئا. فوجود الخالق هو وجود المخلوق.

وَصَاحِبُهُ الصَّدْرُ الْقُونَوِيُّ(١) يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُطْلَقِ وَالْمُعَيَّنِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْفَلْسَفَةِ، فَلَمْ يُقِرَّ بِأَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ، لَكِنْ جَعَلَ الْحَقَّ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ، [١] وَصَنَّفَ «مِفْتَاحَ غَيْبِ الْجَمْعِ وَالْوُجُودِ»(٢).

وَهَذَا الْقَوْلُ أُدْخِلَ فِي تَعْطِيلِ الْخَالِقِ وَعَدَمِهِ، [٢].

الشرح:

[١] كل موجود لابد مقيد، هم يقولون: لا، وجود مطلق، ليس مقيدًا، وهذا لا يوجد في الخارج، إنما هذا في الذهن، تصور الذهن فقط.

[٢] تعطيل الخالق يعني: نفي الخالق، يقولون: لا يوجد خالق ومخلوق، كل الكون هذا هو الخالق، وهو الله.

---

(١) صدر الدين محمد بن إسحاق بن محمد القونوي الرومي، من كبار تلاميذ ابن عربي، ومن كبار مشايخ الإتحادية، وهو شيخ التلمساني، توفي سنة ٦٧٣هـ. انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٠)، وطبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٤٥).

(٢) يوجد منه نسخة في جامعة الملك سعود تحت رقم ٢٦٧٧/ ١، وانظر كشف الظنون (٢/ ١٧٦٨).

فَإِنَّ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ -وَهُوَ الْكُلِّيُّ الْعَقْلِيُّ- لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ،[١] وَالْمُطْلَقِ لَا بِشَرْطٍ -وَهُوَ الْكُلِّيُّ الطَّبِيعِيُّ- وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ، فَلَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا، وَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْمُعَيَّنِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِثُبُوتِهِ فِي الْخَارِجِ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ الرَّبِّ إِمَّا مُنْتَفِيًا فِي الْخَارِجِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَيْنُ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ. [٢] وَهَلْ يَخْلُقُ الْجُزْءُ الْكُلَّ، أَمْ يَخْلُقُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ، أَمْ الْعَدَمُ يَخْلُقُ الْوُجُودَ، أَوْ يَكُونُ بَعْضُ الشَّيْءِ خَالِقًا لِجَمِيعِهِ؟! [٣] وَهَؤُلَاءِ يَفِرُّونَ مِنْ لَفْظِ الْحُلُولِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي حَالًّا وَمَحَلًّا، [٤].

الشرح:

[١] لا يكون في الخارج أبدا شيء موجود مطلق، لا يمكن، الموجود لازم له أوصاف تقيده، فهم يقولون: الله هو الوجود المطلق، ليس له أسماء ولا صفات. هذا محال، لا شيء في الكون يكون بدون أسماء ولا صفات، أقل الأحوال يقال: إنه موجود، والوجود صفة.

[٢] يعني: لا في الوجود، الأعيان يعني: الوجود.

[٣] كل هذه أقوال محالة باطلة، لكنها تلزم على قولهم.

[٤] لا يقولون بالحلول؛ الحلولية يقولون: هناك خالق ومخلوق، لكن الخالق حال في المخلوق، داخل في المخلوق، أما أهل الوحدة،

فيقولون : لا ، ليس هناك حال ومحل ؛ لأن هذا تفريق ، هم أغرق في الضلال من الحلولية ، مع كفر الحلولية .

وَمِنْ لَفْظِ الِاتِّحَادِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي شَيْئَيْنِ اتَّحَدَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَعِنْدَهُمْ الْوُجُودُ وَاحِدٌ. [١] وَيَقُولُونَ: النَّصَارَى إِنَّمَا كَفَرُوا لَمَّا خَصَّصُوا الْمَسِيحَ بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، وَلَوْ عَمَّمُوا لَمَا كَفَرُوا. [٢] وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي عُبَّادِ الْأَصْنَامِ: إِنَّمَا أَخْطَئُوا لَمَّا عَبَدُوا بَعْضَ الْمَظَاهِرِ دُونَ بَعْضٍ، فَلَوْ عَبَدُوا الْجَمِيعَ لَمَا أَخْطَؤُوا عِنْدَهُمْ. [٣].

الشرح:

[١] فلا يقال لهم: أهل الاتحاد، وإنما يقال لهم: أهل الوحدة، لا أهل الاتحاد؛ لأن الاتحاد معناه: أن يكون شيئان اتحدا واختلطا، وهم لا يرون ذلك.

[٢] النصارى كفروا؛ لأنهم خصصوا المسيح بأنه الله، مع أن المسيح والله شيء واحد، ما يقال: هذا الله، وهذا المسيح؛ لأن الكون كله واحد، ويقولون: فرعون إنما كفر؛ لأنه قال: أنا ربكم الأعلى، مع أن الكون كله هو الرب، فهو خص نفسه. إنما كفر عباد الأصنام؛ لأنهم فرقوا، وقالوا: إن الأصنام أرباب وإن ما عداها عبيد، فهم ضلوا من هذا الباب.

[٣] لو عبدوا الكون كله، ما أخطؤوا، لكن إذا عبدوا الأصنام، هذه بعض من الكون، فيكونون بعّضوا، وهذا شرك عندهم.

وَالْعَارِفُ الْمُحَقِّقُ عِنْدَهُمْ لَا يَضُرُّهُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، [١] وَهَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ الْعَظِيمِ فَفِيهِ مَا يَلْزَمُهُمْ دَائِمًا مِنْ التَّنَاقُضِ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ: فَمَنْ الْمُخْطِئُ؟ لَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِجَمِيعِ النَّقَائِصِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ. [٢] وَيَقُولُونَ: إنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تُوصَفُ بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْخَالِقُ، [٣].

الشرح:

[١] لا يضره عبادة الأصنام؛ لأنه ما عبد إلا الله، حتى لو عبد الكلب والخنزير، يقولون: هذا ما عبد إلا الله؛ لأن هذه مظاهر لله ﷻ.

[٢] لا فرق بين الخالق والمخلوق، فالمخلوق مع نقائصه وما فيه من العيوب يقولون: هو الله. جل الله عن ذلك.

[٣] لأنها هي هو، لا فرق بينهما.

وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ»: فَالْعَلِيُّ لِنَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ الْكَمَالُ الَّذِي يَسْتَوْعِبُ بِهِ جَمِيعَ النُّعُوتِ الْوُجُودِيَّةِ وَالنِّسَبِ الْعَدَمِيَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً عُرْفًا أَوْ عَقْلًا أَوْ شَرْعًا، أَوْ مَذْمُومَةً عُرْفًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِمُسَمَّى اللَّهِ خَاصَّةً(١) [١].

وَهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ هَذَا لَا يَنْدَفِعُ عَنْهُمْ التَّنَاقُضُ، فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ، [٢].

الشرح:

[١] كل هذه ضلالات وإلحاد، لكن الشيخ رحمه الله يريد أن يسد عليهم الطريق من كل النواحي، ويبطل رأيهم، مع أنه باطل في البداهة، لكن هؤلاء لما كان لهم وجود، ويوصفون بالعباد، والعلماء، وأصحاب الأفكار، كان لابد أن الشيخ يبين ضلالهم، ويبين تناقضاتهم؛ لأنهم لو تركوا، لموهوا على الناس.

[٢] ما زال الكلام في مناقشة الشيخ رحمه الله لأهل وحدة الوجود، فيقول لهم: إن مذهبهم يخالف الحس والعقل؛ كما هو مخالف للشرع، فمعلوم انقسام الكون إلى خالق ومخلوق، ومخلوقات أيضا مختلفة، فليس الكلب هو الفيل، وليس الخنزير هو الشاة والعنزة، كل شيء مختلف عن الآخر، فكيف يقال: الكون شيء واحد ولا ينقسم، وهذا هو التوحيد؟! معلوم أن

(١) انظر: الفصوص لابن عربي (١/ ٧٦).

هذا غير ذاك في كل شيء:

أولًا: الخالق والمخلوق.

ثانيًا: المخلوقات لاشك أنها مختلفة ومتفاوتة، وليست شيئا واحدًا، فلا يقبل هذا عقل من عقول البشر، ولكن الضلال -والعياذ بالله- إذا أخذ في عقول الناس، جاؤوا بالغرائب، ولا يأنفون من أنهم يخالفون العقول والفطر، فضلا عن أنهم يخالفون الشرائع والوحي المنزل، فهذا كفر ما بعده كفر، كفر أهل وحدة الوجود ليس بعده كفر، هم أكفر أهل الأرض.

وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ مَا كَانَ يَقُولُهُ التِّلِمْسَانِيُّ: إِنَّهُ ثَبَتَ عِنْدَنَا فِي الْكَشْفِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعَقْلِ. [١] وَيَقُولُونَ: مَنْ أَرَادَ التَّحْقِيقَ -يَعْنِي تَحْقِيقَهُمْ- فَلْيَتْرُكْ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ. [٢].

الشرح:

[١] هم يقولون: ما علينا من العقل، نحن ثبت عندنا بالكشف، الذي دلهم على هذه الأمور كشفهم، اكتشافهم الأشياء، ويظنون أنهم اختصوا بكشف لم يكتشفه غيرهم، فهم لا يبالون بالعقول، ويقولون: نحن نعتمد على ما كشف لنا من الأسرار. وهل الإنسان في غنية عن العقل؟ هل الإنسان في غنية عن الشرع؟ هذا جهل، ليس في غنية عن الشرع، مهما أوتي من الذكاء، ومن الفطنة، ومن. . . ، فإنه لن يستغني عن عقله، ولن يستغني عن الشرع المنزل.

[٢] من أراد التحقيق - الذي هو تحقيقهم -، فليترك العقل، ويترك الشرع. إذًا ماذا بقي؟ إذا ترك العقل، وترك الشرع، ماذا تكون نهايته؟ تكون أحط من المجانين، كيف يرضى إنسان أن يصل إلى هذه الدرجة، أن يلغي العقل، ويلغي الشرع، ويقول: هذا هو التحقيق. أما العقل، فلا يوجد تحقيق، والشرع ليس هناك تحقيق، هذا منتهى الضلال.

وَقَدْ قُلْتُ لِمَنْ خَاطَبْته مِنْهُمْ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَشْفَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ وَأَتَمُّ مِنْ كَشْفِ غَيْرِهِمْ، [١].

الشرح:

[١] ما يكشفه الله للأنبياء مما لا يكشفه لغيرهم، وما يختصهم به من الغيب الذي لا يعلمه غيرهم، الذي أعطاهم الله؛ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فقد يطلع الله رسوله على شيء من الغيب لمصلحة البشر، فليس هناك كشف أعظم مما أوتيه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، لكن هؤلاء يقولون: نحن فوق الأنبياء، ونحن أفهم من الأنبياء، بل بعضهم - كما سبق - يقول: الأنبياء يأخذون منا. فإذا وصل الأمر بالإنسان إلى هذا الحد، فلا فائدة من مخاطبته؛ لأنه لا يريد الحق، والذي لا يريد الحق مهما جادلته، ومهما أقمت له من البراهين والأدلة، فلن يقتنع، ولن يقبل: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]، لا يسمعون للشرع، ولا يعقلون في عقولهم، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فالأنعام تدرك مصالحها، وتدرك ما تقوم به حياتها، أما هؤلاء، فقد هبطوا عن مستوى الأنعام السائمة، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وَخَبَرُهُمْ أَصْدَقُ مِنْ خَبَرِ غَيْرِهِمْ، [١] وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ يُخْبِرُونَ بِمَا تَعْجِزُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، لَا بِمَا يَعْرِفُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ، [٢].

الشرح:

[١] لأن الأنبياء لا يأتون بشيء من عندهم، أو يعتمدون على عقولهم ومداركهم، وإنما الأنبياء يتلقون عن الله ﷻ وحيه، وأمره، ونهيه، فهم أعظم الخلق، أعظم الخلق علما، وأعظمهم كشفا، وأعظمهم عقولا، وما جاؤوا بهذا الذي جاء به أهل وحدة الوجود.

[٢] الأنبياء يأتون بما يحير العقول، ولا يأتون بما يخالف العقول السليمة، ولهذا للشيخ كتاب من أعظم كتبه فيه موافقة العقل للشرع، فقال: العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح[(١)]، العقل الصريح السليم لا يخالف النقل الصحيح، فإن اختلف العقل والنقل، فلابد إما أن النقل غير صحيح، وإما أن العقل غير صريح، هذه قاعدة، فالأنبياء ما جاؤوا بما يخالف العقول، قد جاؤوا بما تعجز عنه العقول، ولاتدركه العقول، أما أن يأتوا بشيء يخالف العقول السليمة، فهذا لن يكون أبدا.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٦٦٥).

فَيُخْبِرُونَ بِمَحَارَاتِ[(١)] الْعُقُولِ لَا بِمُحَالَاتِ الْعُقُولِ، [١] وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي إِخْبَارِ الرَّسُولِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعُقُولِ، [٢] وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَعَارَضَ دَلِيلَانِ قَطْعِيَّانِ؛ سَوَاءٌ كَانَا عَقْلِيَّيْنِ أَوْ سَمْعِيَّيْنِ، أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا عَقْلِيًّا وَالْآخَرُ سَمْعِيًّا، [٣].

الشرح:

[١] يعني: ما يحيرها؛ أمور الآخرة، وأمور لا تدركها العقول.

[٢] لا يأتون بشيء لا تجيزه العقول، لكن يأتون بشيء تتحير فيه العقول؛ لأن العقول مخلوقة قاصرة، لا تدرك كل شيء.

[٣] هذا معنى القاعدة: موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح، لا يختلفان أبدا.

ولا يتعارض دليلان صحيحان أبدا، الأدلة الصحيحة لاتتعارض، لكن العقل قد يعجز عن التوفيق بينها، وهي في نفس الأمر لا تتعارض أبدا، إذا كان أحد الدليلين غير قطعي، وإنما هو ظني، فإنه قد يتعارض، أو يظهر

---

(١) في بعض النسخ (بمحارات) أي ما تحار فيه العقول.
وقد استعمل شيخ الإسلام رحمه الله هذه العبارة في العديد من رسائله وكتبه، فقال في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٣٣): «ولكن يجب الفرق بين ما يقصر العقل عن دركه وما يعلم العقل استحالته، . . . بين محارات العقول، ومحالات العقول». وانظر أيضًا الجواب الصحيح (٤/ ٣٩١).

تعارضه مع القطعي، أما إذا كان الدليلان قطعيين - عقليين أو شرعيين -، أو أحدهما عقلي والآخر شرعي، فلن يتعارضا أبدا؛ لأن الشرع تنزيل من حكيم حميد، وهو الذي خلق العقول، فلا يتعارض أبدا دليلان قطعيان، أما إذا كانا غير قطعيين، فقد يختلفان. والسمعي المراد به: الوحي.

فَكَيْفَ بِمَنْ ادَّعَى كَشْفًا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ؟ [١] هَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَتَعَمَّدُونَ الْكَذِبَ، [٢] لَكِنْ يُخَيَّلُ لَهُمْ أَشْيَاءُ تَكُونُ فِي نُفُوسِهِمْ وَيَظُنُّونَهَا فِي الْخَارِجِ، [٣].

الشرح:

[١] فكيف بمن أتى بشيء يزعم أنه يخالف العقل، ويخالف الشرع، وهو الكشف - كشف وحدة الوجود -، هذا باطل.

[٢] هؤلاء أهل ضلال وأهل إلحاد، لكن بعضهم لا يتعمد الكذب، وإنما يخيل إليه أن ما ذهب إليه صحيح، ويكون مخطئا، أما الذي يتعمد الإلحاد والكذب، فهذا لا فائدة في مخاطبته، إنما الكلام في الذي لم يتعمد، هذا هو الذي يناظر، ويبين له، وربما يرجع إلى الصواب، فهم على قسمين:

القسم الأول: الذي لم يتعمد الكذب، فهذا فيه رجاء أنه إذا نوقش، وبُين له خطؤه أن يقبل؛ ولهذا كان الشيخ يناظر بعضهم.

القسم الثاني: المتعمد الذي يعلم بطلان ما هو عليه، ولكنه يتعمد المضي فيه، فهذا لا فائدة في مخاطبته.

[٣] يأتيهم تخيلات في أنفسهم، ويظنون أنها صحيحة، وأنها واقعة في الخارج، يعني: واقعة وموجودة، وهي غير موجودة.

وَأَشْيَاءُ يَرَوْنَهَا تَكُونُ مَوْجُودَةً فِي الْخَارِجِ، لَكِنْ يَظُنُّونَهَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَتَكُونُ مِنْ تَلْبِيسَاتِ الشَّيَاطِينِ. [١] وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْوَحْدَةِ قَدْ يُقَدِّمُونَ الْأَوْلِيَاءَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ،[٢].

الشرح:

[١] قد يظنون أنها موجودة في الخارج، وأنها كرامات من كرامات الأولياء، وهي في الواقع ليست من كرامات الأولياء - أولياء الرحمن - وإنما هي من فلسفات وخرافات أولياء الشيطان.

[٢] (الوحدة) يعني: وحدة الوجود، وأنه لا انقسام في الكون.

الذين يقولون بوحدة الوجود إذا قيل لهم: الأنبياء جاؤوا بخلاف ما تقولون. قالوا: الأولياء، يقصدون بالأولياء أصحابهم، يقولون: أولياء؛ لأن عندهم هذه الشبهات، ومخاريق الشيطان، فيقولون: نحن أفضل من الأنبياء، الأنبياء ما أدركوا ما أدركنا، ولا وصلوا إلى ما توصلنا إليه، والأنبياء إنما جاؤوا للعوام، ولم يأتوا إلينا؛ لأننا لسنا بحاجة إليهم، نحن أدركنا وعرفنا، فلسنا بحاجة إلى الأنبياء، إنما الأنبياء للعوام الذين ما أدركوا، ولا وصلوا إلى ما وصلنا إليه، وهؤلاء يسمونهم خاصة الخاصة؛ لأنهم عرفوا ووصلوا بمداركهم ومعلوماتهم إلى شيء لم يصل إليه الأنبياء،

ولذلك يفضلون الولي على النبي، فيقولون:

مَــقَــامُ الــنُّــبُــوَّةِ فِي بَــرْزَخٍ فُـوَيْـقَ الـرَّسُـولِ وَدُونَ الْـوَلِـيّ[(١)]

الولي أعلى مرتبة عندهم.

(١) سبق عزوه (١/ ٤٨٢).

وَيَذْكُرُونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ، كَمَا يُذْكَرُ عَنْ ابْنِ سَبْعِينَ(١) وَغَيْرِهِ، [١] وَيَجْعَلُونَ الْمَرَاتِبَ ثَلَاثَةً، [٢] يَقُولُونَ: الْعَبْدُ يَشْهَدُ أَوَّلًا طَاعَةً وَمَعْصِيَةً، [٣].

الشرح:

[١] يقولون: النبوة لم تنقطع، وليس محمدٌ ﷺ خاتمَ النبيين، بل النبوة مستمرة إلى يوم القيامة، يبعث الله أنبياء، ففتحوا الباب للكذابين والمدعين للنبوة.

[٢] يتدرج فيها، ويترقى.

[٣] هذه أول مرتبة، وهي مرتبة العوام الذين يفرقون بين الطاعة والمعصية.

---

(١) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين أبو محمد نزيل بجاية ثم مكة اشتهر بالزهد والسلوك، وكانت له بلاغة، وبراعة، وتفنن في العلوم، وكثر أتباعه، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد وصنف فيه، جاور في بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحي. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٦١)، ولسان الميزان (٣٣٩٢).

ثُمَّ طَاعَةً بِلَا مَعْصِيَةٍ، [١] ثُمَّ لَا طَاعَةَ وَلَا مَعْصِيَةَ، [٢] وَالشُّهُودُ الْأَوَّلُ هُوَ الشُّهُودُ الصَّحِيحُ، وَهُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، [٣].

الشرح:

[١] يقولون: كل ما يفعله الإنسان فهو طاعة، لأنه إن عصى أمره، فقد أطاع قدره، إن عصى الأمر، فقد أطاع القدر، فهو مطيع لله على كل حال:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلاً لِمَا تَخْتَارُهُ مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ(١)

[٢] ثم يتحرر الإنسان عندهم، هذا أعلى الدرجات، وهو في الحقيقة أسفل الدرجات، يقولون: هذا أعلى الدرجات الذي ما يشهد طاعة ولا معصية، تحرر، وليس لأحد عليه أمر ولا نهي.

[٣] لكن هذه يقولون: مرتبة العوام، والذين ما يميزون وأتباع الأنبياء، الذين يفرقون بين الطاعة والمعصية، وهو الصحيح، هو عندهم ليس الصحيح، لكن في الواقع أنه هو الصحيح، لابد أن الأفعال تكون بعضها طاعة، وبعضها معصية، فليس السجود والتسبيح والتهليل مثل: الزنا، والسرقة، وشرب الخمر.

---

(١) هذا البيت نسبه شيخ الإسلام في الفتاوى (٨/ ٢٥٧) إلى محمد بن سواء بن إسرائيل الشاعر الصوفي الشيباني، المعروف بنجم الدين بن إسرائيل، تعانى الأدب، وصحب الشيخ الحريري، واقتدى به منذ بلوغه الحلم، وسلك في النظم طريق ابن الفارض، وزاد عليه في اللطف والانسجام، وحذا حذوه في الاتحاد لكنه يصرح وابن الفارض يلوح، توفي سنة ٦٧٧هـ. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٨٣)، ولسان الميزان (٥/ ١٩٥).

وَأَمَّا الشُّهُودُ الثَّانِي، فَيُرِيدُونَ بِهِ شُهُودَ الْقَدَرِ، [١] كَمَا أَنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ يَقُولُ: أَنَا كَافِرٌ بِرَبٍّ يُعْصَى(١)، [٢].

الشرح:

[١] يقولون: الشرع والقدر شيء واحد، فالإنسان إذا فعل شيئا، فإن كان مخالفا للشرع، فهو مطيع للقدر، فهو مطيع لله، إذا عصى أمره، فقد وافق قدره.

[٢] يعني: ولا يقدر أن يمنع العاصي، يقول: أنا كافر برب يعصى، ولا يمنع العاصي. الله ﷻ أعطى العباد الاختيار: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢] سميع وبصير، يميز بين الأشياء: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ لأن الله أعطى العباد القدرة والمشيئة والاختيار، فهم يفعلون بمشيئتهم الطاعة، ويفعلون بمشيئتهم واختيارهم المعصية، ليسوا مجبرين على فعلهم، الإنسان باستطاعته أن يصلي ويذهب إلى المسجد، وباستطاعته أن يذهب إلى الخمارة، ويشرب الخمر، باستطاعته هذا، الله أعطاه هذا، ورتب على أفعاله الجزاء الثواب والعقاب. (كما أن بعض هؤلاء يقول: أنا كافر برب يعصى)؛ لأنه ليس هناك رب يعصى، كل ما يصدر من المخلوق، فهو طاعة له؛ فلا معصية ولا طاعة.

---

(١) نسبه شيخ الإسلام للحريري، انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٧).

وَهَذَا يَزْعُمُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ مُخَالَفَةُ الْإِرَادَةِ الَّتِي هِيَ الْمَشِيئَةُ. [١].
وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ دَاخِلُونَ تَحْتَ حُكْمِ الْمَشِيئَةِ، [٢] وَيَقُولُ شَاعِرُهُمْ(١): [٣]

أَصْبَحَتْ مُنْفَعِلًا لِمَا تَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ

الشرح:

[١] المعصية مخالفة القدر، وهل أحد يخالف القدر؟ ما يستطيع أحد أن يخالف القدر. (المشيئة) المشيئة الكونية القدر.

[٢] يقصد القدرية؛ لأنه لا توجد مشيئة شرعية، المشيئة كلها قدرية، بخلاف إرادة الله؛ فمنها ما هو قدري، ومنها ما هو شرعي.

[٣] أنا أفعل بموجب القدر، فأكون مطيعا على كل حال، إن زنا، وإن صلى، كله طاعة؛ لأنه موافق للقدر. ويقول آخر:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ ... سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ أَو نِظَامُهُ

(**وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ**)؛ يعني: كلام الله، (**سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ أَو نِظَامُهُ**)؛ يعني: النثر والنظم كله كلام الله، والكذب والصدق كله كلام الله. تعالى الله عما يقولون!

---

(١) سبق (ص ٨٩).

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ أَو نِظَامُهُ(١)

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا خِلَافُ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ؛ [١] فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبَهَا الذَّمَّ وَالْعِقَابُ مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [٢].

الشرح:

[١] بلا شك، مع أن الله فرق بين القدر وبين الشرع، سيأتي قوله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] بين الخلق والأمر فرق. هناك فرق بين المعصية والطاعة.

[٢] المعصية مخالفة الأمر الشرعي، الله أمر بالطاعة، وأمر بالعبادة، وأمر بصلة الأرحام، وأمر ببر الوالدين، هذا الأمر الشرعي. أما القدري، فهذا لا حجة فيه لأحد، هذا فعل الرب ﷻ، ونحن لا نخاصم الرب ونجادل الرب، إنما نجادل أنفسنا، ونحاسب أنفسنا: لماذا فعلت كذا؟ ولماذا تركت كذا؟ فأنت لا تجعل نقاشك مع رب العالمين، وإنما تجعل نقاشك ومحاسبتك مع نفسك: لماذا فعلت كذا؟ لماذا تركت كذا، وأنا أقدر على فعله، وأقدر على ترك كذا؟ لماذا ضيعت وقتي، وأنا مأمور بحفظه؟ هكذا، أنت حاسب نفسك، اشتغل بمحاسبة نفسك، ولا تشتغل بالقضاء والقدر، ومحاسبة القضاء والقدر؛ هذا شأن الله ﷻ.

---

(١) ينسب هذا البيت لابن عربي. انظر: الرد على البكري (١/ ٣٤٣)، ودرء التعارض (١/ ٣٥٤)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٩).

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣، ١٤]، [١].

الشرح:

[١] ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ حدوده محارمه التي حدها لعباده، فلا تتعدى، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ يعني: المحرمات، وأيضا حدود الله هي المباحات، حدود الله التي هي المحرمات لا تقرب: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وأما المباحات، فهي لا تتعدى، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وَسَنَذْكُرُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ، وَالْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ وَالدِّينِيِّ. [١].

الشرح:

[١] الإرادة إرادتان: إرادة كونية، وهي التي يخلق الله بها الأشياء، ويوجد بها الأشياء، وهذه لابد من وقوعها، أما الإرادة الشرعية، فهي الأمر والنهي: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٧-٢٨]، هذه إرادة شرعية، وهذه الإرادة الكونية ليس من لازمها المحبة، فقد يريد الله شيئا، وهو لا يحبه، لكن لحكمة وللابتلاء وللامتحان، وأما الشرعية، فإنه يحبها: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]، فالإرادة الشرعية يحبها الله، وأما الإرادة الكونية، فقد يحبها، وقد لا يحبها، **هذا فرق**.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية، لابد من وقوعها، وأما الإرادة الشرعية، فقد تقع، وقد لا تقع، فالله أراد من عباده الإيمان، فبعضهم يؤمن، وبعضهم لا يؤمن، أراد منهم الإيمان الإرادة الشرعية، لكن بعضهم يؤمن، وبعضهم لا يؤمن، قد تقع، وقد لا تقع، بخلاف الكونية؛ لابد من وقوعها.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ قَدْ اشْتَبَهَتْ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ الصُّوفِيَّةِ، فَبَيَّنَهَا الْجُنَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ، [١] مَنْ اتَّبَعَ الْجُنَيْد فِيهَا كَانَ عَلَى السَّدَادِ، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ؛ لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَفِي شُهُودِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَهَذَا يُسَمُّونَهُ الْجَمْعَ الْأَوَّلَ، فَبَيَّنَ لَهُمْ الْجُنَيْد أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ شُهُودِ الْفَرْقِ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّهُ مَعَ شُهُودِ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُشْتَرَكَةً فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، [٢].

الشرح:

[١] الجنيد -كما سبق- من الصالحين، ومن العباد، والزهاد، ولم يحصل منه شطحات؛ مثل ما حصل من الصوفية المتأخرين.

[٢] يقولون: لا يوجد إلا مشيئة الله وقدرة الله، والذي يعرف هذا هو الموحد، ويجحدون الإرادة الكونية والأوامر الشرعية، فهم يفسرون الطاعة بأنها موافقة القدر؛ لأن أهل العلم وأهل الإيمان يقولون: الطاعة موافقة الأمر والشرع، وليست موافقة القدر، موافقة القدر قد تكون طاعة، وقد تكون معصية، بخلاف موافقة الشرع، فإنه لا يكون إلا طاعة لله ﷻ، فهناك فرق بين الشرع وبين القدر، ولهذا يقول قائلهم: إن عصيت أمره، فقد وافقت قدره؛ فأنا مطيع له.

يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَبَيْنَ مَا يَنْهَى عَنْهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُهُ، [١].

الشرح:

[١] فما كل ما أراده الله وقدّره، فإنه يحبه، وهو قدَّر الكفر، وقدَّر الإيمان، قدَّر الطاعة، وقدَّر المعصية، فهو يحب هذا، ويبغض هذا، بخلاف الشرع؛ فإنه لا يشرع إلا ما يحبه، ولا يشرع ما يبغضه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، لما قالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فيزعمون أن الله أمرهم بكشف العورات في الطواف: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، الله ﷻ رد عليهم، فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٢٩]؛ بالعدل، بالطاعة، هذا الذي أمر الله ﷻ به: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، هذا رد عليهم لقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ يعني: شرعها لنا، فالله رد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٢٩] أخلصوا لله في كل صلاة، في كل عمل.

وَيُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، [٢] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، [٣].

الشرح:

[١] هم يقولون: لا فرق بين المطيع والعاصي، كلهم أطاعوا الله ﷻ؛ أطاعوا قدره ومشيئته، وكلهم مطيعون. وهذا كذب على الله، الله ﷻ قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٢] وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، هذا استفهام إنكار، إن الله لا يجعلهم سواء.

[٣] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾، فالله تعالى لا يجعل الذين اجترحوا السيئات مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فدل على الفرق بين القدر وبين الشرع.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨]. [١].

وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ، [٢].

الشرح:

[١] وقال ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وما يستوي أعمى البصيرة، ليس أعمى البصر، بل أعمى البصيرة، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ البصير في قلبه المهتدي المطيع، ما يستويان؛ مثل قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾؛ لا يستوي الذي آمن وعمل الصالحات مع المسيء، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، فالذي لا يفرق بين المطيع والعاصي، ويقول: كلهم عبدوا الله، وكلهم أطاعوا الله، أطاعوا قدره وأمره الكوني، فهم كلهم مطيعون. هذا كذب على الله ﷻ.

[٢] الله رب كل شيء، خالق الكافر والمؤمن، وخالق الطاعة والمعصية وخالق الكفر والإيمان، وله في ذلك الحكمة البالغة؛ لأجل ابتلاء العباد، وامتحان العباد: أيهم الذي يلزم شرع الله وأمره ونهيه، أو الذي يفجر ويفسق، ويقول: هذا قدره الله عليَّ؟ ليس له حجة في القدر.

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَمَرَ بِالطَّاعَةِ، وَنَهَى عَنْ الْمَعْصِيَةِ، [١] وَهُوَ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، [٢].

الشرح:

[١] الله ﷻ خالق كل شيء، ومع هذا أمر بالطاعة، ونهى عن المعصية؛ فذاك شيء، وهذا شيء آخر، ما يخلط بينهما. فرق بين الأمر، وفرق بين الشرع، فرق بين الخلق، الله خالق كل شيء، فرق بينه وبين الشرع.

مع كونه قدر وشاء ما يقع من الطاعة والمعصية؛ فرق بين هذا وهذا؛ مما يدل على الفرق بينهما.

[٢] مع كونه قضى وقدر كل ما يقع في الكون من خير أو شر، فهو مع ذلك أمر بطاعته، ونهى عن معصيته، فدل على الفرق بين الأمرين: الذي من قبل الله، والذي من قبل العباد، فرق بينهما: فالذي من قبل الله محمود على كل حال، وأما الذي من قبل العباد، فمنه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم. كما قال ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧]، وإنما يرضى لهم الإيمان، هم يقولون: لا، الله رضي الكفر والإيمان، بدليل أنه قدر هذا وهذا.

وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، [١] وَإِنْ كَانَتْ وَاقِعَةً بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا يَرْضَاهَا، بَلْ يُبْغِضُهَا، وَيَذُمُّ أَهْلَهَا، وَيُعَاقِبُهُمْ. [٢].

الشرح:

[١] ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، التي هي كشف العورة، يقولون: هذا أمر الله به، يكذبون على الله ﷻ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ثم قال بعدها: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ أي: استروا العورة عند كل صلاة، من شروط صحة الصلاة والطواف ستر العورة، فالله أمر بستر العورة، ولم يأمر بكشفها؛ لأن كشفها فاحشة، والفاحشة: هي ما تناهى قبحه. وسترها طاعة، والطاعة كلها خير.

[٢] كما سبق أنه لا يلزم من القضاء والقدر أن الله يحب ما قضى وقدر، بل قد يحبه، وقد يبغضه ويكرهه، إذًا قد يقال: لماذا قدره، وهو يبغضه ويكرهه؟ نقول: لأجل الابتلاء والامتحان؛ حتى يتميز المطيع من العاصي والمؤمن من الكافر، والصادق من الكاذب، ترك للعباد المجال للاختيار والمشيئة، وأمكنهم، وأعطاهم القوة والقدرة، فهو يقدر أن يصلي، ويقدر أن يزني، أعطاه الله قدرة، يقدر على ترك الزنا، وفعل الصلاة، ما أحد أجبره على هذا، فلماذا ينسى قدرته، وما أعطاه الله من الإمكانية، ويحتج بالقضاء والقدر، الذي قضى وقدر لا يرضى بالفحشاء، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر.

وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: [١] أَنْ لَا يَشْهَدَ طَاعَةً وَلَا مَعْصِيَةً، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ، [٢].

الشرح:

[١] قالوا: المراتب ثلاث:

أولًا: أن يشهد معصية وطاعة.

الثانية: أن يشهد طاعة بلا معصية، فيقول: كل ما يفعله، فهو طاعة. ما عنده تقسيم؛ لأن الله قدره وقضاه. لكن نقول: الله قدره وقضاه، لكن لم يشرعه، الله لم يشرعه، ونحن مطالبون بما شرعه الله، أما القضاء والقدر، فهذا إلى الله ﷻ.

الثالثة: ألا يشهد طاعة ولا معصية، يقول: ليس هناك طاعة ولا معصية أصلا، والكون كله سواء، ليس هناك مخلوق ولا خالق. وهؤلاء أهل وحدة الوجود.

[٢] هذا مذهب وحدة الوجود، كيف تكون الأفعال متفاوتة، وكيف تكون الطاعة والمعصية متفاوتتين، والكون كله شيء واحد، وليس متفاوتًا؟! وهذا لا يوجد.

وَعِنْدَهُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التَّحْقِيقِ وَالْوِلَايَةُ لِلَّهِ؛ [١] وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ غَايَةُ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَغَايَةُ الْعَدَاوَةِ لِلَّهِ، [٢] فَإِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْمَشْهَدِ يَتَّخِذُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ، [٣].

الشرح:

[١] إذا بلغ العبد هذه المرتبة، فهو في غاية التحقيق والولاية لله، وهو التوحيد عندهم، هذا هو التوحيد، والواقع أن هذا هو الكفر الذي ليس بعده كفر، أعظم من كفر فرعون، وهامان، وقارون، وأبي جهل؛ لأن هؤلاء مع كفرهم يعترفون أن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر. هؤلاء يقولون: لا، ليس هناك محيي ولا مميت، ولا مدبر، والكون كله سواء، لا ميزة لبعضه على بعض.

[٢] غاية الإلحاد، والإلحاد هو أعظم الكفر، الإلحاد في اللغة[١] : الميل عن الشيء، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه مائل عن سمت القبر، هذا في اللغة، أما الإلحاد في الشرع، فهو الميل عما شرعه الله، وأمر به.

[٣] لأنه ليس هناك فرق بين هذا وهذا، بل ليس عندهم مسلم وكافر؛ لأن الكون كله واحد، ليس هناك مسلم وكافر.

---

(١) قال ابن فارس في مقاييس اللغة (٥/ ٢٣٦): «(لَحَدَ) اللَّامُ وَالْحَاءُ وَالدَّالُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَيْلٍ عَنِ اسْتِقَامَةٍ. يُقَالُ: أَلْحَدَ الرَّجُلُ، إِذْ مَالَ عَنْ طَرِيقَةِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ. وَسُمِّيَ اللَّحْدُ لِأَنَّهُ مَائِلٌ فِي أَحَدِ جَانِبَيِ الْجَدَثِ» وانظر مادة (لحد) في: مختار الصحاح (١/ ٢٨٠)، ولسان العرب (٣/ ٣٨٨).

هذه المصيبة، هذا واقع الآن، يقولون: لا تفرقوا بين يهود ونصارى ومسلمين؛ كلهم أهل أديان، وكلهم يعبدون الله، وكلهم أتباع للأنبياء. ويكذبون على الله ﷻ، بعد بعثة محمد ﷺ لا نبي إلا هو ﷺ، انتهت الشرائع، ليس هناك شريعة إلا شريعة محمد ﷺ، فأهل وحدة الوجود يقولون: كلهم سواء: اليهودي، والنصراني، والمسلم، كلهم مطيعون لله، فهذه مصيبة؛ كقول هؤلاء الذين يتمتمون الآن بالتقارب بين الأديان، تشبه قول أهل وحدة الوجود، بأنه لا تمايز بين دين الإسلام، ودين اليهود، ودين النصارى، وأنهم كلهم إخوان، ولذلك بعضهم سمعته - وهو يزعم أنه من الدعاة إلى الله - يقول: إخواننا المسيحيون، أعوذ بالله!

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، [١]

الشرح:

[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]؛ تحبونهم، وتناصرونهم: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؛ أي: يحبهم، ويناصرهم، ويسوغ ما هم عليه، يقول: إنهم على حق، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ يصبح يهوديًا أو نصرانيًا؛ لأنه لم يفرق بين الكفر والإيمان، فهو مثل أهل وحدة الوجود، ما يفرقون بين الطاعة والمعصية والإيمان، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، لا يهدي القوم الظالمين، انظر: الظالمين بسبب ظلمهم منعهم الله من الهداية عقوبة لهم، وأما المؤمنون، فإن الله يهديهم؛ لأنهم أرادوا الهداية، وطلبوها.

وَلَا يَتَبَرَّأُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْأَوْثَانِ، فَيَخْرُجُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ صلوات الله وسلامه عليه، [١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، **[٢].**

الشرح:

[١] ولا يفرق بين الكفر والإيمان؛ كما فرقت ملة إبراهيم، وإبراهيم تبرأ من الكفار - حتى من أبيه -، لما تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه، فلابد من الولاء والبراء في الإسلام: موالاة المؤمنين، والبراءة من المشركين، أما الذين كلهم عنده سواء: اليهود، والنصارى، والمسلمون، فهذا ما عنده ولاء ولا براء.

[٢] يقول الله ﷻ لهذه الأمة المحمدية: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ يعني: طيبة، الأسوة إما أن تكون حسنة، وإما أن تكون سيئة، قدوة في الخير أو قدوة في الشر، لكن إبراهيم ﷺ قدوة حسنة، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ الذين اتبعوه وآمنوا به، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تبرؤوا منهم ومن دينهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾؛ لا تقارب بيننا وبينكم، ولا نقول: تقاربوا مع اليهود والنصارى. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، لن تذهب هذه العداوة والبراءة إلا إذا آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟

بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه وامتنع، قال: لأستغفرن لك. فهذه لا يقتدى به فيها، وقد تبرأ منه في آخر الأمر: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، قال: لأستغفرن لك، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، فتبرأ حتى من أبيه لما تبين له أنه عدو لله، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، لا يحبونهم أبدا، إنما إذا كانوا آباءهم، يبرون بهم، من باب المعاملة بالحسنى، لا يحبونهم، ولكن يبرون بهم؛ لأن لهم عليهم حقا من البر، ولو كانوا كفارًا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤ - ١٥] في الدنيا، وليس في الدين، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥]، فالبراءة من الكفار واجبة، وهي من الدين، والذي لا يتبرأ من الكفار يكون منهم بنص الآية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، هذا خطر عظيم، وينادى الآن بإلغائه، وأن هذا تشدد، وأن هذا إرهاب، وأن هذا، وأن هذا، فالمصيبة عظيمة الآن.

وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام لقومه المشركين: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] [٢].

الشرح:

[١] ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾؛ تبرأ مما يعبدون من دون الله، ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٧٨]، وإلا هذا استثناء منقطع؛ أي: لكن رب العالمين الذي خلقني، فهو يهديني، هو الذي أعبده وأحبه.

[٢] وهذه الآية - أيضا - تنفي أن يكون مؤمن بالله ورسوله يحب الكفار، ولو كانوا أقرب الناس إليه؛ لأنهم لما كانوا أعداء الله، عاداهم، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وَهَؤُلَاءِ قَدْ صَنَّفَ بَعْضُهُمْ كُتُبًا وَقَصَائِدَ عَلَى مَذْهَبِهِ، مِثْلِ قَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ(١) الْمُسَمَّاةِ بِـ«نَظْمِ السُّلُوكِ»، [١] يَقُولُ فِيهَا:

لها صَلَواتي بالمَقامِ أُقِيمُها ... وأشهَدُ فيها أنَّها ليَ صَلَّتِ
كِلانا مُصَلٍّ واحِدٌ ساجِدٌ إلى ... حقيقتِهِ بالجمعِ في كُلِّ سجدَةِ
وما كان لي صَلَّى سِوايَ وَلَم تَكُن ... صَلاتي لغَيري في أدا كُلِّ رَكعَةِ

إِلَى أَنْ قَالَ:

وما زِلْتُ إيَّاها وإيايَ لَم تَزَلْ ... ولا فَرْقَ بل ذاتِي لذاتي أحَبَّتِ
إليَّ رَسولاً كُنتُ منيَ مُرْسَلًا ... وذاتي بآياتي عليَّ استَدَلَّتِ
فإن دُعيَتْ كنتُ المُجيبَ وإن أكُن ... منادىً أجابَتْ مَن دعاني ولَبَّت(٢)

الشرح:

[١] ألفوا كتبا في وحدة الوجود، منهم ما مر بكم؛ كتب ابن عربي: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، ومنهم من نظم على مذهبهم منظومة؛ كابن الفارض باسم منظومة السلوك، التي يصرح فيها بأنه ليس هناك خالق ومخلوق، وإنما الكون كله سواء، وأنه يصلي لنفسه، ويعبد نفسه، ولأن نفسه هي الله، وهو لا فرق بينه وبين الله؛ كله من هذا الكون. وابن الفارض

(١) سبقت ترجمة ابن الفارض (٢٧).
(٢) انظر: ديوان ابن الفارض (ص٩٧).

هذا من أهل وحدة الوجود، من أتباع ابن عربي، قصيدته التائية مطبوعة، ومتداولة، وتنشر، ويعتنى بها الآن، تشرح عند هؤلاء.

(لها) يعني: نفسه، ليست لله صلاته؛ لأنه كله هو الله، كل الدنيا هو الله، فأنا أصلي لنفسي؛ لأنني أنا الله. هذا كلامه - والعياذ بالله -.

أن نفسي صلت لي، ليس هناك صلاة لله، وإنما صلت له هو؛ لأنه هو الله، ولا فرق بينه وبين الله؛ لأن الكون كله مظهر واحد.

هو يسجد لنفسه؛ لأنه هو الله، ويعبد نفسه؛ لأنه لو قال: يعبد الله، لصار هناك فرق بينه وبين الله، ولا فرق؛ هو الله وحده.

هو يصلي، يعبد نفسه؛ لأنه هو الله، ليس هناك خالق ومخلوق. الرسل ليسوا من الله، الرسل منه إليه، رسوله إليه؛ لأنه هو الله، وليس هناك عبد ورب، هو الشيء كله واحد، فالرسل منه وإليه.

وهو الداعي، وهو المجيب، ليس هناك رب يدعى ويجيب، هو الداعي، وهو المجيب لنفسه.

إِلَى أَمْثَالِ هَذَا الْكَلَامِ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْقَائِلُ عِنْدَ الْمَوْتِ يَنْشُدُ وَيَقُولُ: [١]

إنْ كان مَنزِلَتي في الحبّ عندكُمُ ما قد رأيتُ فقد ضيّعْتُ أيّامي

أُمْنِيّة ظفِرَتْ روحي بها زَمَنًا واليومَ أحسَبُها أضغاثَ أحلام(١)

الشرح:

[١] هذا الناظم لما حضره الموت، ورأى الملائكة تريد قبض روحه، أدرك خطأه، وأنه على ضلال، لكن ما ينفعه ذلك، كل كافر عند الموت يعترف بكفره وخطئه، لكن ما ينفعه ذلك، فات الأوان، وإلا إذا انكشف الأمر، وحضرت الملائكة، كل يعلم خطأه، الكفار والملحدون كلهم يعلمون أنهم عباد، وأن لهم ربا يرجعون إليه، فيعلنون التوبة، لكن لا تقبل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨]، لا تقبل التوبة. حتى فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، لا تنفع التوبة وقت الغرغرة، لا تنفع.

(**وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْقَائِلُ عِنْدَ الْمَوْتِ**) هذا القائل هو ابن الفارض؛ كما روي هذا عمن حضره عند الوفاة، أنه أدرك ضلاله، وقال: لقد ضيعت أيامي.

---

(١) انظر: الديوان (ص٨١).

أُمْنِيّة ظَفِرَتْ روحي بها زَمَنًا ... واليومَ أحسَبُها أضغاثَ أحلام

تبين أن ما هو عليه أضغاث أحلام، ليس له حقيقة، وهو باطل، لو كان لا يوجد رب - كما يقول: والكون كله هو الرب -، ما جاءت الملائكة تقبض روحه، فدل على أنه عبد، وأن الملائكة رسل من الرب ﷻ.

فَإِنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، فَلَمَّا حَضَرَتْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ تَبَيَّنَ لَهُ بُطْلَانُ مَا كَانَ يَظُنُّهُ، [١] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، **فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ؛ لَيْسَ هُوَ اللَّهُ، [٢].**

الشرح:

[١] انظر: فإنه كان يظن أنه هو الله في حياته، فلما جاءه الموت، عرف أنه ليس هو الله. ومنظومة ابن الفارض هذه رد عليها بعض العلماء بعنوان: (تنبيه الغبي على كفر ابن عربي)، رد على هذه المنظومة نثرا، علق عليها، وهو مطبوع، وعليه تعليق للشيخ عبد الرحمن الوكيل ﷺ، وهو مطبوع ومتداول، الذي رد عليها اسمه البقاعي[١].

[١] هذه الآية: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾ ترد على أهل وحدة الوجود الذين سبق ذكر مذهبهم، التسبيح معناه: التنزيه؛ أي: كل شيء في السماوات والأرض من المخلوقات ينزه الله ﷻ عن النقائص والعيوب، ومن أعظم ذلك هذا المذهب الخبيث، فإن جميع ما في السماوات وما في الأرض ينزه الله منه، ويبطله، فدل هذا على أن هذه المخلوقات هي غير الله؛ لأنها تسبح الله، وتنزهه عن الباطل، فهي غير الله ﷻ، هي مخلوقة، والله هو الخالق.

---

(١) انظر: معجم المؤلفين (١١/ ٤١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٢-٣] [١].

الشرح:

[١] فهو مالك هذه الأشياء، وليست هي هو، لا يمكن أن يكون شيء واحد المالك والمملوك؛ هناك فرق بين المالك والمملوك، الله له ملك السماوات والأرض، فالسماوات والأرض ومن فيهن غير الله ﷻ. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، يجعل الحياة في المخلوقات؛ حياة النمو كالنباتات والأشجار، وحياة الحركة كالحيوانات، فالله هو الذي يجعل فيها الحياة، ثم يميتها، ينزع منها هذه الحياة، تصبح ميتة، فهو يتصرف فيها ﷻ بقدرته، فدل على الفرق بين الخالق والمخلوق.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، هذا يدل على أنه ﷻ ليس قبله شيء، وليس بعده شيء، وليس فوقه شيء، وليس دونه شيء؛ كما قال النبي ﷺ(١) فدل على بطلان وحدة الوجود. لو كان مذهبها صحيحا، ما كان هناك أول ولا آخر، ولا ظاهر ولا باطن؛ لأن كل شيء واحد، فدل على أنه الأول قبل، وهو الظاهر فوق كل مخلوقاته، الظاهر على أي شيء؛ على مخلوقاته، والباطن الذي لا يخفى عليه شيء، مع كونه ظاهرا فوق مخلوقاته، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يحجبه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

شيء ﷻ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فدل هذا على بطلان مذهب وحدة الوجود؛ لأنه لو كان كما يقولون، ما كان هناك أول ولا آخر، ولا ظاهر ولا باطن؛ لأن الأشياء كلها شيء واحد.

وهذه أسماء متقابلة: الظاهر يقابله الباطن، الأول يقابله الآخر، الظاهر يقابله الباطن؛ فهي متقابلة.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَاغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ»(١). [١].

الشرح:

[١] وهذا الحديث الصحيح يفسر الآية: الأول والآخر، والظاهر والباطن؛ لأن معنى الأول: الذي ليس قبله شيء، والآخر: الذي ليس بعده شيء، والظاهر: الذي ليس فوقه شيء، والباطن: الذي ليس دونه شيء. فهذا الحديث يفسر الآية تفسيرا واضحا، ويدل على الفرق بين الخالق والمخلوق، لا كما تقوله وحدة الوجود؛ فهناك فرق بين الخالق والمخلوق، واضح؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

ثُمَّ قَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]. [١].

الشرح:

[١] هذه الآيات من مطلع سورة الحديد، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ خلقها بجميع ما فيها، هذا دليل على الفرق بين الخالق والمخلوق، وأن الله هو الخالق، وما سواه فهو مخلوق في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فصل فيها الخلق؛ كما جاء في الحديث: أنه خلق في يوم الأحد كذا، وخلق في يوم[(١)]؛ كما في الآية الأخرى التي تفسر، وتفصل كيفية خلقه للسماوات والأرض في هذه الأيام الست: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠]، فخلقها في يومين، وتقدير الأشياء التي فيها في يومين، هذه أربعة أيام، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٨٩): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ».

أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١-١٢]، إذا جمعت يومين، ويومين، ويومين، كم تكون؟ ستة أيام، هذا تفصيل لما أجمل في هذه الآية في ستة أيام، والله على كل شيء قدير، يقدر إنه يخلقها في لحظة، ولكن خلقها في ستة أيام لحكمة إلهية، وإلا فهو قادر على أن يخلقها في لحظة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: علا وارتفع، والعرش هو أعظم المخلوقات، وأعلى المخلوقات، فوق المخلوقات، والله فوق العرش، (استوى) أي: علا، وارتفع ﷻ، ومع علوه على العرش لايخفى عليه شيء في قعر البحار، وفي أي مكان: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ ما يدخل في الأرض: من الأموات، والمخزونات، وما يخرج منها من النباتات، والمعادن، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ من الماء والمطر، ومن الملائكة، ومن الأرزاق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ يعني: يصعد إليها: من الملائكة، والأعمال، أعمال بني آدم كلها تصعد إلى الله ﷻ، وهذا دليل على علو الله ﷻ، ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ معكم أيها الناس: المؤمنون والكفار، هذه معية عامة، معكم بعلمه وإحاطته، مع أنه فوق العرش، فهو معكم، قريب منكم، لا تخفون عليه، ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في أي مكان كنتم، فهو معكم، لا تخفون عليه، لا تغيبون عن علمه ﷻ، ولا تحتجبون من رؤيته، بل هو يراكم أينما كنتم: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم؛ يبصرها ويراها ﷻ، وهو فوق عرشه، فهذه المعية معية عامة لجميع المخلوقات، ومعناها: الإحاطة، وليس معناها: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي: ليس مختلطًا بكم - كما تقوله الحلولية -، بل هو معنا بعلمه، وإحاطته، ورؤيته، وبصره ﷻ، وسمعه، هذه المعية ليست معية اختلاط.

فَذَكَرَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ -وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ-: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مَخْلُوقٌ مُسَبِّحٌ لَهُ وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. [١].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، فَلَفْظُ: (مَعَ) لَا تَقْتَضِي فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ مُخْتَلِطًا بِالْآخَرِ، [٢].

الشرح:

[١] وما بين السماء والأرض خلقه الله، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [السجدة: ٤]؛ أي: وخلق ما بينهما من الأجواء، وما يكون في هذه الأجواء من المخلوقات - من الطيور، والطائرات -، وما يكون بين السماء والأرض من السحاب المسخر بينهما؛ فلا يخفى عليه شيء.

[٢] هذا رد على المؤولة الذين يقولون: أنتم تمنعون التأويل، وأنتم أولتم هذه الآية؛ لأن ظاهرها مختلط معنا؛ لأن المعية كالاختلاط، فأنتم قلتم: وهو معنا بعلمه. وظاهرها أنه معنا بذاته -تعالى الله عن ذلك- فأنتم تمنعون التأويل، وتؤولون! قال الشيخ ﷺ: هذا خطأ؛ لأن المعية ليس معناها محصورا في الاختلاط والمقارنة، وإنما المعية لها معان، وليس معناها محصورا في الاختلاط، والمقارنة، والمخالطة. هذا فهمكم، المعية لها معان، بحسب مواردها في لغة العرب؛ تقول: ما زلنا نسير، والقمر معنا. هل القمر يمشي معك في الأرض أو في السماء؟ القمر في السماء، ومع هذا تقول: *والقمر معنا*. أي: معنا ضياؤه ونوره. وأيضا هو بجرمه كأنه في كل

مكان، كل الناس يرونه على وجه الأرض، كلٌّ يرونه، كلٌّ يقول: هذا القمر عندنا. وهو مخلوق، فكيف بالخالق ﷻ؟! فالمعية لها معان، معناها هنا الإحاطة والعلم بما يكون من عباده وأعمالهم، فمن معنى المعية: الإحاطة، ومن معناها: الاختلاط والمقارنة، وهذا ليس مرادا هنا، ولها معان، ومنها المصاحبة، تقول: القمر معنا. يعني: مصاحب لنا. منها المصاحبة، فحصر المعية بأنها الاختلاط هذا غلط، تقول: فلان معي. نعم، يمكن أن تكون مختلطًا أنت وإياه، تمشون جميعا، أو تجلسون جميعا، فلان معي، لكن (الله معنا) لا، هذا يختلف، معية غير معية المخلوق مع المخلوق، هذه معية خالق مع المخلوقين.

فليس هذا من التأويل، وإنما هذا من التفسير - تفسير المعنى المراد -، فليس تأويلا، وإنما هو تفسير.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] [١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ [الأنفال: ٧٥]. [٢].

الشرح:

[١] كونوا معهم في العقيدة، كونوا معهم في المحبة، كونوا معهم في الدين، ولو أنت بالمشرق، وهم بالمغرب، أنت معهم، أنت مع الصادقين في أي مكان، فهذه المعية لا تقتضي المخالطة. إذا كان هذا بين المخلوقين فكيف بالخالق ﷻ؟! يعني ما تكون مع الصادقين إلا إذا كانوا بجنبك؟ لا، تكون مع الصادقين - لو أنت بالمشرق، وهم بالمغرب - في المذهب، والدين، والعقيدة، والمحبة، والنصرة، والموالاة، أنت معهم.

[٢] ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، سواء الذين في عصره - وهم صحابته -، أو الذين اتبعوه إلى أن تقوم الساعة، هذه صفاتهم: أشداء على الكفار، رحماء بينهم، هذه صفات المؤمنين بالرسول ﷺ في أي وقت، ليست خاصة بالذين كانوا معه، ويسكنون إلى جانبه، ويمشون معه ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾، هذه صفاتهم في كل زمان، وفي كل مكان، فليس معنى هذا أن هذا محصور في الصحابة الذين كانوا يعيشون مع الرسول ﷺ، وإنما هذا عام في كل مؤمن إلى آخر الدنيا، فهو مع الرسول ﷺ. يشمل من كان في وقت نزول القرآن، ويشمل من يأتي إلى أن تقوم الساعة، فالمؤمنون بعضهم مع بعض.

وَلَفْظُ (مَعَ) جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ عَامَّةً وَخَاصَّةً،[١] فَالْعَامَّةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي آيَةِ الْمُجَادَلَةِ: [٢].

الشرح:

[١] جاءت المعية في القرآن عامة؛ كما في هذه الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، هذه معية عامة للمؤمنين والكفار، بمعنى أن الله يحصي أعمالهم، ويطلع عليها، ويراها ويعلمها، ويسمع أقوالهم، فهو مع الجميع، هذه معية عامة، وهناك معية خاصة بالمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؛ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، هذا معناه: النصرة، والتأييد، والتوفيق. فهو معهم: بنصرته، وتأييده، وحفظه وكلاءته لهم. هذه معية خاصة.

[٢] آية الحديد التي مرت، وآية المجادلة التي ذكرتها. هذه معية عامة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، **فَافْتَتَحَ الْكَلَامَ بِالْعِلْمِ وَخَتَمَهُ بِالْعِلْمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ(١). [١].**

وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ، فَفِي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، **[٢] وقوله تعالى لِمُوسَى:** ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، **[٣].**

الشرح:

[١] فكما قال الإمام أحمد وغيره: بدأ الله الآية بالعلم، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وختمها بالعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فدل على أن المعية معية العلم، وليست معية الاختلاط.

[٢] أي: معهم بتأييده ونصره، وحفظه وكلاءته لهم، وتوفيقه لهم؛ فهي معية خاصة.

[٣] لما قال موسى وهارون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، قال الله ﷻ لهما: ﴿لَا تَخَافَآ﴾، لماذا؟ ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١٢ -١٣)، وتفسير البغوي (٨/ ٥٤).

وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فالذي الله معه لا يخاف من المخلوقات، وكما قال نبينا محمد ﷺ، وهو في الغار لصاحبه: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، فهذه معية خاصة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] **يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ﷺ، [١] فَهُوَ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ دُونَ فِرْعَوْنَ، وَمَعَ مُحَمَّدٍ وَصَاحِبِهِ دُونَ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَمَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ دُونَ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ. [٢].**

الشرح:

[١] إذ يقول الرسول ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق ﷺ، وهما في الغار، لما وصلهم المشركون، ووقفوا على الغار، قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فانصرفوا، ولم يروهم، أخذ الله بأبصارهم، ولم يروهم، فهذه معنى المعية.

[٢] هو مع فرعون بالإحاطة، وليس معه المعية الخاصة؛ هذه مع موسى وهارون فقط، دون فرعون، يعني دونه في المعية الخاصة، وأما المعية العامة، فهو مع كل خلقه -فرعون وغيره-، يحيط بهم، ويعلمهم. وهو مع النبي ﷺ وصاحبه بالمعية الخاصة، دون أبي جهل وأبي لهب وقادة المشركين، حينما هموا بقتله ﷺ ومنعه من الهجرة، لم يستطيعوا؛ لأن الله معه، وخرج من بينهم، ولم يروه. جاؤوا إلى الغار، وهو فيه، ولم يروه. خرج من الغار، وسافر، ولم يلحقوه، ولم يدركوه، وصل إلى المدينة بسلامة الله، هذه المعية من الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]؛ فهو مع المتقين، ومع المحسنين معية خاصة؛ بسبب تقواهم وإحسانهم.

فَلَوْ كَانَ مَعْنَى الْمَعِيَّةِ أَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، تَنَاقَضَ الْخَبَرُ الْخَاصُّ وَالْخَبَرُ الْعَامُّ؛ [١] بَلْ الْمَعْنَى: أَنَّهُ مَعَ هَؤُلَاءِ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ دُونَ أُولَئِكَ. [٢] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ **[٣].**

الشرح:

[١] لو كانت المعية بمعنى أنه في كل مكان - كما تقوله الحلولية -، لتناقض الخبر العام، وهو الإحاطة بالخلق، والخبر الخاص، وهو العناية بالمؤمنين، ولقال أبو جهل: نعم، وهو معي؛ كما أنه مع محمد. نقول: لا، المعية غير المعية التي عندك، هذه معية خاصة؛ فلا تناقض بينهما.

[٢] مع هؤلاء المؤمنين بنصره وتأييده المعية الخاصة، دون غيرهم من الكفار، فهو معهم بالإحاطة والاطلاع، وليس معهم بالنصر والتأييد والإعانة.

[٣] ليس معنى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أنه في السماء حال، وفي الأرض حال؛ الإله معناه: المعبود، فهو معبود في السماء، ومعبود في الأرض ﷻ.

أَيْ: هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] [١] وَكَذَلِكَ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ [الأنعام: ٣]؛ [٢].

الشرح:

[١] الصفة، المثل الأعلى، الصفات الكاملة، في السماوات والأرض لا يشبهه أحد، ولا يماثله أحد، بل هو ﷻ له الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد في السماوات والأرض، فله من الأسماء والصفات أكملها وأفضلها وأعلاها، وكل كمال ثبت للمخلوق ليس فيه نقص، فالخالق أولى به.

[٢] ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، الآية يفسر بعضها بعضا، فمعنى ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِۖ﴾؛ يعني: بعلمه ﷻ ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

كَمَا فَسَّرَهُ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ - كَالْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ -: أَنَّهُ الْمَعْبُودُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ(١). [١] وَأَجْمَعَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى بَائِنٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: معبود، معبود في السماء، ومعبود في الأرض، والسماوات والأرض ومن فيهن ملكه وعبيده، وتحت تصرفه ﷻ.

[٢] ليس معنى المعية: المخالطة والحلول؛ لأن إجماع سلف الأمة وأئمتها على أن الله بائن من خلقه، منفصل الخلق، بينه وبين الخلق انفصال تام، بائن يعني: منفصل، ليس في ذاته شيء من ذاتهم، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته ﷻ، وكلمة بائن من خلقه هذه لم ترد بهذا اللفظ، لكن المعنى المأخوذ من الأدلة أنه بائن من خلقه، هذا رد على الحلولية والاتحادية الذين يرون أنه مختلط بخلقه، فقالوا هذه الكلمة (بائن من خلقه) للرد عليهم؛ لأنهم يرون أنه ليس بائنًا من خلقه، بل هو مختلط بهم، فمعنى بائن مأخوذ من النصوص، وإن لم يأت باللفظ، لكنه مأخوذ من النصوص القرآنية والنبوية.

---

(١) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص٣٩)، وتفسير البغوي (٣/ ١٢٧).

يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، [١].

الشرح:

[١] هذه القاعدة المجمع عليها: أن الله يوصف بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به رسوله ﷺ، لا نحدث أوصافا من عندنا وننسبها لله، الذي لم يأت في الكتاب ولا في السنة ينزه الله عنه، فيوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف لمعناه، يكون على معناه، لا يحرف ويصرف عن معناه، فيقال: المراد باليد النعمة، والمراد بالوجه: الذات، والمراد بالغضب: إرادة الانتقام، وبالرحمة: إرادة الإنعام. هذا صرف للفظ عن ظاهره، والواجب أن يبقى على ظاهره.

والتحريف يكون بالمعنى، ويكون باللفظ. يكون بالمعنى، إذا فسر بغير معناه، هذا تحريف. يكون باللفظ، إذا زيد فيه حرف، أو نقص منه حرف، مثل قول الأشاعرة: (استوى) استولى. اللام هذه زائدة، ما جاءت لا في الكتاب ولا في السنة (استولى)، جاء (استوى)، وليس (استولى)، هذا تحريف لفظي، وكما قالت اليهود لما قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] يعني: استغفروا، حط عنا ذنوبنا، هذا استغفار، قالوا: حنطة. زادوا النون تهكما بكلام الله ﷻ.

يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ دُونَ صِفَاتِ النَّقْصِ، [١] وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ، [٢] كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]. [٣].

الشرح:

[١] يوصف الله ﷻ بصفات الكمال دائما وأبدا: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وينزه عن صفات النقص: كالسِنة - والنوم، والولد، والموت، والنسيان، وغير ذلك من صفات النقص.

[٢] لا يشابه الله أحد، لا مثل له، ولا ند له، ولا نظير له، ولا شبيه له ﷻ.

[٣] لما قال المشركون للنبي ﷺ: صف لنا ربك الذي تدعونا لعبادته، وترك عبادة ما سواه، صفه لنا. أنزل الله هذه السورة، فيها صفة الرحمن ﷻ(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣): عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الصَّمَدُ): الْعَلِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عِلْمِهِ الْعَظِيمُ الَّذِي كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، الْقَدِيرُ الْكَامِلُ فِي قُدْرَتِهِ، الْحَكِيمُ الْكَامِلُ فِي حِكْمَتِهِ، السَّيِّدُ الْكَامِلُ فِي سُؤْدُدِهِ(١). [١] وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ(٢): هُوَ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ. [٢] وَ(الْأَحَدُ): الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، فَاسْمُهُ (الصَّمَدُ) يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفْيِ النَّقَائِصِ عَنْهُ، وَاسْمُهُ (الْأَحَدُ) يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ. [٣].

الشرح:

[١] الصمد معناه: الكامل في كل صفة كمال: في ملكه، في عظمته، في أسمائه وصفاته، الكامل من كل وجه، وهو الله ﷻ، هذا معنى الصمد، هذا من معاني الصمد، ويفسر الصمد أيضا بأنه الذي تصمد له الخلائق بحوائجها، وتدعوه، كلها تدعوه، كل الخلائق تتجه إلى الله بحوائجها، تصمد إليه، وفسر الصمد: بأنه الذي لا جوف له، فالصمد له معان.

[٢] هذا من معاني الصمد؛ كما فسرها الصحابة بذلك.

[٣] الأحد يعني: المنفرد الذي ليس له شريك، وليس له مثيل، وليس له شبيه، هذا معنى الأحد.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٣٤٦)، وتفسير البغوي (٨/ ٥٨٨).

(٢) انظر: السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٩ - ٣٠٢)، والأسماء والصفات للبيهقي (١/ ١٥٧ - ١٥٩).

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي كَوْنِهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ(١) [١].

الشرح:

[١] للشيخ مؤلف مستقل: (جواب أهل العلم والإيمان في أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)(٢)، وهو مطبوع، وموجود بكثرة، وموجود أيضا في مجموع الفتاوى.

---

(١) الأحاديث في فضل سورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن، رواها البخاري (٥٠١٣) (٥٠١٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. ورواها مسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(٨١١) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٧).

فَصْلٌ [١]

وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ تُشْتَبَهُ عَلَيْهِمْ الْحَقَائِقُ الْأَمْرِيَّةُ الدِّينِيَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِالْحَقَائِقِ الْخِلْقِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ؛ [٢].

الشرح:

[١] هذه مسألة أخرى؛ مسألة الفرق بين الشرع والقدر: الأمر الشرعي، والأمر القدري. بعض الناس يقولون: ليس هناك إلا الأمر الكوني القدري، وليس هناك أمر شرعي. وهم أهل الضلال. وهناك من يقول: ليس هناك إلا أمر شرعي، ليس هناك أمر قدري، أما أهل السنة وأهل الحق، فيقولون: الأمر الشرعي موجود، والأمر القدري موجود؛ قال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، الأمر: هو الشرع، والخلق: هو القدر والقضاء، فهناك فرق.

[٢] يخلطون بينهما، ويقولون: نحن مطيعون له على كل حال؛ لأن الله قدر علينا، ونحن نعمل بما قدر علينا، هذا هو الطاعة، الطاعة موافقة القدر، يقولون: الطاعة هي موافقة القدر. وهذا باطل؛ لأن الطاعة موافقة الشرع، وليست موافقة القدر.

فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ؛ [١] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]. [٢].

الشرح:

[١] له الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، فهو الخالق، وهو الذي يأمر، وينهى، ويشرع ﷻ لعباده، فهناك فرق بين الخلق وبين الأمر.

[٢] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾؛ أي: معبودكم ومالككم وخالقكم الله، لا يشاركه في هذا أحد، والدليل على ذلك أنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ يتعاقبان، يذهب هذا، ويأتي هذا، يتعاقبان على الكون، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾؛ يطلب بعضهما، إذا ذهب هذا، جاء هذا، وإذا ذهب هذا، جاء هذا، يتعاقبان، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ تجري بأمره ﷻ منظمة محكمة، لا تختل، ولا تختلف، تجري، ولا يختل نظامها أبدا، مسخرات بأمره، ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾؛ له الخلق، وهو التدبير، والإيجاد. وله الأمر، وهو الشرع، يشرع لعباده ما يصلحهم - خلقهم ورزقهم -، ويشرع لهم ما يصلحهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة، فهناك فرق بين القدر والشرع.

فَهُوَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، [١] فَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ فَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، [٢] وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، [٣] وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَمَعْصِيَةِ رُسُلِهِ؛ [٤].

الشرح:

[١] لا ينازع في هذا أحد، حتى المشركون لا ينازعون في أنه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، لا ينازعون في هذا.

[٢] بلا شك.

[٣] هذا الأمر، وهو ﷻ أمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسله؛ وذلك لمصالح العباد وسعادتهم، ولم يتركهم هملا لا يؤمرون، ولا ينهون، بل إنه ﷻ أنزل الكتب، وأرسل الرسل لهداية الخلق إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، ولم يتركهم هملا على جهلهم، وعلى غفلتهم، وعلى شهواتهم وأهوائهم، وعلى تسلط الجبابرة عليهم والطواغيت، فإنه ﷻ أنزل الشرع بواسطة الرسل.

[٤] وهذا النهي.

أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، وَنَهَى عَنْ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ، [١] فَأَعْظَمُ الْحَسَنَاتِ التَّوْحِيدُ، وَأَعْظَمُ السَّيِّئَاتِ الشِّرْكُ. [٢].

الشرح:

[١] فهناك فرق إذًا بين الشرع وبين القدر، لو كان القدر كافيا، لما أنزل الكتب وأرسل الرسل بالأوامر والنواهي.

[٢] قال ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النمل: ٨٩]، والحسنة المراد بها هنا: التوحيد، المراد بالحسنة في هذه الآية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة عند قيام الساعة ﴿ءَامِنُونَ﴾ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ [الأنعام: ١٦٠] المراد بالسيئة هنا: الشرك، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النمل: ٩٠]، فالحسنة والسيئة هنا المراد بها: التوحيد والشرك.

فإذا قيل لك: ما أعظم ما أمر الله به؟ تقول: التوحيد. وإذا قيل لك: ما أعظم ما نهى الله عنه؟ تقول: الشرك.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. [٢].

الشرح:

[١] الشرك لا يغفر أبدا إلا بالتوبة، أما من مات، وهو مشرك، فلا طمع له في مغفرة الله، أما من مات، وهو موحد، فله طمع في مغفرة الله، وإن كان عنده ذنوب كبائر، فله طمع؛ إن شاء الله غفر له، ولم يعذبه، وإن شاء عذبه، وأخرجه من العذاب، وأدخله الجنة، فالذي يسلم من الشرك يطمع في رحمة الله، ولو كان عنده كبائر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فالمؤمن يطمع في رحمة الله، ولو كان عنده مخالفات، ولو مات، ولم يتب منها، فإنه يرجو رحمة الله، بخلاف المشرك الذي مات على الشرك؛ فإنه لا طمع له في مغفرة الله، نسأل الله العافية!

[٢] المحبة هي أعظم أنواع التوحيد، محبة الله ﷻ هي أعظم أنواع التوحيد، ولهذا العلماء عرفوا العبادة بأنها: غاية الذل لله، مع غاية الحب لله ﷻ، ونظم الإمام ابن القيم هذا في قوله:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
فَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَمَـدَارُهُ بِـالأَمْـرِ أَمْـرِ رَسُـولِـهِ لاَ بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ(١)

فهذه العبادة غاية الذل مع غاية الحب، الذين آمنوا يحبون الله حبا خالصا، ولا يحبون معه أحدًا محبة عبادة. أما المحبة الطبيعية، فهذه ليس لها حكم، لكن محبة العبادة التي معها ذل هذه لا تكون إلا لله ﷻ، أما المحبة التي ليس معها ذل، فهذه محبة طبيعية؛ كما تحب الطعام، وتحب الزوجة، وتحب الأولاد، وتحب المال، هذه ليست عبادة، هذه طبيعية، ليس معها ذل، فالمؤمنون يحبون الله محبة خالصة، ويعبدونه عبادة خالصة، أما المشركون، فإنهم يحبون الله، لكن يحبون معه غيره من الأصنام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: شركاء ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ يسوون بينهم وبين الله في المحبة، يعبدونهم، ويعبدون الله، يسوون بينهم، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]؛ يعادلون به غيره، فمحبة المؤمنين خالصة، ومحبة المشركين مشتركة، وهي باطلة؛ لأن العبادة إذا دخلها الشرك، بطلت: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] من محبة المشركين لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة المشركين مشتركة.

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٢٥٣).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك»، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَك مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك»، قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِك» [١].

الشرح:

[١] الكبائر تختلف؛ بعضها أشد من بعض، فهذه الجرائم الثلاث المذكورة في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾؛ هذا الشرك ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، هذه أعظم الكبائر؛ كما قال ابن مسعود لما سأل النبي ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»، الزنا من أشد المحرمات وأكبر الكبائر.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. [١].

وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَنَهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، [٢] وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، [٣].

الشرح:

[١] قيل: معناه: أن الله يستعملهم في الحسنات؛ فيمحو بها السيئات، فيجعل محل كل معصية طاعة، ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، وقيل: معناه: أن السيئات التي عملوها إذا تابوا إلى الله توبة صادقة، انقلبت إلى حسنات.

[٢] فهذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فيها أكبر المنهيات. وأما آية النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، هذه فيها أكبر المأمورات.

[٣] هذه من صفاته أنه يحب ﷻ؛ يحب المؤمنين، ويحب المقسطين، ويحب المتقين، ويحب المتطهرين، ويحب التوابين؛ فالله يحب، يحب

هؤلاء محبة خاصة، ويبغض الكافرين والمنافقين؛ يحب، ويبغض ﷻ، ويكره، ويسخط، ويغضب؛ صفات تليق بجلاله ﷻ، ليست كصفات المخلوقين.

وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، وَهُوَ يَكْرَهُ مَا نَهَى عَنْهُ [١] كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الإسراء: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]. **[٢].**

الشرح:

[١] يحب الذين يقاتلون في سبيله لإعلاء كلمة الله، ويبذلون أنفسهم في الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، الله يحبهم، يحبهم محبة خاصة، فدل على فضل الجهاد في سبيل الله.

[٢] ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾؛ من قوله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٢-٢٣]، وذكر النهي عن قتل الأولاد، والنهي عن أكل مال اليتيم، والنهي عن بخس حقوق الناس، ثم ختمها بالنهي عن الشرك، بدأها بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وهذه مثل الآيات الثلاث التي في آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فآيات الإسراء مثل آيات سورة الأنعام؛ بدأها بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، ثم قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: كل ما ذكره الله في هذه الآيات ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾؛ أي: محرما، فالله يكره المحرمات، يكره

المنهيات، ما نهى عنها إلا لأنه يكرهها ﷻ، ويحب الطاعات، ما شرع الطاعات إلا لأنه يحبها.

وَقَدْ نَهَى عَنْ الشِّرْكِ وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَأَمَرَ بِإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى الْحُقُوقَ، وَنَهَى عَنْ التَّبْذِيرِ، وَعَنْ التَّقْتِيرِ، وَأَنْ يَجْعَلَ يَدَهُ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِهِ، وَأَنْ يَبْسُطَهَا كُلَّ الْبَسْطِ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَعَنْ الزِّنَا، وَعَنْ قُرْبَانِ مَالِ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، [١] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]. [٢] وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ. [٣]، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْقَدَرَ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] [٤].

الشرح:

[١] يعني: نهى عن البخل، ونهى عن التبذير، وأمر بالوسط؛ بالاعتدال في الإنفاق بين البخل وبين التبذير.

[٢] هذا شاهد لقول الشيخ: وما نهى الله عنه، فهو يكرهه.

[٣] والله لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، فكل ما نهى عنه، فإنه لا يرضاه، ويكرهه، وكل ما أمر الله به، فإنه يحبه، ويرضاه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

[٤] أمر بالتوبة، وهي الرجوع إلى الطاعة، الرجوع من المعصية إلى

الطاعة، هذه التوبة، والتوبة في اللغة الرجوع[١] والإنابة[٢]، بمعنى التوبة، وهي الرجوع. فالمذنب والعاصي لا يقنط من رحمة الله، يتوب، ويتوب الله عليه، ولا يقنط من رحمة الله، أو يستكثر ذنوبه، ويقنط ويظن أن الله لا يغفر له، هذا أشد من الذنب، إذا قنطت من رحمة الله، وظننت أن الله لا يغفر، فهذا أشد من الذنب، فالتوبة مطلوبة وممكنة، وسهلة ويسيرة، ومقبولة عند الله إذا توافرت شروطها، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده.

---

(١) أصل (تَابَ) عاد إلى الله، ورجع، وأنابَ، وتَابَ الله عليه؛ أي: عاد عليه بالمغفرة. انظر: لسان العرب (١/ ٢٢٣)، ومقاييس اللغة (١/ ٣٥٧)

(٢) أناب إليه إنابة، فهو منيب، أقبل، وتاب، ورجع إلى الطاعة، وقيل: ناب: لزم الطاعة، وأناب: تاب، ورجع. انظر: لسان العرب (١/ ٧٧٥)، ومختار الصحاح (١/ ٢٨٥).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبَ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١). [١].

الشرح:

[١] النبي ﷺ مع طاعته لله وكمال عبوديته، مع هذا يستغفر الله من التقصير؛ ولأنه لا أحد يوفي حق الله من الخلق؛ حق الله عظيم، ولكنه يعفو ويسمح ﷻ، وإلا ما أحد يؤدي حق الله، الرسول ﷺ يقول: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(٢)؛ فلا أحد يوفي حق الله، فالرسول ﷺ مع كمال عبوديته يستغفر الله، ويتوب إليه، والله أمره بذلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣] ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]، مع كمال عبوديته ﷺ، الاستغفار والتوبة مطلوبان ومتأكدان في حق العباد، وليسا خاصين بالذنوب، بل التقصير في حق الله يحتاج إلى استغفار وتوبة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث أم المؤمنين عائشة ﷺ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ ليغان عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(١). [١] وَفِي السُّنَنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّك أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، مِائَةَ مَرَّةٍ، أَوْ قَالَ: أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] (يغان) يعني: يحصل له شيء من الغفلة؛ لأنه بشر ﷺ، ويحصل له انشغال وغفلة، ثم يتوب إلى الله، ويستغفر أكثر من مائة مرة، هذا من أسباب استغفار الرسول ﷺ، ومن استغفاره أنه قد تمر عليه لحظة يغفل عن ذكر الله ﷻ، فهو بحاجة إلى الاستغفار، فإذا كان هذا في حق النبي ﷺ، فكيف بغيره؟!

[٢] في المجلس الواحد مائة مرة أو أكثر، ليس طول اليوم، بل في المجلس الواحد، فهو ملازم ﷺ للاستغفار والتوبة إلى الله، فكيف بنا نحن؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وقوله ﷺ: (يغان) من الغين، وهو الغيم، والمراد الفترات، والغفلات عن الذكر، الذي كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه، أو غفل، عد ذلك ذنبًا واستغفر منه.ا.هـ. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وهو حديث صحيح.

هذا كله رد على الذين يكملون أنفسهم، ويقولون: نحن أولياء الله. وهم يبارزون الله بالمعاصي والكفر والشرك، ويقولون: نحن أولياء الله، نحن خاصة الخاصة، ولا يضرنا شيء، ما يضرنا شيء؛ لأننا أولياء الله. هذا رد عليهم.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنْ يَخْتِمُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ بِالِاسْتِغْفَارِ، [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ أمر بعبادته وطاعة رسوله، وكلف عباده بذلك، ووعدهم على ذلك بالثواب الجزيل والخير الكثير في الدنيا والآخرة، وهو لم يأمرهم بالطاعة، ولم ينههم عن المعاصي لأجل التضييق عليهم، أو لأجل أن يتعبهم، بل لأنه بهم رؤوف رحيم ﷻ، وإنما أمرهم بالعبادة والطاعة، ونهاهم عن المعاصي لمصلحتهم هم؛ فهم المحتاجون إلى الله ﷻ وإلى عفوه وإحسانه، فهذا لمصلحتهم، ومن رحمته بهم، فلم يتركهم وأهواءهم، وإنما بين لهم ﷻ ما ينفعهم، وأمرهم بما يصلحهم، ونهاهم عما يضرهم، وإلا فهو غني عنهم وعن عبادتهم، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزمر: ٧]، وهذا لمصلحتهم، ومن رحمته بهم، ولما كان العبد ضعيفا، وتعترضه أشياء، قد يحصل منه نقص في عبادة الله أو خلل في طاعة الله؛ بحكم أنه بشر، وأنه معرض للنقص، فمن رحمته ﷻ أنه لم يغلق دونه الباب، ولم يتركه على هذه الحالة؛ يأتي بأعمال ناقصة، أو بأعمال باطلة، لم يتركه ﷻ، بل شرع له التوبة والاستغفار، ولم يعاجله بالمؤاخذة وبالعقوبة، أو يغلق بابه دونه، بل شرع له أن يستدرك بالتوبة والاستغفار،

وليس هناك أحد كامل في العبادة، لابد من نقص، والنقص كثير؛ فلذلك شرع الله الاستغفار بعد العبادات. انظروا: شرع الاستغفار بعد العبادات، فكيف بالاستغفار بعد المعاصي والسيئات؟! فأهل الإحسان وأهل الخير يأتون بالطاعات، ويستغفرون الله عن النقص، وأنهم لم يوفوا حق الله ﷻ، وأكمل الناس عبادة لله محمد ﷺ، ومع هذا كان يستغفر الله ويتوب إليه في المجلس أكثر من سبعين، وفي اليوم أكثر من مئة مرة يستغفر ربه ﷻ؛ لأنه لا أحد يوفي حق الله ﷻ، فإذا كان هذا في شأن الرسول ﷺ، وهو لا يصدر منه ذنوب ومعاص، لكن التقصير حاصل؛ لذلك يستغفر الله، ويتوب إليه، فكيف بنا نحن؟!

الإنسان لا يقول: أنا صليت وخلاص، أنا أديت حق الله، أنا ما تركت شيئا. لا يا أخي؛ أنت لا تسلم من النقص، فاستدرك، واجبر بالاستغفار، ولهذا شرع الله الاستغفار بعد العبادات، شرع الاستغفار بعد الفريضة، كان ﷺ إذا سلم من الفريضة، يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله ثلاث مرات[(١)]. والله ﷻ أثنى على المتهجدين بالليل، الذين يتهجدون، ثم يختمون بالاستغفار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦]، هؤلاء أهل الجنة، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٩١): عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٨]؛ في آخر الليل بعد قيام الليل، يتبعون ذلك بالاستغفار، وقال ﷻ في أوصاف المؤمنين: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، والله ﷻ ذكر عن السابقين المقربين قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠]، فهم يأتون بالأعمال الصالحة العظيمة، ومع هذا يخافون من الله ألا يتقبل منهم، أو أن يكون في عملهم خلل أو نقص، لا يكملون أنفسهم، ولا يزكون أنفسهم، بل هم يخافون من الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾؛ يعني: من الأعمال الصالحة، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]، فمن رحمته ﷻ أنه شرع لعباده الاستغفار والتوبة بعد العبادات، فكيف بعد المعاصي والسيئات؟! الله شرع لهؤلاء وهؤلاء، شرع لهم الاستغفار والتوبة، هؤلاء عن تقصيرهم ونقصهم، وأولئك عن ذنوبهم ومعاصيهم، وهذا من رحمته ﷻ بعباده ولطفه بهم. فهذا فيه رد على من سبق ذكرهم بأنهم لا يحتاجون للعبادات؛ لأنهم أولياء، ووصلوا إلى الله، وعرفوا؛ فليسوا بحاجة إلى العبادة والدعاء وغير ذلك من غلاة الصوفية.

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا سَلَّمَ مِنْ الصَّلَاةِ يَسْتَغْفِرُ ثَلَاثًا وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْك السَّلَامُ تبارَكْت يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(١)، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ، [١] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِاللَّيْلِ وَيَسْتَغْفِرُوا بِالْأَسْحَارِ. [٢] وَكَذَلِكَ خَتَمَ سُورَةَ الْمُزَّمِّلِ - وَهِيَ سُورَةُ قِيَامِ اللَّيْلِ - بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]. [٣].

الشرح:

[١] هذا يدل على أن العمل الصالح يختم بالاستغفار، ويتبع بالاستغفار قد يقول قائل: هل هم أساؤوا لما صلوا، هل هم أساؤوا حتى يستغفروا؟ فنقول لهم: ليس بلازم أن يسيئوا لكي يكون عندهم نقص في الصلاة وفي العبادة.

[٢] أمرهم أن يقوموا بالليل، ويستغفروا، ويختموا ذلك وقت السحر، مع أنهم على إثر عبادة، وهم يستغفرون من نقص يحصل لهم.

[٣] قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ [المزمل: ١-٢] فأمره في أول الأمر أن يقوم غالب الليل، فقام ﷺ، حتى تفطرت قدماه من طول القيام؛ امتثالا لأمر ربه ﷻ، ثم إن الله خفف في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٤٩).

أن لَن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ يعني: في قيام الليل، ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، هناك أصحاب أعذار يشق عليهم قيام الليل كله، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ مسافرون ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ بالتجارة، يسافرون من أجل التجارة، فيشق عليهم القيام الطويل والقيام الكثير، فالله ﷻ خفف عنهم، ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الجهاد بحاجة إلى التخفيف، ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ (تجدوه) ينصب مفعولين، (هاء الغيبة) هذا المفعول الأول، (خيرا) هذا المفعول الثاني، و(هو) ضمير فصل، وليس مبتدأ؛ ولذلك نصب الاسم بعده: (هو خيرا)، ولو كان مبتدأ، لقال: هو خيرٌ؛ فهو ضمير فصل ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾، هذا هو الشاهد؛ أن الله أمر بعد قيام الليل بالاستغفار، وكذلك بعد الصدقة وإيتاء الزكاة: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هذا محل الشاهد: أنه بعد العبادة، بعد صلاة الليل، والصدقة بإخراج الزكاة، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ من أي نوع من أنواع الطاعات، ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠] بعد هذه الأعمال الجليلة.

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْحَجِّ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨ - ١٩٩]. [١].

الشرح:

[١] في الحج أيضا أمر بالاستغفار مع أداء المناسك، وهي الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، قال ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾؛ بعد أداء الوقوف بعرفات في اليوم التاسع، أفضتم إلى أين؟ إلى مزدلفة، ﴿أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، المشعر الحرام هو المزدلفة، وقيل: هو الجبل الذي في المزدلفة، اذكروه بصلاة المغرب والعشاء عند الوصول، وبالنوم والمبيت؛ لأن المبيت بالمزدلفة عبادة ومنسك من المناسك، المبيت فيها منسك من مناسك الحج، ثم صلاة الفجر فيها، ثم الدعاء بعد الفجر، كل هذا من ذكر الله في المزدلفة، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ قيل: المراد: أفيضوا من مزدلفة إلى منى، وقيل: المراد: عطفا على ما سبق أفيضوا من عرفة حيث أفاض الناس من قبل؛ إبراهيم ﷺ ومن جاء بعده؛ لأن قريشا كانوا يقفون بالمزدلفة، ولا يخرجون إلى عرفة، ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا نخرج منه، ويقفون بالمزدلفة، وإنما يذهب إلى عرفة الآفاقيون، هذا مما أحدثته قريش في الحج مخالفا لدين إبراهيم ﷺ، فوقوفهم بالمزدلفة هذا مخالف

لدين إبراهيم، ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾؛ يعني من عرفة، و(الناس) قيل: المراد آدم، وقيل: المراد إبراهيم ﷺ، فأرجعهم إلى الوقوف بعرفة، الذي كان هو دين الأنبياء من قبل، ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، بعد هذه الأعمال الجليلة (الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة) استغفروا الله، اطلبوا منه المغفرة، على إثر العبادة؛ لأنه يحصل خلل في العبادة، يحصل نقص، فيحتاج إلى الاستغفار؛ ليجبر هذا النقص.

(١) انظر: تفسيرالطبري (٢/ ٢٩١ -٢٩٥)، والقرطبي (٢/ ٤٢٧، ٤٢٨).

بَلْ أَنْزَلَ ﷻ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَمَّا غَزَا النَّبِيُّ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ، وَهِيَ آخِرُ غَزَوَاتِهِ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩]، [١].

الشرح:

[١] بلغ النبي ﷺ أن الروم يريدون غزو المسلمين، فتجهز ﷺ، وأمر أصحابه بالخروج، وكان ذلك وقت الصيف وشدة الحر، والمسافة بين تبوك والمدينة بعيدة، وفي وقت مطيب الثمار، والناس يفرحون بالثمار، الله ابتلاهم، وامتحنهم في هذه الغزوة؛ ليتميز المؤمن الصادق من المنافق، ابتلاهم في هذه الغزوة في آخر حياة النبي ﷺ؛ فهي آخر غزوة غزاها ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]، هذا يدل على أنها آخر الغزوات وآخر الجهاد(١)، فحرم الله المنافقين من هذه الغزوة، وتبين نفاقهم، وأما المسلمون، فإنه بادر الذين يستطيعون باللحاق بالرسول ﷺ، ولم يعبؤوا

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٨٠، ٨١)، والقرطبي (١٦/ ٢٧١).

بالحرب، وطول المسافة، والعدو الهائل -الذي هو الروم-؛ كثرة العدو وقوته، لم يعبؤوا بهذا كله، بل بادروا، وخرجوا مع رسول الله ﷺ.

تخلف عن الرسول ﷺ في هذه الغزوة ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: المرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١] يعني: في عدم خروجهم ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢]، هؤلاء عذرهم الله، هذا صنف.

الصنف الثاني: ناس من المؤمنين ليس لهم عذر، لكن تكاسلوا في أول الأمر، وكل يوم يقولون: اليوم نتجهز، وكل يوم...، تثاقلوا حتى خرج النبي ﷺ، وهم لم يعدوا العدة للحاق به، لا عن نفاق؛ هم مؤمنون ومن أفاضل الصحابة، لكن ابتلاء وامتحان، تثاقلوا في أول الأمر، ثم فاتتهم الفرصة؛ المؤمن لا يتثاقل عن الطاعة؛ لأنه قد يعرض له ما يمنعه منها، تثاقلوا رضي الله عنهم.

الطائفة الثالثة: المنافقون الذين اعتذروا، فعذرهم النبي ﷺ بناء على ظواهرهم، وإلا فهم كاذبون، ليس لهم عذر، ولله حكمة في أنهم لم يخرجوا: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]، فمنعهم الله من الخروج؛

لأجل ألا يحصل منهم التخذيل والإرجاف بالمسلمين.

أما العاجزون والمرضى والفقراء، فعذرهم الله ﷻ، وأنزل عذرهم، وأما المنافقون، فإن الله حبسهم؛ رحمة بالمؤمنين، وإلا فهم قادرون على الخروج، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، أما الثلاثة الذين خلفوا من أفاضل الصحابة ﷺ: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية ﷺ، فهؤلاء اعترفوا بذنبهم وتأخرهم، ولم يكذبوا على الرسول ﷺ، بل جاؤوا، وصدقوا الرسول في أنهم ما تأخروا عن عذر، واعترفوا بخطئهم، فالنبي ﷺ أرجأ أمرهم، أخرهم، لم يعذرهم، بل أخر أمرهم، وهجرهم ﷺ أربعين ليلة، وأمر بهجرهم، ثم إن الله تاب عليهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨]، هذه قصة غزوة تبوك، ومن تخلف عنها، والشاهد قصة الثلاثة، الله ﷻ قال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾، ففي النهاية تاب الله عليهم، وعفا عنهم؛ لأنهم صدقوا الله ورسوله، ما جاؤوا بأعذار كاذبة مثل المنافقين، بل اعترفوا بأنهم ما عندهم عذر، وأنهم أخطؤوا، وندموا، وتابوا، فهذا هو الحاصل؛ أن الله تاب على المتخلفين الذين خلفوا، تاب عليهم في نهاية الأمر[(١)].

---

(١) انظر: الطبري (١٠/ ٢٠٤، ١١/ ٢١، ٢٢)، والقرطبي (٨/ ٢٨٧).

وَهِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ. [١].

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر]. [٢].

الشرح:

[١] آخر ما نزل من القرآن؛ لأنها بعد غزوة تبوك، وغزوة تبوك هي آخر الغزوات، فهي من آخر ما نزل من القرآن.

[٢] وأمر نبيه ﷺ أن يختم عمره بالاستغفار، فالمسلم إذا كان في آخر عمره، يكثر من الاستغفار؛ لأن الله أمر نبيه بأن يختم عمره بالاستغفار، ما هي علامة أجل النبي ﷺ؟ فتح مكة، علامة أجله فتح مكة، قال ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] فتح مكة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر: ٢] لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجا، وجاءت الوفود من القبائل؛ تبايع النبي ﷺ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣] أمره الله أن يختم عمره بالاستغفار، فالاستغفار إذًا تختم به الفريضة، صلاة الفريضة، يختم به قيام الليل، يختم به مناسك الحج، يختم به العمر.

فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَخْتِمَ عَمَلَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»(١). [١].

الشرح:

[١] بعدما نزلت عليه هذه السورة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ كان في سجوده وركوعه يقول هذا الدعاء: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ؛ يعني: يفسر القرآن، يفسر هذه السورة؛ لأن التأويل في الأصل يراد به: التفسير، هذا المعروف عند السلف، التأويل: يراد به التفسير، ويراد به ما يؤول إليه الأمر في المستقبل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، لما رأوا مآل الأمور في الآخرة-هذا هو التأويل في المعنى الثاني- ما يؤول إليه الأمر في النهاية، وقال يوسف ﵇: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] تأويلها: ما حصل من سجود أبويه وإخوته له: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، هذا في أول عمره، ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ما جاء تأويل هذه الرؤية إلا في آخر عمره ﷺ: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالتأويل يراد به معنيان: التفسير، أو ما

(١) أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).

يؤول إليه الأمر في النهاية، أما التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فهذا تأويل محدث، لكن إذا كان بدليل، فلا بأس، وهذا يسمى تخصيصًا أو تفسيرًا، وإن كان بغير دليل، فهو تأويل باطل؛ كتأويل الأسماء والصفات، فالحاصل أن هذا معنى التأويل، له ثلاثة معان: معنيان صحيحان، ومعنى فيه نظر، المعنى الصحيح الأول: التفسير، المعنى الثاني: المآل في النهاية، وبيان حقيقة الأمور، وكنه الأمور في آخر الأمر، والثالث الذي فيه نظر: صرف اللفظ عن ظاهره[1]. فإن كان بدليل، فهذا نوع من التفسير، وبيان المراد، وإن كان بغير دليل، فهو تأويل باطل.

لكن قولها ﵂: (يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ)؛ يعني: يفسر القرآن، يقول: اللهم اغفر لي، (يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ)؛ يفسر قوله ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ٣].

---

(١) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (١٨٨)، وروضة الناظر (ص ١٧٨).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(١). [١].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمّ إِنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِك، وَارْحَمْنِي إنَّك أَنْتِ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] فإذا كان الرسول ﷺ يستغفر ربه هذا الاستغفار، مع أنه هو أكمل الأمة عبادة لله، بل أكمل الخلق عبادة لله ﷻ، لكن ما أحد يكمل نفسه أو يزكي نفسه، وإنما يعتبر نفسه مقصرا في حق الله ﷻ.

[٢] هذا أبو بكر الصديق أفضل الأمة على الإطلاق، ما بعد النبيين أفضل من أبي بكر ﷺ، ومع هذا علمه النبي ﷺ أن يستغفر بهذا الاستغفار الذي علمه إياه النبي ﷺ في قوله: «**اللَّهُمّ إِنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِك، وَارْحَمْنِي إنَّك أَنْتِ الْغَفُورُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).
(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

الرَّحِيمُ»، مع أنه من أكمل الأمة عملا بعد النبي ﷺ، ومع هذا طلب من النبي ﷺ أن يعلمه هذا الدعاء، علمه إياه، وهو استغفار، «ظلمت نفسي»، ظلمها بأي شيء؟ بالذنوب؛ لأن الظلم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ظلم الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

النوع الثاني: ظلم الناس، الذين يظلمون الناس في أعراضهم، في أموالهم، في دمائهم.

النوع الثالث: ظلم العبد لنفسه؛ بأن يوقعها في الذنوب والمعاصي، فيهلكها، فهو يقول: ظلمت نفسي، فاغفر لي. هذا أبو بكر الصديق، فدل على أنه لا يستغني أحد عن الاستغفار، مهما بلغ من الفضل والمكانة والعبادة، فإنه مقصر في حق الله ﷻ، وأيضا يحصل منه خلل أو نقص.

وَفِي السُّنَنِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ إِذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت. فَقَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إلَى مُسْلِمٍ. قُلْهُ إذَا أَصْبَحْت وَإِذَا أَمْسَيْت وَإِذَا أَخَذْت مَضْجَعَك»(١). [١].

الشرح:

[١] سأل - أيضا - أبو بكر رضي الله عنه النبي ﷺ أن يعلمه دعاء يقوله إذا أصبح، وإذا أمسى، فعلمه هذا الدعاء: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إلَى مُسْلِمٍ»، الإنسان يقترف على نفسه سوءا؛ فهو بحاجة إلى الاستغفار، فإذا كان هذا أبو بكر الصديق علمه النبي ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء.

«وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إلَى مُسْلِمٍ»، هذا دليل على أن الإنسان بحاجة إلى الاستغفار وإلى الدعاء، وبين له ﷺ أن يقول هذا الدعاء في صباحه، وفي مسائه، وعند نومه إذا أخذ مضجعه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، وهو حديث صحيح.

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَظُنَّ اسْتِغْنَاءَهُ عَنْ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ الذُّنُوبِ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ دَائِمًا. [١] قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣]. [٢].

الشرح:

[١] هذه هي النتيجة، مما سبق ليس لأحد أن يظن استغناءه عن الله ﷻ، إذا كان النبي ﷺ وأبو بكر ﵁ يستغفران، ويدعوان الله، ويخافان من الله، مع ما لهما من الفضائل والعبادات، فكيف بغيرهما؟!

[٢] قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، عرضها الله عليها عرض تخيير، لا عرض إلزام، لو عرضها عليها عرض إلزام، لامتثلت، ولم تخالف الله ﷻ، ولكنه عرض عليها عرض تخيير، فلم تزك نفسها، الأرض والسماوات والجبال لم تزك نفسها، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾؛ آثرن السلامة، ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ خفن من تبعتها، والأمانة يراد بها: كل ما حمله الإنسان، كل ما حمَّله الله، مع عبادته، هذه أمانة، عبادتك لله وتوحيده والإخلاص له، وأداء الفرائض وترك النواهي هذه أمانة، أمنك الله عليها، كذلك الأمانة بينك وبين الناس، إذا توليت على الناس في وظيفة أو في مركز، هذه أمانة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، والأمانات يراد بها: المسؤوليات والوظائف يتوظف بها

الإنسان، الإنسان لا يتوظف لكي يأخذ نقودًا فقط، يتوظف من أجل أن يقوم بواجبات نحو إخوانه المسلمين، ويقضي حوائجهم، هذا هو الهدف، ليس الهدف الدراهم فقط، الهدف أن يقوم بالعمل؛ لينفع إخوانه، وكذلك الأسرار التي يتحملها، إذا حملوك الأسرار، وقالوا: لا تفشها. فهذه أمانة، السر أمانة، وكذلك الودائع، الذين يودعونك، ويأتمنونك عليها هذه أمانة، بعض الناس يظن أن الأمانة مجرد الودائع فقط، الودائع نوع من أنواع الأمانة، وليست هي الأمانة كلها، وكذلك الأمانة بينك وبين نفسك، الله ائتمنك على نفسك بأن تنظر في مصالحها، وتجنبها المضار، وتحملها على المصالح وعلى الطاعات؛ فهي أمانة عندك، لا تهمل نفسك.

إذًا الأمانة شاقة، ولذلك السماوات والأرض أبين أن يحملنها؛ لأنها شاقة، وأشفقن منها، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ آدم وذريته آثروا المغنم؛ لأن من أطاع الله فيها، وأداها، حصل على الأجر العظيم، فهم آثروا المغنم الذي فيها، والسماوات والأرض والجبال آثرت السلامة، أما الإنسان، فحملها؛ رجاء ما عليها من الثواب والأجر، إذا قاموا فيه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ أي: الإنسان ظلوم لنفسه، ﴿جَهُولًا﴾ بحق الأمانة، لم يحسب لها حسابها، ثم قال ﷻ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣] يعني: من بني الإنسان الذين تحملوا هذه الأمانة، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فذكر أن الناس نحو هذه الأمانة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من خان الأمانة ظاهرا وباطنا، وهم الكفار والمشركون،

خانوها ظاهرا وباطنا.

القسم الثاني: من أداها ظاهرا وباطنا، وهم المؤمنون والمؤمنات، والمسلمون والمسلمات، أدوا الأمانة ظاهرا وباطنا.

القسم الثالث: المنافقون؛ أدوها في الظاهر، وخانوها في الباطن، ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾، انظر: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فدل على أن المؤمنين ما يكملون أداء الأمانة، لكن الله يتوب عليهم، الله يتوب عليهم، وإلا لو آخذهم، لعذبهم كلهم، لكنه يتوب عليهم ﷻ، فدل على أن النقص حاصل، يدل هذا على أن النقص حاصل في بني الإنسان؛ فلذلك شرع الله الاستغفار والتوبة.

فَالْإِنْسَانُ ظَالِمٌ جَاهِلٌ، وَغَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ التَّوْبَةُ، [١] وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِتَوْبَةِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»(١)، [٢].

الشرح:

[١] التوبة من هذا الظلم، والجهل.

[٢] الجنة عظيمة وغالية، ما تدرك بالأعمال، والأعمال - مهما بلغت - ليست ثمنا للجنة؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر(٢)، ولأنها دائمة لا تفنى، ولا تزول، فليس عمل ابن آدم ثمنًا للجنة، وإنما هو سبب لدخول الجنة، سبب فقط، وإلا لو أن الله حاسبه على تقصيره، وعلى الخلل الذي يقع منه، لما دخل الجنة، ولصار من أهل النار، لكن الله برحمته أدخله الجنة؛ فلا يغتر الإنسان بعمله، أو يثق من عمله، ولهذا قال ﷺ: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «وَلاَ أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»، وأما قوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالباء باء السببية،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) أخرج مسلم (٢٨٢٥) من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ: «فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وليست باء العوض؛ لأن العمل ليس ثمنا للجنة، مهما بلغ فالجنة أعظم من ذلك، هذا من ناحية، الناحية الثانية: أن العمل يعتريه نقص كثير وخلل كثير؛ فالإنسان لا يزكي نفسه، ولكن لا يقنط من رحمة الله ﷻ، ولا يترك الأعمال، ويقول: إن كان الله كاتبًا لي الجنة، سأدخل، وإن كان لم يكتبها، لو عملت، فليس بحاصل. هذا لا يجوز - والعياذ بالله -، بل يفعل السبب - وهو العمل الصالح -، الذي لا يعمل هذا، لايدخل الجنة، أما الذي يعمل، فهذا يدخلها برحمة الله ﷻ، الجنة لاتدخل إلا بعمل صالح.

وَهَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَهُ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ [١] **فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَفَى بَاءَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَادَلَةِ، وَالْقُرْآنُ أَثْبَتَ بَاءَ السَّبَبِ.** [٢].

الشرح:

[١] فهذا دليل على أن الإنسان لا يزكي نفسه، ولا يغتر بعمله، بل يعد نفسه مقصرا؛ فيستغفر الله، ويتوب إلى الله من هذا التقصير، أما إذا أعجب بعمله، واستكثر عمله، فإنه لن يستغفر، ولن يتوب.

[٢] ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾؛ ظاهره يدل على أن الجنة تدخل بالعمل الصالح، وأن الباء باء العوض، وليست كذلك، ليست باء العوض، وإنما هي باء السبب فقط. ونفى باء المقابلة - يعني: باء العوض والمعادلة -؛ فالعمل لا يعادل الجنة، ولا يقابلها، وإنما الجنة فضل من الله ﷻ، لكن العمل الصالح سبب لدخولها.

فهذا يفسر قوله ﷻ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾؛ أن ذلك إنما هو من باب السبب، لا من باب العوض، وهذا يدل على أن الإنسان بحاجة إلى الاستغفار وإلى التوبة، مهما عمل من الأعمال الصالحة، فإنه بحاجة إلى الاستغفار وإلى التوبة، لا يستغني أحد عن الاستغفار وعن التوبة والإكثار من ذلك.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ)، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَلْهَمَهُ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ فَلَمْ يُصِرَّ عَلَى الذُّنُوبِ، [١] وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لَا تَضُرُّ مَنْ أَصَرَّ عَلَيْهَا فَهُوَ ضَالٌّ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، [٢].

الشرح:

[١] (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ): إذا أحب الله عبدا، وفقه للتوبة والاستغفار، هذا معناه، ليس معناه أنه مهما عمل من الذنوب، فلن تضره، هذا ليس بصحيح، هذا قول المرجئة الذين يقولون: يكفي الإيمان بالقلب، ولا يضر مع الإيمان معصية. هذا قول باطل، بل المعاصي تضر المؤمنين، قد يعذبون بالنار، يعذبون يوم القيامة بالنار - وهم مؤمنون - بسبب معاصيهم وذنوبهم، وقد يبقون في النار مدة طويلة، ويحترقون، ثم يخرجون منها، وأيضا المصائب التي تحصل في الدنيا على المسلمين وعلى المؤمنين، مصائب تحصل مع أنهم مؤمنون، فدل على أن المعاصي تضر: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فالمعاصي تضر في الدنيا وفي الآخرة، ولا يمحوها عن المؤمن إلا الاستغفار والتوبة، ولايقل: أنا مؤمن، ولا تضرني؛ مثل ما تقوله المرجئة.

[٢] يشير إلى المرجئة الذين يقولون: إن المؤمن لا تضره معصية؛ كما أن الكافر لا تنفعه طاعة، نقول: نعم، الكافر لا تنفعه الطاعة، لكن المؤمن تضره المعصية، ولماذا نهينا عن المعاصي، وأمرنا بالطاعات وبالتوبة؟

إلا لأنها تضر، تضر المؤمن إن أصر عليها. أما من تاب، فإنها لا تضره إذا تاب منها، من تاب، تاب الله عليه، لكن من أصر عليها، فإنها تضره في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن الكتاب والسنة يدلان على أن الذنوب والمعاصي تضر المؤمنين: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، الرسول ﷺ والصحابة في وقعة أحد ضرتهم المعصية، معصية وقعت من بعضهم، وهم الرماة الذين تخلوا عن الجبل، وقد قال النبي ﷺ: لا تتركوا الجبل، سواء انتصرنا أو هزمنا. خالفوا، ونزلوا من الجبل، فحصلت الهزيمة على المسلمين بسبب الذنوب(١): ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٥ - ١٦٧]، فإذا كانت المعصية الواحدة من بعضهم حصلت على الجميع، وفي وقعة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ يعني: تقتلونهم، في أول الأمر انتصر المسلمون انتصروا انتصارا كبيرا على الكفار في وقعة أحد، فلما نزل الرماة، دار الكفار على المسلمين، وأحاطوا بهم من كل جانب، فحصلت المصيبة على المسلمين بسبب المعصية، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾؛ يعني: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾، الله ما قنطهم،

(١) سبق (١/ ٣٥).

ولا أيسهم، بل إنه ابتلاهم، ومحصهم، ثم قال: عفا الله عنكم.

فدل على أن المعصية تضر، أفضل الخلق ضرتهم المعصية، فكيف بغيرهم؟!

بَلْ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. [١].

الشرح:

[١] ما أدق هذا! من سورة الزلزلة قال ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]؛ يعني: عند قيام الساعة، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]؛ ما فيها من الأموات، ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣]؛ تعجب الإنسان من هذه الزلزلة، وهذا الهول الذي حصل، (ما لها): ما السبب؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]؛ الأرض تشهد يوم القيامة بما عمل عليها من خير أو شر ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤ - ٥]، الله ﷻ هو الذي أنطقها، وهو الذي أمرها أن تشهد على بني آدم، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦]، يصدرون من الموقف أشتاتا؛ ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] ليوقفوا على أعمالهم، ويحاسبوا عليها، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨]، الذرة أصغر شيء، (مثقال ذرة) قيل: الذرة: النملة الصغيرة، وقيل: الهباءة التي تطير في الهواء(١)، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وهم يقولون: ما تضر المعصية، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أين الذين يقولون: ما تضر المعصية؟!

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٩٥).

وَإِنَّمَا عِبَادُهُ الْمَمْدُوحُونَ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥]. [١].

الشرح:

[١] ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ سارعوا، لا تتأخر وتتلكأ، وتفوتك الفرصة، سارع مهما أمكنك المسارعة: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣] (أعدت) يعني: خلقها الله ﷻ بما فيها من النعيم والخير لمن؟ للمتقين، الذين اتقوا الله في الدنيا، وتجنبوا المعاصي، وعملوا الطاعات، من هم المتقون؟ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وذكر صفاتهم إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [آل عمران: ١٣٥] هذا محل الشاهد: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾؛ الفاحشة: هي المعصية المستفحشة في القبح. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ بما دون ذلك من الذنوب والمعاصي والسيئات، ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، هذا محل الشاهد من الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]،

استحضروا عظمة الله، وخافوا أنه شهيد ورقيب عليهم، ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾، هذا محل الشاهد، أهل الجنة يستغفرون لذنوبهم، أين الذين يقولون: ما تضر المعصية المؤمنين؟!

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْقَدَرَ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ [١].

الشرح:

[١] القضاء والقدر من الله ﷻ، الإيمان به ركن من أركان الإيمان الستة؛ كما قال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، فمن لا يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه جحد ركنا من أركان الإيمان، والإيمان بالقضاء والقدر بأن يؤمن بأن الله قدر الأشياء قبل وقوعها، وكتبها؛ أولًا علمها ﷻ بعلمه الأزلي الذي هو موصوف به أزلا وأبدا، علم ما كان وما يكون، ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ، حينما خلق القلم قال له: اكتب، فكتب ما هو كائن في اللوح المحفوظ إلى أن تقوم الساعة(٢)، فما من شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ثم إن الله ﷻ يوجد هذه الأشياء في مواقيتها، إذا شاءها، وجدت في مواقيتها، لا تتأخر عنها، كل شيء يوجد في وقته، يشاؤه ﷻ، ثم يخلقه في وقته، لا يخرج شيء عن هذا، فمن لا يؤمن بالقضاء والقدر، لم يكن مؤمنا بالله ﷻ، وهو متوعد بالنار، ولن يجد طعم الإيمان، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فلا يجزع عند المصيبة، ولا يغتر ويفرح

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرج الترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال الرسول ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ. فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ»، وأخرجه أبو داود بنحوه (٤٧٠٠).

عند النعمة، بل يشكر عند النعم، ويصبر عند النقم، هذا ملخص الإيمان بالقضاء والقدر، فإن الله ﷻ أخبرنا بذلك في كتابه، قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، ثم بين الحكمة من إخبارنا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، فلابد أن يؤمن الإنسان بهذا.

هناك طائفتان من أهل الضلال:

الطائفة الأولى: طائفة نفت القدر، وقالوا: إن الأمر آنف؛ يعني: مستأنف، وليس له تقدير سابق، لم يقدره الله، ولم يكتبه، وإنما يعلمه إذا وقع، فهذا مذهب المعتزلة، ويقال لهم: القدرية؛ لأنهم نفوا القدر، ويقال لهم: مجوس هذه الأمة[١]؛ لأنهم يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه، فهم أثبتوا خالقين مع الله؛ كما أن المجوس أثبتوا خالقا للخير وخالقا للشر، فهؤلاء زادوا على المجوس بأن قالوا: كل إنسان، فإنه يخلق فعل نفسه، تعالى الله!

الطائفة الثانية: الذين غلوا في إثبات القدر، حتى قالوا: إن العبد مجبور على أفعاله، ليس له اختيار ولا مشيئة، وإنما هو كالأداة بيد محركها، ليس له مشيئة ولا اختيار، وهو مجبور على ما يفعل، وهؤلاء يقال لهم:

---

(١) انظر: الإبانة للأشعري (١/ ١٩٦، ١٩٧، ٢٢٧، ٢٣٤)، والتبصير في الدين للإسفراييني (١/ ٩١-١٠١)، والعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٣٨).

الجبرية من الجهمية وغيرهم[(١)]، وسبقهم المشركون؛ قال الله ﷻ عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ يعني: ما لنا اختيار، الله شاء لنا هذا؛ فنحن ليس لنا اختيار، يسلون أنفسهم بهذا، وينفون عنهم اللوم، يقولون: لسنا ملومين؛ لأننا مجبرون على هذا الشيء: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾؛ لأنهم يحرمون أشياء لم يحرمها الله، كالسائبة والبحيرة والموصولة، يحرمون أشياء ما حرمها الله، ويستحلون أشياء حرمها الله كالميتة، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾؛ يدفعون عن أنفسهم اللوم، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، كلامكم هذا هل عليه دليل أن الله رضي منكم الكفر والشرك وتحريم الأشياء؟ هل عندكم دليل على أن الله رضي بذلك وأجبركم عليه؟ ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾؛ أخبر أنهم سيقولون هذا، وقالوه. ذكر الله ﷻ أنهم قالوه في سورة النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، لو كان الله رضي بهذا، وأنهم ليس لهم اختيار، ما كان لإرسال الرسل وإنزال الكتب فائدة، فكونه أرسل الرسل تنهى عن الشرك وعن الكفر، وعن الحرام دليل على أن الله

(١) انظر: الإبانة لابن بطة العكبري (١/ ١٥٥)، والتبصير في الدين للإسفراييني (١/ ١٠٧)، والنبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤٣).

لا يرضى بهذا، ولا يشرعه ﷻ، ولا يحبه، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٥- ٣٦]؛ فهذا دليل على أن الله لا يرضى بالكفر، لا يرضاه، ولا يحبه؛ ولذلك أرسل الرسل بالنهي عنه، فالجبرية على مذهب المشركين السابقين، الذين ذكرهم الله في هذه الآية.

الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، [١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩]. [٢].

الشرح:

[١] وقد أخبر الله أنهم قالوه؛ كما في سورة النحل، ﴿سَيَقُولُ﴾؛ يعني: في المستقبل، والسين للتنفيس؛ أي: المستقبل القريب، أخبر الله أنهم سيقولونه، وقالوه.

[٢] ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ كذبوا الرسل والكتب، واحتجوا بالقضاء والقدر، وأنهم لا لوم عليهم؛ حتى أذاقهم الله العقوبة والهلاك، ولو كان الله يرضى هذا، لما عاقبهم عليه، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾، لو كان الله - كما يقولون - أجبرهم على هذا الشيء، كان أجبرهم على هذا الشيء، وليس لهم اختيار، ما عاقبهم الله؛ لأن الله لا يظلم أحدا، كيف يعاقب من ليس له اختيار، وليس له إرادة ولا مشيئة، وإنما هو مجبر؟ تعالى الله عن ذلك!

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، هل لكم حجة على ما تقولون على الله ﷻ؟

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ (إن تتبعون)؛ أي: ما، (إن) بمعنى: ما، ما تتبعون إلا الظن، والظن أكذب الحديث: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ما يجوز للإنسان أن يتبع الظن، أمور العقيدة وأصول الإيمان لابد أن تكون على يقين، ليست على ظن ولا تخرص، ولا توقع.

﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، لله الحجة البالغة عليكم، كيف تحتجون عليه أنتم، وتقولون: الله هو الذي أجبرنا؟! الله هو الذي له الحجة البالغة؛ لأنه أرسل الرسل، وأنزل الكتب تنهاكم عن هذا الشيء، وأنتم تقدرون، أعطاكم قدرة، تقدرون على تركه، وتقدرون على فعل ما أمركم به، عندكم قدرة ومشيئة، أقام عليكم الحجة ﷻ بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وَلَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لِأَحَدٍ، لَمْ يُعَذِّبِ اللَّهُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ؛ كَقَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَالْمُؤْتَفِكَاتِ، وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ، [١] وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ، [٢].

الشرح:

[١] حتى ذاقوا بأسنا، لو كان القضاء والقدر حجة لأحد، لما أذاقهم الله بأسه وعذبهم؛ لأنهم يكونون معذورين؛ كما يقولون.

[٢] لو كان مذهبهم صحيحا، لما أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب تنهى عن المعاصي والكفر والشرك؛ لأنهم مجبرون على هذا، ولا يقدرون على تركه، إذًا ما فائدة إرسال الرسل وإنزال الكتب؟ يكون هذا عبثًا، فدل على أن لهم إرادة، ولهم اختيار وقدرة، وأنهم وقعوا في هذه الأمور باختيارهم وإرادتهم، ولهذا عذب الله الأمم الكافرة: كقوم نوح، وعاد، وثمود، والمؤتفكات، وهم قوم لوط ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٣ - ٥٤]، أهلكهم الله، لو كانوا مجبرين على ما هم عليه وما وقعوا فيه، لما عذبهم الله ﷻ؛ لأن هذا يكون ظلما لهم، والله منزه عن الظلم، فهو الحكم العدل ﷻ، ولما أوجب الله الحدود على الزناة، والسراق، وشاربي الخمور، والمرتدين، لو كانوا مجبرين على هذا، وليس لهم قدرة، فكيف يرتب الله عليهم الحدود؟! جلد الزاني أو رجم الزاني، أو قطع يد السارق، أو جلد شارب الخمر، كيف يعاقبهم، وهو قد قدر ذلك عليهم، وأجبرهم؟!

هو قدرها عليهم، لكن ما أجبرهم؛ لهم اختيار. الإنسان إن شاء، أطاع الله، وإن شاء، عصى الله باختياره ومشيئته، أما لو كانوا ليس لهم اختيار ولا قدرة، صاروا معذورين؛ ولذلك المجنون معذور، الصغير دون البلوغ معذور، النائم معذور، المكره معذور؛ لأنه ليس له اختيار، مجبر على هذا الشيء، أو ليس عنده عقل يميز به بين الحق والباطل.

وَلَا يَحْتَجُّ أَحَدٌ بِالْقَدَرِ إِلَّا إِذَا كَانَ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ. [١].

الشرح:

[١] ما يحتج أحد بالقدر، ولذلك الذين يحتجون بالقدر، ويقولون: إنهم مجبرون على ما يفعلون، إنما يتبعون أهواءهم، ليس عندهم دليل: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، الذي ليس عنده علم يتبع هواه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، الذي يزني إنما اتبع هواه وشهوته، الذي يسرق إنما اتبع هواه وشهوته للسرقة، الذي يشرب الخمر إنما شربه لهواه وشهوته.

وَمَنْ رَأَى الْقَدَرَ حُجَّةً لِأَهْلِ الذُّنُوبِ يَرْفَعُ عَنْهُمْ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، فَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَذُمَّ أَحَدًا وَلَا يُعَاقِبَهُ إِذَا اعْتَدَى عَلَيْهِ؛ [١] بَلْ يَسْتَوِي عِنْدَهُ مَا يُوجِبُ اللَّذَّةَ وَمَا يُوجِبُ الْأَلَمَ، [٢].

الشرح:

[١] هذه حجة مفحمة لهم أيضا، إذا كنتم تقولون: لا لوم علينا؛ لأننا مجبرون على ما نفعل. إذًا إذا اعتدى عليكم أحد، فلا تطالبوا بالعقوبة، لا تطالبوا بالقصاص، إذا قتل لكم قتيل، قولوا: هذا قضاء وقدر، إذا ضربك أحد، لا تنتقم منه؛ لأن هذا قضاء وقدر ليس باختياره، مجبر على هذا، إذا أحد أخذ مالك، لا تخاصمه على مذهبك؛ لأن هذا قضاء وقدر مجبر عليه، فلماذا تخاصم، وتطالب بالقصاص، تطالب بالجزاء؟ هذا دليل على أن الجاني ليس مجبرا، ولأنك تطالب بالعقوبة، فأنت تتناقض مع نفسك، تلتمس لنفسك العذر، ولا تلتمس العذر لغيرك، هذا لا يصلح من العقلاء، إذا كنت أنت معذور بالقضاء والقدر - كما تقول -، فاعذر من يعتدي عليك؛ لأنه مجبور على ما فعل معك، مجبور على هذا، فلماذا تطالب بالجزاء؟! وبهذا تفسد الدنيا، يصير الناس كالبهائم، بل أحط من البهائم، ولا مؤاخذة ولا عقاب، ولا . . . .، تفسد الدنيا بهذا المذهب الخبيث.

[٢] كله مجبر عليه.

فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ خَيْرًا وَبَيْنَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَهُ شَرًّا، [١] وَهَذَا مُمْتَنِعٌ طَبْعًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا. [٢].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]. [٣].

الشرح:

[١] لأنهم كلهم مجبرون، الذي فعل معك خيرا ليس له معروف؛ لأنه مجبر على هذا، ومن فعل معك شرا غير ملوم؛ لأنه مجبر على هذا.

[٢] هذا ممتنع في الطباع والعقول والشرع، حتى البهائم إذا اعتدي عليها، تنتقم لنفسها، أليس كذلك؟ البهائم إذا اعتدي عليها، تدافع عن نفسها، هذا دليل على أن الأمور بالاختيار، وليست بالإجبار.

[٣] الله فرق بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض؛ لو كانوا مجبرين، لما فرق الله بينهم؛ لا فرق بين من يصلي ومن يزني، لا فرق بينهما، إذا كانوا مجبرين، الله فرق بينهم، قال ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، فكون الله فرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ هؤلاء ينعمهم، وهؤلاء يعذبهم، هذا دليل على أنهم غير مجبرين، وأن لهم اختيارا، ومشيئة وإرادة.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم: ٣٥]، [١].

الشرح:

[١] ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من الكفار والمشركين، هذا استنكار منه ﷻ أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، استنكار ونفي، ولا يليق بحكمته ﷻ ذلك، فالمسلمون يرحمهم وينعمهم، والمجرمون يعذبهم ويعاقبهم، لماذا فرق بينهم؟ لأنهم فعلوا هذا باختيارهم، فالذي فعل الخير فعله بإرادته واختياره ورغبته، والذي فعل الشر فعله بإرادته واختياره ورغبته، والجزاء من جنس العمل، هذا العدل من الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦]، ما لكم؟! هذا استنكار، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ [القلم: ٣٧-٤٠]، من الذي تكفل لهم بهذه الأمور؟ فهذا دليل على أن هناك فرقًا بين المؤمنين والكفار، والمطيعين والعصاة، وأنهم فعلوا هذه الأمور باختيارهم ومشيئتهم وإرادتهم، لا أحد يصرفهم عن ذلك.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. [١].

الشرح:

[١] الآيات في مسار واحد، كلها يصدق بعضها بعضا، (أَمْ حَسِبَ؟!) هذا للاستنكار، استفهام للاستنكار، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: اكتسبوها: الاجتراح هو الاكتساب(١) ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، هذا استفهام إنكار، أي: لانجعلهم، لا يليق بحكمة الله وعدله أن يجعل هؤلاء مثل هؤلاء؛ إذًا لافائدة من الأعمال، ولا فائدة من الشرائع، ولا فائدة من إرسال الرسل، ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، يمكن في الدنيا أن يكون الكافر منعمًا، وعنده أموال وأولاد وقوة، والمؤمن يصير فقيرا ومريضا، ولاينال شيئا من جزاء أعماله؛ لأن الله ادخرها له في الآخرة، والكافر الله استدرجه في الدنيا؛ من أجل أن يعذبه في الآخرة؛ حكمة من الله ﷻ، لا يستوون في الحياة والموت، في يوم القيامة يميز الله بين هؤلاء وهؤلاء، فيكون فريق في الجنة، وفريق في السعير، وليس مثل الدنيا: الأمور مشتركة، في الآخرة لا، بل يميز الله بينهم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ

(١) اجترح: عمل بيده، واكتسب، ومنه قيل لكواسب الطير والسباع: جوارح، جمع جارحة؛ لأنها تكتسب بيدها. انظر: لسان العرب (٢/ ٤٢٣)، والمصباح المنير (١/ ٩٥)، ومقاييس اللغة (١/ ٤٥١).

يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ [الروم: ١٤ - ١٥]؛ يسرون[1]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ [الروم: ١٤-١٦]

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ١٥٨)، وغريب القرآن (١/ ٥٣٦).

وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، **[١] وقَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾** [القيامة: ٣٦]؛ **[٢] أَيْ: مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى. [٣].**

الشرح:

[١] كذلك لو كان الأمر كما يقولون: إنهم مجبرون على الأعمال؛ فيكون إذًا خلقهم عبثا، إذا لم يكن هناك جزاء على الطاعات، ومجازاة على المعاصي، يكون خلق الناس عبثا - تعالى الله عن ذلك -، لو لم يكن هناك بعث، ولا حساب، ولا جزاء، وكل يعمل ما يشاء، وليس هناك نتيجة، لكان خلقهم عبثا، والله منزه عن العبث: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

[٢] لو كان الأمر كما يقولون من أنه مجبر، ما حصل أمر ونهي من الله ﷻ؛ لأنه لا فائدة في الأمر والنهي، فهذا فيه الاعتراض على الله ﷻ، وأن أمره ونهيه لا فائدة منه؛ كيف يأمرهم وينهاهم، وهم مجبرون على ما يفعلون؟! يصبح لا للأمر قيمة، ولا للنهي قيمة.

[٣] إذا أخذ بقولهم: (إنهم مجبرون على أفعالهم)، صار الإنسان لا فائدة في أمره ونهيه، فيكون سدى، فيترك سدى، لا يحاسب، ولا يجازى؛ لأنه معذور على قولهم، مجبر ليس له اختيار.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «احْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى، قَالَ مُوسَى: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَك اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ، لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَكَتَبَ لَك التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْت مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ [طه: ١٢١] قَالَ: بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ [قَالَ]: فَلِمَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ؟ قَالَ: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى»(١)، أَيْ: غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ. [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث حديث عظيم، ولكن لا يفهمه أكثر الناس، ويغلطون في معناه، يزعمون أن موسى عليه السلام احتج على أبيه آدم بفعل المعصية، لماذا عصيت ربك؟ فيظنون أن موسى عليه السلام عاتب أباه على فعل المعصية، في حين أن موسى عاتبه على المصيبة التي حصلت: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ هذه المصيبة التي حصلت بسبب المعصية، فآدم احتج بأن الإخراج من الجنة مصيبة، والقدر يحتج به على المصائب، فاحتج آدم عليه السلام على موسى عليه السلام بالقدر على المصيبة، ولم يحتج به على فعل المعصية؛ لأنه فعلها باختياره، وليس مجبرا، وموسى يعلم هذا، وأيضا ما يمكن أن موسى يلوم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

أباه آدم على معصية قد تاب الله عليه منها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، الحديث ليس فيه حجة للجبرية من وجهين:

الوجه الأول: أن موسى لام آدم على المصيبة، وهي الإخراج من الجنة، ولم يلمه على فعل المعصية؛ لأنه تاب منها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الوجه الثاني: أن موسى تاب من المعصية، ولو كان مجبرًا، لما احتاج للتوبة، ولما استغفر؛ لأن المجبر لا يؤاخذ.

الاحتجاج بالقدر على المصائب هذا أمر من الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، فيصبر على المصيبة، ولايجزع، ولا يتسخط، ويعلم أنها بقضاء الله وقدره، أما المعصية، فلا أحد من المؤمنين يحتج على فعله، ولكن يتوب ويستغفر، ويرجع اللوم إلى نفسه، فيتوب إلى الله، ويستغفر، هذا واضح؟

وَهَذَا الْحَدِيثُ ضَلَّتْ فِيهِ طَائِفَتَانِ: [١] طَائِفَةٌ كَذَّبَتْ بِهِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُ يَقْتَضِي رَفْعَ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ عَمَّنْ عَصَى اللَّهَ لِأَجْلِ الْقَدَرِ، [٢] وَطَائِفَةٌ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ جَعَلُوهُ حُجَّةً، [٣] وَقَدْ يَقُولُونَ: الْقَدَرُ حُجَّةٌ لِأَهْلِ الْحَقِيقَةِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ، أَوْ الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ أَنَّ لَهُمْ فِعْلًا. [٤].

الشرح:

[١] طائفتان: القدرية (وهم المعتزلة)، والجبرية.

المعتزلة الذين ينفون القدر، مع أن آدم احتج به على موسى، وهم ينفون القدر، فهذا حجة على المعتزلة، والجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبر، إذًا آدم يكون مجبرا على أكله من الشجرة، فكيف يلومه، وهو مجبر على زعمكم؟!

[٢] وهم المعتزلة الذين يقولون: إن الله لم يرد المعصية، ولا شاءها، وإنما العبد هو الذي يفعلها.

[٣] وهم الجبرية.

[٤] أهل الحقيقة: الصوفية (غلاة الصوفية) الذين يزعمون أن الإنسان عندهم ترتفع عنه التكاليف، إذا وصل إلى درجة من التصوف، تسقط عنه التكاليف؛ لأنه صار وليًّا خاصًّا، ليس عليه تكاليف؛ لأنه عرف وانتهى، هؤلاء أهل الحقيقة.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا حَجَّ آدَمَ مُوسَى؛ لِأَنَّهُ أَبُوهُ، [١] أَوْ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَابَ، [٢] أَوْ لِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ فِي شَرِيعَةٍ وَاللَّوْمَ فِي أُخْرَى، [٣] أَوْ لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا دُونَ الْأُخْرَى. وَكُلُّ هَذَا بَاطِلٌ. [٤] وَلَكِنَّ وَجْهَ الْحَدِيثِ أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمْ يَلُمْ أَبَاهُ إِلَّا لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَكْلِهِ مِنْ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ لَمْ يَلُمْهُ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَتَابَ مِنْهُ، فَإِنَّ مُوسَى يَعْلَمُ أَنَّ التَّائِبَ مِنْ الذَّنْبِ لَا يُلَامُ، وَهُوَ قَدْ تَابَ مِنْهُ أَيْضًا، [٥].

الشرح:

[١] وليس للابن أن يحتج على أبيه، هذا قول ساقط.

[٢] وهذا أيضا قول لا وجه له؛ لأن موسى لم يذكر الذنب أبدا، لم يقل: لماذا أكلت من الشجرة؟ قال: لماذا أخرجتنا من الجنة؟ ذكر المصيبة فقط.

[٣] في شريعة أخرى؟! كل هذه أقوال لا قيمة لها.

[٤] كل هذه الأقوال باطلة، وسيأتي الجواب الصحيح.

[٥] لم يقل له: لماذا أكلت من الشجرة؟ وإنما قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ هذه مصيبة.

وَلَوْ كَانَ آدَمَ يَعْتَقِدُ رَفْعَ الْمَلَامِ عَنْهُ لِأَجْلِ الْقَدَرِ لَمْ يَقُلْ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. [١] وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ عِنْدَ الْمَصَائِبِ أَنْ يَصْبِرَ وَيُسَلِّمَ، وَعِنْدَ الذُّنُوبِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ. [٢] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، [٣].

الشرح:

[١] لو كان آدم يرى أنه ليس عليه لوم، ويحتج بالقدر على المعصية، لما تاب إلى الله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فآدم اعترف بأنه ظلم نفسه بالمعصية، اعترف بالمعصية، وأنه فعلها باختياره، وتاب إلى الله ﷻ، فلو كان آدم يرى أنه مجبور على المعصية لما تاب، ماذا يتوب منه، وهو مجبور؟!

[٢] هذه هي القاعدة: أن المؤمن عند المصائب يصبر، وعند الذنوب يتوب ويستغفر، ولا يحتج بالقدر. هذا ما يدل عليه الكتاب والسنة والإجماع؛ أن المؤمن عند المصائب يصبر، ولا يجزع، ولا يتسخط لقضاء الله وقدره، وعند الذنوب يتوب ويستغفر، ولا يحتج بالقدر.

[٣] هذه الآية واضحة، اصبر على ماذا؟ على أذى المشركين؛ لأن هذه مصيبة، الرسول واجه من المشركين الأذى الكثير والمتاعب، الله ﷻ قال له: اصبر، هذا قضاء وقدر، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، لم يقل: اصبر

على ذنبك، بل قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، فالذنب الذي يفعله الإنسان باختياره وإرادته يحتاج إلى الاستغفار والتوبة إلى الله ﷻ؛ فالله فرق بين المصيبة وبين الذنب، عند المصيبة قال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥] ولا تجزع وتترك الدعوة إلى الله، بل اصبر، واستغفر لذنبك، إذا حصل منك ذنب، فاستغفر. الآية واضحة في هذا.

فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الْمَعَائِبِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. [١] قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، [٢] فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ.(١) [٣].

الشرح:

[١] هذا احتجاج بالقدر على المصيبة، وأنها بإذن الله وقدره؛ فلا تجزع، ولا تتسخط لقضاء الله وقدره، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ يعلم أن هذه المصيبة بإذن الله، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للإيمان.

[٢] الآية تعني: الرجل إذا أصابته مصيبة، يعلم أنها من عند الله، وأنه لا فرار له منها، قال ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»(٢)، وقال ﷺ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»(٣).

[٣] ولم يجزعوا، مع بذل الأسباب، والمؤمن لا يصبر ويعطل الأسباب، بل يصبر، ولا يجزع، ولكن يبذل الأسباب للخروج من المأزق ومن الشدة، يأخذ بالأسباب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ١١٠)، وشعب الإيمان (١٢/ ٣٤٥).

فَالْمُؤْمِنُونَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ - مِثْلُ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالذُّلِّ - صَبَرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذَنْبِ غَيْرِهِمْ، كَمَنْ أَنْفَقَ أَبُوهُ مَالَهُ فِي الْمَعَاصِي فَافْتَقَرَ أَوْلَادُهُ لِذَلِكَ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَصْبِرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ، وَإِذَا لَامُوا الْأَبَ لِحُظُوظِهِمْ ذَكَرَ لَهُمُ الْقَدَرَ. [١].

وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ، وَالرِّضَا قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ وَاجِبٌ، وَقِيلَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ الصَّحِيحُ. [٢].

الشرح:

[١] الصبر واجب، وهو في كتاب الله في آيات كثيرة، والصبر هو رأس الإيمان. الذي ليس له صبر، لا يكون عنده إيمان، الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، الذي ليس عنده صبر، لا يبقى له دين؛ كما أن الجسد إذا فقد الرأس، لم يبق به حياة، الصبر أمره عظيم، كرره الله في القرآن، وأمر به، وذكر فوائده ونتائجه، وهي الصبر كله عند المصائب.

[٢] الصبر واجب، وأما الرضا بالمصيبة، فهذا ليس واجبا، إن حصل، فحسن أن يرضى، ويسلم، «**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فيَرْضَى وَيُسَلِّمُ**»، هذا من كمال الإيمان، الرضا من كمال الإيمان، وليس بواجب؛ لأن الإنسان يتألم، ويتضايق. الرضا ليس بواجب، ولكن الصبر وعدم الجزع واجب، أما الرضا، فهذه درجة عالية، لا ينالها كل الناس، لكن إذا حصلت، فهذا طيب.

وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى الْمُصِيبَةِ [١] لِمَا يَرَى مِنْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا؛ [٢].

الشرح:

[١] لأنها خير له، قال ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١)، أما الكافر، فعلى العكس؛ إن أصابته ضراء، جزع وتسخط، وإن أصابته سراء، أشر وبطر وتكبر.

[٢] لأنها تنبهه إلى التوبة، ولأنها تقمع ما في نفسه من الكبر والتطاول، ولأن أعظم شيء فيها أن الله يكفر بها خطاياه، المصائب تكفير للمسلمين، يكفر الله بها خطاياهم، ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب إلا كفر الله بها خطاياه(٢)، ولما جاء أبو بكر الصديق إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣]؟ أَكُلُّ سَوْءٍ عَمِلْنَا بِهِ جُزِينَا؟ فَقَالَ: «**غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأْوَاءُ؟**».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ، وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**». أخرجه مسلم (٢٥٧٣).

قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ فِي الدُّنْيَا»[(١)]، حتى الشوكة يشاكها يكفر الله بها خطاياه[(٢)]، فالمصائب فيها مصالح للمؤمنين، يكفر الله بها خطاياهم، وتنبههم للتوبة والاستغفار وإدراك الخطأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١)، وهناد (١/ ٢٤٨)، والحارث (كما في بغية الباحث ٢/ ٧١٩)، وابن جرير (٥/ ٢٩٤). وذكره الحكيم (٢/ ١٦)، وأبو يعلى (١/ ٩٨)، وابن حبان (٧/ ١٨٩)، والحاكم (٣/ ٧٨)، والبيهقي (٣/ ٣٧٣).

(٢) عن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا» أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

حَيْثُ جَعَلَهَا سَبَبًا لِتَكْفِيرِ خَطَايَاهُ، [١] وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ، وَإِنَابَتِهِ وَتَضَرُّعِهِ إِلَيْهِ، [٢] وَإِخْلَاصِهِ لَهُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَرَجَائِهِ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ. [٣] وَأَمَّا أَهْلُ الْبَغْيِ وَالضَّلَالِ فَتَجِدُهُمْ يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ إِذَا أَذْنَبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، [٤] وَيُضِيفُونَ الْحَسَنَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهَا، [٥].

الشرح:

[١] وإذا كان ليس عنده سيئات، وأصابته مصيبة، يرفع الله بها درجاته في الجنة؛ لأن الله قد يكتب للعبد درجة في الجنة لا يبلغها بالعمل، فيقدر الله عليه المصائب؛ من أجل أن يرفع الله بها درجاته في الجنة.

[٢] يتذكر ذنوبه؛ فيتوب إلى الله.

[٣] مصالح عظيمة في المصائب للمؤمنين.

[٤] أهل الكفر والشرك على العكس من المؤمنين؛ إذا أصابتهم مصيبة، جزعوا وتسخطوا؛ لأنهم لا يؤمنون أنها بقضاء الله وقدره، وإذا أصابتهم نعمة، فسقوا، وتكبروا، وأشروا، وبطروا، هذه طريقة أهل الكفر والشرك.

[٥] وإذا أنعم عليهم بالحسنات، لا يقولون: هذه من الله، بل يقولون: هذه بسبب فعلنا، وكسبنا، وكدنا، ومعرفتنا، وحذقنا. كما قال قارون لما نُصح: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: هذا المال ليس من الله، إنما هو بكدي وكسبي، فيضيف هذا إلى نفسه، ويجحد فضل الله عليه.

كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِيٌّ، [١] وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ، [٢] أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ تَمَذْهَبْتَ بِهِ. [٣].

الشرح:

[١] تقول: إن كان الله مقدرًا لي أن أصلي، وإني أتصدق، فأنا فعلت هذا، وإن كان لم يقدر الله لي، فلن يحصل مني شيء، وهذا كثيرًا ما يقوله بعض الجهال.

[٢] وعند المعصية ما تلوم نفسك وتتوب، بل تقول: لا، أنا مجبر عليها، ليس لي حيلة فيها. ويعطي نفسه العذر؛ لأنه مجبور بزعمه. عند الطاعة قدري على مذهب المعتزلة، وعند المعصية جبري على مذهب الجبرية.

[٣] وهذه مصيبة؛ يعني: الذين يختارون في المذاهب والأقوال الآن - حتى في غير العقيدة-، الذين يختارون الفتاوى التي تصلح لهم، والأقوال التي تصلح لهم، ولو ما عليها دليل، ولو هي خطأ، وأما التي لا تصلح لهم، ولو عليها دليل وبرهان، لا يقبلونها؛ لأنهم يتبعون أهواءهم.

وَأَهْلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ إِذَا فَعَلُوا حَسَنَةً شَهِدُوا إِنْعَامَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِهَا ، [١] وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَهُمْ مُسْلِمِينَ، وَجَعَلَهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَأَلْهَمَهُمْ التَّقْوَى، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، فَزَالَ عَنْهُمْ بِشُهُودِ الْقَدَرِ الْعَجَبُ وَالْمَنُّ وَالْأَذَى، [٢] وَإِذَا فَعَلُوا سَيِّئَةً اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَتَابُوا إِلَيْهِ مِنْهَا . [٣].

الشرح :

[١] شكروا الله عليها ، واعترفوا بفضل الله عليهم .

[٢] لا يعجبون بعباداتهم وطاعاتهم ؛ لأنهم يعرفون أن الفضل من الله ، هو الذي وفقهم لها ، هو الذي تفضل عليهم بذلك ، فيشكرون الله على الطاعة ، ويستغفرون الله عند المعصية . هم يشكرون عند النعم ، والطاعة من أعظم النعم وأكبرها .

[٣] النعم ينسبونها إلى الله ، وأما الذنوب ، فإنهم ينسبونها إلى أنفسهم ؛ فيتوبون إلى الله ، ويستغفرونه .

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُك، وَأَنَا عَلَى عَهْدِك وَوَعْدِك مَا اسْتَطَعْت، أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْت، أَبُوءُ لَك بِنِعْمَتِك عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا إذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١). [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث حديث عظيم، وهو سيد الاستغفار، وفيه الإقرار لله بالربوبية، وأنه الخالق ﷻ، وأنه المنعم، «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، اغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، فنسب النعمة إلى الله، ونسب الذنب إلى نفسه، واستغفر الله ﷻ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْته، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْته، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْته، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ إِذَا غُمِسَ فِيهِ الْمِخْيَطُ غَمْسَةً وَاحِدَةً، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إِلَّا نَفْسَهُ»(١). [١].

الشرح:

[١] هذا الحديث حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي النبي ﷺ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه.

عن ربه، وهذا ما يسمى بالحديث القدسي؛ فرقا بينه وبين الحديث النبوي.

فالحديث القدسي ما كان من كلام الله ﷻ، والحديث النبوي ما كان من كلام الرسول ﷺ، والأحاديث القدسية كثيرة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو دون ذلك، وقد صنفت فيها مصنفات، وهذا الحديث من أشهرها؛ لأنه تضمن أشياء كثيرة: أول ما تضمن تنزيه الله ﷻ عن الظلم، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، والله ﷻ منزه عن أن يضع العذاب في غير موضعه، وأن يضع النعيم في غير موضعه، بل إنه ﷻ حكيم؛ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، لكنه لا يعذب أحدا على غير سبب، ولا ينعم أحدا على غير سبب، بل كل يجازيه الله بعمله.

فهذا بتوفيق الله ﷻ، لا بحوله، ولا بقوته، وإنما الله هو الذي وفقه، وهداه. وفي هذا رد على المعتزلة الذين ينكرون خلق الله لأفعال العباد، فإنما الهداية بفضله ﷻ؛ يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لكن الهداية لها أسباب من قبل العبد، يفعلها العبد، والضلال له أسباب من قبل العبد؛ كما قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]؛ أعطى، واتقى، وصدق بالحسنى، هذه أفعال العبد، وهي سبب لتيسير الله له للحسنى، للجنة، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠]، فالعبد هو الذي يسبب لنفسه الشقاء أو السعادة، والله منزه عن أن يظلمه ويشقيه بغير سبب، أو يسعده بغير سبب. وهذا محل الشاهد من هذا الحديث: أن الجزاء إنما يكون على الأعمال، كل يجزى بعمله، لا يجزى

ولا يؤاخذ بعمل غيره، وهذا هو العدل من الله ﷻ؛ فإنه لو عذب أحدا بغير ذنب، أو عذب أحدا بسبب عمل غيره، أو نعَّمَ أحدًا بسبب عمل غيره، كان ذلك ظلما ينزه الله ﷻ عنه.

فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا يَجِدُهُ الْعَبْدُ مِنْ خَيْرٍ ، وَأَنَّهُ إِذَا وَجَدَ شَرًّا فَلَا يَلُومَن إِلَّا نَفْسَهُ . [١].

الشرح :

[١] فالخير فضل من الله ﷻ، هو الذي وفق هذا العبد للطاعات والعمل الصالح، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، اعترفوا بأن هذا فضل من الله ﷻ، وكما مر بنا أن الجنة ليست ثمنا للعمل؛ لأنها لا تقابل بالأثمان، ولكنها فضل من الله، والعمل سبب فقط، وأما من وجد غير الخير، فلا يلومن إلا نفسه؛ لأنه هو الذي تسبب في ذلك بأعماله السيئة، فلا يلومن إلا نفسه، ولا يلوم القضاء والقدر؛ كما سبق لنا أن القضاء والقدر يحتج بهما في المصائب والصبر عليها، وأما المعاصي والذنوب، فلا يحتج بالقضاء والقدر عليها، وإنما يلوم الإنسان نفسه، فلا يلومن إلا نفسه، وهذا موافق لما سبق بأنه لا يحتج بالقضاء والقدر على الكفر والشرك والمعاصي، ولكن على الإنسان أن يلوم نفسه؛ لأنه هو الذي قدم لنفسه هذا الشيء، ولهذا إذا دخل أهل النار النار، يطلبون أن يردوا إلى الدنيا؛ ليعملوا، عرفوا أنهم ما دخلوا النار إلا بكفرهم وأعمالهم، فيطلبون الرجوع؛ ليحسنوا العمل، اعترفوا أنهم إنما دخلوا النار بسبب سوء أعمالهم، فيطلبون الرجوع لإصلاح أعمالهم.

وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْحَقِيقَةِ، [١] وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِخَلْقِهِ وَمَشِيئَتِهِ، [٢].

الشرح:

[١] الحقيقة حقيقتان:

حقيقة كونية: تتعلق بمشيئة الله، وهذه لا دخل للعبد فيها، هذه قضاء الله وقدره.

الحقيقة الشرعية: وهذه هي التي للإنسان سبب في كونه عمل بما شرعه الله من الطاعات والخيرات، أو أنه أهمل ذلك، هذه هي الحقيقة الشرعية.

الحقيقة الكونية ليس من لازمها أن الله يحبها ويرضاها، الكفر هذا حقيقة كونية، الله قدره وقضاه، لكنه لا يحبه، لكن قدره لحكمة، وأما الحقيقة الشرعية، وهي الأوامر التي أمر الله بها، فإن الله يحبها ويرضاها ﷻ، فهو يحب المؤمنين، ويحب الأعمال الصالحة، ويكره الذنوب والمعاصي والكفر والشرك بالله ﷻ.

[٢] يتعلق بالحقيقة الكونية فقط؛ كحالة الجبرية والصوفية، وأيضا الذين يتعلقون بالقضاء والقدر فقط، وهذا خطأ وضلال، هناك حقيقة شرعية أمر الله بها؛ الأوامر والنواهي والأحكام، كل هذه حقيقة شرعية، هم أغفلوها، وأخذوا الحقيقة الكونية فقط، فلابد أن الإنسان يفرق بين القضاء والقدر، وبين الأمر والشرع -كما يأتي من كلام الشيخ-، لابد يفرق بينهما.

وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِرِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِالْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ مُوَافِقًا لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ، [١] وَبَيْنَ مَنْ يَقُومُ بِوَجْدِهِ وَذَوْقِهِ غَيْرَ مُعْتَبِرٍ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. [٢].

الشرح:

[١] فالحقيقة الكونية ليس من لازمها الرضا والمحبة، بل قد يكون فيها رضا ومحبة، وقد لا يكون، أما الشرعية، فمن لازمها الرضا والمحبة.

[٢] وهناك من يعمل بذوقه وعقله وما تميل إليه نفسه، وهذا هو الضلال؛ لأن الواجب أن يعمل بما شرعه الله ﷻ، أما الذوق والعقل، فهذا لا دخل له في الأعمال الشرعية، فلو كان العقل يكفي، لما أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، ولوكلهم إلى عقولهم، فالعقل والذوق، وكون الإنسان يفرح بهذا الشيء، أو يتلذذ به، فليس ذلك دليلا على أن هذا الشيء مستحسن، قد يستحسن الإنسان القبيح، وقد يكره الصحيح؛ يكره الطاعة والعمل الصالح، ويحب الشر والفسوق والعصيان، فليس ما يشتهيه الإنسان ويتذوقه دليلا على أنه مستحسن؛ قد يستحسن الإنسان شرا، وقد يكره خيرا: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فليس المقياس أن يرتاح الإنسان لهذا الشيء، أو يميل إليه، أو أن عقله يدله عليه، ليس هذا هو المقياس، بل المقياس هو الشرع المطهر.

كَمَا أَنَّ لَفْظَ الشَّرِيعَةِ يَتَكَلَّمُ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى. [١].

الشرح:

[١] كما أنهم أخطؤوا في قضية العقل والذوق والوجد، واتخذوه مقياسا، كذلك من الناس من يتعلق بالشرع، لكنه لا يفرق بين الشرع المنزل، والشرع المبدل، والشرع المؤول، ما يفرق بين هذا وهذا:

الشرع المنزل: هو ما أنزله الله ﷻ بمعناه وحقيقته ومدلولاته.

الشرع المبدل: هو الذي يكون من افتراءات الباطنية والإسماعيلية وأهل الضلال، هذا شرع مبدل، إنما هو شرع من عندهم هم.

الشرع المؤول: هذا هو الذي يدخله الاجتهاد، ومنه ما هو خطأ؛ الاجتهاد يخطئ ويصيب، هذا شرع مؤول، فما أصاب الحق من الاجتهادات، يؤخذ به، وما أخطأ، فإنه يترك.

الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ؛ [١] فَإِنَّ هَذَا الشَّرْعَ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ الْخُرُوجُ عَنْهُ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْهُ إِلَّا كَافِرٌ، [٢] وَبَيْنَ الشَّرْعِ الَّذِي هُوَ حُكْمُ الْحَاكِمِ، فَالْحَاكِمُ تَارَةً يُصِيبُ وَتَارَةً يُخْطِئُ، [٣].

الشرح:

[١] هذا هو الشرع المنزل الذي عليه الأنبياء والمرسلون وعباد الله الصالحون، هذا الشرع المنزل.

[٢] ليس لأحد أن يخرج عن الشرع المنزل، لا يخرج عنه إلا كافر؛ لأنه خرج عن أمر الله؛ مثل إبليس ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، فدل على أن الواجب على العبد أن يمتثل الأمر، فإن عصى الأمر، صار فاسقا.

[٣] هذا هو الشرع المؤول، الشرع المؤول يدخل فيه حكم الحاكم - يعني: القاضي -؛ قد يصيب الحق، وقد يخطئ، لكنه كما قال ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»(١) على اجتهاده؛ لأنه يريد الحق، فهذا هو الشرع المؤول، وليس من شأنه الصواب، قد يخطئ، وسيأتي أن القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار.

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٦١).

القاضي الذي في الجنة: هو الذي عرف الحق، وحكم به.

والقاضيان اللذان في النار:

الأول: الذي عرف الحق، وقضى بخلافه؛ فهو في النار.

والثاني: الذي لم يعرف الحق، لا يعرف الحق (جاهل)، حكم بجهل، فأخطأ، وجمع بين الجهل والخطأ، هذا في النار؛ لأنه ليس للجاهل أن يحكم، ولا أن يجتهد، وهو جاهل، فإذا فعل، فهو في النار؛ لأنه ليس عنده مؤهلات للاجتهاد.

هَذَا إِذَا كَانَ عَالِمًا عَادِلًا ، [١].

الشرح :

[١] إذا كان عالما عادلا ، يصيب ويخطئ، أما إذا كان جاهلا ، فإنه لايجوز له أن يحكم، وكذلك إذا كان عالما بالحق، لا يجوز له أن يتركه، ويحكم بالهوى، وبغير الحق، بل يجب أن يحكم بينهم بما أنزل الله : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، هذا هو الواجب على العالم، وعلى القاضي بالذات؛ ألا يحكم بهواه، وإنما يحكم بما أنزل الله، وإذا كان عالما، واجتهد، وأخطأ، فهو معذور، وإن أصاب، فله أجران، أما إذا كان جاهلا ، فليس له من الأصل أن يدخل في هذا الشيء، فإن دخل، فهو في النار؛ لأنه حكم بغير علم .

وَإِلَّا فَفِي (السُّنَنِ) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ؛ [١] رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، [٢] وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِغَيْرِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»، [٣] وَأَفْضَلُ الْقُضَاةِ الْعَالِمِينَ الْعَادِلِينَ: سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ»(١). [٤].

الشرح:

[١] علم الحق، وقضى به، فهو في الجنة؛ لأنه قضى بعلم، وأصاب الحق.

[٢] رجل ليس عنده علم؛ فلا يجوز أن يقضي بين الناس، وليس عنده علم.

[٣] لأنه تعمد -والعياذ بالله- القضاء بالباطل، وهو يعرف الحق، لكن هواه انحرف به.

[٤] هذه مسألة عظيمة، وهي أن القاضي يقضي في الظاهر على نحو ما يسمع، وأما في الباطن، فحكمه إلى الله ﷻ، فإذا اجتهد القاضي، وحكم

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

بناء على الظاهر، وفي الباطن الحكم خطأ، فهذا اختلفوا فيه: هل حكم الحاكم يحل له ما قضي له به، أو لا يحله له؟ الصحيح أنه لا يحله له، حكم الحاكم لا يحل الحرام، ولا يحرم الحلال في الباطن، بل تعاد الخصومات يوم القيامة، ويقضي الله بين الناس، فمن علم من الخصوم أنه مخطئ في دعواه أو مزور في بينته، فإنه يجب عليه التوبة إلى الله ورد الحق إلى أهله، ولا يأخذه. هذا القاضي يحكم، لا يعلم الغيب، حتى الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، هو يقضي على نحو ما يسمع للبينة بالشهود، يقضي بالشهود، وربما يكون أحد الخصوم عنده بلاغة وفصاحة، فيزور الحجة، والآخر مسكين، ليس عنده فصاحة ولا بلاغة، وهو المحق، لكن ليس عنده لسان، ولا قوة بيان، فيتغلب عليه الفصيح البليغ، والقاضي يحكم على نحو ما يسمع؛ لأنه لا يعلم الحقائق الباطنة، ما يعلمها إلا الله، فلا يسوغ لمن حكم له بظلم أن يأخذه، ويقول: هذا قضى لي القاضي فيه، بل عليه أن يرده: «فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ»، فهذا الرسول ﷺ، فكيف بغيره من القضاة؟! بعض الناس يقول: إذا حكم القاضي، هذا حق، وهو يعلم أنه كذاب، وأنه مزور، وأنه...، ويريد حكم الحاكم أن يسوغ له الشيء هذا، هذا لا يجوز، حكم الحاكم لا يقلب الباطل إلى حق، الباطل هو الباطل.

فَقَدْ أَخْبَرَ سَيِّدُ الْخَلْقِ أَنَّهُ إِذَا قَضَى بِشَيْءٍ مِمَّا سَمِعَهُ، وَكَانَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، لَمْ يَجُزْ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قَضَى بِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ. [١] وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَمْلَاكِ الْمُطْلَقَةِ إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ بِمَا ظَنَّهُ حُجَّةً شَرْعِيَّةً كَالْبَيِّنَةِ وَالْإِقْرَارِ، وَكَانَ الْبَاطِنُ بِخِلَافِ الظَّاهِرِ، لَمْ يَجُزْ لِلْمَقْضِيِّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا قُضِيَ بِهِ لَهُ بِالِاتِّفَاقِ. [٢].

الشرح:

[١] فليحذر الخصوم أن يأخذوا حقوق الناس بحكم الحاكم، وهم يعلمون أنهم مبطلون، وليحذر أيضا المحامون الذين يحامون عن الخصوم، ويفتحون مكاتب محاماة أن يخاصموا بالباطل، وأن يزوروا، وأن يقلبوا الحقائق على القاضي، ليحذروا من هذا، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، فلا يجوز للإنسان أن يتوكل، أو يحامي في قضية يعلم أنها باطلة، لا يجوز له ذلك.

[٢] بإجماع أهل العلم لا يحل له ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْت لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ».

وَإِنْ حَكَمَ فِي الْعُقُودِ وَالْفُسُوخِ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ [١] فَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ، وَفَرَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ ﷺ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ. [٢] فَلَفْظُ الشَّرْعِ وَالشَّرِيعَةِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا لِغَيْرِهِمْ أَنْ يَخْرُجَ عَنْهُ، [٣].

الشرح:

[١] الحديث عام في العقود وفي الفسوخ: كالطلاق، وغيره من فسوخ العقود. لعموم الحديث.

[٢] فرّق بين العقود والفسوخ: فعنده أن حكم الحاكم يكون في العقود إذا صارت خطأ، والقاضي لا يدري، فليس للمبطل أن يأخذ ما قضي به، أما الفسوخ كالطلاق، فلا يجوز للقاضي أن يحكم إلا بتثبت. لا يكتفي بالظاهر، بل يتأكد، ويتحقق من الأمر.

[٣] الناس على ألسنتهم دائما الشرع، يريدون بذلك حكم القاضي، يسمونه شرعا، ولكن الشرع الصحيح والحق هو ما أنزله الله ﷻ، أما حكم القاضي، فهو اجتهاد؛ يخطئ ويصيب، الشرع الذي لا يخطئ هو ما أنزله الله ﷻ، أما الشرع الذي هو حكم الحاكم، فهو يخطئ ويصيب، ولا تقل: أنا أخذت هذا الحكم الشرعي - يعني: بقضاء القاضي-؛ لأن القاضي يجتهد، وقد يصيب، وقد يخطئ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ غَيْرَ مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَلَمْ يُتَابِعْهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَهُوَ كَافِرٌ. [١] وَمَنْ احْتَجَّ فِي ذَلِكَ بِقِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ كَانَ غَالِطًا مِنْ وَجْهَيْنِ: [٢].

الشرح:

[١] هذا كغلاة الصوفية الذين يقولون: نحن وصلنا إلى الله. وبعضهم يقول: أنا آخذ عن الله مباشرة، ولا أحتاج إلى الرسل، إنما الرسل للعوام، أما الخواص، فليسوا بحاجة إلى الرسل. هذا كفر وإلحاد - والعياذ بالله -؛ فإنه ليس للناس طريق إلى الله ﷻ إلا عن طريق الرسل، فالذي يزعم أنه يستغني عن الرسل، هذا ملحد، وإن كان يزعم أنه من أولياء الله، فهو من أولياء الشيطان، ليس من أولياء الله.

[٢] يحتجون بأنه يجوز للإنسان أن يخرج عن الشريعة إذا كان عنده ذوق، أو أنه يزعم أنه ولي من أولياء الله، فليس بحاجة إلى الرسول، ويحتجون بقصة الخضر مع موسى عليه السلام، فإن الخضر في وقت موسى، ومع هذا هو ليس من أتباع موسى. نقول: موسى عليه السلام رسالته ليست عامة كرسالة نبينا محمد ﷺ، ولذلك قد يكون في الزمان الواحد والوقت الواحد أنبياء متعددون، وكل له شريعة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ لأن الرسالات السابقة ليست عامة، أما رسالة نبينا محمد ﷺ، فهي عامة للثقلين - الجن والإنس -، فلا يسع أحدا الخروج عنها، مهما بلغ من الولاية ومن العلم، ليس له أن يخرج عنها، بخلاف الخضر؛ فإن رسالة موسى عليه السلام

ليست عامة، وإنما هي خاصة ببني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ يعني: بني إسرائيل، فهو رسول إلى بني إسرائيل، وليست رسالته عامة للثقلين؛ كنبينا محمد ﷺ، ولذلك وسع الخضر أن يخرج عن شريعة موسى؛ لأن شريعة موسى خاصة، لا تتناول كل أهل الأرض.

والخضر عبد صالح، اختلفوا فيه: هل هو نبي أو ولي من أولياء الله؟ عنده علم، أعطاه الله علما، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: ٦٥]، فهو عنده علم من الله ﷻ، وليس من ذوقه، أو من وجده، أو من. . . ، بل من الله، أعطاه الله له، وقيل: إنه نبي يوحى إليه. رجح بعض العلماء أنه نبي، ومنهم الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرجح أن الخضر نبي؛ لأنه ظهر على يده معجزات لا تكون إلا للأنبياء، والفريق الثاني على أنه عالم وولي من أولياء الله.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ، [١] وَلَا كَانَ عَلَى الْخَضِرِ اتِّبَاعُهُ؛ فَإِنَّ مُوسَى كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَرِسَالَتُهُ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَوْ أَدْرَكَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْخَضِرِ - كَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى - وَجَبَ عَلَيْهِمُ اتِّبَاعُهُ، فَكَيْفَ بِالْخَضِرِ، سَوَاءٌ كَانَ نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا؟! [٢].

الشرح:

[١] رسالة موسى عليه السلام خاصة، وليست عامة، لا تعم الخضر، ما عمت أهل الأرض كلهم مثل رسالة محمد ﷺ، وقال ﷺ لما ذكر خصائصه، قال: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي**» ذكر منها «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**»(١) وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

[٢] كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾؛ يعني: محمدا ﷺ، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، أخذ الله الميثاق على الأنبياء جميعا أنه

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

لو بعث محمدا ﷺ، ومنهم أحد حي أنه لا يسعه إلا اتباعه، فكيف بغيرهم؟! وعلى الخلاف: سواء كان نبيا أو وليًّا، ما يلزمه اتباع موسى؛ لأنه لم يرسل إليه، وبهذا يجزم بأن الخضر ميت؛ ردا على الذين يزعمون أنه حي؛ لأنه لو كان حياء، لجاء إلى الرسول ﷺ، واتبعه.

وَلِهَذَا قَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: «إِنَّا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَاتَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ»(١). [١] وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا. [٢].

الثاني: أَنَّ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ لَمْ يَكُنْ مُخَالِفًا لِشَرِيعَةِ مُوسَى عليه السلام، لَمْ يَكُنْ عَلِمَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُبِيحُ ذَلِكَ، [٣].

الشرح:

[١] فدل على أن الخضر عنده علم؛ كما أن موسى عليه السلام عنده علم.

[٢] ليس لأحد أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ، ويقول: أنا عندي علم ليس عند محمد ﷺ. كما قاله الخضر مع موسى، ليس لأحد أن يقول هذا؛ لأن الله أوجب على الخلق اتباعه ﷺ.

[٣] الجواب الثاني: أن الخضر لم يعمل أشياء مخالفة لشريعة موسى عليه السلام؛ فلم يكن لأحد أن يخرج على الشريعة، ويحتج بالخضر؛ لأن الخضر لم يعمل شيئا يخالف شريعة موسى عليه السلام، لكن فعل أشياء خفيت على موسى عليه السلام، فلما وضحها له، أقره على ذلك واعترف له.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

فَلَمَّا بَيَّنَهَا لَهُ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ خَرْقَ السَّفِينَةِ ثُمَّ تَرْقِيعُهَا لِمَصْلَحَةِ أَهْلِهَا خَوْفًا مِنَ الظَّالِمِ أَنْ يَأْخُذَهَا إِحْسَانٌ إِلَيْهِمْ، [١] وَذَلِكَ جَائِزٌ، [٢] وَقَتْلُ الصَّائِلِ جَائِزٌ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، [٣].

الشرح:

[١] قصة خرقه للسفينة في البحر، وقصة قتله للغلام، وقصة إقامته للجدار في البلد الذي لم يضيفوه، هذه تخفى على موسى، فبينها له الخضر: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

[٢] موسى عليه السلام قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١] هذا في الظاهر، ولم يكن يعلم مقصود الخضر، الخضر علم أن هناك ملكا غاصبا يأخذ كل سفينة صالحة، فالخضر عليه السلام خرقها ليعيبها؛ فلا يأخذها ذلك الجبار، ثم رقعها، فإذا رأى الملك هذه السفينة مرقعة، تركها.

[٣] وقتله للغلام لأنه خاف على أبويه أن يضلهما إذا كبر؛ لأن الله أطلعه على أن هذا الغلام لو كبر، لأضل أبويه، فقتله؛ لأن هذا له حكم الصائل، والصائل يجوز قتله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١]، فهو من باب قتل الصائل؛ لأنه لو كبر، لصال على والديه، فأضلهما، وهذا مما أطلعه الله عليه. لو جاء واحد يريد أن يقتلك، وهو صغير له سبع سنين، ولا يندفع إلا بقتله، تقتله. فهذا الغلام صائل على أبويه، علم الخضر بما علمه الله أنه لو كبر، لصال على أبويه بالكفر والطغيان.

وَمَنْ كَانَ تَكْفِيرُهُ لِأَبَوَيْهِ لَا يَنْدَفِعُ إِلَّا بِقَتْلِهِ جَازَ قَتْلُهُ. [١] قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لِنَجْدَةَ الْحَرُورِيِّ(١) [٢] -لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ قَتْلِ الْغِلْمَانِ- قَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ عَلِمْتَ مِنْهُمْ مَا عَلِمَهُ الْخَضِرُ مِنْ ذَلِكَ الْغُلَامِ، فَاقْتُلْهُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَقْتُلْهُمْ»(٢). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

الشرح:

[١] من كان دفعه عن حمل أبويه على الكفر لا يندفع إلا بقتله، جاز قتله.

[٢] نجدة الحروري من رؤوس الخوارج، سأل ابن عباس عن قتل الغلمان: هل يجوز أو لا يجوز؟ لأن الخوارج ديدنهم القتل وسفك الدماء، فيقتلون الصغار والكبار، الصغار لا يجوز قتلهم إلا إذا أُعطي الإنسان ما أعطيه الخضر، من أنه يعلم مآلهم، وما يكون من شأنهم، ويعلم أنهم سيفسدون في الأرض، فيقتلهم. أما إذا كان لا يعلم، فلا يجوز قتل الصغار.

---

(١) نجدة بن عامر الحروري من رؤوس الخوارج، وزاد على معتقد الخوارج أن من لم يخرج ويحارب المسلمين فهو كافر، ولو اعتقد معتقدهم، خرج باليمامة عقب موت يزيد بن معاوية، وقدم مكة، وله مقالات معروفة، وأتباع انقرضوا، ووقع ذكره في صحيح مسلم، وأنه كاتب ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن سهم ذي القربى وعن قتل الأطفال الذين يخالفونه، وغير ذلك، قُتل سنة ٦٩هـ. انظر: لسان الميزان (٦/ ١٤٨)، والأعلام للزركلي (٨/ ١٠)، والكامل لابن الأثير (٤/ ٢٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨١٢).

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى الْيَتِيمِ بِلَا عِوَضٍ وَالصَّبْرُ عَلَى الْجُوعِ، [١].

الشرح:

[١] هذا الأمر الثالث، وهو اليتيمان، لما بنى الجدار، وأهل القرية لم يطعموهم، قال له موسى: كيف تبني لهم جدارا، وهم لم يطعمونا؟ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢]؛ يعني: لو ترك الجدار، ظهر الكنز، فهو بنى الجدار ليستر الكنز ويخفيه، هذا إحسان إلى الأيتام، وليس إحسانًا إلى أهل القرية ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ هذا من أمر الله ﷻ.

وأما قوله (إحسان بلا عوض)؛ لأنه قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]؛ يعني: عوضًا، هو بناه بلا عوض.

صبر الخضر عليه السلام على الجوع مع موسى عليه السلام؛ لأنهم لم يضيفوهما، فأحسنا إلى الأيتام، وصبرا على الجوع.

فَهَذَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مُخَالِفًا شَرْعَ اللَّهِ. [١] وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِالشَّرْعِ حُكْمُ الْحَاكِمِ؛ [٢].

الشرح:

[١] فما كان الخضر في هذا مخالفا شرع الله، ولهذا قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ تأويل يعني: تفسير، تفسير ما غمض على موسى عليه السلام.

[٢] **الأول**: أن يراد بالشرع ما أنزل الله تبارك وتعالى.

والأمر الثاني: أن يراد بالشرع حكم الحاكم؛ كما عند العوام الآن قولهم: الشرع حكم لي... إلى آخره، والتعبير هذا فيه نظر؛ لأن حكم الحاكم ليس الشرع، ولكنه اجتهاد منه؛ ولهذا كان من وصية النبي ﷺ لبعض قواده: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، أَمْ لاَ»(١)؛ لا تقل: هذا هو الشرع، قل: هذا هو قضاء القاضي؛ لأنه اجتهاد يكون مصيبا، أو يكون مخطئا، يكون مصيبًا، وله أجران، أو يكون مخطئًا، وله أجر واحد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بريدة رضي الله عنه.

فَقَدْ يَكُونُ ظَالِمًا، وَقَدْ يَكُونُ عَادِلًا، وَقَدْ يَكُونُ صَوَابًا، وَقَدْ يَكُونُ خَطأً، [١] وَقَدْ يُرَادُ بِالشَّرْعِ قَوْلُ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ: [٢] كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَالثَّوْرِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْأَوْزَاعِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ(١)، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَد، وَإِسْحَاقَ(٢)، وَدَاوُدَ(٣)، وَغَيْرِهِمْ، [٣].

الشرح:

[١] حكم الحاكم يحتمل هذه الأمور: أنه ظالم، أو أنه عادل، أو أنه مخطئ، أو أنه مصيب، هذه الأمور لا ترد على شرع الله ﷻ؛ شرع الله معصوم.

[٢] وقد يراد بالشرع أيضا قول أئمة الفقه المجتهدين، ولهذا تجدون بعض السائلين يقول: أعطني شرع الله في هذه المسألة، أعطني حكم

---

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث، الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية، ولد سنة ثلاث وتسعين، واستقل بالفتوى والكرم بمصر، كان ورعًا فاضلًا كثير الحديث، توفي سنة ١٧٥هـ. انظر: صفة الصفوة (٤/ ٣٠٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ١٣٦).

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن راهويه عالم المشرق، وأحد الأئمة المجتهدين، له تصانيف منها المسند، جمع الحديث، وأخذ عنه أحمد والبخاري، ومسلم والترمذي، والنسائي، سكن نيسابور ومات بها سنة ٢٣٨هـ. انظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٠٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٣٥٨).

(٣) أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني الملقب بالظاهري، ولد في سنة ٢٠٢، ومات سنة ٢٧٠هـ، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه، وأبي ثور، وكان زاهدًا متقللًا. انظر: طبقات الفقهاء (ص١٠٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ١٠٢).

الله في هذه المسألة، أسألك عن حكم الله. هذا سؤال لا يجوز، ولكن يقول: ماذا ترى لي أنت؛ بناء على ما يظهر لك من شرع الله ﷺ؟

[٣] كأبي حنيفة معروف، والثوري: سفيان الثوري الإمام الجليل.

والأوزاعي إمام أهل الشام.

وفي مصر الليث بن سعد إمام أهل مصر.

وإسحاق بن راهويه وداود الظاهري.

فَهَؤُلَاءِ أَقْوَالُهُمْ يُحْتَجُّ لَهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِذَا قَلَّدَ غَيْرَهُ حَيْثُ يَجُوزُ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا، [١].

الشرح:

[١] هؤلاء أقوالهم يحتج لها، ولا يحتج بها، إنما يحتج بالكتاب والسنة، أما أحكام الفقهاء، فهذه يحتج لها، فما وافق الدليل، فهو حق، وما خالف الدليل، فهو خطأ. الآن يتمتمون بالخلافات، وأن الناس يسعهم ما يفعلون؛ لأنه ليس هناك شيء إلا وفيه خلاف بين الفقهاء، فيقولون: هذا من سماحة الشريعة، يجعلون خلاف الفقهاء شريعة، وهذا من الجهل أو من الضلال، الشريعة حكم الله وحكم رسوله ﷺ، أما أقوال الفقهاء، فإنها قابلة للخطأ والصواب: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فأقوال الفقهاء ترد إلى الله والرسول؛ إلى الكتاب والسنة.

وإذا قلد أحدا منهم حيث يجوز ذلك، يجوز.

الذي يجوز له التقليد من هو؟ هو العامي، والمبتدئ في طلب العلم، هذا يجب عليه التقليد؛ لأنه لا يجوز له أن يجتهد، وهو ليس عنده أهلية، يجب عليه أن يقلد أحد الأئمة، وأيضا طالب العلم الذي يعرف الأدلة أحسن من العامي، وأحسن من المبتدئ، هذا عليه الترجيح، فإذا قلد أحد الأئمة، فلا يقلده تقليدا أعمى، وإنما يعرض أقواله على الأدلة، فإذا دل الدليل على مسألة، أخذ بها، سواء قال بها إمامه، أو قال به غيره؛ لأن المدار على الدليل، فالحنبلي إذا تبين له أن قول الحنفي هو الذي عليه الدليل،

يجب عليه أن يأخذ بقول الحنفي، هذا إذا كان عنده أهلية للترجيح ومعرفة الراجح من المرجوح، فلا يجوز له أن يجمد، ويقول: أنا حنبلي، أنا حنفي، أنا . . . ، أنا . . . ، بل عليه أن يعرض أقوال إمامه على الأدلة، فما وافق، أخذ به، وما خالف، تركه، وأخذ بالدليل؛ فالناس على ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة العوام والمبتدئين، هؤلاء لا يسعهم إلا التقليد؛ فهم ليسوا من أهل الترجيح، بل يقلدون.

الثانية: طبقة المتعلمين المتمكنين من الترجيح، فهؤلاء يرجحون، وهذا يسمى مجتهد المذهب، ومجتهد المذهب يرجح.

الثالثة: المجتهد المطلق؛ كالإمام أحمد، ومالك، وأبي حنيفة، والثوري، هذا مجتهد مطلق، عليه أن يأخذ الحكم من الكتاب والسنة، ولا يقلد أحدا، يحرم عليه التقليد. وهذا سبب احتراز الشيخ بقوله: (حيث يجوز ذلك)؛ لأن المجتهد المطلق لا يجوز له التقليد.

أَيْ لَيْسَ اتِّبَاعُ أَحَدِهِمْ وَاجِبًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ كَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَا يَحْرُمُ تَقْلِيدُ أَحَدِهِمْ كَمَا يَحْرُمُ اتِّبَاعُ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِ عِلْمٍ. [١].

الشرح:

[١] التقليد جائز للمحتاج والمضطر، وليس واجبا، إلا إذا كان عاميا، العلماء يقولون: مذهب العامي مذهب من أفتاه. قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فيسأل، وإذا أفتاه العالم، أخذ بقوله، ولا يلحقه شيء؛ لأن هذا منتهى قدرته، لكن ما يسأل أي واحد، وإنما يسأل من يثق بعلمه ودينه، ليس بعلمه فقط، بل دينه، وليس دينه فقط، بل لابد من العلم والدين، فيسأل من يثق بعلمه ودينه، ويأخذ بقوله، وليس اتباعه واجبًا إلا على المحتاج والعامي.

لا يجب اتباع أحد بعينه إلا الرسول ﷺ، أما من عدا الرسول من العلماء، فهذا يجوز اتباعه، إلا إذا خالف الدليل، فلا يجوز اتباعه مع مخالفة الدليل؛ ولهذا الشيخ في بعض كتبه يقول: من زعم أن أحدا يجب اتباعه غير الرسول ﷺ، وجب أن يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، ما يجب اتباع أحد من الخلق إلا الرسول ﷺ.

فالتقليد ليس حراما مطلقا، ولا جائزا مطلقا، لابد من التفصيل.

وَأَمَّا إِنْ أَضَافَ أَحَدٌ إِلَى الشَّرِيعَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا مِنْ أَحَادِيثَ مُفْتَرَاةٍ، أَوْ تَأَوَّلَ النُّصُوصَ بِخِلَافِ مُرَادِ اللَّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ نَوْعِ التَّبْدِيلِ[١] فَيَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ، وَالشَّرْعِ الْمُؤَوَّلِ، وَالشَّرْعِ الْمُبَدَّلِ[٢].

الشرح:

[١] الذي يستدل بالأحاديث المكذوبة، التي توافق هواه، هذا يبدل الشرع المنزل، يستبدل الأدلة من الكتاب والسنة بأدلة مكذوبة، هذا بدل الشريعة - والعياذ بالله -. والتبديل منه الافتراء بأحاديث مكذوبة، هذا واحد.

أو تأول النصوص بخلاف مراد الله؛ كتأويل الباطنية الذين يقولون: إن النصوص لها ظاهر، ولها باطن. وهم يأخذون بالباطن، والناس يأخذون بالظاهر، فهذا كفر - والعياذ بالله -، هذا تبديل لشرع الله، وهذا الثاني.

[٢] الشرع المنزل: هو الكتاب والسنة، والشرع المبدل: هو ما يعتمد على الأحاديث المكذوبة، أو يفسر بغير تفسيره، وغير مراد الله ﷻ؛ يقولون: هذا ظاهر، والباطن نحن نعلمه. فيجعلون للنصوص ظاهرا وباطنا، هؤلاء الباطنية، وهم أضل الناس - والعياذ بالله -، هذا الشرع المبدل، وأما الشرع المؤول، فهو محل الاجتهاد بين العلماء، فمنه ما يكون تأويله صحيحا، ومنه ما يكون تأويله غير صحيح، ولا يقال: باطل، بل يقال: خطأ.

كَمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ، وَبَيْنَ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، [١] وَبَيْنَ مَا يُكْتَفَى فِيهَا بِذَوْقِ صَاحِبِهَا وَوَجْدِهِ. [٢].

الشرح:

[١] كما سبق أن هناك حقيقة كونية، وهي القضاء والقدر، وحقيقة شرعية، وهي التي أمر الله بها، وأمر بها رسوله ﷺ.

[٢] هذا إعادة لما سبق من أن من الناس من يأخذ بذوقه ووجده وعقله، ويترك الكتاب والسنة.

فَصْلٌ

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِرَادَةِ، وَالْأَمْرِ، وَالْقَضَاءِ، وَالْإِذْنِ، وَالتَّحْرِيمِ، وَالْبَعْثِ، وَالْإِرْسَالِ، وَالْكَلَامِ، وَالْجَعْلِ، بَيْنَ الْكَوْنِيِّ الَّذِي خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ، وَلَا يُحِبُّهُ، وَلَا يُثِيبُ أَصْحَابَهُ، وَلَا يَجْعَلُهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، [١].

الشرح:

[١] لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الرد على من يحتجون بالقدر، وأنه ليس حجة لهم على فعل الكفر والمعاصي والشرك؛ لأنهم يقولون: إن الله قدر الكفر والإيمان والشرك والمعاصي، فمعناه أنه يرضى بالكفر، كما يرضى بالإيمان، ويرضى بالمعصية، كما يرضى بالطاعة؛ لأنه قدر الجميع، وقضى الجميع على الناس، فالطاعة عندهم موافقة القدر. الشيخ أراد أن يرد عليهم، ويقول: هناك فرق بين القدر وبين الشرع، الله فرق بينهما في كتابه، والطاعة هي موافقة الشرع، وليست موافقة القدر؛ القدر قد يكون طاعة، وقد يكون معصية، أما الشرع، فلا يكون إلا طاعة. الله فرق بين الأمرين في القرآن: فرق بين القضاء الكوني والقضاء الشرعي، الإرادة الكونية، والإرادة الشرعية، الإذن الكوني، والإذن الشرعي، وسيذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ نماذج من القرآن تفرق بين الأمرين؛ ردا على الذين يحتجون بالقدر.

وَبَيْنَ الدِّينِيِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ وَشَرَعَهُ، وَأَثَابَ عَلَيْهِ، وَأَكْرَمَهُمْ وَجَعَلَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ؛ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ الَّتِي يُفَرَّقُ بِهَا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، فَمَنْ اسْتَعْمَلَهُ الرَّبُّ ﷻ فِيمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، [١] وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ فِيمَا يُبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَعْدَائِهِ. [٢].

الشرح:

[١] الله فرق بين هذه الأشياء الكونية والشرعية، وفرق بين أوليائه وأولياء الشيطان، فالذين يتبعون شرعه وأمره هؤلاء أولياء الرحمن، والذين يتبعون قدره، ويخالفون شرعه، ويقولون: لا فرق بينهما. هؤلاء أولياء الشيطان.

[٢] فالله فرق بين المؤمنين والكفار، والمطيعين والعاصين، ولم يجعلهم سواء، وإن كان قدر عليهم جميعا الطاعة والمعصية، والكفر والإيمان، فهو فرق بينهما في الجزاء: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار؛ فلم يكونوا سواء: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، هذا خلاف العدل، الله ﷻ حكم عدل، لا يمكن أن يسوي بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والمؤمن والمنافق، لا يمكن أن يسوي بينهم؛ لأن المطيع اتبع أمره وشرعه ودينه، والعاصي اتبع معصيته والكفر به والشرك، ففرق بين العملين، وفرق بين العبدين، وفرق بين الجزاءين عند الله ﷻ. فعدم التفريق بين هؤلاء إلحاد في آيات الله ﷻ، وقد نجمت في هذا العصر فكرة خبيثة، وهي الحرية، وأن الناس أحرار،

وأنهم لا حجر عليهم، ولا مصادرة لآرائهم وأفكارهم، ولا يتقيدون بالشرع، وأن كل إنسان يقول ما يفعل، ويكتب ما يريد، ولو كان كفرا وإلحادًا؛ هذا من حرية الرأي، يقولون: من حرية الكلمة. هذا خروج عن شرع الله ﷻ، هذا يشبه قول هؤلاء (حزب الشيطان)، الذين لا يفرقون بين الشرع والقدر.

فَالْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ هِيَ مَشِيئَتُهُ لِمَا خَلَقَهُ، [١] وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلَةٌ فِي مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ هِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِمَا أَمَرَ بِهِ وَجَعَلَهُ شَرْعًا وَدِينًا. [٢].

الشرح:

[١] المشيئة هذه لا تنقسم، لا تكون إلا كونية، المشيئة لا تكون إلا كونية، وهي ترادف الإرادة الكونية.

[٢] جميع المخلوقات؛ من المؤمنين والكفار، والجن والإنس والشياطين، كلها داخلة في إرادته الكونية وخلقه ﷻ، كلهم خلقه، خلق إبليس والكفار، وخلق الأنبياء والمرسلين والمؤمنين، خلق هذا وهذا، من جهة الخلق لا فرق، أما من جهة الشرع والجزاء، فهناك فرق.

فالإرادة الكونية لا تستلزم المحبة والرضا، فقد يريد الله كونا وقدرا ما لا يحبه دينا، فالكفر أراده الله كونًا وقضاه، وهو لا يحبه، ولكن قدره وقضاه؛ ليمتحن عباده من باب الابتلاء والامتحان، ليتميز المطيع من العاصي؛ ولي الله من ولي الشيطان، من باب الامتحان والابتلاء، وإلا فهو لا يحبه. أما الإرادة الدينية، فإن الله يحبها، ويرضاها، وسيذكر الشيخ أمثلة في الإرادة الكونية والإرادة الشرعية من القرآن.

وَهَذِهِ مُخْتَصَّةٌ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، [١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥] **[٢] وَقَالَ نُوحٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾** [هود: ٣٤]، **[٣].**

الشرح:

[١] الإرادة الدينية مختصة بالإيمان وبالعمل الصالح، أما الإرادة الكونية، فهي لا تختص بالإيمان والعمل الصالح، هي تشمل الكفر والإيمان، تشمل العمل الباطل، والعمل الصالح، كله بقضاء الله وقدره.

[٢] هذه فيها الإرادتان، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾، هذه الإرادة الشرعية، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾، هذه الإرادة الكونية، ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ الهداية لها أسباب، وهي العمل الصالح. والضلال له أسباب، وهي المعصية والكفر.

[٣] ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الشاهد في قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ هذه الإرادة الكونية التي لا حيلة فيها.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، [١] وَقَالَ تَعَالَى فِي الثَّانِيَةِ[(١)]: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، هذه الإرادة الكونية ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾؛ فالله يريد السوء بمن يستحقه من الظلمة والطغاة والمشركين والكفار؛ لأن الله أراد بهم سوءا؛ حيث لم يقبلوا هدى الله ﷻ.

[٢] الإرادة الثانية: الشرعية. الآيات التي ذكرها هذه في الإرادة الكونية، والآيات الآتية هذه في الإرادة الشرعية. هذه إرادة شرعية، الله ﷻ رخص للمريض أن يفطر في رمضان، ورخص للمسافر أن يفطر في رمضان، ويقضيان من أيام أخر، ثم قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾؛ هذه إرادة شرعية، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، هذا مثال للإرادة الشرعية، التي يرضاها الله ﷻ، ويحبها.

---

(١) يعني: الإرادة الشرعية الدينية.

وَقَالَ فِي آيَةِ الطَّهَارَةِ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، [١].

الشرح:

[١] قال ﷻ في آية الطهارة من سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾ [المائدة: ٦]، فأمر بالطهارة من الحدث الأصغر، والطهارة من الحدث الأكبر، وهو الجنابة. والطهارة بماذا تكون؟ تكون بالماء، فإذا لم يجد الماء، فإنه يعدل إلى التيمم بالتراب، يضرب بيديه الأرض، ثم يمسح بهما وجهه وكفيه، والتراب طهور عند عدم الماء، أو العجز عن استعماله، ثم قال ﷻ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، هذا مثال للإرادة الشرعية.

وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَحَلَّهُ وَمَا حَرَّمَهُ مِنْ النِّكَاحِ، قَالَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨] [١].

الشرح:

[١] لما ذكر المحرمات من النساء المحرمات في النكاح من النساء من ذوات النسب وذوات السبب وذوات الرضاع، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٣-٢٤]؛ يعني: المزوجات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، ثم قال تَعَالَى بعد هذه الآيات ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]. فالإرادة في هذه الآيات كلها إرادة شرعية دينية.

وَقَالَ لَمَّا ذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، [١].

الشرح:

[١] لما ذكر ما وعظ به نساء النبي ﷺ، ذكر ﷻ أنه أراد من ذلك أن يطهر بيت النبي ﷺ؛ فهي إرادة شرعية، قال ﷻ في آيات الأحزاب: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣١- ٣٣]؛ الرجس هو النجاسة ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ بيت الرسول ﷺ، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣- ٣٤].

فالشاهد منه أن الله أراد من هذه الأوامر -التي وجهها لنساء نبيه أمهات المؤمنين- أنه يريد تطهير نساء النبي ﷺ من الأخلاق السيئة والمخالفات الشرعية، ويطهرهن من ذلك تطهيرا، فدل على أن لزوم الحجاب، ولزوم العفة والبيت والحياء، وتجنب التبرج، وتجنب المغازلات، والكلام الذي يجر إلى الشر أن ذلك طهارة للقلوب، وطهارة للأعراض، وطهارة للبيوت، وأما الملاحدة اليوم، فيقولون: لا، هذا كبت لحرية النساء، وهضم لحقوقهن، دعوا النساء يفعلن ما شئن، لا حجر عليهن. هكذا يقولون

-قبحهم الله-، فهم لا يريدون الطهارة للأمة، وإنما يريدون الرجس للأمة -قبحهم الله-، وكفى الله المسلمين شرهم، ونساء النبي هن القدوة، إذا كانت نساء النبي -وهن أطهر نساء على وجه الأرض- وجههن الله هذه التوجيهات، فكيف بغيرهن من سائر النساء من باب أولى؟!

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِمَا يُذْهِبُ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا فَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُ كَانَ مُطَهَّرًا قَدْ أُذْهِبَ عَنْهُ الرِّجْسُ بِخِلَافِ مَنْ عَصَاهُ. [١].

وَأَمَّا الْأَمْرُ، فَقَالَ فِي الْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، [٢].

الشرح:

[١] من أطاع أمر الله، فإن الله ﷻ يطهره من الرجس: الرجس الخلقي، والرجس الحسي. ومن عصاه، فإنه تنجس النجاسة الحسية، والمعنوية، فلا طهارة إلا بالإيمان والأخلاق الكريمة والعفة والنزاهة.

[٢] انتهينا من الإرادة، وعرفنا أمثلة الإرادة الكونية، والإرادة الشرعية الدينية؛ الأمر منه كوني، ومنه شرعي. لا يتأخر عن أمر الله ﷻ، ولا يستعصي، بل إنه يكون، ويوجد بمجرد أن يقول الله له: كن. هذا الأمر الكوني، الذي لايتخلف مقتضاه، أما الأمر الشرعي، فقد يتخلف مقتضاه، وقد يتحقق، أما الكوني، فلا يتخلف أبدا: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦]؛ لأن الله لا يأمر بالفسق شرعا، وإنما يأمر به كونا، ويشاؤه كونا؛ لحكمة منه ﷻ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، [١]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]. [٢].

الشرح:

[١] هذا في قيام الساعة: إذا أمر الله بقيام الساعة، لحظة كلمح بالبصر، هل هناك أسرع من لمح البصر؟! ليس هناك أسرع منه، الله إذا أمر بوجود شيء وخلق شيء، إنما هو كلمح البصر.

[٢] ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، يسلط الله عليها شيئا يتلفها، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾؛ أمرنا الكوني القدري ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، فذهب ما فيها من النبات والزخرف الزهر، في لحظة ليلا أو نهارا تصبح كأن لم تغن بالأمس، فالأمر الكوني لا يتخلف عنه مقتضاه، ويوجد في الحال، هذا أمر كوني.

وَأَمَّا الْأَمْرُ الدِّينِيُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، [١].

الشرح:

[١] أما مثال الأمر الديني، فهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾، إن الله يأمر أمرا شرعيا دينيا بالعدل، وهو القسط: العدل في القول، والعدل في الحكم، والعدل في كل شيء، وهو عدم الجور؛ العدل ضده الجور، العدل هو القسط، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]، فالعدل في كل شيء: في المكاييل، والموازين، وفي كل شيء، الله أمر بالعدل في كل شيء، ونهى عن الجور، والظلم. يأمر بالعدل، والقصاص عدل منه ﷻ؛ القصاص من القتلى، والقصاص في الجراحات والأطراف، والقصاص في الكلام أيضا، كل هذا من العدل، والإحسان فضل، العدل هذا هو الانتصاف من الظالم بمثل ظلمه، فيقتص من القاتل، ويقتص من الظالم والجائر بمثل ما اعتدى، من غير زيادة، من غير زيادة في القصاص، وأخذ الحق من المعتدي، ولكن أفضل منه الإحسان، وهو العفو؛ قال ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، هذا قصاص وعدل، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٠]، القصاص عدل، والعفو فضل، والفضل

أحسن وأفضل من العدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، وهو القصاص من المعتدين، ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وهو العفو عن المعتدي والتسامح؛ لأن هذا يجلب المودة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، القربى: كل من تربطك بهم قرابة؛ قرابة رحم من جهة الأب، أو من جهة الأم، لهم حق عليك، قال ﷻ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، فله حق عليك بعد حق الوالدين، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]، فبعد الوالدين القرابة من جهتهما؛ لهم حق عليك بالصلة؛ صلة الرحم، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، والفحشاء هي كل ما استقبح من المعاصي، فالفحشاء هي المعصية المستقبحة، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: سائر المعاصي، ينهى عن الكبائر والصغائر من المعاصي، ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾: وهو التعدي على الناس في دمائهم، أو في أموالهم، أو في أعراضهم، هذا بغي، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ﴾، فهذه الآية فيها الأمر الشرعي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، فهذا أمر شرعي ديني.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٥٨]. [١].

الشرح:

[١] ومن الأمر الشرعي الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾، أيها العباد ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾، وهي كل ما اؤتمنتم عليه من حق الله، أو من حق المخلوقين، فهو أمانة، يجب عليك أن تؤديها ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، الذين ائتمنوك عليها، لا تبخس منها شيئا، ولا تخن فيها، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، الشاهد من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ هذا أمر شرعي ديني.

وَأَمَّا الْإِذْنُ، فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ لَمَّا ذَكَرَ السِّحْرَ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ [١] أَيْ: بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿وَمَا هُم﴾ أي: السحرة، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي بالسحر، السحر يضر: إما بالقتل، وإما بالمرض، فهو يضر - نسأل الله العافية -، وهو من عمل الشياطين، ولكنه لا يضر أحدا إلا بإذن الله؛ إذن الله وقدره الكوني، فلا يمكن للسحرة أن يتسلطوا على أحد، ويؤذوه بسحرهم إلا بقضاء الله وقدره، فعلى المسلم أن يتوكل على الله، وأن يستعيذ بالله من السحرة ومن غيرهم، الشاهد من الآية: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إذنه الكوني، وإلا فإن الله لا يأذن بالسحر شرعا، بل ينكره ﷻ، ويكفر من فعله، وإنما هذا إذن كوني قدري. فإذا قدر الله أن السحر يضر، وقع الضرر منه، فهذا يستدعي من العبد أن يلجأ إلى الله، وأن يستعيذ به من السحرة وغيرهم.

[٢] وأما هم، فلا يستطيعون أن يضروا أحدا إذا لم يقدر الله الضرر؛ فهو الذي يسلط السحرة وغيرهم لحكمة منه ﷻ يبتلي بها العباد، أو جزاء على سيئاتهم، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فقد يسلط الله السحرة على إنسان بسبب ظلمه ومعصيته لله ﷻ.

وَإِلَّا فَالسِّحْرُ لَمْ يُبِحْهُ اللَّهُ ﷻ، [١] وَقَالَ فِي الْإِذْنِ الدِّينِيِّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، **[٢] وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، **[٣].**

الشرح:

[١] السحر لم يبحه الله؛ لأنه كفر، والله لا يرضى بالكفر، وهو من عمل الشياطين، وهو ضرر على الناس؛ فالله لا يبيحه.

[٢] يعني ما لم يشرعه الله؛ فالإذن يكون شرعيا؛ كما أنه يكون قدريا. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ هذا في الذين يحللون ويحرمون بدون دليل من كتاب الله أو من سنة رسوله، فهؤلاء شرعوا للناس شرعا لم يشرعه الله، لم يأذن به الله ﷻ، وقالوا على الله بغير علم.

[٣] قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾، هذه شهادة للرسول ﷺ بالرسالة، شهادة من الله ﷻ أن الله أرسله، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، شاهدا على هذه الأمة، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] على هذه الأمة، كل أمة يوم القيامة يشهد عليها نبيها أنه قد بلغها، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ مبشرا للمؤمنين بالجنة، ونذير للكافرين

بالنار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]؛ تدعو الكفار إلى الإسلام، وتدعو العصاة والمذنبين إلى التوبة، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بشرعه، هذا محل الشاهد، فالرسول جاء بإذن من الله؛ أي: بشرع من الله أنزله عليه، وأوحاه إليه. فهذا فيه دليل على الإذن الشرعي.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر: ٥]. [٢].

الشرح:

[١] عموم الرسل من أولهم إلى آخرهم، ما أرسلهم الله إلا لأجل أن يطاعوا؛ لأن من أطاعهم، فقد أطاع الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فما أرسلهم إلا لأجل أن يطاعوا بإذن الله؛ أي: بشرعه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بشرعه، هذا محل الشاهد، فدل على أن الإذن يكون شرعيًّا؛ كما أنه يكون قدريًّا.

[٢] هذا في غزوة بني النضير؛ أن الرسول ﷺ غزاهم في مكانهم هو وصحابته الكرام، وحاصروهم، وقطعوا بعض النخيل نكاية بهم، فقال ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾؛ أي: من نخلة، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بشرعه، وأن الله أذن لكم بذلك، وشرع لكم النكاية باليهود.

وَأَمَّا الْقَضَاءُ، [١] فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، [٢] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. [٣].

الشرح:

[١] في القضاء الكوني، القضاء ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني قدري، وقضاء شرعي ديني، القضاء الكوني ما مثاله في القرآن؟

[٢] ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾؛ أي: السماوات، ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، هذا قضاء كوني.

[٣] ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ﴾؛ أي: الله ﷻ ﴿أَمْرًا﴾؛ أي: قدره، وشاءه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ في الحال، لا يتأخر، إذا قال الله له: كن. فإنه يكون في الحال، الشاهد من قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: القضاء الكوني، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ أَيْ أَمَرَ، [١] وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ قَدَّرَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ عُبِدَ غَيْرُهُ؛ كَمَا أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ [٢] كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. [٣].

الشرح:

[١] هذا قضاء ديني شرعي؛ أي: أمر، ووصى. قضى أي: أمر، ووصى، وليس معناه: حكم وقدر - كما يقوله أهل الضلال -، وإنما معناه: أمر، ووصى ألا تعبدوا إلا إياه، شرع لكم هذا.

[٢] القضاء الشرعي لا يلزم أن يقع؛ قد يقع، وقد لا يقع، أما القضاء الكوني، فلا يتخلف، فلو أن معنى الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾؛ أي قدر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ما كفر أحد، ما أحد يتخلف عن القضاء الكوني لكن الناس انقسموا إلى: مؤمن، وكافر، إلى: مشرك، وموحد، فهذا دليل على أن المراد القضاء الشرعي، الذي يستجيب له من يستجيب، ويخالفه من يخالفه، والجزاء في المستقبل لهؤلاء وهؤلاء.

[٣] الدليل على أنه ليس القضاء الكوني أنه تخلف مقتضاه في كثير من الناس، فكثير من الناس أشركوا بالله، مع أن الله قضى ألا تعبدوا إلا إياه، فدل على أنه قضاء شرعي يفعله من يريد، ويتركه من يريد. فلو أن المراد بالقضاء القضاء الكوني، ما عبدوا هؤلاء؛ لأن هذا يخالف القضاء الشرعي.

وَقَوْلُ الْخَلِيلِ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، [١] وقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، [٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون]. [٣].

الشرح:

[١] لأن قوم إبراهيم أشركوا بالله، فلو أن المراد بالقضاء القضاء الكوني، ما خالفوا، ولا أشركوا.

[٢] ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فدل على أنهم عبدوا غير الله، ولو كان القضاء كونيا، ما عبدوا غير الله، فدل على أنه قضاء شرعي. ولو كان القضاء قدريا، لما كفروا بالله، بل آمنوا جميعا، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، لو شاء ذلك كونا وقدرا، ما تخلف أحد عن ذلك، ولكنه قضاه، وأراده شرعا ودينا، فمن الناس من امتثل، ومنهم من خالف.

[٣] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾، فدل على أن هناك من يعبد غير الله،

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾، فدل على أن هناك من يعبد غير الله، وهناك من يعبد الله، فالرسول ﷺ يعبد الله؛ امتثالا لأمره الشرعي، وأما الكفار، فهم يعبدون غير الله، فدل على أن المراد بالقضاء هنا ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أنه القضاء الشرعي.

ليس معنى ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ أنه كل على حق، أنا وأنتم - كما يقوله بعض الكتاب اليوم -، وأن كل الناس يعبدون الله: هذا على طريق اليهود، وهذا على طريق النصارى، وهذا على طريق كذا، والمسلمون يعبدون الله؛ فكل الناس يعبدون الله، يقولون: كل الناس يعبدون الله، هذا من جنس قول الملاحدة: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، فلا في فرق بين دين المسلمين ودين الكافرين، وليس قوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ أنني راض عن دينكم، ومقر لكم عليه، بل معناه: البراءة، معنى السورة وهذه الآية خصوصا: البراءة من دين المشركين، هذا معناها، وما تبرأ منه إلا لأنه باطل وكفر.

وَهَذِهِ كَلِمَةٌ تَقْتَضِي بَرَاءَتَهُ مِنْ دِينِهِمْ وَلَا تَقْتَضِي رِضَاهُ بِذَلِكَ؛ [١] كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١]. [٢].

الشرح:

[١] رضاه بدينهم، وأن كلنا نعبد الله؛ يقولون: وإن تعددت الطرق، فكلهم يعبدون الله. نقول: لا، الله لا يُعبد إلا بما شرع، ما يعبده الناس بأهوائهم ورغباتهم، إنما يعبد الله بما شرع، ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار، فهو من أكذب الناس وأكفرهم؛ كمن ظن أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، بمعنى قدر، وأن الله ﷻ ما قضى بشيء إلا وقع، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله، فإن هذا من أعظم الناس كفرا بالكتب. وأما لفظ البعث، فقال الله ﷻ في البعث الكوني: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ [الإسراء: ٥]، على لسان رسوله ﷺ، ليس هناك طريق إلا طريق الرسول ﷺ.

[٢] فهذه الآية تفسر قوله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١]؛ أن معناه البراءة من دينهم، وليس الإقرار لهم على دينهم، وأنه دين حق، وأن كلنا سواء، كلنا نعبد الله، وإن اختلفت الطرق. هذا كلام باطل.

وَمَنْ ظَنَّ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ أَنَّ هَذَا رِضَا مِنْهُ بِدِينِ الْكُفَّارِ، فَهُوَ مِنْ أَكْذَبِ النَّاسِ وَأَكْفَرِهِمْ؛ كَمَنْ ظَنَّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] بِمَعْنَى قَدَّرَ، وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا قَضَى بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَعَ، وَجَعَلَ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ كُفْرًا بِالْكُتُبِ [١] وَأَمَّا لَفْظُ الْبَعْثِ، فَقَالَ تَعَالَى فِي الْبَعْثِ الْكَوْنِيِّ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥]. [٢].

الشرح:

[١] من ظن أن هذا من الرسول ﷺ رضا بدين الكفار، فهو من أكذب الناس على الله وعلى رسوله؛ لأن الرسول لم يرض بدين الكفار، ولا أحد من المؤمنين يرضى بدين الكفار.

[٢] البعث على قسمين: بعث كوني قدري، وبعث شرعي. البعث الكوني مثل قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، قال ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤]؛ يعني: في التوراة التي معهم، (قضينا) يعني: أخبرناهم؛ القضاء يطلق أحيانا، ويراد به الإخبار: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أخبرناهم، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، والإفساد في الأرض: إفسادها بالمعاصي والكفر والشرك، وإصلاحها: بالطاعة والعبادة؛ فالأرض لا تصلح إلا بعبادة الله ﷻ، وأما الكفر بالله، فهو

إفساد في الأرض، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، فالإفساد في الأرض هو النفاق، والكفر، والمعاصي، وأما الطاعة والعبادة لله، فهي إصلاح في الأرض، ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾؛ بالكفر والمعاصي، يحصل منهم كفر ومعاصي مرتين، ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ يحصل منكم كبر وأشر وبطر، فعند ذلك يعاقبهم الله في المرتين، يعاقبهم الله في كل مرة على إفسادهم، وعلى كبرهم وطغيانهم، ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ [الإسراء: ٤- ٥]؛ أي: أولى المرتين، وأفسدتم في الأرض، ﴿بَعَثۡنَا﴾ هذا محل الشاهد: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ من الكفار؛ لأنه سبق أن كل الناس عباد لله؛ العبادة العامة، كلهم عباد الله، تنفذ فيهم أقداره وتدابيره ﷻ، لا يخرجون عن ذلك، كلهم عباد عبادة قهرية، أما العبادة الاختيارية، فهي للمؤمنين خاصة، العبودية الاختيارية هذه للمؤمنين خاصة، أما العبودية القهرية، فهي عامة للمؤمنين والكفار، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]، قوله: ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾؛ أي: من الكفار، يسلط الله الكفار على المسلمين بسبب الذنوب والمعاصي، ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾؛ أي: من الكفار، ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، والعياذ بالله معهم قوة وعتاد وبطش، ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، أفسدوا بلادكم، ودخلوا بيوتكم، ونهبوا أموالكم، ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾؛ بسبب الإفساد الذي حصل منكم، ﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: ٥-٦]، بعد ذلك

إذا تاب بنو إسرائيل، واستقاموا بعد النكبة، وعرفوا خطأهم، وأصلحوا شأنهم، أعاد الله لهم العزة، وأخرج الكفار من بلادهم، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الكفار الذين غزوكم في بيت المقدس، ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٦ - ٧]؛ أي: المرة الثانية؛ لأنه قال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، المرة الأولى مضت، المرة الثانية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: المرة الثانية.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾، إذا تبتم وأصلحتم، أعاد الله لكم عزكم، ونصركم على عدوكم؛ فأخرجتموهم من بلادكم، ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، إذا عصيتم مرة ثانية، وأفسدتم في الأرض، أعاد الله عليكم العقوبة، وأعاد عليكم العدو، فسودوا وجوهكم بالهزيمة النكراء -والعياذ بالله-، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ المسجد الأقصى، يدخلون المسجد، ويفسدون فيه، في بيت المقدس، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٧]؛ يعني: يهلكوا، ويتلفوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾؛ أي: علا بنو إسرائيل من الأموال والمباني والعمران، ﴿تَتْبِيرًا﴾؛ يدمروه تدميرا بسبب فسادكم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]؛ المرة الثالثة: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، وقد عادوا، فبعث الله نبيه محمدا ﷺ، ونصره الله عليهم، وقتلهم شر قتلة في وقعة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وسلط الله عليهم رسوله ﷺ، وأجلوا من جزيرة العرب، وفرقوا، وشتتوا - والعياذ بالله -، فهذه المداولات مع بني إسرائيل، كلما أفسدوا، سلط الله عليهم.

وَقَالَ فِي الْبَعْثِ الدِّينِيِّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. [٢].

وَأَمَّا لَفْظُ الْإِرْسَالِ، فَقَالَ فِي الْإِرْسَالِ الْكَوْنِيِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، [٣].

الشرح:

[١] والبعث الديني ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، بعثه؛ أي: أرسله، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، هذا في البعث الديني.

[٢] فهذا بعث خيري وبعث ديني؛ بعث الرسل، أما بعث الجبابرة والطغاة، فهذا بعث كوني؛ عقوبة، وأما البعث الديني، فهو نعمة ورحمة من الله ﷻ. وفي الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(١)، يبعث يعني: هذا بعث ديني.

[٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾، هذا إرسال كوني، وليس بإرسال شرعي؛ الإرسال الشرعي هو إرسال الرسل، أما إرسال الشياطين، فهذا إرسال كوني قدري، يسلط الله الشياطين على الكافرين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨] [١] وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] [٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، [٣].

الشرح:

[١] هذا إرسال كوني قدري، يرسل الرياح بشرا بين السحاب، هناك رياح تثير السحاب، وهناك رياح تجمع السحاب، وتؤلفه، وهناك رياح تفرق السحاب، وهناك رياح تلقح السحاب، وهناك رياح تحمل السحاب وتسيره، ولذلك قال الله: (رياح) متعددة، ليست ريحًا واحدة، وهناك رياح مهلكة - والعياذ بالله -، رياح رحمة ورياح عذاب، أرسلنا الرياح؛ يعني: إرسالا كونيا قدريا.

[٢] الإرسال الديني هو إرسال الرسل عموما، ومنهم نبينا محمد ﷺ، هذا إرسال ديني ورحمة للأمة؛ رحمة للعالم، أما الإرسال الكوني، فإنه يكون نقمة.

[٣] كذلك هذا إرسال ديني: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. [٢].

وَأَمَّا لَفْظُ الْجُعْلِ فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، [٣].

الشرح:

[١] الله أرسل إلينا رسولا - وهو محمد ﷺ -؛ كما أرسل الله إلى فرعون رسولا، وهو موسى عليه السلام: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦]، أنتم إن عصيتم، أخذناكم مثلما أخذنا فرعون وقومه.

[٢] الرسل على قسمين:

رسل من الملائكة، وهو الرسول الملكي.

ورسل من البشر: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ الرسل قسمان: بشري، وملكي.

[٣] وجعلنا الكفار: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ أي: قوم فرعون ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١] (جعلنا) هذا جعل كوني؛ يعني: صيرنا.

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. [٢].

الشرح:

[١] ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا﴾، هذا جعل شرعي ديني ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

[٢] أي: ما شرع الله ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، هذه أنواع كان المشركون يجعلونها في بهيمة الأنعام لأصنامهم، البحيرة: هي التي تشق أذنها؛ علامة على أنها للصنم، تشق أذنها، والسائبة: هي التي لايحمل عليها، إذا بلغت سنا معينا، أو أنتجت نتاجا من الأولاد معينا، سيبوها للأصنام، فلا تركب، ولا تحلب، ولا تؤكل؛ مسيبة للأصنام، ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾، إذا واصلت الحمل عدة مرات أيضا، سبلوها للأصنام -والعياذ بالله-، ﴿وَلَا حَامٍ﴾، يقولون: الفحل من الإبل إذا بلغ مبلغا من الضراب، فإنه يحمى، ظهره حام، يعني يحمى ظهره من الركوب والحمل، فيسيبونه، ولا ينتفعون منه(١). هذه تصرفات من المشركين، ما أنزل الله بها من سلطان، ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾؛ يعني ما شرع الله ذلك، وإنما هم الذين شرعوه لأنفسهم من دون الله ﷻ، حرموا ما أحل الله - والعياذ بالله -، الشاهد من قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما شرع الله ذلك، وإنما هذا من الكفار.

---

(١) انظر في تفسير الآية: زاد المسير (١/ ٥٩٢- ٥٩٣)، والقرطبي (٦/ ٣٣٥ - ٣٤١).

وَأَمَّا لَفْظُ التَّحْرِيمِ، فَقَالَ فِي الْكَوْنِيِّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، **[١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾** [المائدة: ٢٦]، **[٢].**

الشرح:

[١] (حرمنا) أي: منعنا، التحريم معناه: المنع، فالله منع موسى أن يرضع من امرأة لأجل ماذا؟ لأجل أن يرده إلى أمه، لما خافوا عليه الهلاك، ولم يرضع من امرأة، لم يقبل ثديها أبدا، عرضوا عليه المراضع، لم يقبل ثديها؛ لأن الله منعه، (حرم عليه) يعني: منعه؛ لأجل أن يرده إلى أمه؛ كي تقر عينها. فالشاهد قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا﴾؛ يعني: منعناه من الرضاع، هذا منع كوني، وإلا فالرضاع حلال في الشرع، ولكن الله منعه كونا وقدرا.

[٢] لما أبى بنو إسرائيل أن يدخلوا بيت المقدس؛ لأن فيه جبابرة، وهم جبناء لا يستطيعون مقابلة الجبابرة، في النهاية قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فعند ذلك قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، أنزل الله عليهم العقوبة، فقال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: دخولها ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لا يأوون إلى مبان وإلى بلاد، وإنما يكونون في البرية يتيهون، يذهبون، ويجيئون؛ عقوبة لهم، إلى أن أنشأ الله جيلا بعدهم شجعانًا، فدخلوا بيت المقدس، وهزموا المشركين، وطردوهم

منه. الشاهد في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾؛ أي: بيت المقدس ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦]؛ أي: ممنوعون من دخولها، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]؛ عقوبة لهم؛ لما أبوا أن يدخلوا مع نبيهم، ويُخرجوا المشركين من بيت المقدس (من المسجد الأقصى)، عاقبهم الله ﷻ، لكن رحمهم في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأرسل الغمام يظلهم من الشمس؛ رحمة منه ﷻ بهم.

وَقَالَ فِي الدِّينِيِّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]. [٢] وَأَمَّا لَفْظُ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ فِي الْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّةِ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]. [٣].

الشرح:

[١] هذا تحريم ديني، وليس بكوني، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ يعني: تناول لحوم الميتة، ﴿وَٱلدَّمَ﴾، وهو الدم المسفوح، ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾، وهو الحيوان القذر النجس المعروف.

[٢] حرم شرعًا ودينًا أن تتزوجوا من هؤلاء القريبات، أو المرضعات، أو المصاهرات، أو المزوجات.

[٣] أما انقسام كلمات الله إلى:

كلمات كونية: يدبر الله بها الأشياء، ويأمر بها.

وكلمات شرعية: يشرع الله فيها لعباده ما يصلحهم وما يقربهم إليه.

فقد جاءت في القرآن أيضا، وجاءت في السنة. في القرآن هذه الآية أن الله ذكر عن مريم بنت عمران أنها صدقت بكلمات الله الكونية، فآمنت بالقضاء والقدر، وصدقت بكتب الله الشرعية، التي هي كلماته الشرعية،

فهي صدقت بالكلمات الكونية والكلمات الشرعية، وهكذا المؤمن يصدق بالكلمات الكونية، ويصدق أيضا بالكلمات الشرعية، فلا يأخذ الكلمات الكونية فقط، ويترك الشرعية؛ كحالة الجبرية، ولا يأخذ بالشرعية فقط، ويترك الكونية.

وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَمِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ»(١). وَقَالَ ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»(٢)، وَكَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ»(٣). [١].

الشرح:

[١] فالحديثان الأولان: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» هذه الكلمات الشرعية، وأما قوله: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ...» في الحديث الثالث: «الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»؛ فهي الكلمات الكونية؛ لأن الكلمات الكونية قاضية على كل مخلوق، مؤمنا كان، أو كافرا،

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، وأحمد (٢/ ١٨١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولفظه: «إذا فَزِعَ أحدكم في النَّوْمِ، فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ من غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٣) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٥٠)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٤١٩)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٨).

لامناص له من إجراء الكلمات الكونية عليه والقضاء والقدر، أما الكلمات الشرعية، فإنما يلتزم بها أهل الإيمان، أما أهل الكفر، فيتجاوزونها، ولا يعملون بها، فهذه الأحاديث فيها الكلمات الشرعية، وفيها الكلمات الكونية.

وَكَلِمَاتُ اللَّهِ التَّامَّاتُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ هِيَ الَّتِي كَوَّنَ بِهَا الْكَائِنَاتِ، فَلَا يَخْرُجُ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ عَنْ تَكْوِينِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّةُ، وَهِيَ كُتُبُهُ الْمُنَزَّلَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَأَطَاعَهَا الْأَبْرَارُ وَعَصَاهَا الْفُجَّارُ. [١] وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُطِيعُونَ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ، وَجَعْلِهِ الدِّينِيِّ، وَإِذْنِهِ الدِّينِيِّ، وَإِرَادَتِهِ الدِّينِيَّةِ. [٢] وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ، حَتَّى إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ وَجَمِيعَ الْكُفَّارِ وَسَائِرَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، فَالْخَلْقُ وَإِنْ اجْتَمَعُوا فِي شُمُولِ الْخَلْقِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْقَدَرِ لَهُمْ، فَقَدْ افْتَرَقُوا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ. [٣].

الشرح:

[١] هذا هو الفرق ما بين الكلمات الكونية والشرعية: أن الكلمات الكونية لا يخرج أحد عنها، وأما الشرعية، فيخرج عنها الفجار والأشرار، ويعصونها.

[٢] وكذلك فإن أولياءه مطيعون لكلماته الدينية، وأما أعداؤه، فيعصون الكلمات الدينية، ولذلك إبليس لما أُمِرَ بالسجود، عصى. هذا أمر شرعي، أما لو كان أمرا كونيا، فما يقدر على أن يخالفه.

[٣] الافتراق إنما هو في الكلمات الدينية الشرعية، وأما الكلمات

الكونية، فلا افتراق فيها؛ كل يطيعها طوعا واختيارا: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، لا أحد يستطيع أن يخرج عن الكلمات الكونية، والمشيئة: مشيئة الله القدرية لا أحد يخرج عنها.

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ، وَتَرَكُوا الْمَحْظُورَ، [١] وَصَبَرُوا عَلَى الْمَقْدُورِ، [٢] فَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبُّوهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. [٣] وَأَعْدَاؤُهُ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ - وَإِنْ كَانُوا تَحْتَ قُدْرَتِهِ - فَهُوَ يُبْغِضُهُمْ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ. [٤].

الشرح:

[١] هم الذين امتثلوا الكلمات الدينية، ففعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه.

[٢] وصبروا على القضاء والقدر، لم يجزعوا، ولم يتسخطوا، فجرى عليهم القضاء والقدر، وهو الكلمات الكونية، رضوا بذلك، وامتثلوا أيضا الكلمات الشرعية، فعملوا بها؛ فجمعوا بين الأمرين.

[٣] كانت نتيجة ذلك أن الله ﷻ رضي عنهم، ورضوا عنه، وأحبهم، وأحبوه؛ لأنهم أطاعوه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه. أما الكفار، فإنهم عصوا أمره، فغضب الله عليهم، ولعنهم، ومقتهم.

[٤] لأنهم عصوا أمره، وخالفوا نهيه، فهو يبغضهم، ويمقتهم؛ لأنهم خالفوا شرعه ودينه، ولم ينفعهم أنهم وافقوا قضاءه وقدره وكلامه الكوني.

وَبَسْطُ هَذِهِ الْجُمَلِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ، وَإِنَّمَا كَتَبْت هُنَا تَنْبِيهًا عَلَى مَجَامِعِ الْفَرْقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَجَمْعُ الْفَرْقِ [١] بَيْنَهُمَا اعْتِبَارُهُمْ بِمُوَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ السُّعَدَاءِ وَأَعْدَائِهِ الْأَشْقِيَاءِ، [٢].

الشرح:

[١] ولذلك عنوان الكتاب: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، هذا هو الفرقان.

[٢] لما بعث الله محمدا ﷺ إلى الناس كافة، منهم من أطاعه، وآمن به؛ فنال رضا الله ﷻ وكرامته، ومنهم من عصى هذا الرسول، وكفر به؛ فنال غضب الله وسخطه ولعنته: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥-١٦]، فمن أطاع هذا الرسول، واتبع أمره، واجتنب نهيه، واقتدى به، فإنه ينال رضا الله، ومن خالف أمره، وكفر به، فإنه ينال غضب الله ﷻ، هذا هو الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ أن أولياء الرحمن أطاعوا الرسول، وأما أولياء الشيطان، فهم عصوا الرسول. ولو تركهم، ولم يرسل رسولا، لما حصل فرق، ولا تبين هذا من هذا، إنما يتبين هذا بإرسال الرسل وإنزال الأوامر والنواهي، هي التي تفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، أما لو لم ترسل الرسل، وتنزل الكتب، لما تميز هذا من هذا.

وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْدَائِهِ أَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ أَهْلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ، وَأَعْدَائِهِ حِزْبِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ. [١] قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، [٢].

الشرح:

[١] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، علق الجزاء بالوصف؛ الأبرار في نعيم؛ لبرهم، والفجار في جحيم؛ لفجورهم ومعصيتهم. فرق الله به بين هؤلاء وهؤلاء.

[٢] هذا مما فرق الله به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فأولياء الرحمن يوالون ويعادون في الله ﷻ، يوالون من أطاع الله، ويعادون من عصى الله؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ كفر بالله، وعصى الله ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ثبت الله الإيمان في قلوبهم، فنتج عنه أنهم أحبوا في الله، وعادوا في الله ﷻ، حتى أقرب الناس إليهم، ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ يعني: قواهم، وأمدهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: بقوة إيمان منه ﷻ ثبتهم على هذا الولاء والبراء، أما الذي لا يفرق بين المؤمن والكافر، وبين المطيع والعاصي، فهذا ليس بمؤمن: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾،

هذا ليس بمؤمن، الذي يقول: الناس سواء، وحرية الأديان، وحرية الرأي، ولا حجر على أحد. هذا ليس بمؤمن؛ لأنه لا يفرق بين مؤمن وكافر، فما دام أنه لا يفرق، والناس عنده سواء، فإنه ليس بمؤمن؛ الإيمان يقتضي التفريق.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢]. [١].

الشرح:

[١] هذا في غزوة بدر، لما أنزل الله الملائكة؛ لتثبت المؤمنين على لقاء العدو، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، الذين أنزلهم إلى بدر، ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ معية خاصة، معية نصرة وتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾، ثبتوهم أمام عدوهم كان من ذلك أن المؤمنين ثبتوا على قلتهم وكثرة عدوهم، الملائكة تثبتهم بإذن الله ﷻ: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾؛ الذين آمنوا، أما الكفار، فقال فيهم: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾، المؤمنون يلقي الله في قلوبهم الثبات في المعركة، وأما الكفار على كثرتهم وقوتهم، ألقى الله في قلوبهم الرعب، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾؛ فوق الأعناق؛ لأن القتل يكون في أعلى الرقبة مع المفصل فوق العظم، القتل والضرب بالسيف له موضع في الرقبة ليس فيه عظم، فوق الأعناق، ما قال: اضربوا الأعناق، بل قال: اضربوا فوق الأعناق(١)، ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ الأصابع التي يمسكون بها السلاح اضربوها؛ حتى لا يستطيعوا حمل السلاح، هذه نتيجة الكفر بالله ﷻ، فالله فرق بين المؤمنين والكفار، فرق بين أوليائه وأعدائه في هذه المعركة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٩٧، ١٩٨)، وابن كثير (٢/ ٢٩٣، ٢٩٤).

وَقَالَ فِي أَعْدَائِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١]، [١].

الشرح:

[١] لما كان المشركون يستحلون الميتة، التي ماتت بغير ذكاة، الله أمر المؤمنين أن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وهي المذكاة ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ [الأنعام: ١١٨- ١٢١]؛ أي: الأكل من الميتة فسق، إلا عند الضرورة، إذا كان الإنسان اضطر، وخاف من الموت، الله رخص له أن يأكل من الميتة لإبقاء حياته، ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾؛ أي: خروج عن طاعة الله ﷻ، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١]، جاء في تفسير الآية أن الفرس يوحون إلى الكفار - كفار الجاهلية - أن الميتة حلال؛ لأن الله ذبحها، الميتة الله ذبحها، أما المذكاة، فأنتم تذكونها، فكيف تأكلون مما ذكيتم، ولا تأكلون مما ذكى الله(١). هذا جدال باطل، مخالف لشرع الله ﷻ، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾؛ شياطين الإنس من فارس، وكذلك شياطين الجن: ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾؛ أتباعهم من الكفار الذين يأكلون الميتة، ويجادلون فيها، ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فمن أطاع أحدا في تحليل ما حرم الله، فإنه مشرك شرك الطاعة، من أطاع مخلوقا - أيا كان هذا المخلوق -

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٥، ١٦)، وابن كثير (٢/ ١٧١).

في تحليل ما حرم الله، وهو يعلم أنه مستحل لما حرم الله، فإنه مشرك -والعياذ بالله-؛ لأنه أطاع هؤلاء في أنهم شرعوا استباحة الميتة. والتحليل والتحريم حق لله، لا يجوز لأحد أن يحلل ويحرم من عنده؛ حق لله، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، الله هو الذي يشرع، وهو الذي يحل ويحرم، ولا دخل لأحد في ذلك، فمن استحل محرما مجمعا على تحريمه، كفر، وكذلك من أطاعه، وهو يعلم ذلك، يكفر مثله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أما من أطاعه، وهو لم يعلم أنه حلل ما حرم الله، فهذا يعتبر ضالا، ولكن لا يصل إلى حد الكفر.

وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] [١].

الشرح:

[١] يعني: ليس لك أيها الرسول خاصة، بل لكل نبي يكون له أعداء، ابتلاء وامتحان، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، من هم؟ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، فدل على أن الإنس منهم شياطين؛ مثلما أن الجن لهم شياطين، وشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، ويتآمرون في معصية الرسول ﷺ ومخالفته، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، فالرسل لهم أعداء من باب الابتلاء والامتحان، فهذا فيه التحذير من طاعة أعداء الرسل، ومن متابعتهم واستحسان قولهم. الشاهد في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فدل على أن هناك أولياء للشياطين من بني آدم.

وَقَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٧]، [١].

الشرح:

[١] هذا في القرآن قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣]، وهو جبريل ﵇: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)﴾ [الشعراء: ١٩٤ - ١٩٦]، مذكور القرآن أنه سيبعث هذا الرسول، وأن الله سينزل عليه هذا القرآن، عندهم خبر من هذا، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)﴾ [الشعراء: ١٩٧]، علماء بني إسرائيل يعلمون هذا القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]، صدقوا بالقرآن، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهم يعرفون هذا، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾؛ أي: دلالة على صحة هذا القرآن أن علماء بني إسرائيل يعرفونه، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)﴾ [الشعراء: ١٩٧][(١)]، إلى قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ١١٣)، وابن كثير (٣/ ٣٤٨).

ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]؛ لأنهم يقولون: إن هذا القرآن شعر، وإنه كهانة، وإنه أساطير الأولين، وإنه...، وإنه...، الله نفى عنه هذا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾، وإنما نزل به جبريل عليه السلام، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾؛ كما تتنزل على الكهان، فالرسل لا تنزل عليهم الشياطين، إنما ينزل عليهم الملك من الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾، الشياطين ما يقربون الوحي، وما يقربون القرآن؛ محروس محفوظ، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾، هناك شهب ترميهم، تبعدهم، إذا حاولوا استراق السمع، طردتهم الشهب الحارسة للسماء، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾، فالشياطين لا تقرب القرآن، لا تقربه عند النزول، ولا تقربه عند التلاوة، أيضا تفر من القرآن، تبعد عن القرآن، ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾، أنتم تقولون: إن القرآن من الشياطين، الله كذبهم وقال: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾، الشياطين لا تتنزل على الرسل أبدا، إنما تنزل على أعداء الرسل، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ من الكهان، ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾، هم يحاولون استراق السمع (الوحي والكلام) من السماء، ويرتفعون في الجو (في العنان) لاستراق السمع، ثم يأتيهم الشهاب، شهاب ثاقب، لكن أحيانا قد يخطف كلمة مما يسمع من السماء، فيلقيها إلى الكاهن، الكاهن يكذب معها مائة كذبة، فيصدقه الناس بسبب هذه الكلمة التي سمعت من السماء، يقبلون تسعة وتسعين كذبة بسبب كلمة واحدة سمعت من السماء؛ كما قال

النبي ﷺ(١)، ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾؛ يعني: يكذب مع الكلمة الواحدة مائة كذبة، ثم قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾، هم يقولون: إن الرسول شاعر، يقولون: الرسول لما نفى الله عنه أنه كاهن، وأنه لا تنزل الشياطين عليه، قالوا: هو شاعر، الرسول شاعر من الشعراء، الله نفى عنه الشعر، قال ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]؛ لأن الشعراء أكثرهم كما وصفهم الله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، الشاعر يأتي بأشياء بعيدة وأشياء؛ لأن الشيطان يساعده، الشاعر يساعده الشيطان؛ ولذلك يذكر أشياء ما ذهب إليها، ولا رآها، ولا شاهدها، ويأتي بها في شعره؛ لأن الشياطين تعينه على ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، الشاعر جبان في الغالب، يتكلم في الشجاعة والإقدام، ولكنه أجبن الناس، يقولون ما لا يفعلون، ثم استثنى الله من الشعراء من آمن بالله ونصر الحق؛ مثل: حسان بن ثابت، وشعراء الرسول ﷺ الذين استعملوا شعرهم لنصرة الحق، والذَّبِّ عن الرسول ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾، ثم قال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، فاستثنى الله من الشعراء الذين آمنوا، الشعراء المؤمنون استثناهم الله من الذين ذكرهم في الذم.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٨٠٠): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، =

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٥٢]، [١].

الشرح:

[١] هذه الآيات من آخر سورة الحاقة؛ مثل الآيات التي في آخر سورة الشعراء السابقة؛ أن الله نفى عن هذا الرسول أنه كاهن، أو أنه شاعر، نفى عنه ذلك، وأقسم على ذلك ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ (لا) هذه صلة للتأكيد، والأصل أقسم، أو (لا) نافية؛ أي: ليس الأمر كما زعمتم، أقسم ﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾، من المخلوقات ﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾، نحن لا نبصر من المخلوقات إلا القليل، هناك مخلوقات لا نبصرها، الله أقسم بهذه المخلوقات العظيمة التي نبصرها، والتي لا نبصرها، والله ﷻ يقسم بما شاء، ولا يقسم

= وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ».

إلا بشيء له شأن عظيم، أما المخلوق، فلا يقسم إلا بالله؛ كما هو معلوم. المقسم عليه ما هو؟ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾؛ يعني محمدا ﷺ الرسول البشري، رسول كريم ﷺ، هو قول المبلغ، ليس قوله هو؛ فهو لم يبتدئه ابتداء، وإنما قاله مبلغا عن الله ﷻ، وإلا فهو كلام الله، لكن أضيف إلى الرسول إضافة البلاغ والبيان[1]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم يقولون: الرسول شاعر، وهذا القرآن شعر، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾؛ كما تقولون: الرسول كاهن. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فرق بين الرسول وبين الشاعر، وبين الكاهن، هؤلاء الكهان والشعراء تنزل عليهم الشياطين وأما الرسل، فتنزل عليهم الملائكة، ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا يبين أنه ليس بقول الرسول ابتداء، وإنما هو تنزيل من رب العالمين، والرسول قاله مبلغا، وتلاه تلاوة، تلاه لأمته مبلغا لهم، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئا، لا من قاله مبلغا مؤديا؛ كما هي القاعدة، ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم بيَّن أن الرسول ليس بكذاب أيضا، يقولون: كذاب؛ تارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كذاب. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾؛ يعني: لو كذب علينا، ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾؛ لو تقول علينا بعض الأقاويل، لعاقبناه أشد العقوبة، فكون الله لم يعاقبه دليل على رسالته ﷺ، وأن الله أقره: ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة، أو باليد اليمنى، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، قتلناه شر قتلة، والوتين هو العرق الذي في الرقبة، يجري منه الدم، إذا قطع، مات الإنسان، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾؛ قتلناه شر

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٤)، وابن كثير (٤/ ٤١٨).

قتلة، ولا نمهله[١] يكذب على الله ﷻ، ألم تروا أن الله قتل الكذابين على الله: قتل مسيلمة، وقتل الأسود العنسي، وقتل المتنبئين، هل الله أمهلهم؟ لا، الله قتلهم، وقطع دابرهم، ولم يبق لهم ذكرًا، أما هذا الرسول ﷺ، فإن الله أقره، وبقي ذكره ﷺ، وبقي هذا القرآن يتلى، هذا دليل على أنه من عند الله ﷻ، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾، هل أحد يستطيع أن يمنع الرسول إذا أراد الله قتله؟ لا أحد يستطيع، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾، لا أحد يمنعنا من قتله والانتقام منه، . . . إلى آخر الآيات، الشاهد أن هذا تزكية للقرآن، وأنه من الله، ونفيٌ أن يكون شعرا، أو يكون كهانة، أو يكون كذبا على الله ﷻ.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٦)، وابن كثير (٤/ ٤١٨).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩ - ٣٤]. [١].

الشرح:

[١] هذا نفي لما وصفوه به: إنه كاهن، وإنه مجنون، إنه شاعر، إنه كذاب. هذا دليل على اضطرابهم، يتخرصون؛ تارة يقولون: شاعر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: كذاب. وتارة يقولون: إنه يعلمه بشر، يعلمه بشر من أهل الكتاب يملي عليه، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥]، هو ما يكتب ﷺ، لكن اكتتبها، كتبها له هذا الإسرائيلي، وهو غلام في مكة، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]، هذا البشر أعجمي، وهذا القرآن عربي، فكيف يأتي الأعجمي بهذا القرآن العربي الفصيح، وهو أعجمي؟! ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾، هذا يدل على كذبهم في هذا الأعجمي ما يقدر على أنه يأتي بهذا القرآن الفصيح البليغ أبدا، ليس هذا من لغته(١). ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾، هذه في سورة الطور، فذكّر أيها الرسول، ذكّر بما أوحى الله إليك، ولا تلتفت إلى اتهاماتهم، ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ كما يقولون، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ كما يقولون، هم أيضا مضطربون، لم يثبتوا على قول، هل المجنون يقول شعرا؟! المجنون مجنون، لا يستطيع أن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٧٨)، تفسير القرطبي (١٠/ ١٧٧)، وابن كثير (٢/ ٥٨٧).

يتكلم، هل يأتي بهذا القرآن الفصيح البليغ وهو مجنون؟! المجنون يهذي، ولا يحسن الكلام، لكن هم مضطربون: هل هذا القرآن شعر؟! قارن بينه وبين الشعر، تجد الفرق واضحا، هل هو كهانة؟! بينه وبين الكهانة فرق، الكهان تجد أساجيعهم تضحك العقلاء، ليست من كلام رب العالمين؛ مثل: سجع مسليمة وسجاح وغيرهم من الكهان.

يقولون: شاعر، أحيانا يقولون: كاهن، وحينا يقولون: مجنون، ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ننتظر أن يموت ونستريح منه؛ مثل: الشعراء الذين كانوا في الجاهلية، يعيش مدة، ويؤذي الناس بشعره، ثم يموت، وينقطع ذكره، هم يقولون: اصبروا على هذا الرجل إلى أن يموت، ونستريح منه.

هل لما مات الرسول ﷺ انقطع ذكره وانقطع القرآن الكريم؟ ما انقطع؛ لأنه من عند الله ﷻ.

فَنَزَّهَ الله ﷻ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ عَمَّنْ تَقْتَرِنُ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْكُهَّانِ وَالشُّعَرَاءِ وَالْمَجَانِينِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ بِالْقُرْآنِ مَلَكٌ كَرِيمٌ اصْطَفَاهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، [١] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] [٢].

الشرح:

[١] الذي جاء بالقرآن ملك كريم، وهو جبريل ﷺ الروح الأمين، (اصطفاه)؛ أي: اختاره من بين الملائكة.

[٢] الرسل على قسمين: رسل من الملائكة، ورسل من البشر. ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾؛ يختار رسلا من الملائكة، ورسلا من الناس؛ فالرسالة اختيار من الله، واصطفاء من الله، ليست كما يقول الفلاسفة: إنها يكتسبها الإنسان بصفائه، وصفاء فطرته، وذهنه، وفلسفته. يتطلعون إلى أن يكونوا رسلا وأنبياء، الرسالة من الله، هو الذي يصطفي ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، الآيَةَ [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٢]، [٢].

الشرح:

[١] هذا يبين أن قوله: (الروح الأمين)؛ أنه جبريل عليه السلام، كانت اليهود لما بعث الرسول ﷺ - من سخرياتهم وعنجهياتهم - يقولون: لو كان الذي ينزل عليه غير جبريل عليه السلام، لآمنا به، ولكن جبريل عليه السلام عدو لنا، فلا نؤمن بهذا(١)، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، جبريل عليه السلام ما جاء به من عنده، وإنما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى.

[٢] يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]، فإذا أراد المسلم أن يقرأ القرآن، فإنه يبدأ بالاستعاذة؛ لأجل أن يطرد الشيطان؛ لئلا يشوش عليه قراءته، ويغلطه في القراءة، فإذا استعاذ بالله، انطرد عنه الشيطان: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المرجوم المبعد، ثم بين أن الشيطان ليس له سلطان

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٣٢)، وابن كثير (١/ ١٣٠. ١٣٢).

على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وهو قال هذا، قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، فعباد الله المخلصين والمؤمنون ليس له عليهم سلطان، ليس له عليهم سلطة، ينطرد، ويبعد عنهم.

فَسَمَّاهُ الرُّوحَ الأَمِينَ وَسَمَّاهُ رُوحَ الْقُدُسِ. [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، [٢].

الشرح:

[١] سمى جبريل عليه السلام الروح الأمين، وسماه روح القدس؛ أي: الطهر، القدس: الطهر، فهو المطهر ﷺ، وسماه جبريل عليه السلام: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]

[٢] (لا) هذه إما أنها نافية؛ أي: ليس الأمر كما تزعمون، وإما أنها صلة للتأكيد، تأكيد الكلام، (أقسم)؛ أي: أحلف بالخنس، وهي النجوم التي تختفي، وتنخنس إذا جاء النهار، وتبرز إذا جاء الليل. (الجواري) تخنس في المغيب، ثم تظهر، وتجري إلى مغيبها من المطلع إلى المغرب، تشاهدونها تجري، أنت تراها في مكان، وبينما إذا مضت مدة، ونظرت إليها، وجدتها قد سارت، وتقدمت عن مكانها الأول.

فهي خنس وجوارٍ، خنس إذا غربت، وجوارٍ إذا ظهرت.

يَعْنِي: الْكَوَاكِبَ الَّتِي تَكُونُ فِي السَّمَاءِ خَانِسَةً أَيْ: مُخْتَفِيَةً قَبْلَ طُلُوعِهَا فَإِذَا ظَهَرَتْ رَآهَا النَّاسُ جَارِيَةً فِي السَّمَاءِ [١] فَإِذَا غَرَبَتْ ذَهَبَتْ إِلَى كُنَّاسِهَا الَّذِي يَحْجُبُهَا [٢] ﴿وَالَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]؛ **أَي إِذَا أَدْبَرَ وَأَقْبَلَ الصُّبْحُ [٣]** ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، **أَيْ أَقْبَلَ [٤]** ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير: ١٩]. **[٥].**

الشرح:

[١] كما قال ﷻ عن الشيطان: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، الذي إذا ذكر الله، انخنس، وإذا غفل عن ذكر الله، وسوس، فالشاهد أن الانخناس هو التأخر.

[٢] تغيب في الأفق، ولا يراها الناس.

[٣] أي: أدبر، انتهى، وجاء الصبح.

[٤] هذه كلها إقسامات من الله، أقسم الله بهذه الآيات العظيمة، لكن المقسم عليه ما هو؟ سيأتي.

[٥] هذا جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: جبريل عليه السلام ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾، هذا جبريل عليه السلام، وهو القوي الأمين، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]؛ يعني: قوة، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، هو جبريل عليه السلام.

وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام [١] ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، **[٢] أَيْ مُطَاعٍ فِي السَّمَاءِ أَمِينٍ، [٣] ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾** [التكوير: ٢٢]، **أَيْ صَاحِبُكُمْ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهِ إِذْ بَعَثَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ جِنْسِكُمْ يَصْحَبُكُمْ إِذْ كُنْتُمْ لَا تُطِيقُونَ أَنْ تَرَوْا الْمَلَائِكَةَ [٤].**

الشرح:

[١] الآيات الأولى في آخر الشعراء، المراد بالرسول هو محمد ﷺ، وفي هذه الآيات من سورة التكوير المراد بالرسول: جبريل عليه السلام؛ لأنه هو الذي ألقاه على محمد.

[٢] ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ عند الله تبارك وتعالى، مكين عند الله، قريب من الله. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: في السماء تطيعه الملائكة، وهو أكبر الملائكة، وسيد الملائكة عليه السلام.

[٣] أمين على ما استحفظ عليه من الوحي.

[٤] هذا الرسول ﷺ، لما مدح جبريل عليه السلام، مدح الرسول ﷺ؛ فهذا سند القرآن: عن محمد، عن جبريل عليه السلام، عن الله تبارك وتعالى.

﴿بِمَجْنُونٍ﴾؛ كما يقوله الكفار: إنه مجنون أصابه الجن والمس من الجن؛ فصار يهذي. هل المجنون يأتي بهذا القرآن؟! لكن ليس لهم عقول.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فمن مِنة الله أن هذا الرسول من جنسنا، نكلمه، ونجالسه، ونمشي معه، ويأكل معنا، ونأكل معه، ونسمع منه، لو كان من الملائكة، ما استطعنا أن ننظر إليه، ولا أن نخاطبه. فهو يصحبكم في السفر وفي الحضر وفي كل مكان، تتلقون عنه الوحي والشريعة، هذا من نعمة الله ﷻ، ثم أنتم تعرفون هذا، لا تقولوا: هذا لا نعرفه، ولا ندري من أين جاء. هو منكم، من أشرف قبائلكم، ويعيش بينكم، تعرفون أمانته وصدقه، ما جاءكم غريب.

البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة، ولهذا لما قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]؛ نحن لا نصدق محمدا، لابد أن يأتينا ملك - هذا من تعسفاتهم -، ويكلمنا، ولا نصدق واحدا من جنسنا، هو بشر مثلنا؛ فلا نصدقه، فالله ﷻ أخبرهم أن هذا من فضله عليهم أنه لو جاءهم الملك، لما استطاعوا أن يستفيدوا منه، ولا أن يكلموه؛ لأنه من غير جنسهم، إنما الملائكة تنزل عند العذاب - والعياذ بالله -، عند الهلاك: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، إذا نزلت الملائكة، ورآهم الناس، حصل الهلاك، وهم لا ينزلون إلا عند الموت والاحتضار، أو عند نزول العذاب -والعياذ بالله- أو عند قيام الساعة.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٨- ٩]، [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] أَيْ: رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام. [٢].

الشرح:

[١] ولذلك ما كان جبريل عليه السلام يأتي إلى الرسول ﷺ إلا في صورة رجل، يأتيه في صورة رجل، ويجلس معه، والناس ينظرون، ويتكلم معه؛ كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ...»(١)؛ يأتي في صورة رجل يألفونه، وينظرون إليه، ويسمعون كلامه، ويستفيدون منه.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾، لو أنزل الملك، ورأوه، لقضي الأمر، ولهلكوا، ثم لا يؤجلون، بل تحل بهم العقوبة والعذاب -والعياذ بالله-.

﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾؛ لأجل أن يكلموه، ويروه؛ رجل من جنسهم.

[٢] ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]؛ أي: محمد ﷺ ليس بمجنون؛ كما تقولون، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾؛ أي: رأى جبريل عليه السلام على خلقته ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، رآه في بطحاء مكة، لما رفع رأسه، وإذا بجبريل عليه السلام بين

(١) أخرجه مسلم مطولا (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو معروف بحديث جبريل عليه السلام.

السماء والأرض على هيئته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، كل جناح سد الأفق، هذه الرؤية الأولى، الرؤية الثانية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣-١٤]، ليلة المعراج، فالرسول ﷺ ما رأى جبريل عليه السلام على خلقته الملكية إلا مرتين: مرة في بطحاء مكة، ومرة ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، وما عدا ذلك يأتيه في صورة رجل.

﴿وما هو على الغيب بِظَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] أَيْ: بِمُتَّهَمٍ، [١] وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى ﴿بِضَنِينٍ﴾ أَيْ: بِبَخِيلٍ يَكْتُمُ الْعِلْمَ وَلَا يَبْذُلُهُ إِلَّا بِجُعْلٍ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَكْتُمُ الْعِلْمَ إِلَّا بِالْعِوَضِ [٢] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]، فَنَزَّهَ جِبْرِيلَ عليه السلام عَنْ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا، كَمَا نَزَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا أَوْ كَاهِنًا. [٣] فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمُ الْمُقْتَدُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ، وَيَقْتَدُونَ بِهِ فِيمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فِيهِ، [٤].

الشرح:

[١] (بظنين) بالظاء أي: بمتهم؛ من الظنة، وهي الاتهام، أو ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾؛ بالضاد؛ أي: ببخيل، فيكتم ما أوحاه الله إليه، بل إنه يبلغ ما أنزل الله إليه، لا يبخل بما أوحاه الله إليه.

[٢] (بضنين) بالضاد؛ أي: بكاتم ما أوحي إليه، وبخيل بما أوحي إليه، أو لا يبلغه إلا بجعل أو مال، ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، فهو يبلغ ما أنزل إليه، ولا يطلب أجرا من الناس.

[٣] كما تقولون: إنه من تنزل الشياطين، الله ﷻ قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠]، إنما هذا على الكهان، لا على الرسل.

[٤] الله ﷻ بين من هم أولياء الله، وذلك في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، هؤلاء هم أولياء الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾،

ومن الإيمان بالله والتقوى اتباع الرسول ﷺ؛ فأولياء الله هم الذين يتبعون رسول الله ﷺ، فيفعلون ما أمرهم به، ويتركون ما نهاهم عنه؛ لأن هذا معنى التقوى، فالتقوى: هي فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، هؤلاء هم أولياء الله، أما من ادعى أنه من أولياء الله، وهو ليس من المؤمنين المتقين المطيعين لرسول الله ﷺ، فهذا من أولياء الشيطان، وليس من أولياء الرحمن، ليست المسألة الدعوى، وإنما المسألة بالحقيقة، فإذا قيل: هذا ولي، ننظر في عمله: هل هو مطيع لله ورسوله، يتقي ربه ﷻ؟ فهذا ولي لله ﷻ، أو هو عاص لله ورسوله، مخالف للشريعة، فهذا ليس وليًّا لله، وإنما هو من أولياء الشيطان.

فَيُؤَيِّدُهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ وَرُوحٍ مِنْهُ، وَيَقْذِفُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوَارِهِ، [١] وَلَهُمْ الْكَرَامَاتُ الَّتِي يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ. [٢].

الشرح:

[١] فهؤلاء يؤيدهم الله بروح منه: بقوة إيمانية، وبنور في قلوبهم، وهذا كما سبق في قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هؤلاء هم أولياء الله الذين يوالون في الله، ويعادون في الله، يحبون في الله، ويبغضون في الله، هؤلاء هم أولياء الله ﷻ، أما الذي ليس عنده فرق بين المؤمن والكافر - كلهم عنده سواء -، وبين المطيع والعاصي، فهذا ليس وليًا لله، هذا ولي للشيطان.

[٢] وأولياء الله أيضا يمدهم الله بالإيمان - قوة الإيمان -، والنور الذي يجعله الله في قلوبهم، يميزون به بين الحق والباطل، ينظرون بنور الله ﷻ، ويميزون، وهؤلاء تكون لهم كرامات؛ يعني: ليس بلازم أن الولي تكون له كرامات، لكن قد تكون له كرامات، والكرامة: هي الأمر الخارق للعادة، يجريها الله على يد الولي؛ إما لإقامة الحجة على المخالف، وبرهانًا على صدقه، وإما لحاجة بالناس، فهذا يأتي شرحه - إن شاء الله تعالى -، فالكرامة تكون إما بحجة في الدين، أو لحاجة للمسلمين، وهي الأمر الخارق للعادة الذي لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، فالأمر الخارق للعادة إذا

جرى على يد نبي، فهو معجزة، وإذا جرى على يد ولي، فهو كرامة، وإذا جرى على يد كافر، فهو خارق شيطاني، وليس كرامة، وهذا كما سبق بيانه وتفصيله؛ فإن الكفرة والسحرة وأتباع الشياطين تكون لهم خوارق أيضا: يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، ويدخلون النار، وغير ذلك، ولا تضرهم، هذا كله من المخاريق الشيطانية، فلا يغتر بها ما دام أنهم ليسوا من المؤمنين المتقين المطيعين لله ورسوله، فهذه الخوارق إنما هي خوارق شيطانية، من باب الابتلاء والامتحان، تخدمهم الشياطين؛ فتطير بهم في الهواء، وتمشي بهم على الماء، تحضر لهم الأشياء البعيدة، تخدمهم الشياطين؛ فليسوا أولياء لله، ولا يغتر بما معهم من الخوارق. أما إذا جرى الخارق على يد مؤمن تقي، فهذه كرامة من الله ﷻ، أعانه الله بها، وأمده بها، فكرامات الأولياء ثابتة بالقرآن وبالسنة، أما في القرآن، فكما في قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم من الأمر الخارق للعادة، وكما في قصة مريم أنها يأتيها رزقها، وهي في مصلاها، لا تخرج، ولا تذهب، ويأتيها رزقها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ أي: المصلى الذي اعتزلت فيه احتجبت فيه عن الناس، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ مع أنها لا يدخل عليها أحد، ولا يأتيها أحد، ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، هذا من الكرامات؛ لأن مريم صديقة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهي من أولياء الله، فالله يرزقها، وهي في مصلاها، هذا من الكرامات التي يجريها الله على يد عبد تقي مؤمن من عباده لحاجته إليها، أو لأجل أن يحتج بها على المخالفين.

وَخِيَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَرَامَاتُهُمْ لِحُجَّةٍ فِي الدِّينِ أَوْ لِحَاجَةٍ بِالْمُسْلِمِينَ، كَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ نَبِيِّهِمْ ﷺ كَذَلِكَ. [١].

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهُ إِنَّمَا حَصَلَتْ بِبَرَكَةِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدْخُلُ فِي مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ: [٢].

الشرح:

[١] وليس بلازم أن الولي يكون له كرامة، لكن الله ﷻ قد يجريها عند الحاجة إليها؛ إما للاحتجاج على المخالفين، أو للحاجة في الناس، وهذا يأتي بيانه.

وليست لأجل الفتنة كالخوارق التي عند السحرة والكهان، وعملاء الجن والشياطين، هذه ليست لحجة في الدين ولا لحاجة للمسلمين، وإنما هي شر وفتنة.

[٢] فالخارق للعادة إن جرى على يد نبي، فهو معجزة، وإن جرى على يد ولي، فهو كرامة، وهو في نفس الوقت معجزة للرسول؛ لأن الولي ما حاز على ذلك، ولا حصل عليه إلا باتباعه للرسول ﷺ، فكرامات الأولياء معجزات للأنبياء.

مِثْلُ انْشِقَاقُ الْقَمَرِ(١) [١]، وَتَسْبِيحِ الْحَصَا فِي كَفِّهِ(٢) [٢]،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٣٦، ٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٠)، واللفظ للبخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٤٣)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٣١)، والخلال في السنة (١/ ٢٨٨)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٥٩، ٤/ ٢٤٥) والشاميين (٣/ ٧٩، ٤/ ٢٤٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٨٨٦)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٤٣١، ٤٣٢، ٥٩٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (ص٢١٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٩): رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف، ورواه الطبراني في الأوسط: عَنْ سُوَيْدِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: «رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ جَالِسًا وَحْدَهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَاغْتَنَمْتُ ذَلِكَ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ عُثْمَانَ، فَقَالَ: لَا أَقُولُ لِعُثْمَانَ أَبَدًا إِلَّا خَيْرًا لِشَيْءٍ رَأَيْتُهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُنْتُ أَتْبَعُ خَلَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْهُ، فَذَهَبْتُ يَوْمًا، فَإِذَا هُوَ قَدْ خَرَجَ، فَاتَّبَعْتُهُ، فَجَلَسَ فِي مَوْضِعٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ مَا جَاءَ بِكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَسَلَّمَ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «**مَا جَاءَ بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟**» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَجَاءَ عُمَرُ، فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ مَا جَاءَ بِكَ؟**» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ عُمَرَ، فَقَالَ: «**يَا عُثْمَانُ مَا جَاءَ بِكَ**» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، أَوْ تِسْعَ حَصَيَاتٍ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ، فَخَرِسْنَ، ثُمَّ وُضِعْنَ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعَ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، فَوَضَعَهُنَّ، فَخَرِسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ، فَوُضِعْنَ فِي يَدِ عُمَرَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وُضِعْنَ، فَخَرِسْنَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ، فَوُضِعْنَ فِي يَدِ عُثْمَانَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وُضِعْنَ فَخَرِسْنَ».

الشرح:

[١] من معجزات الرسول ﷺ انشقاق القمر، لما اقترح عليه المشركون أن يشق القمر، فالله ﷻ شق القمر، فجعله فلقتين: فلقة على أبي قبيس، وفلقة على قعيقعان، فصار الناس ينظرون إليه، قال ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ [القمر: ١-٢]، لما انشق القمر، قالوا: سحرنا محمد، هذا سحر، وليس معجزة له.

[٢] سبح الحصا في كفه ﷺ، حتى سمع الناس تسبيحه، هذه معجزة من معجزات الرسول ﷺ.

وَإِتْيَانِ الشَّجَرِ إِلَيْهِ(١)، [١].

الشرح:

[١] كان ﷺ إذا ذهب لحاجته يستتر، فلما ذهب لقضاء حاجته، لم يجد شجرة يستتر بها، إلا شجرا متفرقا، فدعاه ﷺ، فاجتمع له، واستتر به ﷺ بأمر الله، فهذه معجزة رآها الناس من حديث جابر رضي الله عنه، الذي ذهب معه يحمل معه الماء، رأى هذا.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٠١٢) من حديث جابر رضي الله عنه: «سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا أَفْيَحَ، فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ، فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ، الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الْأُخْرَى، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا، لَأَمَ بَيْنَهُمَا - يَعْنِي جَمَعَهُمَا - فَقَالَ: الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ فَالْتَأَمَتَا، قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ - وَقَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ عَبَّادٍ - فَيَتَبَعَّدَ فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ وَقْفَةً، فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا - وَأَشَارَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ بِرَأْسِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا».

وَحَنِينِ الْجِذْعِ إِلَيْهِ(١)، [١] وَإِخْبَارِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِصِفَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ(٢)، [٢].

الشرح:

[١] حنين جذع النخلة إليه؛ لأنه ﷺ في أول الأمر كان يخطب على جذع نخلة، يتكئ عليه حال الخطبة، ثم صُنع له منبر، فصار يخطب على المنبر، فحن الجذع إليه، بكى كما يبكي الغلام والطفل الصغير؛ لأنه فقد الذكر الذي كان يسمعه من الرسول ﷺ، فسمع الناس حنين الجذع. فهذا من معجزاته ﷺ.

[٢] ومن معجزاته ﷺ الإسراء والمعراج في ليلة واحدة، الإسراء إلى بيت المقدس، وبينه وبين المسجد الحرام مسافات، وعروجه إلى السماء، ثم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٩٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ لِي غُلاَمًا نَجَّارًا قَالَ: إِنْ شِئْتِ، قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ المِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ».

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا. فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ. قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ...».

نزوله إلى بيت المقدس، ورجوعه إلى مكة في ليلة واحدة، فأصبح وحدث الناس بذلك، فحصلت فتنة عظيمة، وفرح المشركون بالتنفير من رسول الله، وقالوا: إنه كذاب، كيف يذهب في ليلة واحدة، ويأتي إلى بيت المقدس، ونحن نضرب أكباد الإبل كذا وكذا من المدة والمسافة؟! فكأنهم بذلك أظهروا كذب النبي ﷺ، وأثروا على ضعاف الإيمان.

أبو بكر رضي الله عنه لما قالوا له: أما علمت بما قال صاحبك؟ قال: لا. قالوا: إنه يقول: إنه ذهب إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السماء، وعاد في ليلة واحدة، فقال رضي الله عنه: إن كان قال هذا، فقد صدق ﷺ؛ لأنه لا يُكَذِّب الرسول ﷺ أبدا، يصدقه في الوحي، فكيف لا يصدقه بهذه الحادثة الغريبة؟ هذه قوة الإيمان واطمئنان الإيمان في القلب، الذي لا يتزحزح عند الفتن، طلبوا من النبي ﷺ أن يصف لهم بيت المقدس؛ لأنهم يعرفون علاماته، وهو قائم يحدثهم عن ذلك، فرفع الله بيت المقدس، وجعله أمام الرسول ﷺ ينظر إليه، وهو في مكة، ويصفه لهم، فعند ذلك حيرهم، وبهتهم، هذا من معجزاته ﷺ.

وَإِخْبَارِهِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ(١)، [١].

الشرح:

[١] من معجزاته ﷺ إخباره بما يطلعه الله عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة، يخبر عن الغيوب التي أطلعه الله عليها، الله هو الذي يعلم الغيب، ولكن يطلع أنبياءه على شيء من الغيب: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فالله يطلع الأنبياء على شيء من الغيب؛ ليخبروا به الناس؛ لأجل إقامة الحجة عليهم. هذا من المعجزات؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ. أخبر ﷺ عن الأمم الماضية، وأخبر عن المستقبل، وكان خبره عن المستقبل وعن الماضي يأتي كما أخبر ﷺ، وحتى أنه لما انشق القمر، وكذبه أهل مكة، جاء المسافرون من البراري، وأخبروا أن القمر انشق في تلك الليلة(٢).

---

(١) أخرج البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (٢٨٩١) من حديث عمر رضي الله عنه قال: «قام فِينَا النبي ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عن بَدْءِ الْخَلْقِ، حتى دخل أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذلك من حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ من نَسِيَهُ» الحديث، ورواه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) انظر: الطبري (٢٢/ ٥٦٧).

وَإِتْيَانِهِ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ[(١)]، [١].

الشرح:

[١] أعظم المعجزات هذا القرآن الذي أتى به، وهو أمي لا يقرأ، ولا يكتب ﷺ، وجاء بهذا القرآن الذي أعجز الجن والإنس: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، هذه الآية نزلت في مكة قبل الهجرة، تحداهم، وهو في مكة، لا يأتون بمثله؛ يعني: لا حاضرا، ولا مستقبلا، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤]، و(لن) هذه للمستقبل، إلى أن تقوم الساعة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، تحداهم الله أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا، تحداهم أن يأتوا بعشر سور، فعجزوا، تحداهم الله أن يأتوا بسورة، فعجزوا، عجزوا أن يأتوا بمثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١] عجزوا أن يأتوا بمثله، بمثل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١-٢]، عجزوا أن يأتوا بمثله، فهذا أعظم البراهين، وهذا هو المعجزة الباقية، القرآن هو المعجزة الباقية المستمرة إلى أن تقوم الساعة، فهذا هو أعظم معجزاته ﷺ.

---

(١) حيث تحدى به ﷺ المشركين أن يأتوا بسورة مثله.

وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً(١)، [١] كَمَا أَشْبَعَ فِي الْخَنْدَقِ الْعَسْكَرَ مِنْ قِدْرِ طَعَامٍ وَهُوَ لَمْ يَنْقُصْ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ الْمَشْهُورِ(٢) [٢].

الشرح:

[١] ومن معجزاته ﷺ تكثير الشيء القليل من الطعام والشراب، فكان إذا وضع يده في الطعام أو دعا، فإن الطعام القليل يشبع الجماعات الكثيرة،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٠٧٠)، ومسلم (٢٠٣٩) عن سَعِيد بْن مِينَاءَ، قَالَ: «سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُؤْرًا، فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ». وكما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢) «... وَدَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: اذْهَبَا، فَابْتَغِيَا المَاءَ، فَانْطَلَقَا، فَتَلَقَّيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ - أَوْ سَطِيحَتَيْنِ - مِنْ مَاءٍ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، فَقَالاَ لَهَا: أَيْنَ المَاءُ؟ قَالَتْ: عَهْدِي بِالْمَاءِ أَمْسِ هَذِهِ السَّاعَةَ وَنَفَرُنَا خُلُوفٌ، قَالاَ لَهَا: انْطَلِقِي، إِذًا قَالَتْ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالاَ: إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ، قَالاَ: هُوَ الَّذِي تَعْنِينَ، فَانْطَلِقِي، فَجَاءَا بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَحَدَّثَاهُ الحَدِيثَ، قَالَ: فَاسْتَنْزَلُوهَا عَنْ بَعِيرِهَا، وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ، فَفَرَّغَ فِيهِ مِنْ أَفْوَاهِ المَزَادَتَيْنِ - أَوْ سَطِيحَتَيْنِ - وَأَوْكَأَ أَفْوَاهَهُمَا وَأَطْلَقَ العَزَالِيَ، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ اسْقُوا وَاسْتَقُوا، فَسَقَى مَنْ شَاءَ وَاسْتَقَى مَنْ شَاءَ وَكَانَ آخِرُ ذَاكَ أَنْ أَعْطَى الَّذِي أَصَابَتْهُ الجَنَابَةُ إِنَاءً مِنْ مَاءٍ، قَالَ: اذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ، وَهِيَ قَائِمَةٌ تَنْظُرُ إِلَى مَا يُفْعَلُ بِمَائِهَا، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ أُقْلِعَ عَنْهَا، وَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهَا أَشَدُّ مِلْأَةً مِنْهَا حِينَ ابْتَدَأَ فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْمَعُوا لَهَا فَجَمَعُوا لَهَا مِنْ بَيْنِ عَجْوَةٍ وَدَقِيقَةٍ وَسَوِيقَةٍ حَتَّى جَمَعُوا لَهَا طَعَامًا، فَجَعَلُوهَا فِي ثَوْبٍ وَحَمَلُوهَا عَلَى بَعِيرِهَا وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا، قَالَ لَهَا: تَعْلَمِينَ، مَا رَزِئْنَا مِنْ مَائِكِ شَيْئًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَسْقَانَا»، وكما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٠)، ومسلم (٢٠٣٩).

ويبقى منه. إذا كان الناس عطاشًا، وليس عندهم ماء في الصحاري في الأسفار، فإنه ﷺ يضع يده في الماء القليل، حتى يفور من بين أصابعه، فيكفي الناس الحاضرين معه -وهذا سيأتي-، فيشربون ويتوضؤون من ماء أصله قليل، فهذا من معجزاته ﷺ.

[٢] في غزوة الخندق، والخندق المراد به الحفر الذي حفره النبي ﷺ حول المدينة ليمنع المشركين من دخول المدينة، لما غزوا رسول الله ﷺ في وقعة الأحزاب، أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يحفر خندقا حول المدينة، فحفره هو وأصحابه، فلما وصل المشركون، لم يستطيعوا تجاوزه، وقالوا: هذه مكيدة لا تعرفها العرب، هذه مكيدة - يعني: حفر الخندق - لا تعرفها العرب. فنفع الله بهذا الخندق، وكانوا يحفرون الخندق، ومعهم الرسول ﷺ يحفر، فكأن أم سليم - أم أنس رضي الله عنه أم أنس ابن مالك خادم الرسول ﷺ- رأت في وجه رسول الله ﷺ الجوع، فذهبت، وصنعت شيئا من الطعام، وقالت لأنس: ادع رسول الله ﷺ. فدعاه، فذهب، فوجدها قد عملت شيئا قليلا من الطعام، فأرسل أنسا يدعو أهل الخندق كلهم، كل أهل الخندق يزيدون على الألف، فوضع يده ﷺ في هذا الطعام، فأكلوا منه، وشبعوا، وبقي منه بقية، هذه من معجزاته ﷺ.

وَأَرْوَى الْعَسْكَرَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ مِنْ مَزَادَةِ مَاءٍ وَلَمْ تَنْقُصْ(١)، [١] وَمَلأَ أَوْعِيَةَ الْعَسْكَرِ عَامَ تَبُوكَ مِنْ طَعَامٍ قَلِيلٍ وَلَمْ يَنْقُصْ وَهُمْ نَحْوُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا(٢)، [٢] وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً حَتَّى كَفَى النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ(٣)، [١].

الشرح:

[١] المزادة هي: القربة الكبيرة(٤)، وهم كثيرون، ما تكفيهم المزادة ولا المزادات، ولكنه ﷺ عمل عملا بارك الله فيه، فزاد هذا الماء؛ حتى كفى العسكر كلهم.

[٢] في غزوة تبوك الغزو نحو ثلاثين ألف مقاتل، قلت أزوادهم، وخشوا من الجوع، فأمرهم ﷺ أن يجمعوا ما معهم، فجمعوه على بساط، فدعا ﷺ عليه وبارك، وقال: خذوا، فجعلوا يأخذون لمنازلهم، يأخذون من هذا الطعام لمنازلهم ورحالهم، حتى أنهم أخذوا كلهم ما يكفيهم وبقي بقية.

[٣] ولما كان الماء لا يكفي الناس لوضوئهم وشربهم وطبخهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧٤)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٤) انظر: لسان العرب (٣/ ١٩٨) مادة (زيد).

وضع ﷺ يده فيه، فجعل يفور من بين أصابع يده، والناس يستقون، حتى ملؤوا أوعيتهم من الماء، وأخذوا حاجتهم، هذا من معجزاته ﷺ. في عدة مرات، وليس في مرة واحدة.

كَمَا كَانُوا فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعُمِائَةٍ أَوْ خَمْسُمِائَةٍ[(١)]، [١] وَرَدِّهِ لِعَيْنِ أَبِي قتادة حِينَ سَالَتْ عَلَى خَدِّهِ، فَرَجَعَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ[(٢)]، [٢].

الشرح:

[١] غزوة الحديبية التي جاء النبي ﷺ وأصحابه للعمرة، فصدهم المشركون، ونزلوا على غير ماء في الحديبية، وهي على حدود الحرم من جهة الغرب، متصلة بالتنعيم، فالماء قل معهم، فالنبي ﷺ دعا لهم، حتى أنزل الله البركة في الماء، وكفاهم.

[٢] أبو قتادة من أصحاب النبي ﷺ أصيب في بعض الغزوات في عينه، وخرجت عينه، فردها النبي ﷺ في مكانها، حتى أبرأها الله، وصارت أحسن عينيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٧): رواه الطبراني وأبو يعلى وفي إسناد أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

وَلَمَّا أَرْسَلَ مُحَمَّدَ بْنَ مسلمة لِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَوَقَعَ وَانْكَسَرَتْ رِجْلُهُ فَمَسَحَهَا فَبَرِئَتْ(١)، [١] وَأَطْعَمَ مِنْ شِوَاءٍ مِائَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا كُلًّا مِنْهُمْ حَزَّ لَهُ قِطْعَةً وَجَعَلَ مِنْهَا قِطْعَتَيْنِ فَأَكَلُوا مِنْهَا جَمِيعُهُمْ ثُمَّ فَضَلَ فَضْلَةٌ(٢)، [٢].

الشرح:

[١] كذلك كعب بن الأشرف اليهودي الذي آذى النبي ﷺ، وألّب عليه المشركين، النبي ﷺ أرسل إليه محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ليقتله، فذهب، وقتله، ولكنه سقط رضي الله عنه، فانكسرت رجله، فمسحها النبي ﷺ، فبرئت كأن لم يصبها شيء.

[٢] وكذلك اللحم، لحم قليل من شاة واحدة، وهم كثيرون، النبي ﷺ جعل يقطع لهم من هذا اللحم، حتى شبعوا كلهم، وبقي منه بقية.

---

(١) أخرج البخاري (٤٠٣٩) قصة قتل أبي رافع - عبد الله بن أبي الحقيق -، والذي قتله هو عبد الله بن عتيك رضي الله عنه وهو الذي انكسرت رجله. أما قصة قتل ابن الأشرف، فقد أخرجها البخاري (٤٠٣٧)، ولم يذكر فيها أنه انكسرت رجل محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وإنما الذي جرح عباد بن بشر رضي الله عنه، أو الحارث بن أوس رضي الله عنه، فتفل النبي ﷺ على جرحه، فلم يؤذه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٨)، ومسلم (٢٠٥٦).

وَدَيْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَابِرٍ لِلْيَهُودِيِّ وَهُوَ ثَلَاثُونَ وَسْقًا[(١)]، قَالَ جَابِرٌ: فَأَمَرَ صَاحِبَ الدَّيْنِ أَنْ يَأْخُذَ التَّمْرَ جَمِيعَهُ بِالَّذِي كَانَ لَهُ فَلَمْ يَقْبَلْ، فَمَشَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ: «جُدْ لَهُ»، فَوَفَّاهُ الثَّلَاثِينَ وَسْقًا، وَفَضَلَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسْقًا[(٢)]، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ قَدْ جَمَعْت نَحْوَ أَلْفِ مُعْجِزَةٍ[(٣)]. [١].

الشرح:

[١] وكذلك قصة دين عبد الله بن حرام رضي الله عنه، الذي استشهد في وقعة أحد. والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كان عليه دين ليهودي، وهو ثلاثون وسقا من التمر، والوسق: ستون صاعا، وهو مبلغ كبير، وثمرة النخل قليلة، فطلبوا من اليهودي أن يأخذ ثمر النخل وينتهي، فأبى إلا أن يأخذ دينه كله، جاء النبي ﷺ ومشى في حائط عبد الله، وقال له: جذ له، فجعل يجذ له، حتى وفاه ثلاثين وسقا، وبقي سبعة عشر وسقا، هذا من معجزاته ﷺ.

قوله: (وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ قَدْ جَمَعْت نَحْوَ أَلْفِ مُعْجِزَةٍ)؛ مثل هذه المعجزات للنبي ﷺ كثيرة، إنما هذه نماذج منها. جمع له ﷺ نحو ألف معجزة، تسمى

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٩٦).

(٣) انظر: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١/ ٣٠٩ - ٤٠٢، ٦/ ٣٢٤ - ٣٢٦، ٦/ ٣٥٥ - ٣٦٠) وفي الباب أيضًا دلائل النبوة للبيهقي، والفريابي، وأبي نعيم.

بدلائل النبوة، ومنها كتاب دلائل النبوة للبيهقي، ولأبي نعيم وغيرهم. هذه معجزات الرسول ﷺ، هذه أمثلة منها، أما كرامات الأولياء، كرامات أصحابه ﷺ، فهي كثيرة أيضا.

وَكَرَامَاتُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ جِدًّا؛ [١] مِثْلُ: مَا كَانَ أسيد بْنُ حضير يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، فَنَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ لِقِرَاءَتِهِ(١). [٢].

الشرح:

[١] ليست الكرامات مقصورة على الصحابة ﷺ، بل تجري على التابعين، وأتباعهم، وسائر المؤمنين.

[٢] أسيد بن حضير ﷺ كان يقوم من الليل، ويقرأ القرآن، وكان له صوت حسن، فقام يقرأ من الليل يصلي ويقرأ، فنزل عليه شيء مثل الظلة من السماء، فيه أمثال السرج، فلما رأتها الفرس - وهي مربوطة -، نفرت، حتى كادت أن تطأ ابنه يحيى، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ، وأخبره، فقال: هذه الملائكة نزلت تستمع لقراءتك، ولو أنك استمررت لاستمرت، حتى يراها الناس، فهذا من كرامات أسيد بن حضير ﷺ نزول الملائكة تستمع لقراءته.

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٨) معلقًا، وذكر أن أسيد كان يقرأ سورة البقرة، وأخرجه مسلم (٧٩٦)، ولم يذكر اسم السورة. وأخرج البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥) عن البراء أن رجلًا كان يقرأ سورة الكهف... الحديث.

وَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تُسَلِّمُ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ(١)، [١] وَكَانَ سَلْمَانُ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ يَأْكُلَانِ فِي صَحْفَةٍ، فَسَبَّحَتْ الصَّحْفَةُ أَوْ سَبَّحَ مَا فِيهَا(٢)، [٢] وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ وأسيد بْنُ حضير خَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَأَضَاءَ لَهُمَا نُورٌ مِثْلُ طَرَفِ السَّوْطِ، فَلَمَّا افْتَرَقَا افْتَرَقَ الضَّوْءُ مَعَهُمَا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ(٣). [٣].

الشرح:

[١] ومن كرامات الأولياء تسليم الملائكة عليهم السلام على عمران بن حصين الصحابي الجليل.

[٢] ومن كرامات الأولياء ما حصل لسلمان الفارسي وأبي الدرداء رضي الله عنهما؛ أنهما كانا يأكلان من صحفة، فسمعا تسبيح الصحفة، أو تسبيح الطعام، الله ﷻ قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، تارة يظهر الله ذلك؛ لأجل كرامة الولي.

[٣] وعباد بن بشر وأسيد بن حضير رضي الله عنهما كانا عند النبي ﷺ في أول الليل، فخرجا من عنده يريدان الذهاب إلى مساكنهما، وكانت ليلة مظلمة، فسطع

(١) انظر: ترجمته وقصة سلام الملائكة عليه في أسد الغابة (٤/ ١٣٧)، والإصابة (٤/ ٧٠٥).

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٥).

لهما نور كالسوط يمشي معهما، ولما افترقا انقسم النور مع كل واحد منهما، هذا من كرامات الأولياء.

وَقِصَّةُ الصِّدِّيقِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» لَمَّا ذَهَبَ بِثَلَاثَةِ أَضْيَافٍ مَعَهُ إِلَى بَيْتِهِ، وَجَعَلَ لَا يَأْكُلُ لُقْمَةً إِلَّا رَبَّى مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، فَشَبِعُوا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ وَامْرَأَتُهُ، فَإِذَا هِيَ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ، فَرَفَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَاءَ إِلَيْهِ أَقْوَامٌ كَثِيرُونَ فَأَكَلُوا مِنْهَا وَشَبِعُوا(١). [١] وَخبيب بْنُ عَدِيٍّ كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ يُؤْتَى بِعِنَبٍ يَأْكُلُهُ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ عِنَبَةٌ(٢). [٢].

الشرح:

[١] وهذه أيضا لأبي بكر رضي الله عنه أنه ذهب بثلاثة أضياف، وليس عنده إلا شيء قليل، فبارك الله في طعامه، فصار لا ينقص، بل يزيد، كلما أخذوا منه، زاد، حتى أخذوا بقيته إلى رسول الله ﷺ، فأكل منها، وأكل معه ناس كثيرون.

هذا من تكثير الطعام، وهذه كرامة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

[٢] وهذا خبيب بن عدي رضي الله عنه أسره المشركون، وذهبوا به إلى مكة، ودفعوه إلى جماعة من أهل مكة، كان خبيب قد قتل أباهم، دفعوه إليهم، فحبسوه وسجنوه، ولم يكن عنده طعام، فكان يؤتى بالعنب في سجنه، وليس في مكة عنب، معروف أن مكة ليس فيها عنب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٥).

وَعَامِرُ بْنُ فهيرة قُتِلَ شَهِيدًا فَالْتَمَسُوا جَسَدَهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ لَمَّا قُتِلَ رُفِعَ، فَرَآهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَقَدْ رُفِعَ، وَقَالَ عُرْوَةُ: فَيَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ رَفَعَتْهُ(١). [١] وَخَرَجَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً وَلَيْسَ مَعَهَا زَادٌ وَلَا مَاءٌ، فَكَادَتْ تَمُوتُ مِنْ الْعَطَشِ، فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْفِطْرِ وَكَانَتْ صَائِمَةً سَمِعَتْ حِسًّا عَلَى رَأْسِهَا، فَرَفَعَتْهُ فَإِذَا دَلْوٌ مُعَلَّقٌ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ حَتَّى رُوِيَتْ وَمَا عَطِشَتْ بَقِيَّةَ عُمْرِهَا(٢). [٢].

الشرح:

[١] عامر بن فهيرة هذا مولى أبي بكر الصديق، الذي كان مع أبي بكر ومع النبي ﷺ في طريق الهجرة، كان عامر بن الطفيل الخبيث جاء إلى النبي ﷺ، وطلب منه أن يبعث معه جماعة من القراء؛ ليعلموا جماعة العرب، وهدفه من ذلك الغدر والخيانة، فذهب معه سبعون من أهل الصفة، وأوعز إلى المشركين، فأحدقوا بهم في منزلهم، وقتلوهم ﷺ وعامر بن فهيرة منهم، قتل واستشهد، ورأى عامر بن الطفيل الخبيث جثة عامر بن فهيرة ترتفع إلى السماء؛ يعني: ترفعها الملائكة، ثم إنه لم يعثر له على جثة بعد ذلك، بحثوا عنه، فلم يجدوه، استلمته الملائكة، ودفنته الملائكة، فهذا من كرامات الأولياء.

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٣).
(٢) انظر: ترجمة أم أيمن وقصتها في الإصابة (٨/ ١٦٩)، والحلية (٢/ ٦٧)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٢٢٤)، وصفة الصفوة (٢/ ٥٤).

[٢] أم أيمن الحبشية التي ورثها النبي ﷺ من أبيه، وحضنته ﷺ، وتزوجت بزيد بن حارثة، وولدت له أسامة بن زيد - رضي الله عن الجميع - خرجت مهاجرة - وليس معها شيء - فارة بدينها من أهل مكة، وليس معها شيء، وكانت صائمة، فلما حضر الإفطار، وليس معها لا ماء ولا شيء، فأبصرت بدلو معلق بين السماء والأرض فوق رأسها، فشربت منه، فأذهب الله عنها الظمأ، ولم تظمأ بعد ذلك لبقية حياتها، فهذا من كرامات الأولياء. ربما يسأل سائل، فيقول: خرجت ليس معها محرم؟ نقول: هذه ضرورة، إذا خرجت المرأة مهاجرة، هذه ضرورة يعفى عن المحرم؛ لأنها فارة بدينها.

وَسَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ الْأَسَدَ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَشَى مَعَهُ الْأَسَدُ حَتَّى أَوْصَلَهُ مَقْصِدَهُ(١) [١].

الشرح:

[١] وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أرسله رسول الله ﷺ في حاجة، ركب في السفينة، خربت في البحر، فهو تعلق في لوح منها، حتى وصل إلى جزيرة، فخرج في الجزيرة، فإذا بالأسد، والأسد جائع، وخشيَ سفينة أن يفترسه، فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ، فأطرق الأسد برأسه، ثم جاء يدله على الطريق، حتى أوصله مقصده. هذا من كرامات الأولياء.

(١) انظر: ترجمة سفينة وقصته مع الأسد في الإصابة (٣/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١٧٢)، وصفة الصفوة (١/ ٦٧١). وأخرج الحاكم (٢/ ٦٧٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٩) قصته مع الأسد.

وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ كَانَ إِذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبَرَّ قَسَمَهُ، وَكَانَ الْحَرْبُ إِذَا اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ يَقُولُونَ: يَا بَرَاءُ أَقْسِمْ عَلَى رَبِّك، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقْسَمْت عَلَيْك لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ، فَيُهْزَمُ الْعَدُوُّ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْقَادِسِيَّةِ قَالَ: أَقْسَمْت عَلَيْك يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ وَجَعَلْتنِي أَوَّلَ شَهِيدٍ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا(١). [١].

الشرح:

[١] البراء بن مالك رضي الله عنه، وكان رث الهيئة لا يعتني بنفسه، وكان من العباد الزهاد الأتقياء، وكان إذا أقسم على الله أبر الله قسمه، فكان في الغزو إذا اشتد بهم الأمر، طلبوا منه أن يقسم على الله أن ينصرهم، فينصرون، وقد قال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»(٢)، منهم البراء بن مالك هذا، في آخر الأمر دعا الله بالنصر للمسلمين، ودعا الله أن يكتب له الشهادة، وأقسم على الله، الله، أجاب دعاءه، فنصر المسلمين، واستشهد رضي الله عنه، وهذا من كرامات الأولياء.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٣١)، ورواه الترمذي (٣٨٥٤) مختصرًا. وانظر ترجمة البراء في الحلية (١/ ٣٥٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١١٩٥)، والإصابة (١/ ٢٧٩)، وصفة الصفوة (١/ ٦٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حَاصَرَ حِصْنًا مَنِيعًا، فَقَالُوا: لَا نُسْلِمُ حَتَّى تَشْرَبَ السُّمَّ، فَشَرِبَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ(١). [١].

وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ(٢)؛ مَا دَعَا قَطُّ إِلَّا أُسْتُجِيبَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي هَزَمَ جُنُودَ كِسْرَى وَفَتَحَ الْعِرَاقَ. [٢].

الشرح:

[١] وهذا خالد بن الوليد ﵁ الفارس المشهور، والقائد المظفر، حاصر حصنا من حصون المشركين، فقالوا: لا نسَلِّم حتى تشرب السم، تحدي؛ من باب التحدي، فشربه، وهم ينظرون، فلم يضره ﵁، مع أن السم يقتل، فهذا من كرامات الأولياء.

[٢] هذا سعد بن أبي وقاص ﵁ أحد العشرة المبشرين بالجنة، كان مجاب الدعوة، هذا من كراماته أنه مجاب الدعوة، ما دعا الله بشيء إلا أجاب الله دعوته، وهو القائد المظفر الذي قاد القادسية، وفتح العراق، وهزم كسرى وقيصر.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ١٤١)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٠٥)، وانظر ترجمة خالد ﵁ في سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٦٦)، وصفة الصفوة (١/ ٦٥٠).

(٢) أخرج الترمذي (٣٧٥١) أن النبي ﷺ قال: «اللهم اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إذا دَعَاكَ» وانظر ترجمة سعد في الإصابة (٣/ ٧٣)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٩٢)، وصفة الصفوة (١/ ٣٥٦)، وتاريخ دمشق (٢٠/ ٢٨٠).

وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا أَرْسَلَ جَيْشًا أَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُسَمَّى سَارِيَةَ، فَبَيْنَمَا عُمَرُ يَخْطُبُ فَجَعَلَ يَصِيحُ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، فَقَدِمَ رَسُولُ الْجَيْشِ فَسَأَلَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! لَقِينَا عَدُوًّا فَهَزَمُونَا، فَإِذَا بِصَائِحٍ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا بِالْجَبَلِ، فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ(١). [١].

الشرح:

[١] وهذا من كرامات الأولياء التي جرت على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد جهز جيشا إلى المشرق، فبينما هو يخطب الجمعة على منبر المدينة، إذا صوت، فقال: يا سارية، الجبل - ينادي القائد - يا سارية الجبل، فسمعوا صوته، وهم في المشرق، ولَجَؤُوا إلى الجبل، فحماهم الله، وهزموا عدوهم، هذا من كرامات الأولياء أن الله بلغ صوت عمر إلى المسافة البعيدة، ونفع الله بذلك، وهذا من كرامات الأولياء، وإلا فالصوت لا يذهب بعيدا، لكن هذا من الكرامات التي هي معجزة للرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٥٧٩)، والبيهقي في الاعتقاد (١/ ٣١٤).

وَلَمَّا عُذِّبَتْ الزِّنِيرَةُ(١) عَلَى الْإِسْلَامِ فِي اللَّهِ، فَأَبَتْ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَذَهَبَ بَصَرُهَا، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَصَابَ بَصَرَهَا اللَّاتُ وَالْعُزَّى. قَالَتْ: كَلَّا وَاَللَّهِ. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا. [١].

الشرح:

[١] وهذا من كرامات الأولياء أن هذه المرأة الصالحة لما تمسكت بدينها، وصبرت على أذى المشركين، وذهب بصرها، قال المشركون: هذا مس من اللات والعزى؛ من آلهتهم، فقالت ﵂: كلا والله، فأعاد الله بصرها بعد العمى، فهذا من كرامات الأولياء.

---

(١) هي زنيرة الرومية مولاة أبي بكر الصديق ﵁ كانت ممن عُذب في مكة، فاشتراها الصديق ﵁، فلما أسلمت عميت، فقال المشركون: أعمتها اللات والعزى لكفرها باللات والعزى، فرد الله بصرها. انظر: الإصابة (٧/ ٦٦٤)، والاستيعاب (٤/ ١٨٤٩).

وَدَعَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ عَلَى أَرْوَى بِنْتِ الْحَكَمِ، فَأُعْمِيَ بَصَرُهَا لَمَّا كَذَبْت عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا، فَعَمِيَتْ وَوَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ مِنْ أَرْضِهَا، فَمَاتَتْ(1). [١].

الشرح:

[١] وهذا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ابن عم عمر بن الخطاب، وأبوه زيد بن عمرو بن نفيل من الذين هداهم الله في الجاهلية للتوحيد، فوحد الله، وأنكر عبادة الأوثان، وله أشعار في هذا، في الدعوة إلى التوحيد وإنكار الشرك، ابنه هذا سعيد بن زيد من العشرة المبشرين بالجنة، وله بستان أو حائط في المدينة، وبجواره بستان امرأة، فادعت عليه المرأة أنه أخذ شيئا من حائطها، وكذبت عليه في ذلك، فدعا عليها؛ لأنها كذبت عليه، فدعا عليها أن يقتلها الله في أرضها، فالله ﷻ استجاب دعوته، فأهلك هذه الكاذبة في أرضها بأن أعمى بصرها، وسقطت في حفرة وماتت، هذا من كرامات الأولياء.

---

(١) سعيد بن زيد بن عمرو العدوي القرشي صحابي جليل، أحد العشرة المبشرين بالجنة انظر: ترجمته في الحلية (١/ ٩٥)، والإصابة (٣/ ١٠٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٢٤)، وصفة الصفوة (١/ ٣٦٢)، وقد أخرج مسلم (١٦١٠) قصته مع أروي، وأخرجها البخاري (٣١٩٨) مختصرًا. وانظر ترجمة أروي بنت أنيس أو أويس في الإصابة (٧/ ٤٨٧).

وَالْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ كَانَ عَامِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: يَا عَلِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ فَيُسْتَجَابُ لَهُ، [١] وَدَعَا اللَّهَ بِأَنْ يُسْقُوا وَيَتَوَضَّؤُوا لَمَّا عَدِمُوا الْمَاءَ وَالْإِسْقَاءَ لِمَا بَعْدَهُمْ فَأُجِيبَ، [٢] وَدَعَا اللَّهَ لَمَّا اعْتَرَضَهُمْ الْبَحْرُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْمُرُورِ بِخُيُولِهِمْ فَمَرُّوا كُلُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ مَا ابْتَلَّتْ سُرُوجُ خُيُولِهِمْ، [٣] وَدَعَا اللَّهَ أَنْ لَا يَرَوْا جَسَدَهُ إِذَا مَاتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي اللَّحْدِ(١). [٤].

الشرح:

[١] العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه كان عاملا للنبي ﷺ على البحرين - يعني: الأحساء؛ لأن الأحساء كانت في ذلك الوقت تسمى البحرين -، وكان يدعو بهذا الدعاء، فيستجيب الله له، هذا من كرامات الأولياء.

[٢] وكذلك من كراماته رضي الله عنه أنهم لما فقدوا الماء، وأشرفوا على الهلاك دعا الله لهم، فاستسقى لهم، فسقاهم الله.

[٣] لما حال البحر دونهم، دعا الله ﷻ أن يمشي الخيل على البحر، فمشت، ولم تبتل سرج الخيل، هذا من كرامات الأولياء.

[٤] رفعه الله ﷻ، أجاب الله دعوته.

---

(١) أخرج هذه القصة الطبراني في الأوسط (٤/ ١٥)، وانظر ترجمة العلاء في الإصابة (٤/ ٥٤١)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٢)، وصفة الصفوة (١/ ٦٩٤).

وَجَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِأَبِي مُسْلِم الخولاني[١] الَّذِي أُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَإِنَّهُ مَشَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْعَسْكَرِ عَلَى دِجْلَةَ وَهِيَ تُرْمَى بِالْخَشَبِ مِنْ مَدِّهَا، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: تَفْقِدُونَ مِنْ مَتَاعِكُمْ شَيْئًا حَتَّى أَدْعُوَ اللَّهَ ﷻ فِيهِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَقَدْت مِخْلَاةً، فَقَالَ: اتْبَعْنِي، فَتَبِعَهُ فَوَجَدَهَا قَدْ تَعَلَّقَتْ بِشَيْءٍ فَأَخَذَهَا[٢]. وَطَلَبَهُ الْأَسْوَدُ العنسي لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ فَقَالَ لَهُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَسْمَعُ، قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِنَارٍ فَأُلْقِيَ فِيهَا، فَوَجَدُوهُ قَائِمًا يُصَلِّي فِيهَا وَقَدْ صَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا[٣]. [١] وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَجْلَسَهُ عُمَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﭬ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ[٤].

الشرح:

[١] وفي سياق ذكر الكرامات لأولياء الله، فمنها هذه الواقعة لأبي مسلم

---

(١) هو عبد الله بن ثوب الخولاني أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يره، قدم المدينة في خلافة الصديق. انظر: ترجمته في الاستيعاب (٤/ ١٧٥٧)، وصفة الصفوة (٤/ ٢٠٨)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٧)، وحلية الأولياء (٢/ ١٢٢).

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٥٤)، وسبل الهدى والرشاد (١٠/ ٢٤٤).

(٣) انظر: سبل الهدى والرشاد (١٠/ ٢٦٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩).

الخولاني، وهو ولي من أولياء الله في اليمن، ومن التابعين، عذبه الأسود العنسي الذي يدعي النبوة، فأحضره، وقال له: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله، قال: لا أسمع، فأمر به فألقي في النار، فلم تضره النار. هذه كرامة له أن الله ﷻ وقاه من النار، وقد وقع هذا لإبراهيم الخليل ﷺ، فهي للخليل معجزة، ولأبي مسلم كرامة، ولما وفد جاء إلى المدينة في حياة أبي بكر رضي الله عنه، فأجلسوه بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ إكراما له، وقال عمر: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ**»، وكما سبق أن الكرامة للولي معجزة للنبي، فكرامة أبي مسلم هذه معجزة لرسول الله ﷺ.

ومن كرامته الثانية هذه الواقعة في المشي على نهر دجلة على الخيول، قطعوه ولم تتأثر خيلهم وركابهم بالماء، حتى إنه قال لأصحابه: هل أحد منكم ضاع له شيء؟ فقال رجل منهم: نعم، ضاع لي مخلاة، مثل المخلب يقطع به الخلا، وهو العشب، فدعا الله، فوجدها متعلقة بشيء فأخذها.

وَوَضَعَتْ لَهُ جَارِيَةٌ السُّمَّ فِي طَعَامِهِ فَلَمْ يَضُرَّهُ، [١] وَخَبَّبَتْ[١] امْرَأَةٌ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ، فَدَعَا عَلَيْهَا فَعَمِيَتْ وَجَاءَتْ وَتَابَتْ، فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا[٢]. [٢].

الشرح:

[١] مع أنه من عادة السم أن يقتل، فالذي أنجاه من النار قادر على أن ينجيه من السم، والله ﷻ يسلب هذه المواد خصائصها إذا شاء، فيسلب النار الإحراق، ويسلب السم القتل.

[٢] وهذه القصة الثالثة له، كرامة ثالثة له. والتخبيب هو: تنفير الزوجة من زوجها، ومن الملعونين من خبب امرأة على زوجها[٣].

---

(١) خببت: أي أفسدت، انظر: لسان العرب (١/ ٣٤٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١١).
(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا...» أخرجه أبو داود (٢١٧٥)، والحاكم (٢/ ٢١٤)، وقال: صحيح على شرط البخاري. والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٦٧).

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ[(١)] يَأْخُذُ عَطَاءَهُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ فِي كُمِّهِ، وَمَا يَلْقَاهُ سَائِلٌ فِي طَرِيقِهِ إِلَّا أَعْطَاهُ بِغَيْرِ عَدَدٍ، ثُمَّ يَجِيءُ إِلَى بَيْتِهِ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَدَدُهَا وَلَا وَزْنُهَا. [١].

الشرح:

[١] يأخذ عطاءه - يعني: نصيبه من بيت المال -، فما لقيه من فقير، أعطاه، فلا ينقص عدد ما معه، والنبي ﷺ قال: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ»[(٢)]، فإما أنه يزيد بركة، ينقص عددا، لكنه يزيد بركة، وإما أنه لا ينقص عدده أيضا -كما في هذه القصة-، وهذه كرامة. أما لغيره فالمال إذا تصدق منه، ينقص، ينقص عدده، لكن يزيده بركة، أما هذا الولي، فلم ينقص عددا أيضا، هذه من كرامات الأولياء.

---

(١) عامر بن عبد الله، ويعرف بابن عبد قيس، ثقة من عباد التابعين، توفي في زمن معاوية، انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٥)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٠١)، والحلية (٢/ ٨٧)، وهذه القصة أخرجها عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٨١)، واللالكائي في الكرامات (ص٢٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح.

وَمَرَّ بِقَافِلَةٍ قَدْ حَبَسَهُمْ الْأَسَدُ، فَجَاءَ حَتَّى مَسَّ بِثِيَابِهِ الْأَسَدَ، ثُمَّ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَقَالَ: إِنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الرَّحْمَنِ، وَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أَخَافَ شَيْئًا غَيْرَهُ، وَمَرَّتْ الْقَافِلَةُ، [١] وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ الطَّهُورَ فِي الشِّتَاءِ، فَكَانَ يُؤْتَى بِالْمَاءِ لَهُ بُخَارٌ، [٢] وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَمْنَعَ قَلْبَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ. [٣].

الشرح:

[١] أذل الله له الأسد السبع الفاتك الذي أرعب الناس، وسد عليهم الطريق، فجاءه، ومسه بثيابه، ووضع رجله على رقبته، وقال له: إنما أنت كلب من كلاب الله، يعني: أن الله قادر على أن يمنعك من أذى الناس، وقال: وإني أستحي من الله أن أخشى شيئا غيره، فتركهم الأسد، ومروا سالمين.

[٢] ودعا الله أن يهون عليه برودة الماء في الشتاء؛ لأنه يقوم للصلاة، فيتوضأ بماء بارد، فكان يؤتى بالماء ساخنا بدون تسخين؛ إجابة لدعوته، هذا من كراماته.

[٣] لأن الشيطان يوسوس للمصلي ويشغله، قل من يسلم من ذلك، ولكن هذا الولي دعا الله أن يمنع الشيطان عنه، فمنعه في صلاته، فكان لا يقدر على أن يوسوس له.

وَتَغَيَّبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ الْحَجَّاجِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ سِتَّ مَرَّاتٍ، فَدَعَا اللَّهَ ﷻ فَلَمْ يَرَوْهُ، [١] وَدَعَا عَلَى بَعْضِ الْخَوَارِجِ كَانَ يُؤْذِيه فَخَرَّ مَيِّتًا(١). [٢].

الشرح:

[١] الحسن البصري بن أبي الحسن إمام التابعين العالم المشهور، الحسن البصري كان الحجاج يغضب عليه؛ لأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وينكر على الحجاج، والحجاج - كما تعلمون - رجل فاتك سفاك للدماء، مخيف، أرسل إليه في طلبه، دخل عليه جند الحجاج في بيته، فدعا الله ألا يروه، فلم يروه؛ الله قادر على كل شيء، فكما أخذ أبصار المشركين عن عيسى بن مريم عليه السلام حتى رفعه الله من بينهم، وهم مجتمعون لقتله، وكما أنجى الله محمدا ﷺ من المشركين في مكة، عندما كانوا يريدون قتله، فخرج من بينهم، وكذلك في غار ثور وقفوا عليه هو وصاحبه، فلم يروه، ونجاه الله منهم، هذه معجزة للرسول ﷺ، وهي كرامة للحسن البصري، والكرامة إنما تحدث عند الحاجة، أو عند الحجة في الدين.

[٢] كان رجل من الخوارج -وهم الفئة الضالة التي تشق عصا المسلمين،

(١) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، تابعي جليل توفي، بالبصرة سنة ١١٠هـ، انظر: ترجمته في حلية الأولياء (٢/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٦٣). وسبقت قصته مع جند الحجاج (ص١٥٥)، وذكر ابن رجب قصة الخارجي في جامع العلوم والحكم (ص٣٢٢).

ولا ترى السمع والطاعة لولي الأمر، تكفر المسلمين بالذنوب التي دون الشرك- كان يؤذي الحسن البصري؛ لأن الحسن يخالف الخوارج، وينقض كلامهم، فتأذوا منه، فجاء هذا الخارجي يهددهم، يهدد الحسن البصري، فدعا الله عليه، فخر في مكانه، هذا من كرامات الأولياء إجابة الدعوة في الحال.

وَصِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ(١) مَاتَ فَرَسُهُ وَهُوَ فِي الْغَزْوِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِمَخْلُوقٍ عَلَيَّ مِنَّةً، وَدَعَا اللَّهَ ﷻ، فَأَحْيَا لَهُ فَرَسَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ: يَا بُنَيَّ خُذْ سَرْجَ الْفَرَسِ؛ فَإِنَّهُ عَارِيَةٌ، فَأَخَذَ سَرْجَهُ، فَمَاتَ الْفَرَسُ، [١].

الشرح:

[١] كذلك من الكرامات أن الله قد يحيي بعض الدواب التي تكون مع ولي من الأولياء يحمل عليها متاعه، ويقطع بها مسافة الطريق، قد تموت، فيدعو الله أن يحييها؛ حتى توصله، فالله ﷻ يستجيب له، ويحيي هذه الدابة، وهذا تكرر وقوعه لأولياء الله، الله قادر على أن يحيي الموتى، إما حياة دائمة، أو حياة مؤقتة؛ مثلما وقع في القتل من بني إسرائيل، لما ضربوه بجزء من البقرة، أحياه الله، وأخبر بمن قتله، وقصة الذين خرجوا من ديارهم يخشون الموت لما وقع الوباء في بلدهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وكذلك قصة الذين قالوا لموسى عليه السلام: أرنا الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة، فهلكوا، ثم إن موسى عليه السلام دعا الله أن يحييهم؛ ليرجعوا معه إلى بني إسرائيل؛ لئلايقولوا: قتل خيارنا، فأحياهم الله، ورجعوا معه، الله قادر

(١) صلة بن أشيم، أبو الصهباء، تابعي من زهاد البصرة وعبادهم، توفي سنة ٧٥هـ.
انظر: قصته ضمن ترجمته في صفة الصفوة (٣/ ٢١٦)، والحلية (٢/ ٢٣٧)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٤٩٥)، والإصابة (٣/ ٤٦٣).

على كل شيء، الذي مر بالقرية وهي خاوية على عروشها ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] مات هو وحماره مائة عام، ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وبعث حماره، هذه قدرة الله ﷻ لا يعجزها شيء.

فلما وصل إلى بيته، قال: يا بني خذ سرج الفرس؛ فإنه عارية. فأخذ سرجه، فمات الفرس، عاد إلى الموت.

وَجَاعَ مَرَّةً بِالْأَهْوَازِ فَدَعَا اللَّهَ ﷻ وَاسْتَطْعَمَهُ، فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَةٍ(١) رُطَبٍ فِي ثَوْبِ حَرِيرٍ، فَأَكَلَ التَّمْرَ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ زَمَانًا. [١] وَجَاءَ الْأَسَدُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي غَيْضَةٍ بِاللَّيْلِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ: اُطْلُبْ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَوَلَّى الْأَسَدُ وَلَهُ زَئِيرٌ(٢). [٢].

الشرح:

[١] الدوخلة: هي الوعاء من الخوص - خوص النخل -، يوضع فيه التمر وغيره، والغالب أنه يوضع فيه التمر، فلما جاع هذا الولي، دعا الله أن يطعمه، فأتته دوخلة فيها التمر، أو فيها الطعام، فأكل منها، ومعها حرير، فأعطاه لزوجته؛ لأن الحرير لا يحل للرجال، فبقي الثوب عند زوجته تلبسه مدة، فهذا من كرامات الأولياء.

[٢] أيضا تكرر ما يقع منه مع أولياء الله، ومنها هذه القصة: أنه جاء إلى صلة بن أشيم، وهو يصلي في أشجار ملتفة، غيضة: يعني أشجار ملتفة(٣)، فلما سلم - الأسد لم يمس المصلي حتى سلم- فلما سلم، قال له: التمس الرزق في غير هذا الموضع، فذهب. هذا من كرامات أولياء الله. يجد رجلا ليس عنده أحد، وهو جائع، ثم يتركه، ويولي. هذا من كرامات الأولياء.

---

(١) الدَّوْخَلَّة، مشدّدة اللام: سَفِيفة من خوص يوضع فيها التمر والرُّطَب، لسان العرب (١١/ ٢٤٣).

(٢) انظر: الحلية (٢/ ٢٤٠)، والزهد لابن المبارك (ص٢٩٥).

(٣) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٠١).

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ فِي أَيَّامِ الْحَرَّةِ يَسْمَعُ الْأَذَانَ مِنْ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ قَدْ خَلَا فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ(١). [١].

الشرح:

[١] كان سعيد بن المسيب إمام التابعين المخزومي رضي الله عنه، أحد الفقهاء السبعة، مشهورًا بالعلم، كان لما وقعت الحرة، والحرة هي وقعة غزا فيها جيش يزيد أهل المدينة؛ لأن أهل المدينة خرجوا على يزيد بن معاوية، وقد أخطؤوا في هذا؛ لأنه لا يجوز الخروج على ولي الأمر، فغزاهم بجيش تسلط عليهم، وفتك بهم فتكا ذريعا، وبالغ في الانتقام. ابن عمر رضي الله عنه اعتزل الفتنة، ومنع أولاده أن يشاركوا فيها، ويرى أن بيعة يزيد في أعناقهم، ونهاهم عن الخروج عليه، فلم يقبلوا، فكانت العاقبة ما حصل وقعة الحرة المشهورة عقوبة لهم، كذلك سعيد بن المسيب اعتزل في المسجد، ولم يبق فيه غيره، والمسجد لا يؤذن فيه في تلك الفترة، لكنه كان يسمع أذانا من جهة القبر النبوي، فهذه كرامة من كرامات الأولياء، والأذان هذا لأجل أن ينبهه على دخول الوقت.

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزن تابعي ثقة مشهور توفي سنة ٩٤هـ، انظر: هذه القصة ضمن ترجمته في طبقات ابن سعد (٥/ ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢١٧)، وانظر حلية الأولياء (٢/ ١٦١)، وصفة الصفوة (٢/ ٧٩).

وَرَجُلٌ مِنَ النَّخْعِ كَانَ لَهُ حِمَارٌ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَلُمَّ نَتَوَزَّعُ مَتَاعَك عَلَى رِحَالِنَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَمْهِلُونِي هُنَيْهَةً، ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى فَأَحْيَا لَهُ حِمَارَهُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ(١). [١].

وَلَمَّا مَاتَ أُوَيْسٌ الْقَرْنِيُّ وَجَدُوا فِي ثِيَابِهِ أَكْفَانًا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَبْلُ، وَوَجَدُوا لَهُ قَبْرًا مَحْفُورًا فِيهِ لَحْدٌ فِي صَخْرَةٍ، فَدَفَنُوهُ فِيهِ وَكَفَّنُوهُ فِي تِلْكَ الْأَثْوَابِ(٢). [٢].

الشرح:

[١] وهذا مثل قصة صلة بن أشيم السابقة أن الله أحيا له حماره، وأغناه عن الناس لما دعا الله ﷻ أن يغنيه عن منة الناس، فأغناه الله، وأحيا له حماره؛ حتى وصل إلى مقصوده.

[٢] أويس القرني سبق ذكره، وهو من أولياء الله؛ من التابعين، من أهل اليمن، وكان مجاب الدعوة، وكان بارا بأمه، أخبر عنه الرسول ﷺ بأنه سيأتي إلى المدينة، فمن استطاع أن يدعو له، فليفعل. فلما جاء معهم،

(١) نباتة بن يزيد النخعي أدرك النبي ﷺ وغزا في خلافة عمر ﷺ، انظر: قصته ضمن ترجمته في الإصابة (٦/ ٤٩١)، والبداية والنهاية (٦/ ١٥٣).

(٢) أويس بن عامر القرني، من سادات التابعين، أصله من اليمن، توفي سنة ٣٧هـ.
انظر: قصته ضمن ترجمته في الحلية (٢/ ٧٩)، وتاريخ دمشق (٩/ ٤٠٨)، وصفة الصفوة (٣/ ٤٣). وانظر الإصابة (١/ ٢١٩)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ١٩).

فعلم به عمر ﷺ، فبحث عنه حتى أدركه، فطلب منه أن يستغفر الله له. فهذا أويس القرني من أولياء الله، لما مات، وجدوا معه أكفانا لم تكن معه في حياته، ثم لما ذهبوا به ليدفنوه، وجدوا قبره مجهزا، لم يحفره أحد، فدفنوه فيه. هذا من كرامات الأولياء التي يجريها الله على أيديهم.

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عُقْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ يُصَلِّي يَوْمًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، فَأَظَلَّتْهُ غَمَامَةٌ، وَكَانَ السَّبُعُ يَحْمِيه وَهُوَ يَرْعَى رِكَابَ أَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الْغَزْوِ أَنَّهُ يَخْدِمُهُمْ[1]. [١].

وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشخير إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ سَبَّحَتْ مَعَهُ آنِيَتُهُ، وَكَانَ هُوَ وَصَاحِبٌ لَهُ يَسِيرَانِ فِي ظُلْمَةٍ فَأَضَاءَ لَهُمَا طَرَفُ السَّوْطِ[2] [٢].

الشرح:

[١] هذا الولي من أولياء الله عمرو بن عقبة بن فرقد، هذا من أولياء الله، وكان يغزو في الجهاد في سبيل الله، وكان يقوم يصلي في شدة الحر في النهار، في شدة الصيف، فتظله سحابة في السماء، وكان يحرس دواب الغزاة، ويشترط عليهم أنه يخدمهم، والسبع لا يجرؤ أن يقرب المعسكر، كل هذا من كرامات هذا الولي من أولياء الله.

[٢] وهذا مطرف بن عبد الله بن الشخير الراوي المشهور عند المحدثين كان إذا دخل بيته، يسمع تسبيح الأواني في بيته، والله ﷻ أخبر أن كل شيء يسبح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، ولكن هذا الولي يسمع تسبيح

---

(١) عمرو بن عتبة بن فرقد تابعي مشهور بالتعبد والزهد، انظر: الحلية (٤/ ١٥٥) وصفة الصفوة (٣/ ٦٨).

(٢) مطرف بن عبد الله بن الشخير أبو عبد الله البصري، ثقة عابد فاضل توفي سنة ٩٥ هـ. انظر: أخباره في الزهد للإمام أحمد (ص ٢٣٨)، والحلية (٢/ ١٩٨)، والإصابة (٦/ ٢٦٠)، وصفة الصفوة (٣/ ٢٢٢).

الأواني، وكان يسير هو وصاحب له في ظلمة، فأنار الله لهما الطريق، وهذا وقع للصحابة الذين جاؤوا للنبي ﷺ، وجلسوا معه في الليل، فلما ذهبوا في ظلام الليل أعطاهم النبي ﷺ عصا، فكانت تنير لهم الطريق إلى أن وصلوا إلى بيوتهم، فهذا من كرامات الأولياء. عباد بن بشر وغيره حصل لهم هذا مع النبي ﷺ[1].

(١) انظر: البخاري (٤٦٥، ٣٦٣٩) حَدَّثَنَا أَنَسٌ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ الْمِصْبَاحَيْنِ، يُضِيآنِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَلَمَّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلَهُ».

وَلَمَّا مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَعَتْ قَلَنْسُوَةُ رَجُلٍ فِي قَبْرِهِ، فَأَهْوَى لِيَأْخُذَهَا فَوَجَدَ الْقَبْرَ قَدْ فُسِحَ فِيهِ مَدَّ الْبَصَرِ(١). [١].

الشرح:

[١] هذا الأحنف بن قيس التميمي من التابعين، وكان مشهورا بالحلم، يضرب به المثل في الحلم، وكان من المجاهدين في سبيل الله، ومن القادة والأمراء، وكان محبوبا عند الناس، فلما مات، وشيعوه، سقطت قلنسوة رجل من المشيعين له، والقلنسوة: ما يلبس على الرأس مثل: الطاقية تقريبا، فأهوى ليأخذها، فرأى القبر قد وسع، وهذا مصداقه من الحديث؛ أن المؤمن يوسع عليه قبره مد بصره، هذا في الحديث الصحيح، وأما المنافق، فيضيق عليه، حتى تختلف أضلاعه(٢).

(١) الأحنف بن قيس التميمي، سيد تميم، يضرب به المثل في الحلم، توفي سنة ٦٧ هـ. انظر: الإصابة (١/ ١٨٧)، والاستيعاب (١/ ١٤٤)، والقصة في سير الذهبي(٤/ ٨٦) ضمن ترجمته.

(٢) كما في الحديث الطويل الذي أخرجه أبو داود في سننه عن البراء بن عازب ﷺ (٤٧٥٣): «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ».

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التيمي يُقِيمُ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ لَا يَأْكُلُ شَيْئًا(١)، وَخَرَجَ يَمْتَارُ لِأَهْلِهِ طَعَامًا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَمَرَّ بِسَهْلَةٍ حَمْرَاءَ، فَأَخَذَ مِنْهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَفَتَحَهَا، فَإِذَا هِيَ حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ، فَكَانَ إِذَا زَرَعَ مِنْهَا، تَخْرُجُ السُّنْبُلَةُ مِنْ أَصْلِهَا إِلَى فَرْعِهَا حَبًّا مُتَرَاكِبًا(٢). [١].

الشرح:

[١] إبراهيم التيمي الإمام المشهور، والزاهد والواعظ البليغ وقع له من كرامات الأولياء أنه كان يصبر عن الطعام لمدة شهرين بما يعطيه الله من القوة واللذة في عبادة الله ﷻ، وأيضا خرج ليمتار لأهله - يشتري لهم ميرة، يعني: الطعام -، ولم يكن معه نقود، فلم يشتر شيئا، مر برملة حمراء، فملأ أوعيته منها؛ من أجل أن يظهر أمام الناس أنه جاء بشيء، فلما فتحوها، وجدوها حنطة حمراء، قلبها الله ﷻ، وكانت مباركة بحيث إنه إذا زرع من هذه الحنطة، تخرج القصبة كلها حب حنطة. فهذا من كرامات الأولياء.

---

(١) إبراهيم بن يزيد التيمي، عابد مشهور توفي سنة ٩٢ هـ. انظر: سير الذهبي (٥/ ٦٠)، وصفة الصفوة (٣/ ٩٠).

(٢) هذا الخبر رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٣٠) أنه وقع لإبراهيم عليه السلام وليس لإبراهيم التيمي.

وَكَانَ عتبة الْغُلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: صَوْتًا حَسَنًا، وَدَمْعًا غَزِيرًا، وَطَعَامًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ. فَكَانَ إِذَا قَرَأَ بَكَى وَأَبْكَى وَدُمُوعُهُ جَارِيَةٌ دَهْرَهُ، وَكَانَ يَأْوِي إِلَى مَنْزِلِهِ، فَيُصِيبُ فِيهِ قُوتَهُ، وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيه(١) [١].

الشرح:

[١] هذا عتبة الغلام العابد المشهور، والمجاهد في سبيل الله سأل الله هذه الطلبات: أن يرزقه صوتا حسنا، فكان صوته حسنا، إذا قرأ بكى، وأبكى، وأن يرزقه البكاء من خشية الله، فكانت لا تجف له دمعة من خشية الله، وسأل الله أن يرزقه رزقا لا كلفة فيه، فكان إذا جاء إلى بيته، وجد فيه الطعام لا يدرى من أين جاء، وهذا كما حصل لمريم بنت عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، كذلك ما حصل لخبيب بن عدي في مكة، وهو أسير عند المشركين، وكان يوجد عنده العنب، مع أن مكة ليس فيها عنب، لكن هذه من كرامات الأولياء.

---

(١) عتبة بن أبان الغلام الزاهد الخاشع كان يشبه في حزنه بالحسن البصري، سمي بالغلام لجده في العبادة لا لصغر سنه، انظر: ترجمته وقصته في الحلية (٦/ ٢٢٦)، وسير الذهبي (٧/ ٦٢)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٧٠). وأخرج القصة البيهقي في الشعب (٢/ ١١٧)، واللالكائي في الكرامات (ص٢٢٥).

وَكَانَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ أَصَابَهُ الْفَالِجُ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُطْلِقَ لَهُ أَعْضَاءَهُ وَقْتَ الْوُضُوءِ، فَكَانَ وَقْتَ الْوُضُوءِ تُطْلَقُ لَهُ أَعْضَاؤُهُ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهُ(١) [١].

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. [٢].

الشرح:

[١] أصابه الفالج، والفالج داء يصيب الجسم أو الأعضاء، فلا تتحرك، فأصابه، فسأل الله أن يطلق له أعضاءه؛ ليتوضأ لعبادة الله وللطاعة، فاستجاب الله له، فكانت أعضاؤه تنطلق عند الوضوء فقط، ثم تعود إلى حالتها.

[٢] ذكر الشيخ رحمه الله من كرامات الأولياء شيئا كثيرا، وأحال على الاستيفاء والاستقصاء فيها إلى كتب أخرى معنية بهذا الشيء، ومنها كتبه، وقد ذكر في مواضع منها جملة كثيرة، وهذا باب ثابت عند أهل السنة والجماعة: الإيمان بكرامات الأولياء، لا ينكر كرامات الأولياء إلا المبتدعة، أما أهل السنة والجماعة، فإن من أصول عقيدتهم الإيمان بمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، هذا شيء ثابت. سأل سائل: هل هذه الكرامات لها أسانيد صحيحة؟ والجواب: يكفي أننا نعلم أن كرامات

(١) عبد الواحد بن زيد الزاهد القدوة أبو عبيدة البصري، توفي سنة ١٩٧هـ. انظر: ترجمته وقصته في الحلية (٦/ ١٥٥)، وسير الذهبي (٧/ ١٧٨)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٢١).

الأولياء الإيمان بها أصل من أصول العقيدة، لا نشك فيها بالجملة، أما التفاصيل، فلا تحتاج إلى أسانيد؛ لأنها ليست أحاديث يبنى عليها أحكام شرعية من الحلال والحرام، ليست أحاديث، وإنما هي وقائع، إن ثبتت، فهي كرامات، وإن لم تثبت، فلا يضر هذا، عدم ثبوتها لا ينقص الدين شيئا، لكنها إذا ثبتت، فإنها تزيد في الإيمان، تزيد في إيمان العبد، تذكره بالله ﷻ.

وَأَمَّا مَا نَعْرِفُهُ عَنْ أَعْيَانٍ وَنَعْرِفُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَكَثِيرٌ. [١].

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ أَوْ الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إِيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، [٢] وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلَايَةً لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ ذَلِكَ، [٣].

الشرح:

[١] الشيخ يقول: ذكر ما روي، ثم أخبر أنه هو شاهد شيئا كثيرا من هذه الكرامات في زمانه، رآها عيانا؛ فلا مجال للتشكيك فيها.

[٢] الكرامات هذه إنما تحدث لأحد أمرين: إما لحاجة من تجري على يده، بأن يكون ضعيف الإيمان، فتقوي إيمانه بالله، أو يكون محتاجا إلى طعام أو إلى شراب، أو إلى دابة يحمل عليها، أو إلى أن يقويه الله على العبادة، فهي إما لحاجة إيمانية، أو حاجة إنسانية يحتاجها الإنسان، أو تكون لحجة في الدين؛ بأن تؤيد ما يقوله ذلك العالم أو ذلك الولي، فتظهره على خصومه، ومثل هذا ما حصل للمؤلف نفسه، المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ضايقه الناس كلهم، وضايقه السلاطين، وسجنوه، وحبسوه، ولم يستطيعوا منعه من مزاولة نشر العلم والدعوة إلى الله، ولم يستطيعوا بعد موته أن يمنعوا أثره الذي امتد على العالم الإسلامي إلى اليوم، هذا من كرامات الأولياء بلا شك، كذلك الإمام أحمد، ما جرى عليه في وقت المأمون ومن جاء بعده

من الضرب والإهانة والسجن، وثبت، وفي النهاية أظهره الله، وخذل أعداءه، هذا من كرامات أولياء الله ﷻ، هذا من إظهار الحجة، ما يجري لأئمة الدين من الانتصار على خصومهم، هذا من إظهار الحجة في الدين.

[٣] هذا سؤال قد يرد، أو هو وارد بالفعل، وهو: هل لابد أن الولي تجري على يده كرامات؟ لا، ليس بلازم، وإذا لم تجر على يده كرامة، فلا يدل هذا على نقص ولايته، فهناك من أولياء الله من هم من سادات الأولياء، ولا جرى لهم كرامات؛ لقوة إيمانهم، ولأنهم ليسوا بحاجة إليها، وقد تجري الكرامات لمن هو دونهم في الإيمان لحكمة من الله ﷻ، فلا يقال: إنه لا يكون الولي إلا بشرط أن تجري على يده كرامة. هذا إنما يقوله الخرافيون والمبتدعة، أما أهل السنة، فيقولون: ليس من لازم الولاية لله أن تجري على يد الولي كرامة. فينبغي أن يعرف هذا الأمر، فالكرامات إنما تجري لأحد أمرين: إما لحجة في الدين، وإما لحاجة للمسلمين، فإذا لم يكن هناك حاجة، ولا حجة، فإنها لا تجري، ولا يكون هذا نقصا في ولاية ولي الله ﷻ، ثم أيضا ابن القيم رحمه الله يقول: ليس لأولياء الله علامات يعرفون بها، فقد يكون وليًّا لله من خواص الأولياء، وهو لا يُعرف؛ كما قال ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»[١]، فلا يلزم من ولي الله أن يكون له مظهر، وأن يكون حوله هالة من الناس، وأن يروج له دعاية - كما يحصل عند الخرافيين - أبدا، وولي الله يختفي، ولا يعرف، وليس له علامة، لا ملابس، ولا يكون له هالة من حوله ودعاية، ولا يكون له

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٨٨).

جاه؛ مدفوع بالأبواب، ما يكون له جاه عند الناس، فليس من شرط ولي الله أن يكون له علامة يعرف بها، قد يكون خفيا لا يعرف، وقد يكون رث الهيئة، أشعث أغبر، ليس من شرط أن يكون عليه ملابس فاخرة، وأكمام واسعة، وعمامة ضخمة، ليس هذا من شرط أولياء الله ﷻ. ينبغي أن يعرف هذا الأصل؛ لئلا يستغله الخرافيون لخرافتهم، وكل من يدعي أنه ولي لله، ويضعون له من الدعايات - حيا وميتا - والهالات الشيء الكثير، من أولياء الله من يموت، وهو لم يعرف، من أولياء الله من يعيش ويموت، وهو لم يعرف.

فَلَا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ؛ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا لَا لِنَقْصِ وِلَايَتِهِ، [١] وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ، [٢] بِخِلَافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ لِهَدْيِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً. [٣].

الشرح:

[١] فليس كل من لا تجري على يده الكرامة يكون ناقص الولاية لله ﷻ، بل قد يكون كامل الولاية، ولا تجري على يده كرامة؛ لأنه مستغن عنها.

[٢] ولأنه لا يشترط في كمال الإيمان وقوة الإيمان وجود الكرامة، كانت هذه الكرامات في التابعين ومن جاء بعدهم أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة لا يحتاجون إليها؛ لفضلهم، ومكانتهم، وصحبتهم لرسول الله ﷺ

[٣] لهدى الخلق يعني: لحجة في الدين، أو لحاجتهم. فهؤلاء الذين لم تجر على أيديهم كرامة أعظم درجة من الذين تجري على أيديهم.

وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ مِثْلُ: حَالِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ صَيَّادٍ(١)، الَّذِي ظَهَرَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ قَدْ ظَنَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ الدَّجَّالُ، وَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَمْرِهِ، حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الدَّجَّالُ، لَكِنَّهُ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ. [١].

الشرح:

[١] انتهى الآن من الكرامات، وانتقل إلى الخوارق الشيطانية، التي يضل بها كثير من الناس. سبق لنا أن الخارق للعادة إن جرى على يد نبي، فهو معجزة، وإن جرى على يد ولي، فهو كرامة، وإن جرى على يد عدو لله، فهو خارق شيطاني، وليس كرامة، وإنما هي خوارق شيطانية، فالشياطين يعملون مع أوليائهم من الإنس أشياء تخرق العادة عند الناس: يطيرون بهم في الهواء، يسيرون بهم على الماء، يحملونهم، يحضرون إليهم الأشياء الغائبة بسرعة؛ من أجل أن يضلوهم، ويضلوا بهم؛ فينبغي الفرق بين كرامة الولي والخوارق الشيطانية التي تجري على أيدي أعداء الله. فإذا جرى الخارق للعادة على أيدي أحد، نظرت، فإن كان تقيا صالحا، فهي كرامة؛

---

(١) عبد الله بن صائد، وهو الذي يقال له ابن صياد، كان أبوه من اليهود، ولا يدري ممن هو، وهو الذي يقول عنه بعض الناس: إنه الدجال، ولد على عهد رسول الله ﷺ أعورًا مختونًا، قال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله حتى أقتله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن يَكُنْ الذي تَرَى فَلَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلَهُ**». ومن ولده عمارة بن عبد الله بن صياد من خيار المسلمين من أصحاب سعيد بن المسيب. انظر: أخبار المدينة (١/ ٢٢٧)، والإصابة (٥/ ١٩٢)، وشذرات الذهب (١/ ٢٠).

لأن الله قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾، من هم؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، وإن كان فاجرا كفارا، فهي استدراج من الله ﷻ؛ بأن سلط عليه الشياطين، فصارت تظهر على يده أشياء؛ لأجل الدجل والشعوذة، وإضلال من ينخدع بها. فالنظر إلى حالة من تجري على يده الخوارق، فإن كان تقيا مؤمنا، فهي كرامات، وإن كان فاجرا شقيا، فهي استدراج، وهي خوارق شيطانية، فإن الشياطين تخدم أولياءها من الإنس: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٢٩﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، فالله يولي بعض الظالمين بعضا بسبب كسبهم الكفر وإجرامهم في حق الله ﷻ، يسلط الشياطين على بني آدم؛ لأجل أن يضلوهم، ويصدوهم عن دينهم، وهذا من الاستدراج ومن الإهانة، وليس هو من الكرامة، ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ كيف؟ استمتع الجني بالإنسي بأن الإنسي خضع له، وانقاد له، وعصى الله، وعصى رسله، وانقاد للشيطان، هذا يستمتع به الشيطان، ويفرح به، واستمتع الإنسي بالشيطان بما يخدمه به من الأمور الشيطانية: من حمله في الهواء، والمشي به على النار أو على الماء، أو إحضار الأمور البعيدة، أو إخباره بأشياء يعرفها الجن، ولا يعرفها الإنس، فهذا من استمتاع الإنس بالجن - والعياذ بالله -، ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾، هذا مصيرهم يوم القيامة، الشياطين ومن اتبعهم، ومن أغووه،

وصار معهم - وإن خدموهم في الدنيا -، وغرر بالناس أنه ولي من أولياء الله، بل إن الخرافيين يعطون الولاية لمن يرون أنه لا يصلي، ولا يصوم، ولا يترك الفواحش، ويقولون: لأنه ساقط عنه التكاليف، هذا بلغ مرتبة من الولاية والقرب من الله؛ حتى إنه سقط عنه التكليف، فليس في حقه حلال ولا حرام، ولا تجب عليه الفرائض؛ لأنه وصل إلى الله. هكذا يقول الشياطين -والعياذ بالله-، فيعطون الولاية لمن يرونه لا يصلي، ولا يصوم، ولا يؤمن بالله، ولا يؤمن بالرسل، ويقولون: هذا ولي من أولياء الله؛ لأنه ليس بحاجة إلى الرسل، وليس بحاجة إلى العمل، وليس بحاجة إلى العبادة؛ لأنه وصل إلى الله، انظر كيف يبلغ الشيطان ببني آدم من التغرير - والعياذ بالله! -، الله ﷻ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، بهذين الشرطين: الإيمان، والتقوى، فكيف يكون الفاجر الذي لا يصلي، ولا يصوم، ويفعل اللواط والزنا والفواحش، ويشرب الخمر؟! كيف يكون وليًّا لله، مع أنه من أشد أعداء الله؟! نسأل الله العافية! فينبغي التفطن لهذا الأمر؛ لأنه استشرى في الناس اليوم؛ لضعف الإيمان، ولقلة العلم في هذا الزمان، ولعدم نشر العقيدة الصحيحة من عقيدة أهل السنة والجماعة، لما ضعفت هذه الأمور، جاءت أضدادها في المجتمعات، والآن يقولون: إنهم يقيمون فضائيات بث فضائي للمخرفين، وللسحرة، والكهان، وأعداء الله ورسوله، ويصفونهم بالولاية، وبالعلم، وبالتقوى، فليحذر المسلمون من هذه الأمور.

وعبد الله بن صياد هذا ظهر في وقت النبي ﷺ، وجاء إلى المدينة، وكان يظهر عليه أشياء، ظنوه أنه الدجال الكذاب، النبي ﷺ اختبره بأشياء، فتبين أنه ليس هو الدجال، ولما قال عمر بن الخطاب ﷺ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ»[1]، فتركوه، فهذا دليل على أن الخوارق تأتي على يد من ليس من أولياء الله. الدجال أكبر الكذبة، وأكبر عملاء الشيطان الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، يكون معه خوارق، يكون معه جنة، ومعه نار، ويأمر السماء، فتمطر، ويأمر الأرض، فتنبت، ويقتل الرجل، ويمشي بين قطعه، ثم يأمره، فيقوم حيا، هذه خوارق، لكنها خوارق شيطانية، وتدجيل وكذب، فلا يغتر بهؤلاء.

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٤) من حديث ابن عمر ﷺ.

قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ خَبَّأْت لَك خَبْئًا» قَالَ: الدُّخُّ الدُّخُّ. وَقَدْ كَانَ خَبَّأَ لَهُ سُورَةَ الدُّخَانِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك»[1]، يَعْنِي: إنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ. [١] وَالْكُهَّانُ كَانَ يَكُونُ لِأَحَدِهِمْ الْقَرِينُ مِنْ الشَّيَاطِينِ يُخْبِرُهُ بِكَثِيرِ مِنْ الْمُغَيَّبَاتِ بِمَا يَسْتَرِقُهُ مِنْ السَّمْعِ، [٢].

الشرح:

[١] اختبره النبي ﷺ، وقال له: «قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبْأً»؛ يعني: شيئا خفيا، فما هو الشيء الخفي؟ فلم يستطع الجواب، فقال له: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك»؛ إنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ. ما عرف ما الذي خبأ له النبي ﷺ، لم يقل: سورة الدخان.

[٢] القرين من الشياطين كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، قال الله ﷻ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩]؛ بما يسترقه من السمع، هذه ناحية، الناحية الثانية أن الشيطان سريع في قطع الفيافي، يطير في الهواء، ويطلع على أمور لا يطلع عليها ابن آدم، فيخبرونهم، يخبرون بني آدم بذلك فتنة لهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠).

وَكَانُوا يَخْلِطُونَ الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ، [١] كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ»(١).

الشرح:

[١] كما أنهم إذا سمعوا الكلمة من السماء كذبوا معها مائة كذبة، فصدقهم الناس بسبب تلك الكلمة التي سمعت من السماء، صدقوهم في تسعة وتسعين كذبة. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، هؤلاء الكهان، وهؤلاء الذين ينخدعون بهم، أكثرهم كاذبون.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨).

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ؟» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْأَلُ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتَخْطَفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَيُرْمُونَ فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ»(١) [١].

الشرح:

[١] هذا حديث النواس بن سمعان ﷺ وحديث أبي هريرة ﷺ، كلها تدل على أن الشياطين يحاولون استراق السمع مما يتكلم به الملائكة في السماء، ولكن الله قيض لهم الشهب - وهي النجوم -؛ رجوما للشياطين، تنبثق منها شهب ترمي الشياطين، فتحرقهم، وقد يدركه الشهاب قبل أن يلقي الكلمة التي سمعها، وقد يلقيها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، ويروجونها على الناس من باب الفتنة، هؤلاء هم الشياطين، والكهان

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

أتباع الشياطين، هم كهان، وليسوا أولياء لله، لا يقال: إن هذه كرامات، وإنما هؤلاء كهان من عملاء الشيطان - والعياذ بالله -، ففرق بين ولي الله وعدو الله، وإن جرت على يد عدو الله خوارق، فلا يغتر بها؛ لأنها من الشياطين، وليست من الله ﷻ، بخلاف الكرامات؛ فإنها من الله، أكرم بها عباده المؤمنين المتقين. ففرق بين مصدر الكرامة ومصدر الخارق الشيطاني، وفرق بين ولي الله وولي الشيطان، فرق بين هذا وهذا، الناس بحاجة إلى معرفة هذه الأمور اليوم؛ لأنه كثر الدجل، وكثرت الشعوذة، وكثر السحر والكهانة، فيجب على العلماء أن ينشروا هذا، وطلبة العلم يتلقونه، ويعرفونه؛ حتى ينشروه في الناس، ويحذر من هذه الفضائيات الكافرة الدجالة التي غرت الناس، وهذه الاتصالات، يتصلون على الناس بالجوالات وبالإنترنت، ويروجون لهم، ويهددونهم بأنك ستموت، وأنك سيحصل لك كذا وكذا، ولكن أعطنا كذا وكذا، ونحن نسعى في خلاصك وما أشبه ذلك - والعياذ بالله -.

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ مُعَمَّرٌ: قُلْت لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنَّهَا غَلُظَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ. [١].

الشرح:

[١] كانت الشهب في الجاهلية كثيرة، الشهب يرمى بها في الجاهلية كثيرة على الشياطين، فلما بعث النبي ﷺ، حرست السماء، ولم يبق منها إلا أقل القليل، ولهذا الجن لما سمعوا القرآن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ١ - ٢]، إلى قولهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ [الجن: ٩]؛ أي: من السماء ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝﴾ [الجن: ٩ - ١٠]، فهذا ما حصل عند البعثة، عند بعثة النبي ﷺ، ولما لم تكثر الشهب، أرسل الشيطان جواسيسه يبحثون ما السبب؟ فرجعوا إليه، وقالوا: بعث محمد ﷺ، عند مبعثه حرست السماء. ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝﴾، هكذا تقول الجن عند بعثة النبي ﷺ. الشاهد: أن نعرف أن هذه الشهب إنما هي رجوم للشياطين: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝﴾ [الصافات: ٦-١٠].

وَالْأَسْوَدُ العنسي الَّذِي ادَّعَى النُّبُوَّةَ[(١)]، [١] كَانَ لَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ، فَلَمَّا قَاتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ، كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ الشَّيَاطِينِ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِمَا يَقُولُونَ فِيهِ، حَتَّى أَعَانَتْهُمْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا كُفْرُهُ، فَقَتَلُوهُ. [٢] وَكَذَلِكَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ[(٢)]، كَانَ مَعَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِالْمُغَيَّبَاتِ، وَيُعِينُهُ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ. [٣].

الشرح:

[١] الأسود العنسي والمختار بن أبي عبيد اللذان ادعيا النبوة كان لهما عملاء من الشياطين، غروهم وخدعوهم، وظنوا أنهم أنبياء.

[٢] النبي ﷺ أمر المؤمنين الذين في اليمن - وكان في آخر حياة الرسول ﷺ - أمر المؤمنين الذين في اليمن أن يقتلوه، فجاء عبد الله بن فيروز رضي الله عنه ليلا، وتمالأ مع امرأة الأسود العنسي، وكانت مسلمة تقية، فأعانت ابن فيروز على قتله، فقتله شر قتلة - والعياذ بالله -[(٣)].

[٣] ومسيلمة الكذاب غزاه الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ قتلوه في وقعة اليمامة المشهورة، وأراح الله المسلمين من هؤلاء الكذبة الدجالين.

---

(١) انظر: ترجمته (١/ ٤٦٢).

(٢) انظر: ترجمته (١/ ٤٦٠).

(٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الدَّيْلَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِرَأْسِ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ الْكَذَّابِ» أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٠٤).

هذا من الابتلاء والامتحان؛ أن هؤلاء معهم شياطين تساعدهم، فيظن الناس أن هذه معجزات، وأنهم أنبياء في حين أنها خوارق شيطانية، والذين معه ليسوا ملائكة، وإنما هم شياطين. هذا البحث مهم جدا جدا؛ لأنه في صميم العقيدة، وفيه دمغ لهؤلاء الدجالين والكذابين الذين يظهرون بين حين وآخر، ولما سهلت الاتصالات بين العالم، استخدموها لإضلال الناس - والعياذ بالله -.

لاشك أن أولياء الشيطان يظهر على أيديهم من الخوارق ما يغر الناس بهم؛ حتى يظنوا أن هذه كرامات، وهي في الواقع خوارق شيطانية؛ من أجل الفتنة، من ذلك مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، وهو من أهل اليمامة، وتبعه قوم من أهل اليمامة، وكان يظهر على يديه خوارق شيطانية، ويأتيه الشيطان ببعض الأمور التي يظن الناس أنها معجزات، وأنه نبي؛ من أجل الفتنة. فلا يغتر بهذه الأمور، والضابط في هذا أن من ظهر على يديه خارق من خوارق العادات، ينظر في عمله، فإن كان من عباد الله المؤمنين المتقين، فهي كرامة من الله ﷻ، أما إن كان من أعداء الله - من المكذبين، ومن الكافرين والمنافقين -، فهذا خارق شيطاني، مهما بلغ من الغرابة، فهو خارق شيطاني، فلا يغتر بهذا، فمن أخذ هذه القاعدة وطبقها، فإنه يستريح من هذه الشبهات؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ولأنه لا نبي بعد محمد ﷺ، هو خاتم النبيين، فمن ادعى النبوة بعده، فهو كاذب، قال ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ

مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي»(١) فكيف يصدق مع ذلك من يدعي النبوة، والنبوة لا تكون بعد الرسول ﷺ، أو يصدق أنه ولي من أولياء الله، وهو كافر ملحد، لا يصلي، ولا يصوم، ولا يتجنب المحرمات، ويقال: إن هذا ولي من أولياء الله. المسيح الدجال في آخر الزمان يأتي بخوارق عظيمة فاتنة، ومع هذا فالدجال كذاب، هو المسيح الدجال، ونهاية أمره أن الله يهلكه، وينتهي أمره، فلا عبرة بالخوارق إذا لم تكن على يد مؤمن تقي، فلا عبرة بها؛ فإنها شيطانية.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٨)، وأصله عند الترمذي (٢٨٦٢) بلفظ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ لَوْلاَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ».

وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ، مِثْلُ: الْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ(١) الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَادَّعَى النُّبُوَّةَ، [١] وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ يُخْرِجُونَ رِجْلَيْهِ مِنْ الْقَيْدِ، وَتَمْنَعُ السِّلَاحَ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِ، [٢] وَتُسَبِّحُ الرَّخَامَةُ إِذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ، [٣].

الشرح:

[١] الحارث الدمشقي ادعى النبوة أيضا، وكان معه شياطين إذا قيد بالحديد، يخرجون رجليه من القيد، فهذه ليست كرامة، إنما هذه خارق شيطاني لا يغتر بها، وغيره وغيره، ولا يزال الدجالون حتى يكون آخرهم الدجال؛ المسيح الدجال.

[٢] والشياطين أيضا تكون سترا له دون أن يصل إليه السلاح، فهذا ليس دليلًا على أنه ولي من أولياء الله، بل هذا من عمل الشياطين، يعملون معه الشعوذة وغير ذلك.

[٣] نعم، وهو شيطان، الرخامة ما تسبح؛ لأنها جماد، الرخامة ما تسبح، لكن هذا شيطان يصوت بالتسبيح، فيظن أنه الرخامة سبحت.

(١) انظر: ترجمته (١/ ٤٦٢).

وَكَانَ يَرَى النَّاسَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا عَلَى خَيْلٍ فِي الْهَوَاءِ وَيَقُولُ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ، وَإِنَّمَا كَانُوا جِنًّا، [١] وَلَمَّا أَمْسَكَهُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْتُلُوهُ طَعَنَهُ الطَّاعِنُ بِالرُّمْحِ فَلَمْ يَنْفُذْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنَّك لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ، فَسَمَّى اللَّهَ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ[١] [٢].

الشرح:

[١] وهي شياطين، الخيل والرجال يمشون في الهواء؛ شياطين تخدمه؛ لتضل الناس به.

[٢] وإنما كانوا من شياطين الجن، وليسوا ملائكة، الملائكة ما تتنزل على الكذابين والدجالين، إنما تتنزل بأمر الله على الأنبياء والمرسلين والمؤمنين، إذا أمرها الله ﷻ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]، فهذا أفاك وأثيم، فالذي يرى معه من هذه الأمور، فإنما هي شيطانية؛ لأن اسم الله يطرد الشيطان، هو طعنه، ولم يسم، فجاء الشيطان وحال بينه وبين السلاح، فلما سمى الله، هرب الشيطان، فنفذ فيه السلاح.

---

(١) ذكر هذه القصة ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٤٥٦).

وَهَكَذَا أَهْلُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ مَا يَطْرُدُهَا مِثْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؛ [١] فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه لَمَّا وَكَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ الْفِطْرِ، فَسَرَقَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ، وَهُوَ يُمْسِكُهُ فَيَتُوبُ فَيُطْلِقُهُ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» فَيَقُولُ: زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَعُودُ، فَيَقُولُ: «كَذَبَكَ وَإِنَّهُ سَيَعُودُ»، فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أُعَلِّمَكَ مَا يَنْفَعُكَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إِلَى آخِرِهَا، فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ قال: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ(١). [٢].

الشرح:

[١] وهذا أيضا من الفوارق بين خوارق الشياطين والكرامات؛ أن الكرامات تأتي مع ذكر الله، ومع تلاوة القرآن، مع الأعمال الصالحة، وأما الخوارق الشيطانية، فإنها تزول، وتذهب مع ذكر الله ومع تلاوة القرآن، ويذهب الشياطين.

[٢] أبو هريرة رضي الله عنه وكله النبي ﷺ في حفظ التمر، تمر الزكاة كان مجموعا ليوزع، فالنبي ﷺ أمر أبا هريرة أن يحرسه، فكان الشيطان يأتي،

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).

ويحثو من التمر، ويأكل منه، فيمسكه، ثم يتوب، ويعد بأنه لن يعود، والله ﷻ أطلع رسوله ﷺ على أمر الشيطان، فصار يسأل أبا هريرة كل مرة، في النهاية لما أمسكه، وأبى أن يطلقه حتى يأتي به رسول الله ﷺ، فلما رأى أنه لا مناص له، فإنه ذكر لأبي هريرة أن يقرأ آية الكرسي، فإنه إذا قرأها، لا يقربه شيطان حتى يصبح، ولا يزال عليه من الله حافظ حتى يصبح، فقال له النبي ﷺ: «صَدَقَك وَهُوَ كَذُوبٌ»، فدل على أن قراءة القرآن - ولا سيما آية الكرسي - تطرد الشيطان، فلو كانت كرامة، لزادها القرآن، القرآن يزيد الكرامة، يقويها ويثبتها، أما كونها تزول، فهذا دليل على أنها ليست كرامة، وإنما هي عمل شيطاني، فيهرب الشيطان، ويبطل عمله إذا قرئت آية الكرسي، ومن ثم يستحب للمسلم إذا أراد أن ينام أن يقرأ آية الكرسي؛ حتى يحفظه الله بها، ويبعد عنه الشياطين.

فدل على أن الكذوب قد يصدق بعض المرات، ولكن إذا صدق، فلا يتخذ صدقه هذه المرة دليلا على صدقه في كل شيء، فلا يغتر به.

والنبي ﷺ أخبر أبا هريرة ﷺ أن الذي يأتيه في كل هذه الليالي هو الشيطان، وليس إنسانا.

وَلِهَذَا إِذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِصِدْقٍ أَبْطَلَتْهَا، مِثْلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ بِحَالٍ شَيْطَانِيٍّ، أَوْ يَحْضُرُ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ(١)، [١].

الشرح:

[١] فإذا قرأ آية الكرسي عند الأحوال الشيطانية، عند الشعوذات، عند السحر، عند وسوسة الشياطين، فإنها تزول بإذن الله، إذا قرأها بإخلاص، أما أن يقرأ حروفها بدون استحضار لمعانيها، وبدون إخلاص، فإنها قد لا تنفعه.

الإنسان إذا تعاطى الكفر بالله والشرك واستحلال المحرمات، فإن الشياطين تساعده، وتظهر على يده أشياء من المخاريق الشيطانية؛ لأجل أن يغتر بنفسه، ويغتر به غيره، وهذا من باب الابتلاء والامتحان من الله ﷻ لعباده، فيتظاهر أنه يدخل النار، وهو بنفسه لا يدخلها، وإنما الشياطين تحمله، ويتظاهر أنه يمشي على الماء، ويطير في الهواء، وهو لا يفعل هذا بنفسه، وإنما الشياطين هي التي تحمله؛ لأنه أطاعهم، فهم خدموه لإضلاله ولإضلال غيره، فلا يغتر بالأحوال الشيطانية مهما بلغت، والآن ظهر الدجل والسحر والشعوذة، حتى في القنوات الخبيثة، فعلى المسلمين أن يحذروا من هذا، وألا يغتروا به.

---

(١) المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٨)، ولسان العرب (١٥/ ٢٨٩).

فَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، وَتَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ كَلَامًا لَا يُعْلَمُ وَرُبَّمَا لَايُفْقَهُ، وَرُبَّمَا كَاشَفَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، [١] وَرُبَّمَا تَكَلَّمَ بِأَلْسِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْجِنِّيُّ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، [٢].

الشرح:

[١] الإنسان ما يعلم ما في القلوب، لكن الشيطان قد يطلع؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويخالط الإنسان، وربما يطلع على شيء مما في نفسه أو في قلبه، فيخبره، يقول: أنت تفكر في كذا، أنت تقول كذا في قلبك، وما هو منه، هذا من الشيطان؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيطلع على ما لايطلع عليه الإنسان.

[٢] ويتكلم الشيطان على لسان وليه بكلام قد لا يفهم، وليس هو من كلام بني آدم، فيدل هذا على أنه معه قرين، معه شيطان.

يتكلم بألسنة مختلفة: أحيانا يتكلم بالإنجليزي، وأحيانا يتكلم باللغة الفارسية، وأحيانا يتكلم باللغة العربية، الإنسان يستطيع هذه الأمور، وهو ما تعلم، إنسان ما تعلم، ما يقال: هو متعلم للغات، هو ما تعلم، عامي ويتكلم بألسنة مختلفة، هذا ليس منه، هذا من الشيطان، يتكلم على لسانه؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فلا يصدق بهذا، ولا يقال: هذه كرامة. إنه ما تعلم، ومع هذا يتكلم بألسنة مختلفة، ليس هذا منه، هذا من الشيطان الذي لابسه وقارنه. المصروع الذي ليس من أولياء الشيطان، المؤمن قد

يصاب بالصرع، وقد يصاب بالجنون، وهو مؤمن، يتكلم الشيطان على لسانه بكلام ما كان المصروع يعرفه، ويخبر بأشياء ما كان يعرفها، فهذا دليل على أن هذا ليس منه، إنما هذا من الشيطان الذي لابسه.

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ الْحَالُ لَا يَدْرِي بِذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ الْمَصْرُوعِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ وَلَبِسَهُ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، فَإِذَا أَفَاقَ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالَ؛ [١] وَلِهَذَا قَدْ يُضْرَبُ الْمَصْرُوعُ، وَذَلِكَ الضَّرْبُ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْإِنْسِيِّ، وَيُخْبِرُ إذَا أَفَاقَ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ كَانَ عَلَى الْجِنِّيِّ الَّذِي لَبِسَهُ. [٢].

الشرح:

[١] لا يدري بما يقوله الشيطان، وما يقوله الجني، المجنون إذا أفاق، وقالوا له: إنك فعلت كذا، أو قلت كذا، يقول: أبدا، ما فعلت شيئا، ولا قلت شيئا. لا يدري؛ قاله غيره، هو الشيطان، ربما يضرب المجنون، والمصروع يضرب، ولا يتأثر بالضرب، ولا يحس به؛ لأن الضرب لا يقع عليه، إنما يقع على الشيطان الذي لابسه.

[٢] قد يضرب ضربا شديدا يؤثر، ولو كان على بدنه لأثر، أو تكسرت أعضاؤه، ومع هذا لا يحس، ولا يدري عنه؛ لأنه لم يقع عليه، إنما وقع على الشيطان الجني، على الجني الذي خالطه، وهذا شيء معروف.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَأْتِيه الشَّيْطَانُ بِأَطْعِمَةٍ وَفَوَاكِهَ وَحَلْوَى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ يَطِيرُ بِهِمْ الْجِنِّيُّ إِلَى مَكَّةَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ غَيْرِهِمَا، [٢].

الشرح:

[١] قد يأتيه بأطعمة وفواكه يسرقها الجني من أمكنة من الناس، يأخذها من بيوت الناس، ومن بساتينهم، ومن حوانيتهم، ويأتي بها لهذا الآدمي، فيظن أن هذه كرامة، وهي ليست كرامة، هذا خارق شيطاني، نعم المؤمن ولي الله قد يحضر عنده فواكه - كما سبق لنا -، لكن لأنه مؤمن تقي، أما هذا، فهو فاجر شقي، فما يكون عنده من الفواكه إنما هو من سرقة الشياطين التي تخدمه، فلا يلتبس هذا بهذا، ولذلك عنوان هذا الكتاب المبارك: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

[٢] هذا شيء معروف أنهم يطيرون ببني آدم الذين يكفرون بالله، ويشركون بالله، ويطيعون الشياطين، إنهم يطيرون بهم إلى الأمكنة التي يريدونها؛ لأن الشيطان عنده مقدرة على قطع المسافات الطويلة، وعلى الطيران في الهواء، عنده مقدرة، فهو يخدم هذا الإنسي الذي أطاعه في معصية الله، ويذهب به إلى حيث يريد، وهذا معروف حتى عند العوام الآن، يعرفون الذين يطيرون، يعرفون أن هذا سحر، وأنه من الجن، وليس هو من الكرامات.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ثُمَّ يُعِيدُهُ مِنْ لَيْلَتِهِ فَلَا يَحُجُّ حَجًّا شَرْعِيًّا ؛ بَلْ يَذْهَبُ بِثِيَابِهِ وَلَا يُحْرِمُ إذَا حَاذَى الْمِيقَاتَ، [١] وَلَا يُلَبِّي، وَلَا يَقِفُ بمزدلفة، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَلَا يَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلَا يَرْمِي الْجِمَارَ؛ بَلْ يَقِفُ بِعَرَفَةَ بِثِيَابِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِحَجٍّ [٢].

الشرح:

[١] ومنهم من يحمله الجني إلى عرفة يوم عرفة، ولا يحرم، إنما يذهب إلى عرفة من غير إحرام، ثم يرجع به، فهو لم يحج، وإنما الجني يلعب به، كيف يحج من غير إحرام؟ يتعدى الميقات بدون إحرام، ولا يتجنب محظورات الإحرام؛ لأنه يريد مخالفة أمر الله؛ لأن الله أوجب على من يريد الحج أن يحرم من الميقات، وأمره أن يتجنب محظورات الإحرام، فهو خالف أوامر الله، فلذلك خدمه الشيطان، فلا يغتر بهذا أبدا.

هذه أعمال طاعة، فيتركها متعمدا، الشيطان يخدمه في ذلك إذا عصى الله، وترك الواجبات والعمل الصالح وشروطه، فإن الشيطان يخدمه في ذلك، ويحمله إلى ما يريد، ويرجع به إلى مكانه، فلا يقال: هذا من أولياء الله. بل هذا من أولياء الشيطان.

[٢] ليس بحج؛ لأنه لم تتكامل شروطه، وواجباته، وأركانه، فهو عمل شيطاني، وليس بحج، وإن كانوا يزعمون أنه حج، وأنه يروح ويأتي؛ لأنه من أولياء الله، فهذا من أولياء الشيطان، وهو لم يحج.

[وَلِهَذَا رَأَى بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ الْحُجَّاجَ]، فَقَالَ: أَلَا تَكْتُبُونِي؟ فَقَالُوا: لَسْت مِنْ الْحُجَّاجِ. يَعْنِي: حَجًّا شَرْعِيًّا. [١].

وَبَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُشْبِهُهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فُرُوقٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْهَا: أَنَّ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ سَبَبُهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى، وَالْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ سَبَبُهَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ﷺ. [٢].

الشرح:

[١] واحد من الذين طار بهم الشيطان إلى عرفة عشية عرفة، رأى الملائكة تكتب الحجاج، فلم يكتبوه، سألهم لماذا لم تكتبوني؟ قالوا: أنت لم تحج. فلا تكتبه الملائكة، الإنسي هذا رأى الملائكة تكتب الحجاج، فقال: لم لاتكتبوني؟ قالوا: أنت لم تحج. لأنه -كما سبق- لم يحرم، ولم يلبِّ، ولم يأت بأعمال الحج.

[٢] هذا هو الفارق الواضح: الإيمان والتقوى، فالذي عنده إيمان وتقوى ما يجري على يده من الخوارق، فهو كرامة، والذي ليس عنده إيمان ولا تقوى ما يجري على يده من الخوارق، فهو خارق شيطاني للاستدراج. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، فدل على أن الذين لا يؤمنون ولا يتقون أنهم ليسوا من أولياء الله، وإن جرى على أيديهم خوارق.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]. [١].

فَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالْفَوَاحِشُ قَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ سَبَبًا لِكَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَرَامَاتِ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَتْ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ [٢].

الشرح:

[١] فالذي لا يتجنب الفواحش، ولا يتجنب الإثم، ولا يتجنب الشرك، ولا يتجنب القول على الله بغير علم- هذا ليس من أولياء الله، وإن جرى على يده خوارق، هذه خوارق شيطانية، وليست كرامات.

[٢] فهذه الخوارق التي تجري على من لا يترك الفواحش والإثم، ولا يترك البغي على الناس، ولا يترك الشرك، ولا يترك القول على الله بغير علم -ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، يستدرج بها الشيطان هذا الإنسان وأتباعه.

إذا كان الخوارق لا تحصل بتلاوة القرآن والذكر والصلاة، فإنها خوارق شيطانية.

بَلْ تَحْصُلُ بِمَا يُحِبُّهُ الشَّيْطَانُ وَبِالْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا شِرْكٌ كَالِاسْتِغَاثَةِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ كَانَتْ مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى ظُلْمِ الْخَلْقِ وَفِعْلِ الْفَوَاحِشِ فَهِيَ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَا مِنَ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. [١].

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إِذَا حَضَرَ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ فِي الْهَوَاءِ وَيُخْرِجَهُ مِنْ تِلْكَ الدَّارِ، [٢].

الشرح:

[١] إذا كانت على عكس ما جاء في هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، إلى آخر الآية، فهذا دليل على أنها ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، وأن من تجري على يده ليس من أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان، فيجب على الناس أن يعرفوا هذه الأمور، وعلى طلبة العلم خصوصا أن يعرفوا هذه الأمور، وينبهوا الناس عليها؛ لأنها أهلكت كثيرا من الناس، وتسلط أولياء الشيطان على عباد الله، وغرروا بهم بسبب ما يظهر على أيديهم من خوارق الشيطان، فأضلوهم عن سبيل الله، فيجب العناية بهذا الأمر - أمر الولاية -، وبيان من هو ولي الله، ومن هو ولي الشيطان؛ حتى لا يغتر بهؤلاء، هذا من أعظم الفقه في دين الله ﷻ.

[٢] أيضا هذه الأحوال الشيطانية إنما تحضر عند المكاء والتصدية، والمكاء هو: الصفير، والتصدية: التصفيق، وكانوا في الجاهلية يعملون هذا عند بيت الله العتيق: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، هذه صلاتهم في الجاهلية عند بيت الله العتيق،

من الذي أمرهم بهذا؟ أمرهم بهذا الشيطان، فإذا حصل مجلس فيه هذه الأباطيل، فإن الشياطين تحضر هذا المجلس، فإذا زادت هذه الأمور، وانفعل معها الإنسان، حملته الشياطين، وأخرجته من المكان، وظنوا أن هذه كرامة حضرت له، وهو شيطان مريد، يريد أن يغويه، ويغوي من يغتر به، مجالس اللهو ما تجر إلا الشر، بخلاف مجالس الذكر، مجالس القرآن، فإنها تحضرها الملائكة والسكينة: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[1]، فهذا الفرق بين مجالس الخير ومجالس الشر؛ مجالس الخير تحضرها الملائكة، ومجالس الشر تحضرها الشياطين، فرق بين مجالس أولياء الله، ومجالس أعداء الله. ومن ذلك - والله أعلم - ما يسمونه بالزار الآن، يطربون، ويصلون إلى حد يغشى عليهم، فتحضرهم الشياطين، وربما تُجري على أيديهم خوارق شيطانية، ويظنون أن هذا من كرامات الله، وهذا يحصل عند الصوفية، هذا الأمر لا يحصل عند المُجّان؛ المجان منحطون، والناس يعرفونهم، وليس لهم قيمة، لكن هذا يحصل عند الذين يدعون العبادة والزهد، وهم الصوفية، ويغتر الناس بهم أكثر.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، والحديث أصله في مسلم (٢٧٠٠) بلفظ: «**لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ...**».

فَإِذَا حَصَلَ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْدَ شَيْطَانِهِ فَيَسْقُطُ، كَمَا جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ. [١].

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِمَخْلُوقٍ إِمَّا حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْحَيُّ مُسْلِمًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مُشْرِكًا، فَيَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ، وَيَقْضِي بَعْضَ حَاجَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغِيثِ، [٢].

الشرح:

[١] الشيطان يحمل هذا الذي تفانى مع المكاء والتصدية، فإذا جاء ولي من أولياء الله، انطرد الشيطان، فسقط هذا الشخص المحمول في الهواء؛ لأن الذي يحمله هرب، فيسقط، فهذا دليل على بطلان الأحوال الشيطانية عند حضور أولياء الله، وعند حضور ذكر الله ﷻ، هذا من الفوارق بين الخوارق الشيطانية والكرامات الربانية.

[٢] هذا سبق في التوسل والوسيلة، وهنا أيضا أن من استغاث بميت، أو استغاث بمخلوق غائب، فإن الشيطان يتمثل به، ويأتي، ويجيب من استغاث به، ويحضر له ما يريد؛ لأجل الفتنة، ولأجل الاستدراج، والسبب في هذا هو الشرك؛ لأن الاستغاثة بالميت، والاستغاثة بالغائب شرك بالله ﷻ، فالمشرك لاشك أنه يرضي الشيطان، فيخدم هذا المشرك، ويأتيه بصورة الإنسان الذي يدعوه أو يناديه، يتشكل بشكله، ويقضي حوائجه، ويظن هذا المسكين أن هذا هو الولي الذي استنجد به أو استغاث به، وأن الميت حضر، أو أن الغائب حضر، فهذا كله من الغرور.

فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَوْ هُوَ مَلَكٌ عَلَى صُورَتِهِ، [١] وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ أَضَلَّهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاَللَّهِ، كَمَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَدْخُلُ الْأَصْنَامَ وَتُكَلِّمُ الْمُشْرِكِينَ. [٢] وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَصَوَّرُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا الْخَضِرُ، [٣].

الشرح:

[١] لا يقول هذا شيطان على صورته، بل يغره، ويقول: هذا ملك على صورة هذا الإنسان، الملك لا يحضر عند مجالس السوء، ومجالس الشر ما تحضرها، إنما تحضرها الشياطين، الملائكة إنما تحضر مجالس الخير؛ مجالس القرآن والذكر.

[٢] وهذا سبق أن الشياطين تدخل الأصنام والأحجار والأشجار والقبور، حتى التي تدعى من دون الله، تدخلها الشياطين، ثم تتمثل بصورة هذا المعبود الذي يعبدونه ويقضي حوائجهم؛ بأن يحضر لهم الأشياء، يسرقها من مكان بعيد من أموال الناس، ويحضرها لهم، فيظنون أن هذا ولي من أولياء الله، وأن هذا ملك جاء،... إلى آخر ما يغرون به الناس.

[٣] الخضر هذا هو العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه علما، والذي ذهب موسى عليه السلام للقائه والتعلم منه، وهو ميت، لكن منهم من يدعي أنه حي، وأنه يدور في الدنيا، فيقول: أنا الخضر. يأتي الشيطان، ويقول: أنا الخضر، مع أن الخضر ميت من زمان، من عهد موسى، وليس موجودًا:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥]؛ الخضر وغيره، هم يزعمون أنه ما مات الخضر، وأنه حي، وأنه يدور في الدنيا، ويحضر عندما يذكره الناس؛ من ذكره، حضر عنده، فهذا كله من الباطل، فإن حضر شيء، فإنه شيطان، وليس الخضر.

وَرُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ وَأَعَانَهُ عَلَى بَعْضِ مَطَالِبِهِ، [١] كَمَا قَدْ جَرَى ذَلِكَ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، [٢] وَكَثِيرٍ مِنْ الْكُفَّارِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَمُوتُ لَهُمْ الْمَيِّتُ فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى صُورَتِهِ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ذَلِكَ الْمَيِّتُ، وَيَقْضِي الدُّيُونَ وَيَرُدُّ الْوَدَائِعَ، وَيَفْعَلُ أَشْيَاءَ تَتَعَلَّقُ بِالْمَيِّتِ، [٣].

الشرح:

[١] لأجل أن يخدعه، ويغره، ويغر غيره أيضا ممن يدعي أن هذا ولي من أولياء الله. وإذا قيل له: ما أدراك أنه ولي؟ قال: هذا جرت على يده كرامة، والكرامة لا تجري إلا على يد ولي، فيقال: هذه ليست كرامة، هذه من خوارق الشيطان.

[٢] ويحصل هذا الآن، الآن يحصل بكثرة.

[٣] وهم يظنون أنه ذلك الميت، الميت لا يأتي أبدا؛ من مات، فإنه لا يرجع إلى الدنيا أبدا، غادر الدنيا مغادرة نهائية، ولا يمكن أن يرجع إلى الدنيا، ولهذا الله ﷻ إذا طلب الكفار أن يعودوا إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحا، فإن الله ﷻ يقنطهم من هذا، وييئسهم من هذا أنه لن يحصل أبدا، ولا يرجعون إلى الدنيا، ولن يرد الله الميت إلى الدنيا أبدا، إنما قد يحصل هذا معجزة لبعض الأنبياء، هذا معجزة، وليس من باب أن الميت يرجع دائما وأبدا، إنما قد يحصل هذا معجزة لأجل غرض من الأغراض؛

مثل: قصة القتيل من بني إسرائيل، وقصة الذين خرجوا من ديارهم، ومثل: قصة القرية التي مر عليها الذي قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فالله قد يحيي الأموات في هذه الدنيا؛ لإقامة حجة، وإقامة برهان؛ معجزة لنبي من الأنبياء.

وَيَدْخُلُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَيَذْهَبُ، وَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ أَحْرَقُوا مَيِّتَهُمْ بِالنَّارِ كَمَا تَصْنَعُ كُفَّارُ الْهِنْدِ، [١] فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ عَاشَ بَعْدَ مَوْتِهِ. [٢].

الشرح:

[١] في أمة من الأمم أو جنس من البشر مثلما هو في الهند يحرقون ميتهم - إلى الآن كفار الهند يحرقون أمواتهم -، فيأتي بعد الإحراق في أبهى صورة، وأحسن صورة، ويقول: أنا أبشركم أني بخير، وأني في الجنة، وهو شيطان؛ لأجل أن يغريهم، ويحرقون أمواتهم، ومنهم من يحرق الحي، يجملون شخصا من الشبان بأجمل صورة، ثم يوقدون النار، ثم يلقونه فيها، ثم بعد مدة يسيرة يأتيهم مسرورا، وفي أبهى صورة، وأحسن حلة، ويقول: لقيت الخير، وهذا من الشيطان، الشيطان تصور بصورته، وإلا هو ما يأتي أبدا، لكن الشيطان يتصور بصورته من أجل أن يغريهم بإحراق شبابهم، وإحراق. . .، هذا الذي يريده الشيطان دائما وأبدا مع بني آدم.

[٢] فيظنون أنه رجع إلى الدنيا وحيا، وعادت فيه الروح، وعاد إلى الدنيا. هذا كله من الشيطان، الشيطان جاء على صورته، فيظنون أنه حيا.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَيْخٌ كَانَ بِمِصْرَ أَوْصَى خَادِمَهُ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتّ فَلَا تَدَعْ أَحَدًا يُغَسِّلُنِي، فَأَنَا أَجِيءُ وَأُغَسِّلُ نَفْسِي، فَلَمَّا مَاتَ رآى خَادِمُهُ شَخْصًا فِي صُورَتِهِ، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ هُوَ دَخَلَ وَغَسَّلَ نَفْسَهُ، فَلَمَّا قَضَى ذَلِكَ الدَّاخِلُ غُسْلَهُ - أَيْ غُسْلَ الْمَيِّتِ - غَابَ وَكَانَ ذَلِكَ شَيْطَانًا، وَكَانَ قَدْ أَضَلَّ الْمَيِّتَ وَقَالَ: إِنَّك بَعْدَ الْمَوْتِ تَجِيءُ فَتُغَسِّلُ نَفْسَك، فَلَمَّا مَاتَ جَاءَ أَيْضًا فِي صُورَتِهِ لِيُغْوِيَ الْأَحْيَاءَ كَمَا أَغْوَى الْمَيِّتَ قَبْلَ ذَلِكَ. [١].

الشرح:

[١] الميت أغواه؛ لأنه ما ترك الناس يغسلونه كالحال مع الأموات، فالميت قبل أن يموت أجابه، وأوصى خادمه ألا يغسله أحد؛ طاعة للشيطان، فلما مات، جاء شخص في صورة الميت، وغسله، ويظنون أن الميت غسل نفسه، وهو في الحقيقة الشيطان؛ لأجل أن يغرهم، فهو غر الميت، وغر الأحياء هذا الشيطان: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦] فالحذر الحذر، ومع شياطين الجن شياطين الإنس التي تروج هذه الأفكار الخبيثة، وهذه الترهات والأباطيل.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى عَرْشًا فِي الْهَوَاءِ وَفَوْقَهُ نُورٌ وَيَسْمَعُ مَنْ يُخَاطِبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّك، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عَلِمَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ فَزَجَرَهُ وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْهُ فَيَزُولُ. [١].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَشْخَاصًا فِي الْيَقَظَةِ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَيْخٌ مِنْ الصَّالِحِينَ، وَقَدْ جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ، [٢].

الشرح:

[١] منهم من يرى عرشا - يعني: سريرا - بين السماء والأرض، ويرى عليه نور، وهو الشيطان تصور له، وأمره بأشياء، فالمؤمن يكذبه، فيزول، ويطير، يذهب، أما غير المؤمن، فإنه يغتر به، ويطيعه.

ويذكر أن عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ أنه بينما كان يمشي إذا أظله شيء فوقه، فرفع رأسه، فرأى شخصا عليه شخص، قال له: يا عبد القادر أنا ربك، وقد أبحت لك ما حرمت عليك. فقال: كذبت، إنما أنت شيطان؛ لأنه لا ينزل بعد الرسول ﷺ تحليل ولا تحريم. فدحره، وأبطل كيده، لكن هذا لأهل العلم والإيمان، أما العوام، وأما الجهال، وأما ضعاف الإيمان، فربما يغترون بهذا الشيء.

[٢] يتصورون لبعض الناس في اليقظة، ويدعون أنهم رسل، أو أنهم أنبياء، أو أنهم من الصالحين الأموات حضروا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَعْضَ الْأَكَابِرِ: إِمَّا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، أَوْ غَيْرُهُ قَدْ قَصَّ شَعْرَهُ أَوْ حَلَقَهُ أَوْ أَلْبَسَهُ طَاقِيَّتَهُ أَوْ ثَوْبَهُ، فَيُصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ طَاقِيَّةٌ وَشَعَرُهُ مَحْلُوقٌ أَوْ مُقَصَّرٌ، وَإِنَّمَا الْجِنُّ قَدْ حَلَقُوا شَعْرَهُ أَوْ قَصَّرُوهُ. [١].

وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ تَحْصُلُ لِمَنْ خَرَجَ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمْ دَرَجَاتٌ، [٢].

الشرح:

[١] يأتي الشيطان لهذا النائم، فيحلق رأسه، ويلبسه طاقية، فيصبح عليه طاقية ومحلوق الرأس، ويظن الناس أن هذا ملك عمل به كذا، وهو شيطان، وليس ملكا.

[٢] هذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، أما الذي تمسك بالكتاب والسنة، فإنه لا يغتر بهذه الأمور. انظروا ماذا قال عبد القادر رحمه الله، قال: إنه لا ينزل بعد الرسول ﷺ تحليل ولا تحريم، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، بركة العلم حمته من هذا الشيطان.

هم درجات؛ يعني: أن هذه الخوارق الشيطانية درجات، بعضها أشد من بعض، بحسب كفر ولي الشيطان، وشدة كفره.

وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَهُمْ عَلَى مَذْهَبِهِمْ، [١] وَالْجِنُّ فِيهِمُ الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ وَالْمُخْطِئُ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسِيُّ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ جَاهِلًا دَخَلُوا مَعَهُ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالضَّلَالِ، [٢] وَقَدْ يُعَاوِنُونَهُ إِذَا وَافَقَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَهُ مِنَ الْكُفْرِ، [٣].

الشرح:

[١] ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾، فهم ظالمون، وأولياؤهم من الإنس ظالمون، سلطوا عليهم بسبب ظلمهم وكفرهم بالله ﷻ عقوبة لهم.

[٢] الجن الذين يكونون مع الإنس الشياطين التي تكون مع الإنس منهم الكافر، وهو الشيطان، ومنهم العاصي، ولا يصل إلى حد الكفر، ومنهم المخطئ الذي دون العاصي، فليسوا على درجة واحدة؛ ولذلك هم في الكفر والإلحاد والزندقة متفاوتون.

[٣] فإذا أطاعهم فيما يأمرونه به من الكفر، خدموه، وأعانوه، فيظن من لا بصيرة عنده أن هذه كرامة، وأن هذا ولي لله ﷻ، دون أن ينظر إلى عمله، وحاله، وما هو عليه.

مِثْلُ: الْإِقْسَام عَلَيْهِمْ بِأَسْمَاءِ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنَ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ، [١] وَمِثْلُ: أَنْ يَكْتُبَ أَسْمَاءَ اللَّهِ أَوْ بَعْضَ كَلَامِهِ بِالنَّجَاسَةِ، أَوْ يَقْلِبَ(١) [٢] فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَوْ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ أَوْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ أَوْ غَيْرَهُنَّ وَيَكْتُبَهُنَّ بِنَجَاسَةٍ، [٣].

الشرح:

[١] فلذلك تجد هؤلاء المشعوذين عملاء الشياطين وعملاء الجن، تجدهم يتمتمون بألفاظ لا تفهم، وينادون أسماء غير معروفة، وهؤلاء هم أولياؤهم من الجن، بأسمائهم وكلامهم.

[٢] إذا أطاعهم، فأهان ذكر الله، فإنهم يخدمونه؛ كما لو كتب القرآن بالنجاسة، أو ألقاه في القاذورات، أو فعل ما يريدونه منهم، قدموا له الخدمة، فكلما كثرت مخالفاته، كثرت خدمتهم له، قد تكون الخدمة يسيرة؛ لأن انقياده لهم يسير، تكون خدمتهم له متوسطة، وقد تكون خدمتهم له شديدة بسبب ما في قلبه من الكفر والطاعة لهم والانقياد لهم.

[٣] يعبث بالقرآن، وينكس ألفاظه وحروفه، فإذا فعل هذا خدموه؛ لأن هذا من الاستهزاء بكلام الله وبكتاب الله ﷻ، ويظن من يظن أن هذا كرامة، وأن هذا ولي من أولياء الله، وأنه عرف هذا السر، مع أنه من تلقين الشيطان.

ويكتبون القرآن بمادة نجسة، أو يكتبونه في محل نجس.

---

(١) يعني: يقرؤها من آخرها إلى أولها.

فَيُغَوِّرُونَ لَهُ الْمَاءَ وَيَنْقُلُونَهُ بِسَبَبِ مَا يُرْضِيهِمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، [١] وَقَدْ يَأْتُونَهُ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ إِمَّا فِي الْهَوَاءِ وَإِمَّا مَدْفُوعًا مَلْجَأً إِلَيْهِ. [٢] إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَطُولُ وَصْفُهَا، [٣].

الشرح:

[١] يغور الماء، فيقول: أنا عندي مقدرة على تغوير الماء، فيصدقونه بذلك، أو يحملونه إلى الجهة التي يريد بدون أن يمشي على رجليه، أو يركب مركوبا معتادا، وإنما يطيرون به في الهواء، ويوصلونه إلى المكان الذي يريد، ويردونه إلى مكانه، فيظن المغرورون أن هذا من أولياء الله، وأن هذه كرامات، ولا ينظرون إلى عمله وإلى عقيدته، وما هو عليه؛ حتى يتبين لهم هل هو ولي أو شيطان.

[٢] إذا صار يهوى امرأة، ولو كانت بعيدة، أحضروها له، يحملونها، ويأتون بها له. إما أنهم يحملون هذه المرأة وهذا الصبي في الهواء، يحضرونهما عنده، وإما أنهم يسوقونه، يسوقون الإنسان، يمشي راغبا إلى هذا الشخص، يسوقونه، ويأتي برغبته إلى هذا الشخص؛ لأنهم يدفعونه.

[٣] الشيخ بين هذه الأمور التي يغتر بها الجهال، ويغتر بها بعض الناس، فيظنون أنها حصلت كرامة من الله؛ لأنه ليس باستطاعة الإنسي أن يعمل هذه الأشياء، فيقولون: هذه إنما تحصل من الله على يد ملك من الملائكة؛ لأنه ولي، ولا يدرون أن هذا يحصل بعمل الشيطان الذي قيضه الله له بكفره

وشركه؛ امتحانا له، وعقوبة له، هذا يحتاج إلى فقه في دين الله، ومعرفة في دين الله، وألا يغتر الإنسان بحال من الأحوال يراها إلا بعد أن يفحص صاحب هذه الحال، هل هو مؤمن تقي، أو كافر شقي؛ حتى يعرف أنها كرامة، أو أنها خارق شيطاني.

وَالْإِيمَانُ بِهَا إِيمَانٌ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ. [١].

وَالْجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيَاطِينُ وَالْأَصْنَامُ، [٢].

الشرح:

[١] الإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، الجبت هو: السحر، والطاغوت هو: الشيطان. فمن آمن بالجبت والطاغوت، حصلت له هذه الأمور، وهذا شأن اليهود؛ يؤمنون بالجبت والطاغوت، وكذلك من سار على نهجهم.

[٢] كل ما عبد من دون الله، فهو عبادة للطاغوت، فإن كان المعبود راضيا بهذا، فهو الطاغوت، وإن كان المعبود لا يرضى بهذا، وينهى عنه - كأولياء الله الذين يعبدونهم بعد الموت، كالمسيح عليه السلام -، فإن عبادتهم ليست لهؤلاء الصالحين، وإنما هي عبادة للطاغوت الذي هو الشيطان الذي أمرهم بها، وإلا فالمعبود لا يرضى بهذا، بل ينكره، ويجاهد عليه، فهم يعبدون الشيطان الذي أغراهم بهذا الأمر. وهذا المعبود بريء من ذلك كل البراءة، وينكرها يوم القيامة، سواء الملائكة أو غيرهم ينكرون أن هؤلاء عبدوهم، وإنما يقولون: كانوا يعبدون الجن، أي: الشياطين ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، الله بين كل شيء، ووضح كل شيء في القرآن، ولكن أين الذي يقف مع القرآن ويتدبر آياته؟! الله أخبر أن الإنس يستمتعون بالجن بسبب أن الإنس يكفرون بالله، ويطيعون الجن، ويقولون: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، الله بين هذا في القرآن. من كان يؤمن بالله ويتقيه ظاهرا وباطنا، لا تقربه الشياطين، وإنما ما يحصل على يده من خوارق العادات إنما هو كرامة أجراها الله على يده، وليست من خوارق السحرة والكهان والشياطين، فيجب الفرق بين هذا وهذا؛ لئلا يلتبس الأمر كما التبس على كثير من الناس.

وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مُطِيعًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَمْ يُمْكِنْهُمْ الدُّخُولُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ أَوْ مُسَالَمَتُهُ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ عِبَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْرُوعَةُ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ كَانَ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ أَبْعَدَ عَنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [١].

الشرح:

[١] لأن المساجد هي بيوت الله ﷻ، وهي مهبط الملائكة والرحمة والسكينة، والشياطين لا تقرب المساجد، إنما تقرب الأمكنة القذرة، أو تقرب المحلات الخفية، والسراديب المظلمة، والكهوف البعيدة، والأماكن السرية، هذه محلات الشياطين. أما المساجد، فهي بيوت الله، يجتمع فيها المسلمون، ويلقى فيها العلم والذكر، فلا تقربها الشياطين. فأنت تجد الذي يعمر المساجد، ويتردد إليها سالما من هؤلاء الشياطين، تجد عليه الصلاح، والاستقامة؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]، الآية وضحت هذا أن الذين يعمرون مساجد الله هم أهل الإيمان، وأن الشياطين وأولياء الشيطان من الناس لا يقربون المساجد، بل ينفرون منها، ويفرون منها، وهذا شيء ظاهر.

وَكَانَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ يُعَظِّمُونَ الْقُبُورَ وَمَشَاهِدَ الْمَوْتَى، [١] فَيَدْعُونَ الْمَيِّتَ، أَوْ يَدْعُونَ بِهِ، أَوْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَهُ مُسْتَجَابٌ أَقْرَبُ إِلَى الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، [٢].

الشرح:

[١] كما سبق أن القبور لا تجوز العبادة عندها: لا الصلاة، ولا الدعاء، إلا الدعاء للميت، فلا بأس، أما الدعاء للزائر، فلا يجوز أن تدعو الله لنفسك عند القبر، فدعاء الأموات هذا شرك أكبر، والدعاء عند الأموات هذا بدعة، ووسيلة إلى الشرك، وكذلك الدعاء بالأموات؛ كأن تتوسل بهم إلى الله، هذا بدعة ووسيلة إلى الشرك - كما سبق -، فدعاؤها أو الدعاء عندها، أو الدعاء بها كل ذلك لا يجوز.

[٢] فالذي يعتقد أن الدعاء عند القبور مستجاب هذا قريب حاله من الأحوال الشيطانية؛ لأن الله لم يشرع لنا الدعاء عند القبور، وإنما شرع لنا الدعاء في المساجد، التي هي بيوته.

فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١). [١].

الشرح:

[١] «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى» السبب: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» هذا هو سبب اللعنة، ومعنى مساجد أي: مصليات يصلون عندها، ويدعون الله عندها؛ رجاء أن الدعاء عندها، والصلاة عندها مستجابة، أفضل من غيرها، فلذلك لعنهم الله؛ أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته، والنبي ﷺ ذكر لنا ذلك تحذيرا لنا من أن نتشبه بهم، ونفعل مثل فعلهم، ونتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد؛ كما اتخذها اليهود والنصارى مساجد، ولكن مع الأسف تجد في كثير من البلاد أن المسجد الذي ليس فيه قبر لا يتجه إليه إلا النوادر من الناس، ولا يرغبونه، والمسجد الذي فيه قبر تجد الناس معتكفين فيه، جالسين فيه، ويصلون فيه الفرائض، فهو يضاهي المسجد الحرام. الآن الصلوات الخمس تبث من المسجد الحرام، ويسمعها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ويضاهون المسجد الحرام، فيبثون الصلاة عند القبور: قبر فلان، وقبر فلانة، الست فلانة، وقبر فلان، ويذيعون وينشرون الصلاة عندها؛ مضاهاة للمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، فهؤلاء لاشك لعب بهم شياطين الإنس والجن، والصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).

في المسجد الذي فيه قبر لها قيمة عندهم، وأما الصلاة في المسجد الذي ليس فيه قبر، فلا يرغبونها، وهذه مصيبة. مع أن المسجد الذي ليس فيه قبر هو من بيوت الله، وهو الذي يصلى فيه، أما المسجد الذي فيه قبر، فهو من بيوت الشيطان، ولا تجوز الصلاة فيه، ولا تقبل، ولا تصح.

* * *

وَثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ لَيَالٍ: «إِنَّ مَنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْت مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ، لَا يَبْقَيَن فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلَّا سُدَّتْ إلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ، إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١). [١].

الشرح:

[١] «إِنَّ مَنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ...»، هذه إشارة إلى خلافة أبي بكر من بعده، لما أحس بقرب أجله ﷺ قال هذا الكلام؛ توطئة لاستخلاف أبي بكر من بعده، وأمر أن تسد كل خوخة - يعني: فرجة، أو الباب الذي يدخل منه، يدخل منه بعض الصحابة - إلا خوخة أبي بكر، من أجل ماذا؟ من أجل أن يصلي بالناس، وأما سائر الناس، فيدخلون من الأبواب المعروفة التي يدخل منها المصلون، لكن هذه خوخات خاصة، يدخل منها بعض الصحابة ﷺ، يصلون مع الرسول ﷺ، فأمر بسدها إلا خوخة أبي بكر، هذا إشارة إلى استخلافه ﷺ، وهو أمنّ الناس بصحبته لرسول الله، وبماله - ذات يده يعني: بماله -، فهذا من فضائل أبي بكر الصديق، وفيه دلالة على أنه هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وهذا بإجماع الصحابة ﷺ، أجمع الصحابة ﷺ على بيعة أبي بكر ﷺ، فهذا فيه رد على الرافضة الذين يقولون: إن الخلافة بعد الرسول ﷺ لعلي ﷺ، وأنه الوصي، هو وصي الرسول، والوصاية هذه باطلة لا أصل لها، علي ﷺ من الخلفاء الراشدين، لكن ليس هو أحق بالإمامة من أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، هذا مخالف لإجماع الصحابة ﷺ، ومخالفة لدلالة النصوص على تقديمهم وفضلهم ﷺ، هذا صدر الحديث، وتبرأ أن يكون له من أهل الأرض خليل، لماذا؟ لأنه خليل الله، وخليل الله لايكون له خليل آخر؛ الخلة لا تقبل الاشتراك، فلذلك مع حبه لأبي بكر ﷺ، ومع فضل أبي بكر ﷺ، لم يتخذه خليلا، وإنما اتخذه صاحبا من أصحابه، «أمنكم علي بصحبته»، فأثبت لأبي بكر الصحبة، وبين أنه أفضل الصحابة ﷺ، وأمنهم على رسول الله ﷺ؛ لأنه حماه، ولازمه منذ بعثه الله إلى أن توفاه الله، وأبو بكر ﷺ إلى جانبه يحميه، ويحفظه، ويمده بالمال، ويؤيده، حتى توفي رسول الله ﷺ. آخر الحديث هو محل الشاهد.

«إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. . . »، هذه وصية ثانية، بعدما أوصى أو أشار إلى خلافة أبي بكر، حذر من شيء آخر، وهو البناء على القبور، خشي أن يبنى على قبره؛ كما بُني على قبور الأنبياء من قبله، وهذا من نصحه لأمته ﷺ، هذا من نصحه لأمته، خشي أن يتخذ حيال قبره ما اتخذ حيال قبور الأنبياء السابقين على يد اليهود والنصارى، فمن كمال نصحه ﷺ حذر من هذا قبل أن يموت بخمس - أي: بخمس ليال - قرب وفاته ﷺ.

«أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، هذا نهي بعد نهي. من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد، هذا فيه النهي عن التشبه بهم، ثم قال: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»، هذا نهي آخر تأكيد للأول، ثم قال تأكيدا ثالثًا: «فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»؛ تأكيدات للنهي عن البناء على قبور الأنبياء، ومن باب أولى البناء على من دونهم من الأولياء والصالحين، إذا كانت قبور الأنبياء لا يبنى عليها، وأن من بنى عليها، فهو ملعون، فكيف بمن بنى على من دونهم من الأولياء والصالحين، هو ملعون أشد اللعن، نسأل الله العافية!

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ فِي مَرَضِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، [١] وَذَكَرُوا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهَا تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١). [٢].

الشرح:

[١] والكنيسة هي محل عبادة اليهود والنصارى.

[٢] لما ذكرت له زوجاته اللاتي هاجرن إلى الحبشة ما رأين في أرض الحبشة - الحبشة كانوا نصارى، يبنون الكنائس -، فرأين كنيسة مزخرفة ومزينة، فيها تصاوير للمسيح وهو مصلوب بزعمهم، تصاوير للصالحين؛ كما فعل قوم نوح، الشيطان ما مات، الذي زين لقوم نوح زين لمن بعدهم، ولا يزال يزين، فبين ﷺ يحذر أمته من هذا الصنيع، «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهَا تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»؛ ملعونون، وهم شرار الخلق عند الله، في الحديث الآخر: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»(٢)، فهم شرار الخلق، وهم يعتقدون أنهم من صلاح الخلق، وأن هذا محبة للصالحين، وأن هذا ترغيب في الخير، هم شرار الخلق - والعياذ بالله -؛ لأنهم فعلوا فعلا يبعدهم عن الله، وفعلوا فعلا يغري بالشرك،

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).
(٢) يأتي تخريجه قريبا إن شاء الله.

ويغرر بالناس، المساجد يجب أن تكون خالية من القبور، خالية من الصور، تقام لذكر الله وللصلاة، وعبادة الله وحده لا شريك له، هذه مساجد الله التي أمر ببنائها، ونهى عن بناء المساجد على القبور، وأخبر أنه من فعل اليهود والنصارى، وأن من فعله يستحق اللعنة، وأنه من شرار الخلق عند الله، وما أكثر المساجد المبنية اليوم على القبور! ولا حول ولا قوة إلا بالله!
وإذا نهو عن ذلك، قالوا: أنتم لا تحبون الصالحين، ونحن لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله. كما قال المشركون: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، هذه حجة الأولين، هي حجة هؤلاء.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ [١] عَنْهُ ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»(١). [٢].

الشرح:

[١] في مسند الإمام أحمد، وصحيح أبي حاتم؛ أي: ابن حبان، صحيح ابن حبان.

[٢] من شرار الخلق الذين تدركهم الساعة، وهم أحياء؛ لأن الله يقبض أرواح المؤمنين قبل قيام الساعة، يرسل ريحا طيبة، فتقبض روح كل مؤمن، ولا يبقى إلا شرار الخلق تقوم عليهم الساعة، الساعة لا تقوم على مؤمن. هذا صنف: الذين تدركهم الساعة، وهم أحياء.

والصنف الثاني - وهو محل الشاهد -: الذين يتخذون القبور مساجد، وهم يظنون أنهم من صلاح الخلق، وأن هذا الفعل من محبة الصالحين، والاقتداء بهم، وأن الذي لا يفعل هذا لا يقدر الصالحين، ولا يحبهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن حبان (٦٨٤٧).

وَفِي «الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أنه قال: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»(١). [١] وَفِي «الْمُوَطَّأِ» عَنْهُ ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] لا تجلسوا على القبور؛ لأن هذا فيه إهانة، نهى عن إهانة القبور. «وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»، هذا فيه النهي عن الغلو في القبور، فنهى عن التساهل، ونهى عن الغلو في حق القبور، فلا يتساهل في شأنها وتداس، ويجلس عليها، ولا يغلى فيها، غلو اليهود والنصارى، فيصلى إليها.

[٢] «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»، الوثن هو ما عبد من دون الله، سواء كان شجرة، أو حجرا، أو قبرا، أو صنما، كل ما عبد من دون الله يقال له: وثن، أما ما عبد من دون الله، وهو على صورة إنسان أو حيوان، هذا يقال له: الصنم، النبي ﷺ دعا ربه، فقال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» كما اتخذت القبور، فهذا دليل على أن الغلو في القبور يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ﷻ، وهذا في قبر الرسول الذي هو أشرف قبر، فكيف بغيره من القبور؟! ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله(٣):

وَدَعَا بِأَنْ لَا يَجْعَلَ الْقَبْرَ الذي ... قَدْ ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الْأَوْثَانِ

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٢).

(٣) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٥٢).

فَـأَجَـابَ رَبُّ الـعَـالَمِينَ دُعَـاءَهُ ... وَأحَـاطَـهُ بِـثَـلاثَـةِ الجُدْرَانِ
حَـتَّـى غَـدتْ أَرْجَاؤهُ بِـدُعَـائِـهِ ... فِي عِـزةٍ وَحِـمَـايَـةٍ وَصِـيَـانِ

أحاط قبر الرسول ﷺ بثلاثة الجدران؛ فلا يراه أحد، ولا يدخل إليه أحد أبدا، فهذا من رحمة الله ﷻ.

* * *

وَفِي «السُّنَنِ» عَنْهُ ﷺ أنه قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»(١). [١].

وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»(٢). [٢].

الشرح:

[١] وهذا حديث آخر: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»؛ يعني: لاتكرروا زيارته والسلام، لا يكرر هذا، كلما دخل المسجد، يذهب ويسلم على الرسول، هذا غير مشروع، هذا بدعة، إنما إذا قدم من سفر، سواء كان من أهل المدينة، وهو قد سافر، أو كان قادما إلى المدينة من غير أهل المدينة، فإنه يزور قبر الرسول ﷺ، ويسلم عليه، ولا يكرر هذا، كلما دخل، يذهب إلى القبر، هذا من اتخاذه عيدا، العيد هو ما يعتاد ويكرر، هذا مما يصيره عيدا؛ يعني: يعتاد ويكرر الذهاب إليه وزيارته، وهذا يفضي إلى الشرك به، ودعائه من دون الله، هذا من سد الوسائل المفضية إلى الشرك، حتى وإن كان الزائر يريد السلام، السلام هذا مبتدع، الذي يتكرر كلما دخل، هذا مبتدع، وهذا يعلق قلوب العوام والجهال بقبر الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٨٢)، وفي الأوسط (١/ ١١٧)، وأصله عند أبي داود (٢٠٤٢) بلفظ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧).

[٢] وهذا أيضا فيه بيان أنه لا ميزة للصلاة والسلام عليه عند قبره، لا ميزة لذلك، ومن يصلي ويسلم عليه من بعد، ولو في أقصى الأرض؛ لأن الصلاة والسلام يبلغان للرسول ﷺ، فلا حاجة إلى أنك تأتي عند قبره لتصلي وتسلم عليه، قال ﷺ: «حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ» يعني: في أي مكان «فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»، فلا حاجة أن تذهب للقبر، وتقول: أنا أصلي، وأسلم على الرسول، أنت ومن بالأندلس سواء؛ كما قال ذرية الحسن والحسين: «مَا أَنْتُمْ وَمَنْ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا سَوَاءٌ»[1]؛ يعني: في أقصى المغرب، سواء عند القبر أو بالأندلس سواء، هذا من باب المثل، حتى لو كنت في الصين، أو في أقصى المعمورة، صليت وسلمت على الرسول، يبلغ هذا، فلا حاجة إلى أنك تذهب إليه، وهذا فيه رحمة بالمؤمنين، وتيسير على المؤمنين، وفيه سد لوسيلة الشرك، ومنع التردد على قبره ﷺ.

---

(١) هذا قول الحسن بن الحسين بن علي رضي الله عنه، انظر: الفتاوى الكبرى (٢٧/ ١٢٢).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَائِكَةً يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»(١). [١].

الشرح:

[١] تكرر أن الرسول ﷺ أخبر أنه يبلغ السلام من بعد؛ فلا حاجة إلى الذهاب إلى قبره، وهذا سد لذريعة الشرك والغلو، وفيه تخفيف على المسلمين، وإلا حُرِمَ الناسُ أجر الصلاة والسلام عليه في أي مكان، إذا كان السلام عليه عند قبره فقط، فهذا تضييق، يحرم الناس في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا قال: «حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ»، هذا تيسير على الناس، وقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»(٢)، فيفوت على الناس هذا الفضل العظيم، لو أنه لا يقبل إلا من كان عند قبره، ليس كل الناس يأتون عند قبره، ولا يتيسر لهم هذا. فهذا من التيسير، تيسير من ناحية، وسد لوسيلة الشرك، وهذا هو المقصود من ناحية أخرى، الحمد لله الدين واضح لا لبس فيه لمن طلبه.

---

(١) أخرجه النسائي (٣/ ٤٣)، وأحمد (١/ ٣٨٧). بلفظ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ في الأرض يُبَلِّغُونِي من أُمَّتِي السَّلَامَ».

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ ﷺ: «أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمْعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْك وَقَدْ أَرَمْت - أَيْ بَلِيتَ - فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الْأَنْبِيَاءِ»(١). [١].

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَانُوا صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ، [٢].

الشرح:

[١] وهذا تعليل آخر، التعليل الأول: أنه يبلغ الصلاة والسلام عليه، والتعليل الآخر أنه ﷺ لا تأكله الأرض كما تأكل أجساد الناس، أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض، هذه ميزة لهم عن غيرهم.

[٢] الله ذكر عن قوم نوح أنه لما نهاهم عليه السلام عن عبادة الصالحين، وأمرهم بعبادة الله وحده، تواصوا، وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، ما هذه الآلهة؟ ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، هذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا، صوروا صورهم، ونصبوها، فزين لهم الشيطان عبادتها، فعبدوها، فهذا فيه أن الغلو في القبور قديم، وأن

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ٩١)، وابن ماجه (١٠٨٥).

الغلو في الصالحين قديم من عهد قوم نوح، والشيطان يدعو إليه، فيجب الحذر من هذا، وقالوا مثل هذا للرسول ﷺ، لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥-٦]، لا تتركوها، اصبروا عليها، لا يضلكم هذا الرجل، اصبروا على آلهتكم، (آلهة) اعترفوا أنها آلهة، وهل هناك آلهة؟ الإله واحد ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣]، هم يقولون: لا، هناك آلهة كثيرة. ولما قال لهم أيضا قولوا: لا إله إلا الله. قالوا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦]، قال الله ﷻ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، هذه دعوة المرسلين جميعا؛ أنهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فلم يأت محمد ﷺ ببدع، وإنما هو كإخوانه النبيين، كلهم ينهون عن دعاء غير الله ﷻ من أولهم إلى آخرهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

فَكَانَ هَذَا مَبْدَأَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ(١). [١] فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ لِيَسُدَّ بَابَ الشِّرْكِ، [٢].

الشرح:

[١] يعني من قوم نوح، (مبدأ) أول ما حدث الشرك في الأرض في قوم نوح، وإلا كانوا في الأول صالحين، وعلى التوحيد من عهد آدم، إلى أن صوروا الصور، ونصبوها، فحينئذ حدث الشرك بسبب هذه الصور، فدل على أن نصب الصور والغلو في الأموات يفضي إلى الشرك.

[٢] مساجد يعني: مصليات، وإذا بني عليها، فالأمر أشد، لكن حتى لو لم يبن عليها، فالذي يذهب إلى القبور، ويصلي عندها، اتخذها مساجد، ولو ما بُني عليها مساجد.

فالذي يذهب إلى القبور، ويدعو عندها، هذا يدعو الله ﷻ، لكن دعاءه في هذا المكان فيه تشبه بالذين يدعون القبور، وإن كان لا يدعو إلا الله، لكن لما تشبه بهم، خشي أن يفعل مثل فعلهم، فهذا فيه سد الوسائل المفضية إلى

(١) أخرج البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «صَارَتْ الْأَوْثَانُ التي كانت في قَوْمِ نُوحٍ في الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كانت لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كانت لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سبأ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ من قَوْمِ نُوحٍ، فلما هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمْ التي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا، فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ». وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٩٨، ٩٩)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧)، وفتح الباري (٨/ ٦٦٩).

الشرك ؛ كما أنه نهى ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس، وعند غروبها ، مع أن المصلي يصلي لله ، لكن لما كان المشركون يعبدون الشمس ؛ عند غروبها يسجدون لها ، وعند بزوغها يسجدون لها ، فالمسلم لا يتشبه بهم ، وإن كان لا يصلي إلا لله ، فهذا من سد الذريعة المفضية إلى الشرك . ولا يزال من المشركين من يسجد للشمس عند غروبها إلى الآن، طوائف من المشركين يسجدون للشمس عند طلوعها وعند غروبها ، فالشر لم ينقطع . في وقت قريب جاؤوا بقناة من القنوات بطائفة يسجدون للشمس ، يصورونهم وهم يسجدون للشمس عند غروبها ، وعند طلوعها ، الشر لم ينقطع ، نسأل الله العافية!

كَمَا نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَوَقْتَ غُرُوبِهَا ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ حِينَئِذٍ، وَالشَّيْطَانُ يُقَارِنُهَا وَقْتَ الطُّلُوعِ وَوَقْتَ الْغُرُوبِ، فَتَكُونُ فِي الصَّلَاةِ حِينَئِذٍ مُشَابَهَةٌ لِصَلَاةِ الْمُشْرِكِينَ، [١] فَسَدَّ هَذَا الْبَابَ. [٢] وَالشَّيْطَانُ يُضِلُّ بَنِي آدَمَ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، فَمَنْ عَبَدَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَدَعَاهَا - كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ - فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يُخَاطِبُهُ وَيُحَدِّثُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ، وَهُوَ شَيْطَانٌ. [٣].

الشرح:

[١] تخرج بين قرني شيطان، هذا أيضًا سبب آخر للنهي؛ أن الشيطان يخرج معها، فلذلك نهي؛ لئلا يكون السجود تشبهًا بالذين يسجدون للشيطان؛ لأن هناك من يعبدون الشيطان.

[٢] انظروا إلى أن الرسول ﷺ سد الباب من جهة المكان؛ فلا يصلى عند القبر، وسد الباب من جهة الزمان؛ فلا يصلى عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ خشية أن يتشبه بعباد الشمس.

[٣] ويظن أنه الكوكب الذي يسجد له، أو الشمس وهو شيطان.

وَالشَّيْطَانُ وَإِنْ أَعَانَ الْإِنْسَانَ عَلَى بَعْضِ مَقَاصِدِهِ، فَإِنَّهُ يَضُرُّهُ أَضْعَافَ مَا يَنْفَعُهُ، [١] وَعَاقِبَةُ مَنْ أَطَاعَهُ إِلَى شَرٍّ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. [٢] وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ قَدْ تُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ، [٣].

الشرح:

[١] الشيطان قد ينفع الإنسان في بعض مقاصده، لكن المضرة أكثر، وهي: ضياع الدين، والشرك بالله ﷻ، فإذا كان الشيء فيه مصلحة قليلة، وفيه مفاسد كثيرة، فإنه يحرم، ولا ينظر إلى ما فيه من المصلحة القليلة.

[٢] من أطاع الشيطان، فلا شك أنه خاسر، وأن عاقبته إلى شر إلا أن يتوب، والشيطان لا يقف عند حد، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] الشيطان يتدرج بالإنسان شيئا فشيئا، حتى يوصله إلى النهاية في الكفر والإلحاد، يطمع منه في أول شيء باليسير؛ ليؤسس معه، ثم ينتقل معه شيئا فشيئا حتى النهاية بالكفر.

[٣] هذا سبق أنه ما يحتج بحصول المقصود والحاجة، أما إذا كانت الوسيلة والعمل شرك، لا يحتج بحصول الحاجة وحصول المقصود، فإن الشيطان أيضا يأتي إلى عباد القبور، ويخرج عليهم بصورة الميت، ويخاطبهم، ومن يعبد الصنم، يأتي ويدخل في الصنم، ويخاطبه، وهو يظن أنه الصنم، وهو الشيطان، وهكذا، الشيطان عنده مقدرة لا يراها الإنس، ولا يقدر عليها؛ فيغر بني آدم.

وَكَذَلِكَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِمَيِّتٍ أَوْ غَائِبٍ، وَكَذَلِكَ مَنْ دَعَا الْمَيِّتَ أَوْ دَعَا بِهِ، أَوْ ظَنَّ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي الْبُيُوتِ وَالْمَسَاجِدِ. [١] وَيَرْوُونَ حَدِيثًا هُوَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَهُوَ: «إِذَا أَعْيَتْكُمْ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ»(١). [٢].

الشرح:

[١] فإن الشيطان يتمثل له، ويخاطبه، ويظن أن هذا هو الميت خرج إليه، وقضى حاجته، وهو الشيطان؛ لأن الميت لا يخرج من قبره، ولا يرجع إلى الدنيا أبدا، إنما هذا هو الشيطان يخرج له.

[٢] سبحان الله! هل هذا حديث عن الرسول ﷺ الذي ينهى عن الشرك، ويسد كل الوسائل المفضية إليه؟! هل يهدم هذا كله بهذا الكلام، فيقول: إذا أعيتكم الأمور - يعني: إذا أعجزتكم الأمور -، فعليكم - هذا حث - عليكم بأصحاب القبور؟! هذا يصدر من نبي؟! لا يصدر هذا من عالم محقق، بل لا يصدر هذا من عامي مسلم، فكيف يصدر من نبي؟! كيف يصدر من خاتم النبيين ﷺ؟! فهذا علامات الوضع عليه ظاهرة على متنه، وسنده موضوع أيضا، فهو موضوع متنا وسندا، ومخالف للقرآن والسنة، ولكن يتمسك به من يتمسك.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان (١/ ٢١٥): «هذه أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الأوثان».

وَإِنَّمَا هَذَا وَضْعُ مَنْ فَتَحَ بَابَ الشِّرْكِ. [١].

وَيُوجَدُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَالنَّصَارَى وَالضُّلَّالِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْوَالٌ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ [٢] يَظُنُّونَهَا كَرَامَاتٍ وَهِيَ مِنَ الشَّيَاطِينِ، مِثْلُ: أَنْ يَضَعُوا سَرَاوِيلَ عِنْدَ الْقَبْرِ فَيَجِدُونَهُ قَدْ انْعَقَدَ، [٣].

الشرح:

[١] هذا من وضع من فتح باب الشرك للناس، فليس حديثا عن الرسول ﷺ، ولا يصدق مسلم عامي - فضلا عن العلماء - أن هذا حديث عن الرسول ﷺ، الذي مكث ثلاثا وعشرين سنة ينهى عن الشرك، ويأمر بتوحيد الله، يأتي بهذا الحديث الذي يهدم كل دعوته! حاشا، وكلا.

[٢] يعني: عند القبور، هي تسمى مشاهد، ولا تسمى مساجد.

[٣] يضعون عند القبر سراويل مفتوحًا، فيجدونه قد انعقد، من الذي عقده؟ هل السروال عقد نفسه؟ لا، هذا شيطان عقده؛ ليغرهم.

أَوْ يُوضَعُ عِنْدَهُ مَصْرُوعٌ فَيَرَوْنَ شَيْطَانَهُ قَدْ فَارَقَهُ. [١].

يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ هَذَا لِيُضِلَّهُمْ، وَإِذْ قَرَأْت آيَةَ الْكُرْسِيِّ هُنَاكَ بِصِدْقٍ بَطَلَ هَذَا، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ؛ [٢] وَلِهَذَا حُمِلَ بَعْضُهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَسَقَطَ. وَمِثْلُ أَنْ يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّ الْقَبْرَ قَدْ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ إنْسَانٌ، فَيَظُنُّهُ الْمَيِّتُ وَهُوَ شَيْطَانٌ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ. [٣].

الشرح:

[١] أو يأتون بالمصروع إلى القبر، فيرون شيطانه قد فارقه، ويقولون: هذا ببركة الولي. وهو شيطان تركه، وكان ملابسا له، ثم تركه؛ لأجل أن يغرهم -والعياذ بالله-.

[٢] هذا من علامات بطلان خوارق الشياطين؛ أنها إذا قرئ القرآن، بطلت، وتعطلت، فإذا قرأت آية الكرسي، بطلت هذه الخرافات والخوارق الشيطانية، هذا من علامة أنها ليست كرامات.

[٣] حمله شيطان، فعلى فطرته قال: لا إله إلا الله. فسقط على الأرض، وهرب الشيطان، وانطرد. والشيخ ﵀ وضح غاية الإيضاح، ولكن يعتذر بضيق الموضع، وإلا عنده أكثر من هذا.

وَلَمَّا كَانَ الِانْقِطَاعُ إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْبَوَادِي مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ صَارَتْ الشَّيَاطِينُ كَثِيرًا مَا تَأْوِي إِلَى الْمَغَارَاتِ وَالْجِبَالِ، [١].

الشرح:

[١] المطلوب من المسلم أن يكون صادقا في سره وعلانيته، واضحا لا يضمر غير ما يتكلم به، والإسلام - ولله الحمد - دين ظاهر، ليس سريًا، أو منظمة سرية؛ كما يسمون المنظمات السرية، بل الإسلام علانية؛ كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، دين ظاهر في نفسه، وظاهر على غيره من الأديان منتصر عليها، ليس فيه خفاء أو أسرار، إنما هو ظاهر للعيان، فالذين يتنحون، ويعتزلون المسلمين، يعتزلون مجالس العلماء في المساجد أو في دور العلم، وينزوون إلى المغارات والكهوف والاستراحات، وما أشبه ذلك، هؤلاء عندهم شيء مكتوم، لا يحبون أن يظهر أحد عليه، وهذا ليس من الإسلام، ولهذا قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: (إذا رأيت قوما يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة)[١] يتناجون في شيء من أمور الدين، أمور الدين واضحة، ما فيها خفاء، إنما تكون السرية في الأمور غير الصحيحة، التي يتكتم عليها، أما الإسلام - ولله الحمد -، فهو علانية، وظاهر على رؤوس الأشهاد، ينادى به على رؤوس الأشهاد في

(١) انظر: اعتقاد أهل السنة للآلكائي (١/ ١٣٥)، وتلبيس إبليس (١/ ٨١).

المآذن، على رؤوس المآذن، وينادى به في الدروس العلمية عند العلماء، ينادى به في دور العلم المعروفة، ليس فيه شيء سري، لا يعطى إلا لأناس خاصين؛ كما عند الفرق الضالة، كما عند الدروز وغيرهم في الخلوات، والأسرار التي يخفونها حتى عن أولادهم وتلاميذهم، فدين الإسلام علانية، ظاهر واضح، فإذا رأيت من ينتحون عن مجالس العلم، وعن حضور المساجد، حتى الجمع والجماعات لا يصلون مع المسلمين - من يتبنى هذا الفكر ينعزل عن المسلمين، ولا يصلي لا جمع ولا جماعات -، فهذا واضح أنه مكر من الشيطان، أو تكون لهم سراديب وخلوات يختفون فيها، هذا ليس دين الإسلام، دين الإسلام للجميع، ويعلن للجميع، ولهذا لما اعتزل واصل بن عطاء الغزال وأتباعه عن مجلس الحسن البصري، ماذا نتج عن هذا؟ نتج عن هذا مذهب المعتزلة الضال المنحرف، الذي لا يزال المسلمون يعانون منه، فدين الإسلام دين الجماعة، ودين المحبة في القلوب، دين التعاون على البر والتقوى، فمن صفات المنحرفين أنهم يختفون، ويبيتون أشياء، يبيتون أشياء للمسلمين، ولو كانوا صرحاء، لبرزوا مع الناس، فهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، فدين الصوفية هو من هذا النوع، فلهم خلوات، ولهم أمكنة يختفون فيها، ويلقن بعضهم بعضا دين التصوف، ومنهم من يعتزل أربعين يوما، ثم يخرج على الناس، وقد انفتح عليه باب معرفة وباب فهم، وهذا كله من الشيطان، فالشياطين تحضر الأمكنة الخالية، فالشياطين لا تحضر في المساجد، ولا تحضر دروس العلم، إنما تحضر في المغارات

والكهوف والأشياء الخفية؛ حتى يلقنوا هؤلاء المغرورين هذه الأسرار الخبيثة، فإذا رأيت قوما ينعزلون، ويخرجون من البلد، ويجتمعون في مكان فاعلم أن عندهم أمورا باطنة خبيثة، لو كان عندهم خير، ما أخفوه، كانوا أعلنوه في المساجد وفي الدروس، فكونهم ينعزلون، فهذا دليل أن عندهم شرا، لا يحبون أن أحدا يطلع عليه: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء: ١٠٨]، فهذا شيء مسبوقون إليه، يستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله، إذا صاروا في غار، أو في كهف، أو في استراحة، أو في مكان خال، الناس لا يعلمون عنهم، فإن الله يعلم ما هم عليه، ويعلم ما يبيتون من القول، وسييسر للمسلمين القضاء عليهم؛ كما هو معروف في التاريخ من القضاء على هذه الفرق الضالة.

مِثْلِ: مَغَارَةِ الدَّمِ الَّتِي بِجَبَلِ قاسيون، وَجَبَلِ لُبْنَانَ الَّذِي بِسَاحِلِ الشَّامِ، وَجَبَلِ الْفَتْحِ بِأَسْوَانَ بِمِصْرِ، وَجِبَالٍ بِالرُّومِ وَخُرَاسَانَ، وَجِبَالٍ بِالْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَجَبَلِ اللُّكَام، وَجَبَلِ الأحيش، وَجَبَلِ سولان قُرْبَ أردبيل، وَجَبَلِ شُهْنَك عِنْدَ تَبْرِيزَ، وَجَبَلِ ماشكو عِنْدَ أَقْشْوَان، وَجَبَلِ نَهَاوَنْدَ، [١] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْجِبَالِ الَّتِي يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ بِهَا رِجَالًا مِنْ الصَّالِحِينَ [٢].

الشرح:

[١] يبحثون عن الكهوف والجبال يختفون فيها؛ من أجل أن يدبروا أمرهم ضد المسلمين، وينفثوا سمومهم التي في صدورهم، ومنهم شيخهم في هذه المغارات الشيطان، شيخهم الشيطان سول لهم وأملى لهم، نسأل الله العافية!

[٢] وهذه المشكلة أنهم يظنون أن بها رجالًا من الصالحين، من رجال الغيب، الذين يسمونهم: رجال الغيب، وهم شياطين، يمكن أن يتصوروا لهم، ويأتوهم في صورة رجال، ويجلسوا معهم، ثم يلقنوهم هذه الأفكار الخبيثة؛ لأن الشيطان إذا انقطع الإنسان عن إخوانه المسلمين، تسلط عليهم، ولهذا حث النبي ﷺ على الجماعة، ونهى عن الانفراد، وقال: «إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ»(١)، وإن الشيطان ذئب الإنسان،

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ٣٣٠)، والسخاوي في المقاصد الحسنة (١/ ٣٧٧)، وأخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧) بنحوه.

فالمسلم يكون مع المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ولذلك شرع الله لنا الاجتماعات في العبادة؛ الصلوات الخمس، في الجمعة، في الأعياد، في عرفة، اجتماعات يجتمع فيها المسلمون، ليس كل واحد يذهب لجبل أو لغار، ويقول: أنا أعبد الله. لما سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ رَجُلٍ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ، لَا يَشْهَدُ جُمْعَةً وَلَا جَمَاعَةً؟ فَقَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ»[١]. وأنتم تسمعون في كل خطبة: «وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ»، هذا حديث، هذا نص حديث: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ»[٢]، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٦٦)، وأصله عند النسائي(٤٠٢١) بلفظ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ...».

مِنْ الْإِنْسِ وَيُسَمُّونَهُمْ رِجَالَ الْغَيْبِ، [١] وَإِنَّمَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ الْجِنِّ، فَالْجِنُّ رِجَالٌ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ رِجَالٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]. [٢].

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظْهَرُ بِصُورَةِ رَجُلٍ شعراني، جِلْدُهُ يُشْبِهُ جِلْدَ الْمَاعِزِ، فَيَظُنُّ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ أَنَّهُ إِنْسِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ جِنِّيٌّ، [٣].

الشرح:

[١] رجال الغيب، وهم شياطين. رحمه الله ما أوسع اطلاعه! وما أعظم نصحه للمسلمين!

[٢] كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، الجن لهم رجال، يظهرون في صورة رجال.

[٣] وشيطان الإنس أخطر على المسلمين من شيطان الجن، يقولون: شيطان الإنس. الإنس لهم شياطين؛ قال ﷻ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فأخبر أن للإنس شياطين، وهم أخطر من شياطين الجن؛ لأن الشيطان الجني إذا ذكرت الله، فر، أما شيطان الإنس، إذا ذكرت الله مرة، ذكره مائة مرة، وهو على ما هو عليه من الضلال، ولا يذهب، فهو أخطر على الناس منه، الضالون من الإنس أشد من شياطين الجن. هل الإنسي يكون في لون الماعز، وفي صورة الماعز؟ هذا شيطان.

وَيُقَالُ: بِكُلِّ جَبَلٍ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ الْأَرْبَعُونَ الْأَبْدَالُ، [١] وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُظَنُّ أَنَّهُمْ الْأَبْدَالُ هُمْ جِنٌّ بِهَذِهِ الْجِبَالِ، [٢] كَمَا يُعْرَفُ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَهَذَا بَابٌ لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِبَسْطِهِ وَذِكْرِ مَا نَعْرِفُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ، [٣] الَّذِي كُتِبَ لِمَنْ سَأَلَ أَنْ نَذْكُرَ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُعْرَفُ بِهِ جُمَلُ ذَلِكَ. [٤].

الشرح:

[١] والأبدال ليسوا هؤلاء، ورد فيهم أثر، الأبدال سموا أبدالا؛ لأنهم يخلف بعضهم بعضا، وهم رجال صالحون، وقليلون في القرون - إن صح فيهم الأثر -، وهم ليسوا هؤلاء الجن، هؤلاء صالحون، علماء.

[٢] وليسوا الأبدال.

[٣] يكفينا ما ذكرت.

[٤] اطلاع الشيخ شيء عجيب، وإحاطته بالأخبار والأشياء، فتح الله عليه فتحا عظيما، وهذا ببركة العلم والعمل، والعلم النافع والعمل الصالح، والدعوة إلى الله. وهذا المؤلف كله جواب لمسألة واحدة: سئل عن الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وما كتبه على أنه مؤلف، كتبه على أنه جواب لسؤال.

وَالنَّاسُ فِي خَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: [١].

قِسْمٌ يُكَذِّبُ بِوُجُودِ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرُبَّمَا صَدَّقَ بِهِ مُجْمَلًا وَكَذَّبَ مَا يُذْكَرُ لَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ لِكَوْنِهِ عِنْدَهُ لَيْسَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ. [٢].

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ نَوْعٌ مِنْ خَرْقِ الْعَادَةِ كَانَ وليًّا لِلَّهِ. وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ خَطَأٌ؛ [٣].

الشرح:

[١] كما سبق بيانه: أناس غلوا في نفيها كالمعتزلة، ينكرونها، ينكرون خوارق العادات، يسمون الآن: العقلانيين، ينكرون المعجزات، وينكرون الكرامات، يقولون: ليس هناك كرامات، وأناس غلوا في إثباتها، حتى عدوا خوارق الشيطان من الكرامات. هؤلاء غلوا في الإثبات، والوسط هم الذين أثبتوا الكرامات، أثبتوا المعجزات والكرامات على ضوء الكتاب والسنة، ونفوا ما عداها، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة.

[٢] بل العقلانيون أنكروا حتى معجزات الأنبياء، العقلانيون المعاصرون أنكروا حتى معجزات الأنبياء، لكن المعتزلة الذين هم سلفهم أثبتوا معجزات الأنبياء، وأنكروا كرامات الأولياء، يقولون: لئلا تشتبه كرامة الولي بمعجزة النبي.

[٣] هذا الذي غلا في الإثبات لم يفرق بين الكرامة وخارق الشيطان. والذي غلا في النفي، والذي غلا في الإثبات كلاهما مخطئ.

وَلِهَذَا تَجِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ أَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ نُصَرَاءَ يُعِينُونَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ. [١].

وَأُولَئِكَ يُكَذِّبُونَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ مَنْ لَهُ خَرْقُ عَادَةٍ. [٢].

الشرح :

[١] أثبتوا الكرامات، حتى للكفار من اليهود والنصارى؛ لأن عندهم خارق العادة كرامة مطلقا، لا يفرقون بين الكرامة، وبين خارق الشيطان.

[٢] أولئك الذين ينفون. والشيطان حضر مع الكفار في بدر؛ كما ذكر الله، حضر مع الكفار في بدر يحرضهم على المسلمين، يقول: إني جار لكم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، فلما رأى الملائكة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، هرب مدبرا، ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فهو يحضر معهم، لكن إذا رأى قوة المسلمين، ورأى ذكر الله، ورأى الملائكة، انهزم.

وَالصَّوَابُ: الْقَوْلُ الثَّالِثُ، وَهُوَ: أَنَّ مَعَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ﷻ؛ [١] كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] [٢].

وَهَؤُلَاءِ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. [٣].

الشرح:

[١] معهم من ينصرهم من جنسهم من الكفار، والشياطين، كما حضر في بدر.

[٢] الشاهد في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، فالذي يحضر معهم إنما هو من جنسهم من الكفار، وليس من المسلمين.

[٣] العبادة إذا كانت على غير الشريعة، فهي عبادة باطلة، هناك عباد، النصارى عباد ورهبان، يبكون، وينقطعون عن الدنيا، ويخلون في الصوامع، ويبكون بكاء شديدا، وهم في النار؛ لأنهم على غير شريعة الله ﷻ، العبادة إذا كانت ليست على طريق صحيح، فهي باطلة، وتعب بلا فائدة، والزهد يزهدون أيضا، عندهم زهد في الدنيا، زهاد من الهند وغيرها، يزهدون في الدنيا، ليس الزهد قاصرًا على المسلمين، الكفار فيهم زهاد، لكن على غير طريق صحيح، زهد على غير طريق صحيح، وإلا مثلا غاندي رئيس الهند، والذي خلصها من الإنجليز، هذا زاهد،

وتارك للدنيا ، ويتغذى من حليب عنز معه، يذهب بها إلى المؤتمرات من الزهد، لكنه زنديق وكافر. فالزهد منه زهد صحيح شرعي، ومنه زهد كذب.

تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ، فَيَكُونُ لِأَحَدِهِمْ مِنْ الْخَوَارِقِ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ؛ [١] لَكِنَّ خَوَارِقَ هَؤُلَاءِ يُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِذَا حَصَلَ مَنْ لَهُ تَمَكُّنٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَبْطَلَهَا عَلَيْهِمْ، [٢] وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمْ مِنْ الْكَذِبِ جَهْلًا أَوْ عَمْدًا، وَمِنْ الْإِثْمِ مَا يُنَاسِبُ حَالَ الشَّيَاطِينِ الْمُقْتَرِنَةِ بِهِمْ؛ لِيُفَرِّقَ اللَّهُ بِذَلِكَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ. [٣].

الشرح:

[١] فرق بين الكرامات التي هي من الله، وبين خوارق الشيطان التي تجري على يد الفاسق والمنحرف والكافر، هذه خوارق شيطانية. كرامات الأولياء لا تتعارض؛ لأنها من عند الله، وأما خوارق الشياطين، فهي تتعارض؛ لأنها باطل، والباطل لا يتفق، بل يختلف.

[٢] وتبطل عند ذكر الله ﷻ، خوارق الشيطان تبطل عند ذكر الله، كرامات الأولياء تزيد مع ذكر الله ﷻ، وتقوى.

[٣] لما ناظر شيخ الإسلام البطاحية -الذين هم الرفاعية-، قالوا: نحن ندخل النار، ولا تضرنا، فقال لهم: أنا أدخل معكم النار بشرط أننا نغسل أرجلنا، هم كانوا يضعون على أرجلهم أشياء مضادة للنار، ويمرون عليها، ويقولون: دخلنا فيها؛ لأنهم وضعوا على أرجلهم واقيا، قال: أنا أدخل معكم النار، لكن نغسل أرجلنا بكذا وكذا قبل الدخول، فلما قال ذلك، أبوا؛ لأنه عرف مكرهم وحيلهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، **وَالْأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ، وَالْأَثِيمُ: الْفَاجِرُ. [١].**

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُقَوِّي الْأَحْوَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ سَمَاعُ الْغِنَاءِ وَالْمَلَاهِي، وَهُوَ سَمَاعُ الْمُشْرِكِينَ، [٢].

الشرح:

[١] لأنهم قالوا: إن القرآن إنما هو سحر، تنزلت به الشياطين على محمد. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١٢]، إلى أن قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]، الشياطين ما تتنزل على أولياء الله، إنما تتنزل على أعداء الله؛ لتفتنهم.

[٢] هذا فرق آخر بين خوارق الشيطان وكرامات الرحمن: كرامات الرحمن تقوى مع ذكر الله ﷻ، وخوارق الشيطان تقوى مع المعاصي، مع الغناء والدفوف؛ لذلك يحضرون الدفوف، ويقولون: نحن أولياء، ويحضرون الدفوف والمغنيين، ويغنون، ويضربون الدفوف، ويسمون هذا ذكرًا لله، وهو ذكر للشيطان. هذا لهو وباطل، فخوارقهم تنشط مع المعاصي والدفوف والمزامير، والأغاني الماجنة، أما كرامات الأولياء، فإنما تزيد بذكر الله ﷻ، وبطاعة الله، هذا فرق.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَر رضي الله عنهما وَغَيْرُهُمَا مِنَ السَّلَفِ: التَّصْدِيَةُ: التَّصْفِيقُ بِالْيَدِ، وَالْمُكَاءُ: مِثْلُ الصَّفِيرِ(١). فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَّخِذُونَ هَذَا عِبَادَةً. [١].

الشرح:

[١] سماع المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الكعبة ﴿مُكَآءً﴾، وهو الصفير، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾، وهو التصفيق، يصفرون ويصفقون، ومن العجائب أنه في المباريات تسمع التصفيق والصفير، أما تسمعون هذا؟ سبحان الله! تسمع عندهم تصفيق وصفير، هذا من أين ورثوه؟ ورثوه من المشركين. فيتخذون التصفيق والصفير عبادة، وهو معصية.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٥٢٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٧ - ٣٠٨).

وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَعِبَادَتُهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالِاجْتِمَاعَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَلَى اسْتِمَاعِ غِنَاءٍ قَطُّ، لَا بِكَفٍّ وَلَا بِدُفٍّ وَلَا تَوَاجُدٍ وَلَا سَقَطَتْ بُرْدَتُهُ، [١] بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِهِ(١) [٢].

الشرح:

[١] ما اجتمع النبي ﷺ ولا أصحابه على الأغاني والدفوف، وإنما يجتمعون على تلاوة القرآن، على ذكر الله، وعلى دروس العلم. هذا الذي يجتمعون عليه، أما أولئك، فيجتمعون على المكاء والتصدية، والطبول، والمزامير، والأغاني التي تفسد القلوب، وتلهي عن ذكر الله ﷻ.

[٢] يكذبون على الرسول ﷺ، ويقولون: إنه حضر مجلس صوفية، وسمع الغناء:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الْهَوَى كَبِدِي ... فَلَا طَبِيبَ لَهَا وَلَا رَاقِي

يقولون: لما سمع الرسول هذا البيت، تمايل، حتى سقطت بردته. وهذا من الكذب على رسول الله ﷺ. الحمد لله أن الله قيَّض لأحاديث الرسول الحفاظ المتقنين الذين نقدوها، وأخرجوا صحيحها من ضعيفها، من موضوعها، وميزوها؛ فلم يتمكن هؤلاء من الدس على رسول الله ﷺ،

---

(١) سبق بيان كذب هذه الحكاية (١/ ١٢٩).

وهذا مصداق لقوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فلا يتمكن ملحد أو منافق أن يكذب على رسول الله ﷺ؛ لوجود هؤلاء الحفاظ.

وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ وَالْبَاقُونَ يَسْتَمِعُونَ، [١] وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: ذَكِّرْنَا رَبَّنَا. فَيَقْرَأُ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ(١)، [٢].

الشرح:

[١] اجتمعوا على كتاب الله، ويقولون: هذا ذكر لله.

[٢] كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه له صوت حسن في القرآن، وكان النبي ﷺ يستمع إليه، وهو يصلي بالليل، ويتلذذ بصوته رضي الله عنه، وكان عمر رضي الله عنه إذا اجتمعوا، أمره أن يقرأ، وهم يستمعون، يتلذذون بالقرآن، ما يتلذذون بالمكاء والتصدية والدفوف والأغاني.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧١٩٦)، والدارمي (٢/ ٥٦٤)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ٤٨٦).

وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَقْرَأُ، [١] فَقَالَ لَهُ: «مَرَرْت بِك الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَجَعَلْت أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ» فَقَالَ: لَوْ عَلِمْت أَنَّك تَسْتَمِعُ لَحَبَّرْته لَك تَحْبِيرًا(١). [٢] أَيْ: لَحَسَّنْته لَك تَحْسِينًا. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»(٢)، [٣].

الشرح:

[١] يعني: في الليل يصلي.

[٢] يعني: لو علم أن الرسول يستمع إليه، لزين صوته أكثر مما سمعه الرسول ﷺ؛ لأن الله أعطاه حسن الصوت.

[٣] ولذلك يستحب لقارئ القرآن أن يزينه بصوته، ولا يهذه هذَّ الشعر، أو ينثره نثر الدَّقل(٣)، وإنما يزينه بصوته، ويؤديه أداء حسنا؛ حتى يؤثر في نفسه، ويؤثر على السامعين، لكن لا يبالغ بما يسمونه التجويد الآن: يمطون القرآن، ويشتدون في الغنة ومخارج الحروف، حتى يولدوا حروفا زائدة، ويمللوا السامع، ويثقلون على المصلين بهذه التلاوة المتكلفة، القرآن إذا جاء عن اعتدال، أثَّرَ، وإذا جاء عن تكلف، فإنه لا يؤثر.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧١٩٧)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٢)، وأصله في البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢).

(٣) أخرج البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٦٠) قول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تهذوا القرآن هذا الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب»، والدقل هو: الرديء اليابس من التمر. انظر: لسان العرب (١١/ ٢٤٦).

وَقَالَ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ أُذُنًا -أَيْ اسْتِمَاعًا- إِلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ»[(١)]، [١].

الشرح:

[١] الأذن يطلق على السماع؛ كما قال عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]؛ يعني: يستمع للوشاة، يصفون الرسول ﷺ بأنه يستمع للوشاة - قبحهم الله -[(٢)]، أذن يعني: يسمع. الله ﷻ يحب من عبده أن يتغنى بالقرآن، قال ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»[(٣)]؛ يعني: يحسن صوته. المراد بالتغني: تحسين الصوت، لا أنه يجعله على شكل الأغاني والتمطيط، بل يتغنى يعني: يحسن صوته بالقرآن؛ لأنه يقرأ كلام الله، لا يقرأ كلام مخلوق، بل يقرأ كلام الله، فيستعد لإلقائه على أحسن ما يستطيع.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٤٠)، وأحمد (٦/ ١٩).
(٢) انظر: الطبري (٦/ ٤٠٥)، والقرطبي (٨/ ١٧٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَقَالَ ﷺ لِابْنِ مَسْعُودٍ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ»، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْك وَعَلَيْك أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: «إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْت عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى انْتَهَيْت إلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُك»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ مِنْ الْبُكَاءِ(١). [١].

الشرح:

[١] وممن استمع إليهم النبي ﷺ، وتشرفوا بسماع النبي منهم ابن مسعود رضي الله عنه، وكان متقنا لقراءة القرآن، فطلب منه الرسول ﷺ أن يقرأ عليه، قال: أَقْرَأُ عَلَيْك وَعَلَيْك أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: «إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فدل هذا على فضل استماع القرآن، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فدل هذا على فضل الاستماع للقرآن.

هذا دليل على أن الرسول وأصحابه إنما يتلذذون بالقرآن، لا بالأغاني والدفوف والمزامير، يتلذذون بالقرآن، وذكر الله ﷻ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

وَمِثْلُ هَذَا السَّمَاعِ هُوَ سَمَاعُ النَّبِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم: ٥٨]. [١].

الشرح:

[١] لما ذكر الأنبياء في سورة مريم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾، التوراة والإنجيل والقرآن والزبور كتب منزلة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، فيتأثرون بها، ويسجدون لله ﷻ عند سماعها. وقال ﷻ في سورة الإسراء: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن، سجدوا، المراد بأهل الكتاب: المؤمنون منهم، المؤمنون من أهل الكتاب: كالنجاشي وغيره.

وَقَالَ فِي أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. [١].

وَمَدَحَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ هَذَا السَّمَاعِ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَاقْشِعْرَارِ الْجِلْدِ وَدَمْعِ الْعَيْنِ، [٢].

الشرح:

[١] ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣] هذا في المؤمنين منهم ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٤].

[٢] ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، القرآن يطلق عليه أنه كله متشابه؛ يعني: يشبه بعضه بعضا في الحسن، ويطلق عليه كله أنه محكم: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]؛ يعني: أتقنت، بمعنى الإتقان، ويطلق عليه أن بعضه محكم، وبعضه متشابه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣] [١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. [٢].

الشرح:

[١] مثاني يعني: تكرر آياته، تكرر أخباره وقصصه؛ لأجل التأثير على القارئ والسامع، تجدون مواعظ القرآن وأخبار القرآن مكررة، هذه المثاني. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، فهو يلين القلوب، ويلين الجلود ذكر الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢].

[٢] الشاهد من هذه الآيات كلها أن سماع المؤمنين هو القرآن، وليس الأغاني والألحان التي عند الصوفية، والكفار، والمشركين، هؤلاء سماعهم الأغاني، والدفوف، والمزامير، وأما المؤمنون، فسماعهم الذي يتلذذون به، وتلين به قلوبهم، وتقشعر جلودهم من مواعظه هو: القرآن الكريم، فرق بين هذا وهذا، ولذلك تجد المفتون إذا سمع القرآن، أغلق المذياع، وإذا سمع الأغاني، انبسط وفرح، وتجده لا يصبر على القرآن ولا دقيقة أو دقيقتين، أما الأغاني، يمكن أن يقضي كل ليله ونهاره

مع الأغاني والمزامير، بل إن بعضهم يترك عمله، أو يترك الصلاة، ويذهب إلى أغنية فلانة؛ لأنه جاء موعدها في البرنامج، فيذهب ويحضرها؛ لئلا تفوته؛ لأن قلبه مربوط بها - والعياذ بالله -.

وَأَمَّا السَّمَاعُ الْمُحْدَثُ - سَمَاعُ الْكَفِّ وَالدُّفِّ وَالْقَصَبِ - فَلَمْ تَكُنْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ الْأَكَابِرِ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ يَجْعَلُونَ هَذَا طَرِيقًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، [١] وَلَا يَعُدُّونَهُ مِنْ الْقُرَبِ وَالطَّاعَاتِ؛ [٢].

الشرح:

[١] لا يجعلون الأغاني والدفوف والمزامير طريقا إلى الله، وإلى تليين القلوب، بالعكس الغناء والمزامير والدفوف تقسي القلوب، وتزرع النفاق في القلوب، وتزرع الشهوة والعشق في القلوب، بخلاف القرآن؛ فإنه يزرع الخشية والخوف والطمع فيما عند الله، والخوف مما أعد الله للكافرين.

[٢] كما يعده هؤلاء؛ لأن الصوفية يعدون الأغاني والدفوف من الطاعات، فلذلك يأتون بها إلى المساجد، ويقيمونها في المساجد، بدل القرآن.

بَلْ يَعُدُّونَهُ مِنَ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ، حَتَّى قَالَ الشَّافِعِيُّ: خَلَّفْت بِبَغْدَادَ شَيْئًا أَحْدَثَتْهُ الزَّنَادِقَةُ يُسَمُّونَهُ التَّغْبِيرَ، يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنْ الْقُرْآنِ(١) [١].

الشرح:

[١] والتغبير هو: الأغاني، والمزامير، والدفوف. يقول الشافعي: أحدثوه في بغداد، ما كان معروفا عند السلف وأهل العلم.

---

(١) انظر: هذا الأثر في سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٩١) في ترجمة الشافعي رحمه الله.
وفي لسان العرب (٥/ ٥) قال الأزهري: «وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تغبيرًا، كأنهم إذا تناشدوه بالألحان طربوا، فرقصوا، وأرهجوا، فسموا مغبرة لهذا المعنى». قال الأزهري: وروي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: أرى الزنادقة وضعوا هذا التغبير ليصدوا عن ذكر الله، وقراءة القرآن وقال الزجاج: سموا مغبرين لتزهيدهم الناس في الفانية وهي الدنيا وترغيبهم في الآخرة الباقية.
وقال شيخ الإسلام رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٥٧٦): «التغبير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود، وهو ما يغبر صوت الانسان على التلحين، فقد يضم إلى صوت الانسان إما التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، وإما الضرب بقضيب على فخذ، وجلد، وإما الضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف، أو طبل كناقوس النصارى، والنفخ فى صفارة كبوق اليهود، فمن فعل هذه الملاهى على وجه الديانة والتقرب، فلا ريب فى ضلالته وجهالته».

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْعَارِفُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبًا وَافِرًا؛ وَلِهَذَا تَابَ مِنْهُ خِيَارُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْهُمْ. [١].

وَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنْ الْمَعْرِفَةِ وَعَنْ كَمَالِ وِلَايَةِ اللَّهِ كَانَ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْهُ أَكْثَرَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَمْرِ يُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ أَعْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِ الْخَمْرِ، [٢] وَلِهَذَا إذَا قَوِيَتْ سَكْرَةُ أَهْلِهِ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ، [٣] وَتَكَلَّمَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِهِمْ، وَحَمَلَتْ بَعْضَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، [٤].

الشرح:

[١] يعرفون الفرق بين سماع المؤمنين وسماع المنافقين والكفار.

[٢] يعلمون أن سماع المنافقين والكفار والفسقة هو من الشيطان، هو الذي زينه، وهو الذي يحضره، وهو الذي يحثهم عليه.

[٣] الأغاني تؤثر في النفوس تأثيرا أشد من الخمر؛ لأن سكران الخمر يفيق، أما سكران الأغاني والهوى، هذا لا يفيق(١):

قَالُوا جُنِنْت بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْت ... لَهُمْ الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

سكران الأغاني والهوى لا يفيق، وسكران الخمر يفيق فهو أشد.

[٤] إذا اشتد طربه، طار في الهواء، إذا اشتد طربه من الأغاني والدفوف، طار في الهواء، يطير من بين الحفل، ويقول: هذا كرامة. وهو من الشيطان.

(١) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ١٨٧).

وَقَدْ تَحْصُلُ عَدَاوَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا تَحْصُلُ بَيْنَ شُرَّابِ الْخَمْرِ، [١] فَتَكُونُ شَيَاطِينُ أَحَدِهِمْ أَقْوَى مِنْ شَيَاطِينِ الآخَرِ فَيَقْتُلُونَهُ، وَيَظُنُّ الْجُهَّالُ أَنَّ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، [٢] وَإِنَّمَا هَذَا مُبْعِدٌ لِصَاحِبِهِ عَنْ اللَّهِ، وَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّ قَتْلَ الْمُسْلِمِ لَا يَحِلُّ إِلَّا بِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَتْلُ الْمَعْصُومِ مِمَّا يُكْرِمُ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ؟! [٣].

الشرح:

[١] تحصل من العشاق عداوة وغيرة من بعضهم على بعض؛ كما يحصل بين شراب الخمر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

[٢] ويظنون أن موته شهادة، وأنه مات من ذكر الله، يقولون: مات من ذكر الله. وهو مات من قتل الشيطان له.

[٣] الله ﷻ حرم قتل المسلم أشد التحريم؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، وفي الحديث: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(١)، هذه الثلاثة

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

التي تبيح قتل المسلم: إذا زنا وهو محصن، إذا قتل نفسًا عدوانًا وظلمًا - يقتل قصاصًا -، إذا ارتد عن دينه، فإنه يقتل، ما عدا ذلك، فالأصل أن المسلم معصوم، ما معنى معصوم؟ يعني: محرم الدم، لا يجوز الاعتداء عليه. فكيف يظن أن ما يحصل على يد الشياطين من قتل بعض المسلمين أن هذا من كرامات الأولياء، وهو من أشد المحرمات؟! هل الكرامات تكون بالمحرمات والمعاصي، الكرامات إنما تحصل بالطاعات والاستقامة، واجتناب الحرام، ومن ذلك اجتناب قتل النفس التي حرم الله، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، والحق هو كما بينه الرسول ﷺ: الثيب الزاني، أو النفس بالنفس، أو التارك لدينه المفارق للجماعة. هذا هو الحق الذي يبيح قتل المسلم، وأما عدا ذلك، فالأصل عصمة دم المسلم.

وَإِنَّمَا غَايَةُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ، [١] فَلَمْ يُكْرِمْ اللَّهُ عَبْدًا بِمِثْلِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَزِيدُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَتَهُ. [٢].

الشرح:

[١] غاية الكرامة التي تجري لأولياء الله لزوم الاستقامة على الحق والدين، ولا تحصل الكرامة بالخروج عن الدين إلى الكفر والمعاصي، وفعل المحرمات، لا تحصل الكرامة بذلك. وما يحصل بذلك، فليس كرامة، وإنما هو خوارق شيطانية، وأعمال شيطانية.

[٢] من علامة إكرام الله للعبد أن يوفقه لما يحبه ويرضاه من طاعة الله ورسوله، والاستقامة على الدين، هذا أعظم ما يكرم الله به العبد، فهو أعظم من الجاه والأموال والأولاد ومتاع الدنيا. فإن الله إذا من بالدين على عبد، فقد أكرمه، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي الحديث «... وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ **يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ**»(١)، هذا هو غاية الكرامة، إكرام الله للعبد ليس في أن يعطيه المال، والولد، أو الجاه، والملك، وإنما إذا أعطاه الدين، فقد أكرمه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥]، كلا، فليس الإكرام بإعطاء هذه الأمور الدنيوية، أو المطامع الدنيوية، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٩٥)، وأحمد (١/ ٣٨٧) واللفظ له.

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٦، ١٧]؛ يعني: ضيق عليه الرزق، فليست الكرامة والإهانة بأمور الدنيا، وإنما الكرامة والإهانة بأمور الآخرة، والعمل الصالح، وتقوى الله ﷻ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْخَوَارِقَ مِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ كَالْمُكَاشَفَاتِ، [١].

الشرح:

[١] الخوارق منها ما يكون من جنس العلم: كالمكاشفات، والفراسة التي يعطيها الله لبعض عباده، هذا نوع من العلم يعطيه الله العبد، فيكون عنده قوة الفراسة، والاستنباط والاستدلال، هذا من كرامة الله ﷻ، وهو نوع من العلم. ولكن هذا العلم لا يحصل بالتعلم، إنما هو شيء يلقيه الله في العبد، وهو نتيجة لطاعة الله ورسوله، ومعرفة الله ﷻ، فيكون من الفرقان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فرقانًا تفرقون به، وتمييزًا تميزون به بين الحق والباطل، والضار والنافع، وبين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، هذا من أعظم أنواع العلم الفرقان الذي يجعله الله في قلب المؤمن بسبب تقوى الله، ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ كَالتَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، [١] وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْغِنَى عَنْ جِنْسِ مَا يُعْطَاهُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالْغِنَى. [٢].

الشرح:

[١] وهذه مما لا يقدر عليه العبد، هذه إنما يجريها الله ﷻ على يد عبده، فهي من فعل الله، يجريها الله على يد عبده؛ يعني: يخرق له العادة؛ كأن يأتيه الرزق، وهو لم يسع إليه؛ كما حصل لمريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، يؤتى به إليها. هذا خارق للعادة، ومثل ما يجريه الله على يد بعض عباده المتقين من إجابة الدعوات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك. هذا لا يقدر عليه العبد، إنما هذا من صنع الله، ولكن سببه تقوى الله ﷻ، وهو من جنس الجزاء من الله ﷻ، فهو ليس من مقدور العبد.

[٢] ومن الخوارق: الغنى؛ أن يغني الله العبد بعلمه، وبماله، وبمقدرته، يغنيه الله عن غيره، هذا من أنواع الخوارق.

وَجَمِيعُ مَا يُؤْتِيه اللَّهُ لِعَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَهُ وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، ازْدَادَ بِذَلِكَ رِفْعَةً وَقُرْبًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ، [١] وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ كَالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ، اسْتَحَقَّ بِذَلِكَ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَوْبَةٍ أَوْ حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ وَإِلَّا كَانَ كَأَمْثَالِهِ مِنْ الْمُذْنِبِينَ؛ [٢].

الشرح:

[١] وهذا أيضًا من الفوارق بين الكرامات وخوارق الشيطان؛ أن الكرامة التي يجريها الله على يد عبده المؤمن يستعين بها على طاعة الله، وتقوي إيمانه ويقينه بالله ﷻ، بخلاف الخوارق الشيطانية، فإنها تعين العبد على الكفر، وعلى الشرك، وعلى المعاصي. الكرامات تعين العبد على الأعمال الصالحة، والخوارق الشيطانية تعين على الكفر، والشرك، وفعل الفواحش والمعاصي. أيضًا الكرامات تزيد صاحبها تواضعًا لله ﷻ وللخلق؛ فلا يترفع بها أن تجري على يده، لا يترفع بها ويعجب بنفسه، وإنما تزيده تواضعًا لله ﷻ، وتواضعًا مع الخلق، بخلاف الخوارق الشيطانية، فإنها تزيد الإنسان غلوًا وإعجابًا بنفسه وطغيانًا.

[٢] هذا من الفوارق بين الكرامات والخوارق الشيطانية. إذا اغتر بهذه الخارقة للعادة - اغتر بها: استعملها فيما يغضب الله ﷻ -، أهلكته،

صارت سببًا في هلاكه، إلا أن يتوب إلى الله، فإذا تاب إلى الله، ورجع عن هذا الغرور، وهذا الإعجاب والطيش، تاب الله عليه، وصارت في حقه نعمة. أو تكون له أعمال صالحة يمحو الله بها ما حصل منه من المخالفة؛ فإن الأعمال الصالحة يمحو الله بها السيئات، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[(١)]. وإلا كان كأمثاله من المذنبين، يعني: تعرض للعقوبة.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يُعَاقَبُ أَصْحَابُ الْخَوَارِقِ تَارَةً بِسَلْبِهَا، كَمَا يُعْزَلُ الْمَلِكُ عَنْ مُلْكِهِ، وَيُسْلَبُ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، وَتَارَةً بِسَلْبِ التَّطَوُّعَاتِ، فَيُنْقَلُ مِنْ الْوِلَايَةِ الْخَاصَّةِ إِلَى الْعَامَّةِ، [١] وَتَارَةً يَنْزِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْفُسَّاقِ، [٢].

الشرح:

[١] يعني: إذا استعمل هذه الخارقة في الذنوب والمعاصي، فقد عرضها لأن تسلب منه، وتمنع منه؛ عقوبة له، أو أنها تسلب منه كمال الولاية الخاصة إلى الولاية العامة، فهذه أنقص، الولاية العامة أنقص من الولاية الخاصة. على كل حال تصرفات هذا العبد فيما أعطاه الله من الكرامة إذا استعان بها على طاعة الله، زادته رفعة وإيمانًا، وإن استعملها في معصية، فقد عرضها إما للزوال، وإما للنقص.

[٢] يعني: حسب ما يريده الله ﷻ بحكمته في عقوبة هذا الإنسان، فإما أن يسلبه الكرامة، وإما أن تنقص كرامته، وإما أن يتحول من مطيع إلى فاسق، وهكذا سائر النعم التي ينعم الله بها على العبد، إذا استعمل النعمة في طاعة الله، وشكر الله عليها، زادها الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

فالكرامة نعمة من أعظم النعم، تحتاج إلى شكر، فإذا لم تشكر، تعرضت للزوال أو للنقص.

وَتَارَةً يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ. [١] وَهَذَا يَكُونُ فِيمَنْ لَهُ خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ [٢].

الشرح:

[١] وهذا أشد - والعياذ بالله -؛ تارة يرتد عن الإسلام، فيصير كافرًا، هذا خطر عظيم، إن المسلم يجب عليه أن يتقي الله فيما أعطاه الله ﷻ، ويحافظ عليه، ولا يكون سببًا في هلاكه.

[٢] بأن يتحول من كونه صاحب كرامة إلى كونه صاحب خارق شيطاني، فيرتد عن الإسلام، فيتحول من كونه وليًّا لله إلى كونه وليًّا للشيطان، فهذا كله مما يوجب على العبد ومن أعطي كرامة من الكرامات الحذر من الغرور والانخداع، ويعتبر هذا ابتلاء وامتحانًا له من الله ﷻ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ شَيْطَانِيَّةٌ؛ [١] بَلْ يَظُنُّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَيَظُنُّ مَنْ يَظُنُّ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَعْطَى عَبْدًا خَرْقَ عَادَةٍ لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَى ذَلِكَ، [٢].

الشرح:

[١] بعضهم يظن أن خوارق الشيطان كرامات إلهية؛ من جهله بالكرامات، وعدم تفرقته بين الكرامة التي هي من الله، وبين الخوارق الشيطانية. والكرامات سببها الطاعة والتقوى، والخوارق الشيطانية سببها الكفر والمعاصي والذنوب، فيميز المسلم بين هذا وهذا.

[٢] وهذا أيضًا من أدق ما يجب التنبه له، وهو أن هذا الذي أعطاه الله هذه الكرامة، وأجراها على يديه سيحاسبه عليها: ماذا استعملها به؟ وماذا استعان بها عليه؟ وهل شكرها أم لم يشكرها؟ الله يحاسب على النعم: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، يحاسب على النعم، ومنها الكرامات. فلا يغتر العبد بالكرامة التي تجري على يده، ويغفل عن أنه سيحاسب عليها، ويناقش عليها يوم القيامة.

كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ [إِذَا] أَعْطَى عَبْدًا مُلْكًا وَمَالًا وَتَصَرُّفًا لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَيْهِ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُ بِالْخَوَارِقِ عَلَى أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَا مَأْمُورًا بِهَا وَلَا مَنْهِيًّا عَنْهَا، [٢] فَهَذَا يَكُونُ مِنْ عُمُومِ الْأَوْلِيَاءِ، وَهُمْ الْأَبْرَارُ الْمُقْتَصِدُونَ، [٣].

الشرح:

[١] وهذا غرور، فالذي يظن أن الله لا يحاسبه على النعم، ولا يناقشه يوم القيامة على النعم، ويظن أن هذه النعم إنما جاءته عن استحقاق؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]. فلم يعترف أن هذا من نعم الله عليه، ولم يعترف أنه لن يحاسب على هذا، فهذه غفلة -والعياذ بالله- عن الحساب: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، ويوم الحساب عام لكل ما أعطي العبد يوم القيامة.

[٢] لا من خواصهم؛ لأن من يستعين بالكرامات على أمور مباحة، هذا المباح لا يثاب عليه، ولا يعاقب عليه، ولكن لا يكون من خواص الأولياء، يكون من عوام الأولياء، أو من عموم الأولياء، تنقص درجته بذلك، هذا إذا استعملها في المباح، تنقص درجته، لا كالذي يستعملها في محرم، أو في شرك، أو في معصية.

[٣] لأن أولياء الله يتفاوتون: المقربون، وأصحاب اليمين، وهم الأبرار، فالأبرار وأصحاب اليمين دون المقربين: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧

فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ [الواقعة: ٧ - ٩]، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. الظالم لنفسه هو: العاصي الذي معصيته دون الشرك والكفر، هذا ظالم لنفسه، وهو من المؤمنين، لكنه ناقص الإيمان، فوقه المقتصد، وهو: الذي أدى الواجبات وترك المحرمات فقط، وقد لا يفعل المستحبات، ولا يترك المكروهات، إنما اقتصر على أداء الواجبات والفرائض، وتجنب المحرمات، هذا مقتصد، ثم فوقه السابق بالخيرات، وهم: الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات احتياطًا، هؤلاء هم السابقون. وقد ذكرهم الله في أول سورة الواقعة وفي آخرها، ذكرهم الله ﷻ في سورة الإنسان، وكذلك في سورة المطففين ذكر هذه الطبقات المؤمنة، وكلهم أولياء لله، لكن يتفاوتون في الولاية، فالسابقون أعظم الأولياء، ثم يليهم الأبرار، أصحاب اليمين: المقتصدون، ثم يليهم عموم المؤمنين الذين خلطوا بين عمل صالح وآخر سيء، عسى الله أن يتوب عليهم.

وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَأَعْلَى مِنْ هَؤُلَاءِ، [١] كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ أَعْلَى مِنْ النَّبِيِّ الْمَلِكِ. [٢].

وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَارِقُ كَثِيرًا مَا تَنْقُصُ بِهَا دَرَجَةُ الرَّجُلِ، [٣] كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى كَمَا يَتُوبُ مِنْ الذُّنُوبِ: كَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ، [٤].

الشرح:

[١] السابقون أعلى من الأبرار.

[٢] العبد الرسول - مثل: محمد ﷺ - أعلى من النبي الملك - مثل: داود، وسليمان عليهما السلام، فداود وسليمان عليهما السلام نبيان وملكان، ومحمد ﷺ عبد رسول، والعبد الرسول أفضل من النبي الملك، هذا يدل على أن الأنبياء يتفاضلون: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وكذلك سائر المؤمنين يتفاضلون، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

[٣] الكرامات هي لا شك أنها جزاء على الأعمال الصالحة، قد ينقص بها أجره عند الله تبارك وتعالى، فلهذا كان أهل الإيمان الصادق يحذرون من هذه الأمور أن تكون محسوبة عليهم، تؤخذ من أعمالهم ودرجاتهم، وهذا من عظيم خوفهم من الله تبارك وتعالى يريد كمال أجره عند الله، ولا يريد أن يؤخذ منه شيء في الدنيا.

[٤] فهو يتوب من الكرامات، ويخاف منها أكثر مما يخاف من الذنوب والمعاصي، هذا من فقههم ومعرفتهم بالله ﷻ.

وَتَعْرِضُ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَيَسْأَلُ اللَّهَ زَوَالَهَا، [١] وَكُلُّهُمْ يَأْمُرُ الْمُرِيدَ السَّالِكَ أَنْ لَا يَقِفَ عِنْدَهَا وَلَا يَجْعَلَهَا هِمَّتَهُ وَلَا يَتَبَجَّحَ بِهَا؛ [٢] مَعَ ظَنِّهِمْ أَنَّهَا كَرَامَاتٌ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ الشَّيَاطِينِ تُغْوِيهِمْ بِهَا، [٣].

الشرح:

[١] لا يريدها؛ لأنه يعلم أنها تحسب من أجره، فهو لا يريدها، يريد أن يبقى أجره عند الله ﷻ.

[٢] يأمرون تلاميذهم، المريد السالك هو: التلميذ، كان العلماء ينهون تلاميذهم وأتباعهم عن التطلع إلى الكرامات؛ لما تسببه من المحاذير.

[٣] كيف إذا كانت خوارق شيطانية؟! إذا كانت كرامات من الله، ومع هذا كانوا لا يرغبونها، ويحذرون تلاميذهم وأتباعهم من التطلع إليها، وهناك من أولياء الله من لم تجر على يديه كرامات، كثير من أولياء الله لم تجر على أيديهم كرامات من الصحابة والتابعين. فليس من لازم الولي أن تجري على يده كرامة، أو خارقة، ليس هذا من لازمه؛ كما يظن بعض الجهال.

الخوارق من الأمور التي تجري على خلاف العادة، تخرق العادة، وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: خوارق كرامة من الله لبعض أوليائه، تجري على أيديهم؛

إما لحاجة، وإما لحجة على خصومه، فهذه تسمى خوارق الكرامات.

القسم الثاني: خوارق شيطانية يعملها الشياطين مع أوليائهم من الإنس؛ ليضلوا الناس بها، ويغروا من تجري على يده أنه ولي لله، وهو ليس كذلك.

تقدم لنا أن الفارق بين هذه وهذه: أن من جرى على يده خارق إن كان مستقيمًا على طاعة الله مؤمنًا بالله، فهي كرامة، وهي من الله ﷻ، وأما إن كان الذي جرت على يده فاجرًا فاسقًا مضيعًا لحدود الله مرتكبًا لمحارم الله، فهذه ليست كرامة، وإنما هي خارق شيطاني، لا يغتر به. وهذا شيء واضح للناس؛ يعرف حالهم في الصلاح والفسق، يعرف ذلك.

فهذا هو الفرق بين الكرامة وبين غيرها، ثم إن الكرامة التي تجري على يد رجل صالح؛ هذا الرجل الذي تجري عليه لا يفرح بها، ولا يفتخر بها، بل إنها تزيده تواضعًا وخوفًا من الله ﷻ، ولا يترفع بها، بل يخاف من الله أن تكون استدراجًا له، ويخجل ويستغفر لئلا تكون استدراجًا له، فهو يستغفر الله ﷻ، ويتوب، ولا تغره هذه الكرامة، هذه حال المتقين الصالحين مع ما يجري على أيديهم، ولا يظهرونه للناس، بل يكتمونه مهما أمكنهم ذلك.

وقوله: (**وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَارِقُ كَثِيرًا مَا تَنْقُصُ بِهَا دَرَجَةُ الرَّجُلِ، كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى**)؛ لأنه يشعر بأنها نقص في إيمانه، وأنها لا تكون من باب الاستدراج، ولا يزكي نفسه، ولا يفتخر بهذه الكرامة، هذه حالهم، ثم أيضًا هناك من الصالحين الأتقياء من لم تجر

على يديه كرامة، ليس من لازم الولي أن تجري على يده كرامة، بل هناك من سادات الأولياء - كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وسادات الصحابة رضي الله عنهم - ولم يجر على أيديهم شيء من هذه الأمور، مع أنهم أتقى الأمة، وأبر الأمة، وأصدق الأمة، ما جرى على أيديهم خوارق، فهي ليست من لازم الولاية أبدًا. قد يكون ولي لله من خواص الأولياء، ولا تجري على يده كرامة.

وقوله: (كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى)؛ خصوصًا إذا نظر أن سادات الأولياء، لم يجر على يدهم مثل هذا، فهو يخاف أن يكون هذا من نقص درجته عند الله ﷻ.

يستغفر ويتوب، ويسأل الله أن يزيلها عنه، من تمام إخلاصه وخوفه من الله سبحانه وتعالى يسأل الله أن يزيلها عنه.

يوصون تلاميذهم بألا يتطلعوا إلى الكرامات، وألا يجعلوها همهم، بل يحذرون منها؛ لأنها ابتلاء وامتحان، فهم يوصون طلابهم بألا يتحروا هذه الكرامات، أو يطلبوها، أو يحرصوا عليها. إذا حصلت له، لا يتبجح بها، ولا يتكبر بها، بل تزيده تواضعًا وخوفًا من الله ﷻ.

وهذا أيضًا من أسباب الحذر؛ أنها قد تكون من خوارق الشياطين، ولا تكون من الله ﷻ، فيزيد الابتلاء والامتحان عليهم.

فَإِنِّي أَعْرِفُ مَنْ تُخَاطِبُهُ النَّبَاتَاتُ بِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنَافِعِ، وَإِنَّمَا يُخَاطِبُهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي دَخَلَ فِيهَا، [١] وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ وَتَقُولُ: هَنِيئًا لَك يَا وَلِيَّ اللَّهِ، فَيَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ. [٢].

الشرح:

[١] الشياطين من باب الغش لبني آدم وإغوائهم يخاطبونهم من خلال بعض الجمادات أو بعض الأشجار والنباتات، ويظن أن النبات نفسه أو الشجر نفسه، أو النبات الذي يكلمه مع أن الذي يكلمه شيطان متلبس بهذه الشجرة أو هذا النبات، فالأمر خطير جدًا.

[٢] إذا أحس بهذا، وسمع هذا الصوت، فإنه يلجأ إلى الله، ويقرأ آية الكرسي، التي تطرد الشياطين، ولا تقرب من قرأها، فيذهبون، لو كانت كرامات، ما ذهب، وإنما هي خداع من الشيطان، فإذا قرأ آية الكرسي، فإن الشيطان يهرب وينهزم، فهي حصن للمسلم؛ آية الكرسي وغيرها من القرآن، لكن هي بالذات حصن للمسلم، يتحصن بها من الشياطين.

وَأَعْرِفُ مَنْ يَقْصِدُ صَيْدَ الطَّيْرِ فَتُخَاطِبُهُ الْعَصَافِيرُ وَغَيْرُهَا، وَتَقُولُ: خُذْنِي حَتَّى يَأْكُلَنِي الْفُقَرَاءُ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ قَدْ دَخَلَ فِيهَا كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِ وَيُخَاطِبُهُ بِذَلِكَ، [١] وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ مُغْلَقٌ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجَهُ وَهُوَ لَمْ يَفْتَحْ وَبِالْعَكْسِ، [٢] وَكَذَلِكَ فِي أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَتَكُونُ الْجِنُّ قَدْ أَدْخَلَتْهُ وَأَخْرَجَتْهُ بِسُرْعَةٍ، أَوْ تَمُرُّ بِهِ أَنْوَارٌ، أَوْ تُحْضِرُ عِنْدَهُ مَنْ يَطْلُبُهُ، [٣].

الشرح:

[١] الشيطان يتلبس بالطير، الشيطان أعطاه الله قدرة على هذا، ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أعطاه الله قدرة على ملابسة الناس والدواب، يتكلم على ألسنتها، ويظن الناس أنه نفس المخلوق هو الذي يتكلم، مع أنه الشيطان.

[٢] يحمله الشيطان، يظن أن هذا كرامة؛ أنه طلع من البيت بدون فتح الباب، ويظن أن هذا كرامة، مع أنه من الشيطان، حمله الشيطان، الشيطان عنده مقدرة؛ يدخل في البيوت، ويخرج منها، وهي مغلقة، يدخل ويخرج وهي مغلقة، ويحمل معه هذا المغرور، ويظن أن هذه كرامة له.

[٣] أو تتشكل على شكل أنوار، ويظن أن هذا ملك أو أن هذا أنوار، أو ملائكة، وهي شياطين تتلون كالغيلان. أو يحضر له من يطلبه؛ مثل: له ابن أو قريب بعيد وبينه وبينه مسافات، وهو مشفق على رؤيته، ينتهز

الشيطان هذا الشيء، فيحضر هذا الشخص، يحمله في الهواء، ويحضره عند قريبه، ويظن هذا المخدوع أن هذه كرامة له.

وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ الشَّيَاطِينِ يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةِ صَاحِبِهِ، [١] فَإِذَا قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ذَهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ. [٢].

وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُ مُخَاطِبٌ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَعِدُهُ بِأَنَّهُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، [٣].

الشرح:

[١] إما أنه يحضر الشخص البعيد، ويحمله، وإما لا يحمله، ولكن يتصور بصورته؛ لأن الشيطان يتشكل أشكالًا مختلفة، قد يتشكل بشكل إنسان، يتشكل بشكل حيوان، بشكل طير، أشكال مختلفة.

[٢] لأنها حصن من الشيطان، إذا وفقه الله، وأحس بهذه الأمور، فإنه لا يغتر بها، بل يخاف أن تكون من الشيطان، فيبادر بالتحصن بآية الكرسي، فيقرؤها، فيذهب عنه الشيطان.

[٣] المهدي الذي يخرج في آخر الزمان من بيت النبي ﷺ من آل الحسن ابن علي رضي الله عنهما، فيقيم الدين، ويجاهد في سبيل الله، وينشر العدل في الأرض، هذا سيحصل؛ لأن النبي ﷺ أخبر عنه، ولابد أن يقع، ومن علامات الساعة، وهو قبل ظهور الدجال، من علامات الساعة الكبار، فالشيطان ينتهز هذا، ويقول له: أنا المهدي الذي بشر به النبي ﷺ. وهو شيطان مريد. أو يعد الشخص، يقول: أنت المهدي. وكم حصل هذا لكثير ممن يدعوا المهدوية، ادعى المهدوية كثير من الناس، تبين أنهم كذبة، وأن ما حصل لهم إنما هو من الشيطان، غرهم بذلك.

وَيَظْهَرُ لَهُ الْخَوَارِقُ، مِثْلُ: أَنْ يَخْطُرَ بِقَلْبِهِ تَصَرُّفٌ فِي الطَّيْرِ وَالْجَرَادِ فِي الْهَوَاءِ، فَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ ذَهَابُ الطَّيْرِ أَوْ الْجَرَادِ يَمِينًا أَوْ شَمَالًا ذَهَبَ حَيْثُ أَرَادَ، [١] وَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ قِيَامُ بَعْضِ الْمَوَاشِي أَوْ نَوْمُهُ أَوْ ذَهَابُهُ حَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ، مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَتَحْمِلُهُ إِلَى مَكَّةَ وَتَأْتِي بِهِ، [٢].

الشرح:

[١] يحضر له هذه الأشياء، التي تخطر بباله، يحضرها له؛ للغرور - والعياذ بالله -.

[٢] تحمله الشياطين إلى مكة، ويظن ذلك كرامة من الله ﷻ، مع أنها أعمال شيطانية، يطيرون به في الهواء، ولا يحتاج طائرة ولا سيارة ولا شيء، فيظن أن هذه كرامة من الله ﷻ، وهي في الحقيقة شيطنة وغرور من الشيطان، هذا كله يدل على أنه لا يغتر بهذه الأشياء، ولا ينخدع بها، ويجب التثبت فيها، ومعرفة الحق من الباطل فيها، التمييز بين ما هو صحيح وما هو كذب من خلال الكتاب والسنة، ومن خلال الشخص الذي تجري على يديه، وتصرفاته، ما هو كل من ظهر على يده شيء من هذه الأمور يبادر وينوه عنه، ويظن أنه المهدي، أو أنه كذا، ويظن أنه عيسى بن مريم عليه السلام، كم من ادعى أنه عيسى بن مريم عليه السلام من الكذب والخداع؟!

وَتَأْتِيه بِأَشْخَاصٍ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ وَتَقُولُ لَهُ: هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ الكروبيون[١] [١] أَرَادُوا زِيَارَتَك، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ تَصَوَّرُوا بِصُورَةِ الْمُرْدَانِ؟! فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَجِدُهُمْ بِلِحَى، [٢].

الشرح:

[١] الكروبيون المقربون من الملائكة ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] وهم حول العرش، الشيطان يغر الإنسان، ويأتيه بصورة جميلة، ويقول أنا من الكروبيين - أي: من ا لملائكة المقربين -، الشيطان ما يقصر في شيء لإضلال بني آدم؛ جميع الحيل وجميع الطرق: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧]، يأتي من كل جهة، يهلك هذا الإنسان، إلا من عصمه الله، واعتصم بالوحي واتباع الرسول ﷺ.

[٢] يتصور في اللحظة يكون على صورة أمرد، ثم يكون على صورة ملتحي في اللحظة من باب الفتنة والقوة والخداع.

---

(١) الكروبيون هم الملائكة المسبحون حملة العرش. انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٨٩).

وَيَقُولُ لَهُ: عَلَامَةُ إِنَّك أَنْتَ الْمَهْدِيُّ إِنَّك تَنْبُتُ فِي جَسَدِك شَامَةٌ، فَتَنْبُتُ، وَيَرَاهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَكُلُّهُ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ.

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَوْ ذَكَرْت مَا أَعْرِفُهُ مِنْهُ، لَاحْتَاجَ إِلَى مُجَلَّدٍ كَبِيرٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦]. [١].

الشرح:

[١] الإنسان يتخذ الغنى والفقر مقياسًا للكرامة والإهانة، فإذا أغناه الله، ظن أن هذا من كرمه على الله، وأنه كريم عند الله، سعيد عند الله؛ لأن الله أعطاه هذا المال، ولم يدرِ أن المال ابتلاء وامتحان: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فهو ابتلاء وامتحان، والدليل على هذا أن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، شوف الكافر، وهو عدو لله ﷻ، لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء(١)، الله يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب؛ من باب الابتلاء والامتحان.

فهذا الإنسان يجعل المال هو المقياس للكرامة، ويجعل الفقر هو المقياس للإهانة، ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ [الفجر: ١٥]، ابتلاه: اختبره ﴿رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ [الفجر: ١٦]،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».

الله ﷻ يبتلي بالغنى والفقر، ﴿فَقَدَرَ﴾ [الفجر: ١٦]، فقدر بمعنى: ضيق، ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، كلا، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]، هذا نفي، ليس المال هو المقياس للكرامة، وليس الفقر هو المقياس للإهانة، وإنما المقياس تقوى الله ﷻ، والعمل بطاعته.

فمن رزق التقوى والعمل الصالح، فقد أكرمه الله، ومن حرم من التقوى ومن العمل الصالح، فقد أهانه الله، هذا هو المقياس الصحيح، أما المال، فيأتي أو يذهب، ما هو بميزان، كان خواص الأولياء فقراء، كان رسول الله ﷺ يربط الحجر على بطنه من الجوع، وكان يأتي عليه الأيام لا يأكل ﷺ، وهو سيد الخلق، وكان الكفرة والجبابرة منعمين في أنواع من الترف وأنواع من المآكل والمشارب، منعمين، فليس هذا هو المقياس.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾، وَلَفْظُ (كَلَّا) فِيهَا زَجْرٌ وَتَنْبِيهٌ: زَجْرٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى مَا يُخْبَرُ بِهِ وَيُؤْمَرُ بِهِ بَعْدَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ حَصَلَ لَهُ نِعَمٌ دُنْيَوِيَّةٌ تُعَدُّ كَرَامَةً يَكُونُ اللَّهُ ﷻ مُكْرِمًا لَهُ بِهَا، وَلَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ يَكُونُ مُهِينًا لَهُ بِذَلِكَ، [١] بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَقَدْ يُعْطِي النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ لِمَنْ لَا يُحِبُّهُ، وَلَا هُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ؛ لِيَسْتَدْرِجَهُ بِذَلِكَ، وَقَدْ يَحْمِي مِنْهَا مَنْ يُحِبُّهُ وَيُوَالِيه؛ لِئَلَّا تَنْقُصَ بِذَلِكَ مَرْتَبَتُهُ عِنْدَهُ، أَوْ يَقَعَ بِسَبَبِهَا فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ. [٢] وَأَيْضًا كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، [٣].

الشرح:

[١] (كلا) حرف ردع وزجر، زجر عن هذا الاعتقاد وتنبيه على أن غيره هو الصحيح.

[٢] نعم، مثلما يحمي الطبيب المريض عن بعض المآكل والمشارب؛ لأنها تضره أو تقتله، فالله ﷻ يحمي عبده المؤمن من الدنيا؛ لأنها تضره، فهو يحميه منها.

[٣] هذا هو الفارق بين كرامات الأولياء وخوارق الشياطين باعتبار من تجري على يده؛ إن كان صالحًا مستقيمًا تقيًا، فهي كرامة، وأما إن كان فاجرًا فاسقًا كافرًا، فإنها خارق شيطاني، وليست كرامة.

فَمَا كَانَ سَبَبُهُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ فَهُوَ مِنْ خَوَارِقِ أَعْدَاءِ اللَّهِ لَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، [١] فَمَنْ كَانَتْ خَوَارِقُهُ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَالدُّعَاءِ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ الشِّرْكِ: مِثْلُ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالْغَائِبِ، أَوْ بِالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ، وَأَكْلِ الْمُحَرَّمَاتِ: كَالْحَيَّاتِ وَالزَّنَابِيرِ وَالْخَنَافِسِ وَالدَّمِ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ، وَمِثْلِ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ، لَا سِيَّمَا مَعَ النِّسْوَةِ الْأَجَانِبِ وَالْمُرْدَانِ، [٢].

الشرح:

[١] لكن أين من يتفكر في هذا، أو يتأمل في هذا؟! قليل من الناس.

[٢] وهذا من الفارق بين الكرامة وبين الخارق الشيطاني؛ أنها تزيد عند القرآن، والخارق الشيطاني يذهب عند القرآن ويضمحل، وقد يحصل خوارق شيطانية للفجرة عند مجالس اللهو والغناء والطرب، يحصل لهم خوارق، قد يطيرون في الهواء، يحصل منهم، بسبب الشياطين؛ لأنها مقارنة للكفر والعصيان، فهي من الشياطين غرورًا لهؤلاء، وأما إذا حصلت مع التقوى والاستقامة، فهي كرامة من الله ﷻ ليعين بها هذا العبد على طاعة الله ﷻ.

وَحَالَةُ خَوَارِقِهِ تَنْقُصُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَتَقْوَى عِنْدَ سَمَاعِ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، فَيَرْقُصُ لَيْلًا طَوِيلًا، فَإِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ صَلَّى قَاعِدًا، أَوْ يَنْقُرُ الصَّلَاةَ نَقْرَ الدِّيكِ،[١] وَهُوَ يَبْغُضُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيَتَكَلَّفُهُ،[٢].

الشرح:

[١] هذه حالة الفجرة؛ أنه يرقص كل الليل، فإذا جاءت الصلاة، يعجز عن الصلاة، يصلي جالسًا، إن صلى، صلى جالسًا، يعجز عن الطاعة، مع أنه يرقص كل الليل، ويوم جاءت الصلاة، عجز أن يقوم، فهذه علامة الخوارق الشيطانية، وأيضًا لا يطمئن في الصلاة، ولا يتلذذ بها، وإنما ينقرها نقرًا؛ ليتخلص منها؛ لأنها سجن عليه، الصلاة سجن على الفجرة والفساق، يريدون التخلص منها، وهي جنة للأتقياء والأبرار، يناجون ربهم، ويتلذذون، ولذلك يقوم، ويطيل القيام، ولا يتعب؛ لأنه يتلذذ بهذا، ويناجي ربه ﷻ، بينما لو يقوم قيامًا يسيرًا في غير هذا، تعب، لو تقف قليلًا تنتظر واحد، تتعب، لكن لو يوفقك الله لقيام الليل، وتقوم قيامًا طويلًا، ما تتعب؛ تتلذذ بهذا.

[٢] هذا من العلامات؛ أنه يبغض سماع القرآن، ويحب سماع الشيطان - الأغاني والمزامير -، ولذلك تجده دائمًا يفتح المذياع على المزامير والأغاني، حتى وهو يمشي في الطريق، ويغلق القرآن، إذا جاء القرآن، يغلقه؛ لأنه لا يتلذذ به، ولا يحبه؛ فهو يغلقه، ويثقل عليه؛ لأنه ما يجتمع

الغناء والقرآن؛ كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله[١]:

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا　　　فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

أي: لا يجتمع حب القرآن وحب الأغاني، يطرد أحدهما الآخر.

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لأحمد بن عيسى (٢/ ٥٢١).

لَيْسَ لَهُ فِيهِ مَحَبَّةٌ وَلَا ذَوْقٌ وَلَا لَذَّةٌ عِنْدَ وَجْدِهِ، وَيُحِبُّ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ، وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَوَاجِيدَ. [١].

فَهَذِهِ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ، وَهُوَ مِمَّنْ يَتَنَاوَلُهُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]. [٢].

فَالْقُرْآنُ هُوَ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ [٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، يَعْنِي: تَرَكْتَ الْعَمَلَ بِهَا.

الشرح:

[١] المواجيد والوجد هذا من اصطلاحات الصوفية.

[٢] من ترك القرآن، ابتلي بالأغاني والألحان، يبتلى بسماع الأغاني والألحان، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨] يعني: جاء يوم القيامة يقول للشيطان: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨]، يندم، عندما يجد الجزاء، يندم على ما سبق.

[٣] ذكر الرحمن ما هو؟ القرآن، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾، الذي هو القرآن، فالقرآن ذكر، هو الذكر الحكيم.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ؛ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ(١). [١].

الشرح:

[٢] هذا - والله أعلم -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، هذا عذاب القبر؛ لأنه قد يكون في الدنيا منعمًا، ليس في ضنك، لكن هذا في القبر - والله أعلم -؛ أنه يكون في عذاب في القبر. فجزاؤه من جنس العمل، لما نسي القرآن، فإن الله نسيه؛ يعني: تركه، ما معنى نسيه؟ يعني: ذهل عنه، النسيان يطلق على الترك، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ أي: تركهم في العذاب؛ لأن النسيان له معان، منها الترك، ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ أي: نترككم في العذاب.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٦)، والطبري (١٦/ ٢٢٥).

فَصْلٌ

وَمِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، [١] فَلَمْ يَبْقَ إِنْسِيٌّ وَلَا جِنِّيٌّ إِلَّا وَجَبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَاتِّبَاعِهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، [٢].

الشرح:

[١] كما أن رسالة محمد ﷺ عامة للإنس، فهي عامة للجن؛ فهو مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، فتجب على الجن طاعة الرسول ﷺ، كلهم لا يتخلف أحد، ولذلك لما سمع نفر من الجن القرآن، أعجبهم، واستمعوا له، وذهبوا إلى قومهم، ودعوهم إلى الله، وبلغوهم ما سمعوا من القرآن: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١]، دل هذا على أن الجن مخاطبون بالقرآن، وأن الرسول ﷺ مبعوث إليهم.

[٢] أن يصدق الرسول ﷺ فيما أخبر؛ في الأخبار الماضية والأخبار المستقبلة مما أطلعه الله عليه من علم الماضي والمستقبل، أخبر عنه، يصدق المسلم الرسول في هذا - الجني والإنسي -، ويطيعه فيما أمر، أمر ﷺ بأوامر، فيجب امتثالها.

وَمَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِرِسَالَتِهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، سَوَاءٌ كَانَ إِنْسِيًّا أَوْ جِنِّيًّا. [١].

وَمُحَمَّدٌ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، [٢].

الشرح:

[١] من بلغته الحجة ببعثته ﷺ في المشارق والمغارب من العرب والعجم والجن والإنس، فلم يؤمن، فهو كافر؛ من اليهود والنصارى، من أهل الكتاب، إذا لم يؤمنوا بهذا الرسول ﷺ، فهم كفار، لا شك في كفرهم، بل كفرهم أغلظ من كفر غيرهم؛ لأنهم عرفوا الحق، وعاندوه بعد معرفته. وسواء كان كتابيًّا أو غير كتابي.

[٢] هذه عقيدة لا بد أن تعتقد أنه ﷺ مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، فمن قال: لا، ما هو مبعوث إلى كل الناس، مبعوث للعرب فقط، هو نبي، ولكنه نبي للعرب. هذا كافر، هذا مكذب لله ﷻ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فالذي يقول: إنه ليس رسولًا إلى الناس كافة، هذا كافر، الذي يقول: إنه رسول إلى الإنس، وليس رسولًا إلى الجن، هذا كافر أيضًا، لابد من الإيمان بعموم رسالته ﷺ ووجوب طاعته والإيمان به على جميع الثقلين، هذا من أصول العقيدة.

وَقَدْ اسْتَمَعَتْ الْجِنُّ الْقُرْآنَ، وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ لَمَّا رَجَعَ مِنْ الطَّائِفِ، وَأَخْبَرَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢]. [١].

الشرح:

[١] ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، عند مرجعه من الطائف، عندما دعا أهل الطائف، ولما قابلوه -والعياذ بالله- بالمقابلة السيئة، ورموه بالحجارة، وعاد ﷺ مهمومًا من عندهم، قيض الله له من الجن من يستمعون القرآن، ويبلغونه لقومهم.

ووادي نخلة بين الطائف ومكة، معروف الآن، النخلة اليمانية، النخلة الشامية، وادي.

دل على أن من سمع القرآن، يجب عليه أن ينصت له، ويقطع الشواغل؛ ليستفيد ويتأدب مع القرآن، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، لا تنشغلوا عنه؛ لأنه يخاطبكم، فكيف يخاطبك الله، وأنت معرض عنه مدبر عنه -والعياذ بالله-؟!

وهذا دليل على أن من تعلم علمًا مما أنزله الله على رسوله أنه يجب عليه أن يبلغه للناس.

و هذا دليل على أنهم يؤمنون بموسى وبالتوراة.

فليس الإنسان بهواه يقول: أنا حر. لا ليس بحر، بل هو عبد لله، ويجب أن يطيع الله ﷻ، وأن يعبد الله، وأن يطيع الرسول ﷺ إن كان يريد النجاة لنفسه، فالإيمان بالله ورسوله هو الحرية في الحقيقة، هو الحرية الصحيحة، أما عدم الإيمان بالله ورسوله، فهو الذل والعبودية للهوى، للشياطين، لدعاة الضلال، يصير عبدًا لغير الله ﷻ، ولابد، الإنسان عبد مهما كان، إما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره، ما يخرج الإنسان عن العبودية أبدًا، هو عبد، ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله(١):

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

صاروا أرقة للشيطان ولأهوائهم، فالحرية الصحيحة هي الإيمان بالله، والعبودية والذل هي الكفر والشرك بالله ﷻ.

---

(١) انظر: النونية وشرحها لابن عيسى (٢/ ٤٦٦).

وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ١-٦]؛ أَيْ: (السَّفِيهُ مِنَّا) فِي أَظْهَرْ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ(١): كَانَ الرَّجُلُ مِنْ الْإِنْسِ إِذَا نَزَلَ بِالْوَادِي قَالَ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، فَلَمَّا اسْتَغَاثَتْ الْإِنْسُ بِالْجِنِّ ازْدَادَتْ الْجِنُّ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، [١].

الشرح:

[١] ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢-٣]، ثم ذكروا ما عليه أقوامهم من الضلال والضياع.

فكل هذه الآيات في إيمان الجن بالرسول ﷺ، ولومهم من لم يؤمن به من الجن. سفيهنا أي: سفيه الجن.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، هذا فيما ذكره

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٣٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٨/ ١٧٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧).

الرسول ﷺ أنهم إذا نزلوا منزلًا في البر، يستعيذون بعظيم الوادي من الجن؛ أن يكف عنه سفهاء قومه، فالنبي ﷺ أمر المسلمين أن يقولوا: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق[١].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٠٨): عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةِ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا نَزَلَ أَحَدُكُمْ مَنْزِلًا، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ».

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: ٦ - ٨]. [١].

الشرح:

[١] الاستعاذة نوع من أنواع العبادة؛ فلا يستعاذ إلا بالله، فمن استعاذ بغير الله، فقد أشرك، أشرك في العبادة، وكانوا في الجاهلية لجهلهم بذلك كانوا يستعيذون بالجن، بدلًا من أن يستعيذوا بالله كانوا يستعيذون بالجن، فكان أحدهم إذا نزل منزلًا في وادي من الأودية، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، وهذا شرك، ولذلك النبي ﷺ علم أصحابه وعلم المسلمين في أن يتركوا هذا الشرك، وأن من نزل منزلًا، فإنه يقول: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، فإذا قالها، ما يضره شيء، ما دام في منزله ذلك. لأن من استعاذ بالله، أعاذه الله ﷻ، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، فهو يعيذ من استعاذ به، فهذا يدل على أن الاستعاذة لا تجوز إلا بالله، أو بصفة من صفات الله، وهي الكلام؛ لأن الكلام من صفات الله ﷻ.

فإذا استعاذ بكلام الله أو بكلمات الله التامات، فقد استعاذ بالله؛ لأن الاستعاذة بالصفة استعاذة بالموصوف، هكذا علم النبي ﷺ الأمة في الاستعاذة، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]؛ مثلما جاء في هذا الحديث، فزادوهم: أي

زاد الجنُ الإنسَ رهقًا ؛ أي : كبرًا وإعجابًا بأنفسهم . حيث إن الإنس خضعوا لهم، واستعاذوا بهم، وقيل : المعنى : زاد الجنُ الإنسَ رهقًا ؛ لأن من استعاذ بغير الله ، أخافه الله ، من استعاذ بالله ، حماه الله ، وأعزه ، وحفظه ، ومن استعاذ بغير الله ، أذله الله ، وسلط عليه الجن وغيرهم ، فزاد الجنُ الإنسَ رهقًا ؛ أي : خوفًا وضعفًا ؛ عقوبة لهم .

الشاهد من هذا أن الاستعاذة عبادة ، فلا تجوز إلا بالله ﷻ ، ودل هذا على أن كلام الله غير مخلوق ؛ لأن الاستعاذة لا تجوز بالمخلوق ، فدل على أن كلام الله صفة من صفاته ، وهو غير مخلوق .

وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَرْمِي بِالشُّهُبِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ، لَكِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الشِّهَابُ إِلَى أَحَدِهِمْ، [١].

الشرح:

[١] الله ﷻ خلق النجوم، وذكر فوائدها؛ أنها زينة للسماء ورجوم للشياطين، زينة للسماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وأيضًا هناك فائدة ثالثة ذكرها الله، وهي الاستدلال بها في السفر: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالنجوم خلقت لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فيسير عليها المسافر، ويعرف الاتجاه الذي هو يريد، فهذا من فضل الله ﷻ، أما من اعتقد في النجوم أنها تنفع وتضر، وعبدها من دون الله - كحالة قوم إبراهيم أصحاب النمرود، الذين كانوا يعبدون الكواكب -، فهؤلاء خسروا وخابوا، فالنجوم لم تخلق لهذا، مخلوقة لهذه الفوائد الثلاث، والمخلوق لا يعبد، والنجوم مدبرة ومسيرة، ولهذا أراد إبراهيم عليه السلام أن يكسر حجتهم.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، دل على أنه مدبر ومسير، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٧]، يريد مناظرتهم، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ

أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، أقام عليهم الحجة ﷺ بهذه المناظرة العظيمة؛ لأنهم كانوا يعبدون الكواكب من دون الله ﷻ.

والحاصل من هذا ما ذكره الشيخ وغيره من تفسير الآية، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ [الجن: ٩]؛ أي: من السماء: ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ﴾ [الجن: ٩]، يسترقون السمع من الملائكة، ثم يلقونه إلى الكهان، ثم الكهان يكذبون مع الكذبة الواحدة مئة كذبة، ويلقونها على الناس، هذا في الجاهلية، فلما بُعث محمد ﷺ، حرست السماء بالشهب، فصاروا لا يستطيعون ما كانوا يفعلونه من قبل، لا يقدرون على استماع السمع، ومن استرق شيئًا منه، رمي بالشهاب، فيحرقه. وذلك حماية للوحي من أن تعبث به الشياطين، فهذا من فضل الله ﷻ.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ مُلِئَتْ السَّمَاءُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَصَارَتْ الشُّهُبُ مُرْصَدَةً لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا، كَمَا قَالُوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]، [١] وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، [٢].

الشرح:

[١] حرس من الملائكة وشهب من النجوم، تنفصل شظية من النجم محرقة، فتصيب الشيطان الذي يسترق السمع، فتحرقه: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٨].

[٢] ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: القرآن، ما تنزلت به الشياطين، وإنما تنزل به ملك، وهو جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ -١٩٤]، وما ينبغي لهم: ما يليق بالشيطان أن ينزل بالقرآن أو بالوحي، ولا يستطيع هذا، القرآن يحرقه ويقتله، فلا يقرب القرآن، فكيف ينزل به كما تقول المشركون؟! كيف ينزل به على محمد ﷺ؟!

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٢]، معزولون بالشهب والرصد الذي جعل الله في السماء، فالقرآن والوحي محفوظ فيما بين الله وبين رسوله محمد ﷺ، لا دخل للشياطين فيه، إنما الشياطين تشتغل مع الكهنة، لا مع الرسل، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢]، وهم الكهنة.

قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١٠-١١]، **أَيْ: عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى، كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: مِنْهُمُ الْمُسْلِمُ وَالْمُشْرِكُ وَالنَّصْرَانِيُّ وَالسُّنِّيُّ وَالْبِدْعِيُّ،** [١] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢]، **أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَهُ: لَا إِنْ أَقَامُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا إِنْ هَرَبُوا مِنْهُ،** [٢].

الشرح:

[١] يقولون: ما ندري ما هو السبب، هذه العلامات تدل على شيء سيحدث، وما ندري ما هو، ﴿لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وسيحصل شيء لأهل الأرض فيه الخير، كان كذلك، حصل الرشد والخير والقرآن والسنة والعلم النافع على يد هذا الرسول ﷺ، وانظروا إلى أدبهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، انظر! في الشر قالوا: (أُريدَ)، ولم ينسبوه إلى الله، وأما الرشد، فنسبوه إلى الله تعالى.

[٢] الجن مختلفون؛ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الفاجر، ومنهم المتقي والعابد، ومنهم الفاسق، فهم مثل الإنس منقسمون، ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾. واعترف الجن أنهم لن يعجزوا الله تعالى، ولن يخرجوا عن قدرته وعن قبضته تعالى مع ما أعطاهم الله من الخفة والطيران وغير ذلك، وهم في قبضة الله تعالى.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ : أي تيقنا ، الظن يأتي بمعنى اليقين ، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، يعني : يتيقنون أنهم ملاقو الله ، لا الظن الذي هو بمعنى الشك ، فالظن يأتي بمعنى اليقين .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، سواء بقينا في الأرض أم هربنا من الأرض ، فنحن في قبضة الله ، لن نعجزه في الأرض ، ولن نعجزه هربًا ، لو هربنا من الأرض ، فهم في قبضة الله ﷻ .

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ﴾ [الجن: ١٣ - ١٤]، **أَيْ: الظَّالِمُونَ؛ يُقَالُ: أَقْسَطَ إِذَا عَدَلَ، وَقَسَطَ إِذَا جَارَ وَظَلَمَ،** [١] ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن: ١٤ - ٢٤]. [٢].

الشرح:

[١] أعلنوا إسلامهم، هؤلاء النفر من الجن أعلنوا إسلامهم، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ [الجن: ١٣]، فهذا يدل على أن الجن منهم مسلمون، ومنهم مؤمنون، ومنهم أتقياء، ومنهم أشقياء، ومنهم فجرة، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ﴾؛ أي: الكفرة؛ من (قسط)؛ أي: جار وظلم، أما (أقسط)، فمعناه: عدل، (أقسط) اسم الفاعل منه (مقسط)، و(قسط) بمعنى جار، اسم الفاعل منه (قاسط)، ﴿وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ﴾؛ أي: الكفرة والفجرة.

الثلاثي (قسط) معناه: الجور، الرباعي (أقسط) معناه: العدل.

[٢] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦]، قال الله ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أي: الخلق، ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾؛ أي: على الدين الصحيح، ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ مطرًا هنيئًا مريئًا، وإنما يحبس عنهم المطر بسبب كفرهم وذنوبهم، ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]، وقيل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، أي: طريقة الكفر، ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، من باب الاستدراج، والله يعطي الكافر النعم مع أنه كافر؛ لأجل أن يستدرجه.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾، المساجد تبنى لعبادة الله ﷻ، وإقام الصلاة: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، هذا الذي تبنى من أجله المساجد؛ لعبادة الله ﷻ، وإقام الصلاة، وذكر الله ﷻ، أما أن تبنى المساجد للشرك وعلى القبور وعلى الأضرحة، فهذه ليست مساجد، هذه مشاهد، هذه تسمى بالمشاهد، ليست مساجد؛ لأنها مبنية على الشرك وعبادة غير الله ﷻ، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، لا تستغيثوا بأحد غير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه غير الله، فالاستغاثة نوع من أنواع العبادة، لاتكون إلا لله فيما لا يقدر عليه المخلوق.

أما ما يقدر عليه المخلوق، فيجوز أن تستغيث بأخيك، بقبيلتك أن يعينوك، ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، هذا فيما يقدر عليه.

فالذين لم يطهروا المساجد من الشرك والبدع هؤلاء خالفوا ما شرعه الله ﷻ، الله شرع بناء المساجد للتوحيد وذكر الله ﷻ وإقام الصلاة، أما الذين يعمرونها بالاستغاثة بالمخلوقين ونداء المخلوقين والشرك والبدع والمحدثات، فهؤلاء دنسوا المساجد، وصرفوها عما هيئت له، فيجب أن تصان المساجد من أنواع الشرك ومن البدع ومن المحدثات، وأن تفرغ للصلاة وتلاوة القرآن وتعليم العلم النافع، هكذا تكون المساجد عند المسلمين.

إلا أن القبوريين أبوا إلا أن يجعلوها بيوت أوثان ومعابد شرك -والعياذ بالله-، ويسمونها مساجد.

ولما قام عبد الله أي محمد ﷺ، ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، ولا يدعو غيره، كانوا يدعون غير الله، معتادين على هذا، فلما قام رسول الله ﷺ يدعو الله وحده، تعجبوا من ذلك، تجمعوا عليه، استغربوا، ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾، فدل على أن دعاء غير الله شرك.

وهذا يدمغ الغلو بالرسول ﷺ واعتقاد أنه ينفع ويضر من دون الله، ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، الرسول لا يملك النفع والضر، الذي يملك ذلك هو الله ﷻ، فهو الذي يطلب منه النفع، ويستعاذ به من الضر، أما الرسول، إنما هو عبد ومبلغ عن الله ﷻ، فالغلو في حقه واعتقاد أنه يملك النفع والضر هذا شرك بالله ﷻ، فالذين يستغيثون بالرسول ﷺ، ويدعونه - خصوصًا في هذه الأيام التي يسمونها أيام المولد بزعمهم -، يحصل منهم

الشرك والاستغاثات والشكاوى للرسول ﷺ، ولا يرفعون أيديهم إلى الله يشتكون إلى الله، ويدعون الله، إنما يدعون الرسول ﷺ.

ويقولون: إنه يحضر الحفلات، وإنه يسمع دعاءنا. كل هذا من شياطين الإنس والجن، الرسول ﷺ بلغ رسالة ربه، وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل بعده؛ كتاب الله وسنته ﷺ، وبلغ البلاغ المبين، وليس له من الأمر شيء، قال الله ﷻ له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فلماذا هذا العمل القبيح في هذه الأيام؟!

يسمونه مناسبة المولد، وعيد المولد، ثم لا يعرفون الرسول ﷺ إلا في هذه الأيام، الرسول يعرف كل يوم خمس مرات على رؤوس المناير؛ أشهد أن محمدًا رسول الله، كل يوم خمس مرات على رؤوس المناير يعلى صوت بعدما يشهد ألا إله إلا الله يشهد أن محمدًا رسول الله؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]، فلا يذكر الله إلا ويذكر معه الرسول ﷺ: في الأذان، والإقامة، والخطب، هذا رفع ذكره ﷺ.

إلا أنه لا يعرف ذكر الرسول إلا في هذه الأيام، هذه بدعة ظاهرة، بعضهم يقول: إنه يكفينا ما دام أقمنا المولد، يكفينا ندخل الجنة بهذا، ولو لم نعمل شيئًا.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾ [الجن: ٢١]، أعلن وصرح، أمره الله بذلك أنه يملك لأحد ضرًا ولا رشدًا، إنما يملك البلاغ والبيان، وقد بين ﷺ، بل هو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ﷻ، ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي

مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: ٢٢]، لو أراده الله بنقمة، ما أحد يمنع الله أن يعاقب عبده أبدًا، لا رسول ولا غير رسول.

إذا أراد الله الانتقام من عبد، فلن يجيره أحد، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]؛ يعني: الرسول ﷺ، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٥-٤٦]؛ يعني: لقتلناه شر قتلة، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة: ٤٧]، ما أحد يمنع الله ﷻ إذا أراد عقوبة عبد أن يمنع العقوبة عنه.

هذا الذي يملك الرسول ﷺ، ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢١-٢٣]، هذا الذي يملكه الرسول ﷺ وقد بلغ البلاغ المبين.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾، فالمشرك والكافر له النار خالد مخلد فيها، وأما العاصي الذي معصيته دون الشرك، فهذا تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذبه في النار، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه في النار، ولا يخلده فيها، بل يخرج من النار، ومآله إلى الجنة، فالآية هذه مجملة، تبينها الأدلة الأخرى، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، فهذه من آيات الوعيد، لا تدل على أن كل معصية كفر مخرج من الملة كما تقوله الخوارج.

فهذا من مجملات القرآن التي يرجع فيها، أو من المتشابه التي يرجع فيها إلى المحكم، يفسرها الآيات الأخرى.

حتى إذا رأى الكفار والمشركون ما يوعدون من العذاب، فسيعلمون

حينذاك من أضعف ناصرًا هل هو الرسول ﷺ أو هم، وأقل عددًا، الرسول ﷺ معه الله ﷻ وملائكته وعباده المؤمنون، أما هؤلاء، فليس معهم إلا الشياطين، ليس معهم أحد يعينهم وينصرهم.

ثُمَّ لَمَّا سَمِعَتْ الْجِنُّ الْقُرْآنَ أَتَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، وَهُمْ جِنُّ نُصَيْبِينَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحِ»(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَرُوِيَ «أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ إِذَا قَالَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، **قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»(٢) [١].**

الشرح:

[١] يعني في أرض العراق، جاءوا وسمعوا الرسول ﷺ، وهو يصلي بأصحابه ويقرأ القرآن في وادي نخلة بين مكة والطائف، لما انصرف من الطائف، وأهانوه وسخروا منه ﷺ، وفي رجوعه إلى مكة أدركتهم صلاة الفجر، وهم في وادي نخلة، فصلى بهم الفجر، وقرأ القرآن، فسمعت الجن هذا القرآن الذي لم يسمعوه من قبل، ولم ينزل مثله إلا على موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، فذهبوا، وبلغوا قومهم، فأسلموا، وجاءوا يبايعون النبي ﷺ على الإسلام؛ لأن النبي ﷺ مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس.

قال ﷺ للجن أحسن ردًا منكم -يعني: الإنس- إذا سمعوا قول الله ﷻ: **﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، «قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ».**

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٤٥٠)، ورواه البخاري مختصرًا (٨٣٥٩)، و(٢٨٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، وقال غريب، والحاكم (٣/ ٤٧٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٣٢)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٧٢).

وَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ، سَأَلُوهُ الزَّادَ لَهُمْ وَلِدَوَابِّهِمْ، فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفًا لِدَوَابِّكُمْ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا زَادٌ لِإِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ»(١). [١] وَهَذَا النَّهْيُ ثَابِتٌ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَبِذَلِكَ احْتَجَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الِاسْتِنْجَاءِ بِذَلِكَ، وَقَالُوا: فَإِذَا مُنِعَ مِنَ الِاسْتِنْجَاءِ بِمَا لِلْجِنِّ وَلِدَوَابِّهِمْ، فَمَا أُعِدَّ لِلْإِنْسِ وَلِدَوَابِّهِمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالْعَلَفِ أَوْلَى وَأَحْرَى. [٢].

الشرح:

[١] ولذلك نهى النبي ﷺ عن الاستجمار بالعظم والروث؛ لأن العظم طعام المسلمين من الجن يكسوه الله لحمًا، والروث يجعله الله علفًا، يرده الله علفًا لدوابهم.

[٢] إذًا هذا يدل على أنه لا يستجمر بالطعام، ولا بعلف دواب الإنس، العلف الذي يقدم للدواب لا يجوز لأحد أن يبول عليه أو أن يستجمر، وكذلك طعام الآدميين لا يجوز لأحد أن يستجمر به.

---

(١) هو جزء من حديث ابن مسعود ﷺ السابق.

وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُرْسِلَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كَوْنِ الْجِنِّ سُخِّرُوا لِسُلَيْمَانَ عليه السلام؛ [١] فَإِنَّهُمْ سُخِّرُوا لَهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ [٢].

الشرح:

[١] سليمان عليه السلام سخرت له الجن تعمل له ما يريد؛ لأن الله أعطاه ملكًا لا يعطيه أحدًا غيره، من ذلك أنه سخر له العفاريت والجن يعملون، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢] سخرها الله لسليمان تقوم بالعمران، فتغوص في البحار، وتأتي بالأشياء المطلوبة، ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، يبنون له ويغوصون في البحار، ويأتون بالأشياء المطلوبة لسليمان عليه السلام بتسخير الله.

هذه ما حصلت للأنبياء إلا نبينا محمد ﷺ، فإنه أعطي أكثر مما أعطي سليمان عليه السلام، فإن الله بعثه إلى الجن والإنس بشيرًا ونذيرًا، فرسالته عامة.

[٢] سليمان عليه السلام نبي وملك مثل أبيه داود عليه السلام، مثل يوسف عليه السلام نبي وملك، أما نبينا ﷺ، فهو نبي، وليس بملك.

لِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَمَنْزِلَةُ الْعَبْدِ الرَّسُولِ فَوْقَ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ الْمَلِكِ. [١].

وَكُفَّارُ الْجِنِّ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا مُؤْمِنُوهُمْ فَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، [٢] وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنْ الْإِنْسِ [٣] وَلَمْ يُبْعَثْ مِنْ الْجِنِّ رَسُولٌ. لَكِنْ مِنْهُمْ النُّذُرُ(١)، [٤].

الشرح:

[١] خير الرسول ﷺ بين أن يكون نبيًا ملكًا وبين أن يكون نبيًا وليس بملك، فاختار أن يكون نبيًا، وليس ملك.

[٢] الجن مثل الإنس في الجزاء يوم القيامة، يدخلون النار، واختلف العلماء: هل الصالحون منهم يدخلون الجنة؟ والظاهر - والله أعلم - أنهم يدخلون الجنة مثل الإنس.

[٣] الرسل يكونون من الإنس، ولا يكونون من الجن، ويكونون أيضًا من الذكور، لا من الإناث من الإنس.

[٤] النذر: المبلغون، ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ أي: مبلغين ومنذرين لهم من البقاء على الكفر والشرك، فهم مبلغون عن الرسل من الإنس، وليس منهم رسول.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٨)، وشرح الطحاوية (١٦٦).

وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ(١).

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْجِنَّ مَعَ الْإِنْسِ عَلَى أَحْوَالٍ:

فَمَنْ كَانَ مِنَ الْإِنْسِ يَأْمُرُ الْجِنَّ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَطَاعَةِ نَبِيِّهِ وَيَأْمُرُ الْإِنْسَ بِذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مِنْ خُلَفَاءِ الرَّسُولِ ﷺ وَنُوَّابِهِ. [١].

الشرح:

[١] كمحمد ﷺ؛ فإنه يأمر الإنس والجن بما أمره الله به من عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

وقصد الشيخ من هذا الرد على الذين تخدمهم الجن، ويقولون: هذه كرامة من الله. وقد سبق لكم أن هذا ليس كرامة من الله، هذا غرور - والعياذ بالله -، وإنما الذي يأمرهم بطاعة الله ويدعوهم إلى الله هذا من الصالحين، أما الذي يستخدمهم في المحرمات وفي السحر وفي غير ذلك، وفي الأمور التي حرمها الله، فهذا استخدام محرم.

---

(١) انظر: كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص٢٧١).

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ، فَهُوَ كَمَنْ اسْتَعْمَلَ الْإِنْسَ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَهُ، وَهَذَا كَأَنْ يَأْمُرَهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَعْمِلُهُمْ فِي مُبَاحَاتٍ لَهُ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ. [١].

هَذَا إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ فِي عُمُومِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، مِثْلِ: النَّبِيِّ الْمَلِكِ مَعَ الْعَبْدِ الرَّسُولِ؛ كَسُلَيْمَانَ وَيُوسُفَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. [٢].

الشرح:

[١] هذا ما أدري، فتح الباب للإنس أنهم يستخدمون الجن في المباحات، هذا ما ينبغي فتحه للناس؛ لأن هناك من يدعي هذا، فالأحسن أن الإنسان يترك الجن، ولا يستخدمهم في شيء، يستعين بالله ﷻ، ويستعين بإخوانه من الإنس فيما أباحه الله.

[٢] قصد الشيخ من هذا الرد على الذين يستخدمون الجن في السحر وغيره والكهانة، ويدعون أن هذه كرامة، وأنهم من أولياء الله، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان، وليسوا من أولياء الله.

وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِيمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ، إِمَّا فِي الشِّرْكِ، وَإِمَّا فِي قَتْلِ مَعْصُومِ الدَّمِ، أَوْ فِي الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ الْقَتْلِ، كَتَمْرِيضِهِ وَإِنْسَائِهِ الْعِلْمَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ، وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ كَجَلْبِ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُ الْفَاحِشَةُ، فَهَذَا قَدْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ إِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي فَهُوَ عَاصٍ؛ إِمَّا فَاسِقٌ وَإِمَّا مُذْنِبٌ غَيْرُ فَاسِقٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَامَّ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ [١] فَاسْتَعَانَ بِهِمْ فِيمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنَ الْكَرَامَاتِ: مِثْلُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى الْحَجِّ، أَوْ أَنْ يَطِيرُوا بِهِ عِنْدَ السَّمَاعِ الْبِدْعِيِّ، [٢].

الشرح:

[١] تأمل هذا القيد، تام العلم بالشريعة، هذا يستعين بهم في المباحات، يشترط أن يكون تام العلم بالشريعة، أما الجاهل، فلا يفتح له الباب في هذا.

[٢] السماع البدعي يعني: الغناء الذي عند الصوفية؛ يجتمعون، ويغنون، ويدفون بالدفوف، ثم تطرأ عليهم أحوال؛ يطيرون، ويقولون: هذه كرامات. وهي أعمال شيطانية، الذي طار بهم الشياطين، ما هم الذين طاروا، لكن الشياطين حملتهم لتغريهم.

أَوْ أَنْ يَحْمِلُوهُ إِلَى عَرَفَاتٍ وَلَا يَحُجُّ الْحَجَّ الشَّرْعِيَّ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ يَحْمِلُوهُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مَغْرُورٌ قَدْ مَكَرُوا بِهِ. [١].

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْجِنِّ، بَلْ قَدْ سَمِعَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَهُمْ كَرَامَاتٌ وَخَوَارِقُ لِلْعَادَاتِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ التَّلْبِيسَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَيَمْكُرُونَ بِهِ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ، فَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَالْأَوْثَانَ أَوْهَمُوهُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ، وَيَكُونُ قَصْدُهُ الِاسْتِشْفَاعَ وَالتَّوَسُّلَ مِمَّنْ صَوَّرَ ذَلِكَ الصَّنَمَ عَلَى صُورَتِهِ مِنْ مَلَكٍ أَوْ نَبِيٍّ أَوْ شَيْخٍ صَالِحٍ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ صَالِحٌ، وَتَكُونُ عِبَادَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلشَّيْطَانِ.

الشرح:

[١] لا يجوز هذا، لا يجوز أن يستخدمهم في عبادات، وأنهم يذهبون به إلى مكة أو إلى المدينة أو إلى بيت المقدس، لا يجوز هذا، لا يجوز أن يستعملهم في العبادات، إنما في المباحات إذا كان تام العلم. وهذا الذي ليس تام العلم، يقع في هذا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. [١].

وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ يَقْصِدُونَ السُّجُودَ لَهَا، فَيُقَارِنُهَا الشَّيْطَانُ عِنْدَ سُجُودِهِمْ؛ لِيَكُونَ سُجُودُهُمْ لَهُ، وَلِهَذَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

فَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَاسْتَغَاثَ بجرجس أَوْ غَيْرِهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ جرجس أَوْ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُنْتَسِبًا إِلَى الْإِسْلَامِ وَاسْتَغَاثَ بِشَيْخٍ يَحْسُنُ الظَّنُّ بِهِ مِنْ شُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْهِنْدِ جَاءَ فِي صُورَةِ مَنْ يُعَظِّمُهُ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ.

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ الْمُسْتَغَاثَ بِهِ إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِالشَّرِيعَةِ لَمْ يَعْرِفْهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ تَمَثَّلَ لِأَصْحَابِهِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ نَقَلَ أَقْوَالَهُمْ لَهُ، فَيَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّ الشَّيْخَ سَمِعَ أَصْوَاتَهُمْ مِنَ الْبُعْدِ وَأَجَابَهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوَسُّطِ الشَّيْطَانِ.

وَلَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ الشُّيُوخِ الَّذِينَ كَانَ قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هَذَا بِصُورَةِ مُكَاشَفَةٍ وَمُخَاطَبَةٍ، فَقَالَ: يَرَوْنَنِي الْجِنُّ شَيْئًا بَرَّاقًا مِثْلَ الْمَاءِ وَالزُّجَاجِ، وَيُمَثِّلُونَ لَهُ فِيهِ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْإِخْبَارُ بِهِ، قَالَ: فَأُخْبِرُ النَّاسَ بِهِ وَيُوصِلُونَ إِلَيَّ كَلَامَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِي مِنْ أَصْحَابِي فَأُجِيبُهُ، فَيُوصِلُونَ جَوَابِي إِلَيْهِ.
وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْخَوَارِقِ إِذَا كَذَّبَ

بِهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا وَقَالَ: إِنَّكُمْ تفْعَلُونَ هَذَا بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ كَمَا يَدْخُلُ النَّارَ بِحَجْرِ الطَّلْقِ(١)، وَقُشُورِ النَّارِنْجِ(٢)، وَدَهْنِ الضَّفَادِعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْحِيَلِ الطَّبِيعِيَّةِ.

فَيَعْجَبُ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخُ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ وَاَللَّهِ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحِيَلِ. فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُمْ الْخَبِيرُ إنَّكُمْ لَصَادِقُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ شَيْطَانِيَّةٌ، أَقَرُّوا بِذَلِكَ وَتَابَ مِنْهُمْ مَنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ وُجُوهٍ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ، وَرَأَوْا أَنَّهَا مِنْ الشَّيَاطِينِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثْلِ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ فِي الشَّرْعِ وَعِنْدَ الْمَعَاصِي لِلَّهِ، فَلَا تَحْصُلُ عِنْدَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا حِينَئِذٍ مِنْ مخارق الشَّيْطَانِ لِأَوْلِيَائِهِ، لَا مِنْ كَرَامَاتِ الرَّحْمَنِ لِأَوْلِيَائِهِ. [٢].

وَاَللَّهُ ﷻ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَخُلَفَائِهِ، صَلَاةً وَسَلَامًا نَسْتَوْجِبُ بِهِمَا شَفَاعَتَهُ، آمِينَ.

---

(١) قال في المعجم الوسيط (ص٥٦٣): (حجر براق شفاف ذو أطباق، يتشظى إذا دق صفائح، ويطحن فيكون مسحوقًا أبيض، يذر على الجسم فيكسبه بردًا ونعومة...).

(٢) قال في المعجم الوسيط (ص٩١٣): (شجرة مثمرة، دائمة الخضرة، تسمو بضعة أمتار، أوراقها جلدية خضر لامعة، لها رائحة عطرية، وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر في الربيع، والثمرة عصارتها حمضية مرة، وتستعمل أزهارها في صنع زيت طيار يستعمل في العطور....).

الشرح:

[١] فكل مشرك سواء كان عبد الحجر أو الشجر أو الأصنام، فإنه إنما يعبد الشيطان؛ لأنه هو الذي أمره بذلك، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾؛ يعني: الشياطين، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

[٢] الكرامات إنما تحصل عند ما يحبه الله ورسوله من الطاعات والعبادات، وأما خوارق الشيطان، عندما يبغضه الله ورسوله من الشرك، هذا الفارق بين الكرامة وخارق الشيطان.

تم بحمد الله

ثبت المراجع

١- أبجد العلوم. صديق حسن خان القنوجي. دار الكتب العلمية. ١٩٨٧م.

٢- الإبانة. أبو الحسن الأشعري. تحقيق د فوقية حسين. دار الأنصار - القاهرة ١٣٩٧هـ

٣- الأحاديث المختارة. الضياء المقدسي. مكتبة النهضة الحديثة ١٤١٠هـ.

٤- أحكام القرآن. أبو بكر الجصاص. دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ.

٥- الآداب الشرعية. ابن مفلح. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٦هـ.

٦- الإستقامة. ابن تيمية. تحقيق د/ محمد رشاد سالم. جامعة الإمام. السعودية ١٤٠٣هـ.

٧- أسد الغابة. ابن الأثير. جمعية المعارف ١٣٨٠هـ.

٨- الأسماء والصفات. البيهقي. مكتبة السوادي، جده ١٤١٣هـ.

٩- الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر. دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ.

١٠- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن. محمد الأمين الشنقيطي. دار الفكر ١٤١٥هـ.

١١- الاعتصام. الشاطبي. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.

١٢- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. البيهقي. دار الآفاق الجديدة ١٤٠١هـ.

١٣- اعتقادات فرق المسلمين. محمد بن عمر بن الحسين. دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ.

١٤- إعلام الموقعين. ابن القيم. دار الجيل بيروت ١٩٧٣م

١٥- الأعلام. لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.

١٦- إغاثة اللهفان. ابن القيم. دار المعرفة بيروت ١٣٩٥هـ.

١٧- آكام المرجان في أحكام الجان. الشبلي. مكتبة القرآن، القاهرة.

١٨- التحفة العراقية. ابن تيمية. دار زمزم، الرياض ١٤١٤هـ.

١٩- المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم. مكتبة النهضة.

٢٠- الأنس الجليل. مجير الدين الحنبلي، مكتبة دنديس - عمان ١٤٢٠هـ.

٢١- الأنساب. عبد الكريم بن محمد السمعاني. دار الفكر. ١٩٩٨م.

٢٢- الأولياء. ابن أبي الدنيا. جمعية النشر والتأليف بالأزهر، الطبعة الأولى.

٢٣- البداية والنهاية. ابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت.

٢٤- بيان تلبيس الجهمية. ابن تيمية، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. مطبعة الحكومة، مكة، ١٣٩٢هـ.

٢٥- تاريخ الإسلام. شمس الدين الذهبي. دار الكتاب العربي ١٤٠٩هـ.

٢٦- تاريخ الخلفاء. السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ.

٢٧- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨- تاريخ دمشق. ابن عساكر. تحقيق: عمر بن غرامة العمري. دار الفكر، ١٩٩٥م.

٢٩- تاريخ واسط. أسلم بن سهل الواسطي، تحقيق: كوركيس عواد. عالم الكتب، ١٤٠٦هـ.

٣٠- تبيين كذب المفتري. ابن عساكر. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣١- تحريم آلات الطرب. الألباني. دار الصديق، الجبيل، السعودية، ١٤٢٠هـ.

٣٢- تخريج أحاديث الإحياء. الحافظ العراقي. دار طبرية.

٣٣- تدريب الراوي. السيوطي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. مكتبة الرياض الحديثة.

٣٤- تذكرة الحفاظ. الذهبي. دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥- *ترجمة الشيخ عبد الرزاق عفيفي. وليد منيسي. دار الفضيلة، الرياض.*

٣٦- التعاريف. محمد عبد الرؤوف المناوي. دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ.

٣٧- التعرف لمذهب أهل التصوف. محمد الكلاباذي. دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ

٣٨- التعريفات. علي بن محمد الجرجاني. دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٣٩- تفسير ابن كثير. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٤٠- تفسير البغوي. الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وآخرون. دار طيبة، الرياض، ١٤١٧هـ.

٤١- تفسير الطبري. ابن جرير الطبري. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤٢- تفسير القرطبي. محمد بن أحمد الأنصاري. دار الشعب، القاهرة.

٤٣- تلبيس إبليس. ابن الجوزي، تحقيق: د. السيد الجميلي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٤٤- التمهيد لشرح كتاب التوحيد. صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. دار التوحيد ١٤٢٣هـ.

٤٥- التمهيد. ابن عبد البر. وزارة عموم الأوقاف، المغرب. ١٣٨٧هـ.

٤٦- تهذيب التهذيب. ابن حجر. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٤٧- تهذيب السنن. لابن القيم. دار المعرفة بيروت. مع معالم السنن للخطابي.

٤٨- تهذيب الكمال. المزي، تحقيق: بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٤٩- التوضيحات الحسان. ياسر برهامي. دار الخلفاء الراشدين، الأسكندرية ١٤٢٦هـ.

٥٠- تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد. سليمان بن عبدالله. مكتبة الرياض الحديثة.

٥١- تيسير الكريم الرحمن. ابن سعدي. تحقيق الشيخ ابن عثيمين. مؤسسة الرسالة ١٤٢١هـ.

٥٢- الثقات. ابن حبان. تحقيق السيد شرف الدين، دار الفكر، ١٣٩٥هـ.

٥٣- جامع العلوم والحكم. ابن رجب. مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ.

٥٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. الخطيب البغدادي. تحقيق: د. محمود طحان. مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ

٥٥- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ابن تيمية. تحقيق: على سيد صبح، مطبعة المدني، مصر.

٥٦- حلية الأولياء. أبو نعيم الأصبهاني. دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٥٧- دائرة المعارف. بطرس البستاني. مطبعة المعارف، بيروت.

٥٨- الدر المنثور. السيوطي. دار الفكر، ١٩٩٣م.

٥٩- درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. دار الكنوز الأدبية، ١٣٩١هـ.

٦٠- الدرر السنية في الأجوبة النجدية لعلماء نجد الأعلام. جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم. ١٤٢٠هـ.

٦١- دلائل النبوة. أبو نعيم. عالم الكتب، بيروت.

٦٢- دلائل النبوة. البيهقي. المكتبة السلفية، المدينة.

٦٣- دلائل النبوة. الفريابي. تحقيق: عامر حسن. دار حراء، مكة، ١٤٠٦هـ.

٦٤- ديوان ابن الفارض. مصطفى البابي ١٣٧٢هـ

٦٥- الرد على الزنادقة والجهمية. الإمام أحمد. المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٩٣هـ

٦٦- الرد على القائلين بوحدة الوجود. علي القاري. دار المأمون للتراث١٤١٥, هـ.

٦٧- الرد على المنطقيين. ابن تيمية. دار المعرفة، بيروت.

٦٨- الرسالة القشيرية. أبو القاسم القشيري. دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٦٩- الروح. ابن القيم. دار الكتب العلمية. ١٣٩٥هـ.

٧٠- روضة الناظر. ابن قدامة. تحقيق: عبد العزيز السعيد. جامعة الإمام ١٣٩٩هـ.

٧١- زاد المسير. ابن الجوزي. المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

٧٢- الزهد. أحمد ابن حنبل. دار الريان للتراث. ١٤٠٨هـ.

٧٣- الزهد. عبد الله بن المبارك. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية.

٧٤- السلسلة الضعيفة. الألباني. مكتبة المعارف. الرياض، ١٤٢٠هـ.

٧٥- السنة. ابن أبي عاصم. تحقيق: الألباني. المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.

٧٦- السنة. عبد الله بن أحمد. تحقيق: د. محمد سعيد القحطاني. دار ابن القيم، الدمام، ١٤٠٦هـ.

٧٧- سنن ابن ماجه. دار الفكر، بيروت.

٧٨- سنن أبي داود. دار الفكر، بيروت.

٧٩- سنن البيهقي الكبرى. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا. مكتبة دار الباز ١٤١٤هـ.

٨٠- سنن الترمذي. تحقيق: أحمد شاكر. دار إحياء التراث، بيروت.

٨١- سنن النسائي. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات، حلب ١٤٠٦هـ.

٨٢- سير أعلام النبلاء. الذهبي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ.

٨٣- شذرات الذهب. عبد الحي بن أحمد، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. دار ابن كثير ١٤٠٦هـ.

٨٤- شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي. تحقيق: د/ أحمد الغامدي. دار طيبة، ١٤١٥هـ.

٨٥- شرح الأصول من علم الأصول. ابن عثيمين. دار البصيرة، مصر.

٨٦- شرح السنة. الحسين بن مسعود البغوي. المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ.

٨٧- شرح العقيدة الطحاوية. ابن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ.

٨٨- شرح النووي على مسلم. دار إحياء التراث، ١٣٩٢هـ.

٨٩- شرح الورقات في أصول الفقه. سعد الشثري. دار كنوز إشبيليا، ١٤٢٥هـ.

٩٠- شرح قصيدة ابن القيم. أحمد بن عيسى. تحقيق: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي، ١٤٠٦ هـ.

٩١- شعب الإيمان. البيهقي. تحقيق: محمد السعيد زغلول. دار الكتب العلمية ١٤٠١هـ.

٩٢- شفاء العليل. ابن القيم. دار الفكر بيروت، ١٣٩٨هـ.

٩٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشا. أحمد علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طويل. دار الفكر.

٩٤- صحيح ابن حبان. أبو حاتم البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ.

٩٥- صحيح ابن خزيمة. محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: د. محمد الأعظمي. المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ.

٩٦- صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري. بيت الأفكار الدولية.

٩٧- صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج النيسابوري. بيت الأفكار الدولية.

٩٨- صفة الصفوة. ابن الجوزي. دار المعرفة بيروت، ١٣٩٩هـ.

٩٩- طبقات الحنابلة. محمد بن أبي يعلى. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار المعرفة، بيروت.

١٠٠- طبقات الشافعية الكبرى. السبكي. تحقيق: د. محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو. دار هجر ١٤١٣هـ.

١٠١- طبقات الشافعية. أبو بكر بن أحمد. تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان. عالم الكتب ١٤٠٧هـ.

١٠٢- طبقات الصوفية. محمد بن الحسين. دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

١٠٣- طبقات الفقهاء. أبو إسحاق الشيرازي. دار القلم، بيروت.

١٠٤- العبر في خبر من غبر. الذهبي، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤هـ.

١٠٥- عقيدة الفرقة الناجية. الإمام محمد بن عبد الوهاب. المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ.

١٠٦- غريب الحديث. ابن الجوزي. تحقيق: عبد المعطي أمين. دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

١٠٧- فتاوى اللجنة الدائمة. مكتبة العبيكان.

١٠٨- فتاوى مهمة لعموم الأمة. ابن باز. دار العاصمة، ١٤١٣هـ.

١٠٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر. دار المعرفة، بيروت.

١١٠- فتح القدير. الشوكاني. دار الفكر، بيروت.

١١١- فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. توزيع رئاسة الإفتاء، السعودية.

١١٢- فتح المغيث. السخاوي. دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

١١٣- الفتوحات المكية. ابن عربي. دار الكتب العربية.

١١٤- الفردوس بمأثور الخطاب. الديلمي، تحقيق: السعيد زغلول. دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ.

١١٥- الفرق بين الفرق. عبد القاهر بن طاهر البغدادي. دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م.

١١٦- فصوص الحكم. ابن عربي. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥هـ.

١١٧- فضائح الباطنية. أبو حامد الغزالي. مؤسسة دار الكتب.

١١٨- فضائل الصحابة. الإمام أحمد، تحقيق: وصي الله محمد عباس. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ.

١١٩- فوات الوفيات. محمد بن شاكر الكتبي. دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

١٢٠- القول المفيد في حكم الأناشيد. عصام عبد المنعم المري. دار الفرقان، عجمان.

١٢١- الكامل في التاريخ. أبو الحسن الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

١٢٢- كرامات الأولياء. اللالكائي. تحقيق: أحمد الغامدي. دار طيبة.

١٢٣- كشف الخفاء. إسماعيل بن محمد العجلوني. مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.

١٢٤- كشف الظنون. مصطفى بن عبدالله القسطنطيني. دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ

١٢٥- لسان العرب. ابن منظور. دار صادر، بيروت.

١٢٦- لسان الميزان. ابن حجر. مؤسسة الأعلمي ١٤٠٦هـ.

١٢٧- لطائف الأسرار. ابن عربي. دار الفكر العربي.

١٢٨- المبسوط. السرخسي. دار المعرفة، بيروت.

١٢٩- المجروحين. ابن حبان. تحقيق: محمد إبراهيم زايد. دار الوعي حلب ١٣٩٦هـ

١٣٠- مجمع الزوائد. الهيثمي. دار الريان للتراث، القاهرة.

١٣١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام. جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم. طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف.

١٣٢- مجموع مؤلفات الإمام المجدد. توزيع دار الإفتاء، السعودية.

١٣٣- مختار الصحاح. الرازي، تحقيق: محمود خاطر. مكتبة لبنان، ١٤١٥هـ.

١٣٤- المدخل. ابن بدران، تحقيق: د. عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

١٣٥- المدونة الكبرى. الإمام مالك. دار صادر، بيروت.

١٣٦- مرآة الجنان. عبد الله بن أسعد اليافعي. دار الكتاب الإسلامي ١٤١٣هـ.

١٣٧- مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله. المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ.

١٣٨- مسند أبي داود الطيالسي. دار المعرفة، بيروت.

١٣٩- مسند أبي يعلى. دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ.

١٤٠- مسند أحمد. المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

١٤١- مسند البزار. مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٩هـ.

١٤٢- مسند الشهاب. أبو عبد الله القضاعي. مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ.

١٤٣- مسند عبد ابن حميد. مكتبة السنة، القاهرة ١٤٠٨هـ.

١٤٤- المصباح المنير. الفيومي. المكتبة العلمية، بيروت.

١٤٥- مصرع التصوف. برهان الدين البقاعي. دار الباز، مكة. ١٤٠٠هـ.

١٤٦- مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ.

١٤٧- مصنف عبد الرزاق. تحقيق: حبيب الأعظمي. المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ.

١٤٨- معجم الأدباء. ياقوت الحموي. دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ.

١٤٩- المعجم الأوسط. الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله. دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٥٠- المعجم الكبير. الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد. مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ.

١٥١- المعجم الوسيط. مجموعة من العلماء. دار الدعوة، استانبول.

١٥٢- معجم مقاييس اللغة. ابن فارس. دار إحياء التراث العربي ١٤٢٢هـ.

١٥٣- المغني عن حمل الأسفار. الحافظ العراقي. دار طبرية.

١٥٤- مفتاح غيب الجمع والوجود. الصدر القونوي. مخطوط. جامعة الملك سعود.

١٥٥- مقالات الإسلاميين. أبو الحسن الأشعري. دار إحياء التراث، بيروت.

١٥٦- الملل والنحل. الشهرستاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة، ١٤٠٤هـ.

١٥٧- المنار المنيف. ابن القيم. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات، حلب، ١٤٠٣هـ.

١٥٨- المنتظم. ابن الجوزي. دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٥٩- منهاج السنة. ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم. مؤسسة قرطبة ١٤٠٦هـ.

١٦٠- المهذب. أبو إسحاق الشيرازي. دار الفكر.

١٦١- المواقف. عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، ١٤١٧هـ.

١٦٢- الموضوعات. ابن الجوزي. الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ.

١٦٣- موطأ مالك. دار إحياء التراث، مصر.

١٦٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال. الذهبي. دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

١٦٥- النبوات. ابن تيمية. المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

١٦٦- النجوم الزاهرة. ابن تغري بردي. وزارة الثقافة، مصر.

١٦٧- نزهة الأسماع في مسألة السماع. ابن رجب، تحقيق: د/ وليد الفريان. دار طيبة، ١٤٠٧هـ.

١٦٨- نقد المنقول. ابن القيم، تحقيق: حسن السماعي. دار القادري ١٤١١هـ.

١٦٩- النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير. تحقيق: طاهر أحمد الزواوي. المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ.

١٧٠- نوادر الأصول. الحكيم الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة. دار الجيل، ١٩٩٢م.

١٧١- الوافي بالوفيات. ابن أيبك. تحقيق: أحمد الأرناؤوط. دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ.

١٧٢- وفيات الأعيان. ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة، لبنان.

فهرس الموضوعات

تم بحمد الله الجزء الثاني، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات